النهضة الحسينية

دراسة وتحليل

السيد علي الحسيني الفرحي




بسم الله الرحمن الرحيم

النهضة الحسينية

دراسة وتحليل

السيد علي الحسيني

فرحی، علی، ۱۳۱۸
[بررسی و تحقیق پیرامون نهضت حسینی، عربی]
النهضة الحسينية دراسة و تحليل /علی الحسينی؛ — قم: مجمع جهانی اهل بیت (ع)، ۱۳۸۵.
۶۲۹ص.
ISBN 964-529-114-3
فهرست‌نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
کتابنامه به صورت زیرنویس.
۱. واقعه کربلا ۶۱ ق.. ۲. اسلام — تاریخ -- از آغاز تا ۴۱ ق.. ۳. حسین بن علی(ع)، امام سوم، ۴. - ۶۱ ق.. الف. عنوان. ب. عنوان: بررسی و تحقیق پیرامون نهضت حسینی، عربی، ج. مجمع جهانی اهل بیت(ع).
BP ۴۱ / ۵ / ۴۰۴۳ف۳۷ب ۲۹۷/۹۵۳۹
۱۳۸۵
کتابخانه ملی ایران
۸۵-۱۰۷۳۲م



اسم الكتاب: النهضة الحسينيّة

المؤلف: السيّد عليّ الحسيني الفرحي

الموضوع: الفكر السياسي الإسلامي

الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم‌السلام

الطبعة: الثانية

المطبعة: مجاب

الكمية: ٣٠٠٠

تاريخ النشر: ١٤٣١هـ

شابك: ٩٦٤-٥٢٩-١١٤-٣ ISBN: 964-529-114-3

www.ahl-ul-bayt.org

E-mail: info@ahl-ul-bayt.org

أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

إنما يريد الله

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

ويطهركم تطهيرا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام

في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين

كتاب الله وعترتي أهل بيتي

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً

« الصحاح والمسانيد »

كلمة المجمع

إنّ تراث أهل البيت عليهم السلام الّذي اختزنته مدرستهم وحفظه من الضياع أتباعهم يعبّر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلاميّة. وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربّي النفوس المستعدة للاغتراف من هذا المَعين، وتقدّم للأُمة الإسلاميّة كبار العلماء المحتذين لخُطى أهل البيت عليهم السلام الرسالية، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلاميّة وخارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة والحلول علىٰ مدى القرون المتتالية.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ منطلقاً من مسؤولياته التي أخذها علىٰ عاتقه ـ للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها التي ضبّب عليها أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوءة للإسلام، مقتفياً خطى أهل البيت عليهم السلام وأتباع مدرستهم الرشيدة التي حرصت في الرّد علىٰ التحديات المستمرة، وحاولت أن تبقى علىٰ الدوام في خطّ المواجهة وبالمستوى المطلوب في كلّ عصر.

إنّ التجارب التي تختزنها كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في هذا المضمار فريدة في نوعها؛ لأنها ذات رصيد علمي يحتكم إلىٰ العقل والبرهان ويتجنّب الهوى والتعصّب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكّرين من ذوي الاختصاص

خطاباً يستسيغه العقل وتتقبله الفطرة السليمة.

وقد حاول المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام أن يقدّم لطلّاب الحقيقة مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنيّة من خلال مجموعة من البحوث والمؤلفات التي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنتمين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، أو من الذين أنعم الله عليهم بالإلتحاق بهذه المدرسة الشريفة، فضلاً عن قيام المجمع بنشر وتحقيق ما يتوخى فيه الفائدة من مؤلفات علماء الشيعة الأعلام من القدامى أيضاً؛ لتكون هذه المؤلفات منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحق، لتنفتح علىٰ الحقائق التي تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر تتكامل فيه العقول وتتواصل النفوس والأرواح بشكل سريع وفريد.

ونتقدّم بالشكر الجزيل لسماحة السيّد عليّ الحسيني الفرحي لتأليفه هذا الكتاب، ولكلّ الإخوة الذين ساهموا في إخراجه.

وكلّنا أمل ورجاء بأن نكون قد قدّمنا ما استطعنا من جهدٍ أداءً لبعض ما علينا تجاه رسالة ربّنا العظيم الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره علىٰ الدّين كلّه وكفى بالله شهيداً.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاونية الثقافية

المقدّمة

الحمدلله ربّ العالمين، والصلوة والسلام على محمّد و آله الطاهرين
و صحبه المنتجبين، و لعنةالله على مَن عاداهم وخالفهم وآذاهم أجمعين.

مرّ على النهضة الحسينية المقدّسة أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن. وقد كُتبت طيلة هذه المدة المديدة كتب كثيرة حول هذه النهضة الدامية، ولكن المؤسف أنّه لم يتجاوز أكثر ما كتب عنها إطار ملحمة بطولية، أو قراءة تاريخية للفاجعة، أو استنطاقاً لجوانبها العرفانية، أو تعبيراً عمّا يدور حول هذه الواقعة دون التوغل في العوامل الواقعية، والنتائج الأساسية المترتبة عليها. والحقيقة المؤسفة هي: أن الأُمة الإسلامية، وحتى الشيعة منهم التي تدين بالولاء للإمام الحسين عليه السلام، لم تتعب نفسها في التحقيق المُعمّق في طوايا هذه النهضة المقدّسة التي تعدّ أهم قضية في التاريخ الإسلامي.

ويزداد أسفنا بملاحظة هذه الحقيقة، وهي أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام لها بُعد فقهي، يضاف إلى أبعادها السياسية، والاجتماعية، والإنسانية، والتاريخية، وهذا البعد الفقهي يتمثّل في تصريح الإمام عليه السلام بالجهاد كما جاء في قوله عليه السلام: «والجهاد في

سبيله...»[١]،الجهاد الذي يؤدي كما صرّح الإمام عليه السلام إلى الاستشهاد والقتل حتماً، وهو قوله عليه السلام : «... وأيم الله ليقتلونني...»[٢]، الجهاد الذي يعتبر منهجاً للمسلمين جميعاً، كما في قوله عليه السلام: «... ولكم فيّ أُسوةً حسنة...».[٣]

فمع وجود هذه التصريحات الثلاثة في كلمات الإمام الحسين عليه السلام، لابدّ من توضيح الظروف التي يجب فيها الجهاد في سبيل الله، برغم وثوق الشخص بأنّه سوف يقتل، ليكون أُسوةً وقدوةً للمسلمين.

وبشكل عام، ما هي المباديء التي اعتمدها الإمام الحسين عليه السلام، واعتمدها أبوه عليّ عليه السلام من قبله مع المنحرفين من المسلمين وحتى مع أدعياء القداسة؟ وما هي الأهداف المتوخاة من هذا الجهاد؟ وبأي شيء أو أشياء يتميز هذا الجهاد عن الجهاد مع المشركين؟

ومن جهة أُخرى، أنّنا نعلم ـ من خلال قراءة موضوعية للتاريخ ـ أنّ هدف الأمويين من التسبّب في فاجعة كربلاء لم يقتصر على قتل الإمام الحسين عليه السلام وعترة النبيّ صلى الله عليه وآله، بل الأهم من ذلك توجيه ضربة قاصمة للإسلام الحقيقي المتمثّل بتلك العترة الطاهرة، كما صرّح بذلك يزيد بن معاوية بن أبي سفيان حين ردّد قول الشاعر:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل
لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

وفي الوقت نفسه فقد جعل يزيد ومرتزقته الإسلام وسيلة لتحقيق مآرب الأُمويين، وحوّلوه إلى آلة لتنفيذ المقاصد السياسية للحكومات الفاسدة. ومن هنا لابدّ من التحقيق في أوضاع صدر الإسلام، لتتضح لنا العوامل التي أدّت إلىٰ أن يسير الواقع الإسلامي إلى هاوية السقوط والانهيار حتى يكون وسيلة بيد يزيد

---

١ و ٢ و ٣. راجع من هذا الكتاب.

وأمثاله، فيتحكموا في ظلّها بمقدّرات الناس ودمائهم وأعراضهم، وأن يؤدّي الأمر إلى فاجعة كربلاء الرهيبة، على أساس أنّ يزيد أميرالمؤمنين وأنّ الحسين خارج علىٰ الشرعية، معاد للإسلام!!

ومن العجيب...

ومن العجيب أن نرى معظم العلماء المسلمين ـ حتّى الشيعة ـ الذين سعوا لدراسة شتّى القضايا بدقة ـ قد غفلوا عن دراسة جذور وأسباب انحطاط الخلافة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام، وفي فترة قصيرة جداً، إبّان تسلّط بني أُمية على جميع مقدّرات الإسلام والمسلمين، وكذلك لم يدرسوا بعناية أسباب وآثار ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده، والتي تعتبر نتيجة لذلك الانحطاط الإجتماعي والحضاري للمسلمين، وحتّى أنهم لم يذكروا هذا البحث في أبحاث الجهاد، ولا في بحث الحكومة الإسلامية، مع أنّ الإمام الحسين عليه السلام أكد في أحاديثه وخطبه ورسائله على ضرورة جهاد المنحرفين والعمل علىٰ تشكيل الحكومة الإسلامية، وقد بعث مسلم بن عقيل أيضاً إلى الكوفة لهذا الغرض ولإصلاح مسيرة الإسلام والمسلمين، عن طريق أخذ البيعة من الناس للإمام الحسين عليه السلام وإخباره عن الإمكانات المتوفرة وتمهيد الأرضية اللازمة لقدومه عليه السلام إلى الكوفة، وفي سبيل هذا الهدف وقعت أحداث المحنة جميعها، من القتل والأسر، ثمّ السّبي في الكوفة وكربلاء والشام ومناطق أُخرى.

قد يقال: إنّ السبب في عدم محاولة علماء الشيعة تحليل نهضة الإمام الحسين عليه السلام وبيان خفاياها وعللها، هو أنّ الشيعة كانوا ـ عادةً ـ يعيشون في أجواء استبدادية ويرزحون تحت حكومات جائرة مناهضة للشيعة، ولذلك لم يتمكّنوا من دراسة البواعث والحقائق المرتبطة بنهضة الإمام الحسين عليه السلام، لأنّ ذلك سيكون باعثاً على تحرك الشيعة وانتفاضتهم ضد حكوماتهم الجائرة، فلذا رأوا من

الضروري ـ حفظاً لكيان الشيعة في الوسط الإسلامي باعتباره أقلّية مُتفرّقة وغير مُمثّلة قانونياً في غالب الأحيان ـ اجتناب المسائل المثيرة والباعثة على اصطدامهم بمعارضيهم.

وسواء كان السبب في قلة التحقيقات والدراسات حول نهضة الإمام الحسين عليه السلام هو ما ذكرنا، أو كان هناك قصور أو تقصير من بعض الأطراف المعنية، فإنّ الحقيقة المرّة هي أنّ ماهية حركة الإمام الحسين عليه السلام لم تتضح للمسلمين بشكل أساسي واستدلالي، ولهذا فقد كانت هذه النهضة في نظر البعض تهدف إلى تشكيل الحكومة واستلام السلطة فقط، وفي نظر طائفة أُخرىٰ أنّها من أجل الاستشهاد في سبيل الله فقط، ولدى جمع آخر أنّ الغرض منها هو حفظ النفس ودفع الخطر عنها فقط، بالرغم من وجود شواهد كثيرة ستأتي تباعاً على أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام لا تنحصر في بُعد من هذه الأبعاد الثلاثة المذكورة، بل تشتمل عليها جميعاً. وهي أبعاد لاينفصل بعضها عن بعض، بل اجتمعت كلّها في باطن هذه الحركة، من حيث إنّها تشتمل على البُعد الظاهري، والبُعد الواقعي، والبُعد السياسي معاً، كما سيأتي، ويتضح من خطاب الإمام الحسين عليه السلام .

ولابدّ من الالتفات إلى هذه الحقيقة؛ وهي أنّه بالرغم من أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام تعتبر حدثاً إسلاميّاً مهمّاً، ولكنّها في الوقت نفسه حركة إنسانية ضد السلطات الفاسدة والجائرة، ومن أجل هداية ونجاة المجتمعات البشرية من التسليم والخنوع للظالمين، ولذلك وقعت موقع احترام الشخصيات الانسانية وأجيال البشرية، وأساساً فإنّ في اعتقادنا ـ نحن المسلمين ـ أنّ الثورات الإسلامية، وفي طليعتها ثورة الإمام الحسين عليه السلام، تتفق مع العقل والمصلحة الواقعية للإنسان، ولهذا يجب أن تدرس ثورة الإمام الحسين عليه السلام كمسألة إنسانية قبل أن تكون تعبّدية، وأن يتمّ تحليلها وفق الموازين العقلية مضافاً إلى الموازين الدينية، لكي تتّضح أبعادها الأخلاقية وجوانبها الإنسانية البنّاءة أيضاً.

ضرورة الالتفات الأكثر إلى بعض الجوانب

ومن هنا يجب الالتفات إلى بعض الجوانب في حركة الإمام الحسين عليه السلام الدامية أكثر من غيرها، في إطار الأُسس الموضوعية التالية:

أوّلاً: إنّ هذه النهضة الدينية والإنسانية لا تعتبر تكليفاً خاصّاً وعملاً استثنائياً للقائمين بها، بل هي تبلور وتجسيد لمبدأ الجهاد الإسلامي والمسؤولية الإنسانية، فهي لا تنحصر في عاشوراء وكربلاء فقط، بل تمتدّ على طول امتداد التاريخ في أوساط المصلحين ودعاة الحقّ ضد الظالمين وبأشكال مختلفة ومتفاوتة، غاية الأمر أنّها حدثت على يد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه بشكل أكثر ظهوراً وعمقاً وجاذبية.

ثانياً: إنّ هذه النهضة العظيمة لم تكن منفصلة عمّا سواها من الأحداث والأُمور السياسية والاجتماعية والثقافية، بل ترتبط بشكل أكيد بكثير من القضايا الأساسية، من قبيل ماهيّة الدعوة الإسلامية، ونظام الحكومة الإسلامية، واضمحلال الخلافة الإسلامية، وانحطاط المجتمعات الإسلامية، وخاصة في الفترة المظلمة للحكم الأُموي، وكذلك ترتبط برؤية الإسلام إلى الموت والحياة، والجهاد والشهادة، والفرد والمجتمع، ووظائف الحكومات تجاه الأفراد والمجتمعات، وموقف الأفراد والمجتمعات في قبال الحكومات، وكما ترتبط بمواضيع أُخر كثيرة، بل هي في الحقيقة انعكاس ونتيجة طبيعية لتلك الأُمور ونظائرها.

ثالثاً: إنّ هذه النهضة العظيمة لم تكن حادثة عابرة وفي إطار زمنيّ محدّد، بل تعتبر نقطة منعطفة ومهمة في مسيرة الإسلام والأُمّة الإسلامية، إذ أدّت إلى حدوث تأثيرات عميقة في جميع جوانب الحياة والعقيدة، وأسهمت في خلق تحولات فكرية وسلوكية في حياة المسلمين وخاصة في توجيه الأفكار الثورية للمسلمين وتعبئتهم ضد الحكومات الجائرة.

ما ذكرنا من القضايا وهي نموذج لغيرها يدلّنا على أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام بعنوانها الشامل تُعدّ جامعة فكرية وايديولوجية ترتبط بكثير من الأبعاد السياسية

والإنسانية والتاريخية للإسلام، وفي الحقيقة أنّ الإمام الحسين عليه السلام يُمثّل الفصل الأخير من أصحاب الكساء الخمسة، وهو ـ فضلاً عن خصائصه العظيمة وسماته الإنسانية ـ يرتبط في خطوطه العامة مع حياة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ وفاطمة والحسن عليهم السلام وكلّ ما يرتبط بهم، وكذلك يعكس وجهة نظرهم تجاه أنصارهم ومعارضيهم، وبالتالي يكون خلاصة تامة ومرآة شاملة لجميعهم، ولهذا تستلزم معرفة نهضة الإمام الحسين عليه السلام دراسة الكثير من الظروف والأحداث المرتبطة بهم وبزمانهم ـ عليهم السلام ـ

ولهذا لا تكفي دراسة أبعاد نهضة الإمام الحسين عليه السلام من ناحية تاريخية محدودة بزمانها فقط، بل من الضروري أن تُدرس ظروفها الزمانية، وجذورها التاريخية والاجتماعية، ونتائجها الهامّة على الصعيدين العلمي والعملي ضمن التاريخ الكلّي لها.

وبالرغم من أنّ دراسة هذا الموضوع بهذه السعة وبهذا العمق وبصورة تحليلية تستلزم عدة كتب، ولكنّنا سوف نسعى في دراستنا هذه إلى تلخيصها بشكل مكثّف.

أمّا بالنسبة للموضوعات التاريخية والمدوّنات الحديثية مثلاً، فقد تمّ التذكير بأنّ مضامينها قد اقتبست من المصادر الموثوقة عند علماء الشيعة والسنة، من قبيل الشيخ المفيد وابن طاووس وابن قتيبة والطبري وابن الأثير وابن أبي الحديد وغيرهم، مضافاً إلى الاستشهاد بالقرائن المختلفة والمؤيدات التاريخية . وعلى كلّ حال فإنّ هذا الكتاب لم يتعرّض إلى الروايات التي تذكر الجنّ والملائكة وغيرها من الأُمور التي ليست من صميم ماهيّة هذه النهضة، والتي لا دخل لها فيها، بل تمّ التأكيد على المواضيع التي تتطابق مع الموازين الطبيعية من جهة، ومع المستندات والوثائق المعتمدة لدى الشيعة وأهل السنّة من جهة أُخرى. ومن البديهي أنّ التعميم من ناحية الوثائق والمستندات سوف يضفي أهميّة أكبر على الموضوعات المطروحة، مضافاً إلى أنّه سيرشدنا إلى بعض النقاط والمقاصد الخاصّة من المسار العام للواقعة.

إرتباط النهضة الوثيق بمسألة الخلافة والخلفاء

الحقيقة التي يجب أن نقولها بصراحة هي أنّ لحادثة كربلاء ارتباطاً وثيقاً بمسألة الخلافة والخلفاء، بل هي ـ كما سنرى ـ نتيجة لهذه المسألة، ولولا هذه المسألة لم تقع حادثة كربلاء بهذه الخصوصيات على الأقل، وليس حادثة كربلاء لوحدها، بل إنّ جميع الأحداث الإيجابية والسلبية في تاريخ الإسلام، وجميع المذاهب السليمة وغير السليمة للمسلمين، بل حتى المسيرة التاريخية لثقافة ونظام الحكم في الإسلام، كلّها ترجع بشكل أكيد إلى مسألة الخلافة والخلفاء. ومن دون دراسة هذه الحقيقة والتحقيق في هذه القضية لا يمكن معرفة التيارات والأحداث الإسلامية المهمة التي حدثت في تاريخ المسلمين، وخاصة نهضة الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده؟ والعلماء الموضوعيون من أهل السنة (كالعلائلي)، بل وحتّى بعض العلماء المتعصّبين (كالشهرستاني) صرّحوا بهذه الحقيقة، وهي أنّ كلّ القلاقل والأحداث التي مرّت بالتاريخ الإسلامي سواء في العقيدة أو السياسة، يمكننا أن نجد لها جذوراً في حوادث صدر الإسلام ومن جملتها، بل أهمها مسألة الخلافة والخلفاء[1].

لابدّ من القول ـ بكلّ أسف ـ إنّ جميع الأوهام النابعة من العصبيات، والسياسات الشيطانية، منعت وتمنع دائماً من التحقيق في المسألة المشار إليها مع عظيم أهميتها، بل لم تسمح بدراستها بشكل لائق بها، حتّى أنّ كثيراً من الكتب التي أُلّفت وسوف تؤلّف عن واقعة كربلاء، وكذلك عن سائر الأحداث الإسلامية، تعاني من هذا النقص الكبير، وهو أنّها لم ولا تهتمّ كثيراً بدراسة القضايا الحساسة الواقعة في صدر الإسلام بشكل موضوعي، وخاصة مسألة الخلافة والخلفاء وتأثيراتها العميقة في مختلف الجوانب. ولكنّ هذا الكتاب اهتمّ في تحقيقاته الأساسية للأحداث بهذه

---

١. تاريخ الحسين، للعلائلي، ص ١.

المسألة اهتماماً خاصّاً، وله في هوامشها أيضاً ابحاث مفيدة ربّما يكون بعضها جديداً وأساسياً، هذا بالإضافة إلى دراسة أبعاد أُخرى ـ بشكل موجز ـ لهذه المسألة، وسنورد بعض هذه الموضوعات في الفصل الأوّل من هذا الكتاب وبعضها في الفصل الثاني منه، ومن الطبيعي أن يوجد في هذه الأبحاث بعض النقد للخلفاء، الأمر الذي لا يخلو منه بعض أُمّهات الكتب وأشهر المصادر لأخواننا أهل السنّة أيضاً.

وطبعاً إنّ أهل السنّة يعلمون أنّ مجرّد توجيه النقد لشخص لا يعني إهانته به، بل إنّ من أُسس الدراسة الموضوعية اتّخاذها أحياناً طابع المحاكمة، ولكن في الوقت نفسه نرى ضرورة النظر إلى جميع الموضوعات المذكورة في هذا المجال بعين الحقّ والحقيقة والإنصاف، وبعيداً عن العصبية المذهبية وغير المذهبية، وكذلك مناقشة الإشكالات بالبراهين والادلة، ونصرّح هنا بأنّ كل إشكال أو استفهام يورده علينا القارىء العزيز سيكون مقبولاً بل مشكوراً إذا كان مدعوماً بالبراهين والأدلة.

وقد حاولنا إضافة إلى الاهتمام بمستوى الموضوعات العقلية والنقلية الواردة في هذا الكتاب الاهتمام بأُسلوبه وترابط أبحاثه، بحيث أنّ مواضيعه تشكّل حلقات مترابطة وسلسلة متّصل بعضها ببعض، ولكن مع هذا الحال تمّ عرض كلّ منها بشكل مستقل كي يتمكن القراء الأعزاء، الذين لا تسمح لهم الفرصة بمطالعة جميع فصول الكتاب، أن يطالعوا كلّ قسم منه بشكل مستقل.

ثمّ إنّ الفصل الثالث يرتبط بشكل أوثق مع نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ففي هذا الفصل تمّ توضيح ماهيّة النهضة وعللها والبحث في جوانبها المختلفة، في حين أنّ الفصل الأول والثاني يعالجان إرهاصات هذه النهضة، حيث إنّ الفصل الأول يتحدّث بشكل مفصّل حول الخلافة الإسلامية وأبعادها الاجتماعية والسياسية. والفصل الثاني يتحدّث بشكل أكثر حول خصائص المجتمع الإسلامي آنذاك.

أمّا الفصل الرابع والخامس فيبحثان عن نتائج نهضة الإمام الحسين عليه السلام وتقييمها.

ولكنّ الفصل الرابع يبحث في الغالب عن النتائج العملية والتطبيقية لواقعة عاشوراء، حيث كانت منبعاً وأساساً لتحوّل انقلابي كبير في المجتمع الإسلامي. والفصل الخامس يبحث في الغالب عن النتائج العلمية والثقافية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام والتي ستتألق على مرّ العصور وكرّ الأزمان، ومن هنا يمكننا القول بأنّ هذه الفصول الخمسة للكتاب هي في الواقع خمسة كتب في كتاب واحد.

وفي الوقت نفسه، فإنّ أبحاث هذا الكتاب عرضت بشكل متسلسل في الفصول، بحيث إنّ بعضها يكمّل البعض الآخر، فعلى سبيل المثال: مسألة الجهاد التي تعتبر مسألة محورية في نهضة الإمام الحسين عليه السلام تمّ بحثها في الفصلين، الثاني والثالث، ولكنّها بُحثت في الفصل الثاني من حيث ماهيّتها وأهميتها، وفي الفصل الثالث بحثت من حيث أهدافها وشروطها، وهكذا بقية المسائل الأساسية الأُخرى، من قبيل مسألة الخلافة الإسلامية، ونظام الحكومة الإسلامية، والعلاقة بين مفاهيم الحقّ والباطل، والعدالة والظلم، والحياة والموت، والفطرة والطبيعة، والفرد والمجتمع، و... وبالجملة، فقد عرضت وقدّمت في هذا الكتاب لكلّ مسألة أبحاث مهمّة في المواضيع المختلفة منه، والتي تشكّل بمجموعها الأبعاد المتنوعة للنهضة.

وفي الختام نشير إلى أنّ تأليف هذا الكتاب استغرق فترة طويلة بعد مطالعة عميقة لمئات الكتب والمصادر المهمّة وتجاوز عقبات صعبة، وتمّ تحقيقه ومراجعته عدّة مرّات حتى لكلّ جملة بمواضيعه العقلية والنقلية، وسعينا في طرحنا للمواضيع إلى اجتناب التكرار والمسائل الهامشية أو قليلة الفائدة، ويمكن القول بأنّ هذا الكتاب يبيّن جميع أو أكثر جوانب ثورة الإمام الحسين عليه السلام بمضامينها الإسلامية والإنسانية الواسعة، ببيان سهل يسير، والسبب في أنّ هذا الكتاب مع مراعاة الاختصار فيه قد زاد حجمه نسبيّاً، هو ما ذكرنا من أنه تناول جميع الجوانب الأساسية المرتبطة بالنهضة الحسينية الدامية، فلم يترك مهما تيسّر موضوعاً هامّاً إلّا ذكره وحقّقه.

ونأمل أن يرفع هذا الكتاب الإبهامات والغوامض عن مسألة العـرفان الديـني، والخلافة الإسلامية، والنهضة الحسينية، وما يتصل بها من قضايا، ويدعو إلىٰ تحوّل فكري وعلمي مثمر في الوسط الإسلامي، ومن الله التوفيق.

وفي النهاية ينبغي أن يلتفت القراء الكرام إلى النقاط التالية :

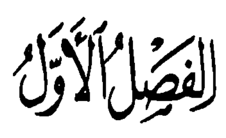
١. إن بعض مصادر الكتاب نقلت أحياناً بالواسطة أو من طبعات مختلفة، ولذا قد يُعتقد القارئ أن فيه خطأ، ولكن هذا الاشتباه نـادر جـداً، والمـهم هـو أن جـميع المطالب المنقولة في هذا الكتاب لها مصادر معتبرة ومتعددة.

٢. إن كان لدى القارئ سؤال أو إشكال أو اقتراح بشأن بعض مطالب الكتاب، يمكنه أن يرسله الى المجمع العالمي لأهل البـيت عليهم السلام، قسـم التـأليف والتـحقيق، والمؤلف مستعد للإجابة عليها إن شاء الله تعالى.

٣. الهدف الأساسى لهذا الكتاب هو ايضاح الحـقائق الأسـاسية فـي العـقيدة والتاريخ الاسلامى ليكون المسلمون على بصيرة ويعملوا لتحقيق التقارب والوحدة الواقعية التي لايمكن تحقيقها إلا ضمن الوعي الفكري والبصيرة النافذة.

السيد عليّ الحسيني

محرم الحرام ١٤٢٤ هـ



بنو أُميّة
و مسألة الخلافة الإسلامية

العرب قبل الإسلام

من أيّ تاريخ ومكان يجب أن نبدأ بحثنا بشأن النهضة الحسينية؟

من المنطقي أنّ ذلك يجب أن يكون من صدر الإسلام ومن أرض الحجاز، وهي المنطقة التي اصطدم فيها جناحا الإيمان والشرك، والحق والباطل، والعدالة والظلم، بقيادة بني هاشم وبني أُمية، وبهذا هيّئت الأرضية لأشكال الصراع والاشتباكات والمنازعات، خاصة فيما يرتبط بالإسلام، ولهذا فمن الضروري إلقاء نظرة على سكّان الحجاز في ذلك العصر، وخاصة بني هاشم وبني أُمية، وموقف كل منهما بالنسبة إلى الإسلام، ومن ثمّ الخلافة التي تعتبر من العناصر الأصلية في البحث.

لقد كانت أرض الجزيرة العربية منطقة صحراوية متخلفة من الناحية الثقافية، ومتكوّنة من قبائل متقاتلة، لا يجمعها دين ولا حضارة، ووصل بهم الحال إلى فجائع كبيرة، من قبيل السجود للأصنام، ووأد البنات، وأشكال التعصّب الجاهلي، والغزو والغارات، وأمثال ذلك، فقد كانت هذه الأساليب رائجة وسائدة إلى حدّ جعل هذه المنطقة بمثابة مركز للانحراف والاختلاف والحروب المستمرّة.

والخلاصة أنّ حالة القبائل العربيّة في تلك المنطقة كانت مأساوية إلى درجة كبيرة، وكما وصفهم أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة «وأنتم معشر العرب كنتم على

شرّ دين وشرّ دار»[1].

ومع هذه الحال فما أعجب أن تبزغ شمس الإسلام من تلك الأرض المظلمة، بحيث إنّ اشعاع الهداية استطاع في مدّة قصيرة جدّاً أن يجتذب نحوه أُولئك الناس الجاهليين القساة، ويضعهم في مسار الحرية، والسموّ والتكامل الإنساني والحضاري، فأصبحوا يتطلّعون إلى الجهاد لوجه الله، ويطمحون إلى الاستشهاد في سبيل الدين والدفاع عن الحق والعدالة.

و(عمرو بن الجموح) نموذج لذلك التغيير، فقد كان يريد المشاركة في معركة بدر التي وقعت بين أتباع الحق وأتباع الباطل، لكنّ أبناءه منعوه من ذلك بحجّة أنه كان معوقاً، وبهذا يكون معذوراً شرعاً من الجهاد، ولكن عندما حدثت معركة (أُحد) جاء إلى النبيﷺ، بالرغم منأنّه كان معذوراً من الجهاد، وطلب الإذن منهﷺ للجهاد، و توجّه إلى ميدان القتال ونال شرف الشهادة التي كان يتمنّاها، وعندما كان يقاتل المشركين كان يدعو الله تعالى يقول: «اللهمّ ارزقني الشهادة ولا تردّني إلى أهلي خائباً»[2].

سرّ تقدّم الإسلام العجيب

يمكن القول بأنّ أحد دلائل إعجاز الإسلام وتقدّمه هو أنّه خاطب الإنسان بالطريقة التي تثير فيه مشاعر الخير في نفسه، وتمكّن بذلك وفي فترة قصيرة من صياغة أفراد على درجة كبيرة من الكمال والإنسانية، بعد أن كانوا يعيشون عقدة التخلّف والانحراف.

لقد حوّل الإسلام أُولئك الجاهليين إلى أشخاص يضحّون بأنفسهم في سبيل الله، وفي سبيل القضاء على أشكال التخلّف والظلم والانحطاط الحضاري، ولهذا شهد العالم تحوّلات مدهشة بدأت من أرض الجزيرة العربية، وشملت مختلف ربوع العالم، إذ استطاع المسلمون وبقوة إيمانهم بالله ورسوله، من أن يحطّموا عروش

---

١. شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٩ و ج٦، ص٩٤.

٢. شرح النهج، ج١٤، ص٢٦٢؛ أُسد الغابة، ترجمة عمرو بن الجموح.

الظالمين وقدرات المستكبرين في شرق الأرض وغربها، ويثبّتوا أركان النظام (الإلهي والإنساني) في القسم الأعظم من أرجاء المعمورة. ولكن ينبغي البحث هنا عن سرّ نجاح النظام الإسلامي الباهر، وخاصة في قابليته للامتداد في وجدان الناس، وتربيته لأمثال أُولئك الذين اعتادوا على البداوة والخشونة.

إنّ سرّ نجاح الإسلام هو أنّه دعا الناس إلى التوحيد والعدالة، وبما أنّ هذه الدعوة متناغمة ومنسجمة مع فطرة الناس فقد استطاع أن ينفذ في قلوبهم وأن يحوّل الفكر إلى ممارسة في طريق الإيمان بالله تعالى. ومن المعلوم أنّ الأثر الطبيعي للإيمان بالله تعالى، هو أنّه يخلّص الإنسان من شراك الدنيا، والنوازع النفسانية، ويجعله يعيش الوعي ويتحرّك على مستوى الدفاع عن الحق والعدالة، من موقع الرسالة لا من موقع الذات، وقد بيّن القرآن الكريم في مواضع عديدة من آياته الأثر الطبيعي للإيمان بالله تعالى، وبيّن أيضاً زيف المدّعين للإيمان، وأظهر كذبهم حيث يقول:

﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم... إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أُولئك هم الصادقون﴾[١].

ومن هذه الآيات يتّضح أنّ النبي الأكرمﷺ وإن كان يقبل الإسلام الظاهري منهم من أجل نشر دعوته الإلهية، ولكنّه لم يكن هدفاً أساسياً، بل كان هدفاً مرحلياً وقليل الأهمية، والهدف الأساسي لدعوة النبي الأكرمﷺ هو أن يمنح الإنسان روح الإيمان التي هي أسمى من الروح الإنسانية، حيث يتمكّن الإنسان بها من التخلّص من دائرة الذات، والالتحاق بالعالم العلوي والسموّ الروحي، نظير (عمرو بن الجموح) آنفاً، وهكذا يخلق الإيمان من هؤلاء الناس الجاهليين، مجاهدين لا ينهزمون أمام التحديات ولا يضعفون أمام العقبات ويكونون على استعداد تامٍّ للتضحية بكلّ غالٍ ونفيس في سبيل الدفاع عن المقدّسات وجهاد الظالمين والفجرة.

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٤ و ١٥.

الفئات الثلاث: المؤمن والمسلم والمنافق

الملاحظة الأُخرى التي نستفيدها من هذه الآيات، هو أنّه لا ينبغي أن نعتبر كل مسلم بمجرّد إسلامه مؤمناً، لأنّه كما أنّ الإنسان له بعدان: أحدهما جسماني، والآخر روحاني، فكذلك الإسلام له بعدان: أحدهما ظاهري، والآخر واقعي، فالبعد الظاهري للإسلام هو العمل بأحكامه الشرعية المتعارفة، ولكنّ البعد الواقعي للإسلام ـ الذي يدعى بالإيمان ـ لا يتبلور إلّا عند التحرك الواعي على مستوى الإيثار والتضحية في سبيل الحق والعدالة ومناهضة المنحرفين والظالمين، وطبعاً هناك بعض الآيات، من قبيل الآية الثالثة من سورة المائدة[1]، ورد فيها الإسلام بمعنى الإيمان، ولكن المراد من هذه الآيات هو الإسلام الكامل الملازم للإيمان والذي هو الوجه الأكمل من الإسلام الظاهري.

المهم أيضاً أو الأهمّ، هو وجوب الالتفات إلى أنّه توجد في المجتمع الإسلامي ـ بالإضافة إلى المؤمن والمسلم ـ فئة ثالثة وهي (المنافقون)، والمنافق هو الشخص الذي لم تنفذ فيه روح الإيمان وهو لم يقبل الإسلام أيضاً في واقعه، بل استفاد منه في دائرة حاجاته الذاتية ومطامعه الشخصية ومقاصده السياسية، وعندما يصطدم مع مصالحه فإنّه يتحرّك من موقع الخصومة والتمرّد أو التبرير الذي يبدو في ظاهره طاعة ولكن واقعه معصية، ولهذا نرى أنّ القرآن الكريم ينفي عن المنافقين صبغة الإيمان والإسلام كليهما، وحتى إنّه يعتبر صلاتهم ـ التي يؤدّونها رياءً وتظاهراً بالقداسة ـ من الذنوب الكبيرة ويقول: ﴿فويلٌ للمصلّين...﴾[2]، والأكثر من ذلك أنّه يوجب جهادهم كجهاد الكفّار بقوله تعالى: ﴿ياأيّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾[3].

والخلاصة: إنّ الإيمان هو الحقيقة، والإسلام صورة، والنفاق سياسة شيطانية، فحقيقة الإيمان ثمينة وقيّمة، أمّا صورة الإسلام أو الإسلام الصوريّ فانّه بالنسبة

---

١. آية الإكمال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم...﴾. ٢. سورة الماعون، الآية ٤، ٦.

٣. سورة التوبة، الآية ٧٣.

للإيمان، أقلّ قيمة، أمّا سياسة النفاق فعديمة القيمة، بل هي ضد القيم، ولهذا فهو مذموم كالكفر، وبالرغم من أنّ بعض الظروف الاجتماعية والسياسية تقتضي مسالمة المنافقين الذين يشكّلون خطراً خفيّاً على المجتمع الإسلامي، ولكن مكافحتهم واجبة في ظروف أُخرى، كما هو الحال في جهاد الكفّار.

وسنتحدّث فيما بعد عن شروط كلٍّ من جهاد أو مسالمة المنافقين، إذ تعتبر هذه الفقرة محوراً حسّاساً في الرسالة الإسلامية، سواء في حياة النبي الأكرمﷺ، أو الإمام عليعليه السلام، وكذلك في موجبات سكوت الإمام عليعليه السلام والإمامين الحسن و الحسينعليهما السلام في مقطع تاريخي، وأيضاً لها دخل كبير في نهضة الإمام الحسينعليه السلام ضد حكومة يزيد، وهنا نشير إلى حقيقة مهمة وهي أنّ القرآن قد صرّح بوجود ثلاث طوائف داخل المجتمع الإسلامي، وهم: المؤمنون، المسلمون، والمنافقون، وهم بالترتيب من حيث الأصالة: واقعي، ظاهري، ومتظاهر.

وطبيعي أنّ هذه الفئات الثلاثة، تصطدم فيما بينها وتعيش خصاماً ظاهرياً أو خفيّاً، سواء في مجال العقيدة أو في مجال العمل، وقد أدّت هذه الاتّجاهات الثلاثة إلى كثير من التفاعلات الاجتماعية السلبية في المجتمع الإسلامي.

وأحد الأسباب التي أدّت إلى وقوع أخطاء مهمة في كتابات كثير من الباحثين المسلمين فضلاً عن المستشرقين الغربيين، وكذلك عند كثير من الناس، هو أنّهم لم يلتفتوا إلى هذا الموضوع الأساسي المذكور، بل إنّهم نظروا إلى المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام بنظرة واحدة تتلخص في أنّ أفراده مسلمون جميعاً، مع أنّه لابدّ من الالتفات إلى هذه العناوين الثلاثة: (مؤمن، مسلم، منافق) التي نلمس حضورها الفاعل في الآيات القرآنيّة الكريمة، وخاصة في سيرة الصالحين والطالحين من المسلمين، فالبحث القرآني والتحقيقي لابدّ أن يتضمّن هذه العناوين الثلاثة المختلفة دائماً، ومن الطبيعي أنّ هذه العناوين إذا أُخذت بعين الاعتبار، فإنّ الكثير من الوجوه البارزة بين المسلمين ستتعرّض للتعرية والكشف، وكذلك الكثير من المسائل السياسية والاجتماعية والتاريخية في صدر الإسلام، وحتى بعض المسائل العلمية

ستواجه تغييراً ملحوظاً، والأهمّ من ذلك أنّه ستتضح الجذور الحقيقية للمنازعات والاختلافات التي وقعت في العالم الإسلامي من قبيل نهضة كربلاء.

دوافع المعارضين

قلنا إنّ دعوة النبيﷺ في الواقع هي دعوة فطرية، وتعتمد على التوحيد الإلهي والعدالة الاجتماعية، ولهذا استقبلها الكثيرُ من الناس من موقع الوعي والمسؤولية، وعملوا في سبيل ترسيخها وتعميقها بين الناس بإيثارهم وتضحياتهم، ومن البديهي أنّه يوجد في الجهة الأُخرى فئات مخالفة لدعوة النبيﷺ، تتكوّن من الذين أعرضوا عن نداء الفطرة وتحرّكوا بوحي شهواتهم المختلفة، فهؤلاء جماعة من الانتهازيين الذين لا ينطلقون من موقف فكري وفطري، بل من موقع الأنانية والروح المنغلقة والافق الضيّق.

وهكذا أخذ هؤلاء المسائل الاجتماعية من منظار مصالحهم الشخصية ومنافعهم الفردية، فكانت نتيجة هذا التعاطي الخاطئ هي أنّهم وقفوا في مقابل الإسلام الذي كان يريد لهم تجاوز هذه الأنانيات والتضحية بالذات والمصالح الذاتية في سبيل (الله)، فاتّخذوا بالطبع موقفاً مضادّاً للنبيﷺ، خاصة أنّ النبيﷺ كان من بني هاشم، وكان المعارضون ـ خاصة (بنو أُمية) الذين يعيشون الرواسب العدائية التاريخية الكامنة في اللاشعور ويُعدّون منافسين أشدّاء لبني هاشم ـ انطلقوا من أنّ الإسلام أقرّ رفعة بني هاشم وكرّس سيادتهم على الناس، ولذلك كانوا أعداء ألدّاء للنبيﷺ والإسلام.

وأحد الشواهد على التفكير الخاطىء المحدود للمعارضين هو قول أبي سفيان (زعيم بني أُمية)، عندما رأى نبي الإسلام قادماً لفتح مكة مع جيش كبير، مخاطباً العباس عم النبيﷺ، من دون ملاحظة القيم المعنوية للرسالة الإلهية قائلاً: «**لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً**»[1].

١. تاريخ الطبري، ج٢، ص٣٣٢؛ الكامل في التأريخ، ج٢، ص٢٤٦.

ورؤية أبي سفيان هذا، وكذلك مواقف سائر الأمويين وغيرهم من المعارضين بصورة عامة، في الحقيقة تدلّ على أنّ القيمة الأساسية والمحورية لدى هؤلاء هي القدرة المادية والسياسية، وأنّ كل شيء عندهم حتى الرسالة ما هي إلّا وسيلة للحصول على المال والجاه، وفضلاً عن هذا التفكير الخاطىء للمعارضين، فهناك دافع آخر لمقارعتهم الإسلام، ويتمثل في منع الإسلام الربا والظلم والخداع وغيرها من الأساليب الذميمة ـ التي كانت تعتبر أساس عمل المعارضين ـ بأدوات المنطق السليم، وأحياناً بالقوّة والسيف، دفاعاً عن العدالة، فكانت حركة الإصلاح في الإسلام تقوم على تدمير المواقع الاجتماعية والسياسية للطبقات العليا الفاسدة لصالح الطبقات الفقيرة والمستضعفين من الناس، ولهذا بلغ تصوّر البعض أنّ هدف الإسلام هو محاصرة الطبقات العليا، وفسح المجال للطبقات الدنيا في المجتمع، ومن المعلوم أنّ هذا هو أحد أهداف الإسلام الثانوية، ولكن الهدف الأساس للإسلام هو توعية الناس واستثارة فطرتهم، ليكسروا طوق أنانيّاتهم، ويتّجهوا إلى الله تعالى، ويكونوا من أنصار الحق والعدالة، والشاهد على ذلك أنّ النبيﷺ حين رجوع المجاهدين من إحدى الغزوات قال لهم: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يارسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس**»[١].

ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الدين الروحاني يحكي عن مركّب حضاريٍّ قادر على تحريك الأمّة في سيرها الواعي نحو الكمال المعنوي، وتعريض مصالح المستكبرين والظالمين إلى الخطر، ولهذا وقف أمامه أمثال بني أمية الذين لم يكن هدفهم سوى التفوّق الدنيوي والسلطة وحب الذات، خاصة وأنّهم كانوا من الناحية الأخلاقية فاسدين ومنحطين جدّاً، وقد توارثوا هذه الخصال الذميمة جيلاً بعد آخر.

بنو أمية وبنو هاشم في سطور

إنّ رأس بني أمية هو (أمية) وكان رجلاً فاسداً إلى درجة أنّه أباح زوجته لابنه[٢]،

---

١. الكافي، ج٥، ص١٢؛ فيض القدير، ج٦، ص٢٤٣ ٢. النزاع والتخاصم للمقريزي، ص٥٠.

وهذا العمل كان يُعدّ عاراً كبيراً حتى عند العرب الجاهليين، وابنه (حرب) والد (أبي سفيان) كان منحطاً مثله أيضاً، فاعتداءاته على حقوق وأعراض الناس كثيرة ويطول شرحها، وهكذا (أبوسفيان) والد (معاوية)، فقد كانت له انحرافات أخلاقية كثيرة، والمعروف أنّه كان على اتصال بامرأتين مشهورتين بالبغاء، إحداهما تدعى (النابغة) والدة عمرو بن العاص، والأُخرى (سميّة) والدة زياد بن أبيه، حيث أثبت ذلك المؤرخون في مصادرهم[١]، وإحدى فضائح معاوية الكبيرة هو أنّه أشهد على زنىٰ والده أبي سفيان بسميّة (والدة زياد) على منبر الإسلام، وادّعى أُخوّة زياد له على خلاف احكام الإسلام، وكذلك ذكرت بعض المصادر الموثقة أنّ عمرو بن العاص أيضاً، ولدته أُمّه (النابغة) من زنىٰ أبي سفيان بها[٢].

والنقطة اللافتة للنظر هي أنّ هؤلاء الاخوة (ادعاءً أو حقيقة) الثلاثة: معاوية وزياد بن أبيه وعمرو بن العاص، كانت تجري في مفاصلهم روح أبي سفيان، فكانوا يعملون كروح واحدة في أجسام متعددة، إذ تعاونوا على مقارعة رجال الحق، أمثال الإمام علي عليه السلام وأتباعه. وفي المرحلة التالية أيضاً نجد عبيدالله بن زياد حارب بأمر من يزيد بن معاوية الحسين بن علي عليه السلام، وقتله وقتل أصحابه وأولاده وإخوته ومثّل بهم.

وأمّا بنو هاشم فعلى العكس من بني أمية، كانوا أُناساً شرفاء يحترمون حقوق الناس وأعراضهم، ويقدّسون الكعبة التي كانت تعتبر محوراً للمقدسات الاجتماعية آنذاك، ويفتخرون بخدمة البيت الحرام والدفاع عنه.

كان بنو هاشم اسرة أخيار وأبرار حتى في العصر الجاهلي، فقد تقدّموا إلى قبائل قريش بميثاق «حلف الفضول» الذي يحفظ للضعفاء والمحرومين حقوقهم ضد الظالمين والمعتدين، وعلى عكس بني أُمية الذين لم يشتركوا في توقيع هذا الميثاق الإنساني، وكان بنو هاشم يعيشون هموم الناس ويسعون في قضاء حوائجهم، وبسبب هذه الخصال الحميدة كانت القبائل العربية تنظر إليهم باحترام خاص، وفي

١. شرح النهج، ج١٦، ص١٨٧ نقلاً عن المدائني و...
٢. شرح النهج، ج٦، ص٢٨٣ نقلاًعن ربيع الابرار للزمخشري.

الواقع كانوا يعتبرونهم قدوة لهم.

ولذلك حقد بنو أُمية على بني هاشم بسبب هذه المنزلة بين الناس، وأوّل نموذج لعداء بني أُمية، هو تآمر (أُمية) ضد (هاشم)، الذي كان عمّه في الواقع، وسعى إلى غصب حقه في إدارة شؤون الكعبة، ولكن لم يوفّق لذلك، بل إنّ الحكم في هذه المنازعة انقلب عليه، إذ قضى الشخص الذي أُوكلت اليه عملية التحكيم، بأن ينفى أُمية عن مكة عشر سنوات ويقيم في الشام[١]، وهكذا بدأت وتفاقمت العداوة بين هاتين الاسرتين، وكانت تزداد يوماً بعد يوم إلى أن انتهت إلى حروب دامية وعظيمة.

ومن أجل تشخيص علل الأحداث آنذاك، نجد من اللازم التعرف على الجذور الأصلية لها، ولهذا سنشير في هذه الصفحات من الكتاب إلى السمات الاخلاقية لبني هاشم وبني أُمية، حيث تنبع منها الجذور الأصلية لمختلف الحوادث التي وقعت في التاريخ الإسلامي. وكما رأينا ـ وأثبتت ذلك الشواهد والوثائق ـ أنّ بني هاشم كانوا يتمتعون بصفات حميدة، بينما كان بنو أُمية يتحرّكون من موقع العقد النفسية والانحراف، وتسيطر عليهم الصفات المادية، وقد ذكرهم القرآن بأنّهم ﴿الشجرة الملعونة﴾[٢] كما نُقل في كثير من التفاسير وغيرها من الكتب المعتبرة.

والإمام عليّ عليه السلام أيضاً وصفهم بمقولة مختصرة ورائعة جدّاً خلال ذكره خصال هاتين الأُسرتين، قال: «هم أكثر وأمكر وأنكر، ونحن أفصح وأنصح وأصبح»[٣].

والملفت للنظر أنّ معاوية وأمثاله أيضاً يعترفون أحياناً ـ كما سوف نرى ـ بأنّ الإمام عليّاً عليه السلام وأولاده هم أهل الحق والصلاح، وبني أُمية هم قطب الانحراف والعدوان وحبّ الدنيا[٤].

---

١. تاريخ الطبري، ج٢، ص١٣.

٢. تفسير البيضاوي؛ الفخر الرازي؛ الميزان؛ الدر المنثور وسائر التفاسير ذيل الآية المزبورة، وتاريخ الطبري ج٨، ص ١٨٤؛ مستدرك الحاكم؛ ج ٤، ٤٨٠ وغيرها.

٣. شرح النهج، ج١٨، ص٢٨٥.

٤. شرح النهج، ج١٦، ص١٢؛ المقتل للخوارزمي، ج١، ص١٢٣.

نهران عذب وأجاج

لا يقتصر الأمر في التضاد بين بني هاشم وبني أُمية ولا يختص بهم، بل هي الروح الإلهية والشيطانية التي تتحرك في كل أدوار التاريخ بمثابة النهر العذب والنهر المالح، وتتجلّى في سيماء الصالحين والطالحين، نظير (هابيل وقابيل) و (إبراهيم ونمرود) و (موسى وفرعون) و (محمدﷺ وأبي سفيان) و (عليعليه السلام ومعاوية) و (الحسينعليه السلام ويزيد) وغيرهم، ويشير القرآن الكريم إلى هذا التّيار التاريخي المستمر الذي يمثّل ـ في الحقيقة ـ تجسيد الإرادة الإلهية في توظيف أدوات الواقع لصالح المؤمنين وضرر المفسدين، ويقول: ﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾[1].

والواقع أنّ بني امية لم يكونوا معارضين للرسالة فحسب، بل كانوا يتحركون في إطار تفعيل الرواسب التاريخية لقوى الانحراف وتقوية جميع الفئات المعارضة أيضاً، وفي الواقع أنّ معظم الحركات المخالفة والمناهضة للإسلام كانت تتحرك بقيادة بني أُمية، واللافت للنظر أنّ نساء بني أُمية أيضاً كنّ كرجالهم أو أشد منهم في محاربتهن للنبيﷺ وأهل بيته وأتباعه، ومثال ذلك (هند) زوجة أبي سفيان التي كانت تنشط أكثر من غيرها في هذا المجال، وهي التي رسمت خطّة لقتل النبيﷺ، والإمام عليعليه السلام وحمزة في حرب (أُحد)، وقد استطاعت بواسطة غلامها قتل حمزة والتمثيل به، وأخرجت كبده الشريف ولاكته، كما صنعت من بعض أجزاء جسد حمزة وشهداء آخرين عقداً لها وضعته في رقبتها، وراحت ترقص في ميدان الحرب، ولذلك سمّيت هند من ذلك الحين بـ (آكلة الأكباد)[2].

وممّا يجدر ذكره أنّ أباسفيان كان عميد أُسرة بني أُمية وزوجته هند كبيرة نساء الأُسرة، ومعاوية ابنهما ويزيد حفيدهما، فهل يتوقّع من تينك النفسين وابنيهما أن لا يحاربوا نبي الإسلامﷺ ولا يقاتلوا أخاه أميرالمؤمنينعليه السلام ولا يتحركوا للتنفيس

---

١. سورة الأنعام، الآية ١١٢.

٢. تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٠٤؛ شرح النهج، ج١٥، ص٢٣٧؛ أُسد الغابة في ترجمة حمزة.

عن العقد المكبوتة في نفوسهم والغيظ الكامن في صدورهم، في مواجهة الحسين ابنهما وحبيبهما؟

إلى هنا تمّت الإشارة بشكل موجز إلى عدّة نقاط أساسيّة هي بمثابة مقدمة لهذا الكتاب: الأولىٰ وهي: هدف الإسلام ورمز تقدّمه. الثانية: وجود ثلاث طوائف مختلفة في المحيط الإسلامي آنذاك وهم: المؤمنون، المسلمون، المنافقون. الثالثة: ماهية الدين وأساسه. الرابعة: التعرّف بشكل إجمالي على أعداء الإسلام وعلى رأسهم بنو أُمية.الخامسة: الاختلاف الجذري والشامل بين بني أُمية وبني هاشم.

هل أسلم بنو أُمية حقاً؟

لا خلاف في أنّ بني أُمية وبحكم نفسياتهم الفاسدة قد شنّوا حروباً شعواء ضد نبي الإسلامﷺ وأتباعه، وأيضاً لا شك في أنّ بني أُمية بعد هذه الحروب الدامية والفتن التي أثاروها ضد الإسلام والمسلمين لم يفلحوا في مسعاهم، بل هزموا شرّ هزيمة، واضطروا للتسليم وقبول الإسلام، ولكنّ الكلام في أنّ إسلام بني أُمية لم يكن حقيقياً، بل هو استسلام سياسي وقد تم تحت بريق السيف ومن أجل تحقيق مطامع وأهداف دنيوية.

لقد ذكر المؤرخون (الشيعة والسنّة) أنّ أبا سفيان ـ رأس بني أُمية وكبيرهم ـ بعد أن أظهر الإسلام حضر حرب المسلمين ضد الروم، وكانٍ عندما يرى أنّ علائم الغلبة تميل لصالح الروم ضد المسلمين، كان يفرح لذلك ويقول: «إيه بني الأصفر إيه بني الأصفر»، وعندما يرى تقدّم المسلمين وظهورهم على الروم يتألّم من ذلك ويقول: «آه بني الأصفر آه بني الأصفر»[1].

وكذلك ورد أنّ أباسفيان دخل على عثمان في زمن خلافته، وبعد أن استفسر عن عدم وجود من يخشاه في المجلس، أظهر مقاصده الدنيئة إلى أقربائه

---

١. أُسد الغابة في ترجمة أبي سفيان.

الحاضرين في المجلس وقال قولته المشهورة دون أن يعترض عليه أحد غير الحسينعليه السلام: «تلقّفوها يابني أُمية تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار ولا حساب ولا كتاب ...»[١].

هذه مجرّد نماذج تدلّ على أنّ بني أُمية بعد إظهارهم الإسلام أداموا نفس طريقهم السابق، وأنّ ادّعاءهم الإسلام إنّما هو من أجل تعزيز مكانتهم بين المسلمين، لانتهاز الفرصة المناسبة والوصول إلى السلطة والحكومة بعد إقصاء المؤمنين الحقيقيين عنها، ومع الالتفات إلى هذه الحقيقة نواجه قضيتين لابدّ من تحليلهما بشكل مختصر.

القضية الأُولى: لماذا؟

لماذا قبل النبي الأكرمصلى الله عليه وآله الإسلام الظاهري والسياسي لهؤلاء المنافقين الخطرين؟ حتى إنّه أعطاهم بعض الامتيازات ـ المحدودة طبعاً ـ من قبيل أنّهصلى الله عليه وآله في فتح مكة لم يكتف بالعفو عن أبي سفيان، بل إنّه جعل من بيته ملجأً وملاذاً للآخرين كالكعبة، وجعل له حصّة من بيت المال[٢]، فلم يسمح النبي الأكرمصلى الله عليه وآله بدخول هؤلاء إلى ساحة الإسلام فحسب! بل إنّه حدّد لهم بعض الامتيازات ، بالرغم من أنّ القرآن الكريم يحثّ على جهاد المنافقين مثل ما يحث على جهاد الكفّار والمشركين، حيث يقول: ﴿ياأيّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم...﴾[٣].

ولتفسير هذه القضية لابدّ من القول:

أوّلاً: إنّ المنافقين لم يكونوا منحصرين بأبي سفيان وأُسرته، بل كانوا مجموعات وفئات مختلفة لها إمكانات مؤثّرة في المجتمع، والأنكى من ذلك أنّ كثيراً من المسلمين ـ لعدم معرفتهم بحقائق الأُمور ـ كانوا يحترمون كثيراً منهم، ويعتبرونهم

---

١. شرح النهج، ج ٢، ص ٤٤، ج ٩، ص ٥٣ و ج ١٥، ص ١٧٥؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٤٢.

٢. أُسد الغابة في ترجمة أبي سفيان.

٣. سورة التوبة، الآية ٧٣؛ والتحريم، الآية ٩.

رجالاً مرموقين، ولم يدركوا الخطر الكامن في المستقبل من ورائهم، ولهذا كانوا يتردّدون في قتالهم وينضمّون إلى صفوفهم أحياناً، وهذا ممّا كان يربك الارضاع الداخلية للمجتمع الإسلامي الفتي، وبالتالي يزعزع أركان الإسلام التي لم تستحكم بعد.

ثانياً: إنّ مقاصد المنافقين وأهدافهم المشؤومة وإن كانت واضحة لدى المؤمنين الحقيقيين وخاصة الرسول الأكرمﷺ وأهل بيته الطاهرين، ولهذا نجد أنّ النبيﷺ كثيراً ما لعن المنافقين حتى بعد إسلامهم وخاصة بني أُمية، ولكن مع ذلك كانت هناك عوامل أُخر تستوجب مداراتهم في تلك الظروف الحسّاسة، وأحد هذه العوامل أنّ بعض هؤلاء المنافقين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي في القبائل العربية، ولهذا فقد كان إسلامهم الظاهري يؤكّد عظمة الإسلام، ويرغّب الناس في الدخول في هذا الدين الجديد. وبالرغم من أنّ الهدف الأساس للنبي الأكرمﷺ ـ كما ذكرنا في بداية الكتاب ـ هو بناء مجتمع قائم على الإيمان الحقيقي، ولكن من أجل تحقيق هذا الهدف لابدّ من ترسيخ دعائم الدين الإسلامي ولو في الظاهر، حتى يوفّر المناخ الملائم لتحويل الفكر الإسلامي إلى ممارسة، والامتداد في وجدان الإنسان كحقيقة إيمانية حاسمة، ولهذا أعطى نبي الإسلامﷺ هؤلاء المسلمين في الظاهر امتيازات محدودة حتى يتمكن من الاستفادة منهم بشكل أكثر أو يدفع من شرّهم على الأقل.

القضيّه الثانية: إسلام بني أُمية حربة سياسية:

وهنا يبدو سؤال مهم: وهو أنّ بني أُمية بعد إظهارهم الإسلام، أيّ طريق سلكوا؟ وما هي أهدافهم ومقاصدهم؟

مع قليل من التأمل في النصوص التاريخية التي تتحدّث عن صدر الإسلام، نرى بوضوح أنّ أهداف بني أُمية ومقاصدهم لم تتغير أبداً، بل اتخذت شكلاً إسلاميّاً في الظاهر، لأنّهم أدركوا جيّداً بعد انتصارات المسلمين المتلاحقة وتوسّع دائرة الإسلام، أنه ليس بإمكانهم مواجهة الإسلام كما في السابق، والإعلان عن

مقاصدهم الدنيئة أمام المسلمين بصراحة، ولهذا رأوا أنّ مصالحهم ومنافعهم تنحصر في انضوائهم تحت لواء الإسلام، لينفذوا بهذا الطريق إلى ضمير المسلمين، ويتوّغلوا في أجهزة الحكم الإسلامي، ويعبّدوا بذلك طريقهم نحو السلطة، والخلاصة أنّ الأمويين أظهروا الميل إلى اعتناق الإسلام، ولكنّه كان ميلاً سياسياً وظاهرياً لا واقعياً، وذلك أنّ فتوحات الإسلام المدهشة كانت في نظرهم مائدة عامرة تفتح شهيّتهم أيضاً.

وهناك شواهد كثيرة على أنّ ميل الأمويين نحو الإسلام أو مواقفهم ومنطلقاتهم في المجتمع الإسلامي كان سياسياً ظاهرياً، وأحد هذه الشواهد أنّ أبا سفيان رأس الأمويين طلب من النبي الأكرمﷺ أن يجعل ابنه من كتّاب الوحي[1]، مع أنّ أبا سفيان كان يرى أنّ النبيﷺ هو السبب في قتل أحد أولاده والكثير من أقربائه، ولهذا عندما رأى بلالاً على سطح الكعبة تضجّر من ذلك وقال: «لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد» [2] وكذلك كلامه في معركة اليرموك ضد الروم وكلامه في مجلس عثمان كما مرّ ذكرهما. وبهذا يتبيّن هدف أبي سفيان من طلبه المذكور، إذ إنّه بهذا الطريق يتمكن من التوغّل في جهاز الحكم، ويحصل من جهة على المعلومات والأخبار المهمة عمّا يدور في الساحة الإسلامية، ومن جهة أُخرى يصبح إبنه موضع احترام المسلمين وتقديرهم، ويؤدّي في النهاية إلى أن يتقدّم هو وبنو أُمية باتجاه بلوغ أهدافهم.

ومضافاً إلى هذه الوسيلة السياسية، فقد كان لأبي سفيان وسيلة أُخرى للاطلاع على أخبار جهاز الحكم، وللنفوذ في أعماق المجتمع الإسلامي، وهي أن رسول اللهﷺ قد تزوج من ابنته أُم حبيبة ـ الذي كان زواجاً سياسياً كأكثر زيجات النبي ـ فكانت فرصة مناسبة للأمويّين للاستفادة القصوى من هذا الظرف المناسب أيضاً.

---

١. صحيح مسلم، ج٧، ص ١٧١؛ شرح النهج، ج ١٥، ص ١٧٥.

٢. شرح النهج، ج١٥، ص١٧٥.

وقد استفاد الأُمويون من هذه الأدوات وعلّقوا عليها أهميّة كبرى طيلة تاريخ حكمهم، فكانوا يثبّتون أركان سلطانهم في المجتمع الإسلامي بهذه الوسيلة، وخاصة معاوية الذي شيّد إمبراطورية الأمويين، فكان يخدع أهل الشام بهذه الوسيلة بشكل عجيب، ومنها أنّه صعد على المنبر يوماً وقال: «**هذا كتاب كتبه أميرالمؤمنين معاوية صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً، وكان أُميّاً لا يقرأ ولا يكتب، فاصطفى له من أهله وزيراً كاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد وأنا أكتبه، وهو لا يعلم ما أكتب، فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه فقال له الحاضرون كلّهم: صدقت ياأميرالمؤمنين**»[١].

أجل، إنّ معاوية الذي لم يستغرق عمله عند النبي سوى عدّة أشهر وكان فيها يكتب للنبي الأكرمﷺ بعض الكتب والرسائل، سَمّىٰ نفسه من كتّاب الوحي، بحيث إنّه يتصل بالله تعالى حتى بدون اطّلاع النبيﷺ، مع أنّ ابن أبي الحديد يقول ما ملخصه: (إنّ جميع المحققين يعلمون أنّ كتابة معاوية تنحصر بالقضايا اليومية ولا علاقة لها بالوحي إطلاقاً)[٢].

وهكذا استغل سائر الأمويين كثيراً من ارتباطهم مع النبيﷺ بواسطة زواجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان، وجعلوا من أنفسهم (أخوال المؤمنين) والرحماء بالمسلمين، وعن هذا الطريق أيضاً ادّعوا أنّهم ورثة الرسول الأكرمﷺ وخلفاؤه.

وبالرغم من أنّه لا يكاد يخفى على أحد في هذا الزمان زيف ادّعاءات الأمويين، إلّا أنّهم بأساليبهم استطاعوا حينها أن يخدعوا الكثير من المسلمين بسياستهم وإعلامهم الكاذب، وأن يجعلوا من أنفسهم خلفاء النبيﷺ، وقادة المسلمين في الدين والدنيا، حتى إنّ الكثير من المسلمين وخاصة في الشام خُدعوا إلى درجة أنهم عندما انتصر عليهم السّفاح العباسي وأخذ زمام الحكم حلفوا أنّهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أُمية[٣].

---

١. شرح النهج، ج ٤، ص ٧٢. ٢. شرح النهج، ج ١، ص ٣٣٨.

٣. مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٣؛ شرح النهج، ج ٧، ص ١٥٩.

تبديل الاسلوب بعد فتح مكّة

وعلى كل حال، إنّ سعي الأمويين للوصول إلى الخلافة وسدّة الحكم لم يبدأ في فترة تولّي معاوية لإمارة الشام، بل بدأ منذ فتح مكة، فحين ذاك عرفوا أنّه لابدّ لهم من تغيير أُسلوب المواجهة مع الإسلام والمسلمين، وعليهم أن يدخلوا في دائرة الدين للوصول إلى أهدافهم، وعلى هذا الأساس سعى أبو سفيان منذ ذلك الوقت إلى النفوذ في جهاز الحكم، فعلى سبيل المثال نجد أبا سفيان في حادثة السقيفة يظهر الحرص على الإسلام ومصالح المسلمين، ويأتي إلى الإمام عليعليه السلام ويقول: «...يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أُموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان؟ علي والعباس؟ وقال: يا أبا الحسن! ابسط يدك حتى ابايعك... فأبى عليعليه السلام عليه... وقال: إنّك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة... لا حاجة لنا في نصيحتك»[١].

إنّ اقتراح أبي سفيان هذا على الإمام عليعليه السلام، وجواب الإمام له، يوضّح أنّ أبا سفيان وأزلامه كانوا يشكّلون تنظيماً سريّاً خلف الأحداث لرصد الواقع المتغيّر، وهذه المنظّمة كانت قوية لدرجة أنّ باستطاعتها الضغط على حكومة أبي‌بكر وتغيير دفّة الحكم. كما صرّح بذلك أبو سفيان في حواره مع عليٍّعليه السلام.

ومن هنا يتّضح السبب في عدم قيام الإمام عليعليه السلام على المستوى العملي بعد وفاة النبيصلى الله عليه وآله بالمطالبة بحقّه في الخلافة، فهوعليه السلام يعلم أنّ أبا سفيان ومشركي الأمس ومنافقي اليوم بشكل عامّ، خطّطوا وتآمروا على إثارة الخلافات بين المسلمين لتحقيق أهدافهم، ولذلك اضطرّ عليٌّعليه السلام أن يسالم جهاز الحكم آنذاك لمنع حدوث الخلل والارتباك في مفاصل المجتمع الإسلامي.

---

١. تاريخ الطبري، ج٢، ص٤٤٩؛ الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٢٦.

أخطر منعطف في تاريخ الإسلام

في الواقع إنّ الإمام عليّاًعليه السلام بعد رحلة النبي الأكرمصلى الله عليه وآله رأى نفسه أمام مفترق طريقين صعبين:

الطريق الأوّل: استخدام القوة في عملية استرجاع حقّه في الخلافة، والنتيجة فسح المجال لقوى الانحراف والانتهازيين ـ أمثال أبي سفيان وأزلامه ـ لتثبيت مواقعهم على حساب اهتزاز المواقع الإسلامية.

الطريق الثاني: عدم استخدام القوّة، والاكتفاء بالمواجهة الكلامية، والنتيجة ـ على الأقلّ ـ عدم تزلزل أركان الإسلام وعدم تعرّض الإسلام للخطر برغم المفاسد الكثيرة المترتّبة على تحوّل الخلافة عن مسيرها الأصلي.

ومن البديهي أنّ الحفاظ على بنيان الإسلام والنظام الإسلامي مقدّم لدىٰ الإمام عليعليه السلام على كل شيء حتى على خلافته، ولذلك فمن الضروري اتّخاذ الطريق الثاني والتضحية بالفرع مقابل الأصل، حتى وإن أصبح الإمامعليه السلام في حالٍ يصفه: «فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى»[1]، وهذا أيضاً نموذج من شجاعة الإمام عليعليه السلام السياسية، كما هو الحال في شجاعته في ميدان القتال، حيث كانعليه السلام ينطلق من موقع الرسالة لا من موقع الذات، فكانت مواقفه السياسية الشجاعة هذه أيضاً تمثّل عنصر الحياة في كيان الأُمّة الإسلامية.

ومن الواضح أنّ مكانة الإمام عليعليه السلام بين المسلمين لم تكن كمكانة النبي الأكرمصلى الله عليه وآله بينما كان أعداؤه أكثر من أعداء النبيصلى الله عليه وآله بكثير؛ لأنّهعليه السلام قتل الكثير من رجالاتهم وكبرائهم، من قريش وغير قريش، ولهذا كان لزاماً على الإمام عليعليه السلام أكثر ممّا كان على النبيصلى الله عليه وآله ـ ومن أجل مصالح الإسلام ـ مسالمة الواقع الجديد وعدم التعرّض لرموزه في مواجهة عمليّة تبعث على تكريس وخامة الوضع الداخلي.

---

١. شرح النهج، ج١، ص١٥١.

وقد صرّح الإمام علي عليه السلام بذلك بقوله: «... فلمّا مضى صلى الله عليه وآله لسبيله تنازع المسلمون الأمر بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر على بالي أنّ العرب تعدل هذا الأمر بعد محمد عن أهل بيته، ولا أنّهم مانعوه عنّي من بعده، فما راعني إلّا انثيال الناس على أبي‌بكر وإجفالهم اليه ليبايعوه، فأمسكت يدي ورأيت أنّي أحق بمقام محمد صلى الله عليه وآله في الناس ممّن تولّى الأمر من بعده، فلبثت بذاك ما شاء الله حتى رأيت راجعة من الناس رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين الله وملّة محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً وهدماً يكون المصاب بهما عليّ أعظم من فوات ولاية أُموركم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل ثمّ يزول ما كان منها كما يزول السراب وكما يتقشع السحاب، فمشيت عند ذلك إلى أبي‌بكر فبايعته ...»[١].

ملاحظة هامّة

وفي حديث أبي سفيان المتقدّم بعد السقيفة، نقطة مهمّة أُخرى تلفت النظر وتستدعي التأمل، إذ تكشف عن السياسة الجديدة الخطرة للامويين ومن هم على شاكلتهم، وكذلك الوضع الصعب للإمام علي عليه السلام، وهي أنّ أبا سفيان ـ ومعه بطبيعة الحال أعوانه ـ كانوا يدّعون الحق وتحقيق العدالة، ولهذا تقدّموا بذلك الاقتراح إلى الإمام علي عليه السلام لإصلاح الجهاز الحاكم، وكأنّ أبا سفيان ـ في الواقع ـ أصبح متحرّقاً على الإسلام أكثر من الإمام علي عليه السلام ومستعدّاً للتضحية في سبيل مصالح الإسلام والمسلمين أكثر من كل مسلم .

إنّ موقف أبي سفيان هذا الذي يتظاهر فيه بالخير والصلاح يذكّرنا بكتاب ابنه معاوية الذي بعثه إلى الإمام علي عليه السلام بعد هذه الواقعة بخمس وعشرين سنة تقريباً، ويوصي فيه الإمام عليّاً عليه السلام بمراعاة التقوى وحفظ مصالح الإسلام والمسلمين، فكان كـ (ناقل التمر إلى هجر)، إذ يقول: «إنّي أُحذّرك الله أن تحبط سابقتك بشقّ

١. الامامة والسياسة، ج١، ص١٧٥؛ شرح النهج، ج٦، ص٩٥؛ وج١٧، ص١٥١.

عصا هذه الأُمّة وتفريق الجماعة فاتّق الله واذكر موضع القيامة»[١]. ويريد بذلك أنّك برفضك وعدم استعمالك لي ولأمثالي تفرّق عصا الأُمّة.

ويذكّرنا أيضاً بكتاب لمعاوية كتبه بعد ذلك بحوالي خمس عشرة سنة للإمام الحسين عليه السلام، وحذّره من عاقبة مخالفته لولاية عهد معاوية لابنه يزيد السكّير، مستدلاً على أنّ مخالفة الحسين عليه السلام لولاية العهد مخالفة للشرع، لأنّها تشقّ عصا الأُمّة وتضرّ بمصالح المسلمين، إذ يقول فيه: «واتّق الله ولا تردنّ هذه الأُمّة في فتنة وانظر لنفسك ولدينك ولأُمّة محمد»[٢].

وكذلك يذكّرنا بكلام ليزيد السكّير ابن معاوية هذا وحفيد أبي سفيان، ويزيد المعروف بمقولاته الكافرة والمعادية للإسلام والقرآن والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، واستهزائه بكلّ ذلك، ومن الغريب جدّاً أن يزيد هذا، قال ـ بعد عشر سنوات من كتاب معاوية المذكور آنفاً، وفي مقابل رأس الحسين عليه السلام ـ مخاطباً زينب عليها السلام: «إنّما خرج من الدين أخوك وأبوك»[٣]، وأوضح لأهل الشام بأنّه وأباه كانا أحقّ بالخلافة من الحسين وأبيه عليهما السلام، واستدلّ بالآية الكريمة ﴿... تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء﴾[٤] وقال لها: ولهذا آتاني الله الملك ومنع أخاك وأباك.

ونلاحظ التشابه العجيب بين هذه الكلمات من أبي سفيان ومعاوية ويزيد، فكلّها تبيّن عمق تآمر بني أُمية على الإسلام، واتّخاذهم الإسلام حربة سياسية لتثبيت أركان سلطتهم وتعزيز مواقعهم السياسية بين الأُمّة، وخاصة لقمع أهل بيت النبي الذين طهّرهم الله تطهيراً، وفي الواقع كانوا من أتباع مذهب (ميكافيلي) الذي يعني: التظاهر بالحقيقة بمقتضى السياسة والمصلحة الفعلية(الغاية تبرر الوسيلة)، فبنو أُمية توغلوا في هذا السبيل إلى درجة أنّهم أخذوا ينصحون الإمام علي والحسين عليهما السلام

---

١. شرح النهج، ج١٤، ص٤٢؛ وقعة صفين، ص١١٠.

٢. الإمامة والسياسة، ج١، ص٢٠٣.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٥٣ وج ٥، ص ٤٦١؛ الإرشاد، ج ٢، ص ١٢١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٦.

٤. سورة آل عمران، الآيه ٢٦.

بحفظ مصالح الإسلام والمسلمين، بل حاربوهما على ذلك، حتى إنّ يزيد أفتى بخروجهم عن الإسلام، وهنا ينبغي أن يأسف المسلم كل الأسف، وفي الوقت نفسه يعرف الكثير عن حقائق الإسلام التي مُنع وصولها إلينا فغفلنا عنها.

لو لم تنحرف الخلافة عن مسيرها الحقيقي...

تعرّفنا في الصفحات السابقة على تيارين في المجتمع الإسلامي، وهما: (التيار الأُموي) و (التيار الهاشمي) وأهدافهما بشكل مختصر، ولكن المسألة المهمة التي يجب ذكرها هنا، هي أنّ الأمويين على الرغم من حبهم للرئاسة ومكرهم وخداعهم السياسي واستغلال الإسلام وعنوانه لتمرير مؤامراتهم وتحقيق أهدافهم المشؤومة، لم يكن باستطاعتهم الهيمنة على العالم الإسلامي، وخاصة أنّهم كانوا أقلية ومنبوذة من قِبَل المسلمين، ولهذا سعوا الىٰ تحقيق أهدافهم ـ علاوة على التظاهر بالإسلام ـ بكسب مواقع جديدة في مجمل حركتهم، تلك المواقع التي تساعدهم في عملية النفوذ والتوغّل في مفاصل الطبقة الحاكمة والحصول على المراكز الحسّاسة ... والتي تساعدهم في الامتداد إلى ضمائر المسلمين وقلوبهم ومحاولة كسب تعاطفهم وتأييدهم ... والتي تساعدهم في تثبيت سيطرتهم حتى على الأُمور الدينية والشؤون الشرعية للناس فيتمكّنون بذلك من الإمساك بزمام الدين والدولة، ووجدوا أنّ نيل هذه المواقع يتمّ من خلال خلافة أبي‌بكر وعمر والتي تكرست في خلافة عثمان.

ولا نريد هنا أن نبحث في أحقية الإمام عليعليه السلام بالخلافة، وأنّه ممّا تقوم عليه الأدلّة والإثباتات العقليّة، وكذلك الآيات والأحاديث أيضاً من قبيل: آيات المباهلة والولاية والتبليغ وغيرها، وكذلك أحاديث الثقلين والغدير والمنزلة والسفينة وغيرها، ففي هذا المجال ألّف الكثيرون من العلماء كتباً جليلة طيلة تاريخ الإسلام، حتى إنّهم ذكروا اعترافات أساسية لبعض الصحابة، كقول عمر لابن عباس: «يابن عبّاس أما والله إنّ صاحبك هذا لأولى الناس بالأمر بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله إلّا انّا خفناه على اثنين، قال ابن عبّاس: فقلت: ما هما ياأميرالمؤمنين؟ قال: خفناه على حداثة سنّه

وحبّه بني عبدالمطلب»[١].

والهدف من البحث في هذا الموضوع هو الوصول إلى حقيقة أن تحوّل موقع الخلافة عن وضعه الطبيعي والذي أدّى إلى تهميش الدور الذي رسمه رسول‌الله ﷺ للإمام علي عليه السلام ـ هو الذي سمح لبني أُمية بالنفوذ إلى مواقع الحكم، ولاسيما في عهد عثمان بن عفان، تمهيداً لاستيلائهم على مقام الخلافة، وبالتالي حدوث وقائع وفجائع عظيمة كفاجعة كربلاء.

وأساساً، فإنّ الميزة المهمة للإمام علي عليه السلام تمثّلت في عدم سماحه للمفسدين والانتهازيين ـ وخاصة بني أُمية ـ من التوغّل والنفوذ في جهاز الحكومة الإسلامية، وكان في ذلك حازماً إلى درجة أنّه أجاب ابن عباس الذي اقترح عليه أن يداري معاوية عدّة أيام إلى أن تتثبّت أركان حكومته فقال عليه السلام: «والله لا أُعطيه إلّا السيف»[٢]، بينما اعتمد الخلفاء على معاوية ونظائره كثيراً وسلّموه ـ ومن معه من أعوانه ـ مواقع حسّاسة في المجتمع الإسلامي، ومهّدوا لسيطرتهم على مقاليد الأُمور، وعملوا ما سيؤول طبعاً إلى تهيئة الأرضية لحدوث فجائع مستقبلية كبيرة كفاجعة كربلاء، سواء علموا بذلك أو لم يعلموا.

والخطأ الآخر للخلفاء الذي أعان معاوية وأضرابه على ترسيخ أقدامهم وتعميق سيطرتهم، هو أنّ الخلفاء لم يهتمّوا بوظيفتهم الأساسية في الخلافة، وهي تربية الناس تربية إيمانية، فلو أنّهم سعوا في هذا السبيل لم يكن بمقدور الأمويين أن يجدوا سبيلاً إلى الخلافة، وكما يقول العلايلي ما حاصله: «إنّ الخلفاء لم يعرّفوا الإسلام الحقيقي للنّاس، ولم يرشدوهم في هذا السبيل، ولم يسلكوا معهم السلوك المعنوي، ومن هذا وجد الأُمويون الفرصة سانحة في إنجاح مخطّطهم وتطوير عملهم لنيل السلطة»[٣].

١. شرح النهج، ج ٢، ص٥٧ وج ٦، ص ٥١؛ محاضرات الراغب، ج٧، ص٢١٣؛ النزاع والتخاصم، ص١٠١.
٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٦٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص١٩٧.
٣. تاريخ الحسين للعلائلى ص ٤٤٨.

إمتياز آخر للإمام علي‌عليه‌السلام

والميزة الأُخرى للإمام علي‌عليه‌السلام مقارناً بالخلفاء الآخرين، هو أنّه اهتم بالدرجة الأُولى بتربية الناس تربية إيمانية، وتحرّك على مستوى تأصيل التكامل المعنوي للمجتمع الإسلامي، والانطلاق منه نحو التوسّع الظاهري في دائرة الواقع الخارجي، والشواهد التاريخية تظهر بوضوح أنّه لم يكن لأيٍّ من الخلفاء في صدر الإسلام أصحاب جديرون ومتميّزون ليكونوا هداةً للآخرين ونبراساً وقدوة للناس في الدائرة المعنوية سوى الإمام علي‌عليه‌السلام، فإنّه هو الذي ربّى عدّة من أصحابه المخلصين تربية سامية جعلتهم في أوج المقام السامي للإنسانية، وكذلك كانت أحاديثه وخطبه وكتبه مؤثّرة إلى درجة أنّها بقيت تراثاً خالداً للأمة الإسلامية، ورسالة حيّة يقتبس منها الناس نوراً على مرّ الزمان، حتى إنّ عمر بن الخطاب اعترف بقدرة الإمام علي‌عليه‌السلام على هداية الناس، فقال: «أما والله لئن ولّيتهم لتحملنّهم على الحق الواضح والمحجّة البيضاء»[1].

ولكن غيره من الخلفاء اتخذوا من أمثال بني أُمية أمراء ومستشارين في جهاز الحكم، ليكونوا قدوة للمسلمين، ومن هنا استطاع الحزب الأُموي بقيادة معاوية أن يصل إلى السلطة السياسية والاجتماعية، وكذلك استطاع تضليل المسلمين وإبعادهم عن الإسلام الحقيقي القائم على العدالة والفضيلة حتى مع كونهم في صورة الإسلام، بل استطاع إخراج المؤمنين الحقيقيين: (أمثال أبي ذر وابن مسعود وعمار وحجر بن عدي و...) عن جماعة المسلمين، بل وضربهم وقتلهم.

وبالرغم من وجود رجال مخلصين أمثال الإمام علي‌عليه‌السلام يرصدون الواقع الموضوعيّ بوعي كبير في ذلك التيّار التراجعي الخطير، ويتحرّكون على مستوى نقد الخلفاء وتصرفاتهم، من قبيل فسح المجال لأمثال معاوية بتسلّم المناصب الحسّاسة في المجتمع الإسلامي، إلّا أنّ خداع معاوية والماكرين والمنافقين من أمثاله من جهة، وتساهل الخلفاء وخاصة عثمان، بل ومودتهم لمعاوية وأضرابه من

١. تاريخ المدينة، للنميري، ج ٣، ص ٨٨٢؛ شرح النهج، ج ١، ص ١٨٦.

جهة أُخرى، أجهضت تلك الاعتراضات البنّاءة وربّما أبعدت هؤلاء المعترضين المخلصين ـ الذين أشرنا إليهم ـ عن الساحة وخنقت أصواتهم بل وعرضتهم لأنواع الإهانات حتى من قبل عثمان نفسه.

تصريح عثمان

وقد كان عثمان يصرّح بأنّ مساره في هذا المجال يختلف عن سيرة الرسول الأكرمﷺ، فيقول: «كان رسول الله يقدّم بني هاشم ولكنني أُقدّم بني أُمية على غيرهم وأضع كل شيء بيدهم، ولو أنّ بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوها عن آخرهم»[1].

فهذه الحالة أدخلت السرور على قلب أبي سفيان والد معاوية وكبير بني أُمية، حتى إنّه جاء إلى قبر حمزة الشهيد عم النبيﷺ وركله برجله وقال مستهزءاً:«يا أبا عمارة، إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به»[2].

ويذكر الكاتب المصري عباس محمود العقاد بهذا الشأن واستناداً للمصادر المعتبرة الإسلامية: «... حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأُمويون أيّما انتصار، لأنّه رأس من رؤوسهم وابن عمّ قريب لزعماء بيوتهم، وأصبحت الدولة الإسلامية أُموية لا يطمع في خيراتها ولا ولاياتها إلّا من كان من أُمية أو من حزبها، فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسه عن سائر الناس، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام يجتذب إليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون أو يخشى منهم الخلاف .

فلمّا قتل عثمان كان المنتفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعاً من الأمويين أو من صنائعهم المقربين، ومال السلطان إلى جانب بني أُمية على كل جانب آخر من القرشيّين وغير القرشيين»[3].

---

١. مسند أحمد، ج١، ص٦٢؛ أُسد الغابة في ترجمة عثمان.

٢. شرح النهج، ج١٦، ص١٣٦.

٣. أبو الشهداء، ص٢٩، النزاع والتخاصم للمقريزي، ص١٩؛

خطأ أو جريمة؟

وهنا نتساءل: هل يمكن القول بأنّ ما حدث في عهد عثمان بن عفان، كحرمان المخلصين المؤمنين، أمثال: أبي ذرّ وعمّار وعبدالله بن مسعود وسائر الصحابة المجاهدين من جميع المهام الحكومية، بل الاعتداء عليهم وإهانتهم ونفيهم وتعذيبهم بأيدي رموز السلطة، هو مجرد خطأ؟ وهل يمكن القول بأنّ السماح للمنافقين والانتهازيين من قبيل معاوية ومروان وابن أبي سرح والوليد و... في النفوذ إلى الخلافة الإسلامية، بالرغم من أنّ مناهضتهم للإسلام وإشاعتهم للفتنة لا تكاد تخفى على أحد، والجميع يعلم أنّهم قد طردوا ولعنوا على لسان النبي الأكرمﷺ والقرآن المجيد، هل هو مجرّد خطأ؟

أجل، لابدّ من القول هنا: إنّ هذه الأعمال ليست مجرّد خطأ، ومع الأسف أنّ المتعصبين لا يولون أهمية لهذا الواقع الذي صنعه الخلفاء، والذي أدّى إلى كثير من المصائب في الأمّة الإسلامية، وإذ سلّطوا المفسدين على رقاب المسلمين، وكانت نتيجة ذلك إراقة الدماء الزكية في كربلاء وغيرها. بل حاول هؤلاء المتعصبون تبريره، وقالوا: إنّ الخلفاء لم يروا من هؤلاء المنافقين والانتهازيين في مدة عملهم إلّا الصلاح والخير، ولذلك لا تقع مسؤولية أعمالهم السلبية على عاتق الخلفاء.

وبالرغم من أنّ المجال لا يتسع للتفصيل في هذا البحث، إلّا أنّنا نشير بشكل مختصر إلى أنّ الخلفاء ـ أساساً ـ لم يكونوا دقيقين بما يكفي في اختيارهم للأُمراء والقادة، وأحد الشواهد على ذلك حوار عمر بن الخطاب مع المغيرة، فقد ذكر المؤرّخون أنّه:

«قال المغيرة: ولّني ياعمر، قال عمر: أنت رجل فاسق، فقال المغيرة: وما عليك؟ كفايتي ورحلي لك وفسقي على نفسي، فولّاه الكوفة فسأل عمر أهلها عن المغيرة،

فقالوا: أنت أعلم به وبفسقه»[١]، أي إنّه من الطبيعي أنّ نصب أمثاله أمر قبيح وغير عقلائي وغير اسلامي.

واللافت للنظر أنّ المغيرة الذي تولّى الكوفة وولاية العراق في زمن عمر بن الخطاب، تسلّم أيضاً ولاية العراق من قبل معاوية لفترة زمنية ثم عزله عنها، وهو الذي طرح على معاوية مسألة ولاية العهد ليزيد للمرّة الأولىٰ من أجل إعادته إلى الإمارة وسعى لذلك كثيراً، والملاحظ أنّ المغيرة شخصياً يعترف بأنّ عمله كان جريمة كبرى ويقول: «فتقت على أُمّة محمد فتقاً لا يرتق أبداً»[٢].

والمغيرة لا يرى في يزيد خطراً على الإسلام فحسب، بل يعتبر معاوية ـ وليّ نعمته ـ أيضاً كذلك ويقول: «إنّ معاوية أكفر الناس وأخبثهم»[٣]، ومع ذلك فإنّ المغيرة هذا يثني على معاوية وحتى على إبنه يزيد أمام الناس، ويذكرهما في خطبه بعنوان خلفاء رسول الله.

ويسوّغ بعضهم تساهل الخلفاء في اختيار الأمراء علىٰ نحو آخر وهو: إنّ الخلفاء كانوا واثقين من ولاء الناس للاسلام وأنهم لا يتّبعون غيره ولا يقعون تحت تأثير انحرافات أُمرائهم، ولهذا لم يتشدّدوا في اختيار الأُمراء بل سلّموا المناصب المهمة في الحكومة لأمثال المغيرة والوليد وعمرو بن العاص ومروان ومعاوية و... مع علمهم بانحرافهم.

ولكن هذا المسوّغ أيضاً مجانب للصواب؛ لأنّ الدليل وكذلك التجربة قائمان على أنّ الايديولوجيّة الكاملة لا يمكنها أن تؤمّن السعادة للمجتمعات البشرية إلّا بأن تترجم في دائرة الواقع العملي على يد سلطة تنفيذية أمينة وأشخاص كاملين لا ناقصين؛ لأنّ الشخص الناقص الذي يقوم بتنفيذ الأُطروحة الكاملة للبشرية إمّا انّه لا يفهم مضمونها الحضاري تماماً، أو أنّه لا ينفّذها بدقة وبكامل حذافيرها، بل إنّ الأساليب الخاطئة والمناهج السلبية قد تؤدي إلى تغيير أو تعطيل هذه المبادىء

---

١. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٥.
٢. الكامل لابن الأثير، ج ٣، ص ٥٠٤.
٣. شرح النهج، ج ٥، ص ١٣٠.

السامية، أو أنّها على الأقلّ تؤدّي إلى إفراغ المحتوى المعنوي لروح هذه المبادىء، وبالتالي تعرّض سعادة المجتمع للخطر، ومن ذلك لابدّ لتأمين سعادة المجتمع من وضع مقاليد الأُمور الاجتماعية والسياسية بيد أشخاص أكفّاء، لكي يتسنّى تنفيذ الاحكام والمعتقدات السامية في حركة الحياة بصورة جيّدة، (وسنتطرق إلى ذلك بشكل أوسع وأدق في الفصل الثالث لدى البحث في حديث الثقلين).

لو روعيت العدالة السياسية ...

يشير القرآن الكريم إلى موضوع (الرجل المناسب في المكان المناسب) في الآية الكريمة: **﴿إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلّةً﴾**[1].

أي إنّ الحكّام غير الأكفاء إذا إستلموا سدّة الحكم، فإنّهم يبعدون الجديرين الشرفاء عن دائرة الواقع السياسي ويحرمونهم من المشاركة في عملية البناء الحضاري للمجتمع، وبعكس ذلك يقرّبون إليهم المنقادين لهم، ويسلمون أزمّة الأُمور بأيديهم، وبهذه الخطط الخاطئة يحرمون الناس من منبع الهداية والرشاد، ويسوقونهم طبعاً إلى الانحطاط والتمزق.

والخلاصة إنّ السياسة الأصيلة والعادلة تقتضي أن يوضع كل شخص في موضعه اللائق به، وبهذه الصورة تكون القوانين والمقرّرات محترمة ونافذة في المجتمع، أمّا السياسة الظالمة والفاسدة فتنطلق من موقف تزييف الواقع بتسليط غير العادلين على أجهزة الدولة وتؤدّي بالتالي إلى نهب ثقافات الشعوب وسحق القوانين والانصهار في عتمة الاستبداد.

وبداية الفساد هذا نشأت منذ أن جعل الخلفاء أمثال عمر بن الخطاب ـ وعلى خلاف منطق القرآن ـ عليّاًعليه السلام وأعوانه في زاوية البيت، ورفعوا من شأن معاوية وابن العاص والمغيرة وأضرابهم، فكانت نتيجة هذه الحركة في الواقع السياسي

---

١. سورة النمل، الآية ٣٤.

انحراف المجتمع الإسلامي، ومزيد من حالات التوتّر التي تفرضها أدوات الصراع، وبالتالي انشطار الواقع الداخلي إلى إثنين وسبعين فرقة متضاربة، فلو تسلّم كل شخص موقعه اللائق به منذ البداية، يعني لو تمّت مراعاة العدالة السياسية في المجتمع، فمن الطبيعي أن تتبعها العدالة الاجتماعية، وفي النتيجة سوف يسلم المجتمع من كل تلك المشاكل والمصائب.

والأدلّة المعتبرة لدى أهل السنة أيضاً وكذلك التحليل التاريخي، يرشدان إلى أنّ عمر بن الخطاب لم يكن يعلم دقائق آيات القرآن كالآية المذكورة آنفاً، وحتى كان يجهل بعض أحكامه العادية، من هنا كان من الطبيعي أن لا يتمكّن من توظيف أدوات المشروع الحضاري الإسلامي وإجراء السياسات الأصيلة للقرآن الكريم، ولم يكن ملتفتاً إلى العواقب الوخيمة التي تترتب على تسليط أمثال المغيرة ومعاوية وعمرو بن العاص على رقاب الناس لكي يجتنب كل ذلك، ونفس عمر هذا كان يعترف بجهله كراراً، فلم يكن يعترف فقط بقدرة الإمام عليّ عليه السلام على حلّ المشكلات الصعبة وعجزه هو عن ذلك بقوله: «لولا عليٌّ لهلك عمر»[1]، بل كان يعترف بذلك في مقابل الأشخاص العاديين أيضاً ويقول: «كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال»[2].

وهكذا نجد أنّ أساس المشاكل التي حلّت بالمسلمين، هو أنّ حكام المسلمين أمثال عمر بن الخطاب وأعوانه لم يكونوا على اطلاع كافٍ بروح التعاليم الإسلامية، بل حتى على كثير من مسائله الظاهرية، وبذلك افتقدوا طبعاً القدرة على ترجمة الإسلام الظاهري إلى ممارسة ميدانيّة فكيف بروح الإسلام ومعطياته الحضارية العميقة؟

---

١. شرح النهج، ج ١، ص ١٨؛ المناقب للخوارزمي، ج ١، ص ٨٠ و....

٢. شرح النهج، ج ١، ص ١٨٢ وج ١٢، ص ١٥.

التدين والكفاءة معاً

كان الإمام عليّ‌عليه السلام ـ من بين جميع القادة ـ يمتلك مزية مهمة تتلخص في معرفته بأدقّ تفاصيل المقاصد الاجتماعية والسياسية للقرآن الكريم، ومنها خطر حكّام الجور والأُمراء الفاسدين كمعاوية على المجتمع الإسلامي، ولذا لم يختر منهم معاونين له في إدارة الحكومة الإسلامية، بل اختار الأشخاص المناسبين والأُمراء الصالحين الذين يتمتّعون بالكفاءة ـ أو التخصّص كما في المصطلح السائد الآن ـ والالتزام الديني.

فالإمام علي‌عليه السلام لم يكن ينتخب الأُمراء بعد دراستهم من كل جانب فحسب، بل إنّه بعد ذلك كان يقوم بمواصلة الرقابة على أعمالهم وأعمال معاونيهم بشكل دقيق، فنراه يوصي ـ مثلاً ـ مالك الأشتر وسائر الأُمراء بقوله: «ثمّ انظر في أُمور عمّالك، فاستعملهم اختباراً ولا تولّهم محاباةً واثرةً، فإنّهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ... ثمّ تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ...»[1].

والسبب في حزم الإمام عليّ‌عليه السلام مع الأُمراء وحكّام الأمصار، هو أنّ الإمام كان يعلم بنظرته الثاقبة أنّ إصلاح المجتمع لا يمكن إلّا باصلاح هيئته الحاكمة والعاملين في الجهاز الحاكم، فكان‌عليه السلام يصرّح «... فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة»[2]. ويصرّح‌عليه السلام أيضاً: «من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه»[3].

ولكن سائر الخلفاء والحكّام على المجتمع الإسلامي لم تكن لديهم هذه البصيرة الحكيمة والنظرة الصائبة التي كانت للإمام‌عليه السلام، بل كانوا على العكس من ذلك يرون أنفسهم أحراراً في تصرّفاتهم واختيارهم، وعلى سبيل المثال كان عثمان يقول لمن كان يعترض عليه في موضوع التصرف ببيت مال المسلمين، وبانفاقه على أقربائه

---

١. شرح النهج، ج١٧، ص٦٨.
٢. شرح النهج، ج١١، ص٩١.
٣. شرح النهج، ج١٨، ص٢٢٠.

من بني أُمية يقول: «فَلِمَ لا أصنع في الفضل ما أحببت، فَلِمَ كنت إماماً إذاً ...»[١].

وكذلك معاوية يرى أنّه فعّال لما يشاء بعدما تولّى أُمور الشام من قبل عمر وعثمان ثمّ استولى على حكومة المسلمين بالمكر والقوة، فكان يقول: «إنّ الأرض لله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي»[٢].

ومروان بن الحكم وزير عثمان وصهره أيضاً كان يقول للمسلمين الذين اعترضوا عليه وطالبوه برعاية حقوقهم: «...أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ...»[٣].

وسعيد بن العاص الذي تولّى حكومة الكوفة من قبل عثمان، كان يقول بمنتهى الوقاحة: «إنّما السواد بستان لقريش تأخذ منه ما شاءت وتترك ما شاءت»[٤].

هذه التصريحات الوقحة وكثير من أمثالها تثبت أنّ الأمويين لم يكونوا يلتزمون بالقوانين العادلة للإسلام، بل كانوا يتصرفون كالفراعنة وحكام الجور في التاريخ، ويقمعون كل اعتراض يوجّه إليهم من قبل المسلمين، ويعملون على تدمير مقدراتهم وسوقهم إلىٰ هاوية الضلال والسقوط.

السبب في استخدام قوى الانحراف في جهاز الخلافة

وهنا يقفز إلى الذهن بطبيعة الحال هذا السؤال: ما الذي دعى الخلفاء إلى أن يدخلوا في منظومتهم الأمويين وأمثالهم من قبيل معاوية والمغيرة والوليد وسعيد ومروان، ويعتمدوا عليهم في إدارة الأُمور،في حين أنّهم حرموا الجديرين منها، أمثال علي عليه السلام، أبي ذرّ، إبن عبّاس، عمّار، عبدالله بن مسعود، بل شتموا وضربوا بعضهم ونفوا بعضهم الآخر؟

أحد الأسباب، هو أنّ الخلفاء شعروا بأنّ أركان حكومتهم تستقر على اكتاف

---

١. شرح النهج، ج٩، ص٦؛ تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٣٧٧.

٢. مروج الذهب، ج٣، ص٤٣.

٣. شرح النهج، ج ٢، ص١٤٦؛ تاريخ الطبري ج ٣، ص ٣٩٧؛ البداية والنهاية ج ٧، ص ١٩٣.

٤. تاريخ الطبري، ج٣، ص ٣٦٥ و شرح النهج ج ٣، ص ٢١؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ١٣٩.

الانتهازيين أمثال معاوية وأعوانه، لا بمعونة الأشخاص المخلصين أمثال عليعليه السلام وأتباعه. فالخلفاء كانوا على علم بأنّهم لو نصبوا علياًعليه السلام وأتباعه ولاةً مثلاً فهم سوف لا يوافقونهم في جميع سياساتهم ومواقفهم، بل سيخالفونهم ولو في بعضها، فسيكونون حينئذٍ حجر عثرة في طريقهم، ولهذا السبب اضطرّ الخلفاء لتحقيق أهدافهم إلىٰ أن يضعوا الفئة الثانية المخلصة جانباً، ويتّجهوا إلى طلب المعونة من الفئة الأُولى الانتهازية، والمخالفة لعليعليه السلام وأتباعه بطبيعة الحال.

ومن البديهي أنّ الجانب المقابل لعليّعليه السلام كان يتشكل ـ عموماً أو غالباً ـ من الامويين وأضرابهم، الذين كانوا يهادنون الخلفاء في مقابل الحصول علىٰ المناصب ومقاليد الأُمور، ويدافعون عنهم في كل مجال، وعلى هذا شيّدوا أركان حكومتهم وحكمهم في الواقع الإسلامي .

والخلاصة: أنّ الخلفاء كانوا يعتمدون على هؤلاء الأُمراء، والأُمراء بدورهم كانوا يعتمدون على هؤلاء الخلفاء، وإذا دقّقنا أكثر في تاريخ صدرَ الإسلام، لرأينا بوضوح أنّ الكثير من الفتن والمصائب كانت حصيلة هذا التعاون المتبادل، أي اعتماد أبي‌بكر وعمر، وخاصة عثمان، على معاوية وأضرابه، واعتماد معاوية وأضرابه على أبي‌بكر وعمر وعثمان، وخاصة أنّهم كانوا عند الناس من الأصحاب القدماء والمقرّبين للنبي الأكرمصلى الله عليه وآله، وأنّهم كانوا المانع الأصلي لتسلّم عليٍّعليه السلام الخلافة بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله.

وبهذا تتّضح الجذور الأساسية لقداسة الخلفاء في أوساط الكثير من المسلمين، فهؤلاء الخلفاء كانوا موافقين على تصرفات معاوية وأضرابه، وكانوا من جهة أُخرى معارضين لعليعليه السلام وأتباعه، فلذلك عمل معاوية وأضرابه من الأُمراء على إحاطة الخلفاء بهالة من القدسية، واختلاق الكرامات الموضوعة ليتمكنوا بذلك من تعزيز سلطة الخلفاء وفي النتيجة تدعيم موقعيتهم وسلطانهم، والأهم من ذلك أنّهم من خلال ذلك يتمكّنون من تزييف مكانة الإمام عليّعليه السلام وأهل بيته وشيعته بين الناس، بذريعة مخالفتهم للخلفاء المقدسين، والعمل على القضاء عليهم، (وهذا ما سنتحدث عنه في موضوع : الوحدة السياسية لا تتعارض مع ...).

ذريعة سياسية مؤثّرة جدّاً

وعلى كل حال إنّ المسألة المذكورة آنفاً تحوز على أهميّة كبيرة، وينبغي تناولها في كتاب مستقل، ولكن الغاية الأساس في هذه الصفحات هو الإشارة إلى هذه الحقيقة المرّة، وهي أنّ الخلفاء سلّموا مقاليد الأمور في الحكومة الإسلامية ومقدّرات المجتمع الإسلامي ـ وخاصة في تلك الفترة الحساسة والمهمة التي تمثّل البنية التحتية للحضارة الإسلامية الشامخة، وستكون بالطبع أُسوةً لما بعدها من المراحل التاريخية ـ بأيدي أشخاص انتهازيين من بني أُمية ومن لفّ لفهّم.

والأنكى من ذلك أنّهم قدّموهم إلى الناس على أنّهم قدوة مرشدين ومعتمدين لدى الخلفاء، ونرى أنّ هؤلاء ولتسويغ اعمالهم ـ ولو كانت منحرفة ـ كانوا يقدّمون إلى الناس ذريعة جاهزة تتمثّل في أنّهم معيّنون من قبل الخلفاء، وهذه الذريعة كانت مؤثرة إلى درجة أنّ معاوية ـ مع سياسته ودهائه ـ كان يتمسّك بهذه الذريعة لتعبئة الناس لصالحه ضد الإمام عليعليه السلام وأتباعه وأهل بيته، فكان يقول: «إنّ لي في الإسلام لقدماً وإن كان غيري أقوى قدماً منّي، لكنّه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه منّي، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك، فلو كان غيري أقوى منّي لم يكن عند عمر هوادة لي ولا لغيري، ولا حدث ما ينبغي له أن أعتزل عملي، ولو رأى ذلك أميرالمؤمنين ـ يعني عمر ـ لكتب إليّ فاعتزلت عمله»[١].

والأنكى من ذلك أيضاً أنّهم عرّفوا معاوية وأمثاله إلى الناس بعنوان أُمناء الخلفاء، ومع أنّهم لقّبوهم بألقاب طاغوتية من قبيل «كسرى العرب»[٢] على خلاف المبادىء الإسلامية وسيرة النبي الأكرمصلى الله عليه وآله، وفي الواقع أنّهم مجّدوا فيهم حتى هذا الأُسلوب الكسروي والقيصري المناقض لأخلاق الإسلام.

---

١. تاريخ الطبري، ج٣، ص٣٦٦؛ الكامل لابن الاثير، ج٣، ص١٤٣؛ شرح النهج، ج٢، ص١٣٣.

٢. أسد الغابة والاستيعاب في ترجمة معاوية.

زلّات أخطر

والمسألة المهمة الأُخرى، هي أنّ أخطاء أبيبكر وعمر وعثمان، لم تنحصر في دائرة تقليد الأمويين وأمثالهم أُمور الخلافة الإسلامية، وكونهم جسوراً لرقيّهم وسيطرتهم من جهة، وإبعاد المخلصين أمثال عليعليه السلام وأتباعه عن مقاليد الأُمور من جهة أُخرى، بل إنّهم ـ بالإضافة إلى ذلك ـ ارتكبوا أخطاءً أكثر خطراً من ذلك ساعدت الأمويين كثيراً في تحقيق أهدافهم ومطامعهم، وهيّأت لهم الأرضية اللازمة للتنكيل بأتباع الإمام علي والحسن والحسينعليهم السلام وشيعتهم. وهذه الأخطاء الأخطر هي بعض أعمالهم الباطلة التي أوجدت آثاراً انحرافية في وجدان المسلمين، ومهّدت الأجواء للحكّام الفاسدين أمثال معاوية وأضرابه. وتذكر المصادر الإسلامية والمنابع التاريخية الموثّقة أنّ بعض الخلفاء كان يطرح أحياناً أحكام الإسلام جانباً ويعمل بآرائه الشخصية، بل إنّ عمر بن الخطاب كان يعمل برأيه أحياناً حتى في زمن النبي الأكرمصلى الله عليه وآله، وقد فصّل بعض المحقّقين، كالعلّامة شرفالدين في كتابيه (المراجعات) و (النص والاجتهاد)، والعلّامة الأميني في كتابه (الغدير)، جملة من هذه الحقائق بالاعتماد على مصادر أهل السنّة، ومنها «رزيّة الخميس» واليوم الذي سبق رحيل الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله إلى بارئه، إذ قال فيه الرسول للحاضرين وهو طريح الفراش: «هلمّوا أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده... الخ» فاعترض عمر على ذلك، وقال: «إنّ رسول الله قد غلبه الوجع ـ وفي الأصل (ليهجر) ـ وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله»[١].

يقول ابن أبي الحديد في شرح هذا الحديث: إنّ عمر برّر مخالفته لوصية النبيصلى الله عليه وآله: «...إنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله أراد أن يذكره للأمر في مرضه فصددته عنه خوفاً من الفتنة وانتشار أمر الإسلام»[٢]، وأضاف ابن أبي الحديد: «هذاالحديث أخرجه

---

١. صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٣٨ باب مرض النبي ـ صحيح مسلم ج ٥ : ص ٧٦ ـ مسند أحمد ج ١ : ص ٣٢٥ ـ طبقات ابن سعد ج ٢ : ص ٢٣٢ و...

٢. شرح النهج، ج ١٢، ص ٧٩.

البخاري ومسلم، واتّفق المسلمون كافّةً على روايته»[١].

وقد تكررت هذه الحالة مع أبي‌بكر حين وفاته، إذ طلب قلماً ودواةً ليكتب للمسلمين كتاباً يعيّن فيه الخليفة من بعده[٢]، ولكنّ عمر لم يتخذ ذلك الموقف الذي اتّخذه من رسول الله ﷺ، ولم يقل: «إنّه ليهجر»، لأنّه كان يعلم أنّ أبابكر سوف يعيّنه لهذا المنصب، وكذلك عمر نفسه ـ عند وفاته ـ أوصى بأمور تتعلّق بالخليفة من بعده، ولم يقل أحد: «إنّه يهجر»، وهكذا سائر الخلفاء الأمويين والعباسيين الذين كانوا يعهدون أمر الخلافة حين وفاتهم لمن يشاؤون من بعدهم، ولذلك كانت وصيّتهم تقبل من الجميع وكأنّها قانون الهي، ولكن العجيب أنّ الرسول الأكرم ﷺ فقط في هذا المجال كان يهجر (معاذ الله)، ولهذا لم ينقل أن مُنع أحد من الخلفاء أو من سائر المسلمين وحتى المشركين، من الوصيّة حين الوفاة سوى الرسول الأكرم ﷺ. فياللأسف! ثمّ ياللأسف!!

الدعوة للوحدة الإسلامية لا تتعارض مع البحث العلمي

من الجدير أن نشير هنا عرضاً إلى موضوع معترض ثمّ نستمرّ في بحثنا، فقد يقال أحياناً: إنّ طرح مثل هذه الأبحاث خطأ أساساً، لأنّه يتنافى مع وحدة المسلمين وخاصة في هذا العصر، ولكنّا مع إقرارنا بأهميّة وحدة المسلمين، نشير إلى الملاحظات التالية:

أوّلاً: إنّ جميع القيم الإسلامية تكمن في حماية الحق والدفاع عنه، فلو أنّنا تركنا توضيح الحق والدفاع عنه، فنكون ـ في الحقيقة ـ قد تركنا الإسلام.

ثانياً: إنّ الهدف الأصلي في الدراسات الإسلامية العلمية ليس تسويغ سلوكيّات الأشخاص، أو مجرد مخالفتهم، وأساساً إنّ الأشخاص لا يقعون في سلّم اولويات البحث، بل المهمّ والأصل هو معرفة الحقائق، وأمّا معرفة الأشخاص فتأتي بالدرجة

---

١. شرح النهج، ج٦، ص٥١؛ النص والاجتهاد، ص ١٥١ نقلاً عن كثير من مصادر السنّة.

٢. شرح النهج، ج١، ص١٦٤.

الثانية، ولهذا يقول الإمام عليعليه السلام في إحدى عباراته الإعجازية: «إنّ دين الله لا يعرف بالرجال، بل بآية الحقّ، فاعرف الحق تعرف أهله»[١]. يعني إنّ معرفة الحق أصل والرجال فرع.

ثالثاً: إنّ البحث في مسألة الخلافة والخلفاء وتأثيراتها في مجمل الحوادث فيما بعد ـ من قبيل واقعة كربلاء ـ لا ربط له بمسألة وحدة المسلمين، غاية الأمر أنّ الذرائعيين والمتعصبين يحاولون من خلال ربط هاتين المسألتين الاصطياد في الماء العكر، فهل القول مثلاً: إنّ عثمان عرّض مصالح المسلمين إلى الخطر في تسليطه بني أُمية على أُمور الخلافة والحكم في الإسلام، وأنّ النتيجة كانت استشهاد الإمام علي ثم الحسن والحسينعليهما السلام والثلة المخلصة من الصحابة والتابعين، فهل أنّ هذه الحقائق المعترف بها حتى عند كثير من مفكّري السنة كطه حسين والعقاد والعلايلي وغيرهم، مخالفة لوحدة المسلمين؟

وأساساً هناك خطأ جسيم يقع فيه بعض المسلمين، إذ يصوّرون أنّ الوحدة الإسلامية يجب أن تقترن بالوحدة الفكرية والعقائدية مع أنّ أهل السنة أنفسهم يختلفون فيما بينهم في كثير من القضايا الأساسية، وبالجملة لا إشكال إطلاقاً في البحث في موضوع الامامة والخلافة، لأنّ ذلك لا يتعارض مع الوحدة السياسية بين المسلمين.

أضف إلى هذا كلّه أنّ تاريخ صدر الإسلام يوضح هذه الحقيقة المهمة، وهي: إنّ أساس الشعور المفرط والحساسية المرهفة تجاه مسألة الخلافة والخلفاء يكمن في أنّ الحكومات الظالمة والعلماء ووعّاظ السلاطين جعلوا من خلافة أبي‌بكر وعمر وعثمان أساس عملهم، حتى يكون بإمكانهم ضرب الموالين لعليّ وأبنائهعليهم السلام، بذريعة أنّهم يعارضون الخلفاء، وهم بذلك يعبّدون الطريق إلى تحقيق سلطتهم ولذا ينبغي أن يقال: إنّ هذه المسألة تكون من جانبهم سياسيّة بالدرجة الأُولى، ولكن من أجل تنفيذها جعلوها دينية بالدرجة الثانية.

١. مستدرك نهج البلاغة: لكاشف الغطاء، ص ١٥٩ الأمالي للمفيد، ص ٥؛ الأمالي للطوسي، ص ٦٢٦.

وهناك شواهد كثيرة على هذه الحقيقة المهمة، فعمرو بن العاص ـ مثلاً ـ قال يوماً لمعاوية ما مضمونه: «إنّ أفضل سبيل لمواجهة الإمام عليعليه السلام وأتباعه هو أن تقوم بتعظيم أبيبكر، وعمر ...»[١]، وهكذا صنع معاوية إذ عمل على تعظيم أبيبكر وعمر ومدحهما والثناء عليهما ووضع الأحاديث الكثيرة في مناقبهما، بالرغم من أنّه لم يكن مؤمناً بهما كما سيأتي، ونجد أنّ المنصور أيضاً ـ الذي هو من أولاد العباس عم النبيصلى الله عليه وآله، وكان بجانب أهل البيتعليهم السلام ظاهراً ومخالفاً لأبي بكر وعمر ـ انتهى به الأمر إلى أن يرى ما رأى معاوية من ضرورة تعظيم أبيبكر وعمر؛ لتثبيت خلافته وحكومته ولضرب تيار الإمام عليّ وأهل بيتهعليهم السلام وأتباعه، فكان يقول بصراحة: «والله لأرغمن أنفي وانوفهم ولأرفعن عليهم بني تيم وعدي»[٢]، أي أُقدّم آل أبيبكر وآل عمر وسنّتهما على عليّ وآلهعليهم السلام وسنّته وشيعته.

هذه النماذج التاريخية تدلّ على أنّ الأساس في الاختلاف بين الشيعة وأهل السنّة في مسألة الخلافة ليس طبيعياً، بل كان ينطلق في الغالب من بواعث سياسية، وفي الحقيقة أنّ الخلاف اكتسب طابعاً حادّاً ومتأزّماً بسبب سياسات حكام الجور، أمثال معاوية والمنصور وإعلامهم ودعاياتهم المكثفة، وإلّا فلو لم تركّز تلك الدعايات المغرضة والإعلام السياسي على هذه المسألة بالذات، لم تحدث كل هذه النزاعات الدامية بين المسلمين التي أزهقت أرواح الألوف وربما الملايين. ومن المهم بل الواجب على العلماء والباحثين أن يدرسوا في هذه المسألة الحسّاسة، وهي أنّ مسألة الشيعة والسنّة مسألة سياسيّة بالدرجة الأُولى ومذهبية بالدرجة الثانيّة، ويجمعوا الشواهد الكثيرة المتوافرة في المصادرالإسلامية بهدف توضيح الحقائق الكبرىٰ في تاريخ الإسلام وجذور الاختلافات بين السنة والشيعة، ممّا يؤدّي إلى تهميش هذه الخلافات وتطويق تأثيراتها السلبية.

---

١. شرح النهج، ج ١٥، ص ١٨٥.

٢. الصراط المستقيم، ج ٣، ص ٢٠٤؛ منهاج الكرامة، ص ٦٩.

ملاحظات هامّة

وعلى كل حال، فالبحوث الدينية والتاريخية لا تتعارض مع الوحدة السياسية، فمن الممكن جداً أن يجمع المسلمين نظام مشترك واحد، وتؤطرهم وحدة سياسية قوية، وفي نفس الوقت يواصلون دراساتهم حول أُصول ومبادئ الإسلام أوّلاً، ومن ثمّ الشخصيات والخطوط السياسية ثانياً، ولابدّ من هذه الدراسات وخاصة أنّ المنطق الحاكم في السابق كان يعتمد حرفيّة الطاعة مع ضبابيّة المعرفة (الطاعة بلا نقاش)، ولكن هذا المنطق يعتبر باطلاً اليوم، حتى إنّ الظالمين لم يعد بإمكانهم الاعتماد عليه، فاليوم يريد المسلمون وغير المسلمين أن يتعرّفوا على الحقائق ويسمحوا للفكر أن يتحرّك وللحوار أن يطرح علامات الاستفهام بالنسبة إلى المسائل والموضوعات المختلفة، حتى لو كلفهم ذلك ترك معتقداتهم القديمة، وقد تقدّم أنّ حديث عمر يعتبر سنداً مهمّاً في هذا المجال، بل أفضل وأكبر قيمة من جميع الوثائق والمستندات الأُخر؛ لأنّه يكشف لنا بعض الحقائق الكامنة خلف ستار الخلافة.

وينبغي هنا أن نشير إلى بعض النقاط الأساسية والملاحظات الهامة في حديث عمر بما يتّفق مع حدود ما يستوعبه هذا الكتاب، طالبين ممّن يخالفنا أجوبة منصفة لها وهذه النقاط كما يلي :

الأُولى: أنّ عبارة عمر: «إنّ النبي ليهجر» كانت بدافع منع النبيّ صلى الله عليه وآله من كتابة وصيّته في استخلاف الإمام علي عليه السلام من بعده، هذا وعمر نفسه يوضّح فيما بعد لابن عباس سبب مخالفته لوصيّة النبي صلى الله عليه وآله فيقول ـ مضافاً إلى ما نقلناه عنه قبل صفحات ـ في جوابه لابن عباس القائل لعمر بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أراد الخلافة له يقولُ: «... **أراد رسول الله صلى الله عليه وآله الأمر له فكان ماذا؟ إذا لم يرد الله ذلك، إنّ رسول الله أراد ذلك وأراد الله غيره فنفذ مراد الله تعالى ولم ينفذ مراد رسوله، أوَ كل ما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله كان؟ إنّه أراد إسلام عمّه ولم يرده الله فلم يسلم**»[1]، وذلك ردّاً على ابن

---

١. شرح النهج، ج ١٢، ص ٧٩.

عباس الذي قال لعمر بأنّ رسول اللهﷺ أراد الخلافة لعليٍّعليه السلام.

سبحان الله من هذا المنطق العجيب، ألا يجوز لنا أن نسأل عمر: إنّ أبا طالب كان ـ كما تدّعي ـ كافراً فردّ إرادة النبيﷺ، أمّا أنت المسلم فلماذا تردّ إرادة النبيﷺ وترفضها؟ ولا حاجة لإثبات أنّ مخالفة عمر لكتابة النبيﷺ للوصية من أقبح صور الاجتهاد في مقابل النص، وقد أثّرت بدورها على مجمل سلوك الخلفاء فيما بعد، وفتحت الطريق أمام الآلاف من الاجتهادات في مقابل النصّ. لقد علّمت معارضة عمر الشديدة والعلنية للنبيﷺ الناس وخاصة أمثال معاوية ويزيد، علّمتهم طبعاً أنّهم ومن أجل تحقيق مقاصدهم السياسية ـ وبذريعة الحفاظ على مصالح المسلمين ـ كيف يخالفون أوامر النبي والأحكام الإسلامية، ومن الطبيعي أنّ هذا الدرس الخَطر الذي ينبغي أن يسمّىٰ بأنّه (درس التجرّؤ على الإسلام والنبي وأهل بيته) يزلزل قواعد ودعائم الإسلام، ويهوي بها إلى الحضيض والسقوط ولو تدريجيّاً.

الثانية: أنّ ابن أبي الحديد يعتقد بأنّ الإمام عليّاً أفضل من أبيبكر، ومع ذلك يقول: «الحمدلله الذي قدّم المفضول ـ يعني أبابكر وعمر وعثمان ـ على الفاضل ـ يعني عليّاً»، وطبعاً إنّ المحققين المنصفين يعلمون بأنّ كلام ابن أبي الحديد يخالف كلام النبي الأكرمﷺ في موارد كثيرة كالغدير وغيره، وأنّ نسبة هذا الأمر (تقديم أبيبكر على عليّعليه السلام) إلى الله تعالى بشكل مطلق، زيف يجانب الحقيقة، ولكن في نفس الوقت لابدّ من القول: إنّ ابن أبي الحديد وأمثاله لم يؤدّوا حقّ الموضوع، إذ يجب عليهم وفقاً لمذهبهم أن يقولوا: الحمد لله الذي قدّم إرادة أبيبكر وعمر على إرادة النبيﷺ.!!

الواقع أنّ أبابكر وعمر قد خالفا أوّلاً أمر النبي الأكرمﷺ، كما رأينا تصريحهما ـ أو تصريح الأخير ـ بذلك، ثمّ تصرّفا في منصب الإمام عليعليه السلام، وإنّ أحد الأساليب الشيطانية للعلماء المرائين والحكّام الفاسدين هو: أنّهم عنونوا مسألة اختلاف الشيعة والسنة كأنّها ناشئة من مخالفة عمر وأبيبكر لعليّعليه السلام، مع أنّ هذه المسألة

في الحقيقة ناشئة أوّلاً من مخالفتهما للنبيّ الأكرمﷺ لا لعليّ؈، وهذه النقطة المهمّة توضّح لنا الكثير من الحقائق في تاريخ الإسلام.

الثالثة: أنّ عبارة عمر الأخيرة «حسبنا كتاب الله» بعد أن اعتبر كلام النبيﷺ هذياناً وهجراً، تخالف كتاب الله تعالى أيضاً؛ لأنّ كتاب الله يقول: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله﴾[1].

الرابعة: أنّ البعض يدّعي أنّ النبي الأكرمﷺ كان موافقاً على خلافة أبي‌بكر وعمر، ولكن مضافاً إلى أنّ هذا إدّعاء محض لا يقوم على أساس رصين (حتى باعتراف أبي‌بكر نفسه، الذي سنذكره بعد قليل) فإنّ نفس مخالفة عمر لوصيّة النبيﷺ دليل على أنّ النبيﷺ لم يكن موافقاً على خلافتهما، وإلّا لم يخالف عمر في جلب الكتاب والقلم لكتابة الوصيّة، وكما رأينا فيما تقدّم أنّ عمر نفسه يصرّح بأنّ مخالفته للنبي كانت بسبب أنّه علم أنّ النبيﷺ أراد أن يكتب كتاباً يعيّن فيه الإمام عليّاً؈ لخلافته بعده.

التعصّب يعمي ويصمّ

طبعاً إنّ عمر قد خالف في بعض الأحيان أوامر النبيﷺ، سواء في حياته أو بعد رحيله، حتى إنّه صرّح بمخالفته لسنة الرسول في بعض المسائل من قبيل متعة الحج ومتعة النساء، ـ ونوكل شرحه إلى مظانّه ـ ولكن المسألة المهمة جدّاً في قضية وصيّة النبي، أنّه مضافاً إلى مخالفته للرسولﷺ، فقد تضمّن كلامه إهانة ليس لها أيّ تبرير معقول، ولهذا السبب فإنّ بعض الكتّاب المعاصرين أمثال (محمد حسنين هيكل) الكاتب المصري المعروف، وإن ذكروا هذا التجاسر في كتبهم ومن مصادر موثّقة ومعتبرة لديهم، ولكنّهم أسقطوها فيما بعد في الطبعات اللاحقة، حتى لا تتوفّر الأرضية اللازمة لإيقاظ المحققين واعتراض المثقّفين على المسؤولين السابقين[2].

هؤلاء المتعصّبون لم يحرّفوا ويتصرفوا بمسألة وصية النبي فحسب، بل إنّهم

---

١. سورة آل عمران، الآية ٣١.

٢. حياة محمدﷺ الفصل الذي عنى بوفاتهﷺ.

تلاعبوا في الكثير من الأحاديث النبوية التي تصرّح بخلافة الإمام عليّ﵇، فإنّهم فضلاً عن سعيهم إلى حذف عبارة عمر من الطبعات المتأخرة لكتاب البخاري، غيّروا وحرّفوا هذا الحديث المهم الذي ذكره كبار أهل السنة أمثال الطبري وابن الأثير والحلبي وغيرهم عن النبي الأكرمﷺ بأنّه أشار إلى عليّ﵇ وقال: «إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»، ولكنّ هؤلاء حرّفوا الكلمات الأصلية لهذا الحديث الشريف مثل كلمة (خليفتي) في الطبعات اللاحقة[1]، فإلى من نشتكي من هؤلاء المتعصبين المعاندين الذين سعوا جاهلين أو عالمين إلى تعظيم عمر حتى على حساب النبيﷺ، وحرّفوا في هذا السبيل كتبهم ومصادرهم وكأنّهم يخافون حتى ممّا ثبت لديهم.

ولا نبالغ إذا قلنا بأنّ الذين يقدمون على مثل هذا التحريف الآن أكثر بكثير من المحرفين في تلك الأزمنة، وبذلك يتسنّى لهم ـ وبتأييد من عناصر أجنبيّة غالباً ـ تزييف ثقافة الإسلام وتاريخه والإجهاز على موروثه الحضاري. ومن الضروري تشكيل منظّمة ثقافية لمعرفة هؤلاء المحرّفين وموارد تحريفهم لحقائق التاريخ الإسلامي كي تمنع من تشويه التراث الإسلامي، وتزييف الحقائق التاريخية، وإرباك الذهنية المسلمة.

الخامسة: أنّ السلوك المذكور لعمر وأعوانه مع رسول اللهﷺ، وبالنسبة إلى وصيّته، يشير إلى أنّه كانت لديهم مخطّطات مسبقة للاستيلاء علىٰ مقام الخلافة بعد الرسولﷺ، غاية الأمر أنّ هذا المعنى تجلّى بوضوح بعد وفاة النبيﷺ، ولا يقبل أيّ عقل سليم إطلاقاً أنّ مخالفة هؤلاء العجيبة لكتابة الوصيّة من قِبل النبيﷺ، جاءت بشكل عفوي وبدون أهداف وحسابات سابقة. خاصة وأنّ الشواهد الأُخرى التي بأيدينا توضّح مقاصدهم الخفيّة هذه، من قبيل أنّ جميع المؤرّخين ذكروا أنّ النبي الأكرمﷺ أصدر أوامره بشكل حازم واكد في الأيام الأخيرة من حياته

---

١. كنز العمال، ج١٣، ص١١٤؛ تاريخ الطبري، ج٢، ص٦٣، تاريخ ابي الفداء، ج ١، ص١١٦؛ الغدير: ج ٢، ص ٢٨٨.

الكريمة أن ينضمّ المهاجرون جميعاً تحت لواء وقيادة أسامة الشاب، وأن يتركوا المدينة المنوّرة متجهين لقتال الروم، ولكنّ هؤلاء خالفوا هذا الأمر[١]، اضافة إلى أنّهم شكّلوا تحالف السقيفة بسرعة والنبي الأكرمﷺ لم يدفن بعدُ، ثم واجهوا كل الاعتراضات التي حدثت في السقيفة وما بعدها[٢].

منع تدوين الحديث أو الفاجعة الموجبة للمصائب!!

السادسة: وهي الأنكى من ذلك كلّه، أنّ عبارة عمر «حسبنا كتاب الله» و «إنّ النبي ليهجر»، ربّما تكون إحدى الممهدات لعملية منع تدوين الحديث، وهو ما تؤكّده الكتب المعتبرة لدى أهل السنة[٣]، فلو فرضنا أنّ النبي الأكرمﷺ قال في اليوم الواحد، عشرين حديثاً (علماً بأنّ السنّة تطلق على كل قول وفعل للنبيﷺ وهي أكثر من هذا المقدار قطعاً)، فعلى هذا ومع حساب ثلاث وعشرين سنة من حياة النبي الرسالية، فيجب أن يكون لدينا أكثر من (١٦٠) الف حديث نبوي، ولكنّ قول عمر ورأيه بكفاية القرآن الكريم، منع نشر كل هذه الأحاديث، بل إنّ المؤرخين ذكروا بأنّ أبابكر وعمر أمرا بجمع أحاديث النبي وإحراقها[٤]، لكي لا تصل إلى أيدي المسلمين.

ولا ريب في أنّ منع الناس من تدوين الأحاديث النبوية كان كارثة كبرىٰ أصابت الإسلام، وأدّت إلى مصائب ومشاكل كثيرة فيما بعد في المجتمعات الإسلامية، وإحدى الآثار السلبية لهذا المنع أنّهم بمحوهم للأحاديث النبوية النورانية فصلوا القرآن عن قرينه المفسّر له؛ فأمست المعارف الإسلامية غارقة في الضباب، وأدّى ذلك إلى أن تتفرّق الأمّة الإسلامية إلى فرق شتّى وملل متخالفة،

---

١. فتح الباري، ج٧، ص ٦٩؛ المصنف (لابن أبي شيبة)، ج٥، ص٤٨٢.
٢. الإمامة والسياسة، ج١، ص٤؛ السنن الكبرى، ج٦، ص١٥٦؛ مسند احمد، ج١، ص٥٥ وج٥، ص٤٣٤.
٣. الغدير، ج٦، ص٢٩٤ نقلاً عن سنن ابن ماجه والمستدرك وسنن الدارمي؛ شرح نهج، ج١٢، ص ٩٣.
٤. كنز العمال، ج٥، ص٢٣٧؛ـ تذكرة الحفّاظ للذهبي، ج١، ص ٥؛ الطبقات لابن سعد، ج٥، ص١٨٨.

ليس فقط على مستوى المسائل الاعتقادية والسياسية والاجتماعية ـ كمسألة الجبر والتفويض، ورؤية الله، والبداء، وخلق القرآن، وعينية صفات الله لذاته المقدّسة، وطريق تكوين الحكومة الإسلامية وأساليبها وشروطها ووظائفها، ووظائف المسلمين قبال الحكّام الصالحين والطالحين و... ـ بل حتى في مسائل الأحكام الشرعية الإسلامية كالصلاة التي هي أهم حكم إسلامي، فقد ابتلوا فيها أيضاً بالتشتّت والفرقة.

وعجيب حقاً ... فرغم أنّ النبي الأكرمﷺ كان يصلي بالمسلمين يوميّاً خمس مرّات، وأقام هذه الصلاة طيلة مدّة نبوّته التي بلغت ثلاثاً وعشرين سنة أكثر من أربعين ألف مرّة، ومع ذلك فإنّ قسماً من أصحابه لم يوصلوا هذه الصلاة النبوية بصورتها السليمة إلى الأجيال اللاحقة، بل نجد أنّه حتى في صلاة النبيﷺ ـ التي أدّاها أكثر من أربعين ألف مرّة ـ نجد هناك إبهامات وتغييرات كثيرة ولو بسبب اختلافهم في نقلها. وهذا كله ممّا يوضّح مدى شدة التلاعب الذي حدث في قضايا حساسة ومصيرية، من قبيل قضيّة (غدير خم) التي حدثت لمرّة واحدة نصب رسول اللهﷺ فيها الإمام علياًعليه السلام وصيّاً وخليفة له.

ومن الضروري هنا الإشارة إلى نقطة أساسية ومهمة في الدائرة الثقافية، وفي الوقت نفسه توضّح أوضاع ذلك العصر، وهي أنّه اذا كان لنبي الإسلامﷺ أربعمئة حديث صحيح فقط في المسائل الإسلامية المهمة كالصلاة وسائر العبادات والمعاملات كما يقول به بعض أهل السنة[1]، بل إنّ أباحنيفة أحد أئمة المذاهب الأربعة، يقول: إنّ الأحاديث النبوية الصحيحة سبعة عشر حديثاً فقط[2]، فإن من البديهي أنّ هذا المقدار القليل جدّاً لا يكفي لتلبية احتياجات الناس جميعاً وفي جميع المسائل، وليس بإمكانها أن ترفد الفقه الإسلامي بكامل أغصانه وفروعه، ولهذا اضطرّ علماء المذاهب الأربعة إلى العمل بالقياس والاستحسان والعمل

١. تاريخ ابن خلدون، ج ١، ص ٤٤٤؛ تدوين الحديث...
٢. المصدر السابق.

بالرأي، ممّا أدّىٰ إلى اختلاف المسلمين في أكثر المسائل إن لم نقل في جميعها.

وهناك ملاحظة مهمّة حول حصر الفقه الإسلامي في (المذاهب الأربعة) ولزوم تقليد أئمّتها، بالرغم من أنّ هؤلاء لم يكونوا يمتازون عن فقهاء المسلمين الآخرين بمميزات كبيرة، سوى أنّ مذاهبهم ـ بشهادة التاريخ ـ قد ثبتت أركانها بسيوف الملوك العباسيين.

تعطيل الحديث هيّأ الأرضيّة لتحريفه

وبتأمّل قليل تتّضح هذه المسألة، وهي أنّ الجذور الأصلية لكلّ هذا الجمود والانحطاط، ترجع إلى أنّ عمر وأبابكر منعا كتابة أحاديث النبيﷺ، فلو أنّ أبابكر وعمر اهتما بأحاديث النبيﷺ، وسمحا على الأقلّ للمسلمين بكتابة وجمع ونشر تلك الأحاديث ـ التي لها دور عظيم في فهم القرآن وتبيين المسائل الإسلامية ـ فمن المسلّم أنّ المجهولات والاختلافات بين المسلمين كانت تقلّ حينئذ، وكان ينمو بسببها الفقه الإسلامي والمعارف الإسلامية، وفي النتيجة لا تتهيأ الأرضية لوجود (المذاهب الأربعة) ولا تسود تجارة القياس والاستحسان والآراء الشخصية، والأهم من ذلك أنّ معاوية وأمثاله لا يستطيعون حينئذ استغلال غياب الأحاديث النبوية الصحيحة، بوضع الأحاديث المزيّفة على لسان وعّاظ السلاطين، أمثال أبي هريرة وسمرة بن جندب وكعب الأحبار وغيرهم، حيث وضعوا أحاديث كثيرة على لسان النبيﷺ، وبثّوها بين المسلمين، هذه الاحاديث المحرّفة للإسلام الحقيقي التي أدت إلىٰ مصائب كبيرة لا تجبر. وأساساً فإنّ تعطيل الحديث وإحراقه بأمر أبيبكر وعمر أدّى إلى تكوين أرضية مناسبة لتحريف الحديث على يد معاوية، وإلّا فلولا تعطيل الحديث النبوي ومنع كتابته على يد عمر وأمثاله لما وصل الدور إلى تحريفه على يد معاوية وأضرابه.

وبمناسبة مسألة تعطيل الحديث، ومن ثمّ تحريفه الذي كان من تبعات تعطيله، لدينا سؤال مهم نوجّهه للباحثين المنصفين، لو استطاعوا الإجابة عنه، و السؤال هو:

بالرغم من أنّ عمر يقول: «إنّ النبي ليهجر»، و «حسبنا كتاب الله»، كيف يتّبعون بعد ذلك هذين الأصلين: كتاب الله وسنة النبيﷺ؟ وأساساً مع الالتفات إلى كلمة عمر هذه، ومع الالتفات إلى اتّجاهه المضاد للحديث، أين تكمن الأحـاديث الحـقيقية للنبي الأكرمﷺ؟ وكيف يمكن الحصول عليها؟! ولو استطعنا الحصول عليها فـما قيمتها؟

ومن ذلك يتضح أنّ أهل السنة ليسوا من أهل السنة، بل من أهل الرأي والقياس والاستحسان، حيث إنّهم وبسبب قلّة أحاديثهم اضطرّوا إلى التـوسّل بأدلّـة غـير منطقية كالقياس والاستحسان، وجعلوها عمليّاً نظيراً للـقرآن وسـنداً إلى جـانبه، فأهل السنة الحقيقيون هم الشيعة الذين رفضوا الخط الأحمر والأسود في التعطيل والتحريف في الأحاديث النبوية، وسلكوا الخط الأخضر، بأن سعوا إلى العثور على الأحاديث النبوية الصحيحة من أهل بيت النـبيعليهم السلام، الذيـن هـم بـتصريح النـبي الأكرمﷺ عِدل للقرآن.

وعلى كل حال، فإنّ عمر خالف رسول اللهﷺ في بعض الامور، اكتفينا بنموذج منها وهو ما ذكرناه من أمر وصية النبيﷺ التي منعها عمر، وكذلك أبو بكر لم يرع حرمة قانون الإسلام وأهل بيت النبيعليهم السلام في عدة مـواضـع، ونـذكر لذلك أيـضاً نموذجاً واحداً من النماذج التي أدّت طبعاً إلى عزلة أهل البيتعليهم السلام، وتعبئة الناس ضدهم، لكي نعلم وندرك أنّ الأرضية لكربلاء وسائر المصائب بدأت منذ رحـيل النبيﷺ وإلغاء وصيّته وإقصاء أهله، وتوسّعت يوماً بعد يوم، وهذا النموذج هو أنّ أبابكر نفسه رغم أنّه كان يعتبر خليفة المسلمين، فقد آذى فاطمة بنت الرسولﷺ بشدة، حتى إنّ الكتب السنية المعتبرة صرّحت بأنّ فاطمةعليها السلام أعرضت عنه وعن معاونه (عمر) وبقيت كذلك إلى يوم وفاتها، مع أنّه من المتّفق عليه لدى السنة والشيعة هو أنّ فاطمةعليها السلام سيدةالنساء، وقد صرّح القرآن بطهارتها وصدقها، وقال النبيﷺ أيضاً في حقّها: «فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذىالله»[١].

---

١. مسند أحمد، ج٤، ص٥ و ص ٣٢٨؛ صحيح مسلم، ج٧، ص ١٤١؛ صحيح بخاري، ج ٦، ص ١٥٨؛ سنن

الإقدام الموهن والكلام الأشدّ توهيناً

إنّ أحد أسباب أذىٰ فاطمةﷺ، أنّ أبابكر انتزع منها (فدكاً) التي نحلها النبيﷺ لها، حتى إنّه أنكر حقها في الميراث إطلاقاً، وبرّر هذا بقوله: «إنّي سمعت النبي يقول: إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث شيئاً»[1].

واللافت للنظر أنّ أصحاب النبيﷺ، وحتى أهل بيته لم ينقلوا هذا الحديث عنه، وعلى فرض صحة هذا الحديث وواقعيته، فإنّ له معنىً خاصّاً لا يتنافى مع الآيات الواردة في هذا المجال، من قبيل: ﴿وورث سليمان داود﴾[2]، ﴿فهب لي من لدنك وليّاً يرثني﴾[3] ولذلك فإنّ بعض الخلفاء المعتدلين نسبيّاً، مثل عمر بن عبدالعزيز رأوا أنّ فدكاً حق أهل بيت النبي الأكرمﷺ فأعادوهاإليهم، وبشكل عام فإنّ (فدكاً) كانت محك السياسة في تلك الفترة الزمنية، فكلّ خليفة يخالف أهلالبيت يأخذ فدكاً منهم، وكل خليفة معتدل يسعى إلى إقامة العدل بين الناس يرجعها إليهم.

ومع ذلك لم يكتف أبوبكر بأخذ (فدك) من فاطمة وعليﷺ، بل إنّه تهجّم عليهما بكلمات موهنة، منها أنّه عندما جاءت فاطمة بعلي بن أبي طالبﷺ شاهداً على ملكيتها لفدك عرّض بالإمام عليﷺ قائلاً: «إنّما هو ثعالة شهيده ذنبه، مربٌّ لكلّ فتنة»[4]. والأمرُّ من هذا أنّه وصف علي بن أبي طالبﷺ بأنّه: «كأمّ طحال أحبّ أهلها إليها البغيّ»[5] أي إنّ مَثل عليﷺ مَثل تلك المرأة العاهرة التي يكون أحبّ أهلها إليها ذلك الشخص الذي زنى بها، وهنا يطرح سؤال مهم وهو أنّه: لماذا يُشتم أهل البيت الذين أمر النبيﷺ باكرامهم وفرض القرآن الكريم مودّتهم أجراً للرسالة الإلهية؟ ولماذا يكون نصيبهم كل هذا الظلم هنا وهناك؟

← البيهقي، ج٧، ص٣٠٧.

١. مسند أحمد، ج٢، ص٤٦٣؛ فتح الباري، ج١٢، ٦؛ شرح النهج، ج١٦، ص٢٨٥.

٢. سورة النمل، الآية ١٦.

٣. سورة مريم، الآية ٦.

٤. شرح النهج، ج١٦، ص٢١٥.

٥. شرح النهج، ج١٦، ص٢١٥.

هل إنّ الإسلام والوجدان البشري يقبل أن يتعرّض هؤلاء الشرفاء ولحمة رسول‌الله ﷺ للظلم أكثر من الآخرين؟ وقد ذكر أهل السنة أيضاً أنّهم أرادوا حرق دارهم بالنار، وهددوهم بالسيف[1]، فما السبب في كل هذا العدوان والتجاسر على أهل بيت النبي ﷺ؟

السبب في ذلك كما يقول ابن أبي الحديد نقلاً عن أُستاذه: «إنّه الملك»[2] يعني أنّ أخذ (فدك) من فاطمة وعليّ عليهما السلام، وكل هذه الشتائم المستتبعة لزعزعة مكانة أهل البيت عليهم السلام، كان بهدف تقوية مركزية المتسلطين وترسيخ مواقعهم في السلطة.

وفي نفس الوقت فإنّ المصيبة الكبرى، هي أنّ اعتداء أبي‌بكر وعمر على أهل البيت عليهم السلام أصبح طبعاً أُسوةً لبقية الحكام والخلفاء بتلك الصورة المؤلمة، بل اتّخذ صوراً أكثر ايلاماً، وتكرّرت الاعتداءات بشكل أشدّ وقاحة، فكان من جملتها سلّ السيوف وإضرام النار من قِبل يزيد وابن الزبير وأعوانهما في العراق والحجاز ضد أهل بيت النبي ﷺ، وبرّروا فعلهم بفعل هذين الخليفتين، وعلى الأقل أنّهم قللوا من شناعة ظلمهم لأهل البيت بما فعل السابقون[3].

المهزلة

والمهزلة هي: أنّ المتعصّبين المعاندين يسعون دائماً إلى إنكار أو تسويغ اعتداء أبي‌بكر وعمر على علي وفاطمة عليهما السلام، كأنّهم يتغافلون عن أنّ أبابكر نفسه ندِم عند موته على ظلمه إياها[4]؟، وكان يصرّح في حياته أيضاً: «إنّ لي شيطاناً يعتريني»[5]، وطبيعيٌ أنّ أبابكر قد اعطى ـ بمثل هذا العذر ـ درساً عملياً للحكومات والخلفاء

١. العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢؛ الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٠؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.
٢. شرح النهج، ج ١٦، ص ٢١٥.
٣. شرح النهج، ج ٢٠، ص ١٤٦.
٤. مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠١؛ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦١٩؛ الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٦.
٥. كنز العمال، ج ٥، ص ٥٩٠؛ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٦٠؛ الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٤؛ البداية والنهاية، ج ٦، ص ٣٠٢؛ و...

من بعده، بأنّهم حتى إذا تعرّضوا لوساوس الشيطان وعملوا على تحقيق أهوائهم، فمع ذلك لا يقلّ من قدرهم، بل تبقى لديهم اللياقة الكافية للحكومة الإسلامية والخلافة، فلا يتحرّجون من اعتراض المخالفين، كما لم يتحرّج أبو بكر من اعتراض الأصحاب على جناية خالد بن الوليد مثلاً المرسل من قِبله ـ في قضية مالك بن نويرة ـ ولم يكتف بالسكوت عن جرائم خالد الذي قتل مسلماً وطبخ الطعام على رأسه وزنى بزوجته، بل مضافاً إلى ذلك لقّبه بأنّه (سيف الله) وبرّر جرائم خالد بقوله: «تأوّل فأخطأ»[1]، يعني بذلك أنّ خالداً اجتهد في هذا الأمر فأخطأ.

القلم يعجز حقيقة عن بيان الآثار السيّئة التربوية والسياسية لهذه العبارات التبريرية، الله عزّ وجلّ وحده هو الذي يعلم ما أدّت إليه هذه الكلمات من ضلالة وتقوية للظالمين أمثال معاوية ويزيد وغيرهما، وأقلّ ما يمكن قوله في هذا المجال، هو: أنّ الاجتهاد الإسلامي بلغ من الانحطاط إلى درجة أنّه طهّر الفاسدين أمثال خالد، ومعاوية ويزيد، بل أطلق عليهم ألقاباً رائعة كسيف الله مثلاً، ومن جهة أُخرى يصف عليّاً وفاطمة عليهما السلام ـ بتهمة الدفاع عن الحق ـ بلقب (الثعلب وذنبه) فالعجيب هو اللقب الأول والأعجب منه اللقب الثاني، وهذا الاقتران العجيب لكلا اللقبين يظهر أساليب أبي‌بكر وأعوانه في طريقة تفكيرهم وسياستهم للمسلمين، وهنا يُسأل المنصفون: هل من الحق والعدل أنّ خالداً الذي قتل مسلماً وزنى بزوجته ثم جعل رأسه أُثفيّة لقدر الطعام، يلقّب بـ(سيف الله)، بينا فاطمة وعلي عليهما السلام اللذان طلبا حقهما من أبي‌بكر بالنسبة إلى فدك مثلاً يلقّبان بـ(الثعلب وذنبه)، وأنّه عليه السلام مثل تلك المرأة الزانية التي تحب الزاني بها؟

ومن الواضح جدّاً أنّ زلّات أبي‌بكر وعمر لا تنحصر آثارها في تلك الأُمور وتلك الدورة الزمنية، بل إنّها استمرت طبعاً في الأزمنة اللاحقة، وأثّرت سلباً في أفكار ونفوس المسلمين بشدة وأدّت طبعاً إلى عزلة أهل البيت عليهم السلام يوماً بعد آخر، واشتداد جرأة الحكام الفاسقين أكثر فأكثر، وأخيراً فإنّها بازديادها ونموّها

---

١. كنزالعمال، ج٥، ص٦١٩؛ تاريخ أبي الفداء، ج١، ص١٥٨؛ تاريخ مدينة دمشق، ج١٦، ص٢٥٦.

وتجذّرها الطبيعي وصلت إلى مرحلة وخيمة وأدّت بالمجتمع الإسلامي ـ خاصة في عهد عثمان ـ إلى السقوط في دوّامة الانزلاق الخطير. أجل، فإنّ عثمان سار على المسار الذي سار عليه مَن سبقه، بل هو أشدّ في إهانته وظلمه لأصحاب النبيﷺ أمثال عمار وأبي ذر وابن مسعود وحتى عليٍّ، وفي إعطاء المناصب ومقاليد الخلافة الإسلامية المهمة لأقربائه الأمويين، ونموذج ذلك أنّه أعطىٰ إمارة العراق للوليد الفاسق، الّذى صلّى بالمسلمين صلاة الصبح أربع ركعات وهو سكران، ولمّا ذكّره بعض أعوانه بذلك، قال لهم: «أتريدون أن أزيدكم؟»[١].

فمن الطبيعي ـ والحال هذه ـ أنّ المجتمع الإسلامي ينزلق إلى هاوية الانحراف والاختلاف، والأشد من ذلك أنّ المسلمين افتقدوا الطبيعية الدينية، وأصبحوا سائرين على خطى حكّامهم الفاسدين والضالين، وهذا هو الأصل الاجتماعي الذي أكّد عليه أميرالمؤمنين فقال: «الناس بأمرائهم أشبه منهم بآبائهم»[٢].

الاستغلال السياسي لسيرة الخلفاء

رغم أنّ عمر بن عبدالعزيز كان من الخلفاء الأمويين، إلّا أنّه كان باحثاً عن الحقيقة نسبيّاً، وأقرّ كثيراً من الحقائق التاريخية ولو ظاهراً، خاصة ما يرتبط بعثمان ابن عفّان ومعاوية بن أبي سفيان، فكان يقول:

«إنّ رسول اللهﷺ قبض وترك الناس على نهر مورود، فولي ذلك النهر بعده رجلان لم يستخصّا أنفسهما وأهلهما منه بشيء، ثمّ وليه ثالث فكرىٰ منه ساقيةً، ثمّ لم يزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه»[٣].

وليس عمر بن عبدالعزيز وحده الذي أظهر هذه الحقائق، بل إنّ سائر العلماء المنصفين والمفكّرين قد صرّحوا بذلك، بل بأكثر منه، حتى إنّ (ابن رشد) العالم

---

١. مروج الذهب، ج٢، ص ٣٣٥ الامامة والسياسة، ج١، ص ٥٢.

٢. تحف العقول، ص٢٠٨؛ شرح النهج، ج ١٩، ص ٢٠٩.

٣. شرح النهج، ج١٧، ص١٠٤؛ تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٠، ص ٤١.

الأندلسي المعروف، مع أنّه كان يعيش في محيط أُموي كامل، لكنّه كان يتألّم ويتحرق من الظلم والانحطاط الشديد لجهاز الحكم الإسلامي على يد الأمويين، غاية الأمر أنّه ـ وبسبب حسن ظنه التقليدي بعثمان بن عفّان ـ نسب الانحطاط في المجتمع الإسلامي إلى معاوية، وقال: «كان البيت الإسلامي عامراً إلى زمن معاوية، ولكن معاوية زعزع دعائمه واستبدل الحكم الإسلامي بسلطانه الاستبدادي، وبدأ سيل الفتن يترادف على البلدان الإسلامية إلى هذا الزمان بصورة مستمرّة ومتزايدة»[1].

ومع الالتفات إلى أنّ أخطاء الخلفاء ـ وخاصة مواجهاتهم غير اللائقة أحياناً لأهل البيت، وإعطائهم الامتيازات المختلفة للأُمويين وسائر المنحرفين ـ قد أدّت طبعاً إلى تشديد وخامة الأوضاع يوماً بعد آخر، فلابدّ من القول: إنّ أُولئك الخلفاء الأوائل هم المسؤولون عن العواقب الوخيمة أيضاً، خاصة ما جرى على يد الأمويين من الفجائع والويلات، لأنّ أُولئك هم الذين أسّسوا أساس عمليات الأمويين.

وأحد الشواهد على هذه الحقيقة المرّة من بين آلاف الشواهد، هو كتاب معاوية الذي يبرر فيه مناهضته ومواجهته للإمام علي عليه السلام، والذي كتبه بعد خمس وعشرين سنة من حادثة السقيفة وما جرى فيها من الخصومة بين أبي‌بكر والإمام علي عليه السلام، وقد كتبه لمحمد بن أبي‌بكر، ولابدّ من قراءة هذا الكتاب الحسّاس والمهمّ كيما يتسنّى للقارئ الإلمام والإحاطة بالظروف والحقائق الموضوعية التي أحاطت بمأساة كربلاء الدامية:

«من معاوية بن صخر إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي‌بكر، أمّا بعد: فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في عظمته وقدرته وسلطانه وما اصطفى به رسول الله مع كلام كثير لك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف، ذكرت فيه فضل ابن أبي طالب وقديم سوابقه وقرابته إلى رسول الله ومواساته إيّاه في كل هول وخوف، فكان

---

١. ابن رشد وفلفسته، ص ٦٠ نُقل مضمونه فقط.

احتجاجك عليّ وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد ربّاً صرف هذا الفضل عنك وجعله لغيرك، فقد كنّا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقّه لازماً لنا مبروراً علينا، فلمّا اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمّ له ما وعده وأظهر دعوته، وأبلج حجّته، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه، كان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه حقّه وخالفه على أمره، على ذلك اتّفقا واتّسقا.

ثمّ إنّهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكّأ عليهما، فهمّا به الهموم وأرادا به العظيم، [أي قصدا قتله] ثمّ انّه بايع لهما وسلّم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرّهما حتى قبضهما الله، ثمّ قام ثالثهما عثمان فهدي بهديهما، وسار بسيرهما، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكما فيه حتى بلغتما فيه مناكما.

فخذ حذرك يابن أبيبكر، وقس شبرك بفترك، يقصر عن أن توازي أو تساوي من يزن الجبال بحلمه، لا يلين عن قسرٍ قناته، ولا يدرك ذو مقال أناته، أبوك مهّد مهاده، وبنى لملكه وساده، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل، ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلّمنا إليه، ولكنّا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك ...»[١].

ولا ننسى أنّ محمد بن أبيبكر هذا قُتل بيد معاوية وأعوانه وأُلقي جسده في جوف حمار وأُحرق لمجرد أنّه كان من أنصار عليّ﴿ع﴾ ومناهضاً للامويين وعلى رأسهم معاوية.

وكرّر معاوية مقولته تلك في كلامه مع ابن عبّاس أيضاً، وذكر له خلاصة الرسالة التي بعث بها إلى محمد بن أبيبكر، فقال له: «... ولعمري لبنو تيم وعديٍّ أعظم ذنوباً منّا إليكم إذ صرفوا عنكم هذا الأمر وسنّوا فيكم هذه السنة ...»[٢]، أي إنّهم هم الذين مهّدوا لنا هذا الطريق الذي نسلكه تجاهكم وأجازوا لنا بل حرّضونا على ذلك.

---

١. مروج الذهب، ج٣، ص١٢؛ شرح النهج، ج٣، ص١٨٩؛ الاختصاص للمفيد، ص١٢٧.
٢. العقد الفريد، ج٤، ص٨١.

واللافت للنظر أنّ معاوية بالرغم من ثنائه في كتبه وخطبه على أبي‌بكر وعمر، إلّا أنّه لم يكن يؤمن أو يعتقد بهما، ولكن لأنّ خلافتهما مهّدت له السبيل للحكم، وكان يرى أنّ ذلك يعود بالنفع إليه وبالضرر على عليّ وأهل بيته عليهم السلام، فلذلك كان يتمسّك بهما، بالرغم من أنّه كان يرى أنّهما غير جديرين بالخلافة.

إنّ معاوية هذا وبعد خمس عشرة سنة من كتابته إلى محمد بن أبي‌بكر، وعندما حلّت قضية ولاية عهد ابنه يزيد، قال لابن ابي بكر الآخر ولابن عمر، اللّذين وصفا فعلته هذه بأنّها بدعة كسروية وقيصرية ولا صلة لها بأساليب أبي‌بكر وعمر، قال: **«إنّما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنّهم أهل رسول الله، فلمّا مضى رسول الله ولّى الناس أبابكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة، غير أنّهما سارا بسيرة جميلة ـ لأنّهما مهدا الطريق لسلطته و سلطة أمثاله ـ ثمّ رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة»**[1].

ولنقرأ مرّة أُخرى كتاب معاوية إلى محمّد بن أبي‌بكر، وسائر كلماته إلى ابن أبي‌بكر الآخر وابن عمر ونظرائهما، ونقارن بعضها مع البعض الآخر لكي ندرك جيّداً مدى المكر والتناقض والظلم الذي قام به معاوية وأشياعه، وخاصة العواقب الخطيرة لانحراف الخلافة عن مسيرها الأصلي.

وقد اتّضح ممّا ذكرنا أنّ الأخطاء التي حدثت في صدر الإسلام كان لها تأثيرات تربوية سيّئة للغاية في ضمير المسلمين ومسار الحكم الإسلامي، والأشد من ذلك أنّها كانت ذرائع خطيرة بيد معاوية وأضرابه، حيث عبّدت لهم طريقهم الظالم عمليّاً وروحيّاً واجتماعيّاً ودينيّاً.

وهنا لابدّ من التطرّق إلى قضية مهمة جدّاً تمثّل أهم أسباب الاختلافات بين أبناء الأُمّة الإسلامية، وتوضّح أبعاد الظروف التي كانت سائدة في زمن الإمام الحسين عليه السلام والتي أدّت إلى فاجعة كربلاء الدامية، وهذه القضية ترتبط باختلاف أنماط تولّي الخلفاء سدّة الحكم.

---

١. الإمامة والسياسة، ج٣، ص١٨٩.

أكبر ضربة مثيرة للخلاف والنزاع

قد يتعجب بعض القرّاء الأعزّاء، أن يكون اختلاف طريقة الخلفاء للوصول إلى الخلافة يشكّل أكبر ضربة لمصالح الإسلام والمسلمين، ولكن لا شكّ في أنّ هذا التعجب سيزول بعد قراءتهم للأسطر التالية، ونرجو من القرّاء الكرام أن يطالعوا مطالب هذه الأسطر، التي تستند كسائر مطالب هذا الكتاب إلى المصادر المعتبرة لدى الشيعة والسنة، خاصة وأن يدقّقوا النظر في الأخيرة منها، والتي لعلّها لا توجد في كتاب آخر، وستذكر بعد مقدّمة توضيحية، وبها تتضح الخطوط المختلفة بل المتضادة للخلافة الإسلامية آنذاك، وأنّه حتى مع غض النظر عن أحقية الإمام علي عليه السلام بالخلافة، كيف جرّت الاختلافات والاضطرابات على المجتمع الإسلامي، وكيف أنّ الأمويين تمكنوا في ظل هذه الاختلافات من أن يجعلوا الخلافة الإسلامية حكماً وراثياً، وتمكّنوا من إنزال آلاف المصائب على المسلمين، وخاصة على أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم.

إنّ الغزالي وبعض علماء أهل السنّة يقولون[1]: إنّ خلافة أبي‌بكر لم تكن بسبب أفضليته، وليست بسبب النصّ، وليست بسبب الإجماع، بل إنّها كما وصفها عمر ـ الذي يعتبر وصفه أفضل وثيقة دامغة على هذه المسألة ـ كانت «فلتة وقّى الله شرّها»، وقال عمر أيضاً بعد مقولته هذه: «فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»[2]. فمقولة عمر هذه هي أتم تعريف لخلافة أبي‌بكر، وخاصة أنّها صادرة من أقرب المقربين لأبي بكر، وقد ذكرت في مصادر أهل السنة الاساسية.

ولتوضيح كلام الغزالي وأمثاله نقول: الواقع أن خلافة أبي‌بكر لم تكن بسبب الأفضلية، لأنّه لم يكن أفضل من عليّ عليه السلام أو قريناً له، لا في شجاعته وبطولته، ولا في معرفته وعلمه، ولا في عبادته وزهده، ولا في عدالته وقضائه، ولا في خطابته

---

١. سر العالمين للغزالي، ص ١٦.

٢. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٦؛ النهاية لابن الأثير، ج ٣، ص ٤٦٧؛ الصواعق المحرقة، ص ٣٦.

وبلاغته، ولا في قرابته من النبي ﷺ ووراثته، ولا في أُخوّته وأبوّة وُلده، ولا في مساعدته وإعانته، ولا في وصيّته والإشادة به. وأبو بكر نفسه أيضاً يعترف بأنّه لم يكن أفضل من الإمام عليّ عليه السلام، ولا حتى من سائر المسلمين، فكان يقول هذا بصراحة في إحدى خطبه: «أقيلوني أقيلوني ولست بخيركم»[١].

وإحدى كلمات الإمام عليّ عليه السلام التي بثّها بصورة شكوىٰ تاريخية، أنّه قال: «فيا عجباً بينما هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته»[٢]. أي عجباً من الذي يظهر ذلك التواضع السياسي في حياته، ولكنّه يُقدم على جعل الخلافة لغيره بعد وفاته.

وهناك نصوص كثيرة على خلافة الإمام عليّ عليه السلام بعد النبي ﷺ كأحاديث الغدير والمنزلة والثقلين والسفينة وغيرها، وكذلك آيات المباهلة والولاية والتبليغ وغيرها. في حين لم يكن هناك حتى نصٌّ واحد على خلافة أبي‌بكر، وباعترافه هو، فالمصادر التاريخية نقلت عن أبي‌بكر قوله:«وليتني سألته لمن هذا الأمر حتى لا ينازعه أحدٌ»[٣]. وهذه العبارة لأبي بكر تثبت ـ على الأقل ـ أنّه لم يكن نصٌّ على خلافته مطلقاً.

سؤال هام

وكلمة أبي‌بكر الأخيرة هذه تستتبع طرح سؤالٍ مهمٍّ يجب التحقيق فيه، وتتجلى أهميّة هذا السؤال عند الوقوف على عبارة أبي‌بكر الثانية لدى نصبه لعمر خليفةً له بعد وفاته، إذ قال:

«...إنّه لا بدّلكم من رجل يلي أمركم ويصلّي بكم ويقاتل عدوكم»[٤]، والسؤال هو: هل أنّ النبي الأكرم ﷺ أدرك حاجة المسلمين إلى قائد يقودهم، كما أدركها أبو

---

١. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣١؛ المصنّف، ج ١١، ص ٣٣٦؛ شرح النهج، ج ١، ص ١٦٩ و ١٦٨ و ج ١٧، ص ١٥٥؛ كنز العمال، ج ٥، ص ٥٩٩؛.

٢. شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٦٢.

٣. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٢٠؛ الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٧؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠٢؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٠.

٤. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٧.

بكر وأنّ عليه أن يعيّن هذا الخليفة من بعده، أم أنّ النبي‌ﷺ لم يدركها؟

فلو قلنا أنّ النبي‌ﷺ لم يدرك هذه الحقيقة الجلية، فهذه المقولة مردودة ومرفوضة من قِبل جميع المسلمين، بل حتى من غير المسلمين الذين يعترفون للنبي بالحنكة والذكاء، فلا يوجد إنسان يقبل بأنّ نبي الإسلام ـ الذي جاء بالدين الكامل مثلاً ـ لم يدرك ضرورة تعيين الخليفة من بعده.

ولو قلنا بأنّ النبي‌ﷺ أدرك هذه الحقيقة، ولكنّه لا يحق له انتخاب الخليفة من بعده؛ لأنّ وظيفته كما يدّعي البعض هي إبلاغ الرسالة فحسب، وليس تعيين الخليفة من بعده، فهذا القول أيضاً مردود ومرفوض، لا من قِبل الشيعة فقط، بل حتى في نظر أبي‌بكر أيضاً؛ لأنّ أبابكر أظهر أسفه في عبارته الأُولى المذكورة بأنّه لماذا لم يسأل رسول الله‌ﷺ عن الخليفة من بعده؟ وهذا دليل على أنّ أبابكر كان يعترف بأنّ للنبي‌ﷺ الحق في تعيين الخليفة من بعده. ومع ثبوت هذا الحق، هل نستطيع أن نقبل دعوىٰ أبي‌بكر أو غيره بأنّ النبي‌ﷺ ترك أُمته بدون قائد؟ بينما اهتم أبو بكر بذلك، مع أنّ عدم تعيين النبي خليفته افتراضاً أدى إلى ظهور الخلافات والنزاعات العميقة والدامية بين المسلمين حتى الآن.

وهناك ملاحظة ملفتة للنظر في هذا المجال، وتتمثل في اهتمام النبي‌ﷺ بهذه القضية كثيراً، وهي أنّه حتى عند ما ترك المدينة لأيام قلائل عين خليفة له في غيابه عنها، وهو الإمام عليّ‌ﷺ، وذلك بحسب رأيه ودون أن يستشير المسلمين في ذلك، وقال لعليّ بصراحة: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلّا أنّه لا نبي بعدي»[1].

وهناك ملاحظة ثانية مهمة أيضاً، بل لعلّها أهم من الأُولى، وهي أنّ النبي الأكرم‌ﷺ لم يؤمّر في جميع المناسبات والغزوات أحداً على الإمام عليّ‌ﷺ، ولم يقدّم أحداً عليه، ولكن نرى في كثير من المناسبات أنّه كان يقدّم عليّاً ـ أو غيره

---

١. صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٢٩؛ الارشاد للمفيد، ج ١، ص ١٥٦؛ صحيح مسلم، باب فضائل علي بن أبي طالب؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٢٥ و...

كأسامة الشاب اليافع ـ على أبي‌بكر وعمر وعثمان[١]، أفلا تكون كل هذه الخطابات والإجراءات العملية للنبي ﷺ كافية لانتباهنا ويقظتنا؟

الإجماع المزعوم على خلافة أبي‌بكر

والحاصل أنّ خلافة أبي‌بكر ـ وبتصريح منه أيضاً ـ لم تكن بسبب الأفضلية ولا بسبب النص. ولكن، هل كانت بسبب الإجماع؟

الواقع أنّها لم تكن بسبب الإجماع أيضاً، بدليلين: (الأول كبرويٌّ والثاني صغرويٌّ)

الأول: أنّ الإجماع أساساً لا يصلح أن يكون دليلاً على خلافة الرسول ﷺ؛ لأنّ خلافة أيّ شيء لابد أن تكون متناسبة مع ذلك الشيء، وبما أنّ رسالة الرسول ﷺ يجب أن تكون بأمرٍ من الله تعالى وليست برأي الناس، فلذلك لابد أن تكون خلافته أيضاً بأمر الله أو رسوله، وإن كانت بغير ذلك فهي ليست خلافة في الحقيقة، وفضلاً عن ذلك فإنّ الخلافة هي مقام سامٍ دنيوي وأُخروي، هدفها التصدي لحل المشاكل العلمية والعملية للمسلمين، وتقود البشرية لما فيه خير الدنيا والآخرة. وطبيعيٌّ أنّ الناس ليست لديهم القدرة على تحديد المؤهّل لهذا المقام المهم جدّاً، الذي يعتبر ـ في الحقيقة ـ استمراراً لخط النبوة والرسالة، بل إنّ الله تعالى هو القادر على تحديد المؤهّل لهذا المقام، وكذلك رسوله الكريم بإعلامه أو تعريفه له.

الثاني: لو فرضنا أنّ الإجماع يصلح دليلاً على الخلافة، فلابد أن نعرف هل كان هناك إجماعٌ على خلافة أبي‌بكر أم لا؟ وهنا نلاحظ إشكالاً أساسيّاً يرد على هذا الإجماع ويفقده اعتباره، وهو أنّه لم يكن هناك إجماع أصلاً، بل كانت البيعة مقرونة بأسلوب القوة والعنف، والتاريخ يشهد أنّ الذين وافقوا على بيعة أبي‌بكر في السقيفة، كانوا قلّة من المسلمين، بل لم يكن ـ في البدء ـ سوى عمر وأبي عبيدة اللذين لم يؤديا واجبهما في الاشتراك بدفن النبي الأكرم ﷺ، بل عملا على فرض

---

١. شرح النهج، ج ١، ص ١٥٩؛ النص والاجتهاد، ص ٩٤ نقلاً عن مصادر معتبرة كثيرة.

رأيهما في الخلافة على سائر المسلمين، وذلك في جوٍّ من التداعي العقلي والاضطراب السياسي، فضلاً عن أنّ بني هاشم الذين لا يخفى دورهم في المجتمع الإسلامي، لم يحضروا في السقيفة أصلاً ككثير من المسلمين؛ لأنّهم كانوا منهمكين بإعداد إجراءات غسل النبيﷺ ودفنه، وعندما سمعوا بخبر خلافة أبي‌بكر اعترضوا على ذلك علناً. غير أنّهم اضطروا إلى التعايش معهم لمّا هُدّدوا بالقتل ورأوا أنّ مخالفتهم ستؤول إلى تفجير الوضع، وبالتالي إلى تعرض الإسلام لخطر التفرقة والزوال، فلذلك اضطروا إلى الصمت والمداراة. وأحد نماذج ذلك التهديد قولة عمر الشديدة لعليّؑ بحضور أبي‌بكر وآخرين: بايع، فقال عليّؑ: فإن أنا لم أفعل فمه؟ قال عمر: إذاً والله نضرب عنقك[1].

ومن هذه الوثيقة التاريخية يمكننا أن نتعرّف على حقيقة بيعة الإمام عليّؑ لأبي بكر، فقد كان مجبراً أو مضطرّاً ولهذا لا تصلح أن تكون دليلاً على موافقتهؑ على خلافة أبي‌بكر.

سؤالان

ثمّ لنفترض أنّ الإجماع أو أكثرية الأصوات كان شرطاً لانتخاب الخليفة، وكذلك لنفترض أنّ هذا الشرط وقع صحيحاً في انتخاب أبي‌بكر، ولكن هنا نتعرض لسؤالين مهمين في دراسة ذلك، وتتضح بذلك جذور المشاكل التي واجهها العالم الإسلامي.

السؤال الأول: لو كانت الخلافة مشروطة بالانتخاب، فلماذا أوصى أبوبكر بها في كتابه إلى عمر ونصبه خليفةً من بعده؟ وعلى هذا الأساس فأبوبكر وعمر هما من الأوائل الذين أعرضا عن هذا الشرط المذكور في تنصيب الخليفة. وهنا يبرز إشكال عام ولافت للنظر، وهو أنّه ليس خلافة عمر فحسب، بل إنّ خلافة سائر الخلفاء الأمويين والعباسيين أيضاً، لم تكن بانتخاب الناس وفقاً لمبنى أهل السنة،

١. الإمامة والسياسة، ج١، ٢٠؛ الاختصاص، ص ١٨٧.

كما أنّه لم يكن بنص من خليفة شرعي وفقاً لمباني الشيعة، ولذلك فإنّ الشيعة يرفضون خلافة كل هؤلاء، ولكنّ المثير للعجب أن يقبل بعض المسلمين خلافة هؤلاء حتى على خلاف مبناهم، فهل يمتلكون دليلاً معقولاً على قبول هذا العمل المعارض للمبادئ الإسلامية والعقلية عندهم؟ وهل أنّ انتخاب الناس كافٍ في خصوص اختيار أبي‌بكر خليفة، وبتلك الصورة التعسفيّة التي ذكرها جميع المؤرخين؟ علماً بأن هذا الأمر اتّخذته الحكومات الأموية والعبّاسية ذريعة في قمع الشيعة وتدميرهم.

السؤال الثاني: لماذا ترك عمر قضية انتخاب الناس وترك أيضاً النص على الخليفة، واختار طريقاً ثالثاً وهو الشورى لتعيين الخليفة من بعده، وأوكل ذلك إلى ستة أشخاص وهم: (عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف) وأحد التناقضات هنا أنّ عمر كان يقول: إنّ النبي صلى الله عليه وآله مات وهو راضٍ عن هؤلاء الستة، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ فهو يتهم جميعهم بعدم الكفاءة، سوىٰ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بل إنّه يراهم مضرّين بمصالح الإسلام، وقد تحدث بكلمات شديدة وسلبية عن كل واحدٍ منهم يطول شرحها[1].

وأساساً فإنّ عمر كان يجلّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كثيراً، فيقول مثلاً: «لولا عليّ لم تقم للإسلام قائمة»[2]، وقال في حادثة الشورى لعليّ عليه السلام أيضاً: «أمّا أنت فتحملهم على المحجّة البيضاء والحق الواضح»[3]، ومع ذلك فقد وضع عمر علياً عليه السلام أحد هؤلاء الذين ليست لهم ـ حتى باعترافه ـ الكفاءة المطلوبة لتولّي أمر المسلمين وخلافتهم سوىٰ عليّ عليه السلام، ولذا شكا الإمام عليّ عليه السلام في هذا المجال بقوله: «فيا لله وللشورىٰ متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أُقرن إلى هذه النظائر، ولكنّي ...»[4].

---

١. شرح النهج، ج ١، ص ١٨٥ و١٨٦.
٢. شرح النهج، ج ١٢، ص ٨٢.
٣. شرح النهج، ج ١، ص ١٨٦ و ج ٦، ص ٥٢؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥.
٤. شرح النهج، ج ١، ١٨٤.

الشورى غير منسجمة

لم يكن عمر يعترف لوحده بفضائل عليّ‌عليه السلام فحسب، بل إنّ بقية أعضاء الشورى اعترفوا بها أيضاً، وأحدهم سعد بن أبي وقاص الذي قال في جملة مقتضبة، وفي نفس الوقت جامعة، بحيث كانت أفضل وأبلغ كلمة قيلت في مقارنة الإمام عليّ‌عليه السلام بمنافسيه: «شاركنا في محاسننا ولم نشاركه في محاسنه وكان أحقنا كلنا بالخلافة»[١]، وفي الأزمنة اللاحقة أيضاً قال كثير من العلماء كلمات عميقة كهذه الكلمة لإثبات الخلافة ـ بلا فصل ـ لعليّ‌عليه السلام، ككلمة الخليل بن أحمد الأديب المعروف، فإنّه قال ما مضمونه: إحتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنّه إمام الكل[٢].

الحقيقة أنّ مبادرة عمر بجعل أعضاء الشورىٰ منافسين لعليّ‌عليه السلام في الخلافة، في الوقت الذي اعترف واعترفوا أنفسهم بعدم أهليتهم لذلك، خاصة بالقياس إلى عليّ‌عليه السلام، هذه الحقيقة قد سمحت لآخرين طبعاً أن يجعلوا أنفسهم منافسين له، وأن يقوم البعض أمثال معاوية أيضاً بمنازعته على هذا الأمر، وخلق الأزمات والمشاكل أمامه وأمام أصحابه، إلى أن وصلت الأمور إلى حالة قال عليّ‌عليه السلام متعجّباً ومعنّفاً أهل الكوفة: «صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه»[٣].

وكنموذج آخر، فان سعد بن أبي وقّاص مثلاً، مع أنّه اعترف بأفضلية علي‌عليه السلام التامة، إلّا أنّه يتنكر لحق علي‌عليه السلام ومصلحة الأُمة الإسلامية، فلم يبايع له حتى بعد قتل عثمان، بل إنّه مهّد الطريق بصورة غير مباشرة لأمثال معاوية. ثمّ تتكرر أو تستمر هذه المواقف في كربلاء على يد ابنه (عمر بن سعد)، فبالرغم من أنّه كان يعترف بالمقام السامي للحسين بن علي‌عليه السلام في أشعاره المعروفة، وأنّ قتله يثير غضب الله وجزاء قاتله النار خالداً فيها، إلّا أنّه قتله وقتل سائر ولده وأهل بيته

---

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٢٠؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ٨١.
٢. أعيان الشيعة في ترجمة خليل بن أحمد.
٣. شرح النهج، ج ٧، ص ٧٠ ونظيره في ج ١٠، ص ٦٧.

وأصحابه بأفجع وأبشع قتلة، حتى إنّه ترك جثثهم عارية في الصحراء المحرقة، بل سحقها بسنابك الخيول؛ لينال الجائزة من عبيدالله بن زياد بن أبيه الذي يقول: إنّه عامل خليفة رسول الله يزيد بن معاوية، ولينال منه أيضاً إمارة الري، فهل تتصور واقعاً مزرياً أكثر من أن يتحول مقام الخلافة للرسول إلى هذه الدرجة من الانحطاط، بحيث يكون مصدراً لأبشع الجرائم.. وحتى يكون توزيع المناصب الحكومية على هذا وذاك مشروطاً بارتكاب أبشع الجرائم؟! والسؤال الأساسي هو أنّه هل يمكن لعاقل أن يقول: أنّ جذور مثل هذه المصائب، أو بالأحرى سقوط الخلافة الإسلامية في الحقيقة، لم يكن لها امتدادات في السقيفة وفي الشورى وفي دعم الأمويين؟ أو هل هناك استثناء في قانون العلة والمعلول بالنسبة إلى تسلسل الحوادث في تاريخ الإسلام؟

والزبير كان هو الآخر عضواً في الشورىٰ، وكان صوته إلى جانب الإمام علي عليه السلام فيها، وبعد قتل عثمان أيضاً بايع عليّاً عليه السلام، ولكنّه بعد فترة وجيزة نقض البيعة بمعية طلحة، الذي هو أيضاً بايع الإمام، وأثارا الحروب والفتن بعد ما خاب أملهما في الحصول على امارة اقليم مّا، وسلّا سيفيهما بوجه الإمام عليّ عليه السلام وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وكثير من المسلمين، وكانت النتيجة ركاماً هائلاً من جثث قتلى المسلمين والمؤمنين.

النقائص الكبرى للشورى

والواقع أنّ أعضاء الشورىٰ كانوا ذوي اتجاهات متعارضة، وعمر نفسه كان يتنبّأ بذلك كما يتضح من كلماته في هذا المجال[1] وهذه إحدى نقائصها، والنقص الأكبر في هذه الشورىٰ أنّ عمر حين اختار أعضاءها منح عبدالرحمن بن عوف ـ الذي تربطه بعثمان رابطة القرابة، ولم تكن له أهمية كبيرة في الوسط الإسلامي ـ امتيازاً

---

١. شرح النهج، ج١، ص١٨٧.

خاصّاً، وجعله صاحب القرار في تعيين الخليفة، فخطط عبد الرحمن لاختيار عثمان حاكماً وعلي‌ﷺ محكوماً، وقد بنى خطته على فرض شرط اتباع سيرة أبي‌بكر وعمر في الخلافة، وكان من الطبيعي أن يرفض الإمام عليّ‌ﷺ هذا الشرط الذي لم يرد في الكتاب والسنة وحتى إنّ عمر في وصيته لم يأت به، وكذلك لا ينسجم مع الروح الكبيرة المستقلة للإمام‌ﷺ، أمّا عثمان فانّه وافق على هذا الشرط، ولكنّه لم يلتزم به في الواقع؛ لأنّه فعل ما لم يفعله ابوبكر وعمر، ومنه أنّه منح معظم المسؤوليات والأموال لأقربائه الأمويين، وخاصة صهره مروان الذي كان يتصرف وكأنّه هو الخليفة، الأمر الذي دفع حتى عبدالرحمن ـ الذي كان من أنصاره ـ إلى البراءة منه. وعندما نزل به مرض الوفاة وجاء عثمان لعيادته أعرض بوجهه عنه وقال: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما وليّتُ عثمان شسع نعلي»[1]، وكانت النتيجة أن ثار المسلمون على عثمان، مما تسبب في قتله.

والنقص الآخر في الشورى، بل من أكبر نقائصها هو: أنّ عمر ـ في إطار رسم آلية عمل الشورىٰ ـ أمر بأن يُقتل المعارض إذا كان واحداً أو اثنين، حتى وإن كان عليّ بن أبي طالب‌ﷺ. وحين لا يوافق ثلاثة أعضاء، فيجب قتل الثلاثة الذين لم يكن فيهم عبدالرحمن، وإذا مرت ثلاثة أيام ولم يختاروا الخليفة بالإجماع فيما بينهم، فيجب قتل الجميع[2]، بالرغم من أنّ هؤلاء ـ وباعتراف عمر ـ كانوا من رجال الخط الأول في الإسلام وممّن رضي النبي الأكرم‌ﷺ عنهما فبأيّ دليل أصدر عمر الأمر بقتل هؤلاء، بعد موته وعلى خلاف جميع الموازين الإسلامية والإنسانية، وهذه السيرة السيّئة أصبحت بعد ذلك أُسوةً طبعاً لمعاوية ويزيد وأمثالهما، كيما يقدموا على قتل الحسين‌ﷺ مثلاً وسائر الصلحاء من المسلمين، بدعوىٰ أنّهم يخالفون الخليفة المنصوب مثلاً. وأساساً فبأيّ حكم أو حق تراق دماء الصحابة

---

١. شرح النهج، ج ٢٠، ص ٢٥؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ٣١.

٢. شرح النهج، ج ١، ١٨٧.

الذين يعترف عمر بأنّ النبي الأكرمﷺ مات وهو عنهم راض؟ وكيف يمكن تصور الحالة ـ لو قُتل بعضهم أو كلهم ـ وتبعاتها على المجتمع الإسلامي؟

ثمّ إنّه لو تجاوزنا الموضوعات المرتبطة بطرق انتخاب الخليفة وفقاً لما سبق، وهي: الإجماع والنص والشورىٰ، فانّ هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو الهدف الأصلي من هذا البحث الأخير، ويجب إمعان النظر به وملاحظته بدقة، والسؤال هو: لماذا لم يحدّد الخليفتان الأول والثاني معياراً لتعيين الخليفة؟ حتى لا تتحرك قوىٰ الانحراف ـ فيما بعد ـ مستفيدة من نقاط القلق الفكري في هذه المسألة ـ في حين أنّ قضية الخلافة أهم قضية شغلت تاريخ المسلمين ـ وبالتالي بعثرت طاقات الأمة في مشاكل هامشية ونزاعات كثيرة على مستوىٰ الواقع الداخلي.

أجل، إنّ مصير الإسلام والمسلمين ونتيجة لاجتهاد أبي‌بكر وعمر برأيهما وصل إلى درجة أصبح تعيين الخليفة بيد أمثال عبدالرحمن، الذي يقول عنه عمر: إنّه رجل ضعيف، لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه في يد امرأته[١]، فتسلط بسببه عثمان وحزبه وهم الأمويون على رقاب المسلمين. والأمويون هم الذين قال عنهم عمر: إنّهم منشأ الفتن والأزمات بين المسلمين[٢]. ومن جانبٍ آخر أصبح عليٌّ عليه السلام وخطّه ـ الذي قال عنه عمر بن الخطّاب: إنّه صاحب الحق والهادي إلى الحق[٣] ـ محكومون ومضطرون إلى بيعة عثمان وإلّا فإنّهم سيقتلون بقرار من عمر. ومن الطبيعي أنّ هذا المصير المؤسف للخلافة جرّأ أمثال معاوية ويزيد أن يصلوا إلى الخلافة وإمارة المسلمين كعثمان، أو أن يكون بيدهم مصير تعيين الخلافة كعبدالرحمن، حتى وإن كان هناك من هو أحق بها منهم وأكثر منهم جدارة كما هو شأن الصحابة المخلصين مثل الإمام علي عليه السلام حتى باعتراف عمر نفسه.

---

١. شرح النهج، ج٦، ص ٣٢٦. ٢. شرح النهج، ج١، ١٨٦.

٣. الآثار، لابي يوسف، ص٢١٧؛ انساب الأشراف، للبلاذري، ج ٥، ص١٦؛ شرح النهج، ج١، ص١٨٦.

بعض نتائج القلق الفكري في نظام الخلافة

كانت حادثة التحكيم أيضاً ـ التي وقعت بعد خمس عشرة سنة من حادثة الشورىٰ ـ إحدى نتائج القلق الفكري في نظام الخلافة في الحقيقة، مع الفرق في أنّ حادثة الشورى، كان الإمام عليّ عليه السلام أحد طرفيها ويقابله عثمان وعبدالرحمن، ولكن في حادثة التحكيم كان الإمام عليّ عليه السلام أحد طرفيها أيضاً، إلاّ أنّه هذه المرة يقابله معاوية وعمرو بن العاص. والأخير معروف بالمكر والدهاء، وقد وُلد من أمّ تدعى بـ (النابغة) وأب يعرف بـ (العاص) الذي وصمته سورة الكوثر وعلى مدى التاريخ بأنّه من ألدّ أعداء النبي صلى الله عليه وآله[1]. وأمّا معاوية الّذى حارب عليّاً عليه السلام ومن معه من صحابة النبي صلى الله عليه وآله الكرام، وقتل عشرات الآلاف من المسلمين، فإن أمّه هند (آكلة الأكباد)، وأبوه أبو سفيان (رأس الأحزاب وكبير أهل النفاق)، والقرآن الكريم يصف هذه العائلة في سورة الإسراء بأنّها «الشجرة الملعونة»[2]، ولعنها على مدىٰ التاريخ.

ومن أجل أن ينال عمرو بن العاص حكومة مصر، فإنّه أقدم على تمهيد الأمور لمعاوية لينال الخلافة، واستطاع ـ كما يدّعي هو ـ بخطته الماكرة عزل الإمام عليّ عليه السلام من الخلافة وتنصيب معاوية مكانه في قضية التحكيم، وقد أظهر ذلك في قصيدة تنسب له تسمّى (الجلجلية) فأرسلها إلى معاوية إثر خلاف نشب بينهما، وهي مليئة بالعتاب واللوم لنكران معاوية الجميل، ومنها قوله:

خلعتُ الخلافةَ من حيدرٍ	كخلع النعال من الأرجل
وألبستها فيك بعد الاياس	كلبس الخواتيم بالأنمل[3]

ومرةً أُخرىٰ، وبعد مرور خمسة عشر عاماً تقريباً على واقعة التحكيم، تتكرر مثل هذه القصة بين الحسين عليه السلام ويزيد، ولكنّ بطل القصة هذه المرة ليس عمرو بن العاص الماكر الطامع في ولاية مصر، بل هو المغيرة الطامع في ولاية العراق، هذا

---

١. سورة الكوثر، الآية ٣.
٢. سورة الإسراء، الآية ٦٠.
٣. شرح النهج، ج ١٠، ص١٥٧؛ الغدير، ج ٢، ١١٤.

الشخص ـ ومن أجل أن يتملّق إلى معاوية ليعيده إلى حكومة العراق بعدما عـزله منها ـ يقترح عليه أن يعهد ليزيد بالخلافة بعده، وبسعيه الحثيث يحقق هذه الخطّة المشؤومة ويجعل من يزيد شارب الخمر خليفةً لرسول الله ﷺ، ويضرب بـالحق وأصحاب الحق والفضيلة كالحسين بن عليّ عليه السلام عرض الجدار. واللافت للنظر أنّ المغيرة نفسه يعترف بالآثار المشؤومة لخطّته هذه ويقول: «فتقت على أمة مـحمد فتقاً لا يرتق أبداً»[١].

فهل هناك مصيبة على الإسلام والمسلمين أفجع من أن تكون الخلافة الإسلامية أُلعوبة بيد المغيرة وعمرو بن العاص وعبدالرحـمن وأمـثالهم ليـحقّقوا بـواسـطتها أهدافهم ومقاصدهم السياسية أو الشخصية أو القبلية، ويبعدوا الإمام عليّاً والحسن والحسين عليهما السلام عن كرسيّ الخلافة ويُجلسوا معاوية ويزيد وأضرابهم عليه؟! وبالطبع أدّى هذا الوضع إلى منازعات ومصائب كثيرة تجلّت بأشكال مختلفة في كـربلاء وعاشوراء وآلاف الأمكنة والأزمنة الأُخرى، ولرعاية الاختصار نكـتفي بـنماذج منها، التي هي بمثابة فصل جديد وحساس في بحث الخلافة ويتضح بها أكثر أبعاد هذه البؤر الخطرة في المـجتمعات الإسـلامية، المـتولدة مـن الإبـهام والغـموض والاضطراب الفكري في قضية الخلافة.

نماذج من تداعيات قضيّة الخلافة

١ ـ إنّ معاوية وحزبه يرون لأنفسهم الحق في أن يقلّدوا أمثال يـزيد مـنصب الخلافة في العالم الإسلامي حتى مع وجـود الشـخصيات الكـبيرة فـي المـجتمع الإسلامي كالحسين عليه السلام، بدعوىٰ أنّهم اقتدوا بأبىبكر الذي استخلف عمر من بعده، مع وجود من هو أحقّ منه بها، وبدعوى أنّهم لم يجدوا نظاماً ثابتاً ومحدّداً لتعيين الخليفة لكي يُلزموا برعايته، بل هناك ثلاثة أساليب مختلفة لاختيار الخليفة، وهي الانتخاب، والتعيين، والشورى، إذ يتم العمل بكل واحد منها بمقتضى مصالح كـل

---

١. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٠٤.

زمانٍ وعصر، ولذا نجد معاوية يتشبث بهذا العذر في جوابه على من اعترض على تنصيبه يزيد وليّاً للعهد وخليفة له، إذ يقول: «أيّها الناس، قد علمتم أنّ رسول‌الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحداً فرأى المسلمون أن يستخلف الناس أبابكر، وكانت بيعته بيعة هُدى فعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه، فلمّا حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه، فلمّا حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورىٰ بين ستة نفر اختارهم من المسلمين، فصنع أبوبكر ما لم يصنعه رسول الله ﷺ وصنع عمر ما لم يصنعه أبوبكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن أُبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ونظراً لهم بعين الإنصاف»[١].

ولم يكن معاوية الوحيد الذي اعتمد أُسلوب أبي‌بكر، بل إنّ جميع الأمويين اعتمدوا هذا الأُسلوب والنهج، وكانوا يقولون في الدفاع عن ولاية عهد يزيد بأنّها «سنّة أبي‌بكر الهادية المهدية»[٢]، ولذلك لم يكن لأحد حق الاعتراض عليها؛ لأنّ أبابكر بتعيينه عمر خليفةً من بعده علّمنا هذا الدرس، وهو أنّ الخلافة بالتعيين ولا دخل للناس فيها.

فكان هذا هو المنطق السياسي والمؤثر لمعاوية في تثبيت خلافة يزيد ـ من جانب ـ وطبيعيٌّ أنّه ـ من جانب آخر ـ يرى المسلمون أيضاً لأنفسهم الحق في طرد يزيد من الخلافة والثورة ضده، كما حدث ذلك في المدينة المنورة عاصمة الإسلام ومركزه السامي، حين ثاروا ضده كما ثاروا من قَبْل ضد عثمان الذي هو أفضل منه بكثير، فمن الواضح أنّ المسلمين عندما ثاروا ضده كانوا يرون لأنفسهم الحق في التدخل في مسألة الخلافة، وخاصة أنّهم كانوا يرون أنّ خلافة أبي‌بكر ـ التي كان معاوية يثني عليها ـ قد وقعت باجماع المسلمين في الظاهر، والخلاصة أنّ المسلمين على العكس من ادّعاء الأمويين، قد عرفوا أنّ الخلافة تعني أوّلاً إجماع

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢١٢؛ جمهرة الخطب، ج ٢، ص ٢٢٥.
٢. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٧٤؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٢.

المسلمين وليست قراراً فردياً، وخاصة بالنسبة إلى معاوية ويزيد.

ومن البديهي أنّ الأفكار المتضاربة في هذه المسألة من هذا الجانب ومن ذاك تركت بصماتها على وعي الفرد والمجتمع، وجعلت الحكام والناس في مواجهة دائمة، وكانت الهوّة تزداد يوماً بعد آخر.

٢ ـ إنّ يزيد وأضرابه باعتبارهم خلفاء، كانوا يدّعون أنّ وحدة المسلمين تدعوهم لقمع كل معارض، حتى وإن كان الحسين بن عليّ عليه السلام، كما فعل ذلك عمر حين أمر بقتل معارض من نُصب خليفة، حتى وإن كان عليّاً عليه السلام، واستناداً إلى هذه الدعوى في الواقع كتب إلى عامله في البصرة (عبيدالله بن زياد):

«أمّا بعد فإنّه كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنّ ابن عقيل ـ (رسول الحسين) ـ بالكوفة يجمع الجموع ليشقّ عصا المسلمين فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه أو تقتله أو تنفيه، والسّلام»[1].

ومن جهة أُخرى فقد كان المؤمنون المخلصون، كالحسين بن عليّ عليه السلام وأصحابه، يرون وجوب مواجهة الحاكم الجائر كيزيد، والثورة ضده، من أجل إقامة الحكومة الإسلامية العادلة، وهذه المسؤولية المهمة قد وضعها الإسلام على عاتق جميع المسلمين، وخاصة رموزهم وقادتهم، وقد أيّد هذا المبدأ عمر أيضاً بجعله مسألة الخلافة شورىٰ في زعماء الأمة، ولا شكّ أنّ الحسين عليه السلام في زمانه ـ نظراً لمكانته واعتباره في المسلمين ـ لم يكن بأقل من أحد أعضاء شورىٰ عمر، ولذلك وجد نفسه عليه السلام حتى على أساس هذه الشورى في تعيين الخليفة، أنّ له حق التدخل في مسألة الخلافة، ومن الطبيعي أنّ بين هذه الرؤية وتلك صياغات فكرية متباينة ناشئة من الخلل والارتباك في تصوير نظام الخلافة الإسلامية، ولا يثمر ذلك سوى التشنج والتناحر على مستوى الواقع العملي للمسلمين.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٦٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٣؛ مقتل الحسين للخوارزمي، ج ١، ص ١٩٩؛ الارشاد للمفيد ج ٢، ص ٤٣.

٣ ـ إنّ بعض الانتهازيين الطامعين بالزعامة من أمثال طلحة والزبير، بالرغم من بيعتهما للإمام عليّ عليه السلام في خلافته، عندما رأوا أنّ الخليفة لم يمنحهم منصباً نقضوا بيعته، وخرجوا ناقمين تحت مظلة عائشة وأشعلوها حرباً شعواء ضده، وسفكوا دماء الآلاف من المسلمين، واللافت للنظر هو أنّ طلحة والزبير حين أشعلا الحرب ـ برعاية عائشة ـ ضد خليفة المسلمين الإمام عليّ عليه السلام، طرحا سببين لهذه الحرب:

الأوّل: أنّهما ادّعيا أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام شارك في قتل عثمان، مع أنّ الشواهد التاريخية تجمع على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام دافع عن عثمان من أجل حفظ حرمة الخلافة، ولكنّهما كانا على العكس من ذلك، فالشواهد التاريخية تؤيّد أنّهما حرّضا المسلمين على قتل عثمان كما صنعت عائشة أيضاً حيث كانت تقول: «أُقتلوا نعثلاً فقد كفر»[1].

الثاني: أنّهما كانا يدّعيان أنّ انتخاب الخليفة يجب أن يكون من خلال الشورى، ولهذا أثارا الناس ضد الإمام عليّ عليه السلام وقالا: «فإنّما نردّها شورىٰ بين المسلمين»[2]، أي أنّ هدفنا من الحرب ضد عليّ عليه السلام، هو أنّنا نريد إرجاع الخلافة شورىٰ بين المسلمين كما صنع عمر، وهو الأمر الذي يرتبط بموضوعنا هنا.

وبرغم أنّ مسألة الشورى كانت ذريعة سياسية لا أكثر، ولكنّهما في نفس الوقت استطاعا أن يخدعا الكثير من المسلمين ويجرّاهم نحو الحرب الضروس.

ومن الطبيعي أن يرى الإمام عليّ عليه السلام نفسه مسؤولاً عن إخماد هذه الفتنة؛ لانّه عليه السلام قد بويع من قِبَل معظم المهاجرين والأنصار، وبذلك فهو المسؤول عن استتباب الأمن في المجتمع الإسلامي، فعلى المسلمين جميعاً ـ وخاصة طلحة والزبير اللذين بايعا الإمام عليّاً عليه السلام أيضاً ـ أن يطيعوه كما أطاعوا أبابكر أيضاً على هذا الأساس، وهو بيعة معظم المهاجرين والأنصار، وعلاوة على كل ذلك فإنّ للإمام

---

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص ٧٢؛ تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٧٧؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٢٠٦..

٢. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٢٠؛ انساب الاشراف، ص ٢٢٣.

عليّ عليه السلام أيضاً أن يقمع ويقتل هؤلاء المخالفين تمسّكاً بنفس الذريعة التي تمسّكوا هم بها، وهي شورى عمر، حتى وإن لم يبايعوا، فكيف الأمر وقد بايع هذان الإمام عليّاً عليه السلام ؟!

والأعجب من قضية طلحة والزبير وعائشة، قضية معاوية الذي كان، وطبقاً لما ورد في جميع المصادر المعتبرة ـ مستعدّاً للتعايش مع الإمام عليّ عليه السلام، بل كان مستعدّاً لأن يبايع الإمام بشرط أن يوليه إمارة الشام[1] غير أنّ الإمام لم يوافق على ذلك، فلمّا يئس معاوية، اتهم الإمام ـ كباقي المعارضين ـ بمسألة قتل عثمان، وطرح قضية الشورى، ولكن بشكل بشع للغاية، حيث ادّعى اختصاصها بالشاميين دون غيرهم. وبهذه الذرائع أثار المسلمين وخاصة الشاميين ضد الإمام عليّ عليه السلام، وقد كتب في أحدىٰ رسائله إلى الإمام عليّ عليه السلام: «وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإذا دفعتهم كانت الشورى بين المسلمين، وقد كان أهل الحجاز الحكام على الناس وفي أيديهم الحق، فلمّا تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام ...»[2].

ومن الواضح أنّ الشورى التي يدعو إليها معاوية لم تكن سوى ذريعة إعلامية ليستطيع من خلالها التشكيك بشرعية خلافة الإمام عليّ عليه السلام، وبالرغم من أنّ خلافة الإمام عليّ عليه السلام كانت بمبايعة أغلبية المهاجرين والأنصار، كما قيل ذلك في بيعة أبي‌بكر، ومن هنا كان من الواجب على معاوية ـ حتى على هذا الأساس ـ أن يبايع الإمام، ولكنّ هؤلاء الانتهازيين لمّا رأوا أنّ طريق الوصول إلى الخلافة لا ينحصر بانتخاب وبيعة الأكثرية من المسلمين؛ لأنّ عمر قد انتخب طريقاً آخراً لذلك وسمّاه الشورىٰ، فكانت هذه ذريعة بيد معاوية وأضرابه، واستغلوها ضد الإمام عليّ عليه السلام وأصحابه.

---

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١١٥؛ شرح النهج، ج ٣، ص ٨٤ و ج ١٥، ص ١٢٣؛ فتح الباري، ج ١٢، ص ٢٥٠؛ تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٤٢.

٢. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٢١؛ العقد الفريد، ٥، ص ٧٦؛ شرح النهج، ج ١٥، ص ١٨٦.

ويا ليت ...

واللافت للنظر أنّ معاوية نفسه يرى أنّ شورى عمر كانت فلتة خطيرة ولم تقم على أساس رصين، فقد قال لبعض أصدقائه: «إنّه لم يشتّت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم ولا خالف بينهم إلاّ الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر ...»[١]، ومع هذا فإنّ معاوية هذا يتمسك في موضع آخر بشورى عمر، حينما أراد بهذه الحيلة أن يؤجّج نار حرب صفين ضد الإمام عليّ عليه السلام، والتي أدّت إلى مقتل عشرات الألوف من المسلمين، وكما نعلم أنّ معاوية هذا لم يتمسك لتأييد خلافته ـ بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام ـ بشورى عمر، بل لم يجعل الشورىٰ وسيلة حتى لخلافة إبنه يزيد، حيث إنّه بنى أركان خلافة نفسه على بحرٍ من دماء المسلمين، التي أراقها في حرب صفين وفي حروب أخرىٰ، وباستعمال آلاف الحيل والمكائد والرشاوى. كما أنّه بنى خلافة إبنه يزيد على أشنع وسائل العنف والتزوير والترغيب، وبالتمسك بأُسلوب أبي‌بكر في تعيينه الخليفة من بعده، وبذلك استطاع بزعمه أن يقمع المعارضين، وفيهم أبناء أبي‌بكر وعمر والزبير وغيرهم من كبار الشخصيات الإسلامية، الذين أرادوا إرجاع الخلافة شورىٰ بين المسلمين.

وبهذا الشكل لم يسخر معاوية بمصالح المسلمين فحسب، بل إنّه سخر أيضاً بأبي‌بكر وعمر، إذ زوىٰ أبناءهما ـ الذين يُعتبرون من أكابر الأُمّة ـ من أجل حبّه لابنه يزيد حتى باعترافه[٢]، بالرغم من أنّه استفاد منهما في تأييد خلافته وبيعته كخليفة على المسلمين.

وليت أبابكر وعمر كانت لديهما الفراسة الكافية لكي لم يُخدعا بظاهر معاوية وأضرابه الانتهازيين، ولم يسلّموهم مقاليد الأمور والمناصب الحساسة في المجتمع الإسلامي.

---

١. العقد الفريد، ج ٥، ص ٣١.

٢. العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٠؛ الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٩٤.

وليت أبابكر وعمر كانا قد عرفا ـ كما عرف الإمام عليّ‌عليه السلام ـ أنّ معاوية وأضرابه إذا سيطروا على الأوضاع فانّهم لا يقومون بسحق مصالح الإسلام فحسب، بل إنّهم يعتدون حتى على حرمات الخلفاء وأبنائهم من بعدهم.

وعلى كل حال، إنّ المصيبة الأصلية هي أنّ معاوية وأضرابه استفادوا كثيراً من اختلاف الآراء والنظم السياسية في مسألة تعيين الخليفة وكيفية إستخلافه، وفي جوّ هذه الاستفادة الشيطانية عرّضوا الأمة الإسلامية لمصائب جمة، وكما قلنا مراراً إنّ جذور هذه المعضلات تعود إلى أنّ أبابكر وعمر لم يضعا نظاماً واحداً لمسألة الخلافة وتعيين الخليفة، بل اختارا طرقاً متضادة باسم الانتخاب تارةٍ، والوصية تارة أُخرى، والشورى ثالثة، وكانت النتيجة تشديد الخلافات وتمكّن أمثال معاوية من خداع المسلمين وبالتالي ايجاد المشاكل الكثيرة والأخطار الكبيرة في طريق مصالح الأُمة الإسلامية.

العدوان على الخلافة إلى جانب تضييع حق علي‌عليه السلام

وهنا نلفت النظر إلى أنّ الكلام في هذه الصفحات لم يكن حول شخصية الإمام عليّ‌عليه السلام أو أبي‌بكر وعمر وعثمان وأهليتهم أو عدم أهليتهم للخلافة، بل الكلام فيها حول الخلافة نفسها وطرق الوصول إليها وآثارها المختلفة والمستمرة، فليس المقصود منه إثبات من هو أحق بالخلافة وأجدر بها من غيره، بل توضيح طبيعة تحوّل فكرة الخلافة إلى نقطة من نقاط القلق الفكري، الأمر الذي دفع بالمجتمع الإسلامي إلى السقوط في هاوية الاضطرابات والتمزق، وفي الحقيقة هنا يطرح اشكالان أساسيان:

الأول: وهو الذي طرحوه حين رحيل الرسول الأكرم‌صلى الله عليه وآله ومن خلال تصرفاتهم، وكأنّهم يقولون: بأنّ رسالة النبي تكون من الله ولكن خلافته هي شأن من شؤون المسلمين، وبديهي أنّ هاتين العبارتين متخالفتان، فبما أنّ رسالة النبي‌صلى الله عليه وآله لابدّ أن

تكون بتعيينٍ من الله، فكذلك خلافته، التي هي في الواقع استمرار للرسالة وأهدافها، يجب أن تكون بأمرٍ من الله تعالى أو رسولهﷺ، وإلّا فلا تكون خلافة له.

الثاني: أنّ أبابكر وعمر بعد أن جعلا الخلافة مسألة أرضية لا سماوية ـ أي لم يباشر فيها الله ورسوله وإنّما كانت على رأي المسلمين ـ لم يحددا المنهج الخاص بذلك، وهل أنّها تتم من طريق الانتخاب أو الوصية أو الشورىٰ، بل إنّهما استعملا هذه الطرق الثلاثة المتباينة، فكانت النتيجة أن صارت مسألة الخلافة مشكلة عويصة ومثاراً للاختلافات التي أدت إلى ألوان من الضياع والاضطراب والمشكلات المتوالية في جميع الأزمنة والعصور.

وأساساً إنّ هنا نقطة هامّة، وهي أنّ القضية بالدرجة الأولىٰ لم تكن خلافة الإمام عليّ‌ﷺ أو أحد منافسيه، بل إنّ القضية بالدرجة الأُولى هي الخلافة نفسها، وأنّها يجب أن يكون لها نظام مشروع واضح، لكي يعتمده المسلمون ويسيروا في ضوئه، وعلى هذا الاساس فإنّ معظم الباحثين يخطئون في التركيز على شخصية الإمام علي‌ﷺ ومنافسيه عند مناقشة موضوع الخلافة، والحال أنّه يجب أوّلاً الاهتمام بقضية الخلافة نفسها وطريقة تعيين الخليفة، والوضعية المُرتبكة والمضطربة التي آلت إليها هذه القضيه بسبب الاساليب المتضاربة لأبي بكر وعمر، وفي ضوء هذا الاهتمام يتبين المؤهلون وغير المؤهلين للخلافة أيضاً.

والخلاصة أنّ قضية الخلافة ـ كأيّ قضية أُخرى ـ لها مرحلتان، أُصولية وتطبيقية، فالمرحلة الأُصولية منها تأتي في الدرجة الأُولى والمرحلة التطبيقية منها تأتي في الدرجة الثانية، ويؤسفنا جدّاً أن نقول: إنّ مسألة الخلافة نفسها، التي تعتبر من أعظم المسائل في الأُمة الإسلامية لم تبن ابتداءً على أساسٍ بيّنٍ وقاطعٍ، سواء كان الخليفة الإمام عليّاً أو غيره، بل إنّها اتخذت أشكالاً مختلفة ومتناقضة بسبب اتخاذ أبي‌بكر وعمر الأساليب الثلاثة المتعارضة، ولهذا اتخذت طابعاً قلقاً ومستتبعاً للاختلاف والاضطراب والفتنة والتنازع والمصائب الدائمة.

مع هذه المسألة الأساسية أيضاً

وإذا طرحنا سائر الاختلافات بين الشيعة والسنة جانباً: فمع ذلك تبقى هذه المسألة قيد البحث، وهي أن الخلافة الإسلامية التي يفترض أن تحل بها سائر المشاكل، تحوّلت هي ذاتها إلى مشكلة عويصة للمسلمين، بسبب تنوع المناهج والطرق المتضادة في انتخاب الخلفاء، وكيفية وصولهم إلى الخلافة، الأمر الذي أدى إلى فتح باب المنازعات المستمرة بين المسلمين، والتي أحاطت آثارها السيئة بافكارهم وأعمالهم ومسيرهم وسائر ما يرتبط بهم إلى اليوم.

ومن الطبيعي عندما يتعرض نظام الخلافة ـ وهو محور تربية وبناء مجتمع المسلمين ـ إلى الإبهام والتشويش، فإنّ بقيّة المسائل الفكرية والاجتماعية أيضاً ستعرّض كذلك للاختلاف والتضارب، وفي الحقيقة كما أنّ اضطراب السوق والفوضى الاقتصادية، تؤدي إلى فساد المجتمع، فكذلك الفوضى السياسية، بل إنّ تأثير الفوضى السياسية أكثر من تأثير انهيار الاقتصاد في المجتمع؛ لأنّها تُعرّض مصالح المجتمع لكثيرٍ من الأخطار والمشاكل المتزايدة. ومن التأمل في تجارب المجتمعات البشرية يتبيّن لنا جيّداً أنّها تستطيع أن تتأقلم مع مختلف المشاكل الاقتصادية، ولكنّها تنهار عاجلاً أم آجلاً بسبب الاضطراب في النظام السياسي؛ لأنّه سيعرّضها حتماً للسقوط الذي لا مفرّ منه.

ولكن لماذا سلك أبوبكر وعمر كل هذه الطرق الثلاث المتضاربة في هذه المسألة الحيوية في الإسلام، فكانت النتيجة أن تعرّضت الأمة الإسلامية للانحطاط والسقوط، وخاصة أنّ هذه الطرق وقعت في مرحلة حساسة ومهمة من التاريخ الإسلامي، وهي مرحلة التأسيس، ولهذا أثّرت في الدورات اللاحقة تأثيراً كبيراً، وفي الواقع أنّها أصبحت ـ فيما بعد ـ كالوحي المنزل الذي يُتمسك به؟

إنّ أحسن جواب يمكن تقديمه عن هذا السؤال ظاهراً، هو أنّهما كانا عاجزين عن استشراف المستقبل على مستوى النظرة السياسية، وبالتالي عن الالتفات إلى

مصالح المسلمين بعيدة المدىٰ، بل إنّهما نظرا إلى مصالح المسلمين الظاهرية والموقتة، ولهذا حصلت هناك آراء مختلفة تبعاً للظروف المختلفة والأحداث الاجتماعية المتضاربة، وبالجملة كانا يستخدمان الأسلوب الآني وبمقتضى المصلحة الفورية ولم يلتفتا إلى عواقب هذا المنهج المضطرب ووخامته في المستقبل،وبالتالي توجيه ضربة إلى النظام السياسي في الإسلام وإلى الأُمة التي تنضوي تحت لوائه، والأنكىٰ من ذلك أنّها تصبح بسببه ـ وأصبحت ـ ذريعة مؤثرة جدّاً لصالح الحكومات المستبدة الأموية والعباسية وغيرها، والتي عرضت الأمة الإسلامية للاختلافات والنزاعات ومصائب وأخطار وفجائع كثيرة طبعاً، وهذا يعتبر ظاهرة سياسية، وهي أن الحكومات المستبدة تثبت أركانها ـ عادة ـ في ظلّ عدم وجود نظام مترابط ومتكامل، وإلّا فمع وجود أُطروحة واضحة ومحدّدة في مجال الحكم الإسلامي، فإنّ الحكام المستبدين لا يمكنهم بهذه السهولة أن يتسلموا زمام الحكم في المجتمع الإسلامي، فضلاً عن استقرارهم واستمرار حكمهم.

ومن أجل الوصول إلى نتيجة أفضل لهذا البحث المهم والأساسي لابدّ من القول: إنّه لو سأل سائل عن نظام الاسلام في الخلافة والإمامة ـ التي تعتبر أهم قضية اجتماعية وسياسية وثقافية في المجتمع البشري ـ هل هي انتخابية أو من خلال التعيين والنص أو بالشورى؟ فسيأتي الجواب: إنّ الإسلام يعتبر جميع هذه الطرق التي تم اعتمادها في خلافة أبيبكر وعمر، وبمضامين مختلفة، ولو اعترض السائل على اختلاف هذه الأساليب وتناقضها وأنّها ستكون ذريعة بيد المنحرفين، ـ كما حدثت في التاريخ بالصورة التي أشرنا إليها ـ فسوف لن يكون هناك أيّ جواب سوى سفسطة أو سكوت عجز.

ولا يقتصر الأمر على اعتراض غير المسلمين، بل نحن المسلمون أيضاً إذا خرجنا من إطار التعصب وبحثنا عن الحقيقة، سوف نعترض على هذا النظام المضطرب والمهزوز للخلافة الإسلامية، ويمكن أن يكون اعتراضنا عليه أشد من

اعتراضنا على قتل أهل البيتعليهم السلام في كربلاء الدامية؛ لأنّ ذلك الاضطراب الفكري والسياسي هو الذي مهد لمعاوية ويزيد وآل أمية وأضرابهم الطريق إلى السيطرة على المسلمين، وهيّأ الأرضية لفاجعة مَقاتل آل البيتعليهم السلام، ولهذا يستعرض هذا الكتاب بالدرجة الأولى مسألة نظام الخلافة في الإسلام التي تعتبر من إفرازات السقيفة ـ ويمنح فاجعة كربلاء الدرجة الثانية من الأهمية ـ وخاصة هذا الفصل الذي وُضع أساساً للبحث حول الخلافة الإسلامية ويركّز حول معرفة الجذور الأصلية لهذه الفاجعة. وأساساً إنّ هذا الكتاب يرى ضرورة أن تكون هناك دراسة مستفيضة عن فاجعة كربلاء، وعموم القضايا والأحداث المهمة التي وقعت في صدر الإسلام، في ظل السقيفة وتبعاتها، ولو تم بحث فاجعة كربلاء وغيرها من هذا المنطلق بالذات لاتضحت أبعاد كثيرة أُخرى، وفُتحت أبواب جديدة أمام طلاب الحق والحقيقة، والأهم من ذلك أنّه ستتضح جذور الاختلافات والنزاعات التي ابتلي بها المسلمون في تاريخهم وإلى الآن.

ويمكن القول بثقة

ويمكن القول بثقة: إنّه لو أُجيب عن الإشكالات المطروحة في خلافة أبي‌بكر وعمر، وخاصةً سلبهما حق عليّعليه السلام حتى باعترافهما المذكور آنفاً، فإنّهم لا يستطيعون الجواب عن هذا الإشكال الأساسيّ، وهو قيام الشيخين بانتهاج ثلاثة أساليب متناقضة في تعيين الخليفة ممّا أدىٰ إلى إرباك فكري في الدائرة السياسية، بحيث تمكّن معاوية ويزيد وأمثالهما من الانتهازيين التذرع بها في دعم مقاصدهم السياسية وإراقة دماء المسلمين لذلك؟ بالرغم من أنّ جميع الناس يشعرون بضرورة هذا الموضوع وأهميته، وهو أنّ كل حكومة لابدّ أن يكون لها نظام محدّد لتكون سفينة المجتمع في مأمن من خطر الانحراف والاختلاف وتصل إلى ساحل الأمان.

وعلى أساس هذا الإحساس الوجداني الذي يشهد له التاريخ البشري، نرى أنّ

الأقوام البشرية وحتى المغول الوحوش كان لهم نظامٌ للحكومة باسم (ياسا) مثلاً؛ ولكن مع الأسف نرى أنّه في الإسلام ـ وهو أشرف الأديان ـ لم تحدّد مسألة الطريقة في تعيين الخليفة التي هي أهم مسألة دينية ودنيوية، بل إنّ الشيخين باستخدامهما أساليب مزاجية متناقضة، جعلا هذه المسألة المهمة في دوامة من الاضطراب والتشويش، بحيث تمكن أمثال معاوية ويزيد من التقدم إلى سدّة الحكم ووضع العراقيل أمام عليّ‌عليه السلام والحسين‌عليه السلام وغيرهما، ممّا أدى إلى اضطراب المجتمع الإسلامي وحدوث الأزمات الشديدة فيه على طول التاريخ، وبما أنّ هذا التقصير للخليفتين كان في أهم مسألةٍ حيوية للأُمة الإسلامية وفي أهم فترة من التاريخ الإسلامي، فلذلك ينبغي أن يعدّ أعظم تقصير لهما.

لماذا يقال رافضي ويهودي الأمة؟

وليس إخواننا أهل السنة لا يستطيعون تقديم الإجابة عن الإشكال المذكور فحسب، بل إنّهم لا يستطيعون أيضاً تقديم الإجابة المعقولة عن تساؤل آخر يطرح نفسه، وهو أنّه لماذا يسمي بعضهم الشيعة بالروافض؟ فهل الشيعة تركوا أصلاً من أصول الإسلام حتى يجب توجيه سهام الاتهام والبهتان وحتى التكفير إليهم؟ رغم أنّ الشيعة سعوا دائماً إلى تجنّب النزاع مع إخوانهم أهل السنة، ويتحركون دائماً على مستوى توضيح الموضوعات الأساسية لمعتقداتهم، وأهمها عدم انتخاب النبي‌صلى الله عليه وآله لأبي بكر وعمر، وجعلهما قضية الخلافة مضطربة ومبهمة، وبالتالي زرع بذور التناحر المستمر بين المسلمين.

والقضية اللافتة للنظر هنا، هي أنّ مصادر أهل السنة نفسها تعتقد أنّ خلافة أبي‌بكر وعمر لم تكن بتعيين من الله ورسوله، بل كانت بانتخاب الناس، فمن غير المنطقي ـ إذن ـ اتهام الشيعة بالفسق والكفر بمجرد أنّهم يعتقدون بأنّ الخلافة تكون بتعيين من الله ورسوله‌صلى الله عليه وآله لعليٍّ، ولذا لا يقبلون خلافة الشيخين ويخالفون بعض

أساليبهما، خاصة وأنّ الإمام علياًعليه السلام ـ الذي يجله أهل السنة أيضاً باعتباره الخليفة وأميرالمؤمنين ـ كان على خلافٍ مع الشيخين ومنهجهما ولو في بعض الأُمور، إذ إنّ المصادر التاريخية أجمعت على أنّ الإمام علياًعليه السلام رفض اقتراح عبدالرحمن بن عوف، الذي قال له: «أُبايعك على كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين أبي‌بكر وعمر»، فقال عليه السلام: «بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي»[1]، وهذا يعني أنّه كان مستعدّاً للتنازل عن الخلافة ، التي كان يراها حقه، ولكن لم يكن مستعدّاً لاتباع سيرة الشيخين، وهذه ملاحظة حساسة ومهمة للغاية تثير تساؤل الباحثين الموضوعيين، وقد ذكر الإمام عليّعليه السلام في كلماته ـ كالخطبة الشقشقية ـ بعض ما يرتبط بهذه الملاحظة.

ومع الالتفات إلى أنّ مدّونات التاريخ الإسلامي جميعاً صرحت بأنّ الإمام علياًعليه السلام لم يقبل السير على سنة أبي‌بكر وعمر، يقفز إلى الذهن سؤال مهم، وهو: هل أنّ سيرة أبي‌بكر وعمر كانت موافقة لسيرة النبيصلى الله عليه وآله أو مخالفة لها؟ فلو كانت موافقة فلماذا لم يقبلها الإمام عليّعليه السلام؟ وإذا كانت مخالفة ـ وهي كذلك قطعاً في نظر الإمام عليّ الذي لم يوافق عليها كما رأينا آنفاً ـ فلماذا يعترض إخواننا أهل السنّة على الشيعة؟

أليس رأي الشيعة هو رأى الإمام عليّعليه السلام في عدم قبول سيرة الشيخين؟ وهل يقبل عاقل بأنّ الإمام علياًعليه السلام الذي رفض سيرة الشيخين يصبح أميرالمؤمنين كما يقرّ ذلك أهل السنة، ولكن شيعة الإمام عليّعليه السلام الذين يتبعونه في منهجه ولا يقبلون سيرة الشيخين كذلك فإنّهم روافض ويهود الأمة؟ بل الأعراف الجاهلية أيضاً ترفض هذا المنطق المضحك جدّاً، ولا يقبله إلّا بنو أمية الانتهازيين وأتباعهم الذين وقفوا ضد الإمام عليّعليه السلام وسعوا إلى تعظيم وتثبيت سيرة الخلفاء لمصالحهم السياسية ومواجهة عليّعليه السلام وأتباعه، وكذلك يقبله كل من ترسخت في أفكاره سموم الإعلام الأموي المضاد للمنهج العلوي، حيث كان له الأثر البالغ في التاريخ الإسلامي.

---

١. تاريخ الطبري، ج٣، ص٢٩٧؛ شرح النهج، ج١، ص ١٨٨ و ج٩، ص ٥٣ و ٢٤٥.

مشكلة لا أساس لها

ومضافاً إلى ذلك، لو أنّ الشيعة اعترضوا على إخوانهم أهل السنة، فلا أقل من أنّهم يمتلكون أساساً لهذا الاعتراض، وهو أنّ النبيﷺ قد عيّن الإمام عليّاًعليه السلام خليفة له بأمرٍ من الله تعالى، ولكن هذا الحق تمّ تجاوزه من قِبل الانتهازيين ولو بالتوجيهات السياسية، وأمّا أهل السنة الذين يقولون: إنّ الخلافة أمر عادي وأنّ الخليفة يمكن أن لا يكون معصوماً أو عادلاً، حتى إنّهم نقلوا عن أبي‌بكر قوله: «إنّ لي شيطاناً يعتريني»[١]، وكذلك نقلوا عنه عند موته أنّه أظهر الندم بشأن هجومه على بيت فاطمة بنت النبيﷺ، وعدم سؤاله النبيﷺ بخصوص قضية الخلافة[٢]، فلماذا ـ إذن ـ يعترضون على الشيعة؟ وبأيّ دليل يكفّرونهم ويفسقونهم؟

هذا الإبهام الغريب يبقى بدون جواب واضح، برغم أن ذلك أدى إلى نشوب أزمات وصراعات وجدل علمي وغير علمي، طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان، وقد قتل بسببه آلاف وربما ملايين من المسلمين وعلى امتداد بلاد العالم الإسلامي الواسع و تاريخه، وكان ذلك ـ في الأغلب ـ تحت راية الحكام الفاسدين والعلماء المتعصبين. والأنكى أنّ بعضهم وصف الشيعة ولو نقلاً عن الآخرين بأُمور مخجلة تحت عنوان «فضائح الشيعة الكبيرة»، منها أنّ الحرف الأول للشيعة هو حرف (شين)، ولذلك فهذه الكلمة مذمومة لأنّها تشبه كلمات من قبيل: شيطان، شر، شقاوة، شؤم، شماتة، وأمثالها، ويضيف الجاحظ ولو نقلاً عن الآخرين: «... فما ثبت لشيعي بعدها قائمة»[٣] أي بهذا العار الذي لحق بالشيعة ليس بمقدورهم أن يرفعوا رؤوسهم إلى الأبد.

---

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص ٣٤؛ تاريخ ابن كثير، ج ٦، ص ٣٣٤.

٢. الامامة والسياسة، ج ١، ص ٣٧؛ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٢٠؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠١.

٣. العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٢٤؛ الغدير، ج ٣، ص ٨٧.

إقتراحٌ هامّ ومثمر

من البديهي أنّه من أجل حفظ كيان الإسلام يجب تبديد هذه الأوهام السخيفة والجدال الفارغ، وخاصة في الظروف الراهنة التي تكالب فيها أعداء الإسلام على المسلمين، وهم يستغلون هذه الأوهام والخرافات لتقطيع أوصال العالم الإسلامي وإثارة الفتن بين المسلمين، سواء بين الشيعة والسنة، أو بين الشيعة أنفسهم، أو بين السنة أنفسهم، بل إنّهم سعوا بمنتهى ما لديهم من القوىٰ والقدرات إلىٰ اختلاق اختلافات جديدة بين المسلمين، خاصة بين الشيعة والسنة.

وللأسف فإنّ معظم المسلمين لا يزالون يغمضون أعينهم عن مؤامرات الأعداء وخططهم المثيرة للفتن، والأشنع من ذلك أنّ بعضهم أوقعوا أنفسهم في النار التي أشعلها الأعداء، بل زادوها اشتعالاً بسبب تكريسهم للاختلافات وتعميقها، والأتعس من ذلك أيضاً هو أنّه لا يوجد لديهم من يهديهم إلى سواء السبيل، ويقول لهم بوسائل إعلامية واسعة ومؤثرة: أيّها المسلمون اهتموا برفع الظلم عن الإسلام والأُمة، وعلى الأقل اهتموا برفع الظلم عنكم، انتبهوا وانتفضوا وأزيلوا الاختلافات التي تحرق الأخضر واليابس من بينكم، وأنصفوا في حكمكم وابتعدوا عن التعصب في حل المشاكل، حتى يكون بإمكانكم التقدم والرقي في كل مجال. ولكن ما هو الطريق لحل هذه الاختلافات ولا سيما بين السنة والشيعة؟

الاقتراح الأساسي المثمر يتمثل في تشكيل مؤتمرٍ يضم كبار علماء الطائفتين، ويتكفل بحل المسائل الخلافية على أساس المشتركات بين السنة والشيعة. وهذا المنهج هو منهج جميع المفكرين والعلماء في العالم، الذين يعالجون نقاط الاختلاف فيما بينهم بمعونة المشتركات ومساحات الاتفاق بينهم، ومن الطبيعي أنّ هذا المنهج العقلائي لا يكون مثمراً إلّا إذا كان خالياً من التعصب والتقليد الأعمى. وكما نعلم أنّ القسم المهم من المشتركات لدىٰ الأكثرية المطلقة من المسلمين هو الاتفاق على شخصية الإمام عليّ عليه السلام، فليس الإمام عليه السلام موضع قبول الشيعة فحسب، بل إنّ أهل السنة أيضاً يكنّون له كل الاجلال والاحترام. بالرغم من أنّ كثيراً من بني أُمية وبني

العباس وأعوانهم وأتباعهم سعوا طيلة حكومتهم، التي امتدت قروناً من الزمان، إلى التقليل من شأن الإمام عليّ عليه السلام أو الاستهانة به، وفي الوقت نفسه رفع شأن الخلفاء الآخرين، وكما يقول الخليل بن أحمد: «لقد سعى اعداؤه في كتمان فضائله حسداً وحقداً، وسعى أصدقاؤه إلى إخفائها تقيّةً وخوفاً، ومع ذلك ملأت فضائله الخافقين»[١]، حتى إنّا نراها جليّة في الآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة. والمؤرخون أيضاً ذكروا فضائله ومناقبه ممّا لا يرى حتى عشر معشارها بشأن أفضل الخلفاء، فضلاً عن غيره، ومن هنا نجد أنّ معظم فقهاء أهل السنة السلف كالشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما، كانوا يقدسون الامام عليّاً عليه السلام إلى حد بعيد.

ومن هنا فالمتوقع، بل من الضروري أن تكون أقوال وأفعال الإمام عليّ عليه السلام، وخاصة ما ورد في نهج البلاغة، محوراً للدراسة والحوار، فإنّ ما ورد في نهج البلاغة، من كلمات وخطب، والتي أوردها منه أهل السنة في كتبهم المعتبرة، بمثابة النص الثاني بعد القرآن، حيث نجد فيه حلاً للكثير من المسائل والمشاكل، وخاصة ما يتعلق بأوضاع صدر الإسلام و تعريف الشخصيات الصالحة والطالحة في ذلك الزمان. اضافة إلى الآيات القرآنية التي تتحدث عن فضائل الإمام عليّ عليه السلام، وعموم الآيات المتعلقة بأهل البيت عليهم السلام والمختصة بالإمام عليّ وفاطمة والحسن والحسين، كآيات المودة والمباهلة والتبليغ وغيرها.

فهذه الآيات ـ كما يقول المفسرون السنة والشيعة ـ تؤكد على ولايتهم ومحبتهم والبراءة من أعدائهم، بل إنّها تعتبر ولايتهم محكّ الإيمان. وكذلك ما ورد في الأحاديث الشريفة في هذا المجال في كتب الفريقين، وكما يصطلح عليه أنّها ممّا (اتفق عليه)، كحديث الثقلين والغدير والسفينة والمنزلة وغيرها. كل هذا يجب أن يكون مرجعاً لحل المشاكل الإسلامية، كما أنّ الاشكالات ذات العلاقة بخلافة أبي‌بكر وعمر وعثمان يمكن أن تكون ميزاناً ومحوراً للتحكيم الموضوعي، وكما رأينا أنّ أهم نموذجٍ لهذه النواقص والاشكالات التي يوردها كل إنسان متأمل هو

---

١. اعيان الشيعة في ترجمة الخليل بن أحمد.

أنّ: هؤلاء الخلفاء قد جعلوا نظام الخلافة بأساليبهم الملتوية والمتضادة بصورة مبهمة ومثيرة للاختلافات التي تتهيّأ بسببها الأرضية للنزاعات والأزمات التي حلت بالعالم الإسلامي، فنحن نطالب علماء الشيعة والسنة أن يتمسكوا بنهج البلاغة وبجميع المشتركات في كلتا الطائفتين وكذلك بالإشكالات الأساسية التي بقيت دون جواب، حتى يمكنهم إزالة الفرقة من المجتمع الإسلامي، وإعادة الاخوة الإسلامية إلى مجراها الحقيقي، وانقاذ المسلمين من كيد الأعداء، بل وفتح الطريق للغلبة التامة عليهم وعلى سائر مخالفي الإسلام.

* * *

إلى هنا تم ذكر مميّزات بني أمية والنقائص المهمة في خلافة الخلفاء وخاصة عثمان، والاستغلال المشين لبني أمية لهذه النقائص، والنتيجة الكلية من هذا التحقيق والبحث الذي يمثّل الجذور الحقيقية لنهضة الامام الحسين عليه السلام واستشهاده هو أنّ خلافة أبي‌بكر وعمر ـ وخاصة عثمان ـ قد ساعدت بني أمية من مختلف الجهات، والآن لنرَ الأسلوب السياسي لبني أمية الذي يقوم على الاستفادة من هذه الأجواء المواتية لهم، والخطة التي رسموها لتحقيق أهدافهم.

سياسة الحكومة الأموية قائمة على دعامتين متضادتين

إنّ دراسة أُسلوب بني أمية السياسي تمثّل قسماً مهماً من أبحاث هذا الكتاب، وهي ضرورية لتبيين أهداف وطريقة بني أمية وحكومتهم وتبعات ممارساتها على الأمة الإسلامية. وأساساً فإنّ بني أمية من خلال هذا الأُسلوب السياسي اغتصبوا الخلافة وأفرغوا الإسلام من محتواه المعنوي والاجتماعي وجرّوا المجتمع الإسلامي إلى هاوية الانحراف والانحطاط ممّا أدى إلى نهضة الإمام الحسين عليه السلام وبالتالي استشهاده.

إنّ بني أمية بعد ما حاربوا الإسلام والمسلمين بكل امكاناتهم ثم هزموا في النهاية، أدركوا حقيقة أنّ كثيراً من الناس يعتقدون بالإسلام، ويرون أنّه أفضل هدية

إلهية وأفضل نظام إجتماعي للبشر، ولذا يبذلون جميع ما لديهم في سبيله. وحينها أدرك بنو أُمية أنّه ليس لهم طريق إلى النفوذ في أوساط المسلمين إلّا بوضع قناع الإسلام على وجوههم، ليتمكّنوا بذلك من الوصول إلى أهدافهم في تسلّم السلطة.

ومن جهة أخرىٰ كان بنو أمية يرون أنّ القيمة الواقعية أو الجاذبية الحقيقية في الإسلام تكمن في أنّه جعل التقوى محوراً وأساساً لجميع الأعمال والسلوكيات، إذ ينطلق من مبدأ حضاري قادر على تحريك الأمة باتجاه التحرر والأخوة والمساواة، ومناهض للقوى المادية الخادعة والماكرة ولكل المنحرفين والظالمين. وهذا الأمر شكّل العقبة الأساسية أمام بني أمية، إذ إنّهم لم يكونوا من أهل التقوىٰ، في وقت كان جميع المسلمين أو أغلبهم يرون في أهل بيت النبيﷺ نموذجاً سامياً للتقوىٰ والقدسية وأنّهم جديرون بالخلافة، وأن اعداءهم ـ ولا سيما بني أمـية الطـلقاء ـ منحرفون ويتحركون من موقع التآمر على الإسلام.

وهكذا أدرك بنو أُمية في باطنهم الشعوري واللا شعوري، مثل سائر السياسيين في كل عصر وزمان، أنّ الإسلام هو أقوى سدّ ومانع في طريق تحقيق هيمنتهم على الناس، ولكن بإمكانهم من خلال تزييف حقائقه، أن يتخذوه وسيلة لتنفيذ مآربهم، فيتمسكوا بظاهر الإسلام وفي الوقت نفسه يعملون ضده في الحقيقة، حتى يتمكّنوا بهذا المنهج الازدواجي، من تثبيت مواقعهم الاجتماعية بين المسلمين من جانب، والتنكيل بمعارضيهم (وهم المؤمنون الحقيقيون) مـن جـانب آخـر. والنـتيجة أنّ ضرورات السياسة الماكرة دعتهم إلى استقطاب السذج مـن المسـلمين الذيـن لم يدركوا روح الاسلام والإيمان، واستبعاد المؤمنين المخلصين المعارضين لهم عـن مركز القرار في الحكم الإسلامي.

وهنا لابدّ من الالتـفات إلى هـذه النـقطة، وهـي: كـما أنّ المـعادن والفـلزات ـكالذهب ـ فيها المزيف وغير الأصلي، وهذا المزيف حسن الظاهر يـقوم بـدور الأصل ظاهراً وإن لم يكن كذلك واقعاً، فان المذاهب والأديان أيضاً ـ كـالإسلام مثلاً ـ فيها الأصيل وفيها المزيف، وقد أثبتت التجربة أنّ النماذج الشبيهة المزورة

للمذاهب والأديان ـ التي تتألف من تزاوج الحق والباطل ـ أكثر بكثير من النماذج الشبيهة والمزيفة للمعادن والفلزات، والأهم من ذلك أنّ كشفها وتمييزها أكثر صعوبة من كشف الفلزات المزيفة، لأنّ كشف الفلزات المزيفة قد يتم بواسطة الحواس والأدوات المتوافرة لدىٰ الكثير من الناس، ولكنّ كشف المذاهب والأديان المزيفة يحتاج إلى تفكير عميق وتوفيق إلهي خاص، وهذا لا يتسنى حتى لكثير من العلماء والخبراء في هذا المجال فضلاً عن غيرهم. ومن هنا نرى أنّ الروايات الإسلامية تذكر أنّ جذور الشرك، وبشكل عام جذور الانحراف والزيف، خفيّة إلى درجة أنّ إدراكها صعب جدّاً، فهي أخفىٰ من دبيب نملة سوداء على صخرة سوداء في ليلة مظلمة[1].

العوامل المختلفة التي ساعدت بني أُمية...

إنّ أهم اساليب بني أمية الماكرة يتمثل في أنّهم جاءوا بإسلام مزيف ووضعوه في مقابل الإسلام الحقيقي، وبهذه الوسيلة جعلوا من أنفسهم مدافعين عن الإسلام ظاهراً، ولكنّهم عملوا على تدمير الإسلام وتضليل المسلمين وإفسادهم في الحقيقة والأنكى من ذلك أنّهم بهذه الوسيلة وضعوا العراقيل والأشواك في طريق رجال الحق، وهناك عوامل مختلفة ساعدت بني أمية على استخدام هذا الإسلام المزيف في المجتمع الإسلامي، وهي كما يلي:

الأول: خلافة عثمان الذي يعتبر أكبر شخصيات بني أمية، وهو صهر النبي وصاحب موقع اجتماعي بين المسلمين. فتجمّع بنو أمية حوله ولقبوه بألقاب برّاقة مثل (ذي النورين) و(حافظ القرآن) و(خليفة رسول الله المظلوم) و.... واستثمروا ذلك كثيراً، ولا سيما ضد الإمام عليّ عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وتذرعوا به لاثارة الفتن والقلاقل.

---

١. مستدرك الحاكم، ج ٢، ص ٢٩١؛ الجامع الصغير، ج ٢، ص ٨٥؛ تلخيص الرّياض، ج ٢، ص ٢٧٢؛ الدر المنثور، ج ٢، ص ١٧.

الثاني: زواج النبيﷺ من أمّ حبيبة وهي أُخت معاوية، فراح بنو أُمية ـ من خلال هذه العلاقة ـ يسمّون أنفسهم بـ (أخوال المؤمنين).

الثالث: منح أبي‌بكر وعمر وخاصة عثمان، المناصب الحساسة لبعض الامويين، كمعاوية وأضرابه، برغم وجود أصحاب الفضل ورجال الحق أمثال عليّ‌ؑ وأصحابه، ونصبوهم حكاماً في الشام وغيرها، ووفروا لهم كل الإمكانات اللازمة.

الرابع: ادعاء معاوية بأنّه من كتّاب الوحي، فعلى الرغم من زيف و خواء هذا الادّعاء ـ كما ذكرنا في الصفحات السابقة ـ ولكن الابواق الإعلامية سعت إلى تركيزه في أذهان المسلمين البسطاء، وخاصة أهل الشام، حتى جعلوه من المقدسين والمقربين عند الله.

الخامس: وجود الأحزاب والتّيارت المختلفة في أوساط الصحابة الصلحاء في الظاهر، أمثال طلحة والزبير وابن عمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، إذ تشكّلت في ظلّهم هذه الأحزاب بشكل غير رسمي، ووقفت بذرائع مختلفة ضد الإمام عليّ‌ؑ وأصحابه، لا ضد معاوية وأعوانه، ممّا أدى إلى إضعاف جناح الحق، وتقوية جناح الباطل.

وقد استفاد بنو أُمية من كل هذه العوامل التي تُعدّ أدوات إسلامية قوية، وتمترسوا بها، وسعوا بكامل قدراتهم لتحويل الواقع الإسلامي لصالحهم، وذلك باسم الرسولﷺ والقرآن، وبذريعة الدفاع عن المسلمين ومواجهة المنحرفين، وفي الحقيقة كان أُسلوب بني أُمية يعتمد منهجاً ذا بعدين، يتمثل في (خلط الحق مع الباطل)، وقد ذكر الإمام علىؑ هذا الأُسلوب الذي استخدمه بنو امية لاستغفال الناس وتأسيس حكومتهم وتقويتها وقمع معارضيهم فيقول: «فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنا لك يستولي الشيطان على أوليائه»[1] أي أنّ هذا الأُسلوب الذي يشكّل أساس منهج

---

١. شرح النهج، ج٣، ص ٢٤٠.

الماكرين والمخادعين هو أُسلوب الشيطان، وهو كما يقول القرآن الكريم يكمن في طريق الحق والصراط المستقيم، ويتقنع بقناع العلم والعبادة والإنصاف والعدالة والأخلاق والفضيلة، فيصطاد بذلك ضعفاء الإيمان ويحرفهم عن جادة الحق والصراط المستقيم، بل يجعلهم معارضين لأهله. والاصطياد هذا لا يكون من جهة واحدة، بل من جميع الجهات، من الشمال والجنوب والغرب والشرق كما يقول كتاب الله: ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾[1].

طبيعة الاسلام الأُموي

لقد كان بنو أمية يستخدمون الحق في الظاهر لتحقيق أهدافهم الباطلة في الواقع، وكانوا يتحركون ضد الحق بأدوات الحق، وبعبارة أُخرى أنّهم يتخذون اسلوباً مكوّناً من قطبين متضادين، هما: التظاهر بالإسلام والهجوم على الإسلام وأتباعه الحقيقيين. وأساساً فإنّ الخصيصة الأصلية والمشتركة لجميع قوى الانحراف في الدنيا هي أنّهم ينطلقون في حركتهم السياسية لتشويش الأذهان وإرباك الواقع باستخدام عملة ذات وجهين، هما: الرياء والظلم أو الخداع والإرهاب، وبذلك يقتربون كثيراً من تحقيق أهدافهم الدنيوية ومطامعهم الشخصية من خلال تضليل الناس وقمعهم في إطار أنواع الإعلام المضلّل والاستبداد. وهنا نذكر مجموعة نماذج ـ من بين آلاف النماذج ـ لبيان حقيقة هذا الأُسلوب، لنصل إلى الجذور الحقيقية لتدهور واقع المسلمين، ونقف على الأسباب الحقيقية لحدوث الفجائع العظيمة في المجتمع الإسلامي، كفاجعة كربلاء وغيرها.

١ ـ الوصية المقتضبة والصريحة لعبدالملك بن مروان، إذ أوصى أولاده للاستمرار في طريقه فقال:

«أوصيكم بتقوىٰ الله وإكرام الحجاج فإنّه الذي وطّأ لكم هذا الأمر»[2].

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٦ و ١٧.
٢. مروج الذهب، ج٣، ص ١٦١.

تُطرح التقوى كمؤشر على الالتزام بالاسلام، ويطرح اكرام الحجاج كعلامة لقوة وهيمنة السلطة وقدرتها على قمع المعارضين. والملاحظة اللافتة للنظر هي أنّ الأمويين استخدموا هذين العاملين مع أنّهما متباينان. وفي الحقيقة أنّهم استخدموا الاسلام وسيلة لتثبيت سلطانهم، كما استخدموا الحجاج وأمثاله.

ونورد هنا شاهداً واحداً فقط على طبيعة إسلام الحجاج، لكي نفهم جيّداً لماذا كان الحجاج وأمثاله يتمتعون بموقع مهم في نظام الحكم الأموي، ولنفهم كيف كان المسلمون مرغمين على قبول مثل هذا الإسلام المحرّف في ظل الحكومة الأموية.

لقد ذُكر في التواريخ أنّ (الحجاج) قال يوماً لأحد أصدقائه القدامى ـ كان يدعى (عبدالله بن هاني) وقد شهد مع الحجاج مشاهده كلها ـ : «والله ما كافأناك بعد» فكانت مكافأة الحجاج أن طلب من رئيسين من رؤساء القبائل المهمة أن يزوجا عبدالله من بناتهما، فلمّا أبيا هددهما بالسيف، فوافقا، وكأنّ عبدالله لحظ في الحجاج أنّه يمنّ عليه بذلك عندما قال له: يا عبدالله، قد زوجتك بنت سيد بني فزارة وبنت سيد همدان وعظيم كهلان. فقال: «لا تقل أصلح الله الأمير ذلك، فإنّ لنا مناقب ما هي لأحدٍ من العرب. قال الحجاج: وما هذه المناقب؟» فأخذ يعدّد خصال قبيلته في تفانيها من أجل حكومة بني أُمية، إلى أن قال: «.. وما منّا امرأة إلّا نذرت إن قُتل الحسين أن تنحر عشر جزائر لها ففعلت، قال [الحجاج]: وهذه والله منقبة، قال: وما منّا رجلٌ عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلّا فعل، وقال: وأزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأُمّهما فاطمة، قال [الحجاج]: وهذه والله منقبة...»[1].

ولم تنحصر عداوة الحجاج لأهل بيت النبيّ ﷺ وأتباعهم بهذا ونظائره، بل إنّه استخدم العنف والشدة والبطش ضد سائر المسلمين المؤمنين، فمثلاً كان يقول لأهل العراق : «وقد أوصيته [أي أحد عماله] فيكم بخلاف وصية رسول الله بالأنصار، فإنّه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم»[2].

---

١. مروج الذهب، ج٣، ١٤٤؛ شرح النهج، ج٤، ص٦١.

٢. مروج الذهب، ج٣، ص١٤٦؛ شرح النهج، ج١، ص٣٤٦؛ العقد الفريد، ج٤، ص١٧٩.

٢ ـ والنموذج الثاني المضحك المبكي، كلام (مسلم بن عقبة)، القائد العسكري لأهل الشام والمعيّن من قِبل يزيد، هذا الإنسان المتوحش قتل حوالي عشرة آلاف من الصحابة والتابعين في المدينة المنورة بأمرٍ من الطاغية السكير يزيد، واستباح أموالهم وأعراضهم لجنده ثلاثة أيام، وقتل حتى من قال له: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، وبذلك قتل الكثير من الشيوخ والأطفال والنساء بشكل مفجع للغاية، واعتدى أيضاً على الأعراض بوقاحة لم يُسمع مثلها في الحجاز، وبعد تلك الفجائع التي يطول شرحها أجبر المتبقين من الجرحى والمفجوعين على بيعة يزيد بن معاوية على أنّهم عبيد ليزيد[1]، وبعد هذه الواقعة المؤسفة التي سودت وجه التاريخ الإسلامي، تقدّم المجرم مسلم بن عقبة نحو مكة ليصنع بها وبأهلها كما صنع بالمدينة المنورة، ولكن أجله لم يمهله فهلك في الطريق وطويت صفحات حياته السوداء، فكان يقول وهو مشرف على الموت كلمات هي أشد شناعةً من جميع فجائعه. ولابدّ من قراءة هذه الكلمات لندرك حقيقة أنّ الامويين وأعوانهم في التاريخ الإسلامي أمثال: مسلم بن عقبة وابن زياد ويزيد وشمر وعمر بن سعد وغيرهم ـ وخلافاً لتصور عامة الناس ـ لم يكونوا غرباء عن الإسلام ولم يعلنوا الحرب على الإسلام والقرآن والنبي صلى الله عليه وآله، بل إنّهم على العكس من ذلك، قبلوا الإسلام واعتنقوه، ولكن أيّ إسلام؟ إنّه إسلام الهوىٰ والسياسة المزيّفة وليس الإسلام الأصيل الحقيقي، وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام في إحدىٰ خطبه إلى هذا الأمر بقوله: «إنّهم ما أسلموا ولكن استسلموا»[2] أي أنّهم لم يجعلوا أنفسهم تابعين للإسلام، بل جعلوا الإسلام تابعاً لأنفسهم، وبعبارةٍ أُخرى أنّهم اعتقدوا بالنبي والقرآن والدين الإسلامي، ولكنّه النبي الميّت الذي يكون محكوماً لهم لا حاكماً عليهم، النبي الذي يكون موافقاً لأهدافهم ومقاصدهم لا المخالف لها، وهذا ما يتضح من حديث مسلم بن عقبة في ساعة الاحتضار الذي سنراه، وهو نموذج من

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٧٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٨؛ الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢٣٩.

٢. شرح النهج، ج ٤، ص ٣١ و ج ١٥، ص ١١٤.

آلاف يبين لنا جذور مثل هذا الإسلام الذي يقف في مقابل الإسلام الحقيقي ويحاربه بشدة، وينبغي أن يبحث العلماء مفصّلاً حول هذا الموضوع في كتاب مستقل تحت عنوان (إسلام بني هاشم، وإسلام بني أُمية)، وأمّا كلمات مسلم بن عقبة في لحظات حياته الأخيرة فهي:

«اللّهم إنّي لم أعمل عملاً قطّ بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله أحب إليّ من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة»[١].

ولابدّ من الانتباه إلى أنّ إحدىٰ وصايا معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد، والتي تنبأ فيها بما سيكون، هي: «إنّ لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فإنّه رجل قد عرفت نصيحته»[٢]. وكذلك جاء في نبوءة أُخرى له، أوصى بها يزيد أن يرسل ابن زياد إلى الكوفة لقمع أهلها والقضاء على ثورة الحسينعليه السلام[٣].

٣ ـ وأبشع هذه النماذج جواب معاوية بن أبي سفيان للمغيرة عندما نصحه بترك لعن الإمام عليّ وبمداراة أهل البيتعليهم السلام بعد استشهاد الإمام عليّعليه السلام واستلامه مقاليد الحكومة الإسلامية، فقال معاوية: «... ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلّا أن يقول قائل: أبوبكر، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلاّ أن يقول قائل: عمر، وإنّ ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أنّ محمداً رسول اللهصلى الله عليه وآله فأيّ عملٍ يبقى وأيّ ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك، لا والله إلّا دفناً دفناً»[٤].

إنّ حديث معاوية هذا ـ الذي قاله في مجلسٍ خاص وسري، كان بدرجةٍ من الوقاحة، حتى إنّها حملت المغيرة (عامل معاوية على العراق) بعد عودته من ذلك

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٣٨٠؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٢٣.
٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٨٠؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ١١٢؛ الامامة والسياسة، ج١، ص٢٣١؛ العقد الفريد، ج٥، ص١٢٨.
٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٢٥٨ و ٢٦٥، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٣؛ الارشاد، ج ٢، ص ٤٣.
٤. شرح النهج، ج٥، ص ١٣٠.

المجلس على القول لابنه: «لقد جئتك من عند أكفر الناس وأخبثهم»، ولا ننسىٰ أنّ المغيرة هذا هو الذي أقترح فرض يزيد الفاسق على رقاب المسلمين تملقاً لمعاوية ومن أجل تمديد ولاية الكوفة، وقال بعد عمله هذا: «فتقت على أُمة محمد فتقاً لا يرتق أبداً»[١].

ومع ذلك، فكم هو عجيب أن يوصي معاوية هذا عند موته بأن يطحنوا أظافر النبيﷺ التي وقعت بيده، ويجعلوها في عينه[٢]. حتى يكون ـ حسب تصوره ـ مشمولاً برحمة الله، فمعاوية اختلط لحمه ودمه بالحيلة والمكر، ولم يفارقه المكر حتى إلى ساعة موته، فكان يمكر ويخادع حتى مع الله تعالى. وفي الحقيقة كانت لمعاوية ولأضرابه شخصية مزدوجة، ففي حين أنّهم يواجهون الحق من موقع العداوة، نراهم يتشبثون بالحق ويتظاهرون بالدفاع عنه.

وجها السياسة الأموية

النماذج الثلاثة التي ذكرناها لم تكن إستثناءً في الدائرة الأموية، بل كانت نموذجاً من النماذج الكثيرة التي تدلنا على سياسة بني أمية، ذات الوجهين كما ذكرنا. ونأتي هنا عليهما بشيء من التفصيل:

الوجه الأوّل: وهو بمثابة قوة جذب، إذ يستغلّون الإسلام إلى أقصى حد لكسب الناس من خلال أنواع التظاهر وأشكال الرياء والعطاء، وكما وصف ذلك الإمام عليّ﵇ بأنّهم كانوا يشترون الذين هم «جفاة طغام عبيد أقزام جمعوا من كل أوب وتلقطو من كل شوب...»[٣] ـ وهم من المسلمين السذج أو الشخصيات المنحرفة الطالبة للدنيا ـ فإنهم كانوا يشترون هؤلاء بأساليبهم الشيطانية ويثيرونهم ضد أهل الحق والفضيلة، ومن أمثلة هذه المعاطاة السياسية هي ما جرىٰ بين عمرو بن العاص ومعاوية، حيث قال له معاوية بصراحة: «بايعني»، قال عمرو بن العاص: «لا

---

١. راجع صفحة ٤١؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٠٤.

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٤١.

٣. شرح النهج، ج١٣، ص٣٠٩.

والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك» قال: «سل تُعط»، قال: «مصر طعمة»[١].

النموذج الآخر لهذا المنهج المخادع محادثة معاوية مع مروان، إذ قال مروان لمعاوية في إحدى الجلسات السياسية التي كان يقيمها الأخير لشراء دين ووجدان الانتهازيين: «مالي يُشترى الرجال ولا أُشترى أنا»، فأجابه معاوية: «إنّما يُشترى الرجال لك»[٢]، وهو كناية عن أنّك أنت وأنا نفس واحدة في جسدين.

والأنكى من ذلك هو أنّ هؤلاء الحكام الانتهازيين ـ بالرغم من أنّهم عملوا على شراء ضمائر الناس ودينهم وتلاعبوا بمصالح الإسلام والمسلمين ـ كانوا يتظاهرون بالدين والحقانية، ويدّعون أنّهم على حق، ويتحدثون أمام الناس عن الله ورسوله والحق والعدالة، ويتظاهرون بالعمل بأحكام الإسلام، ويسوغون جميع أعمالهم وحتى جرائمهم بالآيات القرآنية والأحكام الإسلامية، فمثلاً عندما يعترض بعض المسلمين على معاوية لأنّه جعل بيت المال تحت تصرف مروان وعمرو بن العاص وزياد وأمثالهم، فإنّه يجيب بمكرٍ ورياء: «الأرض لله وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي»[٣]، أو أنّه استدل على إخراجه أباذر من الشام بدعوىٰ أنّ أباذر يريد إيجاد الفتنة بين المسلمين وتعريض مصالح الإسلام إلى الخطر[٤]. أو أنّه في مسألة استشهاد مالك الأشتر التي جرت بتآمر من معاوية وبتخطيط من عمرو بن العاص، حيث دس له السم في العسل الذي أرسله إليه بواسطة أعوانه، فإنّه أمام أهل الشام يدّعي بأنّ موت مالك الأشتر كان بسبب استجابة الله لدعوة أهل الشام عليه، ويقول لخاصته: «إنّ لله جنوداً من عسل»[٥]، أو

---

١. مروج الذهب، ج٢، ص٣٥٤؛ الامامة والسياسة، ج١، ص١١٨؛ العقد الفريد، ج٥،: ص٨٧؛ شرح النهج، ج ٢، ص ٦٥.

٢. وقعة صفين، ص٤٢؛ الامامة والسياسة، ج١، ص١١٨؛ شرح النهج، ج٢، ص٦٩.

٣. مروج الذهب، ج٣، ص٤٣.

٤. شرح النهج، ج٣، ص٥٥؛ البداية والنهاية، ج٧، ص٣٦٧.

٥. المصنف، للصنعاني، ج ٥، ص ٤٦٠؛ مروج الذهب، ج٢، ص ٤١٠؛ البداية والنهاية، ج٧، ص١٢٦.

أنّه لمّا استشهد عمار بن ياسر على يد جيشه ادّعى أنّه غير مسؤول عن قتله، بل إنّ عليّاً هو المسؤول عن ذلك لأنّه هو الذي جاء بعمار إلى الحرب[1].

مثل هذه التبريرات والأساليب السياسية الخادعة والممزوجة بالمظاهر الإسلامية أثّرت أثراً كبيراً بين المسلمين السذج، بحيث أضلت الكثير منهم إلى درجة أنّ معاوية جهز منهم جيشاً يُقدّر بمئة ألف مقاتل لقتال الإمام عليّ عليه السلام وأصحاب النبي الكرام، فأعاروا جماجمهم (رؤوسهم) [2] له وأعلنوا رغبتهم في التضحية في سبيل سلطانه وحكومته، وعندما رأىٰ معاوية أنّ جيش الإمام عليّ عليه السلام على وشك الانتصار الساحق، وأنّ جيشه على وشك الهزيمة الماحقة فكّر بالفرار، ولكنّ حيلة عمرو بن العاص أنقذته، فتمسك معاوية مرة أُخرى ـ ولنجاته وتمهيد الأرضية لخطته ـ بالقرآن ضد عليّ عليه السلام وأصحابه، وفي الحقيقة أنّه تمسك بلفظ القرآن لمحاربة معناه.

والخلاصة إنّ الأمراء الانتهازيين، كانوا يدافعون عن وجودهم وسلطانهم تحت ستار مصالح الأمة الإسلامية وتحقيق العدالة ونصرة الخليفة المظلوم والدفاع عن القرآن و...، وبهذا استطاعوا أن يخدعوا الناس في حرب صفين، وينقذوا أنفسهم من الهزيمة الحتمية، بل إنّهم حققوا بعض الانتصارات الظاهرية بهذه المكائد.

لماذا سنّوا لعن الإمام عليّ عليه السلام؟

الوجه الثاني: وهو بمثابة قوة دفع، إذ تمسكوا بحربة الإسلام أيضاً ـ وبدعوىٰ الدفاع عن مصالح المسلمين ـ لقتل وتشريد المؤمنين الحقيقيين، فبإسم الإسلام قاتلوا رجال الإسلام المخلصين أمثال الإمام عليّ عليه السلام الذي قال عنه معاوية نفسه وهو أشد أعدائه «... ذكرتَ من لا يُنكر فضله، رحم الله أبا حسن فلقد سبق من كان

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩؛ مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣١١.

٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٢؛ شرح النهج، ج ٥، ص ١٨٠ و ١٩٠.

قبله وأعجز من كان بعده»[١]، ومع ذلك اتّهموه بأنّه مثير الفتنة ومفسد في الأرض، حتى إنّهم اتهموه بأنّه قاتل عمار وعثمان وبالسرقة وبترك الصلاة وأمثال ذلك[٢]، وسعوا للتنكيل بأتباعه وسجنهم وتعذيبهم ونفيهم، والأشدّ من ذلك أنّهم جعلوا لعن الإمام فريضة إسلامية وجزءً من الصلاة ونشّؤوا المسلمين عليه.

يقول ابن أبي الحديد حول إصرار الحكومة الأموية الشديد على لعن الإمام عليّ‌عليه‌السلام وأهل بيته وخطه السياسي: «ذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة الّلهم إنّ أبا تراب ألحد في دينك وصدّ عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً وعذّبه عذاباً أليماً، وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشاد بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز ...» وذكر أيضاً «أنّ قوماً من بني أُمية قالوا لمعاوية: يا أميرالمؤمنين إنّك قد بلغت ما أمّلت فلو كففت عن لعن هذا الرجل، فقال: لا والله حتى يربو عليها الصغير ويهرم عليها الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً»[٣].

والملاحظة المهمة هنا هي أنّ إصرار الحكومة الأموية على سوق الناس إلى لعن الإمام عليّ‌عليه‌السلام، في جميع بقاع العالم الإسلامي، لم يكن لمواجهة شخص الإمام عليّ‌عليه‌السلام، وخاصة أنّ اللعن استمر بعد استشهاد الإمام عليّ‌عليه‌السلام، أي حتى عندما لم يكن الإمام يشكّل عقبة أمامهم، وإنّما كانوا يستهدفونه لأنّه هو الإنسان الذي يمثّل الإسلام الحقيقي، وكانت كلماته وأعماله وأساليبه البناءة توقظ المسلمين من غفلتهم وتُحرّكهم باتّجاه مواجهة الظالمين وكل قوى الانحراف وفي طليعتهم الأمويين، ولذلك فرضت حكومة الأمويين لعن الإمام عليّ‌عليه‌السلام على المسلمين، ففرض هذا اللعن كان ـ في الحقيقة ـ بمثابة إنذار شديد ومستمر من قِبل الحكومات الفاسدة لمقاطعة خط العدالة ومدرسة الهداية لذلك الإمام العظيم، وكذلك في الايقاع بالمؤمنين الحقيقيين من أتباع هذا الخط الإلهي الذين كانوا يشكلون حجر عثرة في

---

١. شرح النهج، ج ١١، ص ٢٥٣ و...
٢. شرح النهج، ج ٤، ص ٥٨ و ج ٨، ص ١٣٦؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠.
٣. شرح النهج، ج ٤، ص ٥٧.

طريق الحكام المنحرفين، ولهذا أوقعوهم في شراك الاتهام بالتبعية لمدرسة عليّ عليه السلام، ونكّلوا بهم وبذلوا كل ما في وسعهم لإبادتهم، كل ذلك بهدف تثبيت أركان حكومتهم.

أجل، فإنّ لعن الإمام عليّ عليه السلام، كما يقول ابن عباس[1]: «يريدون بسب علي عليه السلام سب رسول الله صلى الله عليه وآله» هو في الحقيقة لعن الإسلام الأصيل، ولعن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولعن العدالة والقيم الإسلامية، ولعن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وأتباعهم المؤمنين المخلصين، ولعن كل الفضائل التي جمعها الإمام عليّ عليه السلام في خطه وسيرته، ولم يكن لحكم بني أمية أن يستتب إلّا من طريق هذا اللعن وما يتبعه.

شاهدان من الشواهد الكثيرة

ومن أجل أن نحيط أكثر بهذه الحقيقة المرّة ـ وهي أنّ لعن الإمام كان وسيلة سياسية للتنكيل بأتباع مدرسة الإمام عليّ عليه السلام وتثبيت أركان الحكومة الأموية ـ نذكر شاهدين من خليفتين أمويين:

الأوّل: عن عمر بن عبد العزيز، الذي يعتبر أفضل خليفة أموي، فإنّه منع لعن الإمام عليّ عليه السلام، وقال في سبب منعه من ذلك: «كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود فمر بى يوماً وأنا ألعب مع الصبيان ونحن نلعن علياً عليه السلام، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت ذلك وجئت إليه لأدرس عليه وردي، فلمّا رآني قام فصلى وأطال في الصلاة شبه المعرض عنّي حتى أحسست منه بذلك، فلمّا انفتل من صلاته كلح في وجهي، فقلت له ما بال الشيخ؟ فقال لي يا بُنيّ أنت اللاعن علياً منذ اليوم؟ قلت: نعم، قال، فمتى علمت أنّ الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم؟ فقلت: يا أبت وهل كان عليٌّ من أهل بدر؟ فقال، ويحك وهل كانت بدر كلها إلّا له، فقلت، لا أعود، فقال: الله إنّك لا تعود، قلت: نعم، فلم ألعنه بعدها.

---

١. فرائد السمطين للحموئي، باب ٥٦؛ الفصول المهمة لابن الصباغ، ص١٢٦؛ احقاق الحق، ج ٢٤، ص ٥٦٦ عن جماعة منهم العلامة السخاوي؛ نهضة الحسين هبة الدين الشهرستاني، ص ٢٦.

ثمّ كنت أحضر تحت منبر المدينة وأبي يخطب يوم الجمعة وهو حينئذٍ أميرالمدينة فكنت أسمع أبي يمر في خطبه تهدر شقاشقه حتى يأتي إلى لعن علي عليه السلام فيجمجم ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به، فكنت أعجب من ذلكّ، فقلت له يوماً يا أبت أنت أفصح الناس وأخطبهم فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل صرت ألكن عيّياً، فقال: يا بُنيّ إنّ من ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتّبعنا منهم أحد، فوقرت كلمته في صدري مع ماكان قاله لي معلّمي أيام صِغري، فأعطيت الله عهداً لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأُغيّرنه، فلمّا منّ الله عليَّ بالخلافة أسقطت ذلك»[١].

الثاني: من مروان بن الحكم أحد خلفاء بني أمية الذي، كان على العكس من عمر ابن عبدالعزيز، يكنّ العداء الشديد للإمام عليّ عليه السلام، ولكنّه أيضاً يصرّح بالهدف الحقيقي من لعن الإمام عليّ عليه السلام كما ورد في رواية عن الإمام زين العابدين عليه السلام حيث قال: «قال لي مروان ماكان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم، قلت فما بالكم تسبونه على المنابر؟ قال: إنّه لا يستقيم الأمر إلّا بذلك»[٢].

والأغرب من ذلك أنّ مروان هذا الذي لعنه النبي صلى الله عليه وآله، كان يشتم عليّاً عليه السلام في إحدىٰ خطبه، فقال له الإمام الحسن عليه السلام: «ويلك يا مروان! أهذا الذي تشتم شر الناس؟ قال: لا، ولكنّه خير الناس»[٣].

عداء الأمويين لمدرسة الإمام علي عليه السلام

غير خفيّ أنّ السياسة الأموية المتشددة ضد التيار العلوي كان لها تأثير عميق في أهل الشام، إلى درجة أنّهم اعتقدوا أنّ لعن الإمام عليّ وأهل بيته عليهم السلام من أحكام

١. شرح النهج، ج٤، ص ٥٩.
٢. شرح النهج، ج١٣، ص ٢٢٠؛ أنساب الأشراف، ص١٨٤.
٣. شرح النهج، ج١٣، ص ٢٢٠؛ تاريخ ابن عساكر، ج ٥٧، ص ٢٤٨.

الإسلام وفرائضه، وأنّ الأمويين هم أهل بيت النبي وخلفاؤه. ومن البديهي أنّ الحكومة الأموية لم تكتف بنشر هذا المذهب المناهض للخط العلوي بين أهل الشام وحسب، بل كانت مصمّمة على نشره في جميع المناطق خاصة العراق الذي كان يعتبر مركزاً لشيعة الإمام عليّ عليه السلام، ولهذا استخدموا جميع أساليب المكر والضغط والإرهاب حتى يتسنى لهم القضاء على شيعة الإمام عليّ عليه السلام الذين كانوا شيعة لأبنائه أيضاً. وفي هذا المجال يذكر المؤرخون قضايا مذهلة، نشير إلى بعضها بهدف معرفة الأوضاع المحيطة بظروف الإمام الحسين عليه السلام ولتحديد أسباب حدوث عاشوراء والثورات المتلاحقة من بعده، منها ما نقله ابن أبي الحديد من شواهد تاريخية استقاها من المصادر الموثوقة، يقول:

«روىٰ المدائني في كتاب الأحداث قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة، أن برئت الذمة ممن روىٰ شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة عليٍّ عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد ابن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتّبع الشيعة وهو بهم عارف لأنّه كان منهم أيام عليّ عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم»[١].

وأيضاً كتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: «ألّا يجيزوا لأحد من شيعة عليٍّ وأهل بيته شهادة»[٢].

وأيضاً كتب إليهم: أن انظروا من قِبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في

١. شرح النهج، ج١١، ص٤٤ وما بعده.
٢. المصدر السابق.

فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كُتب اسمه وقرّبه وشفّعه فلبثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب أيضاً إلى عماله: «إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلاّ واتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحب إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله، فقُرئت كتبه على الناس، فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرىٰ حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي إلى معلّمي المكاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله».

ثمّ كتب أيضاً إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: «أُنظروا إلى من قامت عليه البيّنة أنّه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أُخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره، فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولا سيّما بالكوفة، حتى إنّ الرجل من شيعة عليّ‌عليه‌السلام ليأتيه من يثق به فيدخل داره فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه، فظهر حديثٌ كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليةً...»[١].

---

١. شرح النهج، ج ١١، ص ٤٥.

أسوأ من محاكم التفتيش الإسبانية

وممّا يؤسف له أنّ هذه الوثائق السوداء التي ملأت تاريخ صدر الأسلام لم تحظ بالاهتمام الكافي، بل كانت غالباً عرضة للاهمال المتعمد، وتوضح وتُصوِّر هذه الوثائق التاريخية المثيرة طبيعة فترة الإمام الحسين عليه السلام، وخاصة ما كان يجري في العراق وما عملته حكومة معاوية وخلفاؤه من (محاكم تفتيش العقائد والأعمال)، وما بثّوا من خوفٍ ورعب بين الناس، وخاصةً حيال شيعة الإمام عليّ عليه السلام. واللافت للنظر أنّ ذلك لم يكن له نظير حتى قياساً بمحاكم التفتيش في إسبانيا، لأنّ هذه المحاكم كانت تقام من قِبل المسيحيين ضد المسلمين، فكانوا يقبضون على المسلمين ويقومون بتعذيبهم والتنكيل بهم وقتلهم وتشريدهم، ولكنّ محاكم التفتيش التي أقامتها الحكومات الأموية ضد العلويين وأتباعهم، كانت بقيادة مسلمين انتهازيين تربّوا على تعاليم معاوية وأُسلوبه ومنهجه المبتني على الإسلام ظاهراً، فكانوا يعملون للقضاء على خط الإمام عليّ عليه السلام بشدة وسحق كل تابع أو أثر له، بل والقضاء على كل فضيلة تذكر له أو لسائر أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

ومن الغريب أيضاً أنّ الحكام الأمويين وأعوانهم لم يكونوا يتعرضون لليهود والمسيحيين والزرادشتيين وأتباع الأديان الأخر، بل كانوا يصبّون جام غضبهم على أتباع الإمام عليّ عليه السلام وأولاده وشيعته، إلى درجة أنّ شيعة الإمام لم يكونوا يتجرّؤون حتى على ذكر اسم الإمام الذي كان أخا رسول الله صلى الله عليه وآله وصهره ووصيه وناصره وسيف الإسلام ودرعه والهادي إلى القرآن وحقائقه، ولهذا فإنّهم كانوا إذا أرادوا نقل الحديث عن الإمام كانوا يذكرون ذلك بالكناية والرمز، من قبيل (أبي زينب)[1] إشارة إلى الإمام عليّ عليه السلام.

والأنكىٰ من ذلك أنّ الأساليب الأموية المتشددة ضد مدرسة الإمام عليّ عليه السلام

---

١. شرح النهج، ج ٤، ص ٧٣.

كانت تنفذ جميعها تحت ستار الإسلام والدعاية الدينية والروايات الموضوعة في هذا المجال، الأمر الذي أدىٰ إلى تضليل الكثير من المسلمين. على نحو يثير الاستغراب كما ذكرنا، حتى إنّهم اعتبروا البراءة من الإمام عليّ عليه السلام من شروط التأهل للخلافة، فقالوا ـ مثلاً ـ حيال مروان وأمثاله بأنه جدير بالخلافة، لأنّه حارب الإمام عليّاً عليه السلام وحزبه[١].

وهذا الضلال لم يكن مختصاً بأهل الشام، بل كان سائداً بين المسلمين في المناطق الأُخرى، حتى إنّ جمعاً كثيراً من مسلمي العراق تغيروا بسبب سياسة الحكومة الأموية، إلى درجة أنّهم خذلوا الإمام الحسين عليه السلام، بل وشارك بعضهم في قتله وقتل أولاده وأصحابه بافجع صورة ممكنة من أجل يزيد بن معاوية والدفاع عن حكومة الأمويين. وقد بلغ مستوى انحطاط كثيرٍ من المسلمين خلال حكومة معاوية وخلفائه، أنّهم كانوا مستعدين لأن يُتّهموا بالكفر ولا يُتّهموا بالولاء و حب الإمام عليّ وأهل بيته عليهم السلام[٢]، وكذلك كانوا مستعدين لتسمية أبنائهم باسم معاوية ويزيد بل والاسماء الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، بدل تسميتهم باسم عليّ أو الحسن أو الحسين[٣].

ونرى أيضاً من الجهة الأُخرى ـ خاصة في العراق ـ الكثير من المسلمين المؤمنين المخلصين، استمروا على خط عليّ بن أبي طالب وأهل بيته عليهم السلام، على الرغم من الاعلام المضلّل والسياسة التخريبية للحكومة الأموية، وعلى الرغم من تعرضهم لأبشع ألوان الظلم المستمر بسبب مناهضتهم لحكومة الجور، ونتيجة لذلك استشهد عشرات الآلاف من المؤمنين على يد جلاوزة الحكومة الأموية الظالمة وفي مقدمتهم وجوه اصحاب الإمام عليّ عليه السلام، كحجر بن عدي[٤].

---

١. شرح النهج، ج٦، ص١٦١.
٢. شرح النهج، ج١١، ص ٤٤.
٣. شرح النهج، ج٤، ص٥٨.
٤. الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٤٧٢ وما بعده.

إنقسام المجتمع المسلم
بسبب سياسة الحكومة الأموية ضد العلويين

أدت سياسة معاوية ذات الوجهين ـ كما مر ـ الى شطر المجتمع الإسلامي إلى طبقتين:

الأولى: طبقة بني أمية وأتباعهم من العملاء والمخدوعين. وكانت هذه الطبقة تمسك بأزمّة الحكم في العالم الإسلامي.

الثانية: شيعة علي وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، الذين كانوا يتعرضون لهجوم قاس من الحكومة الأموية وأجهزتها، ويتحملون كل أنواع الضغط والأذى، ولكنّهم بقوا صامدين في الدفاع عن الحق والعدالة بل مستعدين للتضحية في سبيل الإسلام الحقيقي ومصالح الأمة بكل ما يملكون.

وهكذا نجد أنّ سياسة الأمويين بقيادة معاوية، التي تقوم على أساس التظاهر بالإسلام من جهة، وتدمير اصول الإسلام الحقيقي من جهة أخرى، أدت إلى حدوث فصام شديد في الواقع الداخلي للمجتمع الإسلامي، ومن هنا بدأت مؤشرات انحطاط المسلمين، الذين شمخت حضارتهم باتحادهم على حساب اهتزاز حضارات الشرق والغرب وانكفائها أمام مد الإسلام، وبدأت مرحلة التداعي الحضاري فذاقوا مرارة الهزيمة حتى على يد القبائل الوحشية (الشرقية والغربية)، من الترك والمغول والجيوش الصليبية. ومن ذلك اليوم وإلى يومنا هذا أصبحوا أسرى وأذلّاء بأيدي الأعداء.

ومن المهم جدّاً معرفة أسباب كل هذه النكبات والويلات التي حلت بالمسلمين، والجذور الأصلية لهذا التقهقر والتراجع ـ وهما ليسا من طبيعة الإسلام ـ هي أنّهم حرفوا الخلافة الإسلامية عن مسيرها الواقعي، والأتعس من ذلك أنّهم سلّطوا الانتهازيين ـ خاصة الأمويين ـ على المجتمع الإسلامي، فقمع هؤلاء الكثير من المسلمين المخلصين السائرين على الحق، وهو طريق الإمام عليّ وأهل بيته عليهم السلام

حتى باعتراف أعدائه ـ كما رأينا ـ وكانت النتيجة انحراف خطير من المسلمين حتى في ظلّ الإسلام، وبالتالي حدوث مأساة كربلاء وماتلاها من الفجائع التي حلت بالأُمة الإسلامية وأسقطتها في هوّة الاختلاف والتمزّق.

ومن هنا ندرك جيّداً المحتوىٰ العميق لكلام أحد الباحثين الألمان، حين قال لشريف مكة: «ينبغي لنا أن نصنع تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان وننصبه في عاصمتنا (برلين) وفي سائر عواصم اوربا، لأنّه هو الذي حوّل نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولاً ذلك لعمّ الإسلام العالم كله، ولَكنّا نحن الألمان وسائر شعوب اوربا عرباً مسلمين»[1].

الشجرة الملعونة

وندرك أيضاً حقيقة الآيات والروايات التي تلعن وتذم بني أمية، ونموذج لها آية (الشجرة الملعونة) التي ذكر المفسرون من السنة والشيعة أنّها نزلت في بني أمية، وكان سبب نزول هذه الآية أنّ النبيﷺ رأىٰ في منامه أنّ بني أمية كالقردة تنزو على منبره واحداً بعد واحد، فانتبه النبيﷺ من نومه قلقاً مستوحشاً حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلّا طغياناً كبيراً﴾[2]. فاطمأنت نفسه.

وذلك يعني أنّ مثل هذا لابدّ أن يكون ولقد كان ومازال مستمراً، لأنّه الامتحان الذي تقتضيه الحياة الدنيا لبني آدم، حتى تبدو بواطنهم، ويتميز الطيب عن الخبيث منهم.

---

١. تفسير المنار، ج١١، ص ٢٦٠.

٢. راجع التفاسير (ذيل الآية ٦٠ من سورة الاسراء) منها: تفسير الطبري؛ والرازي؛ والدر المنثور؛ وكثير من التفاسير الأُخر؛ مستدرك الحاكم، ج ٤، ص ٤٨٠ و...

وفي اطار هذه الآية وآيات أُخرىٰ، فإنّ رسول الله ﷺ لعن بني أمية في مناسبات عديدة، ومنها عندما كان أبوسفيان راكباً ناقته، وكان معاوية يسوقها وابنه الآخر يقودها، فقال النبي ﷺ: «لعن الله الراكب والقائد والسائق»[1].

والإمام عليّ عليه السلام كان أيضاً يحذر المسلمين في كلماته من بني أمية، فيقول بمنتهى الصراحة: «ألا إنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فأنّها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها وخصت بليتها»[2].

❁ ❁ ❁

١. شرح النهج، ج٦، ص٢٨٩ و ج ١٥، ص ١٧٥؛ جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٢٣؛ تاريخ الطبري، ج ٨، ص ١٨٥

٢. شرح النهج، ج٧، ص٤٤.

الفصل الثاني

تياران متضادّان
في المجتمع الإسلامي

إتضح في الفصل السابق أنّ بني أمية وأنصارهم كانوا انتهازيين وطلّاب سلطة، وعلى اختلاف جذري مع بني هاشم ودعوتهم الإسلامية، ولذلك عملوا على التصدي لدعوتهم الإلٰهية وإثارة الحروب الكبرىٰ ضدهم، مثل بدر وأحد والأحزاب، والتي كانت في الحقيقة حروباً ضد الإسلام. وبرغم أنّ بني أمية انهزموا في خاتمة المطاف واستسلموا خوفاً أو طمعاً، إلّا أنّ الملاحظة المهمة هنا هي أنّ العداء الأُصولي الذي يكنّه بنو أُمية للاسلام، كان نابعاً من نظرتهم المادية ورغبتهم في السلطة، ولذا بقي ناراً تحت الرماد. وبعد أن أعطى أبوبكر وعمر وعثمان بعض المناصب المهمة في الحكومة الإسلامية لعناصر أموية، وهيّأ بذلك الأرضية لهيمنتهم على مقدرات الإسلام والمسلمين، برز ذلك العداء المتجذر، ولكن هذه المرة بشكل إسلامي وظاهر ديني، فأثاروا حروباً كبيرة أُخرى مثل صفّين وكربلاء، التي هي ـ في الحقيقة ـ حروب داخلية. وكانت نتيجة السماح للأُمويين بالسيطرة على بعض المرافق الحيوية للمسلمين، أن استبدلوا الحروب المضادة للاسلام بحروب داخل الإسلام نفسه، أي استبدلوا الحروب ضد الإسلام بالحروب في الإسلام، فعرّضوا المجتمع الإسلامي من داخله إلى الخطر المتزايد يوماً بعد آخر.

قميص عثمان وتنصيب يزيد ولياً للعهد

نحاول في هذا الفصل بيان طبيعة كل من مساري التيار الأموي والتيار الهاشمي، والأهداف المتقابلة والمتضادة لكل منهما في المجتمع الإسلامي، وتطوراتها ـ ولو شكليّاً ـ عبر الزمن، ومن خلال ذلك يمكن معرفة الجذور الأساسية للوقايع والأحداث الخطيرة والدامية في العالم الإسلامي كحادثة كربلاء.

كان الحديث في الفصل الأول يدور ـ في الغالب ـ حول مسار الخلافة الإسلامية ومؤثّراتها وآثارها. وفي هذا الفصل سيدور الحديث حول المجتمعات الإسلامية ومميزاتها، وفي الدرجة الأُولى حركة التيار الأموي والتيار الهاشمي، اللّذَان يعدان السببين الأصليين لجميع أو لأكثر تطورات العالم الإسلامي التي حدثت، خاصة خلال القرن الهجري الأول.

وبرغم كون حركتي هذين الخطين والتيارين المتضادين متداخلتين معاً، كالليل والنّهار، ولذلك لا يمكن دراسة أحدهما بمعزل عن الآخر، ولكن في الوقت نفسه نحاول في القسم الأول من هذا الفصل تفصيل الكلام بصورة أكثر التفاتاً عن التيار الأموي، وفي القسم الثاني منه نتحدث بصورة أكثر تركيزاً عن التيار الهاشمي.

وقد رأينا أنّ بني أمية وعلى رأسهم معاوية، كانوا بذكائهم وفطنتهم السياسية القوية، يشعرون بأنّه يجب عليهم اتخاذ سياسة ذات ظاهر إسلامي لكسب المواقع الإسلامية، وبالتالي النفوذ في ضمائر المسلمين وتجنيدهم للحرب ضد الإسلام الحقيقي ورجاله من أتباع أهل بيت النبيﷺ الذين يشكّلون أكبر حجر عثرة أمام سياسات بني أمية. ومن هنا يتضح أنّ سياسة بني أُمية ذات الغطاء الديني لم تكن سياسة ثابتة، بل متغيرة في قربها أو بعدها عن الإسلام ومبادئه، فعند ضعفهم كانوا يتشبثون ويتظاهرون به ويدافعون عنه أكثر بهدف ضمان مصالحهم، ولكن عندما تزداد سيطرتهم ويلمسون استقرار أركان حكومتهم، فإنّهم يبتعدون عن الإسلام ورسالته السماوية أكثر، فيتّخذون مواقع أشد تناقضاً معه حتى في الظاهر.

وهذا التغير في السياسة كان له تأثير عظيم في مسيرة حكومة الأمويين، وفي

مصير المجتمعات الإسلامية، والشواهد على ذلك كثيرة، ونشير هنا إلى نموذج واحد يتمثل بقميص عثمان:

كان عمرو بن العاص وهو الساعد الأيمن لمعاوية، يعلم جيّداً أنّ الإمام عليّاً عليه السلام لا علاقة له مطلقاً بحادثة قتل عثمان، بل إنّ ابن العاص ومعاوية كانا متورطين في هذه الحادثة، ولذلك عندما قال معاوية لعمرو بن العاص، إنّا نتّهم عليّاً عليه السلام بقتل عثمان ونقاتله على أساس هذه التهمة، قال له عمرو بن العاص: «واسوأتاه! إنّ أحق الناس أن لا يذكر عثمان لأنا وأنت»[١].

ويتلخص ذنب معاوية هنا في تماهله الكبير والمتعمّد في إنقاذ عثمان عندما استغاث به[٢]، فقد ذكّره الإمام عليّ عليه السلام بهذا الذنب، وقال عليه السلام في إحدىٰ كتبه مؤنباً لمعاوية: «... فإنّك إنّما نصرت عثمان حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له»[٣].

وأمّا ذنب عمرو بن العاص فإثارته الناس باستمرارٍ و تحريضه علىٰ قتل عثمان، وقد صرّح بذلك شخصياً حيث قال:«والله إن كنت لألقى الراعي فأُحرّضه علىٰ عثمان». وحين سمع بقتل عثمان قال: «أنا أبو عبدالله إذا نكأت قرحة أدميتها...»[٤].

ومع كل ذلك فإنّ معاوية وعمرو بن العاص وكذا طلحة والزبير وعائشة، وهم الذين أثاروا الناس علىٰ عثمان، أصبحوا ـ بعد أيام ـ أولياء دمه، وأعجب من هذا أنّهم طالبوا بثأره من الإمام عليّ عليه السلام الذي لم يتدخل سلبياً في هذه الحادثة حتى باعترافهم، بل إنّه تدخل ايجابياً، إذ دافع عن عثمان في عدة مناسبات.

والنقطة الأساسية هنا أنّ هؤلاء الانتهازيين بعد سيطرتهم على الأوضاع، أسفروا عن مقاصدهم السياسية، وبذلك فضحوا أنفسهم بأنفسهم، فمعاوية هذا خطب في

---

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص١١٨، أنساب الأشراف بلاذرى، ص ٢٨٧.

٢. الامامة والسياسة، ج ١، ص١١٨؛ شرح النهج، ١٦، ص١٥٤ و ١٥٥.

٣. شرح النهج، ج ١٦، ص١٥٣.

٤. تاريخ الطبري، ج٣، ص ٣٩٥؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٦٣؛ شرح النهج، ج ٢، ص ١٤٤.

أهل العراق بعد الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام، وبيّن هدفه الأصلي من حرب صفّين التي أقامها بذريعة طلب دم عثمان، وأراق في ذلك دماء عشرات الأُلوف من المسلمين، بقوله: «إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، إنّكم لتفعلون ذلك ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم ... ألا وإنّي كنت منيّت الحسن عليه السلام أشياء وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيءٍ منها ... وإنّي كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم عدات ومنيّتهم أماني ... فإنّ كل ما هنالك تحت قدمي هاتين»[1].

وبعد وصول معاوية إلى سدة الحكم واستلامه مقدرات الدولة لم يكتف بنقض العهد مع الإمام الحسن عليه السلام، بل إنّه سعى ـ ومن أجل تثبيت يزيد في منصب ولاية العهد ـ لقتل الإمام الحسن عليه السلام بالسم، بالرغم من معاهدة الصلح معه واعتزال الإمام الساحة السياسية[2]. وبهذا أُستشهد الإمام الحسن عليه السلام أيضاً بدسائس معاوية، ومن أجل إخضاع الدولة لسيطرة إبنه يزيد، الذي ارتكب جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام بأمر منه، وبالتالي فإن معاوية هو المسؤول الأول عن قتل السبطين عليهما السلام مع أنهما إبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانتاه، وكانت وصية معاوية لخلفه يزيد هي أكثر وضوحاً في الكشف عمّا يضمره في نفسه، وهو أن تبقى حكومته وراثية استبدادية في بني أُمية، ويشير فيها أيضاً إلى المعارضين، وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام ويقول:

«يا بُنيّ إنّي قد كفيتك الرحلة والترحال ووطّأت لك الأشياء، وذلّلت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإنّي لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي أسست لك إلّا أربعة نفر من قريش: الحسين بن عليّ، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي‌بكر...»[3].

---

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٨٦؛ العقد الفريد، ج ٥، ص١٠٦؛ الإرشاد، ج ٢، ص ١٤؛ مقاتل الطالبيين، ص ٤٥ ؛ شرح النهج، ج ٧، ص ٢٠.

٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٥، مروج الذهب، ج ٢، ص٤٢٧؛ مقاتل الطالبيين، ٤٨؛ شرح النهج ج ١٦، ص ٢١.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٣٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٦؛ المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ١٧٥.

هذه الشواهد ونظائرها الكثيرة تدل بوضوح كامل على أنّ ذريعة الانتقام لعثمان باعتباره خليفة رسولالله المظلوم وجميع الذرائع التي طرحها الأُمويون بلغة إسلامية، ما هي إلّا وسائل سياسية خادعة من أجل تثبيت حكومتهم واستمرارها، ولهذا عندما استولوا على مقاليد الأمور أهملوا موضوع الانتقام لدم عثمان وطرحوا مكانه قضية ولاية العهد ليزيد والتي لم تكن لهم الجرأة ـ من قبل ـ حتى على الهمس بها فضلاً عن فرضها، إلّا أنّهم بعد اغتصاب الخلافة وتدمير معارضيهم استطاعوا بالقوة والترهيب والترغيب أن يفرضوا ذلك على المسلمين.

هذا التلاعب السياسي بالإسلام والمسلمين لم يتوقف عند تنصيب يزيد وليّاً للعهد، بل ازداد يوماً بعد آخر حتى انتهى الأمر في حكومة يزيد إلى ذروة الانحراف وأصبح الإسلام يواجه خطر الفناء، فمعاوية الذي ركب موجة الخلافة الإسلامية كان يدرك هذه الحقيقة، وهي أنّه يجب عليه التظاهر بالإسلام وادعاء الالتزام بالأحكام الإسلامية. ليتمكّن من خداع الناس والأمة، وبسبب هذا الإحساس والشعور امتزجت سياسته بالإسلام إلى حدٍّ كبير، ولكنّ يزيد ـ الذي تربّع على عرش إمبراطورية واسعة وقوية ـ نال هذا المنصب دون عناءٍ، ولذلك لم يدرك ضرورة مراعاة المظاهر الإسلامية، وخاصة أنّه كان شاباً نزِقاً عديم التجربة في العمل السياسي، بل كان أحمقاً إلى درجة أنّه كان يتجاهر بشرب الخمر والفسق والفجور أمام أنظار المسلمين وأصحاب الرسولﷺ، بل إنّه صرح حيال جرائمة البشعة في المدينة ـ التي قَتل فيها أصحاب النبي وذراريهم وتعدّى على نواميسهم ـ أنّه أراد الانتقام لقتلى الأمويين الذين قُتلوا في بدر، حتى إنّه ضرب الكعبة (محور مقدسات الإسلام) بالمنجنيق. والأنكى من ذلك كله أنّه كان يستهزئ علناً بالله ورسوله والقرآن والوحي والقيامة والحساب، وقال في ذلك أشعاراً صريحة في كفره، كما سنرى نموذج ذلك فيما بعد.

رأي أصحاب معاوية في يزيد وحكومته

إنّ فساد يزيد وتجاهره بالفسق ـ حتى قبل تولّيه الحكم ـ وصل مستوىً دفـع الكثير من أصحاب معاوية أيضاً إلى معارضة توليه العهد، برغم أنّهم ـ حرصاً على مصالحهم الشخصية ـ أعلنوا موافقتهم عليها بعد ذلك، حتى زياد بن أبيه (الساعد الأيسر لمعاوية) قال في الجواب عن سؤال رسول معاوية حول تنصب يزيد وليّاً للعهد: «... ويزيد صاحب رَسْلَة وتـهاون مـع مـا قـد أولع بـه مـن الصـيد، فألق أميرالمؤمنين [معاوية] مؤدّياً عنّي فأخبره عن فعلات يزيد، فقل له: رويدك بالأمر، فأقمن أن يتم لك ما تريد ولا تعجل ....»[1]. وكلام زياد هذا يتداعى معه في الذهن المثل العربي المعروف: (ويل لمن كفّره نمرود).

والأحنف الذي استشاره معاوية أيضاً وقد دُعي إلى الشام على رأس وفد مـن البصرة للمشاركة في احتفال تنصيب يزيد وليّاً للعهد، والذي أقامه معاوية وحضرته وفود من جميع مناطق العالم الإسلامي، وخـلال الحـفل وأمـام الحـاضرين سأل معاوية الأحنف: ما رأيك في توليتي ليزيد بالعهد، فأجاب: «إن صدقناك أسخطنا الله وإن كذبناك أسخطناك، فسخط أميرالمؤمنين أهون علينا من سـخط الله»، واللافت للنظر أنّ معاوية أيد الأحنف على كلامه ومعارضته تولية يزيد العهد، فقال: «صدقت»[2].

بديهيٌّ أنّ خوف الأحنف من معارضته قضية ولاية العهد هذه، يعود ـ كما يعلم هو ويعلم الجميع ـ إلى أنّ معاوية المستبد إذا لم يتمكّن من تحقيق هدفه بالخداع والتطميع والترغيب، استخدم سلاح القوة والسيف والترهيب، والشاهد على ذلك أنّ معاوية كان يخطب من على المنبر يوماً، ويثني على خصال ابنه يزيد ليمهّد الأرضية إلى قبول ولاية يزيد للعهد، حينها قام أحد أعوانه ويُدعى بـ(يزيد بن المقفع) وقال مخاطباً الناس ومشيراً إلى معاوية: «هذا أميرالمؤمنين»، ثمّ أشار إلى يزيد الجالس

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٢٥؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ٥٠٥.

٢. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٠٨؛ العقد الفريد، ج١، ص٤٤ و...

عند قدمي معاوية، قائلاً: «وبعد معاوية هذا أميرالمؤمنين»، ثـمّ أشـار إلى سـيفه، وقال: «ومن أبىٰ فهذا»، فتبسّم معاوية من هذا الكـلام المـوجز البـليغ، والمـنطق المتشدد في الوقت نفسه، وقال له: «اقعد، فأنت أخطب الناس»[١].

أجل، فإنّ مثل هذا الشخص العميل والمرائي يصبح سيد الخطباء لأنّه استطاع أن يحقق غايات معاوية وخططه، ويختصر جميع أساليب الحكومة الأموية الجبارة في الإشارة إلى السيف، الذي يُعد أفضل وسيلةٍ في يد الطغاة لقمع المعارضين، وبذلك استطاع معاوية تثبيت أركان حكومة يزيد من خلال وسائل إرهابية.

والمغيرة هو الآخر أحد المقربين لمعاوية، والذي كان أميراً من قِبله على العراق عدة سنوات، ثمّ عزله لما نقم عليه، وهو الذي اقترح مسألة ولاية العهد ليزيد ـ لأول مرة ـ تملقاً لمعاوية، ليعفو عنه ويعيده إلى إمارة العراق، فقال لمعاوية متزلفاً: «وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حادثٌ كان كهفاً للناس وخلفاً منك ... وأنا أكفيك أهل الكوفة ...».

وبرغم أنّ المغيرة بهذا الأسلوب المتزلف أصبح مقرباً عند معاوية، حتى أعاده إلى حكومة العراق، ولكنّ المغيرة نفسه ـ عندما تثبتت أركان ولاية العهد ليزيد ـ قال بصراحة: «فتقت على أُمة محمد فتقاً لا يرتق أبداً»[٢].

ولم يكن المغيرة الوحيد الذي أدرك الخطر العظيم الذي يكمن في خلافة يزيد، بل إنّ معاوية نفسه أيضاً كان يعلم بأنّ خلافة يزيد سوف تعود بالدمار على مصالح الإسلام وأنّ قبولها يعتبر ذنباً وإثماً كبيراً، والشاهد على هذا المعنى حديث معاوية إلى كبار أهل الكوفة، الذين اشتراهم المغيرة بالرشوة وبعثهم مـع ابـنه إلى الشـام، للمشاركة في الاحتفال الذي أقامه معاوية بمناسبة تنصيب يزيد وليّاً للعهد، فـبعد لقائه بهؤلاء الانتهازيين، سأل معاوية ابن المغيرة سرّاً: «بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً، قال معاوية: لقد هان عليهم دينهم»[٣].

---

١. المصادر السابقة.
٢. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٠٤.
٣. المصدر السابق.

وقفة مع بعض الباحثين

رأينا ـ فيما سبق ـ أنّ عمال معاوية والمقربين إليه و بعض الشخصيات الأُخرى كانوا يرون في خلافة يزيد خطراً أساسياً على الإسلام والمسلمين، بل إنّ معاوية أيضاً كان يستهزئ في ضميره بمن بايع ليزيد وليّاً للعهد، ويسمهم بأنّهم باعوا دينهم. ولكن نرى ـ في المقابل ـ موقف بعض المتعصبين الذين يثنون على معاوية ويبررون أعماله، ومنها عهده بالولاية ليزيد من بعده، وأحد هؤلاء المتعصبين عبدالرحمن بن خلدون الذي يسوّغ ـ خلافاً لإجماع علماء الإسلام، بل خلافاً لعمال معاوية ومساعديه بل حتى معاوية نفسه ـ عهد معاوية ليزيد بالخلافة، برغم أنّه يُعدّ من أكبر المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي، وبرغم ثناء ابن خلدون نفسه على الحسين عليه السلام وكان يرى مشروعية ثورته ضد يزيد بدعوى ظهور فسقه حينها، فيقول: «... منها ما حدث من يزيد من الفسق أيام خلافته، فإياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنّه علم ذلك من يزيد فإنّه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه، وهو أقلْ من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة، ولمّا حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذٍ في شأنه، فمنهم من رأىٰ الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وابن الزبير...»[1].

ومن الطبيعي أن يسعى ابن خلدون إلى تزييف معاني الآيات والروايات التي تطعن بمعاوية وبني أمية، باعتبار أنّهم الشجرة الملعونة مثلاً ـ كما يقول كثير من مفسري السنة والشيعة ـ، ويحاول إنكارها وتكذيبها. ومِن ظلم ابن خلدون للإمام الحسين عليه السلام قوله: «إنّ الحسين بايع يزيد ولكنّه غيّر رأيه بعد ذلك»، برغم الشواهد القطعية التاريخية التي تؤكد جميعها على أنّ الحسين عليه السلام لم يبايع ليزيد أصلاً، فكيف الحال بتغيير رأيه؟ بل إنّه برغم جميع ضغوط الحكومة الأموية ومؤامرتها لاقناعه بتولي يزيد العهد، فإنّه امتنع بشدة، بل سخر من العملية برمتها. فلا ندري من اين

---

١. مقدمة ابن خلدون، ص ٢١٢.

جاء ابن خلدون بمعلوماته؟ وما السبب الذي دفعه إلى هذا التحريف؟ الحقيقة أنّ هذه الآراء التي تهدف إلى التأثير على بعض البسطاء: لا تقتصر على ابن خلدون، بل إنّ التاريخ الإسلامي يشهد ـ ولا يزال يشهد ـ على الكثير من المتعصبين الذين أيدوا بأقلامهم حكام الجور كمعاوية ويزيد، وعملوا على تهميش دور رجال الحق من خلال اتهامهم بأنواع التهم والافتراءات. والغريب أنّ هؤلاء الباحثين الذين لم يكونوا يعتقدون بعصمة النبيﷺ من الخطأ أو الذنب، فإنّهم كانوا متعصبين بشدة لأعداء أهل البيتعليهم السلام، إلى درجة أنّهم أنكروا أيّ انحراف لهم عن جادة الحق، وعملوا على تسويغ جرائمهم، وخاصةً تجاه الإمام عليّعليه السلام وأولاده وهذه مفارقة كبيرة جداًا

ومعرفة الاسباب التي دعت هؤلاء الباحثين لمثل هذا التصرف يساعدنا على معرفة تاريخ الإسلام ومعرفة اتجاهات الثقافة الإسلامية أيضاً. بالنظر للارتباط الشديد بين الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، بحيث إنّ معرفة الثقافة الإسلامية تعتمد على معرفة التاريخ الإسلامي وعلى غربلة الأحداث والوقائع بإنصاف، لتصفيتها من الشوائب وتمييز الشخصيات الصالحة من الطالحة، وبالتالي تنقية الثقافة الإسلامية من ركام الأكاذيب والإعلام المسموم الذي ترك بصماته على وعي المسلمين.

والحقيقة أنّ هذا العمل في غاية الأهمية والعمق، ويحتاج لتفصيله إلى كتاب مستقل، وهنا نحاول الإشارة بشكل مختصر إلى العوامل التي دفعت بعض المحققين والباحثين الإسلاميين لتحريف التاريخ، فيما لو أحسنا الظن بهم ولم نقل أنّه حصل من خلال بواعث نفسية وبدافع الخبث، كما أنّه كان كذلك في بعض الموارد، وأهم هذه العوامل هي:

الأوّل: أنّهم ضعفاء الإيمان والعقيدة وأسرى العصبية الفردية أو الجماعية. ومن الطبيعي أنّ العصبية تعمل على تجميد ضمير الإنسان، وتمنع انطلاقه من موقف فكري متّزن وإدراك الحقائق كما هي.

الثاني: أنّهم من الناحية الفكرية يسعون إلى تسويغ الوضع الموجود وليس نقده وتمحيصه، وكأنّهم يرون أنّ كل شيء وقع في التاريخ من الأحداث فهو حق وما لم يقع فهو باطل. ومن هنا فهم يريدون إثبات حقانية كل ما وقع وبطلان كل ما لم يقع، والاستدلال على ذلك بأدلة وهمية.

الثالث: أنّهم من الناحية الاجتماعية كانوا منبهرين بسلطة الحكام والسلاطين الأقوياء، ولهذا كانوا يحاولون فهم الواقع التاريخي في اطار هذه الشخصيات الكاذبة وتفسير الحوادث على أساس هذا المعيار.

الرابع: أنّهم من الناحية السياسية كانوا محافظين فيسعون إلى تجميد حركة التاريخ والفكر، ويتصورون أنّ إظهار الحقائق والوقائع التي تعارض مسيرة الأكثرية من المسلمين سوف تؤدي إلى إضعاف هذه المسيرة وضرب الوحدة الاجتماعية أو المنجزات الوطنية أو المعتقدات الإسلامية. بيد أنّ إبراز الحقائق يؤدي إلى سمو الفكر وتهذيب الثقافة. أمّا كتمان الحقائق، أو قلبها ـ وهو أسوأ ـ فإنّه يؤدي إلى تضليل الناس وتعاستهم.

الخامس: وهو الأهم، ويتمثل في الناحية العلميّة، وسوف نأتي على هذا العامل بالتفصيل لاحقاً ونكتفي هنا بالإشارة إليه. ويتلخص في أنّ هذا الفريق من الباحثين يستندون إلى الروايات الكثيرة التي وضعها ونشرها وعاظ السلاطين المرتبطون بالحكومة الأموية وعملائها، حول الشخصيات المخلصة وغير المخلصة في صدر الإسلام،ممّا كان له أسوأ الأثر في أفكار عامة الناس، حتى في الكثير من الدراسات والبحوث الإسلامية.

سياسة الترغيب والترهيب

وعلى كل حالٍ، فالحقيقة التي لا تقبل الشك هي أنّ يزيد عار من كل المؤهلات الدينية وجاهل بأساليب الادارة والتدبير، وأنّ خلافته عرضت الإسلام لأشد

الأخطار. وحيال هذه الحقيقة يبرز هذا السؤال الحساس والمهم، وهو أنه كيف استطاعت حكومة معاوية أن تنصب يزيد هذا خليفة لرسول‌الله؟ وكيف استطاعت مع وجود الشخصيات الإسلامية العظيمة (الإمام الحسينعليه السلام مثلاً) أن تأخذ البيعة من المسلمين ليزيد، الذي لم يكن يمتلك أية مشروعية أو كفاءة شخصية؟ يمكن القول إنّها استطاعت ذلك بفضل عاملين:

العامل الأول: أنّ حكومة معاوية استطاعت خلال سنوات عديدة من عمرها توظيف وسائل الإعلام الواسعة للعن الإمام عليّعليه السلام وأهل بيته، ومن هذا الطريق ـ الذي تقدم ذكره في الفصل الأول ـ إستطاعت الحكومة الأموية أن تحرف المسلمين عن جادة الصواب، إلى الحد الذي كان الكثير منهم يرون الحق في الثناء على بني أُمية ولعن الإمام عليّعليه السلام وأهل بيتهعليهم السلام، حتى إنّ بعض المسلمين، مثل مسلمي (حران)، لم يكتفوا بلعن الإمام عليّعليه السلام، بل كانوا يقولون: «لا صلاة إلاّ بلعن أبي تراب»[1].

ومن الطبيعي أنّ مثل هؤلاء المسلمين لم تزعجهم خلافة يزيد، بل على العكس كانوا فرحين بذلك.

العامل الثاني: لقد انفرد معاوية بعد استشهاد الإمام عليّعليه السلام بالسلطة، وأضحت ذات قدرة كبيرة، فكان بإمكانها بهذه القدرة وأصبح الحاكم المطلق الذي يستطيع إزالة جميع الموانع التي تعترض طريق تولي يزيد للعهد، على الرغم من معارضة معظم المسلمين. وبالاعتماد على هذه السلطة الاستبدادية كان معاوية يقول لابن عمر وسائر المعارضين: «إنّ أمر يزيد كان قضاء من القضاء ليس للعباد خيرةٌ من أمرهم»[2]، يعني أنّ آراء المسلمين وشورىٰ أهل الحل والعقد للأمة الإسلامية، وكل معيار مقدس آخر، حتى وإن كان معاوية نفسه قد تمسك به ضد الإمام عليّعليه السلام من

---

١. مروج الذهب، ج٣، ص٢٤٥، شرح النهج، ج٧، ص١٢٢.

٢. الامامة والسياسة، ج١، ص٢١٠.

قبل، فإنّ معاوية قد ضرب به عرض الجدار من أجل خلافة إبنه (العزيز) يزيد.

ولم يكتف جهاز الحكم الأموي ـ في سبيل تثبيت ولاية العهد ليزيد ـ بالتهديد اللفظي فقط، بل استخدم أنواع الأرهاب والقسوة المقرونة بألوان من المكر والخداع، ونموذج ذلك ما فعله معاوية في أهالي المدينة، ولا سيما إزاء الحسين ابن عليّ عليه السلام والشخصيات الإسلامية الأُخرىٰ في الحجاز، فقد كان معاوية يرى أنّ أهالي المدينة يشكلون قاعدة الإسلام والقدوة لجميع المسلمين في البلاد الإسلامية، وهؤلاء كانوا يعارضون بشدة منح ولاية العهد ليزيد، وكانت المعارضة تستقي جذورها من أربع شخصيات كبيرة: الإمام الحسين بن علي، عبدالرحمن بن أبي‌بكر، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير. وبالطبع كان الإمام الحسين عليه السلام أشدهم معارضة وتأثيراً.

لقد قال ابن أبي‌بكر لمروان عامل معاوية بشدة: «... كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، مٰا الخير أردتما لأمة محمد ولكنّكم تريدون أن تجعلوها هرقليةً، كلّما مات هرقل قام هرقل آخر..»، وقال ابن عمر أيضاً مقولة شبيهة. أمّا ابن الزبير فقال لمعاوية ما مضمونه: «... إنّك بفرضك خلافة يزيد على رقاب المسلمين تخالف سيرة رسول‌الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر وعمر، فافعل كأحدهم وازوها عن ابنك ...».

وكان الحسين بن علي عليه السلام، أشدهم تقريعاً لمعاوية إذ قال له: «تريد أن توهم الناس في يزيد كأنّك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لأترابهن والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم ..»[1]. وإزاء هذا المواقف الحاسمة من الحسين عليه السلام وغيره، ماذا سيبقىٰ لابن خلدون أن يقوله؟

ولم يهتم معاوية بهذه الاعتراضات الشديدة، حتى من قِبل الشخصيات الإسلامية

---

١. الامامة والسياسة، ج١، ص ٢٠٩.

الكبيرة،بل وعندما أحس بخطر معارضتهم، الذي قد يؤدي إلى تعبئة أهالي المدينة المنورة والمسلمين في المناطق الأُخرى، استعمل أُسلوب المكـر والتـرغيب، ثـمّ أُسلوب التهديد والبطش، ففي البداية أثنى على معارضيه بمنهجه السياسي الماكر وحادثهم بلطفٍ وقال لهم ما مضمونه: أرجو أن تبايعوا ليزيد بالخلافة ثم تقومون أنتم بتدبير الأُمور ويكون بيدكم العزل والنصب والمكانة والثروة. ولمّا رأىٰ معاوية أنّ ترغيبه هذا لم يؤثر في معارضيه ولم يخفف من اعتراضهم الشديد انقلب عليهم واعتبر استمرارهم بالمعارضة استغلالاً لحكمه ومرونته وبهذا راح يـهدد ويـتوعد المعارضين بالويل والثبور وبقطع الرقاب وقال لهم بصراحة: إذا قمت خـطيباً فـي مسجد النبي واعترضني أحدكم بكلمة فجوابه سيكون السيف.

وبعد تهديد معاوية هذا، جاء بهؤلاء المعارضين إلى مسجد النبيﷺ، وقد أحاط بكل واحدٍ منهم إثنان من جلاوزته المسلحين دون أن يلتفت الناس لذلك، وأمـر هؤلاء الجلاوزة بحضور تلك الشخصيات، قائلاً: «إذا نطق أحد هؤلاء بكلمة وأنـا على المنبر فاضربوا عـنقه». وهكذا صعد معاوية المنبر وخاطب المسلمين الذيـن اجتمعوا بأمره في المسجد، وقال بعد الحمد والثناء المتعارف ما مضمونه: «يا أهل المدينة، لقد شاورت هؤلاء [مشيراً إلى الحسين بن عليّ والشـخصيات الأُخـرى المعارضة] الذين هم أولياء هذه الأُمة ولا يصلح أمر بدون مشورتهم وموافـقتهم، فوافق كلهم على ولاية عهد يزيد وبايعوه، فبايعوه أنتم على اسم الله».

ولم يكن أهل المدينة على علم بتهديد معاوية وخداعه، وعندما رأوا أنّ الحسين ابن عليّ والشخصيات الأُخرى قد التزموا الصمت، ظنوا أنّهم ـ كما قال معاوية ـ قد وافقوا على تولي يزيد العهد، ولذلك بايع المسلمون كلهم في ذلك المكان. ولكن بعد ذهاب معاوية وجلاوزته، كشفت هذه الشخصيات المعارضة عـن حـيلة مـعاوية وسبب سكوتهم على ادّعاءاته، وقالوا ما محصلةُ: «إنّهم لم يقبلوا بولاية العهد ليزيد إطلاقاً،ولكن بطش معاوية الماكر دعانا إلىٰ السكوت خوفاً من أن نُقتل بلاطائل»[١].

---

١. العقد الفريد، ج ٥، ص١١٣، ١١٤؛ الامامة والسياسة، ج ١، ص٢٢٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥١١.

هذا مجرد نموذج من السياسة الشيطانية والإرهابية لحكومة معاوية في فرض ابنه يزيد على رقاب الناس، وفي المدينة المنوره بالذات. ومن الطبيعي أنّ سياسة الترغيب والترهيب استخدمت بتلك الصورة، بل بأشد منها، في بقية المناطق والمدن الإسلامية أيضاً، لتثبيت أركان الحكم ليزيد.

والمثير أنّ معاوية حتى مع تصريحه بأنّ مَن قَبل خلافة ابنه يزيد فقد باع دينه، ـ كما مرّ ذكره ـ يدّعى أنّ خلافة يزيد تحفظ مصالح الإسلام والمسلمين وأنّها إرادة الله، وكان يصرّح بين الحين والآخر بأهدافه الحقيقية من وراء ذلك، كما في جوابه على من كان يعترض عليه، بأنّه مع وجود الحسين بن عليّ وسائر أبناء المهاجرين فلا تكون بيعة يزيد سوىٰ مهزلة فيقول: «إبني أحبّ إليّ من أبنائهم»[١]، أي إنّ كل كيدي وظلمي وادّعائي ليس إلّا لحبي لنفسي ولابني. وبهذا الشكل تحققت رؤيا النبي الأكرمﷺ في معاوية وبني أُمية عندما رآهم قردة ينزون على منبره الشريف، واحداً تلو الآخر.[٢]

والغريب هو ...

وفي الوقت نفسه، لا عجب في أن يتذرع معاوية بمقدسات الإسلام ومصالح المسلمين لتسويغ مقاصده، ويتخذ من مسجد النبي ومنبره قاعدة لحكومة يزيد. والحقيقة أنّه لا يتوقع من معاوية ـ الذي سلك لسنوات طويلة مسلك الخداع والمكر وسحق رجال الإسلام والعبث بمصالح المسلمين ـ غير أن ينصب إبنه يزيد خليفة من بعده، ويجلسه على منبر النبيﷺ، برغم اعتراض المؤمنين، كما ويهدد المخلصين كالحسين بن عليّعليه السلام بالقتل والموت. وكذلك لا يتوقع من يزيد الفاسق

١. العقد الفريد، ج٥، ص ١١٠؛ الامامة والسياسة، ج١، ص١٩٦.
٢. راجع آخر الفصل الأول.

غير قتل الحسينعليه السلام وأهل بيت النبيصلى الله عليه وآله، وتخريب الكعبة (مركز مقدسات الإسلام)، وقتل آلاف المسلمين في مكة والمدينة وكربلاء والمناطق الأُخرى.

ولكن الغريب هو أن ينحرف مسار الإسلام والمسلمين بهذه السرعة، أي في أقل من خمسين سنة، وكأنّها كانت نهاراً فصارت ليلاً، وكانت نوراً فصارت ظلمةً، وكانت رجاءً فصارت يأساً، ففي مسجد المدينة بالذات، كان رسول اللهصلى الله عليه وآله بالأمس يبيّن مبادىء الإسلام على أساس الحق والعدالة، ويحرك المسلمين للجهاد وقتال المشركين والظالمين، وعلى رأسهم بني أمية، ثمّ انتصر الإسلام بجهود وجهاد النبيصلى الله عليه وآله وأهل بيته وأنصاره وأصحابه، حتى اضطر بنو أُمية إلى الاستسلام أيضاً، فأسلموا في الظاهر خانعين أذلة خاسئين، ولكن بعد مرور أقل من خمسين سنة تبدلت الامور بشكلٍ مدهش، بشكل لم يكن أحد من المؤمنين ولا أحد من المعارضين يتوقع هذا المصير لهم، فبنو أمية الذين كانوا بالأمس أشد أعداء النبي والإسلام يسيطرون الآن على جميع البلاد الإسلامية كخلفاء النبيصلى الله عليه وآله، ويهدّدون المسلمين ـ وفي المقدمة الحسين بن عليّعليه السلام وسبط النبيصلى الله عليه وآله ـ وفي مسجد النبيصلى الله عليه وآله على بيعة يزيد بن معاوية السكير باعتباره خليفة المسلمين، بالقوة والتهديد بالقتل. والاغرب من كل ذلك أنّ هذه الجريمة كانت تجري باسم الله.وفي سبيل الله، فكانوا يقولون: «فبايعوه على اسم الله» فأُفٍّ لك يا دهر ثمّ أُفٍّ لك.

لقد قرأنا عن الكثير من الحكومات المتعاقبة على طول التاريخ وفي مختلف نقاط العالم، وكان أغلبها بعيداً عن (القيم الإلهية)، ومع ذلك استمرت عشرات أو مئات السنين في مسارها الأصلي، ولعلها لم تتغير إلّا بعض الشيء بسبب تدخل القوى الأجنبية غالباً، ولكن ممّا يؤسف له جدّاً أن ينقلب الوضع في الحكومة الإسلامية التي بنيت على (القيم الإلهية) وبعد أقل من خمسين سنة من وفاة النبيصلى الله عليه وآله، حتى أصبح يزيد جالساً مجلس محمد رسول اللهصلى الله عليه وآله، وهو يعبث بكل قيم ومقدسات الرسالة الإلهية.

ما هي أسباب هذا الانحطاط والسقوط العجيب؟

واللافت للنظر أنّ التغير الذي حصل في الواقع الإسلامي، لم يكن بسبب تدخل قوات اجنبية معادية، لأنّ القوى الأجنبية العظمى وعلى رأسها الإمبراطورية الرومية والإمبراطورية الفارسية، أصبحت بعد اكتساح الإسلام لها في مزبلة التاريخ. إذن الانحطاط ـ الذي حدث خلال فترة الخمسين سنة ـ كان بسبب التّيارات الداخلية المعارضة، بقيادة بني أمية وأنصارهم الذين تمكنوا من جر المجتمع الإسلامي إلى حافة الهاوية والسقوط. ولكن يجب أن نرىٰ مصدر هذه التّيارات المنحرفة الداخلية وجذور القوة لدىٰ الامويين وغيرهم من الانتهازيين والمنافقين واليزيديين، فهل أنّ جذور هذه المصائب الكبرى تكمن في عامل آخر غير انحراف الخلافة عن مسارها الأصلي؟

وفي الواقع هناك سؤال مهم للشيعة يسألونه من إخوانهم السنة على رأس أسئلتهم في هذا المجال، وهو مَن فسح المجال لبني أمية لتولي المناصب ومقدرات المسلمين سوىٰ أبي‌بكر وعمر وعثمان، رغم معرفتهم بفسادهم وخطرهم، ومن أعطاهم القدسية والشرعية وجَعل الأمور بيدهم، وبالتالي تسبب في انحراف المسلمين وضلالهم وانحطاطهم، وتسبب في حدوث الفواجع والكوارث التي حلت بالمسلمين وفي طليعتها فاجعة كربلاء؟

لا شك في أنّ الرسالة الإسلامية وسنة النبي صلى الله عليه وآله لم يكن فيهما أدنىٰ نقص وإشكال يوجب هذا الانحراف والسقوط. والمسلمون يعتقدون جميعاً أنّ الشريعة الإسلامية وسنة النبي صلى الله عليه وآله هما مصدر جميع الفضائل والقيم السامية والمُثل الإنسانية، فلماذا أُصيب الواقع الإسلامي بهذا الانحراف والانحطاط إلى الحد الذي وقعت فيه مقاليد أُموره بيد يزيد وأمثاله من الفاسقين وأعداء الإسلام القدامىٰ؟ ولماذا استولى بنو أمية ـ الذين لُعنوا على لسان القرآن والنبي صلى الله عليه وآله ـ على الحكم وتمكنوا من السيطرة في النهاية على جميع العالم الإسلامي، وإقصاء أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله والإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام وقتلهم وتشريدهم، والعبث بمصالح

المسلمين وحرماتهم؟

هناك شخصيات مرموقة .تجيب عن هذا السؤال المهم.ومن أجل رعاية الاختصار نكتفي بذكر ثلاثة نماذج فقط. أمّا تفصيل الجواب فقد تقدم في الفصل الأول من الكتاب.

الجواب الأول: لابن عباس (حبر الأمة) الذي كان يتأسف ويبكي ويقول: «الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ»[١]، ويعني: حؤول عمر دون كتابة الرسول ﷺ وصيته، بالرغم من أنّه صرح مراراً بخلافة علي عليه السلام، فهو الرزية الأصلية ومنشأ كل الرزايا التي حدثت وستحدث فيما بعد.

الجواب الثاني: لسلمان المحمدي (شيخ الأمة) الذي كان يقول بعد حادثة السقيفة للمسلمين: «فعلتم وما فعلتم ......»[٢]، أي أنّكم أيها المسلمون لم تصبحوا مسلمين حقيقيين، لانّ الخلافة الإسلامية التي تعتبر محور أمور المسلمين الدينية والدنيوية لم تراعوها حق رعايتها كما أراد رسول الله ﷺ منكم، ولذلك ستواجهون المشاكل المتزايدة يوماً بعد آخر.

الجواب الثالث: لعليّ ابن أبي طالب عليه السلام (إمام الأمة) الذي كان يقول بالنسبة لحادثة السقيفة: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[٣] أي أنّهم من أجل أن يأخذوا الخلافة استدلوا بأنّهم من أقرباء رسول الله، ولكنّهم ضيعوا الأصل والثمرة الذين هم أهل بيته، وبذلك فتحوا الباب أمام أشكال الانحراف والزيغ.

وفضلاً عن أجوبة هؤلاء العظماء، فإنّ المنطق السليم وتجربة التاريخ أيضاً يؤكدان أنّ كل مصيبة أصابت المجتمعات البشرية كانت في البداية بدرجة خفيفة

---

١. صحيح البخاري، ج ٥، ص١٣٨ و ج٧، ص٩؛ صحيح مسلم، ج ٥، ص٧٦؛ مسند احمد، ج ١ ص ٣٢٥؛ سنن النسائي، ج ٣، ص٤٣٣.

٢. شرح النهج، ج٦، ص٤٣؛ المصنّف لابن أبي شيبة، ج٨، ص٥٨٦.

٣. شرح النهج، ج٦، ص٤.

من الانحراف، ثم ازدادت شيئاً فشيئاً، إلى أن وصلت إلى الذروة، وأدّت إلى ظهور الأخطار، وعلى أساس هذا القانون الطبيعي فإنّ النبي الأكرمﷺ أخبر عن ذلك وعن خطر انحراف الناس الذي يؤدي إلى سقوطهم في هاوية الضلال،وقال: «ما ولّت أُمّةٌ أمرهم رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلّا لم يزل أمرهم سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوه»[١].

إنّ الحديث النبوي الحكيم، الذي يتضمن الكثير من معادلات القضايا الاجتماعية والسياسية والإنسانية، يقترب من مضمونه القول المأثور: «إنّ أساس البناء إذا وضع مائلاً، فإنّ البناء كلّما ارتفع يكثر ميله إلى أن يسقط كله».

وكيف كان، لابد من دراسة مسار الأحداث الذي انتهى بجلوس يزيد الطاغية والأرعن مكان رسول اللهﷺ، ويصبح أعوانه، مثل ابن زياد وعمر بن سعد وشمر وخولي ومسلم بن عقبه والحصين بن نمير وغيرهم، قادة العالم الإسلامي، ويُقتل بأيديهم الحسينعليه السلام وأهل بيت النبيﷺ بأبشع صورة في كربلاء، حتى إنّهم رضّوا صدره بخيولهم، وأغاروا على المدينة واستباحوها ثلاثة أيام، وهدموا الكعبة وقتلوا اللائذين بها، فعلى هؤلاء المحققين والباحثين الإسلاميين أن يدرسوا أسباب وعوامل هذا الزيغ الكبير، وأنّه لماذا أصبحت أدوات الخير والحق كالمنبر والمحراب، والقرآن والحديث، وصلاة الجماعة والجمعة، والحكومة والقضاء، والصلح والحرب، والادارة والأمن، والاقتصاد والسياسة، والعلم والثقافة، وكل شيء من وسائل خدمة الإسلام والمسلمين، بيد يزيد وأعوانه من الأمويين والانتهازيين. وبالطبع كان لهذا التغيير المدهش آثار سلبية ومأساوية زلزلت أساس الواقع الإسلامي وأفرغته من محتواه الروحي والسياسي.

وحقيقة الأمر أنّ أكبر خطأ ارتكبه المسلمون، هو رضاهم بسلطة يزيد وأمثاله من أعداء الإسلام، والخطأ الأكبر هو أن يبقى المسلمون حتى الآن في غفلة عن هذا الحدث الكارثي وأسبابه وآثاره في تاريخهم وأفكارهم، لأنّ معطيات هذا

---

١. الغدير، ج١، ص١٩٨؛ عن ينابيع المودة.

الحدث المشؤوم في التاريخ الإسلامي لا زالت حاضرة في الواقع الإسلامي، وما داموا في هذه الغفلة، فلا يمكنهم إطلاقاً أن يوفقوا بالكامل في دنياهم وآخرتهم.

هوية يزيد وصحيفة عمله

عرفنا أنّ حكومة يزيد فُرضت على رقاب المسلمين بشتى الأساليب القمعية واللاإنسانية، ولنرَ الآن ماذا كان يمتلك يزيد من الصفات والخصائص التي أهلته لهذا الموقع مثلاً؟

ولعل الأبيات التي أنشدها في مقابل رأس الإمام الحسين عليه السلام وباقي شهداء كربلاء ـ وبحضور الأسرىٰ من أهل بيت النبي وبحضور أهل الشام أيضاً ـ تكفي لكشف هوية يزيد بكل تفاصيلها:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

قد أخذنا من عليٍّ ثارنا ... وقتلنا الفارس الليث البطل

وقتلنا القرمَ من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

لو رأوه لاستهلوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل

وكذاك الشيخ أوصاني به ... فاتبعت الشيخ فيما قد فعل[١]

في هذه الأبيات التي تحكي عن هوية يزيد ومنهجه نلاحظ موضوعين لافتين للنظر، هما:

الأول: أنّ يزيد ذكر مسألة انتقامه من قتلى بدر، فقال إنّني لست من أولاد بني أُمية إن لم أنتقم من النبي وآله صلى الله عليه وآله، وقد رأينا في الفصل السابق أنّ بني أمية كانوا يحسدون بني هاشم على مواقعهم الروحية والاجتماعية، إضافة إلى حقدهم الدفين

١. المقتل للخوارزمي، ٢، ص٥٩، اللهوف، ص١٠٥.

على الإمام عليّ عليه السلام، الذي قتل كثيراً من رجالهم في حروب الاسلام مع المشركين، ولذا كانوا يتحينون الفرص لتفريغ أحقادهم بالانتقام من الإمام علي عليه السلام وأبنائه، فلمّا جاء يزيد إلى الحكم وعظُم سلطانه، خاصة مع قلة خبرته وحنكته، انتهز هذه الفرصة وانطلق من موقع العقدة والانتقام فكانت فاجعة كربلاء، ويتضح هذا من أشعاره المذكورة والتي تعني صراحة أنّه أراد الانتقام لبني أُمية من النبي صلى الله عليه وآله وعليّ بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيتهما. وكان يزيد صريحاً أيضاً في عدم ايمانه بأيّ معتقد اسلامي وأيّ مبدأ إنساني حين أظهر السرور والفرح الشديد أمام الرؤوس المقطوعة لأهل البيت وأمام أطفال الشهداء والنسوة السبايا من بنات العترة النبوية، وأمام جميع الناس، ثم يقول هذا في شعرٍ آخر بوقاحة منقطعة النظير:

نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل فقد أخذت من الغريم ديوني[1]

ولم يقتصر عداء يزيد للإمام الحسين عليه السلام على الأبعاد العقايدية أو الأُسرية وحسب، بل كانت له جذور سياسية أيضاً، إذ إنّ الحسين بن عليّ عليه السلام كان ـ خلال حكم معاوية ـ يخالف بشدة إعطاء ولاية العهد ليزيد، وكان يحرّك المسلمين بهذا الاتجاه وقد ازداد هذا التحريك بعد وفاة معاوية، وبالتالي عرّض حكومة يزيد إلى الخطر. وعندها أصدر يزيد أمره إلى عامله في الحجاز أن يأخذ البيعة على عجل من الحسين بن عليّ عليه السلام وإن لم يبايع يضرب عنقه[2]، كما أصدر أمره إلى شرطته في مكة أن يقتلوا الحسين عليه السلام حتى ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، ولهذا وجد الحسين عليه السلام نفسه مضطراً إلى ترك الحج والإحلال من إحرامه، ومغادرة مكة المكرمة محافظاً على حرمة بيت‌الله الحرام[3].

وهناك خلاف شخصي أيضاً بين يزيد والحسين عليه السلام، وكأنّ القدر أراد أن يكون هذان القطبان متضادين ومتقابلين من كل جهة، ويعود جزء من الخلاف الشخصي

---

١. تذكرة الخواص، ص٢٦٢؛ جواهر المطالب، ج ٢، ص ٢٠٢.
٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤١؛ المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ١٨١؛ اللهوف، ص١٧.
٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٨٧؛ الارشاد، ج٢، ص ٣٤.

بينهما إلى حوادث محددة، منها ما يرتبط بخطبة يزيد لبنت عبدالله بن جعفر (ابنة أخت الحسين بن عليّ عليهما السلام)، إذ اعترض الإمام الحسين عليه السلام على ذلك بشدة وحال دون انعقاد الأمر[١].

وحادثة أُخرى تتعلق بامرأة تُدعى (أُرينب)، وهذه الحادثة تعكس مدىٰ تضاد هذين القطبين المتصارعين في المجتمع الإسلامي، وتبيّن كيف أنّ الحكام الأمويين من أجل إشباع أهوائهم وغرائزهم الحيوانية كانوا يتوسلون بالحيل الباطلة والخادعة لنيل مآربهم، وفي مقابل ذلك نجد أنّ المدافعين عن الحق، أمثال الحسين بن عليّ عليهما السلام، يقفون بوجه هذه المخططات المشؤومة ويفضحونها، وخلاصتها التي ذكرها ـ كما يقول العقاد[٢] ـ كثير من المؤرخين المعتمدين في كتبهم، ويمكنها أن تشكّل مادّة تعليمية تربوية جيدة.

الحسين يفضح مخطط معاوية ويزيد

إنّ (أُرينب) هذه كانت زوجة لعبدالله بن سلام والي معاوية على قسمٍ من العراق، وكانت مشهورة بالجمال، وقد أحبها يزيد وصار طريح الفراش من شدة شغفه بها، فلمّا علم معاوية بسبب مرضه، أخذ يخطط لكي ينال يزيد ما يشتهيه.

فدعا ـ في البداية ـ عبدالله بن سلام إلى مجلسه الخاص الذي حضره كبار أهل الشام، وأثنى عليه أمامهم وقال ما مضمونه: «... وإنّي أرىٰ أنّ عبدالله جدير بكل شيء، ولا أجد أجدر منه ليكون زوجاً لابنتي»، فما كان من عبدالله المغفّل إلّا أن يُعجب بهذا الكلام، وأخذ يسعى لحيازة شرف مصاهرة معاوية، فبعث بأحد أقربائه إلى معاوية لطلب يد ابنته، فأجابه معاوية: «إنّ ابنتي تقول: إنّني أقبل بالزواج من عبدالله ولكن بشرط أن لا يكون له زوجة غيري». فما كان من عبدالله إلّا أن انخدع بهذا الكلام، ووجد في زوجته مانعاً أساسياً من زواجه ابنة معاوية، فطلق زوجته،

---

١. المناقب، ج٤، ص٣٨.

٢. ابوالشهداء، ص٣٩؛ الإمامة والسياسة، ج١، ص ١٩٣ ـ ٢٠٢.

ومرة أخرىٰ بعث بطلب يد ابنته، لكنّ معاوية ـ لمّا رأىٰ أنّه أصبح على مقربة من تحقيق هدفه ـ أجابه: «إنّ ابنتي تقول: إنّ عبدالله الذي طلق امرأته وهي بذلك الجمال الباهر، فلا أطمئن إلى وفائه، ولا أستطيع أن اوافق على الزواج منه».

وبهذا الشكل أسقط في يد عبدالله، فحرم من زوجته ومن ابنة معاوية، وغرق في لجّة من الندم على فعلته. وحينها اطّلع الحسين عليه السلام على قضية عبدالله وندمه على الطلاق، كما علم أنّ معاوية بعث (أباهريرة) و(أباالدرداء) لطلب يد أُرينب إلى يزيد ابنه، فقابلهما الحسين وأوصاهما بأن يطلبا يدها له أيضاً، فلمّا دخلا عليها قالا لها: إنّه قد طلبك شخصان مهمان: أحدهما الحسين بن عليّ: والآخر يزيد بن معاوية. فشاورتهما في أمر زواجها من هذين، ولمّا لم يكن لهما إطلاع على خطة معاوية الخفية في هذا الزواج قالا لها: إنّ الحسين سيد شباب أهل الجنة، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله يقبّل ثغره، ولذلك لا نرجّح أحداً عليه. فقالت: وأنا أيضاً لا أرجّح أحداً عليه. فتزوجها الإمام الحسين عليه السلام بالفعل.

وعندما رأىٰ معاوية أنّ خطته باءت بالفشل الذريع، وأنّ أمره قد افتضح، قال لزوجته بمرارة: إنّ هذا لمن سوء حظنا، وإلّا فلماذا أخطط أنا وأتحايل وتكون نتيجتها لغيري؟ وهذا يدل على مدىٰ تأثر معاوية من هذه الخسارة. ولا شك أنّ خسارة وحقد ابنه يزيد كانت أكبر من ذلك بكثير.

والقضية الأهم في هذه الحادثة هو أنّ عبدالله بن سلام جاء إلى الحسين بن عليّ عليه السلام بعد بضعة أيام، وكان قد أودع أمانة ثمينة لدىٰ أُرينب قبل ذلك، فطلبها من الحسين عليه السلام، فما كان من الحسين عليه السلام إلّا أن اجازه ليتحدث إلى أُرينب بنفسه ويأخذ أمانته منها، فلمّا رأىٰ عبدالله زوجته السابقة، والإمام الحسين عليه السلام حاضر، تذكّرا ماضيهما المفعم بالحب، والذي انتهى بمكر من معاوية، فتأسفا وبكيا كثيراً. فلمّا رأىٰ الحسين عليه السلام هذه الحالة منهما عطف عليهما وطلق أُرينب، وعقدها مجدّداً على عبدالله زوجها السابق وقال: «اللّهم إنّك تعلم أنّي لم أستنكحها رغبة في مالها ولا جمالها، ولكنّي أردت إحلالها لبعلها وثوابك على ما عالجته في أمرها ...».

والنتيجة أنّ يزيد مضافاً إلى فكره الإلحادي والمحارب للإسلام ومسيره بالاتجاه المخالف للإمام الحسين عليه السلام، كانت له خلافات أُخرىٰ شخصية وقبلية وسياسية مع الحسين عليه السلام، وهذه الخلافات كانت تزيد من حقد يزيد على الحسين عليه السلام، حتى بلغ حقده عليه أن قال تلك الأبيات وبين يديه رأس الحسين عليه السلام وهو ينكت بقضيب ثغره[١]، ويصرخ للثأر:

لست من خندف إن لم أنتقم   من بني أحمد ما كان فعل[٢]

وكما تقدم أنّ المستفاد من أشعار يزيد هذه موضوعان:

الأوّل: الرغبة الانتقامية ليزيد المتمثلة في هذه الأبيات.

الثاني: أهداف يزيد وأغراضه المضادة للإسلام، وهي إدامة لمنهج أسلافه، بدءاً بأبي سفيان واستمراراً بمعاوية، فأبوسفيان الذي حارب رسول‌الله صلى الله عليه وآله وأصحابه طويلاً، قال حتى بعد إظهار إسلامه، حينما سمع أذان بلال وهو يعلو الكعبة: «لقد أسعد اللهُ عتبة بن ربيعة [والد زوجته] إذ مات ولم يشهد هذا المشهد»[٣]، وكذلك في حرب المسلمين مع الروم كان يتمنى أن ينتصر الروم على المسلمين حتى يتخلص من الإسلام[٤]، وهكذا كان يزيد يتمنى حضور جده أبي‌سفيان وغيره من رجالات بني أمية في احتفال كربلاء الدامي، حتى يروا انتصارهم على أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

واللافت للنظر أنّ يزيد كان ـ مثل جده أبي سفيان ـ يستعين حتى بالروم والنصارى من أجل تحقيق أهدافه ومقاصده الشخصيه المضادة للإسلام. فمثلاً عندما أراد أن يهجو أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، ولم يكن أيّ شاعر مسلم يقبل بذلك، فتوسل إلى شاعرٍ مسيحيّ يدعى بـ(الاخطل)[٥]. وكذلك عندما أراد أن يقمع أهل

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٥٦؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٥.

٢. تقدم ذكره آنفاً.

٣. شرح النهج، ج١٥، ص ١٧٥.

٤. أُسد الغابة في ترجمة أبي سفيان.

٥. العقد الفريد، ج٦، ص١٤٧؛ البيان والتبيين، ج١، ص٨٦.

البيت عليهم السلام استعان بشخصٍ روميٍّ خبيرٍ يدعى بـ (سرجون)[١] الذي كان مستشاراً خاصاً لمعاوية ووقعت فاجعة كربلاء بخطته. ومن ذلك قال بعض الظرفاء: إنّ كثيراً من الفواجع في التاريخ البشري، ومنها فاجعة كربلاء، تمدّ بجذورها نحو الروم، أي الغربيين بشكل عام.

انبهار بني أُمية بالامبراطورية الرومية

من المناسب أن نذكر هنا إحدى القضايا الخطيرة في التاريخ السياسي لبني أمية وهي انبهارهم بالإمبراطورية الرومية والخبراء الغربيين. ولم يكن هذا الواقع قد بدأ في عهد معاوية، بل إنّ بني أُمية منذ زمن جدهم أُمية كانت لهم علاقات خاصة بالروم. وكما رأينا في الفصل الأوّل فأنّ أمية بعد نزاعه مع عمّه هاشم وإخفاقه في هذا النزاع حُكم عليه ـ على أساس التحكيم السائد في ذلك الوقت ـ بالنفي خارج مكة لمدة عشر سنوات. وفي هذه المدة كان منفياً لدى الروم، وقد تعلّم أساليب الروم، وكانت لديه هو وأُسرته علاقات حسنة مع الروم. وفي الواقع أنّه كان يمثّل السفير غير الرسمي للروم في الحجاز.

وكما رأينا من الشواهد التاريخية أنّ يزيد كانت له أيضاً علاقات مع الروم أكثر من جميع الأمويين، لأنّه من جهة تربى في حجر أمٍّ ترتبط بالمسيحيين الروم، ثمّ نشأ بأمرٍ من معاوية تحت إشراف معلّم مسيحي وشبه رومي[٢]. وبعد ذلك اتّخذ له مستشاراً رومياً كانت له علاقة ودية مع معاوية[٣] وهو سرجون، وبهذا نجد أنّ جميع مراحل حياة يزيد كانت مقترنة مع الديانة النصرانية والنسق الرومي، ولذلك كان مستعداً للإستفادة من حكم المسيحية في تحليل الخمر، لا من حكم الإسلام[٤]، كما

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٥٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٢٣.
٢. تاريخ الحسين للعلائلي، ص٦٧.
٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٥٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٢٣؛ الارشاد، ص٤٢.
٤. تتمة المنتهى، ج ١، ص٤٣.

أنّ معاوية ـ مع أنّه أقرب للنظام الإسلامي وأبعد من التربية الرومية ـ كان مستعداً لتقديم التنازلات الىٰ إمبراطور الروم المسيحي ويهادنه ليتفرغ لقتال الإمام علي عليه السلام[١]. وهذه الحادثة تعدّ من أكبر فضائح معاوية والأُسرة الاموية وتكشف عن نوعية ارتباطهم بالإسلام.

يزيد على خطى آبائه

والحاصل أنّ يزيد كان شبيهاً بأبي سفيان في رغباته المادية وميوله الغربية من جهة، ونزعته العدوانية والانتقامية ضد الإسلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله من جهة أخرىٰ. ولكن في الوقت نفسه هناك اختلاف مهم بين يزيد وأبي سفيان، جعل خطر يزيد أكثر بكثير من أبي‌سفيان، ويتمثل في أن سلطة أبي سفيان كانت محلية ومحدودة، حتى إنّه لم يستطع صد الجيش الصغير القادم من المدينة، ولذلك اضطر إلى الإستسلام، بينما كان يزيد يحظى بقوة عالمية وغير محدودة، بحيث لم تكن هناك قوة عالمية أُخرى تنافسه، فقد كان الجيش الإسلامي في ذلك الوقت قوياً إلى درجة أنّه ألقى بظلاله على حكومات الشرق والغرب العظمىٰ، وأخضع الدنيا لسلطانه، ولكن عندما يصبح يزيد خليفة لرسول‌الله صلى الله عليه وآله ـ الشيء الذي لم يكن أبوسفيان يحلم به ـ فإن جميع الصعاب والآلام التي تحملها النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليّ عليه السلام والصحابة المخلصون المضحون وجميع فتوحات جيوش الإسلام، يبدو وكأنها كانت من أجل إيصال يزيد الفاسق إلى منصب الخلافة الإسلامية بكل امكانتها الزمنية والدينية، لكي يتمكن من تحقيق مقاصد وأغراض جده أبي‌سفيان ضد الإسلام والنبي وأهل بيته، وليرتكب في ذلك المجازر كهذا الذي حدث في كربلاء و المدينة و مكة.

رأينا أنّ منح ولاية العهد ليزيد لم تكن ممكنة إطلاقاً في زمن خلافة الراشدين، بل حتى في السنين الاولى لحكم معاوية، لأنّ المسلمين ـ في ذلك الزمان ـ كانوا

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٤٧؛ الامامة والسياسة، ج ١، ١١٨.

أكثر التزاماً بالإسلام إلى درجة أنّهم ثاروا حتى على خليفتهم عثمان وقتلوه من أجل انحرافه. ومن الطبيعي أنّ مثل هؤلاء المسلمين لا يقبلون بإعطاء ولاية العهد ليزيد الفاسق، بل إنّهم أساساً لا يسمحون لمثل هذه الفكرة بالتوغل في الوسط الإسلامي. إذن فتولي يزيد العهد تمّ التخطيط له في السنوات الأخيرة من حكومة معاوية بدليل أنّ الكثير من المسلمين فقدوا ـ بسبب السياسة الشيطانية والجائرة للحكومة الأموية ـ غيرتهم الدينية وغيرتهم الثورية، وسلكوا طريق الانحطاط والذلة، وبهذا وافقوا على مقاصد معاوية المشؤومة، بل وافقوا على استخلاف يزيد من بعده، أو سكتوا ازاء ذلك. والقانون العام هنا يؤكّد عدم امكانية استيلاء الطواغيت أمثال يزيد على الحكم إلّا بموافقة الناس أو سكوتهم ازاءه، وإلّا فمع وجود معارضة من الأمة، يستحيل على الطواغيت تسلّم مقاليد الأُمور والاستمرار في السلطة.

اليزيديون الصغار

وقد اهتمت الروايات الإسلامية بهذا القانون الذي له موقع مهم في العلوم الاجتماعية، فنرىٰ الإمام عليّاً يقول: «الناس بأمرائهم أشبه منهم بآبائهم»[1]، يعني أنّ النسبة بين الحكومة والشعب أكثر منها بين الابن وأبيه. وهذه النسبة تشكّل قسماً من المعادلة الحاكمة في القضايا الاجتماعية، بل وفي جميع القضايا حتى الطبيعية منها، والمهم هنا أنّ قانون (التّناسب) يزيح الغبار المتراكم عبر الزمان ويؤكّد وجود فئة كبيرة من المسلمين في زمن معاوية كانت تابعة لإرادته بشكل مطلق، وأنّهم على أثر أساليب الحكومة الأموية (السياسية والإعلامية والعسكرية) تحولوا إلى يزيديين صغار، وبالتالي لابدّ أن ينضموا إلى دائرة يزيد الكبير، ويسمحوا له أن يحكمهم ويحكم جميع المسلمين، ويحقق مقاصده وأهدافه من خلالهم.

وهذه المنظّمة التي ينبغي تسميتها بالمنظّمة الأموية لم تكن منظّمة صغيرة

---

١. تحف العقول، ص٢٠٨.

وعديمة التأثير، بل كانت كبيرة وقوية جدّاً، وتتحرك ضمن تخطيط معاوية لتحقيق أهدافه، وأحد الشواهد على هذه الحقيقة المرة أنّ مئة ألف شخص من هذه المنظّمة الكبيرة خرجوا لحرب الإمام عليّ عليه السلام وأتباعه[1]، وجعلوا أنفسهم جسراً لسلطة معاوية وحزبه، وكان ذلك في بداية حكومة معاوية التي لم تكن قد استقرت بعدُ، ولهذا فمن الطبيعي أن يبلغ أفراد هذه المنظّمة الواسعة ـ التي رسخت دعائمها في السنوات الأخيرة من حكومة معاوية من كل جهة ـ مئات الألوف من الأشخاص المؤيدين للسلطة، ممّا ساعد الحكومة الأموية على أن تمتد وتسيطر يوماً بعد آخر على جميع الشؤون السياسية والاجتماعية للعالم الإسلامي.

ومن البديهي أن تكون غالبية عناصر هذه المنظّمة الواسعة هم أهل الشام الذين تربّوا في حكومة معاوية، وانحرفوا عن المبادىء الإسلامية، إلى درجة أنّهم كانوا يلعنون الإمام عليّاً وأهل بيته عليهم السلام، ويضحون بأنفسهم من أجل أن تكون ولاية العهد ليزيد ويقولون: «وإنّما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا»[2].

وعلى أساس هذه الطاعة العمياء لأهل الشام، كان معاوية يعتمد عليهم في حكومته، ويوصي ابنه يزيد أيضاً بأن يتخذهم أعواناً ويثبت بهم أركان حكومته. وكانت وصية معاوية مطابقة للواقع، لأنّ عشرة آلاف من أهل الشام هؤلاء أغاروا على المدينة بأمرٍ من يزيد واستباحوها وقتلوا أهلها، ثمّ رحلوا عنها إلى مكة وأحرقوا الكعبة بعد قصفها بالمجانيق .

ومع ذلك كلّه، فإنّ المؤيّدين للحكومة الأموية لم يكونوا يقتصرون على أهل الشام فحسب، بل إنّ الكثير من المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي، حتى في العراق الذي يعتبر قلب حكومة الإمام علي عليه السلام، فانّهم ـ على أثر السياسات المضلّلة للحكومة الأموية ـ انحرفوا وابتعدوا عن الإسلام الحقيقي، فأيّدوا ونصروا الحكومة الأموية كأهل الشام. والشاهد على هذه الحقيقة أنّ يزيد تمكّن من الاستعانة بأهل العراق في تجهيز جيش كامل لحرب الإمام الحسين عليه السلام، ليقتله هو وأهل بيته

١. مروج الذهب، ج٣، ص٣٢.
٢. الكامل في التاريخ، ج٣، ٥٠٨.

وأصحابه، من دون مساعدة أهل الشام، مع أنّ أهل العراق كانوا من أنصار الإمام عليّ وأهل بيته‌عليهم السلام، وسبق أن قاتلوا معاوية وأتباعه بضراوة في صفين، ولكنّهم بعد فترةٍ قصيرة ـ وبسبب أساليب الضغط والتهديد والترغيب والتزوير للحكومة الأموية ـ تغيروا وتبدلوا بشكلٍ غريبٍ كما أشرنا.

وبالطبع لم يصبح العراق أموياً تماماً كالشام، ولكنّه اتخذ طابعاً ازدواجياً، فقد كان هناك تيّار علويّ قوي ومؤثر، كما يوجد تيّار أموي ومذاهب وأحزاب مخالفة أخرى، فكان العراق في الواقع مركز التناقضات والتّيارات المتضاربة، وخاصة التّيار العلوي الذي يقوده الإمام الحسين‌عليه السلام والتّيار الأموي الذي يقوده يزيد، وهما التياران اللذان يتمتعان بنفوذ كبير في الوسط السياسي، ولهما أنصار كثيرون، ولكن مع فارق أنّ أعوان وأنصار يزيد والحكومة الأموية كانوا يسيطرون على جميع المناصب السياسية والاجتماعية، ولكن تيار الإمام الحسين‌عليه السلام لم يكن محروماً من ذلك فحسب، بل محروماً حتى من أبسط الحقوق السياسية والاجتماعية، إذ يعيش في اجواء حصار واضطهاد تحت مظلّة الإرهاب الأموي الشديد، ولذا كانت عناصر هذا التيار متفرقة لا تجمعها رابطة أو تنظيم علني قوي.

التيارات السياسية في المجتمع الإسلامي

ولبيان حالة المجتمع الإسلامي المضطربة أنذاك، وخاصة في العراق، لابد من التعرف على الأحزاب والتّيارات التي وضع أساسها المنافقون والحاقدون أو المسلمون السذج أو طلاب السلطة، وبشكل عامّ الأمويون ومؤيدوهم أو موافقوهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لنتمكن من إعداد قراءة شاملة ووافية للفِرق والتّيارات الموجودة، وأنماط التفكير في ذلك الوقت، وخاصة بملاحظة نوع العلاقة التي تربطهم بالحكومة الأموية، أو بالتّيارات الثورية المضادة لها والمؤلفة من أتباع الإمام عليّ والحسين‌عليهما السلام، والواقع أنّ المعرفة الكاملة بالأحزاب في صدر الإسلام وأسباب تشكلها وآثارها وسائر المتغيرات في الساحة الإسلامية تحتاج إلى دراسة

موسعة، ولكنّنا نشير هنا إلى ذلك باختصار وفي حدود ما يسمح به المجال.

إبتداءً نذكر بأنّ الدين الإسلامي لا يعترف إلّا بحزبٍ واحد يسير أفراده على الحق، ويسميه القرآن (حزب الله)، وبرغم أنّ المجتمع الإسلامي مثل سائر المجتمعات البشرية، تتضارب فيه النظرات والآراء فتتولد من ذلك تيّارات مختلفة، ولكن المهم أنّ اختلاف التّيارات والأحزاب في المجتمع الإسلامي يمثّل اختلافاً فرعياً يمكن حله ضمن الأصول الإسلامية ومبادئها الأساسية، وعلى الأقل يمكن تحديده وتحجيمه، ولكنّ اختلاف الأحزاب غير الإسلامية يكون عادةً اختلافاً جوهرياً لا يمكن حله غالباً، بل تتفرع منه مشاكل وأزمات متزايدة يوماً بعد آخر.

ومع ذلك وللأسف لا بدّ من القول: إنّ المجتمع الإسلامي أيضاً ـ كبقية المجتمعات البشرية ـ تعرض بسبب تخريب المنافقين والانتهازيين إلى اختلافات أساسية وهدامة، ونشأت جراء ذلك أحزاب وتيّارات متضاربة، وكان لهذا كله أسباب مختلفة، منها طبيعة الجمود القيادي في الأمّة، وسوء الادارة، والميول الجاهلية المتعصبة، والأهداف السياسية الخاصة، وجهل كثير من أفراد المجتمع الإسلامي بحقائق الإسلام، واختلاطهم اللامحدود بالأجانب.

والأنكى من ذلك كله أنّ هذه الأحزاب والفئات السياسية ظلّت تتصارع فيما بينها باسم الإسلام، وتمزق وحدة الأمة الإسلامية، وكانت تزداد يوماً بعد آخر، إلى أن وصل الأمر إلى انقسامهم إلى اثنتين وسبعين فرقة مثلاً، ولكن جميعها أو أكثرها تعود في جذورها إلى أربعة أحزاب رئيسة، وقد ذكرها الإمام عليّ عليه السلام عدة مرات، منها قوله: «أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»[1]، وهذا الكلام للإمام عليّ عليه السلام يشير فيه إلى ثلاثة أحزاب منحرفة اشترك كل واحد منها في حرب الجمل أو صفّين أو النهروان. ومن هذا الكلام يتضح الحزب الرابع أيضاً، وهو حزب عليّ عليه السلام نفسه، الذي يمثّل الخط الحقيقي للإسلام، والذي قاوم تلك الأحزاب الثلاثة.

---

١. تاريخ ابن كثير، ج٧، ص٣٣٨؛ المستدرك، ج٣، ص١٣٩؛ كنز العمال، ج١١، ص٢٩٢..

الحزب الأول: حزب (الناكثين)، ومحوره عائشة بنت الخليفة الأول أبي‌بكر، والزبير صهر أبي‌بكر، و طلحة ابن عم أبي‌بكر. وفي هذا المثلث تمثّل (عائشة) نقطة الارتكاز. وبرغم أنّ طلحة والزبير كانا صحابيين معروفين، ولكن في الوقت نفسه رفعا لواء (عائشة) باعتبار أنّها أم المؤمنين، واستفادا كثيراً من كونها زوجة النبي الأكرمﷺ، كما أنّ أبابكر أيضاً استفاد في الحقيقة من هذه العلاقة لتحقيق أهدافه.

وعائشة هي إحدىٰ زوجات النبيﷺ، وقد أوجب عليها القرآن الكريم الجلوس في بيتها، ولم يكن لها الحق في التدخل في مسألة الخلافة، فكيف آل الأمر إلى أن تشعل نار الحرب بين المسلمين، خاصة ضد عليّ‌ؑ أميرالمؤمنين، حتى إنّ أباها أبابكر وكذلك عمر لم يجعلا لها حقّاً في مسألة الخلافة، ولكنّها عندما سمعت بخلافة الإمام عليّ‌ؑ ثارت فيها كوامن الحسد القديم[1] وأعلنت ـ بتحريك من طلحة والزبير ـ الحرب ضد الإمام عليّ‌ؑ، وهكذا وقعت حرب الجمل الدامية، والمفارقة هنا أنّ كل ذلك كان بدعوى المطالبة بدم عثمان، مع أنّ عائشة وطلحة والزبير كانوا ـ باعتراف الجميع ـ شركاء في تعبئة الناس ضد عثمان. واللافت للنظر أنّ عائشة التي حاربت الإمام عليّاً في خلافته لم تعترض على معاوية وممارساته، بل ولم ترفع لواء المعارضة لعهد معاوية إلى يزيد بالخلافة من بعده، ولعلها وافقت على ذلك موافقة ضمنية أيضاً[2].

ولا يخفى أنّ أحد الاسباب الحقيقية وراء قتال هؤلاء الثلاثة لعليّ‌ؑ يكمن في أنّهم ـ خاصة في زمان عثمان بن عفان ـ قد حصلوا على أموال طائلة، بسبب نفوذهم السياسي والاجتماعي وحظوتهم لدى جهاز الخلافة، ولكن مجيء الحكومة العادلة للإمام عليّ‌ؑ التي ساوت في العطاء وألغت كل الامتيازات السابقة، فضلاً عن أنّ الإمام عليّاًؑ لم يستجب لطلبهم مناصب مهمة وامتيازات خاصة[3] فلذلك تمردوا عليه وحاربوه. وفي الواقع أنّهم حاربوا عدالة عليّ‌ؑ قبل شخصه، وأثاروا

١. مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٥٨.
٢. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٥٠.
٣. شرح النهج، ج ١، ص ٢٣٢.

الفتن وتسببوا بآلاف القتلى والجرحى من جراء ذلك.

والخلاصة إنّ الحزب الأول هو الحزب المطالب ببقاء المخصصات المالية التي كسبها، خاصة على يد عثمان أو في زمانه[١]، ووضعه المعنوي ومواقعه في الدولة، فهي ـ اذن ـ المطالب الشخصية والمطامع الدنيوية، التي أدّت إلى إثارة اول حرب أهلية في تاريخ الإسلام ﴿فخرج على قومه في زينته﴾[٢].

الحزب الثاني: حزب الخوارج، وبرغم أنّ قيام هذا الحزب من الناحية الزمنية كان بعد الحزب الثالث، ولكن بما أنّ هذا الحزب يشبه الحزب الأول علىٰ أساس أنّه بايع الإمام عليّاً عليه السلام ثم نقض البيعة وبما أنّ أتباعه كانوا يعتمدون ـ غالباً ـ على الخليفة الثاني عمر[٣]، فلذا ينبغي أن يذكر في المرتبة الثانية، في وقت كان زعماء الحزب الأول وهم عائشة وشريكاها كانوا مرتبطين بالخليفة الأول، كما اشير إليه آنفاً، ولذا ذكرناه في المرتبة الأُولى، وخاصة أنّه من ناحية الزمان كان متقدماً على الحزبين المعارضين الآخرين. ويختلف الحزب الثاني مع الحزب الأول من ناحية ارتباطه برسول الله صلى الله عليه وآله والإسلام، إذ كان هذا الحزب عقائدياً في الغالب، وقائماً على القدسية المفرطة الجامدة، ولذلك انخدع بحيلة رفع المصاحف التي دبّرها عمرو بن العاص و معاوية في صفّين، فوقفوا أمام الإمام عليّ عليه السلام وأجبروه على القبول بوقف العمليات الحربية بعد أن رفض ذلك، وهددوه بالقتل إذا امتنع عن ذلك، فاضطر الإمام عليّ إلى قبول التحكيم ليدرأ الخطر الأكبر[٤].

والغريب أنّ هؤلاء المتعصبين بعد أن رأوا بأُمّ أعينهم صواب رأي الإمام عليّ عليه السلام وانتبهوا من غفلتهم، سقطوا في دوّامة أُخرى من الجهالة والضلالة، فطلبوا من الإمام عليّ عليه السلام أن يعترف بكفره لقبوله التحكيم برغم أنّهم أجبروه عليه، وأن يتوب إلى الله

---

١. الامامة والسياسة، ج١، ص٨٣؛ مروج الذهب، ج٢، ص٣٥٨.

٢. سورة القصص، الآية ٧٩.

٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص٤٧؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٣٤٣.

٤ تاريخ الطبرى، ج٤، ص ٣٤ و ٣٥؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣١٧.

وإلّا فسيقتلونه، وأخيراً أقدموا على قتله تمسّكاً بهذا المنطق المنحرف.

والظاهر أنّ عناصر هذا الحزب لم يكونوا طامعين في المال والمناصب، ولكنّهم كانوا متحجرين وسطحيين، إلى درجة أنّهم كانوا يقاتلون كل تيّارٍ وحزبٍ يعارض آراءهم الخاوية ويرفعون شعار: «لا إمرة إلّا لله» أو «لا حكم إلّا لله»[١]، واللافت للنظر هنا أنّ هؤلاء المتعصبين المتحجرين كانوا يعتمدون نهج الخليفة الثاني عمر[٢] الذي اتخذوه قدوة لهم، وبذلك كانت أساليبهم ومناهجهم سمجة وفي قوالب دينية.

والخلاصة أنّ هذا الحزب كان يظهر التقدس ويعاند جميع التيارات، وفي الحقيقة يلعب دور (بلعم بن باعورا) في المجتمع الإسلامي، ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾[٣].

الحزب الثالث: حزب القاسطين أو حزب بني أمية، وهذا الحزب تشكّل من الأمويين وأنصارهم، الذين ارتقوا المناصب بحماية وتأييد الخلفاء الثلاثة، وخاصة عثمان، وكان يقوده معاوية بن أبي‌سفيان بالتعاون مع الانتهازيين، وقد رأينا في الفصل الأول أنّ بني أُمية استغلوا عثمان في حياته ومماته، وفي الواقع كان عثمان يمثّل ذريعة سياسية لهم، فبرغم ماضيهم السيّء الصيت استطاعوا التوغل في جهاز الخلافة، ثمّ طالبوا بها من خلال المطالبة بدم عثمان، بعد ما نفذوا في أروقة المؤسسات السياسية والاجتماعية في الدولة، واستطاعوا أيضاً ـ من خلال الأساليب الخادعة والإرهابية وبذل الأموال والمناصب بدون حساب للمتنفذين والانتهازيين ـ أن يحرفوا المسلمين ويكسبوا أنصاراً من المنحرفين وأصحاب الدنيا، وبالتالي إثارة حرب شعواء وهي حرب صفّين ضد الإمام عليّ عليه السلام وأتباعه، والتي انتهت بحيلة التحكيم، وتم لهم بسببها غصب خلافة النبي صلى الله عليه وآله والاستيلاء على جميع مقدرات العالم الإسلامي السياسية وحتى الدينية، وتمكّنوا كذلك من إقصاء

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٩؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٣٤.
٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٦٢؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٣٤٣.
٣. سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

وقتل وتشريد أهل بيت النبي عليهم السلام وأتباعهم.

والخلاصة أنّ حزب بني أمية حزبٌ سياسيٌّ، ويسعى بكامل جهده لتسلّم السلطة، ويمثّل في المجتمع الإسلامي منهج (فرعون)، حيث إنّ أساليبه كانت تقوم على تعذيب وقتل رجال الحق، حتى بذريعة منع الانحراف والحفاظ على مصالح الناس والمسلمين ووحدة الأمة، ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسٰى وليدع ربه إنّي أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾[1].

الحزب الرابع: حزب بني هاشم وهم أتباع أهل بيت النبوة عليهم السلام، الذي كان في الاتجاه المقابل لسائر الأحزاب وخاصة حزب بني أمية، وقائد هذا الحزب هو الإمام عليّ عليه السلام ومعه أولاده وأهل بيت النبوة عليهم السلام الكرام، فهؤلاء كانوا يدافعون عن الإسلام الحقيقي والعدالة الشاملة. وفي هذ الطريق واجه هذا الحزب الأحزاب الثلاثة المنحرفة التي تمثّل في الغالب نماذج للطمع والتهديد والتحريف، وسعى هذا الحزب في مسيرته الإيمانية إلى تعبئة المؤمنين ضد المنحرفين حفاظاً على مصالح الإسلام والمسلمين من خطر الانحراف والضياع، ومن هنا فإنّ هذا الحزب هو (حزب الله) أو الحزب الإسلامي الأصيل الذي يمثّل في المجتمع الإسلامي خط موسىٰ عليه السلام، ويهدف إلى تطبيق الشريعة السماوية بالحجة الدامغة والبرهان القوي والمنطق المتين ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين﴾[2].

والخلاصة يمكن القول: إنّ روح المصلحة الشخصية كانت حاكمة على الحزب الأول، وروح السذاجة والتعصب حاكمة على الحزب الثاني، وروح السياسة والمكر حاكمة على الحزب الثالث، بينما الحزب الرابع تحكمه روح الحق والحقيقة والعدالة.

وهذه الاتجاهات الأربعة ـ طبعاً ـ لا تختص بالمجتمع الإسلامي، بل توجد في جميع المجتمعات البشرية، ففي كل مجتمع هناك طبقة نفعية لا يهمها إلّا مصالحها، وطبقة أُخرى سطحية ومتحجرة، وطبقة سياسية منافقة ومخادعة، وفي مقابل هذه

---

١. سورة غافر، الآية ٢٦.
٢. سورة هود، الآية ٩٦.

الطبقات الثلاث هناك جماعة من الأحرار والمخلصين ـ الذين بالرغم من قلّة عددهم ـ يضحون من أجل القيم الإنسانية والدينية.

وموقف الإسلام من هذه الاتجاهات الاجتماعية الأربعة، يتمثّل في تحكيم الروح الدينية والعقل على مختلف التيارات الاجتماعية المنحرفة، وبالتالي على جميع المجالات الفردية والاجتماعية للمسلمين، وترشيد مساراتها وفق منهج الحق والعدالة والفضيلة، ويتخلصوا من الأنانية والاضطراب الخلقي والتعالي العنصري، وعموماً الخصال الذميمة، ولكن ممّا يؤسف له أنّ طلّاب المنفعة والمتحجرين والمرائين يُضلّون الناس ـ غالباً ـ بأنواع الوعد والوعيد والإعلام الخادع والمراوغ، فيحرفونهم عن الطريق القويم ويسوقونهم إلى هاوية الانحطاط والنزاع والسقوط.

القرآنُ والعقل يرفضان

ولا ريب أنّ هذه الاحزاب لا يمكن أن تكون جميعاً على الحق، كما لا يمكن أن تكون جميعاً على الباطل، وكل الشواهد التاريخية تؤكّد أنّ من بينها حزباً واحداً فقط على الحق، وهو حزب الإمام عليّ عليه السلام، لأنّ ارتباط الإمام عليّ عليه السلام من كل النواحي بالإسلام ورسول الإسلام واضح ومتميز إلى درجة أنّ معارضيه أيضاً اعترفوا بذلك، وأبرزهم معاوية ـ عدوه اللدود ـ الذي كان يقول في الإمام: «... فلقد سبق من كان قبله وأعجز من يأتي بعده»[١]، ونموذج آخر من النماذج الكثيرة هو أنّ معاوية كان مضطجعاً على الفراش، فدخل عليه الإمام الحسن عليه السلام، فقام معاوية من مكانه وبعد أن رحب به اضطجع مرة أُخرىٰ وقال: «عجباً لعائشة تزعم أنّي في غير ما أنا أهله، وأنّ الذي أصبحت فيه ليس بحق، ما لها ولهذا، يغفر الله لها، إنّما كان ينازعني في هذا الأمر أبو هذا الجالس [يعني أميرالمؤمنين عليه السلام]وقد استأثر الله به».

فقال الإمام الحسن عليه السلام: «أَو عجبٌ ذلك يا معاوية؟». قال: «أي والله». قال عليه السلام: «أولا أُخبرك بما هو أعجب من هذا؟» قال: «ما هو؟» قال عليه السلام: «جلوسك في صدر

١. شرح النهج، ج١١، ص٢٥٣.

المجلس وأنا عند رجليك» وهذا كناية عن أنّ عدم تأدبك لضيف مثلي ـ مع أنّ التأدب للضيف أمر التزمت به العرب في الجاهلية أيضاً ـ أعجب من غصبك للخلافة أو من رأيك في أبي. فما كان من معاوية إلاّ أن قام مرة أُخرى، وقال: «يابن أخي، بلغني أنّ عليك ديناً»، قال عليه السلام: «إنّ لَعَلَيّ ديناً»، قال: «كم هو؟» قال عليه السلام: «مئة ألف» فقال: «قد أمرنا لك بثلاثمئة ألف، مئة منها لدينك ومئة تقسمها في أهل بيتك ومئة لخاصّة نفسك، فقم مكرّماً فاقبض صلتك». فلمّا خرج الحسن عليه السلام قال يزيد بن معاوية لأبيه: «تالله ما رأيت رجلاً مثلك، استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلاثمئة ألف، قال: يا بُنيّ إنّ الحق حقهم فمن أتاك منهم فأحث له»[1].

ونقل الخوارزمي أنّ معاوية قال في جواب ابنه يزيد: «يا بُنيّ إنّ الحق والله حقهم وأخذناه أفلا نردفهم يا بُنيّ دابتهم التي ركبناها»[2].

مثل هذه الاعترافات الغريبة، التي تعتبر من أهم الوثائق التاريخية، تبيّن حقيقة الأمر أمام من ينشدون الحقيقة. والأعجب من ذلك أنّ معاوية هذا، مع اعترافاته، ارتكب أعظم الجرائم بإثارة الفتنة والحرب ضد عليّ وأهل بيته عليهم السلام وأتباعه، ثم غصب حقه وحقهم كما رأينا، حتى إنّه أقدم على دسّ السم للإمام الحسن عليه السلام والتخلص منه من أجل ولاية عهد إبنه يزيد[3].

وليس فقط معاوية، بل إنّ أعوانه وأنصاره مثل وزيره عمرو بن العاص كانوا يعترفون بين فترة وأخرىٰ بهذه الحقيقة، ومن ذلك قول عمرو بن العاص بصراحة لغلامه وردان قبل بدء حرب صفين: «عليٌّ معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدّنيا بغير آخرة وليس في الدّنيا عوض من الآخرة»[4]، ومع ذلك فإنّه حارب الإمام عليّاً عليه السلام لأجل معاوية أو باع دينه بدنيا غيره.

وهكذا الحال في قيادات حرب الجمل، (طلحة و الزبير و عائشة)، فإنّ لهم أيضاً

١. شرح النهج، ج١٦، ص١٢؛ بحار، ج ٤٤، ص ١٠٩. ٢. المقتل للخوارزمي، ج ١، ص١٢٣.
٣. مروج الذهب، ج ٢، ص٤٢٧؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٥.
٤. الامامة والسياسة، ج ١، ص١١٦؛ شرح النهج، ج ٢، ص٦٣.

اعترافات مثيلة، يمكن مراجعتها في مصادر التاريخ الإسلامي، وهي تشير بوضوح إلى أنّهم قد أدانوا أنفسهم في موقفهم المعادي للإمام عليّ عليه السلام.

والوثائق المعتبرة لدىٰ الشيعة والسنة، مضافاً إلى ذكرها الاعترافات الفاضحة لقيادات الأحزاب المخالفة للإمام عليّ عليه السلام، تذكر أيضاً الفجائع العظيمة التي ارتكبوها وخاصة ضد الإمام عليّ عليه السلام وأتباعه، وذكرها خارج عن نطاق الكتاب بالرغم من أنّ ذكرها لا يخلو من فائدة، ولكن للتعرف على المبادىء الأُصولية لقيادات الانحراف نقول: إنّ أوضح وأقصر طريق لتعريفهم، والذي يعتبر مفتاح معرفة الطرق الاخرىٰ أيضاً، هو أنّ كل أمرٍ خلاف الحق هو باطل أساساً، كما يقول القرآن: ﴿فماذا بعد الحق إلّا الضلال﴾[1].

والعقل السليم يتقبل هذا القانون القرآني الذي يمكن تسميته بقانون (امتناع جمع الأضداد) ويقول: إذا كان الإمام عليّ عليه السلام وأتباعه، حتى باعتراف مخالفيهم، هم أصحاب الحق، فلا يصح مطلقاً أن نصف أعداءهم بأنّهم أصحاب الحق أيضاً، فلا القرآن ولا العقل السليم يقبلان أن يعترف الدين الإسلامي ـ القائم على توحيد الحق ـ بزعامة الإمام عليّ وأهل بيته عليهم السلام مثلاً، وفي الوقت نفسه يقبل بقيادة مخالفيه! أو أنّهم على حقٍّ حتى في مخالفتهم وحربهم مع عليّ عليه السلام وأتباعه!

تصور ساخر

تم البحث آنفاً في موضوع الأحزاب المتعارضة في صدر الإسلام، ورأينا أنّ الأحزاب أسسها وقادها الصحابة؛ إذ انعكست أفكارهم وسلوكياتهم عليها. فمن أجل فهم هوية هذه الأحزاب، لابد من الوقوف على بعض خصائص الصحابة أيضاً. وأساساً فانّ مسألة الصحابة هي إحدىٰ المسائل المهمة في صدر الإسلام والتي تركت آثاراً عميقة ـ بعضها حق وبعضها باطل ـ في التّيارات الإسلامية. ويمكن

---

١. سورة يونس، الآية ٣٢.

القول: إنّ التيارات الإسلامية والأحداث التي وقعت في تاريخ صدر الإسلام، ومنها حادثة كربلاء، لها ارتباط كبير بهذه المسألة.

يقول قسم من المسلمين بأنّ جميع من شهد الشهادتين وأدرك النبيﷺ بغض النظر عن المدة الزمنية ـ والتقى به حتى ولو لبضع دقائق ـ فإنّه يعدّ من صحابة النبيﷺ، وهم جميعاً مأجورون ومحترمون في كل أعمالهم كيف ما كان. وهناك ملاحظتان حول هذه المقولة:

الأولى: أنّها تعني أنّ جميع أصحاب النبيﷺ، حتى معاوية وعمرو بن العاص وأمثالهم من الذين أسلموا خوفاً أو طمعاً، بمجرّد أنّهم رأوا النبيﷺ فقد تطهروا من كل عيب وصاروا كالملائكة.

الثانية: أنّ جميع أصحاب النبيﷺ بقوا إلى آخر عمرهم طاهرين ومطهّرين كالملائكة وإن سفكوا دماء الآلاف بل عشرات الآلاف من المسلمين أو سفكوا دماء صحابة رسول اللهﷺ المخلصين، حتى لو اعترفوا بأخطائهم.

والحقيقة أنّ مقولة إنّ الشخص بمجرد رؤيته للنبيﷺ يطهر من الرذائل ويبقى طاهراً في كل الاحوال وإلى الأبد، هي مقولة تبعث على الدهشة، وفيها تعارض مع مبادىء الدين والعقل، وهي مقولة تعود في الغالب إلى عهد معاوية، الذي حاول إضفاء طابع القداسة على الصحابة وتعظيمهم جميعاً، لكي يدخل هو ومن شاكله في زمرة المقدسين، ويسوغوا ويبرّروا أعمالهم وسلوكياتهم، ومنها محاربتهم الإمام علياًعليه السلام، بل يضفوا الشرعية على هذه الأعمال، بذريعة أنّهم من صحابة النبيﷺ.

وفضلاً عن حكم العقل فإنّ القرآن الكريم يوبّخ ويذم الكثير من الصحابة بشدة، ويصف بعضهم بالنفاق والفسق والفجور ويلعنهم، فهل مات هؤلاء الأصحاب بعد وفاة النبي الأكرمﷺ؟ أم أنّهم تنفسوا الصعداء ثم تسنموا المناصب في المجتمع الإسلامي؟ وهذا مضافاً إلى أنّ القرآن الكريم يذم الكثير من أتباع الأنبياء السابقين

ويعاتبهم بشدة، ويصفهم بأنّهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً[١]. فهل أنّ تلك القصص المذكورة في القرآن تتحدث عن قصص ميّتة أو أنّها أمثلة حيّة لوجود الخصال السيئة بين البشر وفي جميع المجتمعات البشرية؟ ونعلم أنّ القرآن الكريم لم يهتم بترجمة حال الأمم السابقة فحسب، بل إنّه يتحدث عن الحقيقة المستمرة حتى في مجتمع المسلمين، ولذلك قال رسول الله ﷺ في صدد استمرار حالات الأُمم السابقة في المجتمع الإسلامي أيضاً: «**ستفترق أُمتي أكثر من سبعين فرقة ... فرقة واحدة ناجية والبقية في النار**»[٢].

أشد التعابير القرآنية السلبية

وقد اطلق القرآن الكريم مفردة (الحمار)، على علماء اليهود الذين كانوا من أصحاب موسى أو التابعين لهم[٣]. و(الكلب) أيضاً يضربه القرآن مثلاً لشخص يُدعى (بلعم بن باعورا) الذي كان يعدّ معقل الايمان ومظهر الآيات الإلهية[٤]. وهدف القرآن من ضرب هذه الأمثلة السلبية لمن يتجلبب بزي علماء الدين زيفاً، هو أنّه يريد أن يزيل القدسية عن هؤلاء الأفراد المتدينين في الظاهر والضالين والمضلين في الحقيقة. وبالتالي فإنّ الناس سوف يفيقون من الانخداع بهم والتورط بشراكهم وأفكارهم الخطيرة مثل فكرة قداسة جميع الصحابة وصحة أعمالهم علىٰ الاطلاق.

وهناك حديث موضوع يحاولون من خلاله تثبيت هذه الفكرة، ويتمثل في القول المنسوب إلى رسول الله ﷺ: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»[٥].

وعلى أساس هذه الرواية فإنّ الصحابة المتفاوتين بل المتناقضين تماماً، كالإمام عليّ و أبي‌بكر و عمر و عثمان و طلحة و الزبير و معاوية و عمرو بن العاص

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

٢. كنز العمال، ج ١، ص ٢١٠؛ المعجم الكبير، ج٨، ص ٥١؛ مستدرك الحاكم، ج٣، ص٥٤٧.

٣. سورة الجمعة، الآية ٥.

٤. سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

٥. شرح النهج، ج ٢٠، ص١١ و ٢٣ و ٢٨؛ ميزان الاعتدال، ج ١، ص٤١٣؛ مغني إبن قدامة، ج ٣، ص ٥٣٥.

والمغيرة و خالد بن الوليد وأبي‌هريرة وسلمان وأبي‌ذر وعمّار و مقداد وغيرهم، هم في مستوى واحد من المرتبة الدينية وفي طبقة ايمانية واحـدة، بـرغم اخـتلافهم الشديد، بل وبرغم الصراعات المسلحة فيما بينهم، وبذلك فهم جميعاً يهدون الناس إلى الحق، ويسوقونهم جميعاً إلى سعادة الدنيا والآخرة!!

ولنعلم أنّ العلماء الواعين، وبعض العلماء السلفيين أيضاً كابن تيمية، أثبتوا أنّ هذه الرواية موضوعة بأمر من الحكام والسياسيين[١]، وينقل ابن أبي الحديد ـ في هذا الصدد ـ رسالة لافتة للنظر عن أحد المحققين باسم (أبي جعفر العلوي) في رد دعاوى (أبي المعالي الجويني)[٢]، جديرة بالتأمل والدقة، وفضلاً عن تحقيق الباحثين والعلماء الإسلاميين في هذا المجال، فإنّ هناك أحاديث أيضاً تكشف عن الحقيقة، منها حديث افتراق الأمة، وقد مر ذكره، ومنها حديث آخر، وهو قوله صلى الله عليه وآله : «يـرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي [أو قال من أمتي] فيُحلؤون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلاّ كهمل النعم»[٣].

أليس من المهزلة؟!

وبغضّ النظر عن الشواهد التاريخية المذكورة، فإنّ هناك اعترافات صريحة أيضاً من قِبل معاوية وعمرو بن العاص والزبير وطلحة وغيرهم مرت الإشارة إلى بعضها وكلها تبيّن بوضوح أنّ هؤلاء لم ينطلقوا في قتال الإمام عليّ عليه السلام من موقفٍ فكري، بل كانوا يتحركون من خلال أهوائهم ومن موقع مطامعهم في السلطة. وعلى هـذا أليس من المهزلة أن نقول: إنّ هذه الحروب الدامية التي أشعلوها كـانت اجـتهاداً

---

١. اضواء على السنة النبوية، ص٣٢ و ٣٤٤، نظرية عدالة الصحابة، ص١١٧ عن المنتقى للذهبي، ص٥٥١.

٢. شرح النهج، ج ٢٠، ص١٢.

٣. صحيح البخاري، ج٧، ص٢٠٨ وج٨، ص ٨٧، و ج٥، ص١١٩ و ٢٤٠؛ وج ٧، ص ٢٠٦؛ صحيح مسلم، ج١، ص ١٥٠ وج ٧، ص ٦٨، وج ٨، ص ١٥٧.

منهم، غاية الأمر أنّهم أخطأوا في اجتهادهم؟ أجل، إنّ حروبهم لم تتسبب من اجتهادهم اطلاقاً، إنّما تسببت من أهدافهم الشخصية، كما رأينا في نماذج من اعترافاتهم الدامغة،وعلى هذا الأساس هل تعداعتراضناعلىمثل هؤلاء ذنباًومعصية؟

ثمّ إنّ مخالفة الصحابة إذا عدّت ذنباً وإثماً، فيجب القول: إنّ هؤلاء الصحابة قد تلوثوا أكثر من سائر الناس بالذنوب والآثام، لأنّ الصحابة أنفسهم اختلفوا فيما بينهم حتى إنّهم باختلافهم كانوا أيضاً مصدر الاختلافات بين الناس، إذ أوقعوا المجتمع الإسلامي ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان في أنواع من الفتن والصراعات الفكرية والميدانية. وكذلك كانوا هم أنفسهم يشتم بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً، بشكل لم يسبق له مثيلٌ، حتى إنّ عشرات الآلاف من المسلمين قُتلوا من جراء النزاعات بين الصحابة، ومن هنا لا يمكن أصلاً أن يكونوا جميعاً مقدسين ومصونين وإلى الأبد. كما لا يمكن اتباع أيّ واحد منهم، لأنّ التبعية لأحدهم، تعني ـ بالطبع ـ معارضة الآخر، إلّا أن يقال: إنّ شتائمهم وحربهم وقتالهم فيما بينهم كانت من قبيل المزاح والمجاملة!!

هل يمكن السكوت أمام كل هذه الوقاحة؟

والحقيقة إنّ خلافات الصحابة وصراعاتهم لا تنحصر في إطار محدد، بل إنّها تجاوزت الحدود، بحيث إنّنا لو استطعنا جمعها من الكتب المعتبرة لأصبحت مجلدات عديدة، فمن الجدير بالعلماء المحققين والباحثين أن يعملوا على جمع ونشر هذه الخصومات والمنازعات والملاعنات بين الصحابة، وخاصة ما ورد في خطب ورسائل معاوية وأعوانه وأضرابه حول الإمام عليّ عليه السلام وسائر رجال الحق، وهذا العمل بدوره يعتبر خدمة كبرىٰ للكشف عن حقائق صدر الإسلام وبطلان الادعاءات الخطيرة، سواء كانت بصورة عامة، من قبيل أنّ جميع أصحاب النبي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم، أو بصورة خاصة، من قبيل العشرة المبشرة، ونموذج ذلك ما قام به معاوية الذي أوجب على المسلمين لعن الإمام عليّ عليه السلام حتى بعد

إستشهاده، وأن يسبّوه حتى في صلاتهم، وإحدى العبارات في لعن الإمام عليّ عليه السلام التي دامت مدة قرن تقريباً من حكومة الأمويين، وكانت تذاع على جميع المنابر والمساجد والمدارس والمحافل الدينية، هي:

«اللّهم إنّ أبا تراب ألحد في دينك وصدعن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً»[١].

فهل يتمكّن المسلمون المنصفون، حتى من يدافع عن سياسة معاوية منهم، السكوت والتزام الصمت إزاء كل هذه الانحرافات والوقاحات ؟

قاعدة مثلث المعارضة

لم يكتف معاوية وأتباعه بقتال الإمام عليّ عليه السلام وأتباعه، ومعارضتهم بكل ما أوتوا من قوة، بل كان لهم دورٌ حساس في تقوية سائر الأحزاب المعارضة لعلي عليه السلام أيضاً؛ وفي الواقع أنّ الأحزاب الثلاثة المعارضة للإمام عليّ عليه السلام، والتي أُشير إليها آنفاً، تمثّل مثلّث الفتنة في العالم الإسلامي، إذ يمثّل معاوية وحزبه قاعدة هذا المثلّث، المعارض، وحزب طلحة والزبير و عائشة يمثّل ضلعاً من أضلاعه، وحزب الخوارج يمثّل الضلع الثالث منه.

إنّ تاريخ تلك المرحلة يوضّح بشكل كبير أنّ حزب الخوارج وُلد إثر دسائس معاوية وأعوانه، ليتمكنوا من خلخلة جناح الإمام عليّ عليه السلام من الداخل وبهدف تعبيد الطريق أمام زحفهم. وكذلك حزب طلحة والزبير وعائشة، فانّه تقوىٰ بتحريك معاوية وأتباعه[٢]، ولذا واجهوا الإمام عليّاً عليه السلام وأنصاره في معركة الجمل بثقة كاملة وأثاروا شرائح واسعة من المسلمين ضده. وقد استفاد معاوية من ذلك لتحقيق اغراضه كثيراً. ويمكن القول إنّ هؤلاء لو لم يشعلوا تلك الحرب الضروس في معركة الجمل ولم يهتكوا الحرمات والمقدسات فإنّ معاوية وأعوانه ربّما لم يجدوا أرضيةً مناسبةً لخوض حرب صفّين، ولو استطاعوا خوضها وإثارتها فان الحظ لم يكن حليفهم.

---

١. شرح النهج، ج٤، ص٥٦.

٢. شرح النهج، ج١، ٢٣١ و ٣١٠.

ثمّ إنّ معاوية ومن على شاكلته لم يكن دورهم يقتصر على ذلك فحسب، بل إنّهم كانوا يحتالون على النفوذ في قلوب الناس، ويجعلون من مناصريهم ومعارضيهم أداة ووسيلةً لتحقيق مآربهم بشكل مباشر أو غير مباشر، والواقع أنّ سلوك الأمويين يشبه سلوك الاستعمار الحديث، الذي يتحرك ـ على مستوى تحقيق أهدافه ـ باستخدام الجواسيس وأساليب الخداع كمساعدة التّيارات المنحرفة، والضرب على وتر التفرقة الداخلية، وإثارة النعرات الجاهلية، وإثارة غبار الشبهات الواهية والتفسيرات السياسية الخاطئة. وبالتالي فإنّ الاستعمار من خلال بث الشائعات وتسميم الأجواء، وتحت مظلة العدالة والإنسانية، يزيد في الطين بلة وفي النار اشتعالاً ويذري الملح على جروح الأمة، وبرغم أنّه يدّعي بذلك تضميد هذه الجروح التي أوجدها بمختلف أساليب الخداع، ويتحرك من موقع التظاهر بإصلاح المجتمع لمواجهة رجال الحق والفضيلة.

وأحد نماذج سلوك معاوية السياسي سعيه ـ بدسائس مختلفة ـ إلى أن يلصق تهمة قتل عثمان بعليٍّ عليه السلام وأصحابه، ويخدع المسلمين ويلوّث المناخ الإسلامي بهذه الشائعات، ليحقق مطامعه السلطوية. وبلغ مستوى إثارة مثل هذه الفتن من قبلِ معاوية حدّاً أنّه قال لعائشة: «...لوددت إنكِ قتلت يوم الجمل: قالت: ولِمَ لا أبالك قال: كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر تشنيع على علي بن أبي طالب عليه السلام...»[1].

والأنكىٰ من ذلك أنّ معاوية لم يترك مكائده لأصحاب الإمام عليّ عليه السلام حتى بعد استشهاده، كما حدث مع أمثال عدي بن حاتم الذي قال له معاوية: «ما أنصفك عليّ، قتل أولادك وأبقى أولاده»، فقال عدي بحزم: «ما أنصفت علياً إذ قُتل وبقيت بعده»[2].

وإحدى القضايا الأساسية في صدر الإسلام، والتي مثّلت البنية التحتية للأوضاع في مرحلة الإمام الحسين عليه السلام، تتمثل في أنّ جميع الأحزاب والفئات والتّيارات في

---

١. شرح النهج، ج٦، ص٣٢٢.
٢. مروج الذهب ج٣، ص٤، العقد الفريد ج ٤،ص ٩٨.

ذلك الزمان تقريباً كانت تسعى ـ بسبب حب الرئاسة والثروة أو التحجر وضعف البصيرة أو سائر الانحرافات التي ابتليت بها بشكل واسع ـ إلى الوقوف ضد الإمام عليّ عليه السلام وأتباعه وأهل بيته. واللافت للنظر أكثر أنّ كل هذه الأحزاب كانت ترتبط فيما بينها كشبكة واحدة، وتقتبس من حكومة بني أمية (وعلى رأسها معاوية) أساليب التحرك وإشعال الفتنة، وفي الحقيقة، كما أنّ دعوة النبي صلى الله عليه وآله التوحيدية ـ والمضادة للشرك والكفر ـ أوجبت أن تتفق القبائل والطوائف المشركة تحت زعامة بني أمية ضد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومحاربته والوقوف بوجه الدعوة الإسلامية، فكذلك نجد حال الإمام عليّ عليه السلام ودعوته الإيمانية ـ والمضادة للنفاق والانحراف والفساد ـ أوجبت أن تتفق الأحزاب والتيارات المنحرفة لتشكيل جبهة واحدة ضده بزعامة بني أُمية أو تحريكهم أيضاً. والنتيجة فإنّ بني أُمية أوصلوا الأمر إلى حد قال عنه الخبراء من المؤرخين مثل ابن أبي الحديد: «كان جمهور الخلق مع بني أمية»[١]، ويعني أنّ بني أمية تمكنوا من كسب أكثرية المسلمين والتّيار العام في المجتمع إليهم، وجعلوهم يقفون في خط المواجهة مع الإمام عليّ وأهل بيته عليهم السلام.

وينقل ابن أبي الحديد أيضاً أنّه حتى في واقعة صفّين، أي قبل مدة طويلة من سيطرة الأمويين على زمام الأمور بشكل تام، فإنّ جيش الإمام عليّ عليه السلام، عدا فئة معدودة، قد خدع بحيلة معاوية في قضية التحكيم، بل إنّهم فرضوا على الإمام قبول التحكيم، وهددوه بالقتل في حال رفضة ذلك[٢].

ونرىٰ أنّ هذه الحالة المأساوية تعكس الأوضاع السيئة التي عاصرها الإمام الحسين عليه السلام، وهي ما ذكرته كثير من الروايات والأدعية كدعاء الندبة، الذي يقول في جملة منه: «والأُمة مصرةٌ على مقته مجتمعةٌ على قطيعة رحمه وإقصاء ولده إلّا القليل ممّن وفى لرعاية الحق فيهم ...».

وكذلك نسمع مثل هذه الكلمات من الإمام عليّ عليه السلام حين يقول لأخيه عقيل:

---

١. شرح النهج، ج٤، ص١٠٣.

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٤ و ٣٥؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣١٧.

«فإنّ قريشاً قد اجتمعت على حرب أخيك اجتماعها على رسول الله قبل اليوم، وقد جهلوا حقي وجحدوا فضلي، ونصبوا لي الحرب، وجدّوا في إطفاء نـور الله، اللـهم فأجز قريشاً عنّي بفعالها ...»[1].

العراق مركز للأحزاب الثلاثة المعارضة

لقد ظلت هذه الأوضاع تسوء يوماً بعد آخر عقب استشهاد الإمام علـيّ عليه السلام وتحديداً في فترة العشرين سنة من حكومة معاوية المعادية للعلويين وقواعـدهم الشعبية، وبالتالي فإنّ الخناق كان يضيق شيئاً فشيئاً على المخلصين من المسلمين. والمسألة المهمة هنا، والتي ترتبط بواقعة كربلاء وأسبابها أكثر ـ خاصة ما يرتبط بالساحة العراقية لكونها مركز هذه الحالة ـ هـي أنّ جـميع التـيارات والأحـزاب المناهضة للإمام عليّ عليه السلام وتياره كانت تتّخذ من العراق مركزاً لنشـاطها وتـحركها السياسي.

فالعراق كان من جهة مركزاً للناكثين والمارقين، وكذلك مركز ثـقل الحكـومة والتّيار الأموي، وفي نفس الوقت مركز شيعة أهل البيت عليهم السلام. وهكذا كان العراق ـ الذي أصبح فيما بعد مذبحاً لأهل البيت والمؤمنين ـ ساحة متوترة تعيش حالة من التمزّق والاختلافات الشديدة.

وفي ذلك الجو المتوتر نرىٰ ـ من جهة ـ فئة الخوارج، كالشمر وأبناء الأشعث، تسعى بشدة للقضاء على شيعة الإمام عليّ عليه السلام و ـ من جهة ثانية ـ نجد أنّ بـقايا المفجوعين من حرب الجمل، الذين كانوا يشكلون شريحة كبيرة من أهل العراق، يسعون بشدة أيضاً للإجهاز على خط الإمام عليّ عليه السلام وأحبائه، و ـ من جهة ثالثة ـ نشاهد بني أُمية وأنصارهم، الذين كانوا يشكـلون ـ عـلى المسـتوىٰ السـياسي ـ الأكثرية الحاكمة، ويلاحقون أنصار الإمام عليّ عليه السلام ويعرضونهم للـحبس والقـتل وغير ذلك من أساليب الإرهاب.

---

١. مستدرك نهج البلاغة، ص ١٣٠ و...

والخلاصة أنّ العراق كان مركزاً للمثلث المشؤوم المتكون من الأحزاب الثلاثة المعادية للإمام عليّ عليه السلام وأهل بيته، التي ذكرت سابقاً، وكانت تعكس فيه النزاعات الفكرية والعملية للعالم الإسلامي جميعاً، وهذه النزاعات ساعدت كثيراً على تقوية الحكومة الأموية من جهة، وضيقت الخناق بنفس الدرجة على جبهة الحق وشيعة أهل البيت عليهم السلام من جهة أُخرىٰ.

وقد اتّفقت جميع المصادر على أنّ حكومة الانحراف بقيادة معاوية قد استخدمت جميع العوامل السياسية والمالية والعسكرية والإعلامية للقضاء على أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وشيعتهم مهما أمكن، فالتاريخ يؤكّد أنّ معاوية أمر قادة جيشه كبسر بن أرطاة وغيره بالهجوم على المواقع الحساسة والنقاط الإستراتيجية في الدولة، مثل مكة والمدينة واليمن والأهم من ذلك كله العراق، وأن يقتلوا ويسفكوا الدماء [١]. وبعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام اشتدت هذه الحالة، وأخذ ولاة معاوية وأعوانه ـ كزياد ابن أبيه ـ يلغون أكثر في دماء الشيعة وحقوقهم وحرماتهم فكانت النتيجة هي أمواج عاتية من القمع والاضطهاد والإرهاب شملت جميع أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعة عليّ عليه السلام حتى أصبح العراق خاوياً تقريباً منهم وتحول إلى مقبرةٍ كبيرة لهم.

ومن جهة أُخرى فإنّ معاوية عمل على شراء ضمائر ضعاف النفوس بالرشاوي وبذل الأموال لهم بدون حساب، لمناهضة خط الإمام عليّ عليه السلام، ومنهاجه القويم، فمعاوية هذا يقول بصراحة: «والله لأقسمن المال بين ثقات عليٍّ حتى يغلب دنياي آخرته»[٢].

وكلام معاوية هذا يشبه كلام الشيطان الذي قال مخاطباً الله تعالى بمنتهى الوقاحة: ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين﴾[٣].

---

١. شرح النهج، ج ٢، ص٦ وما بعده.
٢. وقعة صفين، ص٤٣٦؛ شرح النهج، ج٨، ص٧٧.
٣. سورة الحجر، الآية ٣٩ و ٤٠.

هذه نماذج من سياسة الأمويين الخبيثة في استغلال عاملي (الترغيب) و(الترهيب) من أجل إثارة الناس ضد الإمام عليّ عليه السلام وأتباعه، وهذه النماذج لها نظائر كثيرة جدّاً تشكل معرضاً كبيراً يزكم الانوف.

والأسوأ من هذين العاملين (السيف والمال) هو عامل التزوير والتحريف الذي استخدمته الحكومة الأموية بصورة واسعة، لايجاد أجواء تنشأ في ضلالها الأجيال على الانحراف عن خط الإمام علي وأهل بيته عليهم السلام بل وبغضهم، فوصل تزوير الأمويين للواقع درجة أنّهم حيال قتل عمار الذي تم بأيديهم في حرب صفّين، قالوا بأنّ المسؤول عن قتله هو عليّ بن أبي طالب الذي جاء به إلى القتال[1]، وكذلك حمّلوا الإمام عليّاً عليه السلام مسؤولية قتل طلحة والزبير[2]، مع أنّ طلحة قُتل بيد ابن عم معاوية (مروان بن الحكم)، والزبير قُتل بعيداً عن المعركة بيد (ابن جرموز)[3] وبدون علم وموافقة الإمام عليّ عليه السلام. وحول قتل عثمان أيضاً اتهموا الإمام عليّاً وأولاده عليهم السلام الذين دافعوا عنه، فقالوا: «إنّ علياً قتله»[4].

وفي هذه الأزمنة وإن انكشفت الأوراق وبانت للجميع حقيقة هذه الادّعاءات والتهم الشنيعة، إلّا أنّها تدلّ بوضوح على أنّ الحكومة الأموية ـ وخاصة بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام، وجهت سيل التهم والأكاذيب والافتراءات إلى الإمام وأنصاره، وسعت بكل إمكاناتها لإشاعة سنة لعن الإمام وأهل بيته عليهم السلام واتّهامه بقتل عمّار وطلحة والزبير وعثمان وآخرين، بل ولتحميله مسؤولية جميع ما وقع من القتل والدمار والشدائد والمصائب التي حلت بالمسلمين، خاصة على أثر واقعة الجمل وصفّين والنهروان، وبهذا الإعلام المضلل الذي انتشر في سائر أقطار البلاد الإسلامية، استطاع الأمويون استغفال وخداع الأكثرية من المسلمين البسطاء وإثارتهم ضد الإمام عليٍّ عليه السلام وأهل بيته وأتباعه، وهذه هي المصيبة الكبرىٰ التي

١. مروج الذهب، ج٣، ص٣٢؛ شرح النهج، ج٨، ص٢٧؛ تاريخ ابن كثير، ج٧، ص٣٦٩.
٢. شرح النهج، ج١٧، ص٢٥٢ و ٢٥٣.
٣. شرح النهج، ج١، ص٢٢٦ و ج٢، ص١٦٨.
٤. تاريخ ابن كثير، ج٤، ص١٢٢؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٢٩٠.

كان الإمام زين‌العابدين‌عليه السلام يشعر بها في الشام أكثر من المناطق الإسلامية الأُخر، حيث نُقل عنه ما مضمونه: إنّ حالنا في الشام أسوأ من كربلاء لأنّ التهم والشتائم التي سمعناها في الشام كانت أشد علينا من القتل والأسر.

وينقل (ابن أبي الحديد) في هذا المجال حكاية مثيرة جدّاً عن المدائني ذكرها في تاريخه وهي مجرد نموذج، إذ يقول: «روى المدائني عن رجل قال: كنت بالشام فجعلت لا أسمع أحداً يسمّي أحداً أو يناديه يا عليّ أو يا حسن أو يا حسين، وإنّما أسمع معاوية والوليد ويزيد و... حتى مررت برجل فاستسقيته ماءً فجعل ينادي يا عليّ يا حسن يا حسين، فقلت: يا هذا إنّ أهل الشام لا يسمّون بهذه الأسماء، قال: صدقت، إنّهم يسمّون أبناءهم بأسماء الخلفاء، فإذا لعن أحدهم ولده أو شتمه فقد لعن اسم بعض الخلفاء، وأنا سمّيت أولادي بأسماء أعداء الله [عليٍ وحسنٍ وحسينٍ] فإذا شتمت أحدهم أو لعنته فإنّما ألعن أعداء الله»[١].

أسوأ وسائل الإعلام الأموي

إنّ أشنع وسائل إعلام الحكومة الأموية، والذي وجّه ضربات شديدة إلى مصالح المسلمين جميعاً، وكانت له آثاره في حدوث فاجعة كربلاء وما بعدها من الفواجع، هو تلاعب الحكومة الأموية بالثقافة الإسلامية الأصيلة وإفراغها من محتواها وجعلها منسجمة مع أهدافها السياسية، فحينذاك كانت جميع شؤون الحكومة والحكام مرتبطة بثقافة الإسلام. وأدرك بنو أمية جيّداً أنّ تثبيت سلطانهم يستدعي استخدام أدوات الثقافة الإسلامية التي تعتمد عليها شؤون التربية والتعليم والنظام والأعراف بين المسلمين. ومن هنا عمل بنو أمية على وضع الأحاديث والروايات الكثيرة عن لسان بعض الصحابة أمثال (أبي هريرة)، خاصة ضد الإمام عليّ‌عليه السلام ومدرسته وتيّاره، وإسنادها إلى رسول‌الله، وعملوا على نشرها في جميع الأوساط إلى أن أخرجوا كثيراً من المسلمين عن الاسلام الحقيقي، باسم الإسلام، وبالتالي

---

١. شرح النهج ج٧، ص١٥٩.

أبعدوهم عن الإمام عليّ وأهل بيته﵈ ومهدوا الطريق لفاجعة كربلاء والفواجع المماثلة الأُخرى.

والحقيقة أنّ الناس اليوم، نتيجة اختلاف ظروف حياتهم عن ظروف ذلك الزمان، يصعب عليهم حتى تصور حالته، وكيف أنّ جهاز الحكم الأموي عمل على تحريف المعارف الإسلامية والصورة الحقيقية لرجال المسلمين، من خلال الأحاديث الموضوعة، فعلىٰ سبيل المثال قدمت شخصية عظيمة كشخصية الإمام عليّ﵇ للناس بأنّه مارق، سارق، تارك للصلاة، حسود، مثير الفتن وغير ذلك[1]، ولا يكون من المبالغة أن يقال: إنّه قد تمّ تثبيت حكومة معاوية وبشكل عام سلطة الأمويين في ظل كم هائل من الأحاديث الموضوعة التي انتشرت في جميع البلاد الإسلامية، وأضلت الكثير من المسلمين. وفي الواقع أنّها عملت على تربيتهم تربية يزيدية، وهذه التربية كانت بقناع إسلامي مقدس، وهذا الإعلام كان له الأثر البالغ بحيث إنّ جماعات كبيرة من المسلمين، حتى في العراق عاصمة التشيع، كانت ترى أنّ اسم عليّ وأبنائه﵈ يجلب المشاكل لهم، ولولا هذه التربية السلبية لما استطاع يزيد وأضرابه أن يجندوا الناس ويثيروهم ضد الإمام الحسين﵇، ولما استطاعوا إطلاقاً حتى بقدراتهم العسكرية والمالية أن يقتلوا أهل بيت النبيﷺ باسم الإسلام ويسبوا نساء النبوة.

ومن هنا، ولاجل الوقوف على أسباب فاجعة كربلاء وكذلك تقييم آثارها نرىٰ من اللازم أن نعطف الكلام على أنّ مسألة وضع الأحاديث، التي تعتبر أكبر جريمة لحكومة معاوية ولحكومة بني أمية عموماً، أفرزت واقعاً متخماً بالتناقضات وكرّست الانحراف في واقع المسلمين؛ وفي هذا المجال هناك قضايا كثيرة يجب مراجعتها في الكتب التي تناولتها باسهاب، ولكن سنشير لاحقاً إلى نماذج من هذا الواقع المفجع.

---

١. شرح النهج، ج١١، ص٤٣ ـ ٤٦؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٥٩.

حقيقة مثيرة

لو تتبعنا كتب الحديث، ولا سيّما الصحاح الستة، سنصل إلى حقيقة مثيرة تتمثل في وجود أحاديث كثيرة جدّاً منقولة عن شخصين، ولعلها أكثر من أحاديث الآخرين، واللافت للنظر أنّ هذين الشخصين مثل عدد آخر من الرواة، قد وقفا في الكثير من المواقف في الجبهة المضادة للإمام عليّ عليه السلام وكانا في الحقيقة يحققان أهداف الحكومة الأموية، شعرا بذلك أم لم يشعرا. وهما: ١ ـ أبو هريرة، الذي جلده عمر بن الخطاب لسرقته من بيت المال[١]، وقال عليّ عليه السلام عنه: «ألا إنّ أكذب الناس (أو قال: أكذب الأحياء) على رسول الله صلى الله عليه وآله أبوهريرة الدوسي».[٢]، ٢ ـ عائشة، التي خرجت لحرب الإمام عليّ عليه السلام وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله، خلافاً لأوامر القرآن والنبي الصريحة. ونجد أنّ المحقّقين من الشيعة وبعض المحققين السنة أيضاً يضعّفون كثيراً من الأحاديث المروية عن أبي هريرة و عائشة، ويشكّكون فيها، بل يتعجبون من بعض الأحاديث الواردة عنهما، فلذلك راحوا يدققون في ما روي عنهما لتمييز الصحيح من السقيم منها.

وقد قام العلامة السيد عبدالحسين شرف‌الدين رحمه الله، بدراسات عميقة وعلمية في هذا المجال، حازت تقدير الشيعة والسنة، وذكر أيضاً نماذجَ من اعتراضات علماء السنة في هذا الصدد، فمن النقاط المهمة التي جاءت في دراساته هو أنّه يقول: «وقد نظرنا في مجموع ما روي من الحديث عن الخلفاء الأربعة، فوجدناه بالنسبة إلى حديث أبي هريرة وحده أقل من السبعة والعشرين في المئة»[٣]، يعني أنّ أباهريرة، الذي أدرك النبي صلى الله عليه وآله في آخر حياته لمدة سنتين فقط، كانت له من الأحاديث ما يقابل تقريباً أربعة أضعاف مجموع الأحاديث الواردة عن الخلفاء الراشدين مثلاً، وأكثر بكثير من جميع الصحابة وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وجميع زوجات

---

١. شرح النهج، ج١٢، ص٤٢؛ العقد الفريد، ج١، ص٣٤؛ الطبقات الكبرىٰ لابن سعد، ج٤، ص٩٠.

٢. شرح النهج، ج٤، ص٦٣ وما بعده، و ج ٢٠، ص ٢٤ وما بعده و...؛ أضواء على السنة المحمّدية، ص٢٠٤.

٣. ابوهريرة لشرف الدين، ٤٥ ـ ٤٦.

النبي ﷺ، وهكذا الحال مع (عائشة)، التي كانت واحدة من زوجات النبي ﷺ التسع، فلها أحاديث كثيرة، بعضها أو كثير منها يتسم بضعف المحتوى والنص. وبرغم أنّ أحاديث عائشة أقل من نصف أحاديث أبي هريرة، إلّا أنّها في نفس الوقت تساوي تقريباً ضعفي مجموع أحاديث الخلفاء الراشدين[1]، فيا ترىٰ! ألا تكشف هذه الأرقام عن الكثير من حقائق صدر الإسلام وخاصة ما لحق بالثقافة الإسلامية والتي تسببت في الانحدار الفكري المستمر للمسلمين، وبالتالي وخامة الأوضاع والظروف التي كان يعيشها الإمام الحسين عليه السلام؟ وألاّ تكفي هذه الإرقام لإيقاظ الواقع الإسلامي اليوم، وخاصة علماء الإسلام، ليعقدوا العزم على تنقية التراث الإسلامي وإصلاح الخلل فيه؟

سر إكثار أبي هريرة وعائشة لرواية الحديث

ونحن لا نبحث في شخص أبي‌هريرة أو عائشة وأمثالهما، بل إنّ البحث الأصلي هنا يدور حول أمر مهم جدّاً، ويرتبط بتحول أبي هريرة وعائشة وغيرهما من رواة للحديث إلى ناطقين باسم نبي الإسلام، وحازوا على قصب السبق في رواية الحديث من جميع الصحابة الكبار أمثال سلمان، و أبي‌ذر، و عمار، وغيرهم، بل حتى من الإمام عليّ عليه السلام، الذي يعتبر باب علم النبي ﷺ، وكأنّ الرسول لم يكن رسولاً إلّا لهؤلاء النفر القليل، وهل أنّ لهؤلاء النفر سابقة أكثر نصوعاً في الإسلام، أو أنّ علمهم أكثر، أو أنّ تلقيهم للمعارف الإسلامية أعمق من الآخرين من الصحابة الأجلاء، بحيث صاروا مصادر علم النبي ﷺ ورواة الحديث الأصليين في العالم الإسلامي والأدمغة المفكرة للأمة الإسلامية؟

من الواضح أنّ هؤلاء لم يكن لديهم ملاكات أو ميزات خاصة واستثنائية، ولكن هناك عوامل سياسية ساعدتهم على ذلك، ودعمتهم في تبرير هذا السلوك، حتى أصبحوا مصدر الحديث ومحور الشؤون الثقافية والسياسية والاجتماعية للمسلمين،

---

١. المصدر السابق.

بينما نجد أنّ الإمام علياً وأهل بيتهعليهم السلام وأنصاره قد أُهملوا بشدة بسبب تلك العوامل السياسية، بل صدر الأمر بمحاصرتهم سياسياً و ثقافياً وفكرياً. ولا ريب في أنّ القسم المهم من هذه العوامل يعود إلى ممارسات الحزب الأموي بقيادة معاوية وخلفائه الذين تسلطوا على العالم الإسلامي عشرات السنين. وطيلة هذه المدة كان أهم هدف لهم هو نشر الأحاديث المضللة الموضوعة من قِبَل الموالين للأسرة الأموية أو المناهضين للأسرة العلوية، إذ نفذوا في ضمائر الناس وشوهوا الثقافة الإسلامية بشكل يتناغم وينسجم مع مصالح حكومة بني أمية، سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا به. وبذلك أصبحت مدرسة أهل البيتعليهم السلام، التي تعدّ المدرسة الحقيقية للإسلام الأصيل والشريعة المقدسة، بعيدة عن دائرة القرار في ساحة الفكر الإسلامي.

وأحد جذور هذه النتيجة عملية منع تدوين الأحاديث النبوية الشريفة بأمر أبي‌بكر وعمر، كما أشرنا في الفصل الأول. فهذه الخطوة أدت إلى فراغ عملي خطير مهّد السبيل طبعاً إلى وضع أحاديث كثيرة من قبل الانتهازيين وبأمر من معاوية وأمثاله ويمكن القول إنّه لولا منع عمر وأبي‌بكر من جمع وتدوين الحديث النبوي الشريف، لم تجد الحكومة الأُموية وأعوانها مجالاً لوضع ونشر الأحاديث المحرفة لصالح أهدافها المشؤومة.

وكمثال على آلاف المحاولات لوضع الحديث خلال حكومة معاوية، هو ما قام به معاوية حين أعطى أربعمئة درهم ـ وتعتبر ثروة طائلة ـ إلى سمرة بن جندب ليضع له حديثاً في الآيات القرآنية الشديدة مثل آية: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام**﴾[١]، ويقول إنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب لتأييد ادعائهم بأن علياً كان من ألد الخصام ويتظاهر بالدين والإسلام، وأنّ آيات البشارة أيضاً مثل آية: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ...**﴾[٢] نزلت في ابن ملجم[٣]؛ لتثبيت ادعائهم أنّ ابن

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٠٤.
٢. سورة البقرة، الآية ٢٠٧.
٣. شرح النهج، ج٤، ص٧٣.

ملجم بقتله الإمام عليّاً عليه السلام اشترى مرضاة الله.

وبملاحظة هذه الأحاديث نلاحظ مدىٰ التلاعب والتحريف الذي قامت به حكومة معاوية على مستوىٰ التراث الثقافيّ الإسلامي، وهو عمل يحتاج إلى جرأة بالغة في معاوية أنّه ـ أوّلاً ـ كان في مقام خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وثانياً: نسب ذلك إلى القرآن وثالثاً: إنّه أتم ذلك تحت ستار أحاديث نبوية مختلقة ومزورة، وأخيراً: وأنّه استفاد لتحقيق ذلك من بيت مال المسلمين والمستضعفين. وبعد كل ذلك يدّعي معاوية أنّه أميرالمؤمنين!

الجذور الحقيقيّة لفاجعة كربلاء

وأساساً هناك خطأ مهم يقع فيه الكثير ممّن كتبوا عن عاشوراء وحادثة كربلاء، إذ تصوروا أنّ العوامل المادية، كالرشاوى الكبيرة وإرهاب الحكومة الأموية، هي التي أدت إلى أن يسير الناس إلى حرب الحسين عليه السلام وبالتالي وقوع حادثة عاشوراء. وبسبب هذا التوهم الباطل جعل البعض حكومة يزيد هي السبب الذي يقف خلف نهضة الإمام الحسين عليه السلام وحادثة كربلاء، ولم يذكروا المسائل المهمة والمؤثرة قبل ذلك، غافلين عن أنّ حكومة يزيد وبشكل عام العوامل المادية تشكل ظاهر القضيّة، ولكن باطن القضية يكمن في التّيارات والحوادث الاجتماعية والسياسية والفكرية الكامنة في ضمير الأمة، من خلال تأثير مسائل ثلاث مهمة جدّاً، وهي: الصحابة وأحزابهم وأحاديثهم كما ذكرنا آنفاً، حيث أدّت كل هذه المسائل الثلاث إلى انحراف كثير من المسلمين وانحطاطهم، إلى درجة أنّهم توجهوا بأمر يزيد وولاته إلى قتال الحسين وأهل بيته عليهم السلام وأنصاره، وخلقوا بذلك آلاف المصائب. من هنا نجد أنّ العلماء المنصفين يرون أنّ حادثة عاشوراء وما يدور حولها من المسائل تمد جذورها الحقيقية إلى تلك المسائل الثلاث المذكورة الواقعة في صدر الإسلام، وخاصة حادثة السقيفة، التي تشكّل القاعدة الأساسية للمسائل

الثلاث المذكورة كما أشرنا إليها، ويقولون: «إنّ الحسين أصيب من يوم السقيفة»[1].

وعلى كل حال، فإنّ الالتفات إلى باطن القضية ودراسة أبعادها يمهّد الطريق إلى رؤية الحقائق بعين الواقع، ويفتح أبواب التحقيق في أوضاع صدر الإسلام، وخاصة ما يدور حول الأرضية التي ساعدت على إيجاد عاشوراء.

وعلاوة على المسائل المذكورة، التي تبيّن وتوضّح الظروف المحيطة بقضية كربلاء واسبابها، هناك موضوع مهم يتعلق بالمقارنة بين حكومة يزيد وحكومة معاوية، تساعدنا كثيراً على تفهم العوامل والدوافع لنهضة الإمام الحسين عليه السلام وآثارها وثمراتها، وهي أنّ حكومة يزيد لم تكن استمراراً لحكومة معاوية، بل كان هناك فرق خطير بينهما سنبحثه في الفصل الثالث من الكتاب، ولكن نشير إليه هنا إشارة سريعة: إنّ حكومة معاوية وإن كانت حكومة فاسدة، أدّت ممارساتها في جميع المواضيع المتعلّقة بها ـ خاصة بالنسبة إلى المسائل الثلاث المذكورة آنفاً (أي الصحابة والأحزاب والأحاديث الموضوعة) ـ أن تضلّ الكثير من المسلمين وتسوقهم إلى هاوية الانحطاط الفكري والخُلقي، ممّا شدد الخناق على الإمام الحسين عليه السلام ومواليه، فكانت الظروف المحيطة بهم خانقة ومتشنجة جدّاً، ولكن مع ذلك كله فإنّ معاوية كان يراعي ظواهر الإسلام ولو من أجل تحقيق سياسته وتثبيت حكومته، أمّا يزيد فكان شاباً مستهتراً وغبيّاً إلى درجة أنّه كان يستهزىء حتى بظواهر الإسلام، بل حتى بأصل الإسلام وفي حضور المسلمين. وبهذا الأُسلوب لم يكتف بتغيير مسار المجتمع الإسلامي وحسب، بل مسار الحكومة الأُموية وأبيه معاوية أيضاً، وبهذا عرّض الإسلام إلى الخطر الأكيد، الأمر الذي أدّى إلى تقوية دوافع الثورات الحسينية من جانب، ومضاعفة تأثيراتها على مستوىٰ الرأي العام في المجتمع الإسلامي من جانب آخر، وفي الحقيقة إنّ يزيد بمخالفته الصريحة والعلنية للاسلام، جعل لثورة الإمام الحسين عليه السلام مسوغات عقلائية يدرك مشروعيتها كثير من المسلمين لولا جميعهم ، وكان ذلك انتصاراً معنويّاً للإمام الحسين عليه السلام على الأقل.

---

١. كشف الغمّة، ج ٢، ص ١٢٨؛ بحار الانوار، ج ٤٣، ص ١٩٠.

جريمة بلا نظير

إنّ معاوية وأعوانه كانوا يضعون قناع القدسية والتظاهر بالإسلام على وجوههم، وكانوا يتجنبون ـ قدر الإمكان ـ قتل الشخصيات المحبوبة لدئ المسلمين، ولو اضطروا إلى ذلك كانوا يقومون بذلك بشكل خفي، أو يتمسكون بذرائع إسلامية ظاهرية تسوّغ لهم ذلك عند البعض أو عند الأكثرية، ولكنّ يزيد وأعوانه لم تكن لهم خبرة في السياسة، وقد تملّكهم الغرور المتزايد، فكانوا يتجاهرون بالفسق والفجور وشرب الخمور، بل كما ذكرت المصادر التاريخية، فإنّ يزيد وأعوانه كانوا يعلنون الكفر، وقد قتلوا رجالات الإسلام وفي طليعتهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسحلوا أجساد أمثال مسلم بن عقيل وهاني بن عروة في الأسواق والأزقة، وضربوا عرض الحائط أحكام الإسلام وحتى الأعراف الجاهلية. والنتيجة أنّ الجرائم الجنونية التي ارتكبها يزيد ضد الشخصيات الكريمة في العالم الإسلامي، بل ضد النساء والأطفال أيضاً، تعذّب وجدان كل مسلم وكل إنسان، وتجعله يقف إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام وخطه. هذه الجرائم التي تخالف جميع القيم الإسلامية والإنسانية، وليس لها نظير في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ العالم.

ويشهد التاريخ بأنّه لم تقع إلى الآن جريمة، حتى من قِبل السلاطين المستبدين، كما حدث في كربلاء، إذ منعوا عن أهل بيت نبيهم كل شئ حتى الماء، ومن بينهم النساء والاطفال، فضلاً عن أنّ جيش الامويين كان يشتم أهل البيت عليهم السلام بكلمات نابية، فيقولون مثلاً: «يا حسين! ألا تنظر إلى الماء كأنّه بطون الحيّات وتلغه الكلاب والخنازير والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً».[١]

لم يحدث في التاريخ البشري أن تقوم جماعة متمسكة بالدين حسب الظاهر بدعوة رجالٍ شرفاء إلى ديارهم وبلدهم ويعاهدونهم على التضحية والفداء، ولكنهم ينقلبون عليهم، ثم يقتلونهم أمام نسائهم وأطفالهم، ويمثّلون بأجسامهم بأمر يزيد

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٣؛ الارشاد، ج ٢، ص ٨٧.

وأركان حكمه، بل يرضّون أجسادهم بحوافر الخيول!!

ولم يحدث في التاريخ البشري أن تقوم جماعة تدّعي أنّها(جند الله) تسبي نساء ثكلى وأطفالاً يتامىٰ غرباء، وتسلبهم وهم ضيوفهم وقد جاءوا بدعوة منهم، ولم يكتفوا بذلك، بل أحرقوا خيامهم ووضعوا الأغلال في أرجلهم، ثمّ أخذوهم مصحوبين برؤوس أعزّائهم إلى قصر عدوهم يزيد المتربّع على عرش السلطة الأموية.

حتى جريمة إهداء رأس يحيى إلى (هيروديس) هي أقل بكثير من جريمة إهداء رأس الحسين عليه السلام إلى يزيد، لأنّ يحيى لم يكن عطشاناً حين قتله، ولم يُقتل أمام زوجته وأخواته وأطفاله ، ولم يكن مصحوباً كذلك بقتل عشرين شخصاً من أهل بيته وستين آخرين من أصحابه، ولم يكن بأيدي مضيّفيه الذينَ دعوه لنصرته، ولم يكن كذلك مقروناً برضّ الخيول لصدره المقدس، ولم يكن كذلك مشفوعاً بأسر أهل بيته وسبيهم، ولم يكن مصحوباً بأنواع الإهانات والضرب والشتم وممنوعاً من كل شيء حتى من الماء هو وأهل بيته.

والأنكى من ذلك أنّ مصدر سلطة هيروديس لم تكن من بيت يحيى ولا كان هو وأعوانه على دين يحيى، وإلّا لم يقدم على قتله، بل كان يحترمه ويكرمه، في حين أنّ جميع الفجائع التي ارتكبتها حكومة يزيد لم تكن بأيدي الأجانب، بل كانت بأيدي من يدعي الإسلام، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته المنّة الكبيرة في وصولهم إلى السلطة، ولذلك يعلن الشاعر استغرابه حين يقول:

يعظّمون له أعواد منبره وتحت أرجلهم أولاده وضعوا[1]

أي أنّه يستغرب من هؤلاء المسلمين أن يصلوا إلى درجة من الانحراف والانحطاط، بحيث يعظّمون حتى أعواد المنبر النبوي الشريف، وبرغم أنّهم يسحقون أولاد صاحب المنبر بأرجلهم، فهم كما يقول إبن عمر: يسألون حتى عن حكم طهارة دم البعوضة ومن جهة أُخرىٰ يقتلون أعزّاء النبي صلى الله عليه وآله من أهل بيته

١. اللهوف، ص١١٢؛ مثير الأحزان، ص ٨٤؛ تفسير إبن كثير، ج ٣، ص ١٧١

الكرام[١]، مع أنّهم يعلمون أنّ القرآن الكريم الذي جاء به ذلك النبي ﷺ طلب منهم مودة أهل بيته واحترامهم، بل جعل مودتهم أجراً للرسالة، فقال: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ﴾[٢]. وعلى أساس مثل هذه الآيات، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «والله لو أنّ النبي تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا»[٣].

لِمَ هذا الانحطاط

وبصرف النظر عن انحراف الامويين وانحطاطهم، يبرز هنا سؤال اساسي، وهو أنّه لماذا أصيب كثير من المسلمين بكل هذا الانحراف والانحطاط، بحيث يواجهون الحق ويرتكبون من أجل الأمويين كل هذه الجرائم ولا سيما ضد أهل بيت نبيهم، ويسحقون جميع المقدسات والأصول الإنسانية والقيم الأخلاقية حتى الجاهلية؟

والتاريخ يشهد على أنّ أسلافهم لم يكونوا علىٰ هذا المستوىٰ من الدناءة، إذ يمنعون الماء عن ضيوفهم ومنهم الأطفال والنساء، ثم يعتدون عليهم ويقتلونهم من أجل تلبية رغبة أمرائهم ـ الفاسدين باعترافهم ـ برغم أنّهم من البدو وسكان الصحراء وتغلب على سلوكهم القساوة، بل كانوا يتمتعون بخصال حميدة من قبيل إكرام الضيف وإجارة المستجير والوفاء بالعهد والترحم على الضعفاء أيضاً. ولكن هؤلاء الذين يدّعون الإسلام قد بلغوا من الانحطاط درجة فقدوا فيها حتى هذه الخصال الجاهلية الحميدة، والأنكى أن يحدث ذلك باسم الإسلام وتحت لواء القرآن، ولذلك نجد الإمام الحسين عليه السلام يقول لهم: «يا آل أبي سفيان: إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم وارجعوا إلى أحسابكم، إن كنتم عُرباً كما تدّعون»[٤].

١. تاريخ ابن عساكر، ج٤، ص٣٨؛ تذكرة الخواص، ص٢٧٥.
٢. سورة الشورى، الآية ٢٣.
٣. اللهوف، ص٨٦.
٤. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٤٤؛ اللهوف، ص٧١.

فمن الضروري إذن معرفة السبب في هذا التراجع الإنساني والانحطاط الأخلاقي الذي فاق حتى سلوكيات الجاهلية، فإن السبب في هذا السقوط يكمن في أنّ الحكومة الأموية استفادت من كل أدوات الانحراف في سبيل تدعيم سلطتها، ابتداءً من نتائج السقيفة إلى مسألة الأحزاب وتفرّق الصحابة ووضع الأحاديث التي أشرنا إليها سابقاً، وفي هذا المجال استخدم زعماؤها كل الأساليب العسكرية والسياسية والإعلامية وكل الطرق الملتوية التي يطول شرحها؛ بهدف حرف المسلمين عن الطريق المستقيم ونهج رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، باتّجاه دنيا آل أُمية البراقة الخداعة، وسهّل ذلك لهم وجود الأرضية اللازمة لهم، التي تتمثل في عدم تعوّدهم على التربية الإسلامية الصحيحة، ولذا فقدوا السلوكيات الإسلامية القيمة وتفاقم انحرافهم في ظل الحكومة الاموية الحاكمة على دنياهم يوماً بعد آخر، حتى ابتعدوا عن فطرتهم في العهد الجاهلي أيضاً، فأصبحوا آلة ووسيلة بيد أمثال يزيد والحكومة الأموية. وكما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «الناس مع الملوك والدنيا إلّا من عصمه الله» والإمام الحسين عليه السلام:«الناس عبيد الدنيا والدين لعق على السنتهم»[١].

ولهذا يولي الإسلام أهمية كبرىٰ لقضية الحكومة وأساليب الحكام، ويضع شروطاً صعبة للقيادة الإسلامية ومسؤولي أجهزتها. كما يدعو الاسلام إلى مناهضة الحكام الجائرين الذين يعملون على إفساد المجتمع وسوقه إلىٰ الهاوية.

وفضلاً عن التأثير السلبي لتربية الحكومة الفاسدة الأموية، وإن كانت هناك عوامل أُخر غيرها أيضاً، مثل وجود الأحقاد القديمة والعقائد الخرافية والحسابات الشخصية لبعض الجناة الذين اشتركوا في كربلاء، ولكنّ هذه العوامل تعتبر من العوامل الثانوية، ولم يكن لها دور أساسي في تلك الواقعة المذهلة، لأنّ الوثائق والشواهد التاريخية تدل على أنّ الكثير من مجرمي مجزرة كربلاء مثل شبث بن

١. تحف العقول، ص ٢٤٥؛ شرح النهج، ج ١١، ص ٣٨.

ربعي وحجار بن أبجر وعمرو بن حريث وغيرهم، كانوا قد قاتلوا معاوية سابقاً إلى جنب الإمام عليّ عليه السلام، وبعد وفاة معاوية أيضاً دعوا الحسين عليه السلام إلى أن يقدم إليهم ليبايعوه، ومن بعد أن تلوثت أيديهم بالدّماء الزكيّة في كربلاء أيضاً كانوا يقولون نادمين: «لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ولا يسددهم لرشد، ألا تعجبون أنّا قاتلنا مع عليّ بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين ثمّ عدونا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وإبن سمية الزانية، ضلال يا لك من ضلال ...»[١].

هذه النماذج التي لها نظائر كثيرة في واقعة كربلاء تدل على أنّ السبب الأساس لوقوعها هو أنّ الحكومة الأموية قد عملت على تكريس الانحراف بين المسلمين وخاصة أهل العراق، وجعلتهم طلاب دنيا، وكانت النتيجة أنّهم يقدمون على ارتكاب أية جريمة، من أجل الدنيا والثروة والجاه، والسبب الذي دفع بعضهم إلى دعوة الحسين إلى الكوفة ليبايعوه أيضاً أنّهم كانوا يتصورون أنّ قيام حكومة الحسين عليه السلام تحقق لهم أهدافهم الدنيوية، ويحققون من خلالها أغراضهم وأهواءهم النفسية، ويحصلون على الثروات والسلطة، ولهذا فهم عند تغيّر الأوضاع والامتحان والتمحيص نقضوا عهدهم مع الحسين عليه السلام، وأقدموا على قتاله وحربه. وفي الحقيقة أنّهم كانوا يعيشون حالة ازدواجية، أي التظاهر بالإسلام من جهة والسير خلف الأهواء والشهوات من جهة أُخرى، فكانوا يريدون الدين مع الدنيا، بل يريدون الدين من أجل الدنيا، ولذلك نجد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام يخاطبهم قبل عشرين سنة من حادثة كربلاء: «إنّي أُريدكم لله وتريدونني لأنفسكم»[٢]، يعني أن الداء الأصلي هو أنّكم أردتم أن تستفيدوا منّي لدنياكم وتجعلوا من حكومتي ذريعة لأهوائكم السافلة، وأنا أُريدكم للآخرة والحقيقة.

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٣٣٢؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٦٩.

٢. شرح النهج، ج٩، ص٣١.

أسوأ خصلة في جيش يزيد

وبغض النظر عمّا ارتكبته الحكومة الأموية وأجهزتها من جرائم كبيرة، فانّ هناك موضوعين هما أسوأ منها جدّاً ولهما أبعاد وآثار روحية وسياسية وخيمة.

الموضوع الأول: أنّ الحكومة الأموية وولاتها كانوا يعلمون بعظمة الإمام الحسين عليه السلام وعدالة قضيته، ومع ذلك أقدموا على قتاله، وبالرغم من أنّهم سعوا إلى إرضاء وجدان الآخرين حتى وجدانهم بسفسطات وتبريرات ملتوية، من قبيل أنّ الحسين عليه السلام خرج على جماعة المسلمين وفرّق الأمة الإسلامية، وأنّ معاوية معيّن من قبل عمر و عثمان، ووصل إلى الخلافة عن طريق التحكيم، ويزيد أيضاً نُصب من قِبل معاوية ولذلك فإنّ حكومته شرعية وقانونية، خاصة وأنّ المسلمين قد بايعوه، ولكن مع كل ذلك فإن مسألة الحسين عليه السلام وخاصة بالقياس مع يزيد كانت واضحة جدّاً، بحيث لا يمكن التستر عليها إطلاقاً، مع انّ اعترافاتهم ـ التي سنشير إلى بعضها ـ تؤيّد أنّهم يعرفون أن الإمام الحسين عليه السلام على حق وأنّهم على باطل، حتى يزيد نفسه، المسؤول الأصلي عن فاجعة كربلاء، بكى على مقتل الحسين عليه السلام وقال: «أما والله لو أنّي صاحبه لدفعت الحتف عنه بكلّ ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي»[1]. وبهذا أقرّ على نفسه ـ ولو سياسياً ـ بأنّ للحسين منزلة عظيمة، إلى درجة أنّه ينبغي لخليفة المسلمين أيضاً أن يفديه بأولاده.

وكذلك عبيدالله بن زياد الذي كان المسؤول الثاني عن واقعة كربلاء، عندما أُمره يزيد بالتوجه إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة للقضاء على ثورة المسلمين هناك، كما قضى على ثورة الإمام الحسين، قال: «لا أجمعهما للفاسق أبداً»[2]. أي أنّني من أجل يزيد الفاسق لا أتحمل عار القضاء على أهالي المدينة ومكة كما صنعت ذلك في كربلاء. و(عمر بن سعد) أيضاً، الذي يعتبر المسؤول الثالث عن فاجعة كربلاء،

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٥٤؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٨.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٧١؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٢؛ البداية والنهاية ج ٨، ص ٢٣٩.

عندما أصدر إليه عبيدالله أمراً بالتوجه إلى كربلاء ووضع قتل الحسين عليه السلام شرطاً لتولّيه حكومة الري، حينها أنشد واصفاً حيرته:

أأترك ملك الري والري رغبتي | أم أرجع مذموماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها | حجاب وملك الري قرّة عيني[١]

والملاحظة اللافتة للنظر هنا أنّ عمر بن سعد، الذي باع دينه وارتكب المذبحة، كان أول من رمى الحسين وأصحابه بالسهم[٢]، وفي الوقت نفسه كان أول من بكى على قتل الحسين عليه السلام، وفي الحقيقة أنّه بكى على مقتل وجدانه[٣]، وبرغم بشاعة هذه الجريمة، فإن بعض الذين تملّكهم التعصب من أهل السنة، يعتبرون عمر بن سعد هذا عادلاً، ويقبلون أحاديثه ويوثّقونه، وعلى هذه فقس ما سواها.

والواقع أنّ جميع أفراد الجيش الذين اشتركوا في قتل الحسين عليه السلام باعوا ضمائرهم وسحقوا وجدانهم، وكانت هذه المسألة واضحة لديهم إلى درجة أنّ التاريخ يصرّح بأنّ كل واحدٍ من هؤلاء الضالين، سعىٰ إلى الابتعاد عن عار هذه الجريمة وإلقائها على عاتق الآخرين[٤]، وبالنسبة إلى أصل المطلب نذكر الشعر الذي قاله قاتل الحسين عليه السلام مخاطباً ابن زياد، وهذا نموذج من كثير يكشف عن ماهيّته خاصة في سحق وجدانه للدنيا، وعن حقيقة الحكومة الأُموية ومرتزقتها.

أوقر ركابي فضةً وذهبا | إنّي قتلت السيد المحجبا[٥]

الموضوع الثاني: وهو أسوأ من الموضوع الأول، ويتلخص في أنّ هؤلاء، حتى مع اعترافهم بأنّهم ارتكبوا جريمة فظيعة، فإنّهم يتمسكون بالدين والرسالة المقدسة،

---

١. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٥٣ ؛ مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ٢٤٨..
٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٢٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٥؛ الارشاد، ص٢٣٦.
٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٤٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٧٨.
٤. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٤٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٧٨.
٥. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٩٣؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٧٩؛ مروج الذهب، ج ٣، ص ٦١؛ تذكرة الخواص، ص٢٥٤.

ويظهرون أنفسهم حماة للإسلام وجنداً لله، وبهذا سخروا من الإسلام، فيزيد نفسه، الذي يعترف بأنّ قتل الحسين جريمة، نجده يتمسك بالقرآن ويسوّغ به فاجعة كربلاء، فمن أجل خداع الناس يقول إنّ الحسين أُتي من قبل فقهه فإنّه لم يقرأ هذه الآية ﴿...تؤتي الملك من تشاء...﴾[1] يعني لو كان قرأها لم يتحرك ضدي، وعلم أنّ الله قد رآني جديراً بالخلافة وصاحب حق فيها ولذا أعطانيها. ولم يكتفِ بأن يقول ذلك للناس، بل خاطب عليّ بن الحسين عليه السلام قائلاً: إنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ يعني أنّ الله تعالى قد أصابكم بتلك المصيبة بتقصيركم، ولكن على أيدينا نحن الذين اختارنا الله لذلك[2].

الجبر الديني وسيلة للجبر السياسي

بالرغم من أنّ القرآن مشعل هداية، ولكنّه في نفس الوقت يقول: ﴿ولا يزيد الظالمين إلّا خسارا﴾ لماذا؟!

لأنّ المنافقين ومن على شاكلتهم تمسكوا بالقرآن لتسويغ أهوائهم وسلوكياتهم الخاطئة وحتى جرائمهم الفظيعة، وطبّقوا القرآن على أنفسهم ولم يطبّقوا أنفسهم على القرآن، ولهذ السبب نرى أنّ يزيد يفسّر الآية الأولى حسب ميله وأهوائه، ويخيّل إلى الناس بأنّ القدرة تساوي الحق، ومن هنا فإنّ صاحب القدرة هو صاحب الحق، والآية الثانية يؤوّلها بميله وأهوائه ويدّعي أنّ الغالب هو ـ في الواقع ـ يد الله لإنزال المصيبة على المغلوب، ولذلك فهو غير مسؤول أصلاً بل هو مأجورٌ أيضاً، وهذا هو الجبر الديني الذي يتمسك به يزيد وأمثاله لبيان مشروعية حكومتهم وتثبيت جبرهم العسكري والسياسي وتنفيذه، وبعبارة أُخرى يوحون بذلك إلى الناس ليذّلوهم ويجرّدوهم من إرادتهم.

ومن البديهي أنّه لا يتجرأ أحد على الوقوف أمام هذا المنطق، منطق التزوير

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٥٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٥.

٢. راجع تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٥٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٧؛ الارشاد، ج ٢، ص ١٢٠.

والترهيب، وإلّا فليس العقل السليم فقط يردّ هذا الادّعاء الفارغ، بل حتى القرآن الكريم أيضاً ـ الذي جعله أمثال يزيد وسيلةً لتبرير سياستهم ـ يقول في رد ادّعائهم الأول: ﴿تلك الأيام نداولها بين الناس﴾[١] وفي رد ادّعائهم الثاني: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيٰمة لا ينصرون﴾[٢]، أي أنّا قدّرنا أن يصبح بعض الخبثاء أيضاً أصحاب قدرة وسلطة وبذلك يَسقطون هم ويُسقطون من اتبعهم في نار جهنم.

ولا يقتصر هذا الادعاء على يزيد فحسب، بل هو ادّعاء جميع الحكام الظالمين، إذ يسوّغون أعمالهم بأنّها حق وإرادتهم بأنّها إرادة الله، ولذلك فكل من يقوم بمخالفتهم ويعترض عليهم فإنّه يستحق العقاب، عبيدالله بن زياد مصداق آخر لهؤلاء الحكام الجائرين، فمع أنّه كيزيد اعتبر فاجعة كربلاء عاراً وُصم به إلّا أنّه مع ذلك قال لتسويغ جريمته لقتل ابن الحسين عليه السلام ـ عليّ الأكبر ـ: «إنّ الله قتله»[٣]، أي أنّنا لم نقتله ولكنّ الله قتله ونحن وسيلة لتنفيذ إرادة الله.

وكذلك عمر بن سعد، الذي قاتل الحسين عليه السلام وقاد الجيوش ضده، وبذلك اختار جهنم على الجنة باعترافه، ولكنّه في الوقت نفسه يصفُ نفسه بأنّه مأمور من قِبل الله، ويقول لجيشه بوقاحة: «يا خيل الله اركبي وبالجنة أبشري»[٤].

هذه نماذج ومصاديق لتظاهر الحزب الأموي بالإسلام، والتي تتكرر في كل زمان ومكان. ومن الواضح أنّ هذه الظواهر الخداعة لم تعبّد الطريق إلى قتل الحسين عليه السلام أمام الرأي العام، خاصة السذج الحمقى فحسب، بل إنّها وجّهت ضربة قاصمة إلى الإسلام نفسه، وجعلته وسيلة وآلة بأيدي الفاسدين. وأحد الشواهد على هذا الوضع المزري هو ما ذكره الباحثون المتعصبون حيال المسألة، من قبيل الكاتب المصري محمد الخضري، فإنّه لم يلتفت إلى الحقائق الكبرىٰ لتاريخ صدر الإسلام وحتى لم يلتفت إلى الاعترافات المثيرة لهؤلاء المجرمين والتي مرت

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٤٠.
٢. سورة آل عمران، الآية ١٤٠.
٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٣٥٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٢؛ الارشاد، ج ٢، ص ١١٦.
٤. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١٥؛ الارشاد، ج ٢، ص ٨٩.

الإشارة إلى بعضها، وكأنّه ينظر فقط إلى بعض الظواهر الخادعة التي تقدمت آنفاً، فيقول ما مضمونه: إنّ الحكومة الأموية كانت حكومة إسلامية والحسين بن عليّ قد أخطأ في الثورة ضدها، وبذلك قُتل لأنّه وقف أمام الحق.

وسوف ندرس رأي الخضري هذا في الفصل الثالث، ولكن هنا فيما يرتبط ببحثنا، نشير إلى أنّ كل إنسان حتى لو كان قليل الإحساس يفهم جيّداً أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت ضرورية حتى مع وجود هذه الظواهر الخادعة ليزيد والمرتزقة الذين يحيطون به، وذلك بهدف تحرير الإسلام من أباطيل هؤلاء المنحرفين، برغم تقنعهم بالظواهر الإسلامية المثيرة للسخرية، إذ لو لم تكن نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فبالتأكيد كانت أكثرية المسلمين والأجيال اللاحقة سيصنّفون يزيد ـ بسبب هذه الظواهر الخادعة ـ ضمن رجالات الإسلام، ويرون ـ كالخضري ـ الإسلام من خلال سلوكيات يزيد وأعوانه وأعمالهم وأقوالهم، وهذا أكبر خطرٍ على الإسلام، بل إنّه يعني فناء الإسلام واندثاره، ومع الإحساس بهذا الخطر قام الإمام الحسين عليه السلام بنهضته ضد حكومة يزيد، وقال لتثوير المسلمين ضد هذه الحكومة الغاشمة: «... فعلى الإسلام السلام إذ بليت الأمة براعٍ مثل يزيد»[1].

الميزة الكبيرة للحسين عليه السلام وأنصاره

كان الحديث منذ بداية هذا الفصل يدور حول الحكومة الأموية وحزبها الحاكم ـ ولا سيما بعد أن أصبحا تحت قيادة يزيد ـ وكشف خططها ووسائلها وآثارها السيّئة في المجتمع الإسلامي، وهنا يدور البحث حول الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الذين سلكوا طريق الإمام عليّ عليه السلام، وكانوا يشكّلون القطب المناهض للحكومة الأموية. ومن البديهي أنّ دراسة جميع المواصفات الإسلامية والإنسانية والاجتماعية لهؤلاء تحتاج إلى ما هو أوسع من هذه الصفحات . ولكن نشير هنا إلى أهمّ خصيصة ينبع منها سلوكهم الحسيني الايماني، هذا رغم أنّه سيتضح إجمالاً في تفاصيل البحث

١. المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ١٨٤؛ اللهوف، ص ١٨.

سائر المواصفات والخلال الحميدة لهم أيضاً.

تتمثل هذه الخصيصة في التمسك الشديد للإمام الحسين وأصحابه بالحقّ، ممّا جعلهم مجاهدين في سبيله. وفي الواقع كما أنّ أبرز خصيصة للإمام عليّ عليه السلام هو سعيه ـ بكل قوّته ـ إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وقد جاهد في هذا الطريق المشركين في زمن النبي صلى الله عليه وآله والمنحرفين والمنافقين في أيام خلافته، فكذلك الحال في خصائص الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وبشكل عام في أتباع أهل البيت، فإنّهم أيضاً كانوا يصرّون على الدفاع عن الحق ومحاربة الباطل والتضحية في هذا السبيل بكل غالٍ ونفيس.

والجذور الفكرية والمعرفية لهذه الصفة لأتباع أهل البيت، والمتمثلة في وقوفهم ضد الظالمين والمنحرفين وجهادهم ضد حكّام الجور، تعود إلى أنّهم يرون في العدالة أساساً للدين والحياة، وأنّها ضرورة كبرى بالنسبة لله والفرد، وخاصة النظام الحاكم وعناصره، وبما أنّ جهاد حكام الجور يهيّيء الأرضية اللازمة لتحقيق العدالة، فلذلك يرى أتباع أهل البيت عليهم السلام أنّ الجهاد للقضاء على حكام الجور ضروري أيضاً كضرورة العدالة نفسها، والحاصل أنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام يرون تلازم هذين الأساسين: (العدالة) و(الجهاد).

النقطة الأُخرىٰ هي أنّ (الجهاد) في نظر الإسلام مسؤولية غير محدودة بحدود، بل تسير مع العدالة جنباً إلى جنب. وبما أنّ العدالة لابدّ أن تستوعب كل الجهات والجوانب في المجتمع البشري، فكذلك الجهاد أيضاً يجد له ميداناً واسعاً بحيث يتناول كل جوانب الإصلاح في المجتمع البشري. وعلى هذا الأساس فالجهاد ليس عملاً حسناً فحسب، بل هو أرضية لازمة لجميع الأعمال الحسنة، بل هو قاعدة متماسكة لجميعها، ولهذا السبب يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخير كلّه في السيف وتحت ظل السيف...»[1]. وهذا كناية عن أنّ كل توفيق وخير في المجتمع يقوم على أساس الجهاد الإعلامي أو العسكري أو السياسي، وبدونه لا يقع تحول ايجابي مطلوب في

١. فروع الكافي، كتاب الجهاد، الباب الأول الحديث الاول ؛ المبسوط، ج ٢٨، ص ٦٩.

المجتمع أصلاً.

وبهذه الخصيصة، أي الجهاد، يجب أن نعرف الحسين عليه السلام وأصحابه الذين هم قدوة أتباع أهل البيت عليهم السلام، ومن أجل ذلك تجب أوّلاً معرفة الجهاد نفسه بصورة صحيحة، وبما أنّ معرفة الجهاد بجميع أبعاده الثقافية والسياسية والتاريخية عمل كبير تجب دراسته في كتاب مستقل، فلذلك نشير هنا إلى أربعة جوانب فقط لمسألة الجهاد، وهي التي ترتبط أكثر بثورة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وهي معرفة ماهية الجهاد وأهميته، وهدف الجهاد وشروطه. وسنبحث الجانب الأول والثاني فيما تبقى من هذا الفصل، وسنحيل الحديث عن الجانبين الثالث والرابع إلى الفصل القادم.

واجبان متلازمان

ومن أجل معرفة ماهيّة الجهاد وأهميته، يجب قبل كل شيء أن نتوجه إلى القرآن الكريم الذي هو أصل الإسلام، فمن خلال آيات القرآن يتضح جيّداً أنّ الجهاد ـ على عكس ما يتوهم البسطاء ـ لا ينحصر بقتال المشركين فقط، بل يشتمل على جهاد كل الفئات الفاسدة والحكومات الضالة والأهواء المنحرفة. والخلاصة أنّه يشتمل على مناهضة جميع مظاهر الفساد والظلم، بل من خلال التدبر في الآيات القرآنية يتضح أنّ ماهيّة الجهاد هي مواجهة الظلم، وأنّ مواجهة الشرك هي من مصاديقه أيضاً، بدليل أنّ الله تعالى يقول: ﴿لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[1].

ومن هنا يتبيّن أنّ الهدف الأساس في جميع أنواع الجهاد الإلهي هو إزالة أساس الظلم والانحراف، سواءٌ في ميدان العقيدة أو في ميدان العمل، وبناء صرح الحق والعدالة في كل مجال من مجالات الحياة الباطنية والظاهرية، وفي ظل هذا الهدف الأساس نجد أنّ الإسلام ـ من جهة ـ يوجب جهاد المشركين، أي المنحرفين في

---

١. سورة لقمان، الآية ١٣.

مجال العقيدة والفكر، ويقول: ﴿و قاتلوا المشركين﴾[١]، و ـ من جهة أُخرى ـ يوجب جهاد الفاسدين، أي المنحرفين في مجال العمل، ويقول: ﴿فقاتلوا التي تبغي﴾[٢].

فالإسلام بالأمر الأول يحقق أساس التوحيد ويقيم دين الحق عليه. وبالأمر الثاني يحقّق نظام العدالة ويشيّد أركان حكومة الحق عليه، والملاحظة اللافتة للنظر هنا أنّ الإسلام يرى أنّ هذين الواجبين متلازمان، ولذا نسمع الإمام الحسين في خطابه الثوري ينقل حديثاً عن رسول اللهﷺ ويقول: «ألا من رأىٰ سلطاناً جائراً مستحلّاً لمحارم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسولهﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله ...»[٣]، أي أنّ من لم يجاهد السلطان الجائر ـ والظالم بشكل عام ـ لا يعدّ مسلماً في الحقيقة، وهذا يعني أنّ الجهاد هو الوجه الآخر للايمان الحقيقي.

علاقة الجهاد بالإيمان

إنّ أية ظاهرة تبرز من خلال قوتين (جاذبة) و(طاردة)، فمثلاً من خلال التقاء شحنتين كهربائيتين ـ سالبة وموجبة ـ يتولد النور، ومن خلال تركيب عاملين: الفعل وردّ الفعل، تقوم الحياة وتثمر، وبتناسق الإلكترونات والبروتونات وشحناتهما الموجبة والسالبة، يستقيم نظام الذرّة، فكذلك نظام التشريع حاله حال نظام التكوين، أي أنّ (النظام التشريعي) مثل (النظام التكويني) يقوم على أساس بعدين: موجب وسالب، فالبعد الموجب هو الإيمان بالله والحق والعدالة، والذي يؤدي بالإنسان إلى الصراط المستقيم. أمّا البعد السالب فهو الجهاد الذي يعتبر حارساً ودرعاً للإيمان، ويزيل الموانع عن طريقه بكل وسيلة مثمرة، حتى لو أدّت إلى القتال. ومن الطبيعي أنّه لولا وجود المدافع والحارس، أي لولا الجهاد والدفاع عن الايمان والإسلام، سيحلّ مكانه الإستسلام والذلة والخنوع، وحينها يتعرض أساس

١. سورة التوبة، الآية ٣٦. ٢. سورة الحجرات، الآية ٩.

٣. تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٣٠٤؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٨؛ المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ٢٣٤.

الإسلام والإيمان لخطر الفناء. ولذلك فإنّ مفردة الجهاد وما يشبهها من حيث المضمون قد ذكرت في القرآن أكثر من سائر المفردات بعد مفردة (الله)، والسر في هذا هو أنّ الجهاد درع يحمي الإيمان بالله والحق والعدالة ومنشاء كل أعمال الخير والصلاح للدنيا والآخرة.

والملاحظة الهامة هي أنّ اقتران الإيمان والجهاد ـ أي إثبات الله وشريعته ونفي كل ما هو ضدّه ـ يتجسّد حتى في كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله) التي هي محور الدين وأساسه، إضافة إلى اقترانهما في بعض الروايات أيضاً كرواية: «هل الإيمان إلّا الحبّ والبغض»[1] أي أنّ الدين يتشكل من أمرين: الأول: الولاية لله وللمؤمنين، الثاني: البراءة فكريّاً وعمليّاً من أعداء الله، أي المشركين والمنحرفين والظالمين.

فنحن نرى في كلمة التوحيد وفي هذه الروايات الشريفة أنّها تحثّ ـ من جهة ـ على التعبد لله وهو الحق، و ـ من جهة أُخرى ـ تنفي وترفض كل سلوك يخالف طريق الله وهو الباطل، سواء كان هذا السلوك الباطل من أجل الأصنام والأوثان الحجرية مثلاً، أو من أجل القوى الفاسدة والحكومات الظالمة التي نصبت نفسها ـ في الحقيقة ـ أرباباً من دون الله. واللافت للنظر أنّ القرآن الكريم يهتم بالدعوة إلى التحرز من الأرباب والظالمين بل يهتم بجهادهم أكثر من تحرز الأصنام، بل يتبيّن من بعض الآيات من قبيل آية ﴿إنّما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾[2] أنّ الأصنام كانت في الحقيقة صنيعة الأرباب وذوي القدرات الظالمة والشيطانية وأدوات بأيديهم، لتعزيز سلطانهم في المجتمع، وليمتصوا بواسطتها خيرات الناس أكثر، وهذا يعني في نظر الإسلام أنّ أرباب الثروة والقوة والدجل يمثّلون البُنىٰ التحتية للأصنام، وبتعبير آخر أنّ القدرات الاستعمارية هي مركز الشرك ومنشأ الانحراف.

وبسبب عدم تفكيك الإيمان عن الجهاد في سبيل الله والحق والعدالة، يقول

---

١. الكافي، ج٢، ص١٢٥؛ تفسير الفرات، ص ٤٣٠.. ٢. سورة العنكبوت، الآية ٢٥.

الإمام عليّ عليه السلام عن جهاده المتمردين كطلحة والزبير وعائشة ومعاوية: «فما وجدتني يسعني إلّا الجهاد معهم أو الجحود بما جاء به محمد»[1]. والأهم من ذلك أنّه يقول حتى بالنسبة إلى أصحابه المتخاذلين عنه في حربه ضد قوىٰ الانحراف: «لوددت والله أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منّي عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم»[2] يعني أنّه بالرّغم من أنّ أتباع معاوية ضالين، ولكنّهم يتفوقون عليكم يا من تدّعون أنّكم أتباعي، لأنّكم قصّرتم في الجهاد وهو الأهم، حتى وإن كنتم أكثر منهم جديّةً في الصلاة والصوم وأمثالهما.

علاقة الجهاد بالحياة

والجهاد لا يرتبط بالإيمان فحسب، بل إنّه يرتبط ـ أيضاً ـ بالحياة الكريمة ارتباطاً عميقاً، غاية الأمر أنّ ارتباط الجهاد بالإيمان يتمثل في أنّه يقتبس منه، ولكنّ ارتباط الجهاد بالحياة يتمثل في أنّ الحياة الكريمة هي التي تقتبس منه. وفي الواقع أنّ الجهاد يمثل حلقة الربط بين الإيمان والحياة، فهو ـ من جهة ـ يسترفد من الإيمان، ومن جهة أخرىٰ ـ يسقي الحياة ويضفي عليها رونقاً وازدهاراً. ومعنى هذا أنّ الإسلام الحقيقي يبنى على قاعدةٍ ذات ثلاثة أركان: الإيمان والجهاد والحياة، أو الجاذبية والحركة والنموّ، أو التعرّف والتضحية والخلود، وبتعبير آخر يجعل الحياة الحقيقية تقف على ركيزتين: المعرفة، والحركة، وقد نُقل عن الامام علي والامام الحسين عليه السلام عبارات رائعة سنشير إلى بعضها، مضمونها: (إنّما الحياة عقيدة وجهاد)[3] أي أنّ الحياة الإنسانية الكريمة تتحقق وتزدهر وتثمر من خلال قطبين جاذب وطارد، وهما الإيمان والجهاد أو المعرفة الصحيحة والحركة الصحيحة.

وهنا تتضح ملاحظة أساسية، وهي أنّ الإسلام في هذا العالم المتضاد المليء

١. شرح النهج، ج ٤، ص٦.
٢. شرح النهج، ج٧، ص ٧٠.
٣. تاريخ الحسين للعلائلي ص١٠٣.

بالحسنات والسيئات والخير والشر، أقرّ الجهاد لا على أساس أنه أسلوب طاريء ووظيفة محدودة فحسب، بل على أساس أنها سنّة من سنن الطبيعة العامة والدائمة. ومن هنا فإنّ الإسلام الأصيل يعتبر المسلم الواقعي هو الذي يجاهد ويكافح الشر والأشرار دائماً، لكي يصون حياته من جميع الآفات والبلايا التي تستهدفه من كل ناحية وباشكال مختلفة.

ومن خلال هذه الحقيقة، التي تحتاج إلى شرحٍ طويل، يتبين أنّه كما أنّ الجهاد وسيلة حياتية لتنمية حياة الإنسان الكريمة، كذلك فإنّ موجبات الجهاد أي الشرور والأشرار هي ـ أيضاً ـ ضرورية، وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، وممّا يؤيّد هذا الأمر قول القرآن الكريم: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾[١] و ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد﴾[٢]، أي أنّ الحرب ضد الشرور والأشرار ووجودهم ـ على خلاف التصور الساذج ـ ضرورية لسمو الإنسان واستمرار حياته.

الشهيد حيٌّ ومنتصر

في ضوء الحقائق المذكورة، بيّن الإمام عليّ عليه السلام حقيقة الموت والحياة وارتباطهما بالجهاد، في جملة عميقة المغزىٰ، تكمن فيها روح المعارف الإسلامية وكيان فكر أهل البيت عليهم السلام، وتتضمن سر تكامل الإنسان وسموه، وهي عبارة ملكوتية تفيض بالحيوية والحركة ولا نجد لها نظيراً في قاموس الثقافة البشرية، وهي قوله عليه السلام:

«الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»[٣].

كلام عليّ عليه السلام هذا عظيم كعليّ نفسه، وأكبر من أن يفهمه الماديون الذين يعيشون سطحية الحياة، وكيف يمكنهم أن يفهموا ـ بصورة ـ حقيقية ـ أنّ الشخص الذي

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٥١.
٢. سورة الحج، الآية ٤٠.
٣. شرح النهج، ج٣، ص٢٤٤.

يذهب إلى ميدان الجهاد ضد الظالمين ويستشهد في سبيل ذلك، فإنّه حي ومنتصر في الوقت نفسه، ولكنّ الإمام عليّاً عليه السلام الذي أدرك حقيقة الحياة ونفذ في أعماق معاني الشهادة، وشهد حقيقة الموت والحياة ولمس ذلك، ينبه الناس إلى أنّ: الموت في الحقيقة هو شيءٌ آخر غير ما تصوروه والحياة كذلك شيءٌ آخر غير ما يظنون، فالموت الحقيقي هو أن تقبل بالذل تحت نير الظالمين حتى وإن كنت في رفاهيّة مادية ودعة، بينما تكمن الحياة الحقيقيّة في طريق الدفاع عن الحقوق الإنسانية وجهاد الظالمين، حتى وإن بلغ الأمر بالإنسان إلى القتل والشهادة.

وسنذكر في الفصل الخامس جذور هذا الكلام العلوي الإيماني السامي وآثاره، وهو كلام ينطلق من منطق خاص واستثنائي. وهنا نشير إلى جانبٍ من حكمته وفلسفته، وطبعاً نذكر ذلك للذين يرون أنّ حياة الإنسان تكمن في روحه، لا لمن يرى أنّ حياة الإنسان تنحصر في جسده، وأنّه يموت تماماً حين يقتل وتقطع شرايينه ويسفك دمه. إنّ الحديث مع هؤلاء الأشخاص يجب أن يكون من ألف باء المعارف الدينية.

إنّ أحد أهداف وغايات كلام الإمام عليّ عليه السلام هنا، هو أنّ الظالم والحاكم الجائر يريد أن يأسر روح الإنسان بمخالب ظلمه ويجبره على التسليم والخنوع، وهذا ـ في الحقيقة ـ هو موته الحقيقي، ولكنّ الإنسان المجاهد الذي يقاوم هذا الظلم ويقف أمام الظالم فهو:

أوّلاً: يحفظ روحه من كابوس الذل ويتحرك في طريق الرقي الإنساني. ثانياً: يلقي بالظالم في نار الفشل والهمّ. ثالثاً: يكسر من هيمنة الظالم وشوكته أمام الناس، ويمهد الأرضية لسقوطه. وعلى هذا فإنّ الإنسان الطالب للعدالة والمضحّي في سبيل الحق منتصر في الوقت نفسه، وإن غُلب في الظاهر أو قُتل، بينما الظالم الجائر مهزوم في الوقت الذي يرى نفسه منتصراً في الظاهر.

والشاهد على هذا المطلب هو عبيدالله بن زياد، الجلاد الذي كان في ذورة قوته،

حين سأل من رسوله إلى الحسينعليه السلام عن جواب كتابه، فقال رسوله: «إنّ الحسين ألقى بكتابك أرضاً وقال هذا جوابه». والشواهد التاريخية تقول إنّ موقف الحسين هذا قد أشعل قلب عبيدالله وكأنّه كان يحترق في النار من ذلك[١]، ومن الطبيعي أنّ مثل هذه الضربات الماحقة الشجاعة عرّضت مكانة عبيد الله وأمثاله في المجتمع أيضاً إلى المهانة والسقوط وجرّأت الناس عليه، وبالتالي هيأت الأرضية اللازمة لنهايته، وبالرغم من أنّ عبيد الله وأمثاله قاموا بردّ فعلٍ شديدٍ تجاه هذه الضربات، من قبيل منع الماء عن الحسينعليه السلام و رض صدره بالخيول وأمثال ذلك، ولكنّهم في الوقت نفسه يشعرون ـ أمام تلك المقاومة من قِبل رجال الحق والفضيلة ـ بألم نفسي شديد. ومن جهة أخرىٰ يتعرّضون لاعتراض الناس ومناهضتهم المتصاعدة، برغم احتفالهم بالنصر الظاهري، وحتى التظاهر بالنجاح والسعادة، بل والعربدة له.

ومن أجل توضيح هذا الموضوع الذي له دور مهم في تقييم الثورات الحسينية ضد اليزيديين وأعمالهم، يجب الالتفات إلى أنّ هوية كل شخص ـ في الحقيقة ـ هي ما يميل إليه ويعشقه بقلبه، مثلاً إنّ هوية الرأسمالي الطالب للدنيا هي ثروته، فلو أنّها زالت فستزول شخصيته تماماً، حتى لو بقي جسده حيّاً. وشخصية الحاكم سلطته، فإذا تعرّض إلى الإهانة، وخاصّةً من قبل الشخصيات المهمة والمحترمة في المجتمع، ففي الحقيقة فإنّ شخصيته سوف تنهار وتسحق حتى لو بقي متربعاً على عرشه وسرير ملكه، وهكذا نجد أنّ الدور الأساس للإنسان الساعي إلى الحق والمضحّي في سبيله يتمثل في التصدّى للظالم، وبذلك يتمكّن بوقوفه العادل والشريف من إلحاق الهزيمة بمكانة الظالم التي يقوم عليها أساس فطرسته وجبروته، وإن ظل شخصه باقياً بشكله المادي، إذ إنّ المجاهد العادل قد تمكّن من تحطيم شخصيته أمام الناس وأظهر حقارته وذلّه، وبذلك استطاع أن يعرّض الظالم وكل ما يرتبط به إلى السقوط والانهيار معنوياً وبالتالي ظاهرياً أيضاً.

---

١. المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ٢٣٩؛ بحار الانوار، ج ٤٤، ص ٣٨٣.

منطق الحسين عليه السلام

وعلى كل حال، إنّ محور كلام الإمام عليّ عليه السلام يتمثل في أنّ الموت الحقيقي هو أن يعيش الإنسان تحت مظلّة المستكبرين، والحياة الحقيقية تكمن في ظلّ الجهاد ضدهم، وكذلك نجد أنّ الإمام الحسين عليه السلام نسخة طبق الأصل عن الإمام عليّ عليه السلام، إذ يقول: «إنّي لا أرىٰ الموت إلّا سعادة ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً»[1].

هتاف الإمام الحسين عليه السلام هذا يشكّل أساس الخطب والرسائل الثورية له ويثبت بذلك إنسجامه الكامل مع خط الإمام عليّ عليه السلام وأنّ ثورته تنهل من نبع أبيه. وفي الوقت نفسه فإنّ ظروف الإمام الحسين عليه السلام حين أطلق شعاره المذكور تختلف عن ظروف الإمام عليّ عليه السلام في صفين اختلافاً كبيراً، بحيث أنّه يعطي لكلام الإمام الحسين أهمية أكثر، وذلك لأنّ الإمام عليّاً عليه السلام حينما قال ذلك الكلام في صفّين، كان معه أكثر من مئة ألف جندي لقتال معاوية، الذي كانت إمكاناته العسكرية أقل من الإمام، ولكنّ الإمام الحسين عليه السلام حينما قال كلامه هذا قبيل معركة كربلاء، كان عدد أنصاره أقلّ من مئة شخص كانوا مستعدين لقتال نظام مدجج بالسلاح ودولة قوية استوعبت العالم تقريباً، ولا يوجد أيّ جيش بإمكانه مواجهتها.

والنقطة الثانية في كلام الإمام الحسين عليه السلام والتي تبيّن أهمية ذلك الكلام أكثر هو قوله: ليس الاستسلام في مقابل الظالم موتاً فقط، بل إنّ الحياة مع الظالم حتى بشكل المصالحة معه ـ طواعية ـ هو موت أيضاً، فمنطق الحسين عليه السلام يؤكّد أنّه على فرض أنّ الحكومة الظالمة اليزيدية تقوم بتكريمي، فمع ذلك أشعر بأنّ العيش مع الظالمين بأيّ شكل كان، ينوء بالذل والعار، فيجب على الإنسان المؤمن إزالة هذا العار عن وجوده مهما أمكن، ولا يقبله طواعية علىٰ الإطلاق، يعني أنّ الأساس في الإسلام هو أنّ التسليم في مقابل الظالم حرام، وكذلك المصالحة والخنوع للظالم حرام، وكذلك التعايش معه حرام، وكذلك السكوت عن ظلمه حرام، فهذه كلّها

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٥؛ تحف العقول، ص ٢٤٥.

ممنوعة في دائرة المنطق الحسيني والإسلام الحقيقي، ما لم يجب بأمر أهم، فهل من العجيب على صاحب هذا المنطق المميز القوي، حين يرى الإسلام معرّضاً للخطر في حال استسلامه للظالمين، أن يختار الموت الشريف على الحياة الذليلة. وفي هذه الملحمة التاريخية نجد الإمام الحسين عليه السلام يترنّم بهذه الكلمات التي هي منهج رجال الحق جميعاً ويقول ناطقاً باسمه و باسمهم:

«... ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين السلة والذلة، وهيهات منّا الذلّة، يأبىٰ الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوفٌ حميّة ونفوسٌ أبيّة، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[1].

ثلاثة نماذج من ثلاث مراحل

ومن الواضح أنّ منبع هذه الأفكار العميقة وهذه الشهامة الكبرىٰ، هو الإيمان الصادق الذي تقبله رجال الله بقلوبهم وأرواحهم، وتحرّروا بذلك من القيود المادية والدنيوية وارتبطوا بالحياة الخالدة، فقادهم هذا الإيمان إلى التضحية في سبيل الحق بكامل حريتهم وارادتهم. وهذا الإيمان العميق نشاهده بوضوح في جميع مراحل حياة الإمام الحسين عليه السلام وسلوك أصحابه، ومن أجل الاختصار نذكر ثلاثة نماذج فقط، ترتبط بثلاث مراحل تمهيدية ووسطى ونهائية من نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وهذه النماذج الثلاثة توضّح عمق ايمان الإمام الحسين عليه السلام حتى في مواجهته لأخطر الصعاب والشدائد، وتبيّن أهم معالم نهضة الإمام الحسين عليه السلام، أهمّها هو أنّ الحسين عليه السلام، على خلاف تصور بعض السطحيين ـ كان ثابتاً على خطه وطريقه منذ الخطوة الأُولىٰ وحتى الأخيرة، ولم يتغير في مبدأ مواجهته لحكومة يزيد في جميع المراحل أبداً، وإن اختلفت صور مواجهته لها أحياناً.

---

١. تحف العقول، ص ٢٤١؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٣؛ اللهوف، ص ٥٩؛ المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٧؛ الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٤.

النموذج الأول: في الطريق بين مكة والمدينة حيث كان هذا الطريق الأصلي يراقَب من قبل السلطات الأموية، حتى إنّ بعض الناس ـ كابن الزبير ـ اقترح عليه أن يسلك الطريق الفرعي ليتجنب خطر الأعداء، فرفض الإمام الحسين عليه السلام ذلك وقال متوكلاً على الله تعالى: «والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو أحب إليه»[١]، أي لا أُفارق الطريق الأصلي ولا أتحوّل إلى غيره من الطرق الفرعية، وإنّي في سلوكي سبيل الحق والجهاد، مستعد لكلّ ما يريد الله بي، ولو كان هو الحتف.

النموذج الثاني: ما حدث من لقاء المسافرين القادمين من الكوفة بالإمام الحسين عليه السلام وقولهم له: «إنّهم قد أجمعوا على حربك فَرَ رأيك»، ولكن حتى بالنظر للظروف الخطيرة هذه، قال الحسين عليه السلام بالاعتماد على المشيئة الإلهية: «حسبي الله ونعم الوكيل»[٢].

ولم يكن هذا الشموخ والمقاومة منحصراً بالإمام الحسين عليه السلام، أي أنّها ليست خصيصة فردية وسمة شخصية، بل لعلها تُرى في كل إنسان مؤمن عميق الايمان، ولذلك يذكر القرآن الكريم هذه العلامة للمؤمنين الحقيقيين كافّة: ﴿الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[٣].

النموذج الثالث: وهو أهم من النموذجين السابقين ويرتبط بليلة ويوم عاشوراء بعد أن تيقن الإمام الحسين عليه السلام أنّه مقتول، ونعلم أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو بقية رسول الله صلى الله عليه وآله ويحظى باحترام وإجلال المسلمين، وباعتراف الجميع ـ وحتى المعارضين أمثال معاوية وعمرو بن العاص الذين سبق كلامهما ـ فإنّه كان يعدّ أكبر شخصية في العالم الإسلامي، ومع ذلك فالحسين الذي كان يرى أنّ الخلافة حق أبيه وأهله، حتى إنّه قال في صباه للخليفة الثاني (عمر): «إنزل عن منبر أبي»[٤]،

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٦٠؛ الارشاد، ج ٢، ص ٣٥.
٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١٧.
٣. سورة آل عمران، الآية ١٧٣.
٤. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٧٥ و ١٧٦؛ المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٤٠.

يشاهد (معاوية) ومن هو أفسد منه (يزيد) يسيطر على دفّة الخلافة، من خلال سفك دماء الآلاف من المسلمين والعمل على زيادة الإرهاب والإفساد في المجتمع الإسلامي. والأنكى من ذلك أنّه‌ؑ يرى أنّ الحكومة الأموية التي تدّعي الإسلام وحفظ مصالح المسلمين، تحاصر أهل بيت النبي نساءً وأطفالاً في صحراء محرقة، وتمنع عنهم كل شيء حتى الماء، وتعرّضهم لأشد الضغوط والإرهاب. ويرى أيضاً أنّه بعد ساعات معدودة سيكون عرضة للسيوف والسهام، وسيُسفك دمه الطاهر، وسيعرّض حرمه إلى السبي والأسر، وخيامه إلى الحرق بالنار، فمع كل ذلك الذي لا يمكن وصفه بالكلمات ـ وطبعاً كانت أصعب الساعات وأشدها على الحسين‌ؑ وأصحابه، وهي الساعات التي لم تمرّ بخصوصياتها الكثيرة المحرقة جدّاً على أيّ واحد من البشر ـ نجد الحسين‌ؑ يقف بكل طمأنينة وعزم في تلك الليلة التاريخية، فيحمد الله ويثني عليه ويذم الدنيا المليئة بالظلم والجور، ويقول: «أُثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السرّاء والضرّاء، اَللّهم إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأفئدة، فاجعلنا من الشاكرين»[١].

وفي يوم عاشوراء المهيب أيضاً نرى الإمام الحسين‌ؑ يهجم ـ كالأسد ـ على جيش العدوّ، وهو يرى أجساد أكثر من خمسين من أصحابه وإثنين من أولاده وخمسة من إخوته وإثنين من أولاد أخيه وتسعة من أبناء عمومته، يراهم مضرّجين بالدماء في تلك الصحراء وعلى مرآى ملائكة السماء وأمام الأجيال البشرية. كل ذلك يحكي عن دور الإيمان بالله في الجهاد في سبيل الحق ومواجهة القوى والحكومات الجائرة.

وهكذا نجد الحسين‌ؑ برغم شدة العطش والجوع والسهر والآلام الكثيرة وخاصة بعد فقد أحبائه وأعزّائه والوثوق بأسر حرمه بيد الأعداء، نجده يستمر في قتال الأعداء الذين تجمّعوا عليه أُلوفاً مؤلّفة، وبقي يجاهدهم إلى آخر لحظة من

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣١٧؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٥٧؛ الارشاد، ج ٢، ص ٩١.

عمره الشريف مع إصابته بمئات الجراح، وأخيراً هوىٰ على الأرض وهو يقول: «باسم الله وبالله وعلى ملة رسول‌الله».[١] أي كل ما أصابني فهو من الله ولله وإلى الله.

وهذه الحالة الفريدة هي ذورة تسامي الإنسان في الله، أو هي ذروة تجلّي الله في الإنسان، حيث تفنىٰ ذاته وغير ذاته ولا يرى سوىٰ الله تعالى إسمه، فيقول عن إدراك عميق (وحده لا إله إلّا هو).

كربلاء معجزة في التنفيذ

الإسلام معجزة في تعاليمه الروحانية وإرشاداته المعنوية والإنسانية، إذ فتح للبشرية آفاقاً فكرية وضّاءة فاقت تفكيرهم، وجرّدها من حدود الجوانب المادية وأوصلها إلى بحر المعنويات والعوالم الروحية، وبكلمة واحدة فإن الإسلام أنشأ البشرية نشأة إلهية، بحيث جعل أبناءها العارفين يستقبلون الموت في ميدان القتال مع الظالمين، ويرونه أعظم فضيلة ودرجة وطريقاً للسعادة الأبدية، ولكن إذا كان الإسلام معجزة في ذلك، فإنّ ما حدث في كربلاء معجزة أيضاً. غاية الأمر أن معجزة الإسلام هي معجزة من السماء إلى الأرض، وكما يصطلح عليه أنّها قوس النزول ولكنّ كربلاء معجزة انطلقت من الأرض إلى السماء، أي قوس الصعود، فكلاهما معجزة، فأحداهما معجزة في التخطيط، بيّنت أنّ الحياة الإنسانية الشريفة تكمن في الجهاد في سبيل الله والإنسانية والحق والعدالة والشرف والفضيلة: والثانية معجزة تنفيذية وتطبيقية لأبطال كربلاء في سبيل الدفاع عن المقدسات المذكورة ومواجهة القوى الفاسدة والظالمة إلى حد أنّهم ـ أبطال كربلاء ـ ضحّوا بكل شيء في هذا السبيل.

والجميع يعتقدون بأن كربلاء هي أكبر ملحمة في جهاد الحق ضد الباطل، وأنّ أبطال كربلاء هم أعظم الشخصيات التي دافعت عن العدالة والحرية، وخاصة الإمام

---

١. المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٣٤؛ اللهوف، ص ٧١.

الحسين عليه السلام الذي يعتبر أسمى نموذج للتضحية والفداء والشهامة.

وهذا عبدالله بن عمّار أحد أفراد جيش عمر بن سعد في كربلاء، يقول عن شهامة الإمام الحسين عليه السلام وشجاعته الفريدة التي شاهدها بعينه: «فوالله ما رأيت مكثوراً قطّ قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً منه ولا أجرأ مقدماً، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله»[1].

ويتحدث ابن أبي الحديد أيضاً عن شجاعة الحسين عليه السلام النابعة من ايمانه ويصفها بأنّها أرفع وأسمىٰ نموذج تاريخي للإنسان الشريف والشجاع، فيقول: «سيد أهل الإباء الذي علّم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنيّة أبو عبدالله الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[2].

وفي المجال نفسه يقول المفكر المصري عباس محمود العقّاد، ونعم ما قال: «... وقد تناهت هذه المناقب إلى مداها الأعلى في نفس قائدهم الكريم، يخيّل إلى الناظر في أعماله بكربلاء أنّ خلائقه الشريفة كانت في سباق بينها أيّها يظفر بفخار اليوم، فلا يُدرى أكان في شجاعته أشجع، أم في صبره أصبر، أم في كرمه أكرم، أم في ايمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغاً من تلك المناقب المثلى أقصىٰ مداه ... إلّا أنّه كان يوم الشجاعة لا مراء، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التي تمدّ سائرها بروافد من كل خُلق نبيل يعينها على شأنها. فكان الحسين عليه السلام ـ شبل عليّ عليه السلام ـ في شجاعته الروحية والبدنية معاً غاية الغايات، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان في أبناء آدم وحواء...

ملك جأشه ... وكل شيء مِن حوله يوهن الجأش، ويحلّ عقدة الحزم، ويغري بالدعة والمجاراة.

ملك جأشه ومَن حوله مِن نسائه وأبنائه في نضارة العمر، يجوعون ويظمأون،

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٤٥؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٧٧؛ الارشاد، ج٢، ص١١١.

٢. شرح النهج، ج٣، ص٢٤٩.

ويتشبثون به ويبكون.

وملك جأشه روية وأناة ولم يملكه وثبة واثب إلى الغضب أو هيّجه مهتاج إلى الوغىٰ، فكان قبل القتال وفي حومة القتال قويّاً بصيراً ينفض الضعف عن عزائمه كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده، ولم يخامره الأسف قطّ في ذلك الموقف المرهوب إلّا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه»[١].

لقد تبيّن لنا آنفاً ماهيّة وأهمية الجهاد في الإسلام، وسمات الإمام الحسين عليه السلام باعتباره مجاهداً أصيلاً ومدافعاً عن الحق والعدالة. وفي إطار هذا الحديث يمكن معرفة أصحاب الإمام الحسين أيضاً، ولكن في الوقت نفسه يجب معرفة رأي المسلمين بصورة عامة، وشيعة أهل البيت بصورة خاصة، في الحكومة الأموية، ومدىٰ مشاركتهم الحسين عليه السلام في جهاده، سواء في زمان حياته أو بعد شهادته.

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا يعلمون أنّ الجهاد هو واجب على المسلمين ضد الظالمين، سواء كانوا في ثياب الشرك أو في ثياب الإسلام، وعلى أساس هذه العقيدة كان المسلمون يحاربون حكومات الشرق والغرب المشركة ويجاهدون حتى الاستشهاد والقتل في سبيل الله، ويرفعون بذلك راية الإسلام في كل بقاع العالم، كما كانوا يقفون أيضاً ضد الحكومات الظالمة التي عرّضت مصالح المسلمين للخطر، خاصة بعد نفوذ الامويين في جهاز الحكم الإسلامي، بل إنّ عثمان نفسه الذي يُعدّ خليفة النبي صلى الله عليه وآله، تعرّض المسلمون لقتله بسبب ما حدث في عهده، حتى إنّه مُنع لذلك من أن يدفن في مقبرة المسلمين[٢].

وبعد قتل عثمان أيضاً توجه المسلمون إلى العمل الجهادي بأمر من الإمام عليّ عليه السلام، وذلك للقضاء على الناكثين والقاسطين والمارقين ـ كما أشرنا.

وبناء على ما ذكرناه سابقاً بشأن النماذج التي عبّرت عن منطق الحسين عليه السلام

---

١. ابو الشهداء، للعقاد ص ١٣٤.

٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٣٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ١٨٠.

وبشكل عام المسلمين الحقيقيين، فإنّ سؤالاً مهماً يطرح نفسه هنا، وهو أنّه لا شك في أنّ حكومة معاوية أفسدُ بكثير من حكومة عثمان، لأنّ عثمان قام بضرب ابن‌مسعود وعمّار ونفي أبي‌ذر مثلاً، وأسرف في هباته من بيت المال إلى من شاء وخاصة بني أبيه ـ على حد تعبير عليّ عليه السلام ـ ولكنّ معاوية قتل آلاف المسلمين المخلصين مثل عمّار، حجر بن عدي، مالك الأشتر، محمد بن أبي‌بكر، عمرو بن الحمق وغيرهم، بل ومثّل ببعضهم، وكان يتلاعب ببيت المال ويضع أموال المسلمين تحت تصرف المغيرة وعمرو بن العاص وزياد بن أبيه وسمرة بن جندب وغيرهم من الظالمين، فالمسلمون الذين ثاروا على حكومة عثمان، ثمّ حاربوا إلى جانب الإمام عليّ عليه السلام ضد معاوية وأزلامه، حتى نادى بعضهم بتكفير الإمام عليّ عليه السلام لمجرّد أنّه قبل ظاهراً بالتحكيم مع معاوية[1]، وأخيراً قتلوه بهذا السبب، فلماذا لم يحرّك هؤلاء المسلمون ساكناً طيلة عشرين سنة من خلافة معاوية الفاسدة ولم يواجهوا الحكومة الأموية مواجهة حاسمة؟

سؤال مهم

أجل، إنه يتوجب على المحققين أن يجيبوا عن هذا السؤال الهام وهو لماذا لم يقم المسلمون بالثورة ضد سلطة معاوية طيلة عشرين سنة، سوى بعض التحركات هنا وهناك، من قبيل تحرّك حجر بن عدي وأصحابه، مع أنّ خلافة معاوية لا يمكن أن تقاس بخلافة عثمان؟

الجواب عن هذا السؤال تتمثل خلاصته في أن حكومة معاوية هي في الواقع حكومة (سياسية وعسكرية)، ففي الوقت الذي كانت محافظة ومتظاهرة بالإسلام فإنّها كانت استبدادية ودكتاتورية أيضاً، وكانت ـ على خلاف حكومة عثمان ـ تناور بالخداع والتهديد، وتستخدم مع معارضيها سياسة الترغيب والترهيب،

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٦٠.

فحكومة معاوية ـ كما تقدم ـ تشبه الدول الاستكبارية في العصر الحاضر والتي تستخدم أساليب الحيلة والرشوة، وتفتح بذلك طريق تقدّمها إلى أهدافها، وعندما لا ترىٰ نفعاً في هذه الأساليب السياسية الماكرة، تتوسل بالقوة والعنف والإرهاب، كما فعلت حكومة معاوية حين واجهت المسلمين المخلصين أمثال حجر بن عدي وأصحابه، لمجرّد أنّهم كانوا يعارضون لعن الإمام عليّ عليه السلام، فقتلتهم بصورة بشعة لن ينساها التاريخ.

ولا يسمح المجال هنا بذكر التفاصيل عن أبعاد غفلة المسلمين طيلة عشرين سنة من حكومة معاوية الإرهابية وأسبابها. ولكن نشير إلى أن خلاصتها تتمثل في الاستبداد بكل ألوانه. والهدف من طرح ذلك السؤال ثم الاجابة عنه هو أن نقول: إنّ هؤلاء المسلمين الذين عملوا بمسؤوليتهم الإسلامية الاجتماعية تجاه الانحراف ولا سيما تجاه الحكومة الأموية بقيادة معاوية، بحيث قدّموا في سبيل تلك المسؤولية عشرات الآلاف من القتلى، إنّ هؤلاء المسلمين لم يتغير موقفهم ـ في الواقع ـ إزاءحكومة معاوية السياسية والعسكرية بالكامل، بل إنّ الكثير منهم كانوا مصممين على إزاحة حكومته وإحلال حكومة إسلامية حقيقية محلّها، ولكن على أثر الأساليب الخادعة والقاهرة والإرهابية لمعاوية وأزلامه، لم ينجحوا بتنفيذ هذه المسؤولية والفريضة الإسلامية المهمة.

بانتظار فرصة الثورة

وبالرغم من أنّ المسلمين لم يتمكنوا في زمن معاوية من القيام بواجباتهم ضد حكومته الغاشمة، لكنّهم كانوا ينتظرون طبعاً الفرصة المناسبة والشخص المناسب ليقودهم إلى الثورة ضد الحكومة الأموية، ويخلّص المجتمع الإسلامي من نيرها، ويعيد إليه عافيته وسعادته، وبديهي أنّ هذه الفرصة المناسبة لم تسنح إلّا بعد موت معاوية، وكان الشخص المناسب الذي يتحمّل هذا الدور هو الحسين سبط النبي الأكرم ونجل الإمام عليّ عليه السلام، الذي يقول عنه حتى خصمه عمرو بن العاص بأنّه:

«أحب الناس إلى الناس»[١]، وأيضاً يقول عنه معاوية: «هو ليث عرين ...».[٢]

وهنا يكمن السرّ الذي دفع كثيراً من المصلحين في ذلك الوقت ـ بعد أن وصلهم خبر موت معاوية ـ إلى دعوة الحسينعليه السلام، مبيّنين له أهداف دعوتهم بكلمات ثورية من قبيل: «فأقدم على جندٍ لك مجنّدة»[٣]. ومعنى هذا أنّنا مستعدون للجهاد ضد الحكومة الأموية. وكانت هناك فئة التزمت بعهودها حتى بعد مقتل الحسينعليه السلام، فثارت بكل ما لديها ضد الحكومة الأموية مطالبة بدمهعليه السلام في انتفاضة (التوابين) وأمثالها.

وقد كشف مسلم بن عقيل سفير الإمام الحسينعليه السلام إلى أهل الكوفة، في جوابه لابن زياد ـ الذي اتّهمه بأنّه جاء إلى الكوفة ليثير الفتنة ويفرّق بين أهلها ـ عن هذا السرّ بقوله: «كلّا لستُ أتيت لذلك، ولكن أهل هذا المصر زعموا أنّ أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعوا إلى حكم الكتاب»[٤]، وأمام هذا الجواب المنطقي لم تجد الحكومة الأموية ـ وهي حكومة مستبدة ـ جواباً سوى وابل من الشتائم والاتهامات. ثم صدر الأمر بقتل مسلم بشكل فجيع، وسحبت جثّته في أسواق وأزقّة الكوفة، وحمل رأسه إلى الشام هدية ليزيد.

التضحية بكل شيء رغم إذن العودة

ولا يخفى أنّه وإن كان الكثير من أهل الكوفة، الذين عاهدوا الإمام الحسين بن عليّعليه السلام على نصرته، كانوا يهدفون من ذلك المصالح الدنيوية في حال تحقيق انتصاره، ولذلك نقضوا عهدهم عندما واجهوا الخطر، بل انضمّ بعضهم إلى الجيش الأموي، إلّا أنّ جماعة منهم ـ وهم المؤمنون المخلصون ـ بقوا أوفياء بعهدهم،

---

١. تاريخ ابن عساكر، ج١٤، ص٢٠٦ و ٢١٢ و ج ٥٠، ص ٢٨٥؛ البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٧٥.
٢. الامامة والسياسة، ج١، ص٢٠٠.
٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٦٢؛ الارشاد، ج ٢، ص ٣٨.
٤. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٨٢؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣٥؛ المقتل للخوارزمي، ج١، ص٢١٣؛ الارشاد، ج٢، ص ٦٢.

فعملوا بواجبهم المقدس وجاهدوا عدوهم، وسعوا بجميع قدراتهم إلى بث الروح الايماني الثوري في المجتمع الذي دخل في سبات سياسي وثقافي، ولذلك ثبتت تلك الثلة في ساعات الخطر حتى آخر قطرة من دمائها، وقالوا للحسينعليه السلام: «والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفينا وقضينا ما علينا»[١].

إنّ اشتياق أصحاب الإمام الحسينعليه السلام إلى الجهاد والفداء والتضحية في سبيل الله بلغ حدّاً جعلهم ـ حتى مع إذن الإمام الحسينعليه السلام لهم بالعودة إلى أوطانهم ـ أوفياء يواجهون الخطر الحتمي. وقد ذكر المؤرخون أنّ الحسينعليه السلام سمح لأصحابه بالرجوع والعودة أكثر من مرّة، وخاصة ليلة عاشوراء، وكان يقول لهم: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله فإنّ القوم إنّما يطلبونني ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري»[٢]. هذا الكلام الصريح والجاد للإمام الحسينعليه السلام في تلك الليلة التاريخية، يبيّن عظمة الإمامعليه السلام ونبله، ولكنّ الأصحاب الأوفياء أجابوه أيضاً بأجوبة محيّرة ورائعة تحكي عن خالص إيمانهم وصفاء أنفسهم وعظمة أرواحهم. نشير إلى بعضها روماً للاختصار :

(مسلم بن عوسجة) الذي كان أحد أخلص أصحاب الإمام الحسينعليه السلام قال له: «أنحن نخلّي عنك وبما نعتذر إلى الله في أداء حقّك، لا والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولا أُفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك»[٣].

(سعد بن عبدالله) صحابي آخر من أصحاب الإمام الحسينعليه السلام، قال: «والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول اللهصلى الله عليه وآله فيك، والله لو علمت أنّي أُقتل ثم أُحيا ثم أُحرق حيّاً ثم أُذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقىٰ حمامي

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٨؛ اللهوف، ص٥٦.
٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٧ و ٣١٨؛ اللهوف، ص٥٥؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٥٨.
٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٣١٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٥٨.

دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً».[١]

(زهير بن القين) صحابي آخر أيضاً من أصحاب الإمام قال: «والله لوددت أنّي قُتلت ثمّ نُشرت ثم قُتلت حتى أُقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك».[٢]

كانوا مؤمنين حقيقيين

ويحدثنا التاريخ بأن الكثير من الجنود الذين وقعوا في حصار الأعداء، كانوا يسعون عادة إلى العثور على منفذٍ للخلاص والنجاة، وإن كانت نسبة النجاة ضئلية، ولا نجد نموذجاً على خلاف ذلك، سوىٰ رجال الله من أمثال أصحاب الحسين عليه السلام الذين كانت لهم القدرة وكذلك الإذن الشرعي في الانسحاب من المعركة والنجاة من بطش الأعداء، ولكنّهم فضّلوا البقاء مع الحسين عليه السلام تحت رحمة سهام الأعداء وسيوفهم، واستقبلوا الموت بلهفة، فيا ترى: كيف حصل كل هذا؟! الجواب يكمن في كلمة واحدة، وهي أنّهم كانوا مؤمنين مخلصين وحقيقيين، ولذلك لم يروا ـ أساساً ـ أن الموت في طريق الحق وإزهاق الباطل هو موت، بل ـ كما رأينا في كلمات الإمام عليّ عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام ـ يعتقدون أنّ مثل هذا الموت هو مصدر السعادة والحياة الخالدة والوسيلة إلى لقاء الله تعالى.

والشاهد على هذا الأمر هوالكلمات البليغة لأصحاب الحسين عليه السلام، ومنهم (برير) الذي كان في ليلة عاشوراء يمزح مع أحد أصحاب الحسين عليه السلام، وكان اسمه (عبدالرحمن)، فقال لبرير: «دعنا فوالله ما هذه بساعة باطل»، فقال له برير: «والله لقد علم قومي أنّي ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلاً، ولكن والله إنّي لمستبشر بما نحن

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣١٨؛ اللهوف، ص٥٦.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣١٨؛ اللهوف، ص٥٦؛ الارشاد، ج ٢، ص٩٢.

لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين إلّا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم ....»[١].

الشاهد الآخر على هذه النوعية الفريدة، من اختيار التضحية والفداء بحرّية وبشوق، هو موقف (عابس الشاكري) عندما تقدّم لقتال الجيش الأموي، فقال عمربن سعد لأصحابه وأعوانه: «هذا أسد الاسود لا يخرجنّ إليه أحدٌ منكم... إرضخوه بالحجارة» فرُمي بالحجارة من كل جانب...، فلمّا راى عابس ذلك وأنّ العدو لا يتقدم خوفاً منه، رمى درعه وطاسه وهجم على الأعداء حاسراً، بشكل أذهل الجميع، أي أنّه ألقى بنفسه إلى الموت، هذا الموت الذي يعتبره الناس كريهاً ومرّاً، ولكن بالنسبة لعابس ـ الذي تربّىٰ في المدرسة العلوية ـ جميل وحلو، لأنّه شهادة وسعادة[٢].

ولم يكن عمل عابس هذا منحصراً به، فمثل هذا العمل إفراز للروح الملكوتية التي يسمّيها العرفاء بـ (الجذبة الإلهية)، وهي من خصال رجال الله الذين يتحلّون بهذه الصفات السامية، وهكذا يمتاز هؤلاء عن أصحاب الدنيا، فأنّ أصحاب الدنيا ينفرون ويفرّون من الموت بجدّ، ولكن هؤلاء يعانقون الموت بشغفٍ ووجدٍ، وهم كما يقول الإمام عليّ‌عليه السلام في خطبة المتقين: إنّ الناس يقولون عنهم «إنّهم قد خولطوا»[٣].

وبهذه الجذبة الملكوتية قدّم أصحاب الحسين‌عليه السلام كل شيء في طريق الدفاع عن الحق وجهاد الباطل، على العكس من عبيد الدنيا وأسرى المال والمنصب والمفتونين بالنساء والأولاد.

وكيفما كان، فإنّ أصحاب الحسين‌عليه السلام عرفوا واجبهم الديني والإنساني وعملوا بارادتهم دون أيّ إجبار أو اضطرار، فعانقوا الموت الأحمر بشوقٍ ورحابة صدرٍ.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٢١؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٠؛ اللهوف، ص٥٨.
٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٣٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٣.
٣. شرح النهج، ج ١٠، ص١٤٧.

والنموذج الآخر هو (محمّد بن بشير) الذي أعطاه الحسين مالاً كثيراً ليذهب وينقذ ولده الذي وقع أسيراً بيد الكفار في إحدىٰ جبهات القتال، ولكنّه فضّل البقاء والقتل مع الحسينعليه السلام على الذهاب لإنقاذ ابنه، وقال في جوابه للإمام: «عند الله أحتسبه ونفسي، ماكنت أُحب أن يؤسر وأنا أبقى بعده، فسمع الحسينعليه السلام قوله فقال: رحمك الله أنت في حلٍّ من بيعتي فاعمل في فكاك إبنك، فقال: أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك»[١].

وهذا هو (زهير بن القين)، فبالرغم من أنّه كان عثمانيّاً في اتجاهه وبعيداً عن أهل البيتعليهم السلام وعن الخط العلويّ، ولكن مع ذلك انقلب على واقعه بعد أن استمع إلى كلام الحسينعليه السلام وترك كل شيء، بل وطلّق زوجته[٢]؛ ليكون مع الإمام الحسينعليه السلام هادىء البال وبعيداً عن ارتباطات الدنيا ومغرياتها.

وهذا هو (الحرّ بن يزيد الرياحي) الذي كان قائداً من قادة الجيش الأموي، وكانت له مكانة رفيعة لدى الحكومة الأموية، ولكنّه مع ذلك عندما رأى مواجهة الحق للباطل في يوم عاشوراء فإنّه ـ على عكس ما كان يتوقّعه قبل ذلك من إمكانية حصول المصالحة مثلاً ـ تخلّى عن موقعه وانضمّ إلى أصحاب الحسينعليه السلام وقاتل جيش الباطل حتى استُشهد، وقد كان كما قال له الحسينعليه السلام: «أنت الحر كما سمتك أُمك»[٣]، لأنّ الحرّ هو الذي تخلص من الضلالات وعوامل الجذب المادي والدنيوي، وأخيراً تحرّر من قيود النفس؛ إذ إنّ التحرر من النفس أعظم كمالٍ يناله الإنسان، بل هو مصدر كل كمال للانسان، فالإنسان المتحرر من نفسه وذاته هو ـ في الحقيقة ـ حر في كل شيء ومن كل قيد. أمّا الإنسان الذي يقع أسير ذاته وهواه، فهو ـ في الحقيقة ـ أسيرٌ لكل شيء ولكل شخص.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٢٠؛ تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٨٢؛ اللهوف، ص ٥٧.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٨؛ الارشاد، ج ٢، ص ٧٣؛ اللهوف، ص ٤٤.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٢٥؛ اللهوف، ص ٦٢.

اختلاط الحق بالباطل

فضلاً عن (الحرّ)، فإن هناك حوالي ثلاثين شخصاً آخرين كانوا من جنود الجيش الأموي، ولكنّهم لبّوا نداء الوجدان وتركوا ارتباطاتهم الدنيوية وعلاقتهم بالحكومة الغاشمة، والتحقوا بقافلة الشهادة التي يقودها الإمام الحسينعليه السلام[١]، وفي المقابل كان الكثيرون في بادىء الأمر مع الإمام الحسينعليه السلام، ويدّعون أنّهم مخلصون وأوفياء له،ولكن عندما حلّ الامتحان العسير ابتعدوا عن الإمام، بل إنّ بعضهم التحق بصفوف الأعداء، وجرّد سيفه بوجه الإمامعليه السلام.

وهكذا فإنّ أحد أبعاد حادثة كربلاء المهمة هو كونها امتحان صراع الحق والباطل، ولذا لا تختص بالحسينعليه السلام وأعوانه أو أعدائه، بل تتكرّر حتماً بصور مختلفة في جميع أدوار الحياة البشرية ولجميع أفراد البشر، حتى يفصل بين أهل الحق وأهل الباطل. والواقع ـ كما يقول الإمام الحسينعليه السلام ـ فإنّ الناس يتمحصون بالامتحان[٢]، وكما يقول القرآن[٣]، فإنّ الامتحان يميّز الطيّب من الخبيث، ومن خلاله يتبيّن طريق كل شخص وهويّته، فيسعى طبعاً نحو هدفه الحقيقي، فينال السعادة أو الشقاء الأبدي.

ثمّ إنّ ظاهرة اختلاط أهل الحق بأهل الباطل ـ والتي تكون كثيرة في بداية الأمر وقبل حلول الامتحان ـ لا تنحصر في المجالات السياسية والاجتماعية، بل تكون حتى في المجال الأُسري والقبلي، فقد كان (الشمر) من أقرباء العباس بن عليّ بن أبي طالب، وهذا نموذج للارتباط الأسري بين أهل الحق وأهل الباطل. وحتى إنّ بني هاشم وبني أُمية أنفسهم كانوا من قبيلة واحدة، ولكن قسّمهم سيف الامتحان إلى قسمين متخاصمين. وبشكلٍ عام، إنّ الصراع بين الحق والباطل لا ينحصر بين الدول والأمم فحسب، بل كثيراً ما يحصل بين أفراد المجتمع الواحد

١. تاريخ إبن عساكر، ج ١٤، ص ٢٢٠.
٢. اللهوف، ص٤٢؛ الهداية الكبرى للخصيبي، ص ٢٠٦.
٣. راجع سورة الانفال، الآية ٣٧.

والقبيلة الواحدة، بل والأسرة الواحدة، بل حتى في نفس الفرد الواحد.. على شكل صراعات نفسية في ضميره وبالتالي تظهر على السطح على شكل صراعات خارجيّة مختلفة. وأساساً فأنّ الصراعات الخارجية بين الحق والباطل هي انعكاس للتضاد الداخلي بين الحق والباطل في باطن الأفراد، ففي البداية يكون هذا الصراع في ضمائر الناس، ثم يبرز إلى الحياة الشخصية والعائلية والاجتماعية والسياسية، وبالتالي يشمل جميع الجهات ومختلف الأبعاد.

إحدى علامات إعجاز الحق وعجز الباطل

وكيف كان، فإنّ بعض أصحاب الحسين عليه السلام، وكذلك بعض أعوان يزيد والجيش الأموي، لم يكونوا في البداية حسينيين أو يزيديين، ولكن ظهرت هويّتهم وبرزت شخصيتهم الحقيقية في خضم الحوادث وتلاطم الأمواج، فغيّروا مسارهم السابق الذي كانوا عليه ظاهراً وتحرّكوا في مسارٍ مخالفٍ له، وهذا هو المسار الذي يعبّر عن طبيعة نفوسهم واقعاً. وهناك تباين آخر يبيّن عظمة الفئة الحسينية وانحطاط الفئة اليزيدية في مسار التاريخ، ويتمثل هذا التباين في أنّ الفئة الأُولى، التي انضمت إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام وطريق الحق، لم يكن هدفها الحصول على شيء، بل إنّها أعطت كل شيء، واللافت للنظر أنّ عناصرها مع تضحيتهم بكلّ غالٍ ونفيس كانوا يظهرون الفرح والسرور من ذلك، أمّا الفئة الثانية، التي انضمّ عناصرها إلى معسكر يزيد والجيش الأموي، فانّ ذلك لم يكن بهدف التضحية بشيءٍ، بل ليأخذوا كل شيءٍ، ولكنّهم وإن حصلوا على بعض الأُمور الدنيوية ـ فإنّهم كانوا يعيشون التصدّع الوجداني والألم النفسي الكامن في أعماق ذاتهم من جرّاء جرائمهم التي قاموا بها، وبأمر أمرائهم، ولذا كانوا يحسّون بالنفور منهم، برغم ما يحصلون عليه من مكاسب مادية من قِبلهم.

وإحدى علائم إعجاز الحق وعجز الباطل هي أنّ أصحاب الحق بما أنّهم يسيرون في طريق الحق، وفي سبيل الله، فمثلهم كروحٍ واحدة في أجساد متفرقة

تجمعهم حالة من الصدق والوفاء والإيثار. ولكن أتباع الباطل بما أنّهم سلكوا سبيل الأهواء النفسية، فلذلك كانت لديهم أهواء ومقاصد وأغراض متضادة، إذ إنّهم حتى مع وجود تعاونهم الظاهري، فإنّهم لا يلتقون بأنفسهم وقلوبهم، بل يتباغضون في واقعهم، وهو ما حصل في براءة يزيد من عبيدالله، وكذلك براءة عبيدالله من يزيد، فكان كلٌّ يلقي باللائمة على الآخر، وكان كلاهما يلقي باللائمة على عمر بن سعد، وعمر بن سعد بدوره يلقيها عليهما ويتبرّأ منهما، وهؤلاء الثلاثة أيضاً يتبرّؤون ـ بدورهم ـ من أعوانهم وأعوانهم منهم، وهكذا[1].

القانون المجرّب

من الطبيعي أن يجتمع السائرون في خط الضلال ـ وهم الظالمون وحكام الجور وأعوانهم ـ من أجل القضاء على التحركات الإنسانية التي يرون فيها خطراً مشتركاً عليهم، ولذلك يجمعهم تفاهم سياسي موقّت في مقابلها. ومن الطبيعي أيضاً أنّهم في ذلك الوقت لا يجدون متّسعاً من الوقت للنزاع فيما بينهم، بل نجدهم يتعاونون فيما بينهم تعاوناً موقّتاً، حتى أنّ بعضهم يَعِد بعضاً بنيل الأرباح، ويتقاسمون بينهم المصالح والثروات حتى الخيالية منها، ولكن وراء هذه المجاملات الخادعة، وخلف أستار هذا الظاهر المنمّق، هناك تحاسد وتباغض وتنافس على الحطام، وعلى الأقل فإنّ كلاً منهم يهّم ـ في الواقع ـ بنفسه وبمصالحه، ويتآمر أيضاً ضد الآخر ويخطط للتغلب عليه، وخاصة بعد انتصارهم على خصومهم وجلوسهم على مائدة تقسيم الغنائم، فيبرز ذلك التضاد فيما بينهم، وتتبدل حالة الانتصار إلى أنواع خطيرة من البلاء والانشقاق .

والظاهرة الاجتماعية أنّ الظالمين يعيشون كالوحوش في حديقة الحيوان، فحتى مع كونها في القفص لا تتخلّى عن الشرّ والعدوان فيما بينها فكيف إذا أصبحت حرّة،

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٥٩ و ٤٨٣ و ٥٠٦ و...؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٧٨ و ٨٧ و ٩٣ و ١١٢ و...؛ مروج الذهب، ج٣، ص٦٧؛ الارشاد، ج ٢، ص٦٣؛ انساب الاشراف، ج٣، ص٨٣؛ تذكرة الخواص، ص ٢٩٥.

فلا شك حينئذٍ أنّ خطرها سيكون أعظم حتى على أنفسها، ومن هنا يجب القول إنّ انتصار الظالمين ـ في الحقيقة ـ ليس انتصاراً، بل عاملاً للغرور الذي يزيد من وحشيتهم وتكالبهم على الغنائم والمكاسب المادية؛ إذ إنّهم ـ آجلاً أم عاجلاً ـ سوف يتنازعون فيما بينهم إلى أن يدمّر بعضهم بعضاً. والحكمة في هذا الأمر هو أنّ ظلم الظالمين يؤثر في أرواحهم ويترسخ فيهم، إلى أن تتغير طباعهم تدريجيّاً، ولذلك ترى الظالمين حتى في حالة غياب المظلوم أو استشهاده، يختلفون فيما بينهم، وبهذا يمهّدون ـ شعروا أو لم يشعروا ـ الأرضية لسقوطهم وهلاكهم.

والحاصل إنّ فكر الظالمين وحياتهم، وحتى علاقاتهم فيما بينهم، مليئة بالشحناء والنزاعات. وأحد النماذج لتنازع هؤلاء الظالمين فيما بينهم، على الرغم من وجود علاقات الصداقة والصحبة الظاهرية، هو ما نراه بين عمرو بن العاص ومعاوية، فقد ذُكر أنّ عمرو بن العاص قال في لحظات احتضاره في جوابه لأصحابه والمحيطين به عندما سألوه عن أسباب ما يعتريه من الألم والهم والحزن، قال: «كأنّي بمعاوية قد حوىٰ مالي وأساء فيكم خلافتي»[1].

عجباً لهذه المقولة، أيّ شخصٍ، وفي أيّ وقت، وبالنظر إلى أيّ فرد، وبالنّسبة إلى أيّ شيءٍ يقول ذلك؟ أجل، إنّ معاوية وعمرو بن العاص يظهران أمام الناس وكأنّهما صديقان حميمان متحالفان، ولكنّهما في الواقع يتنافسان فيما بينهما. وهذه أيضاً إحدى خصال المخادعين والمنافقين، فمعاوية الذي طلب من عمرو بن العاص مثلاً أن يقف إلى جانبه ضد عليّ عليه السلام، مقابل رشوة سياسية ووعود دنيوية، ليحقّق أهدافه من خلال عمرو بن العاص مثلاً، بعد أن تحققت أهدافه، يقوم باسترجاع ما رشاه ويستعيد الهبات ليتركه رهين الحسرة في الدنيا والآخرة، بل قد تقتضي سياسة من هم على شاكلة معاوية أن يقضوا على رفاقهم ويقتلوهم ولو خفيةً.

ما ذكرنا كان نموذجاً لصديقين حميمين ظاهراً، وقد اشتركا في شنّ حربهما الظالمة ضد الإمام عليّ عليه السلام وحققا انتصاراً سطحياً بزعمهما، ولكن في بعض الموارد

---

١. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٢؛ الغدير، ج ٢، ص ١٧٥.

وفي نماذج أُخر نجد أنّ الظالمين، حتى قبل أن يحققوا انتصارهم الوهمي، يتنازعون فيما بينهم، فمروان بن الحكم ـ مثلاً ـ الذي حارب إلى جانب طلحة والزبير في حرب الجمل ضد الإمام عليّ عليه السلام، قام في تلك المعركة برمي طلحة بسهم وقتله[1]، برغم اشتراكه مع طلحة في المطالبة بدم عثمان مثلاً، إلّا أنّه اتهمه بأنّه مسؤول عن قتل عثمان، وعلى هذا الأساس نرىٰ كيف أصبح حال المطالبين بدم عثمان في نهاية المطاف، وكيف كانوا يتلاعبون بمصالح الإسلام والمسلمين، وكيف كانوا في فوضى وعبث.

يضحّون بالدنيا من أجل الحق لا العكس

كان حديثنا في أنّ أصحاب الحسين كانوا أناساً مؤمنين حقيقيين، وعلى عكس المسلمين السطحيين لم يقاتلوا من أجل الدنيا أو يقتتلوا فيما بينهم لأجلها، فيخلقوا الأزمات والفواجع للآخرين وحتى لأنفسهم في طريق مطامع دنيوية ورغباتٍ شخصية، بل إنهم قاتلوا من أجل الدفاع عن دين الله بصدق وحماس، وهم يضحّون بالدنيا من أجل الحق لا العكس أي لا يضحّون بالحق من أجل الدنيا، ولزيادة توضيح هذا الموضوع، الذي تقوم عليه ملحمة كربلاء، نكتفي بذكر عدة نماذج أُخر تربوية ومفيدة كالنماذج المذكورة في الصفحات السابقة:

رأىٰ الإمام الحسين عليه السلام في مسيره إلى الكوفة ـ في عالم الرؤيا ـ قائلاً يقول: «القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم»، فانتبه الحسين عليه السلام من نومه وأخبر إبنه عليّاً الأكبر بذلك، فماذا أجاب عليّ الأكبر؟ هل أجاب أباه: لنرجع يا أبتاه ولا نلقي بأيدينا إلى الموت؟ كلّا، إنّه رجل تربّى في مدرسة القرآن، ولذلك لم يخفه خبر الموت إطلاقاً، بل أجاب أباه دون تردّد أو خوف متسائلاً: «ألسنا على الحق؟» فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «بلىٰ والذي إليه مرجع العباد». فقال عليٌّ الأكبر: «إذاً لا

---

١. مروج الذهب، ج٢، ص٣٦٥؛ شرح النهج، ج٩، ص٣٦.

نبالي؛ نموت محقّين»[١].

موقف عليٍّ الأكبر وجملته الموجزة المعبرة، كان له دور مهم جدّاً في معرفة واقع نهضة كربلاء. والملاحظة الأساسية في كلامه، الذي يستحق الدراسة بإمعان وتعمق، هي أنّ عليّاً الأكبر (وغيره من رجال الحق) لا يرى الحياة محدودة في هذه الدنيا، بل يرى أنّ الحياة الأكثر أهمية تتحقق في مسار معرفة الحق والدفاع عنه، وهي الحياة السامية والمترفعة عن الحياة المادية. وفي الحقيقة أنّها بمثابة روحها، ومن هذه الحياة الروحية وروح الحياة، نجد رجال الحق هؤلاء يتقدمون نحو الموت باشتياقٍ بالغ، ويجاهدون ويضحّون بكل شيء في سبيل الحق.

إنّ رجال الحق أدركوا هذه الحقيقة، ليس بصورتها النظرية والعلمية فحسب، بل لمسوها بصورتها الحسيّة والواقعية، وهي أنّ الحق هو مركز الحياة ومصدر السعادة، فإذا قُتل الإنسان في سبيله فهو موفق، بل سيكون موفقاً أكثر من بقائه حيّاً؛ لأنّه سينال حياةً واقعية وتكاملاً حقيقياً، كمايؤكد القرآن ذلك: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾[٢]، ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾[٣].

وأحد مفاهيم الآية الأولى هو أنّ الحق يمثّل قدرة الله تعالى الذي ينصر أولياءه وأحباءه في كل الظروف والأحوال، حتى لو كانوا تحت أقدام الباطل، فينصرهم في النهاية، كما أنّهم ينالون باتباعهم له الجنة الخالدة، بل الجنّة الإلهية كما يظهر من الآية الثانية. وأنّ الذين يعارضون الحق مهزومون في كل الأحوال، حتى في حالة انتصارهم الظاهري وسيطرتهم الدنيوية، فهم مهزومون في النهاية. كما أنّهم يصيرون بمعارضتهم له إلى جهنم والعقوبة الأبدية. ووفقاً لهذا الإحساس الوجدانيّ، يرى أصحاب الحق أنّ القتل في سبيل الحق وفي الجهاد ضد الباطل، جميلٌ حلوٌ، وربّما لا يحسّون فيه مرارة إطلاقاً، ولذلك يتقبلونه برحابة صدرٍ وشوق كبير.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٠٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥١؛ الارشاد، ج ٢، ص ٨٢؛ اللهوف، ص ٤٣.

٢. سورة الانبياء، الآية ١٨.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

إنّ العباس بن عليّ أخا الإمام الحسين عليه السلام هو كعليّ الأكبر، إذ كان يرى في الحق مصدر الحياة ومنبع السعادة أو يرى الحياة والسعادة في شعاع الحق، ولهذا كان مستعدّاً لأن يضحّي بنفسه في سبيل الحق. والعباس هذا كان مرتبطاً برابطة نسب مع شمر بن ذي الجوشن من أُمّه، فجاء الشمر له بكتاب من إبن زياد، ولكنّ العباس الذي كان بإمكانه استغلال هذا الأمان والتخلص من ورطة القتل والموت، بل ويحظى بالاحترام والتقدير من إبن زياد، مزق الكتاب وأجاب الشمر بقوله: «لعنك الله ولعن أمانك...»[1].

فهل أنّ العباس وكل رجال الحق، يرون الموت في سبيل الحق موتاً حقيقةً ومع ذلك يطلبونه، أم إنّهم أساساً لا يجدونه موتاً، بل وسيلةً للسعادة والحياة الخالدة؟ إنّ كل إنسان له معرفة ولو مختصرة، بأمور الدين وأهل الدين، يدرك جيّداً أنّ هؤلاء يرون في الموت باباً للبقاء لا للفناء، وخاصّةً إذا كان الموت في سبيل الدفاع عن الحق والجهاد ضد الظالمين، إذ سيكون نبع الحياة الخالدة والسعادة الأبدية باعتقادهم، ومن هنا ومن خلال رؤيتهم هذه للموت ندرك مقولة الإمام عليّ عليه السلام جيّداً لحظة اغتياله: «فزت ورب الكعبة».

هذه النظرة والمعرفة بالنسبة إلى الموت، وخاصة إذا كان في سبيل الله، هي أحد أركان المنظومة المعرفية للمؤمنين، والتي لها دور مهم في جميع شؤونهم ولا سيما في تحركاتهم الثورية. ولذلك تعرّضنا ولو بشكل مضغوط لتبيين دوافع أصحاب الحسين عليه السلام وأهدافهم السامية من خلال عرض نماذج من تضحياتهم في سبيل الحق.

إن (زهير بن القين) لم يكن أخاً للإمام الحسين عليه السلام ولا إبنه، ولكنّه مع ذلك كان يرى رؤيتهم نفسها في أنّ الموت في سبيل الحق وسيلة لرفعة الإنسان وتساميه، ولهذا اشترك معهم جنباً إلى جنب في جهادهم المقدّس، إذ ترك كل شيء حتى زوجته ودنياه؛ ليقاتل بطمأنينة وبعيداً عن مغريات الدنيا، ويضحّي بنفسه في سبيل

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٦؛ الارشاد، ج ٢، ص ٨٩؛ اللهوف، ص ٥٤.

الحق وينال الحياة الأبدية بذلك. في حين نرىٰ أنّ الشمر يهدّد هذا العاشق للشهادة بالموت وهو غافلٌ عن أنّ الموت بالنسبة إلى طلّاب الدنيا أمثال الشمر صعب وعسير ومر، وليس بالنسبة إلى الأحرار من الرجال ومن أصحاب البصائر، مثل زهير الذي يرى أنّ الشهادة في سبيل الحق غاية السعادة، فتهديد مثل هؤلاء بالموت ليس في الواقع سوىٰ مهزلة لا أكثر، ولذا قال له زهير: **«أفبالموت تخوّفني؟ فوالله للموت معه أحب إليّ من الخلد معكم»**[1].

و(مسلم بن عوسجة) أحد أصحاب الحسين عليه السلام، حيث نراه يقف إلى جانب الحسين عليه السلام بشوق بالغ، وينتظر الشهادة في سبيل الدفاع عنه بوجد وسرور، وعندما وقع مضرّجاً بدمائه جاءه (حبيب بن مظاهر) أحد أصحاب الحسين عليه السلام أيضاً وقال له: **«لولا أنّي في أثرك لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك، حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين»**. فأجابه مسلم بن عوسجة بصوت ضعيف، وكان في آخر رمق من حياته، قال: **«بل أنا أُوصيك بهذا رحمك الله ـ وأهوىٰ بيده إلى الحسين ـ أن تموت دونه»**[2].

ونظير مسلم بن عوسجة، بطل آخر هو (عمرو بن قرضة)، الذي ضحّى وتحمّل الشدائد في قتاله ضد أعداء الحسين عليه السلام والدين، فلمّا حانت ساعته وكان به رمق، حضر عنده الحسين عليه السلام فقال له: **«يابن رسول الله أوفيت؟ فقال عليه السلام: نعم ...»**[3].

الشهيد قلب التاريخ، بل قلب الحياة

هذه نماذج لأصحاب الحسين عليه السلام الذين لا يمكن وصف مشاعرهم وسلوكياتهم وتضحياتهم بالتفصيل، ولكنها جميعاً تشهد بأنّهم رجال الله وشهداء الحق. ولو أردنا ذكر أخبارهم واحداً واحداً وذكر خصالهم وأناشيدهم وتضحياتهم في كربلاء لطال

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٢٤؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٦٤.
٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٣١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٦٨؛ اللهوف، ص٦٤.
٣. اللهوف، ص٦٤.

بنا المقام، ولكن ما ذكرناه من النماذج يكفي لتعريف الجميع، والمسألة الحساسة التي يجب توضيحها هنا، ترتبط بدافع استعداد هؤلاء للشهادة، بل وطلبها بشوق. فهل أنّ سبب ذلك ـ كما يتصور بعض الناس وحتى بعض الباحثين ـ كان بهدف نيل الجنة وقصورها وحورها وملذاتها؟

إنّ دلالة هذا التصور تتمثل في أنّ الشهيد يطمع في اللذة، ويهدف إلى تحقيق مصالحه الذاتية فحسب، كالأشخاص الأنانيين الدنيويين، إلّا أنّه أوسع فكراً وأبعد نظرة وإعتقاداً، ومثل هذا التصور لا يصدر إلّا ممّن يجهل أهداف الشهداء الحقيقية، فإنّ الشهيد إنسان متكامل ومتسامٍ وقد تجاوز حدود أنانياته وذاته، واتصل بالله وبالكمال الإلهي، ولذلك لا تمثّل الجنة التي وُعد الشهداء بها كل مقصودهم ومرادهم، بل إنّها جزء للمقصود أو أقل من ذلك، فليس لها دورٌ أساسي في تضحية الشهيد الحقيقي.

أجل، إنّ الشهيد الحقيقي هو الذي يضحّي بذاته وبوجوده، بل حتى برغباته كلها ويتجاوزها، ولا يرى الدنيا متاعاً جديراً بالاهتمام فحسب، بل إنّه لا يرى الآخرة أيضاً ـ وهي النعمة الخالدة ـ مستحقّة لطلبه لها، ولذا يتركها ويتجاوزها أيضاً، ويتّجه إلى أهداف أسمىٰ منها جميعاً، وهي مرضاة الله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر...﴾[1] والاتصال بلقائه كما أخبر النبي الأكرمﷺ عن أخيه عليّ بن أبي طالب، وكما أخبر الإمام الحسينؑ عن إبنه عليٍّ الأكبر وقال: «عليٌّ ممسوس في ذات الله»[2]، أي أنّه غرق في الله وانفصل عن غيره.

ومن أجل هذا المقام السامي للشهيد نرىٰ أنّ القرآن يصفه بأفضل صفة وسمة، حتى إنّه يجعل الشهيد إلى جانب الأنبياء والصديقين وفوق الصالحين، وهذا كناية عن أنّ الشهيد مرآة الله، إذ إنّ صفات الله تتجلّى في قلبه وفي منطقه الخاص وفي

---

١. سورة التوبة، الآية ٧٢.

٢. سفينة النجاة، ج٢، ص ٥٤٠ مادة (مسس)، شرح الاسماء للسبزواري، ص٢١٥؛ المناقب لابن شهر اشوب، ج٣، ص٢١.

سلوكه الذي هو التضحية في سبيل الحق والعدالة. ومن هنا نرى أنّ الشهيد له دور أهم بكثير من دور العلماء والمكتشفين والسياسيين والمصلحين لأنّ تأثير هؤلاء يقتصر على دائرة الشؤون المادية والموقته التي تخدم البشر؛ ولكنّ دور الشهيد الأساس هو أنّه يرسم للبشرية ـ من جهةٍ ـ سبيل الرقي والتكامل عن طريق الاستعداد للشهادة في سبيل الدفاع عن الحق ومواجهة الظالمين، كما أنّه ينفذ ـ من جهة أُخرىٰ وهي الأهم بل الأساس في الحقيقة ـ إلى ضمائر الناس وأرواحهم ويحكّم الله في أذهانهم ووجدانهم. ومن هذا الطريق يسلك معهم الهداية العملية وينقذهم من قيود المغريات المادية والدنيوية، ويجعلهم من رجال الحق والمدافعين عن العدالة. ومن هنا يقول رسول الله ﷺ: «فوق كل برٍّ برٌّ حتى يقتل المرء في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه برٌّ»[١].

والسر في أنّ الشهيد يصل إلى ذروة الكمال ويوصل الآخرين إلى طريقه أيضاً، أنّه ضحّى بكل شيء في سبيل الله، وضحّى بالماديات في سبيل المعنويات. وفي الحقيقة أنّه يضحّي بالحياة الظاهرية والصورية ليأخذ مكانها روح الحياة والحياة الروحية. ومن هنا أصبح الشهيد يتجلّى في روح الناس ويكون مصدراً لهدايتهم كالأنبياء. ولذلك كان الشهيد قلب التاريخ، وأكثر من ذلك فأنّه قلب الحياة النابض لو لم نقل أنّه قلب الله، ولماذا لا يكون كذلك، والله تعالى يقول: ﴿ثمّ إنّ ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ثمّ جاهدوا وصبروا ...﴾، أي أنّ الشهيد لم يخرج من قشرة الحياة الدنيا فحسب؛ بل إنّ المجاهد الذي يسير على درب الشهيد أيضاً، هو إنسان متسامٍ يفدي روحه الدنيوية في سبيل الحق والعدالة فيحصل بدلها على الروح الإلهية.

واللافت للنظر أنّ التعبير الجذاب للقرآن الكريم، الذي لا يمكن تصور عبارة أسمى منه: ﴿ثمّ إنّ ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا﴾[٢] فهذا التعبيرورد مرّتين في القرآن، إحداهما في هذه الآية التي تتحدث عن الجهاد الظاهري، والأُخرى بعد عدة آيات من هذه الآية حيث تتحدث عن الجهاد الباطني.

---

١. الوسائل، كتاب الجهاد، ج ١١، ص ١٠، ح ٢١. ٢. سورة النحل، الآية ١١٠؛ ١١٩.

من كلمات الحسينعليه السلام وأصحابه

لقد تربّى هؤلاء الحسينيون في ظل هذه المعارف الإلهية السامية تربية خاصة، ولذلك استمروا في الدفاع عن الحق والعدالة إلى آخر لحظةٍ من عمرهم وآخر قطرة من دمائهم، وبذلوا دماءهم ونفوسهم في كربلاء ـ التي هي ساحة حربهم أو ساحة احتفالهم ـ للوصول إلى الله تعالى، وكانوا يتسابقون لذلك. وفي حين أنّ البعد الدنيوي للبشر يتجلّى في أتباع أمثال يزيد بأتعس حالاته وأبشعها، فنراهم يرتكبون أكبر الجرائم ضد أهل الدين. حتى باسم الدين. بينما الحسينيون في الجهة المقابلة يتجلى فيهم البعد الإلهي للبشر في أكمل صورة وأجمل هيئة، فكانوا يعبّرون عن أفضل النماذج المشرقة في دنيا البشر المظلمة والفاسدة، ففضلاً عمّا تقدم من كلماتهم ومواقفهم المدهشة في كربلاء، نجدهم يقولون للإمام الحسينعليه السلام جميعاً وبصوت واحد ما يكشف عن معنوياتهم العالية واشتياقهم للتضحية في سبيل جهاد الحكومة الظالمة : «والله لو كانت الدنيا لنا باقية إلّا أنّ فراقها في نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها»[١]، أي أنّنا نختار الشهادة التي هي حياة إلهية على هذه الحياة الدنيوية ، وخاصة إذا كانت الدنيا تحت سيطرة أمثال الشمر وعمر بن سعد وعبيدالله بن زياد ويزيد وسائر الظالمين المحاربين للإسلام، فهذه الدنيا أتعس لنا وأشد علينا من كل موتة.

ومقابل هذه المشاعر المقدسة، قال الحسينعليه السلام لأصحابه: «إنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي فجزاكم الله عنّي خير الجزاء»[٢].

وهذا امتياز كبير لشهداء كربلا، إذ إنّهم ـ بتصريح الإمام الحسينعليه السلام ـ أفضل المجاهدين في سبيل الحق، أي أنّهم أفضل حتى من شهداء بدر، والسبب في أفضلية شهداء كربلاء على جميع شهداء الإسلام حتى شهداء بدر أمران:

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٥؛ اللهوف، ص٤٨.

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٧؛ الارشاد، ج ٢، ص٩١؛ اللهوف، ص٥٥.

الأوّل: أنّ شهداء بدر كانوا في مقابل جيش صغير ومقارن لهم في القوة، فكانوا يحتملون الانتصار عليه، ولكنّ شهداء كربلاء وقفوا ضد أعظم قوّة وسلطة بشرية في ذلك الوقت، وهي الحكومة الأموية، ولم يكن لديهم أيّ احتمال للانتصار على الجيش الاموي، بل إنّهم على العكس، كانوا على يقينٍ من القتل والاستشهاد إلى جانب الحسينعليه السلام، ومع ذلك استمروا في الدفاع عن دين الله وقتال الحكومة الجائرة والفاسدة، وضحّوا بكل شيء في هذا السبيل.

الثاني: إنّ شهداء بدر قاتلوا كفاراً ومشركين، ولم يكن لديهم أيّ شك في أحقيتهم وزيغ أعدائهم، ولكن شهداء كربلاء قاتلوا جيشاً جرّاراً يتظاهر بالإسلام، بل فيهم من يدّعي القداسة، بينما هم ـ في الحقيقة ـ كفار يتقنعون بقناع الإسلام، وهذا ما كان يثير طبعاً بعض الوساوس في نفوس البسطاء من الناس، ولذا واجه شهداء كربلاء مشاكل نفسية أيضاً من هذه الجهة.

قدوات إسلامية

إنّ الشوق إلى الشهادة في سبيل الحق لا يختص بتلك الفئة من أصحاب الحسينعليه السلام، الذين وُفّقوا لحضور كربلاء والمشاركة في تلك الملحمة، بل إنّ هذه الحالة موجودة عند جميع أتباع الإمام الحسينعليه السلام وأنصاره الذين تربّوا في مدرسة الإمام عليّعليه السلام، كلٌّ حسب رتبة إيمانه، والشاهد الواضح على هذا الأمر، هو أنّه بعد استشهاد الإمام الحسينعليه السلام نجد أنّ المؤمنين استمروا في اقتفاء أثر هذه النهضة المقدّسة، وفجّروا الثورات المتتالية ضد الحكومة الأُموية، أو وقفوا مواقف مشرّفة، ومن أُولئك:

(عبدالله بن عفيف الأزدي) نموذج ومصداق لهذه المقولة، فهذا الشيخ المسن، الذي فقد إحدى عينيه في معركة الجمل والأُخرى في معركة صفّين مع الإمام عليّعليه السلام، ومن الطبيعي أن يكون معذوراً ـ وهو على هذه الحالة ـ من الجهاد ومحاربة الأمويين وجيش عبيد الله بن زياد. ولكن عبدالله الأزدي الذي نشأ في

مدرسة الإمام عليّ(ع) لم يستطع طبعاً الصمت إزاء الأمر الواقع، بل تحرك من منطلق المسؤولية وتصدى لابن زياد الذي كان في أوج قوته وانتصاره، ولم يمنعه ذلك من الوقوف ضده وإن كلّفه ذلك حياته. فعندما دعى عبيدالله بن زياد أهل الكوفة إلى المسجد بُعيد فاجعة كربلاء، قام خطيباً فيهم، وبعد أن حمد الله كما هو ديدن الخطباء، قال: «**الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أميرالمؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن عليّ(ع) وشيعته**».

وقبل أن يتمّ كلامه، قام عبدالله بن عفيف الأزدي ـ وهو فاقد البصر وصاحب القلب المضيء بالإيمان ـ من بين الشرطة والناس الخائفين، وصرخ بعبيد الله وقال ما مضمونه: «**يابن مرجانة! إنّ الكذاب بن الكذاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه، يابن مرجانه! أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصدّيقين...**».

ومن المعلوم أنّ عبدالله بن عفيف كان يعلم أنّ عاقبة موقفه الصاعق هو القتل بأمرٍ من عبيدالله السفّاح، وهو ما حصل بالفعل، إذ لم تمض أيام حتى صُلب؛ ليكون عبرة للآخرين، ولكنّ اللافت للنظر أنّ عبدالله بن عفيف لم يكن خائفاً من هذا المصير، بل على العكس كان يتمنى هذه الخاتمة، إذ قال في مواجهته مع عبيدالله بن زياد: «**اتريد أن تقتلني؟ أما إنّي قد كنت أسأل الله ربي أن يرزقني الشهادة من قبل أن تلدك أُمك، وسألت الله أن يجعل ذاك على يدي ألعن خلقه وأبغضهم إليه، فلمّا كفّ بصري يئست من الشهادة، والآن فالحمدلله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرّفني الإجابة بمنّه في قديم دعائي**»[1].

(قيس بن مسهر الصيداوي) واحد من الشخصيات المرموقة التي ضحّت في سبيل الحسين(ع)، وسارت على خطى كربلاء أيضاً، وهو الذي أدّى دوراً تبليغياً واعلامياً مهماً جداً، فقد كان قيس مبعوثاً من قبل الحسين(ع) ليوصل بعض رسائله وكتبه إلى رجال الكوفة والشخصيات الشيعية فيها، ولكنّه حين وصل الكوفة كان

---

١. اللهوف، ص ٩٨؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٥١؛ الارشاد، ج ٢، ص ١١٧؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٣؛ المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٥٤.

عبيدالله بن زياد قد أحكم قبضته عليها، ووضع العيون على أبوابها، وقبض على كثير من أصحاب الحسينعليه السلام وشيعته، فوقع قيس بيد هؤلاء الجواسيس أسيراً وأُخذ مكبّلاً إلى عبيد الله بن زياد، فجرت بينهما مواجهة كلامية أظهرت مدى شجاعة قيس وتفانيه في خدمة الحق والخلق:

قال عبيدالله لقيس : من أنت؟

أجابه قيس : أنا رجل من شيعة أميرالمؤمنين عليّبن أبيطالبعليه السلام وابنه الحسينعليه السلام.

عبيدالله: وما علاقتك بالحسينعليه السلام؟

قيس: كنت مأموراً من جانبه لأن أبلغ كتاباً وكلمات إلى شيعته.

عبيدالله: آتني بكتابه حتى أراه.

قيس: قد خرقت الكتاب.

عبيدالله: فلماذا خرقت الكتاب؟

قيس: لئلّا تعلم ما فيه.

عبيدالله: وممّن الكتاب وإلى من؟

قيس: من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرفهم.

فغضب إبن زياد وقال: والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم أو تصعد المنبر وتلعن الحسين بن عليّ وأباه وأخاه وإلّا قطعتك إرباً إرباً.

فقال قيس: أمّا القوم فلا أُخبرك بأسمائهم وأمّا لعن الحسينعليه السلام وأبيه وأخيه فأفعل.

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيصلى الله عليه وآله وأكثر من الترحم على عليّ والحسن والحسين صلوات الله عليهم، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ولعن عتاة بني أُمية عن آخرهم، ثم قال: «أيّها الناس أنا رسول الحسين إليكم وقد تركته في حاجر ـ منطقة قريبة من الكوفة ـ فسارعوا إليه وانصروه ضد الظالمين..»، ثمّ سلّم

على الحسين و عليّ عليهما السلام، ولعن عبيدالله و أباه و يزيد و أباه[1].

فاستولى الغضب على عبيدالله بن زياد الذي لم يتصور هذه الجرأة والشهامة، فأمر أن يُلقىٰ بقيس من أعلى القصر إلى الأرض، واستشهد قيس بهذه الصورة الفجيعة، وبذلك نال أُمنيّته وأضاف صفحة ذهبية أُخرى إلى سجلّ المضحّين في سبيل الحق، كما أسقط قناعاً آخر من أقنعة الزيف التي تتستّر بها الحكومة الأموية.

إنّ من أهمّ القيم العملية للإسلام أنّه يربّي ـ بتعليماته الهادية ـ شخصيات قوية كالجبل لا تنهزم أمام التحديات ولا تضعف أمام العقبات، بل تواجه الطغاة بشهامة وإستقامة منقطعة النظير، وتبعثر قواهم وتسقط الوهم أمام الحقيقة الواضحة، وتسحق سمعة الطغاة وابهتهم عند الناس، وترمي بشخصيتهم إلى الحضيض. وكما سبق الحديث عن حياة هؤلاء الأبطال، والتي تركت بصماتها على وعي المسلم، إذ فتحوا لنا آفاقاً جديدة وجذابة في أفق الحياة، لأنّهم كانوا مصدراً لإشعاع الحرية والشجاعة والكرامة الإنسانية، وقد أزالوا كابوس الخوف والذل عن نطاق الفكر والعقيدة الإلهية والإيمانية. هؤلاء الرجال المؤمنون يعيشون ـ في الحقيقة ـ بأرواح ملائكية، أمثال عمار، وأبي‌ذر، ومحمد بن أبي‌بكر، ومالك الأشتر، وحجر بن عدي، ورشيد الهجري، وعمرو بن الحمق، وسعيد بن جبير، وكميل بن زياد، وآلاف مؤلفة غيرهم من الذين ساروا في طريق الجهاد والدفاع عن الحق، وبذلوا في ذلك النفس والنفيس، وواصلوا السير على خطى الإمام عليّ والحسين عليهما السلام سواء في حياتهم أو بعد شهادتهم.

إنّ تضحيات هؤلاء المؤمنين المخلصين يمكنها أن تعكس الحقيقة التي تعدّ محور الحركات والنهضات الحسينية في رسالة الإسلام، والمتمثلة في أنّ الإقدام على الشهادة في سبيل المقاصد العليا في دائرة الفكر الإسلامي قضية معقولة ومشروعة كاملاً، ولهذا لم تقتصر على الحسين عليه السلام وأصحابه، بل اشتملت على جميع ما يشبه الشخصيات المذكورة آنفاً، والذين استقبلوا الموت بمعرفة تامة

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٠٦؛ الارشاد، ج ٢، ص ٧١؛ اللهوف، ص٤٦.

للأهداف السامية والمقدسة، التي يتجهون نحوها، ومن هنا لابد من القول أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، برغم أنّها تحتوي ـ شكليّاً ـ على ميزات خاصة، ولكنّها ـ أساساً ـ ليست إلّا افرازاً لروح الإيمان التي زيّنت التاريخ الإسلامي، وإن كانت تختلف صورها بإقتضاء الظروف المختلفة.

النساء المؤمنات أيضاً يضحين في سبيل الحق

لم تقتصر حادثة كربلاء على تضحيات الرجال المخلصين، بل إنّها اشتملت على النساء المؤمنات اللاتي واجهن الطاغوت بأشكال مختلفة، واستقبلن الشهادة برحابة صدر، برغم تأثرهن وحزنهن وصراخهن وهن يواجهن المصائب الكبرى التي تعرضن لها.

وقد يتصور بعض المؤرخين والباحثين أن حزن وبكاء بعض أصحاب الحسين عليه السلام، خاصة النسوة، يحكي عن الندم أو شدة الخوف، ولكن الحقيقة تعاكس هذا الرأي، فأتباع الحق وإن كانوا موقنين بأنّ جميع المصائب في سبيل الحق هي مصدر السعادة والخير، ولكنّهم في الوقت نفسه وبحكم الطبيعة البشرية يتأثرون ويتألمون منها، ويعبّرون عن ذلك بالبكاء، وقد رأينا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً ـ كما تقول الروايات ـ بكى لوفاة ولده (إبراهيم) مع أنّه كان يعتقد ـ قطعاً ـ أنّ مصيبة المؤمن هي من قضاء الله وقدره، وعلامة رحمة الله ولطفه، وأجاب صلى الله عليه وآله من يتوهّم أنّ بكاءه هذا يتنافىٰ مع عقيدته في الرضا بالقضاء والقدر، فقال: «... تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلّا ما يرضي الرب وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون»[١].

والإمام الحسين عليه السلام كان كذلك، فإنّه يتأثر ويتألم ويبكي بطبيعة الحال وهو يرى أجساد أعزائه وأحبائه مضمخة ومعفرة بالدم والتراب، ولكنه في الوقت نفسه لم يتزلزل ولم يتردد إطلاقاً في حركته في ساحة الدفاع عن الحق ضد الباطل، و هكذا كانت شقيقته (زينب)، فمع كل المصائب التي مرت عليها، وتكفي واحدة منها أن

---

١. تحف العقول، ص٣٧؛ العقد الفريد، ج٣، ص١٦٨.

تقصم ظهر أيّ انسان، نراها في ثباتها تمثّل الانضباط في مواقع المسؤولية وبجرأة وشهامة نادرتين.

لقد كانت زينب أكثر نساء عصرها عزة، فهي بنت النبوة والإمامة والأمجاد، ومع ذلك ترىٰ بأم عينها جسد أخيها المقطّع إرباً بيد جيش بني أُمية، وكذلك أجساد أبنائها وأعزائها عارية وبلا رؤوس على رمضاء كربلاء. وبعد ذلك وقعت على عاتقها مسؤولية رعاية الأيتام والأرامل من آل محمد، الذين وقعوا أسرىٰ بيد الأعداء القتلة، وتحركت من كربلاء إلى الكوفة والشام بذلك الموكب المفجع، ثم أُدخلت بتلك الصورة في المجلس المشؤوم لعبيدالله بن زياد، وبعده مجلس يزيد الأكثر شؤماً، وقد سيّرت مع أسرى آل محمد صلى الله عليه وآله ورؤوس شهدائهم في الفلوات والطرق الصعبة، وذاقت جميع الوان المصائب، وبرغم ذلك كله نجدها تقف بقوة واقتدار أمام يزيد وأمثاله، وتصرخ بهم في حضور الملأ والجماهير من الناس، وتذكر لهم ما وقع عليها بهذه الجملة العجيبة والخالدة: «إنّي ما رأيت إلّا جميلاً»[1]، أي برغم أنّنا نبكي ونذرف الدمع بسبب ما تعرضنا له، ولكنّنا لا نتردد في مواجهة المستكبرين والطواغيت، بل نفرح لذلك ونراه جميلاً.

ولم تكن زينب عليها السلام لوحدها على هذا الحال، بل كانت جميع النسوة المؤمنات يتشوقن إلى الدفاع عن الحق والجهاد ضد الباطل، فلم يترددن في التضحية، حتى لو واجهتهن جميع ألوان المصائب من أجل ذلك. وإحدى هذه النسوة هي زوجة (عبدالله بن عمير)، فهذه المرأة وزوجها كانا ممن حضرا إلى جنب الحسين في كربلاء، وكان زوج هذه المرأة الطاهرة المؤمنة قد نزل الكوفة فرأى القوم بالنخيلة يُعرضون للتهيؤ للقتال فسأل عنهم فقيل له: يُسرحون إلى الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصاً، وإنّي لأرجو أن لا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون بن بنت نبيهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إيّاي في جهاد المشركين». فدخل إلى امرأته وأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد، فقالت:

١. اللهوف، ص٩٤؛ المقتل للخوارزمي، ج٢، ص٤٢.

«أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك، إفعل وأخرجني معك».

ونفس هذه المرأة في يوم عاشوراء كانت ترغّب زوجها بالجهاد في سبيل الله، وجاءت إلى ميدان المعركة وقالت لزوجها: «فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين من ذريّة محمدﷺ»، فما كان من زوجها إلّا أن أرجعها إلى الخيمة، ولكنّها جاءت مرة ثانية إليه وقالت: «إنّي لن أدعك دون أن أموت معك» فأمر الإمام الحسينعليه السلام بإرجاعها ثانية إلى الخيمة، ولكنّها ظلّت تراقب قتال زوجها وبطولاته في الميدان، وعندما رأت زوجها يسقط صريعاً على الأرض، جاءت إلى جثمانه الدامي ورفعت رأسه ووضعته في حجرها، وأخذت تزيل الدم والتراب عن وجهه وتقول: «هنيئاً لك الجنة»[١]، وفيما كانت غارقة بهذا الترنم السماوي فاذا بأحد أفراد الجيش الأموي يضربها بالحربة على رأسها، ويقتلها في مكانها، وهكذا نالت الشهادة مع زوجها.

كانوا أكثر من اثنين وسبعين:

تحدّثنا حتى الآن عن موقف الحسين وأصحابه من الحكومة اليزيدية وعمالها وأعوانها، والآن نذكر موضوعين مكمّلين لهذا الحديث:

الأول: هل أنّ أصحاب الحسينعليه السلام ينحصرون باثنين وسبعين؟ الثاني: على فرض انحصارهم بهذا العدد، هل أنّ قلة هذا العدد يقلل من قيمة جهادهم للأكثرية المخالفة؟ هذان الأمران وخاصة الأمر الثاني لهما دور مهم في دراسة نهضة الإمام الحسين، وإزالة الكثير من الإشكالات المتعلقة بها.

أمّا عن الموضوع الأول فيجب القول: إنّه مع أدنى التفات إلى النصوص التاريخية يتضح أنّ أصحاب الحسينعليه السلام لا ينحصرون باثنين وسبعين شخصاً، بل إنّ عددهم يفوق ذلك بكثير، غاية الأمر أنّ معظمهم لم يتمكنوا من الالتحاق بالإمام الحسينعليه السلام، بل لم يستطيعوا الحصول على أخبار وقائع نهضته، خاصة وأنّ النهضة كانت تعيش ظروفاً صعبة جدّاً، ولم تكن مسبوقة بخطة معلومة لجميع الأنصار

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٣٣.

والمؤيدين، بل إنّها بدأت وانتهت بشكل محدود، ولم تستغرق فصولها التنفيذية سوىٰ عدة أسابيع. وفي هذه المدة القصيرة كان ولاة يزيد يشدّدون التنكيل والإرهاب على الموالين للإمام الحسينعليه السلام ويقمعون كل تحرك مضاد، ويعملون بكل قدراتهم ـ في جميع المناطق الإسلامية وخاصة في المناطق الثورية مثل العراق ـ من أجل تثبيت أركان الحكومة الأموية، وقد عملوا ـ بأمرٍ من يزيد ـ على تشديد حالة التنكيل[1]، فكانوا يأخذون حتى المشتبه بهم، ويذيقونهم أشد الوان التنكيل كالنفي والسجن أو القتل. والأنكى من ذلك أنّ هذه الأساليب الوحشية كانت مقترنة بمحاصرة الطرق والتجمعات بهدف منع أيّ تسرّب للأخبار المتعلقة بالإمام الحسينعليه السلام ومقصده وأهدافه، فضلاً عن مساعيهم لنشر الأكاذيب والشائعات وقلب الحقائق، كما هو دأب السياسات الشيطانية في السيطرة على الأفكار والرأي العام.

إذن لولا هذه الموانع العسكرية والسياسية والإعلامية لالتحقت أعداد كثيرة بهذه الثورة الربانية، وممّا يشهد على هذا ما حصل مع الانتفاضات اللاحقة التي انبثقت لمتابعة أهداف ثورة الإمام الحسينعليه السلام والثأر لدمائه من الحكومة الأموية الجائرة.

لقد كان الإمام الحسينعليه السلام الشخصية الإسلامية البارزة في المجتمع الإسلامي، ولهذا كان من الطبيعي أن يلتحق به كثير من المسلمين ويتحركوا لنصرته ومواجهة أعدائه، إذ كانوا يكنّون له كل الاحترام والمحبة، حتى إنّ معاوية يذكر ذلك ويقول: «إنّهم يصغون له وكأنّ على رؤوسهم الطير»[2]، ويقول عمرو بن العاص في هذا الصدد أيضاً: «الحسين أحب أهل الأرض إلى أهل السماء»[3].

وبسبب هذا الموقع الاجتماعي الرفيع للإمام الحسينعليه السلام كان معاوية يتردد في أمر تصفيته، بل كان يثني عليه ـ أحياناً ـ خلافاً لميله الداخلي. ويُذكر أنّ معاوية

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٦. ٢. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٧٩.

٣. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٧٩؛ مصنف ابن أبي شيبة، ج ٧، ص ٢٦٩، المعجم الأوسط، ج ٤، ص ١٨١..

تسلم يوماً كتاباً شديد اللهجة من الإمام الحسينعليه السلام يقول فيه بعد أن يعدد بعض جرائم معاوية: «**فلا أعرف فتنة أعظم من ولايتك ... ولا أعلم نظراً لنفسي وولدي وأمة جديصلى الله عليه وآله أفضل من جهادك**»، وكان يزيد حاضراً عند أبيه، وكان أبلهاً ومتعنتاً، فطلب منه أن يبعث إلى الإمام الحسينعليه السلام جواباً عنيفاً تصغر إليه نفسه، لكن معاوية قال: «**إنّ مثلي لا يحسن به أن يعيب بالباطل وما لا يعرف الناس، ومتى عبت رجلاً بما لا يعرف الناس لم يحفل به صاحبه ولم يره شيئاً، وما عسيت أن أعيب حسيناً وما أرى للعيب فيه موضعاً**»[1].

تأثير شخصية الإمام الحسينعليه السلام

كان معاوية ماكراً ومخادعاً إلى درجة أنّه إذا لم يجد أية نقطة ضعف في معارضيه، فأنّه يضع نقاط ضعف فيهم ويشيعها بين الناس. ومع ذلك فإن معاوية هذا يمتدح الإمام الحسينعليه السلام ويصرّح بعجزه عن مواجهته. وعجز معاوية هذا لا يوضّح عظمة الإمام الحسينعليه السلام أمام معاوية و سائر أعدائه فحسب، بل إنّه يوضّح أيضاً مكانة الإمام الاجتماعية والسياسية الرفيعة بين المسلمين ومستوى احترامهم له، الأمر الذي أغلق كل أبواب الطعن في شخصيته الكريمة، ولهذا السبب فإنّ معاوية لم يستطع افتعال منقصة في شخصية الحسينعليه السلام حتى يتحرك من خلالها لإسقاط هالة القداسة التي كانت تحيط به.

ولم تكن شخصية الإمام الحسينعليه السلام سامية وعظيمة في المجالات الشخصية والاجتماعية فحسب، بالصورة التي يعترف بها معاوية وغيره وكذلك المؤرّخون كابن الأثير الذي يقول في حقه: «**كان فاضلاً كثير الصوم والصلاة والحج والصدقة وأفعال الخير جميعها**»[2]. بل إنّه من ناحية علاقته بالرسول الاعظمصلى الله عليه وآله كان أيضاً ذا

١. الاحتجاج، ج ٢، ص٢٢؛ الإمامة والسياسة، ج ١، ص٢٠٣.
٢. أسد الغابة، في ترجمة الحسينعليه السلام .

منزلة عظيمة ومهمة جداً، حتى عرف بسيد أهل البيت. وكان أيضاً موضع تقديس وتكريم المسلمين الذين سمعوا وقرأوا الآيات القرآنية التي تمجّد بأهل البيت، وكذلك ما ورد من الروايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في محبته وتقديره للحسن والحسين عليهما السلام، كقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن و الحسين عليهما السلام سيدا شباب أهل الجنة» و«هذان ابناي وهما ريحانتاي من الدنيا». ويقول عن الحسين عليه السلام خاصة: «حسين منّي وأنا من حسين»[1]. هذا الحديث النبوي الشريف يؤيّد مقولة بعض المحققين المعاصرين: «الإسلام محمدي الحدوث وحسيني البقاء»[2]. والإمام عليّ عليه السلام أيضاً كان كرسول الله صلى الله عليه وآله يرى في سيماء الإمام الحسين عليه السلام استمراراً للرسالة الإلهية، ولذلك كان يقول في حقه: «أشبه أهلي بي الحسين»[3].

وفي السياق نفسه، كان الإمام الحسين عليه السلام موضع احترام وتقدير منافسيه ومعارضيه أيضاً، مثل ابن الزبير الذي دافع عن حق الحسن والحسين عليهما السلام في الإمامة أمام معاوية فقال: «وأنت تعلم من هما وإلى ما هما»[4]، ويقصد بذلك أنّ الحقيقة الواضحة أنّ الحسن والحسين عليهما السلام شخصيتان عظيمتان لا تقاسان بأحد من عظماء المسلمين، فكيف الأمر بأدناهم أمثال يزيد؟!

واللافت للنظر أيضاً أنّ شخصية مهمة كابن عباس، كان يفتخر بأخذ لجام مركب الإمام الحسين عليه السلام، ويقول أمام الناس: «أليس من سعادتي أن آخذ بركاب ابن رسول الله»[5]، وكما ذكرنا فإنّ أبا هريرة الذي كان من ولاة معاوية يقول أيضاً ما ملخصه: «أنا لا أقدّم أحداً على الحسين».

---

١. الأدب المفرد، البخاري: ٨٥؛ مسند احمد، ج ٤، ص ١٧٢؛ الإرشاد، ج ٢، ص ١٢٧؛ تذكرة الخواص، ص ٢٣٣؛ أُسد الغابة في ترجمة الحسين عليه السلام؛ كامل الزيارات، ص ٥٢ و... .

٢. الغدير، ج ٣، ص ٢٤٧.

٣. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٧٧؛ أنساب الأشراف، ص ١٦٨.

٤. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٧٩؛ الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٩٤.

٥. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٧٩؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩٦، جمهرة الخطب، ج ٢، ص ٢٤٦.

الوجدان العام مع رجال الحق

لم يكن وجود النماذج المذكورة آنفاً ونظائرها بالأمر الهيّن، بل إنّ لها أهمية كبرى؛ بالنظر إلى نوعية شخصياتها، ويمكن القول إنّ من أجلى النماذج الرائعة التي توضح سمو وعظمة شخصية الحسينعليه السلام وتأثيرها، هو حديث الفرزدق الذي يبيّن مكانة الإمام الحسينعليه السلام في جملة بليغة ومختصرة، حيث يقول: «قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية»[1]، أي حتى الذين يقاتلونك بضغط حكومة يزيد، فهم يحبونك ويرونك إمام الحق.

ومثل هذه المقولات التي كان الحسين عالماً بها، مبصراً بطبيعتها، توضّح أنّه بالرغم من سيطرة يزيد على الأجساد والأبدان إلّا أنّ الحسينعليه السلام كان يحكم القلوب والأفكار، وبالرغم من أنّه ـ بسبب الإرهاب الشديد للحكومة اليزيدية ـ لم يكن يتمتّع بأكثرية ظاهرية، ولكنّه كان يتمتع بأكثرية حقيقية، أي كان له مكانة أسمىٰ وأعلى في أفكار عامة الناس و وجدانهم التي لها تأثير عظيم في تفعيل النهضة الحسينية واستكشاف مضمونها الاجتماعي. وأساساً فانّ نهضة الإمام الحسينعليه السلام مدعومة برصيد فكري وعقائدي شامل، يوفّر لها المناخ الملائم لتحقيق النصر الحقيقي ولو بعد التراجعات والإخفاقات الظاهرية.

وفضلاً عن أنّ الأكثرية الحقيقية كانت مع الإمام الحسينعليه السلام، فإنّ أصحاب الحسينعليه السلام كانوا أكثر بكثيرٍ ـ حتى في الظاهر ـ من الاثنين والسبعين شخصاً الذين استشهدوا معه، لأنّه مضافاً إلى ما تقدم من محبوبية الإمام الحسينعليه السلام ومكانته الاجتماعية والسياسية بين الناس، وتأثيره الكبير في جذب التيارات الإسلامية إليه، ومضافاً إلى أنّ كثيراً من أهل الكوفة بايعوا مسلم بن عقيل رسول الإمام إليهم، وبرغم أنّ جماعاتٍ منهم قد نقضوا البيعة إلّا أنّ كثيرين قد بقوا أوفياء لها، غاية الأمر أن هؤلاء الأوفياء لم يتمكنوا من الالتحاق بركب الإمام الحسينعليه السلام، نتيجة

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٢٩٠؛ الإرشاد، ج ٢، ص٦٧.

للجو الإرهابي السائد حينذاك. إضافة إلى كل ذلك، فإنّ الثورات الكبرىٰ التي حدثت بعد مقتل الإمام الحسينعليه السلام، وخاصة في العراق والحجاز وإيران ومناطق أُخرى، وواصلت الخط الثوري لنهضة الإمام الحسينعليه السلام، ـ كما سوف يأتي في الفصل الرابع ـ وانطلقت بشعارات عجيبة من قبيل: (يا لثارات الحسين)، وقدّمت الكثير من التضحيات في سبيل إسقاط الحكومة الأموية، وبالتالي أسقطت عبيدالله وعمربن سعد وشمراً وغيرهم من المجرمين وقضت عليهم أو على أكثرهم، بسبب جناياتهم في كربلاء، وتحقيقاً لأهداف النهضة الحسينية المقدّسة. وفي النهاية أسقطت الحكومة الأموية نفسها، وغيّرت الأمور لمصلحة الإسلام والمسلمين، كما أنّ النهضة الحسينية على طول التاريخ كانت مثمرة لثمرات أساسية، وسنرى تفصيلها في الصفحات الآتية. وبالجملة فهذه الأمور من الأدلة القطعية على أنّ أصحاب الحسينعليه السلام كانوا أكثر بكثيرٍ مما ذُكر، برغم أنّهم لم يستطيعوا الالتحاق بركبه في ذلك الزمن المحدّد والمرعب.

الإسلام مع الحق لا الأكثرية والأقلية

وأمّا بالنسبة إلى الموضوع الثاني لابدّ من القول: وعلى فرض أنّ أنصار الحسينعليه السلام ينحصرون بإثنين وسبعين شخصاً أو أقل، ولكن حيال هذا الافتراض يجب أن نعلم أنّ قلة هذه المجموعة لا يقلل من قيمة نهضتهم ومقامهم السامي؛ لأنّ المقياس والمعيار لتقييم الناس والنهضات لا يكمن في عدد الأفراد، بل في أهدافهم. وبينما يولي السطحيون الكثرة والعدّة والعدد أهمية كبيرة. فإنّ أهل البصائر واولي الألباب والمؤمنين الحقيقيين لا يعيرون أهمية للكثرة أو القلة. والقرآن الكريم يذكر الأكثرية أكثر من سبعين مرة، ومع ذلك لم يجعلها معياراً للتقييم ولو في موضع واحد، بل يصفهم غالباً بعناوين سيّئة من قبيل (الجاهلين) و(المشركين) و(الفاسقين) و(غير شاكرين) و(كاذبين) وأمثال ذلك.

والإمام عليّ عليه السلام يذم الأكثرية أيضاً، ويصفهم بأنّهم «همج رعاع»[١]، وكذلك إبنه الإمام الحسين عليه السلام يصفهم بأنّهم: (عبيد الدنيا)[٢].

هذا المبدأ الإسلامي الذي يعارض مقياس الأكثرية، وعلى الأقل لا يتفق معها، ينفي كونها أساساً للمشروعية؛ وهذا لا يعني أنّ الإسلام يتخذ جانب الأقلية ويدافع عنها. فالإسلام لا يدافع عن الأقلية من الناس باعتبار أنهم أقلية؛ لأنّه لا يرى أصلاً لا في الأقلية ولا في الأكثرية معياراً للمشروعية، بل يعتبر الحق هو المعيار الوحيد سواء كان مع الأقلية أو مع الأكثرية، ولذلك يذكر القرآن الكريم الحق أكثر من مئتي مرّة ويجعله محوراً في جميع المسائل والأمور وحتى مسألة الإيمان والكفر، فيجعلها مبتنية على الحق وضده، أي الباطل، فيقول:

﴿ذلك بأنَّ الذين كفروا اتبعوا الباطل وأنّ الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾[٣]، أي إنّ الفرق الأساس بين الفئة المؤمنة والفئة الكافرة وفي موقفيهما هو اتّباع الأُولى للحق، واتّباع الثانية للباطل.

ماقيمة الكثرة أو القلة العددية؟

وطبعاً إنّ الإسلام يحترم رأي الأكثرية في بعض المجالات، ولكن في هذه المجالات أيضاً يجب ملاحظة أمرين أساسيين في معرض الإجابة عن تساؤل بعض الجهلاء حول دافع الإمام الحسين عليه السلام لإعلان الثورة مع قلة العدد، في حين أنّ أكثرية المسلمين كانوا ساكتين ولو خوفاً، والأمران هما:

الأوّل: إنّ الدين الإسلامي يحترم رأي الأكثرية في المسائل اليومية الجزئية فقط، لا في المسائل الاعتقادية ولا في المسائل الأساسية من قبيل ضرورة الثورة على الحكومات الظالمة وجهاد الطواغيت، كيزيد وأمثاله الذين يشكّلون الخطر الكبير والواضح على المجتمع والدين.

---

١. شرح نهج، ج١٨، ص٣٤٦.   ٢. تحف العقول، ص٢٤٥.
٣. سورة محمد، الآية ٣.

الثاني: إنّ الدين الإسلامي لا يأخذ رأي الأكثرية حتى في المسائل اليومية لمجرد أنّها أكثرية، بل يقبلها فيما إذا كانت متفقة مع المبادىء الإسلامية والأُصول الشرعية، أي في حالة كونها وليدة الحق، على العكس من المدارس والمذاهب الغربية والشرقية التي ترى رأي الأكثرية معياراً للحق، وفي الواقع أنّها ترى أنّ الأكثرية هي مولّدة الحق أو كاشفة عنه.

واللافت للنظر أنّ المدارس الشرقية والغربية، مع أنّها تختلف في الكثير من المسائل، إلّا أنّها تتّفق على كون الأكثرية هي المحور الأصل والمعيار الأساس للحاجات الفردية والاجتماعية، وحتى للمعتقدات البشرية، مع أنّه قد ثبت تاريخياً وفي التجارب الحياتية أنّ آراء الأكثرية ـ عادةً ـ نابعة من الميول الطبيعية، وهي تتبدل يوماً بعد آخر دون أن تكشف عن هدفٍ واضحٍ يطمأنّ إليه، فضلاً عن أنّ الأكثرية تكون في جميع الأمور أو في غالبها مسيّرة من قِبَل الأقلية المتنفذة أو المسيطرة على مقاليد الأمور، إذ تتحرك أكثرية الناس تبعاً لإرادة هذه الأقلية وتخطيطها.. شعروا بذلك أم لم يشعروا.

وليس الإسلام والتاريخ والتجربة فحسب، بل إنّ العقل الحقيقي والسليم أيضاً يقول: إنّ الأكثرية لا تصنع الحق ولا تكشف عنه، والدليل العقلي على ذلك أنّه لو فرضنا أنّ رأي شخصٍ واحد كان خطأً في مسألة من المسائل، فهذا الرأي الخاطىء بالمقياس الرياضي يساوي صفراً، وكذلك آراء الآلاف من الأشخاص المتفقة مع هذا الرأي تساوي آلاف الأصفار في الحقيقة، وآلاف الأصفار تساوي صفراً واحداً أيضاً، اضافة إلى أنّ الأكثرية إن كانت مصدراً للحق أو كاشفة عنه، فلابدّ ـ إذن ـ أن نقول: إنّ الحق في كل زمانٍ مع غير المتدينين الذين يشكّلون الأكثرية من الناس قبال الأقلية المتدينة! وكذلك فإنّ الحق مع غير المسلمين الذين يشكّلون الأكثرية أيضاً! وكذلك فإنّ الإمام عليّاً وخطه وخط أهل بيته، الذين كانوا دائماً في الأقلية، ليسوا أصحاب الحق في مقابل الأكثرية الذين يتحركون ضدهم، حتى من موقع الخصومة واللعن! وكذلك لابدّ أن نقول: إنّ رجال الله أمثال نبي الإسلام في السنوات

الأولى من الدعوة الإسلامية لم يكونوا أصحاب حق! ولكن بعد أن تحوّلت الأكثرية الظاهرية إلى جانبه أصبحوا من أصحاب الحق، ولو لم يتمتعوا بدعم الأكثرية فلن يكونوا أصحاب الحق!

جذور الكثير من الإشكالات حول نهضة الإمام الحسين عليه السلام

يمكن القول بأنّ جذور الكثير من الإشكالات التي تورد على نهضة الإمام الحسين عليه السلام، هي أنّها قد جعلت الأقلية والأكثرية محوراً ومعياراً لتقييمها، رغم أنّ هذا المعيار لا قيمة أساسية له في نظر الإسلام؛ فإنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت إسلاميةً خالصة، ومن ذلك يجب أن تقاس بمعيار إسلامي، وهذا المعيار الإسلامي لا يرتبط بالأكثرية والأقلية كما تقدّم، وخاصة في موارد وضوح الحق والباطل في نظر عامة الناس، وأساساً فإنّ الامتياز الكبير للأنبياء وأتباعهم ـ كما يشهد تاريخ حياتهم ـ هو أنّهم وقفوا أمام الأكثريات الفاسدة التي كانت تتبع الحكومات الفاسدة، وجاهدوها بكل ما أُوتوا من قوة، وما أكثر من استشهد في هذا السبيل الذي هو سبيل الإسلام والإنسانية، وبذلك غرسوا في وعي الأُمة براعم النهضة وأسقطوا بهدايتهم الثورية قوى الانحراف وقذفوا بها في مزبلة التاريخ.

وأحد أساليب الحكومة الأموية التي كانت تتبعها من أجل تحقيق مقاصدها واستغفال الناس لاستخدامهم في مواجهة أهل الحق، هو التمسك بذريعة الأكثرية، وتحرك إعلامها المضلّل باتجاه الدفاع عنها بإسم الأُمة والجماعة والوحدة بين المسلمين، وبهذه الذريعة كانت تُصوّر للناس أنّ الأقلية المخالفة التي تدّعي الإصلاح لا تنطلق من موقف فكري صحيح، بل تتحرك من موقع الرغبة في الرئاسة والسلطة، وتهدف إلى إرباك النظام الاجتماعي وايجاد الخلل في المجتمع، كما ادّعى يزيد بن معاوية لتبرير قتل مسلم بن عقيل بأنّه أراد «شق عصا المسلمين»[١].

والواقع أنّ أحد فصول التاريخ الإسلامي السوداء، منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، والذي

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٦٥؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٤٣.

أدّى إلى تخدير المسلمين وتظليلهم، هو أنّ الحكام كانوا ينظرون إلى الأكثرية بأنّها معيار الحق والباطل ومعيار العمل والعقيدة أيضاً، وبهذه الرؤية يدّعون تحكيم الأكثرية في جميع أمورهم، بل تحكيمها حتى على رجال الحق كالإمام عليّ والإمام الحسين عليهما السلام.

إنّ موضوع الأكثرية والأقلية موضوع متشعّب ومفيد في الوقت نفسه، ولذلك لابدّ من دراسته دراسة مفصّلة من جميع جوانبه وآثاره، سواءٌ في دائرة الثقافة أو في التاريخ، ولكن بحثنا هذا استلزم إشارة مضغوطة بهدف رفع الإشكال عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، والمقصود من هذه الإشارة ليس ذكر أنّ الأكثرية الغارقة في ضباب دعاية الحكومات الفاسدة وفي مواجهة قوىٰ الحق، لا قيمة لها أصلاً؛ فإنّ هذا الأمر لا حاجة إلى اثباته، بل المقصود هو أنّ القرآن الكريم وهو منبع الحياة المعنوية والثقافة الإسلامية، يحرّك المؤمنين دائماً نحو مواجهة الأكثرية الضالة، وإن كانوا ـ كسحرة فرعون و زوجته الذين آمنوا بموسى أو كأصحاب الكهف الذين سلكوا طريق الحق ـ أقلية صغيرة جدّاً، فإنّ الخطاب القرآني يؤيّدهم بصراحة في طريق مواجهتهم لقوىٰ الانحراف مع كثرتها وقوّتها من كل جهة، حتى لو استُشهدوا جميعاً في هذا الطريق القيّم.

أجل، فإنّ ثناء القرآن الكريم على سحرة فرعون و على زوجته لأنهم واجهوا الحكومة الفرعونية المقتدرة، وكذلك تكريمه الفتية المؤمنة من أصحاب الكهف لأنهم واجهوا الأكثرية الضالة والمستبدة، ومدحه سلوك الأنبياء ومواجهاتهم الحاسمة لطواغيت عصرهم وأقوامهم المنحرفين، كل ذلك دليل واضح على أنّ جهاد الأقلية المؤمنة ضد الأكثرية الفاسدة هو سنة إلهية يجب أن تتّبع في كل زمان ومكان، ولكن بأشكال مناسبة ومؤثّرة، وإن لم تجد هذه السنة الإلهية آذاناً صاغية من قِبَل المدارس الشرقية والغربية ـ التي جعلت المعيار الوحيد في الأكثرية وحكّمتها رسمياً أو عملياً على الأقلية ـ ولا من قِبَل السذّج من المسلمين الذين وقعوا تحت تأثير هذه المدارس والمذاهب الأرضية الخطيرة.

وإنّ إحدىٰ الثمار الأساسية الخالدة لنهضة الإمام الحسين‌عليه السلام، وأصحابه الإثنين والسبعين، ضد حكومة يزيد والآلاف المؤلّفة من الجيش الأموي، هي تحقيق السنة الإلهية المذكورة، وبيان زيف معيار الأكثرية وإسقاطه من الاعتبار، وكذلك ضخ واقع الأقليات المؤمنة بقدرة روحية وتثوير معنوي كبير في مقابل الأكثريات المنحرفة، والنتيجة هي أنّ نهضة الإمام الحسين‌عليه السلام برهنت على الإيمان الذي يعلو طبعاً على كل شيء، وله كلمة الفصل في كل شيء، وأنّه ليس للكثرة والقلة دور في هذه المعادلة.





أسباب
نهضة الإمام الحسين عليه السلام

درسنا في الفصلين الأول والثاني مواصفات تيّارين مهمين في المجتمع الإسلامي: (التّيار الهاشمي) و(التّيار الأموي)، وأهداف كل منهما وآثارهما في المجتمع الإسلامي، وكذلك تبعات تدهور نظام الخلافة الإسلامية، كما تطرّقنا إلى طبيعة تدهور الأوضاع في زمن نهضة الإمام الحسين عليه السلام على الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية، هذه الأُمور تعتبر مدخلاً لسلسلة الأسئلة المهمة التي أجبنا عنها، وأبرزها: ما هو الأساس الذي يستند إليه الإسلام؟ وما هي أهدافه؟ ومن هم أعداء الإسلام؟ وما أهدافهم؟ وما هي السياسة التي اتّبعوها بعد هزيمتهم واستسلامهم للإسلام؟ وما هي المشاكل والأخطار التي ترتّبت على تحول الخلافة عن مسيرها الأصلي؟ وما هو موقف الإمام عليّ عليه السلام في مقابل كل ذلك؟ وما هي طبيعة سياسة الخلفاء وآثارها في أفكار وحياة المسلمين؟ وكيف استحوذ الأمويون ـ بمكرهم وخداعهم وبالإمكانات التي وفّرتها لهم خلافة أبي‌بكر وعمر وعثمان ـ على المواقع والمناصب الإسلامية؟ ثمّ كيف استفادوا من اهتزاز النظام السياسي ليصلوا إلى قمّة الهرم القيادي؟ وأخيراً كيف استولوا على منصب الخلافة نفسه؟ وما هو الهدف من سياسة الحكومة الأموية في لعن الإمام عليّ عليه السلام والقضاء على شيعته وخطه بكل ما أُوتيت من قوة وإمكانات؟ وما هي المصائب الناتجة عن ذلك؟ وكيف

أنّ الخلافة الإسلامية تبدلت إلى ملكية وراثية؟ وكيف فقدت خصائصها؟ وما هي أغراض ومقاصد يزيد؟ وما هي الأساليب الدنيئة التي أوصلته إلى الحكم؟ ومن هم أعوانه وكيف تربّوا في ظلّ حكومة معاوية؟ وما السبب في ظهور الأحزاب المناهضة للخط العلوي وارتباطها بالخط الأموي؟ وما هي النوايا السياسية للحكومة الأُموية في عملية وضع وتزوير الأحاديث، ولا سيّما استغلال مسألة الصحبة، وما سببه ذلك من انحرافات تعرّضت لها قطاعات واسعة من الأمّة الإسلامية؟ وكيف كانت شخصية الإمام الحسينعليه السلام، وما هو موقعه في العالم الإسلامي؟ وما هي حقيقة الجهاد وأهميته في الفكر الإسلامي؟ ومن هم أنصار الحسينعليه السلام الحقيقيون؟ وكيف كانوا وكيف تربّوا في مدرسة الإسلام الحقيقية؟ وما هي نظرة الإسلام إلى الأقليّة والأكثرية في معيار الحق والباطل؟ وما هو دور هذه المسألة في نهضة الإمام الحسينعليه السلام؟

أربع مقولات وثلاث مسائل

إتضحت كل هذه الأمور في الفصلين السابقين من المواضيع الممهّدة لشرح الأجواء لنهضة الإمام الحسينعليه السلام، وفي هذا الفصل سنتحدث عن أسباب هذه النهضة، وفي الواقع أنّ هذا الفصل هو محور الكتاب، ومواضيع الفصلين السابقين كانت بمثابة مقدّماته، كما أنّ مواضيع الفصلين اللاحقين هي بمثابة نتائجه.

ومن أجل التعرف على منهج هذا الفصل، نشير إلى أنّه يحتوي على موضوعين أساسيين هما في الدرجة الأولى من الأهمية، ثم يأتي بعد ذلك موضوعان في الدرجة الثانية، أمّا الموضوعان الأساسيان فهما:

أولاً : مقدار التفاوت والاختلاف بين حكومة معاوية وحكومة يزيد من حيث الفكر السياسي الإسلامي.

ثانياً : دور هذا الاختلاف في تحديد وجوب الجهاد.

وأمّا الموضوعان اللذان في الدرجة الثانية من الأهمية، فهما:

١ : مقدار التفاوت والاختلاف بين حكومة معاوية ويزيد من حيث إمكان تحقيق الانتصار الظاهري للإمام الحسينعليه السلام.

٢ : في ما إذا كان الحسينعليه السلام واثقاً من الانتصار الظاهري، بل وفي أيّ حالٍ، فما هو برنامجه السياسي الذي أعلنه للمسلمين تجاه الحكومة الإسلامية والحكام الإسلاميين، وتجاه مسؤوليّة المسلمين في قبالهما وفي قبال غيرهما.

إنّ ضرورة دراسة الموضوعين الأولين بهدف تبيين أسباب نهضة الإمام الحسينعليه السلام، يتضح من خلال عدم قيام هذا الإمام العظيم طيلة عشرين سنة من حكومة معاوية بأيّ تحرك عملي مضاد، بل إنّه اتخذ ـ كأخيه الحسنعليه السلام ـ منهج الصلح. وهذا المعنى على عكس ما يتوهمه أكثر الناس من أنّ الإمام الحسنعليه السلام رجل الصلح والسلام، والحسينعليه السلام رجل الحرب والثورة والعنف، وهذا الوهم خطأ أساساً؛ لأنّ الحسينعليه السلام أيضاً صالح معاوية كأخيه الحسنعليه السلام، وبعد استشهاد أخيه استمرّ أيضاً في سياسة الصلح هذه. وعلى هذا فإنّ صلح الإمام الحسينعليه السلام أطول مدّة من صلح الإمام الحسنعليه السلام، ومن هنا نرىٰ من الضروري استبدال السؤال المعروف: لماذا اختلف سلوك الإمام الحسينعليه السلام عن سلوك الإمام الحسنعليه السلام؟ بهذا السؤال: لماذا اختلف منهج الإمام الحسينعليه السلام قبال يزيد عن منهجهعليه السلام قبال معاوية؟ هذا التغيير في السؤال بإمكانه أن يزيل الأوهام حول اختلاف سلوك هذين الإمامين أيضاً.

وعلى كل حال، فإنّ الإمام الحسينعليه السلام، مثل أخيه الإمام الحسنعليه السلام، صالح حكومة معاوية صلحاً ظاهرياً، ولكنّه وقف بشدة أمام حكومة يزيد وأعلن الثورة عليها، مع أنّ الإمام الحسينعليه السلام في زمن حكومة يزيد، كان قد ناهز الستين من العمر تقريباً، وقد مرّ على الحكومة الأموية عشرون سنة تقريباً، أي أنّ الحسينعليه السلام وصل إلى مرحلة الشيخوخة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فالحكومة الأموية قد ترسّخت أقدامها أكثر من ذي قبل بكثير، والأسوأ من ذلك أنّها بسياستها الشديدة في مواجهة العلويين وشيعة أهل البيتعليهم السلام سببت قتل وتدمير وتشريد كثير منهم.

ويتصور البعض أنّ الإمام الحسينؑ أعلن ثورته في زمان يزيد؛ لأنّ الآلاف من أهالي الكوفة كانوا متعطشين إلى إصلاح الأمور، وكانوا مستعدين لنصرة الإمام في ثورته ضد حكومة يزيد بشهادة كتبهم الكثيرة وعهودهم المتواصلة للإمام، وهذه الرسائل والكتب والعهود، إضافة إلى الواقع المتزلزل والمرفوض لحكومة يزيد، قد رسّخت في الحسينؑ قناعته بانتصاره على يزيد، خلافاً للحالة في عهد معاوية.

وقبل دراسة هذا التصور، نشير إلى النقاط التالية:

أولاً: إنّ عزم الإمام الحسين على الثورة كان قبل أن تأتي إليه كتب أهل الكوفة، وبعبارة أخرىٰ إنّ أهل الكوفة أرسلوا بكتبهم بعد أن علموا عزم الإمام الحسينؑ على الثورة، والدليل على ذلك ما ذكره الطبري وغيره من المؤرخين بقولهم: «ولمّا بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسينؑ وإبن عمر وإبن الزبير عن البيعة أرجفوا بيزيد، واجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فذكروا مسير الحسينؑ إلى مكه وكتبوا إليه عن نفر، منهم ...؛ بسم الله الرّحمن الرّحيم سلام عليك...»[1].

هذه الوثائق التاريخية تثبت أنّ دعوة أهالي الكوفة لم تكن سبباً لتحرك الإمام الحسينؑ، بل إنّ تحرك الإمام الحسينؑ كان علة لدعوة أهل الكوفة له، ولم يكن لدعوة أهل الكوفة أثر في إندلاع تحركه وثورته إلّا في مسارها الجغرافي، وممّا يؤكد هذا الأمر أنّ الإمام الحسينؑ حتى في زمن معاوية، حين لم يكن لدعوة أهل الكوفة أثر، قد عارض ولاية العهد ليزيد بشدة، برغم أنّه كان قد وافق مكرهاً على الصلح مع معاوية كأخيه الإمام الحسنؑ، ولكنّه ظل يرفض ولاية عهد يزيد، بل ـ على الرغم من ضغوط معاوية ـ وقف أمامها بشدة، كما رأيناه في الفصل الثاني، أي أنّه أعلن ـ في الحقيقة ـ ثورته ضد يزيد حتى قبل توليه الخلافة، فضلاً عن وصول دعوة أهل الكوفة إليه.

ثانياً: إنّ جميع المصادر الشيعية والسنية تؤكّد أنّ الإمام الحسينؑ وأصحابه

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٦١؛ الارشاد، ج ٢، ص ٣٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٠.

علموا في طريقهم إلى الكوفه بخيانة أهلها ونقضهم لعهودهم قبل مواجهتهم لجيش الحر وعمر بن سعد، ومع ذلك لم يستسلموا للحكومة الأموية ولم ينزلوا عند رغباتها، بل كما صرّح الحسين عليه السلام: إنّه اختار الشهادة على البقاء[1]، أو كما يقول زجر بن قيس أحد قادة الجيش الأموي أيضاً: «اختاروا القتال على الإستسلام»[2]، فلو كان الباعث على الثورة هو ثقة الإمام عليه السلام بالنصر العسكري فقط، فقد كان من الطبيعي أن يتراجع عن قراره ويهادن العدو؛ كي يحفظ حياته على الأقل.

وأبسط نتيجة نحصل عليها هي أنّ معارضة الإمام الحسين عليه السلام لحكومة يزيد كانت أشد بكثير من معارضته لحكومة معاوية، فمع وجود التهديدات الشديدة لمعاوية رفع لواء المعارضة علناً حيال تولي يزيد للعهد، وبعد موت معاوية قام بثورته ضد حكومة يزيد، في حين أنّ الإمام الحسين عليه السلام نفسه خلال عشرين سنة من حكومة معاوية لم يحرّك ساكناً في الظاهر، بل فضّل الصلح اقتداءً بالحسن عليه السلام حتى في بداية حكم معاوية، وقبل أن تتعزز أركانه. وهنا يفرض السؤال التالي نفسه: لماذا هذا الاختلاف في سلوك الإمام الحسين عليه السلام في مقابل معاوية ويزيد؟

لقد أشرنا آنفاً إلى أنّ منشأ الاختلاف المذكور لا يتمثل في ثقة الحسين عليه السلام في زمن يزيد بالنصر العسكري على الحكومة الأموية، فالحسين عليه السلام ـ فضلاً عن أنّه لم يكن واثقاً من ذلك ـ كان متيقّناً من الشهادة والقتل، وقد صرّح بذلك مراراً كما سنرى فيما بعد، بل إنّ منشأ الاختلاف يكمن في طبيعة شخصية يزيد وحكومته، وهو الذي لم يكن يخفى إلحاده وخطره، إذ كان يمارس الفسوق علناً، ويتخذ سلوكاً مناهضاً للإسلام بصورة رسمية، ومع تعرّض الإسلام لخطر التحريف والفناء أحس الإمام الحسين عليه السلام بمسؤوليته في الجهاد الإسلامي، وإن انتهى ذلك إلى

---

١. تحف العقول، ص٢٤١؛ شرح النهج، ج٣، ص٢٥٠؛ مقتل الخوارزمي، ج٢، ص٧؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٦٣ و...

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٥١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٣؛ الإرشاد، ج٢، ص١١٨.

استشهاده، خاصةً وأنّ هذا الخطر الماحق والواضح من قِبل يزيد والسلطة الأموية كان من أقوى المبرّرات أمام المسلمين لقيام الإمام الحسينعليه السلام، وباعثاً على هدايتهم وتحركهم وإثارة عواطفهم الإيمانية، وكما يشهد التاريخ أنّ الحكومة الأموية أضحت منذ ذلك الوقت على حافّة التزلزل وبالتالي السقوط وسنرى تفصيله، وهذا يعني أنّ الحسينعليه السلام قد انتصر في جهاده ونهضته الخالدة.

ولو افترضنا أنّ منشأ الاختلاف في سلوك الإمام الحسينعليه السلام في مقابل يزيد ومعاوية، يعود إلى أنّه كان واثقاً بالنصر الظاهري في زمن يزيد، ولكن المهم في هذا الفرض أيضاً أن نرىٰ ماذا كان هدف الحسينعليه السلام من حركته وثورته؟ فهل أنّ هدفه هو الوصول إلى الرئاسة والحكومة؟ أم أنّ هدفه هو هداية الناس وإنقاذهم من حكومة الأمويين وأعوانهم الفاسدين، ولو عن طريق الجهاد والاستشهاد، حتى يشعر المسلمين بواجبهم تجاه الحكومات الطاغوتية الخطرة على الإسلام، وأنّ عليهم السعي الجاد للدفاع عن الإسلام وتشكيل الحكومة الإسلامية وإصلاح المجتمع، حتى لو أدىٰ ذلك إلى إراقة دمه الشريف ودماء أعزائه الكرام؟ وقد صرّح الإمام الحسينعليه السلام قبيل نهضته بخطر حكومة يزيد على كيان الإسلام فقال: «على الإسلام السلام إذ قد بليت الأُمة براعٍ مثل يزيد»[1].

كلمات الحسينعليه السلام هذه بشأن يزيد ـ وليس معاوية ـ تدل طبعاً على أنّهعليه السلام كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ خطر حكومة يزيد أكثر وأشد من خطر حكومة معاوية، بحيث إنّ مصالح المسلمين سوف تتعرّض جميعاً للخطر في حالة السكوت قبال حكومة يزيد، ولهذا رأى الإمامعليه السلام أنّه يتحتمّ عليه الجهاد ضد حكومة يزيد ـ التي تريد محو الإسلام أو سحق مضامينه وتحويله إلى العوبة بيد الساسة ـ ولو بلغ ما بلغ، وذلك لإيقاظ ضمائر المسلمين وتنبيههم للخطر المحدق من قبل أعداء الإسلام، وبهذا يتم القضاء ـ على الأقل ـ على سيطرة الأمويين الفكرية التي تكبل

---

١. مقتل الخوارزمي، ج ١، ص ١٨٤؛ اللهوف، ص ١٨.

المسلمين ثقافياً.

ثم إنّه على فرض أنّ شروط النصر الظاهري للإمام كانت في البداية متوافرة، ولهذا أعلن الإمام الثورة، ولكن لا شك أنّ ظروف النصر وشرائطه قد زالت أخيراً، ومع ذلك لم يستسلم الإمام لقوىٰ الانحراف، بل إنّه أطلق صيحته الشهيرة التي تذكرها التواريخ جميعاً والأجيال: «... هيهات منّا الذلّة ...»، وثبت حتى آخر قطرة من دمه ودماء أنصاره وأهل بيته . وبذلك حقّق تحوّلاً أساسيّاً في عقول المسلمين وأوجد هزّة في ضمائرهم، وهذا أكثر أهمية حتى من إقامة الحكومة، وهو ما يجب أن يدرس تحت عنوان: روح النهضة الحسينية وآثارها الحقيقيّة الفكرية وبالتالي العملية، وسيأتي توضيح ذلك .

وقد اتضح مما تقدم أنّ المواضيع المهمة التي ينبغي بحثها في هذا الفصل عبارة عن مقولات أربع، هي:

الأُولى: الاختلاف الخطير في السياسة الإسلامية بين حكومة معاوية وحكومة يزيد.

الثانية: وظيفة الإمام الحسين والمسلمين بشكلٍ عام، مقابل الحكومات اليزيدية.

الثالثة: الاختلاف بين حكومة معاوية وحكومة يزيد علىٰ مستوىٰ إمكانية تحقيق النصر الميداني للإمام الحسينعليه السلام في مقابل يزيد لا معاوية.

الرابعة: أهداف الإمام الحسينعليه السلام من وراء نهضته، ولا سيّما علىٰ مستوىٰ تشكيل الحكومة.

وبعد أن تنتهي هذه المقولات الأربع سندرس ثلاث مسائل أُخرىٰ قد تكون ذات خصوصية، وتتضح من خلالها سائر أبعاد نهضة الإمام الحسينعليه السلام أيضاً، وهي:

١ ـ مكانة الإمام الحسينعليه السلام في إطار موقع الخلافة الإسلامية وتأثيراتها الاجتماعية في نهضته. ٢ ـ موضوع الرؤيا. ٣ ـ العامل الطبيعي لحادثة كربلاء.

* * *

المقولة الأُولى: الاختلاف الخطير...

إنّ حكومة يزيد تختلف أساساً عن حكومة معاوية، وهذا الاختلاف يتضح من خلال النظر إلى خصائص وخصال كل من معاوية ويزيد وظروف حكومتيهما، وهو ما يوضح أيضاً سبب اختلاف سلوك الإمام الحسين عليه السلام تجاه كل منهما. ولكن قبل الإشارة إلى خصائص كل من معاوية ويزيد وحكومتيهما، نجيب عن الإشكال الذي يطرح هنا، وهو أنّ الحسين عليه السلام أعلن ثورته في السنة الأُولى من حكومة يزيد، وفي هذه السنة لم يرتكب يزيد أية جريمة تذكر، ولم تصدر منه كلمات الكفر، ولم يعلن مضادته للإسلام حتى يختلف عن معاوية، ولذلك لا يمكن تبرير نهضة الإمام الحسين عليه السلام، بأنّ يزيد كان يشكّل خطراً على الإسلام والمسلمين؛ لأن الذي اتضح من كفر يزيد بصورة جلية مثلاً كان بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

وفي الجواب عن ذلك نقول: بأنّه على الرغم من أنّ جرائم يزيد البشعة ومقولاته الكافرة انكشفت عملياً وبصورة كاملة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، ولكن سلوكه الفاسد والمتناقض مع الإسلام والذي كان واضحاً قبل تسلّمه السلطة، إضافة إلى انحطاط المجتمع الإسلامي الشديد حين تصديه للسلطة، يحكي عن تعرّض الإسلام لخطر حقيقي، وأساساً فإنّ منهج جميع الباحثين والعلماء في دراسة الشخصيات والحكومات هو أنّهم لا يرون من الضروري دراسة جميع الإجراءات والنشاطات التي يقوم بها الإنسان أو الحكومة ثم الحكم عليها، بل إنهم على أساس معرفتهم بسلوك هؤلاء والأوضاع المحيطة بزمانهم ومجتمعهم، يدركون مستقبل هذه الشخصية أو تلك الفئة حتى قبل تسلّمها السلطة، والإمام الحسين عليه السلام أيضاً شعر بخطر حكومة يزيد على أساس هذه المعرفة وأخبر في كلامه السابق الذي قاله منذ بدء ثورته، أنّ حكومة يزيد تعني فناء الإسلام وزواله[1].

وممّا يلفت النظر أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يقل ذلك الكلام خلال حكومة معاوية

---

١. المصدر السابق.

التي دامت عشرين سنة، ولكن قالها في عهد يزيد وهو في بداية حكمه، وهذا دليل واضح على أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يعتقد أنّ خطر حكومة يزيد أكثر بكثير من حكومة معاوية، والمسألة الأهم هي أنّ خطر حكومة يزيد لم يكن خافياً على الآخرين، بل إنّ جميع أصحاب الرأي وكثيراً من المسلمين، بل حتى ولاة بني أُمية كانوا يعتقدون بذلك، وقد قرأنا في بداية الفصل السابق مقولة المغيرة، الذي كان من عمّال معاوية ومقرّبيه، حول تنصيب يزيد لولاية العهد، والتي خطّط لها المغيرة بنفسه، فقال: «فتقت على أُمة محمد فتقاً لا يرتق أبداً»[1] ومثل هذه الكلمات قالها سائر عمال الأمويين، وقد ذكرنا نماذج أُخرىٰ منها في الفصل السابق، والأوضح من كل هذه الكلمات والأحاديث هي أشعار يزيد نفسه الذي يصرّح فيها بكفره، ورغم أنّه تمثّل بهذه الأشعار بعد حادثة كربلاء، ولكنّها في الوقت نفسه تحكي عن نفسيّة يزيد المضادة للإسلام، وقد ذكرنا سابقاً بعض أشعاره التي يسخر فيها بصراحة من القرآن والإسلام والنبي صلى الله عليه وآله ومنها:

لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل[2]

وعلى أثر هذه النظرة الكافرة والحاقدة ليزيد، قَتَل الإمام الحسين عليه السلام وأعزاءه أشنع قتلة، وأشنع منها حمل رؤوسهم مع الأسرى من النسوة والأطفال من أهل بيت النبوة إلى الشام.، وكما أصدر يزيد أوامره بقتل أهل المدينة في السنة الثانية، وهدم الكعبة في السنة التي تلتها.

لماذا وجّهوا قافلة الأسرىٰ ورؤوس الشهداء إلى الشام؟

من الغريب أنّ ترحيل أهل بيت النبوة أسرىٰ إلى الشام لم يكن على خلاف الموازين الإسلامية والإنسانية فحسب، بل لم يكن ذا فائدة حتى للحكومة اليزيدية؛ لأنّ أهل الشام كانوا خانعين إلى درجة أنّ معاوية أوصى إبنه يزيد بالاعتماد عليهم،

---

١. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٠٤.

٢. راجع أوائل الفصل الثاني من هذا الكتاب.

فلم تكن في الشام معارضة تذكر لتسويغ هذا العمل وترسيخ العبرة به مثلاً، ومن هنا فمن الضروري معرفة سبب هذه الخطوة الإجرامية التي تعد من أعظم المصائب التي حلت بآل بيت رسول الله ﷺ والإسلام والأُمة الإسلامية.

السبب في ذلك هو الانتقام للأمويين وقتلاهم في بدر وأُحد والأحزاب وصفين و...، كما يقول إبن عباس في كتابه ليزيد الذي يعنّفه فيه: «.. **ومن أعجب الأعاجيب، وما عسى أن أعجب، حملك بنات عبدالمطلب وأطفالاً صغاراً من وُلده إليك بالشام كالسبي المجلوبين، تري الناس أنّك قهرتنا وأنت تمّن علينا، وبنا منّ الله عليك ...**»[1].

ويزيد نفسه كان يصرّح بهذا الهدف الشيطاني في أشعاره الكفريّة ما حاصله: إنّ الهدف هو الانتقام من النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام. هذا فضلاً عن سخريته من أصل الإسلام والقرآن كما رأينا في أشعاره المذكورة آنفاً والّتى نقلتها كثير من الكتب المعتبرة.

في حين أنّ معاوية لم يقم بارتكاب مثل هذه الفجائع التي عللها صريحاً بالانتقام من النبي وأهل بيته عليهم السلام والاستهزاء بالإسلام علناً، فمعاوية ارتكب الكثير من الجرائم وقتل الكثير من المؤمنين المخلصين أمثال: عمار وحجر بن عدي وعمرو بن الحمق ومالك الأشتر ومحمد بن أبيبكر وغيرهم، كما سجن أو نفى الكثير منهم، بل قاتل الإمام عليّاً وأهل بيته عليهم السلام، وحثّ المسلمين على لعنه. ومع ذلك ظلّ معاوية مقيداً بظواهر الإسلام وأحكامه ولو لمصالح حكومته، لكي يبرّر جرائمه الكثيرة بتبريرات إسلامية في ظاهرها، من قبيل أنّه يريد مصالح المسلمين ووحدة الأُمة الإسلامية، أو المطالبة بدم الخليفة المظلوم، وأمثال ذلك. وبالرغم من أن مثل هذه التبريرات كانت كاذبة ومضللة لكثير من البسطاء، ولكنّها في الوقت نفسه مؤشر على أنّ حكومة معاوية كانت تهتم بحفظ صورة الإسلام وظاهره، ولا تعارض أصل الإسلام وأساسه، وخاصة في المحافل العامة، وقد كان معاوية يهتم بالشكل الإسلامي في سلوكه وسياسته إلى حد أنّه كان يدعي كتابة الوحي، ويدعي

---

١. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٧٩؛ تذكرة الخواص، ص٢٧٦ ؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤٨.

بأنّه من أقرباء النبي صلى الله عليه وآله وأنّه من أصحابه المخلصين.

أمّا يزيد فإنّه كان في سياسته على عكس أبيه معاوية، سفيهاً وأحمق إلى درجة أنّه كان يتجاهر بشرب الخمر والفسق، ويستهين بالمقدسات الإسلامية، ويصرّح بحضور من الناس بمخالفته للإسلام والوحي والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ونموذج من سلوك يزيد الفاضح قبل وصوله إلى الحكم، هو أنّه عندما اشترك في أحد الحروب بأمر من معاوية الذي نصبه قائداً للجيش، أخبروه بأنّ الطاعون سرىٰ في جيشه، فلم يتأثر لذلك، بل استمر في عدم مبالاته وقال:

أهون عليّ بما لاقت جموعهم	يوم الطوانة من حمّى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً	بدير مرّان عندي أم كلثوم[1]

ونموذج آخر من سلوك يزيد الفاضح هو أنّه كان يلعب بالقرود والكلاب، ويلبسها الأساور والقلائد الثمينة والألبسة الفاخرة من بيت مال المسلمين، ويقيم المسابقات بينها ويفرح كثيراً لفوز كلابه وقردته[2].

القوة وسيلة لتنفيذ النوازع النفسية

من أجل أن نفهم بصورة أوضح خطر حكومة يزيد، يجب الالتفات إلى هذه الملاحظة المهمة، وهي أنّ كل إنسان يستفيد من قدرته لتنفيذ أهدافه ومقاصده، وخاصة عند عدم وجود الموانع السياسية والاجتماعية في طريقه، والإمام عليّ عليه السلام يشير إلى هذا الأساس الطبيعي ويقول: «إذا قوي الوالي في عمله حرّكته ولايته على ما هو مركوز في طبعه من الخير أو الشر»[3].

هذا الأساس الطبيعي يفرز لنا نتيجة مهمة، وهي أنّ الحكام الفاسدين الذين يتمتعون بقدرة كبيرة ويفتقدون الحنكة السياسية الكافية، لا يعرّضون أنفسهم وحكومتهم للخطر فحسب، بل يعرّضون شعوبهم ومجتمعاتهم ـ والأسوأ من ذلك ـ

---

١. مروج الذهب، ج٣، ص٢٤؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٥٨.

٢. مروج الذهب، ج٣، ٦٧.

٣. شرح النهج، ج٢٠، ص٢٦٩.

مقدساتهم الدينية إلى الخطر الحتمي.

والخلاصة: إنّ طبيعة القدرة والسلطة هو كونها وسيلة لتحقيق مقاصد وأغراض صاحبها، سواء كان صاحب القدرة فرداً صالحاً وإلهياً كالإمام عليّ عليه السلام والحسين عليه السلام، أو كان فاسداً ومنحرفاً مثل معاوية ويزيد. وبما أنّ معاوية كان محافظاً في سياسته، ويزيد مستبدّاً ودكتاتوريّاً من دون حنكة وتدبير سياسي وفطنة، انعكس ذلك بالطبع على مواقفهما السياسية وبان التفاوت الفاحش بينهما؛ ممّا يؤكد أنّ خطر الثاني كان أكثر بكثير من الأول.

وسبب هذا الاختلاف بينهما كما يؤكده معظم الباحثين التاريخيين، هو أنّ معاوية في البداية لم تكن لديه أية مكانة اجتماعية وسياسية بين المسلمين؛ بسبب سوابقه المخزية ومواقفه السيّئة من النبي صلى الله عليه وآله والإسلام، ولهذا كان لابدّ أن يبدأ من الصفر، بل يبدأ من تحت الصفر، ويستفيد من كل وسيلة ممكنة للوصول إلى المواقع العليا، وبما أنّ الإسلام في ذلك الزمان كان المعتقد الاقوى جاذبية من أي شيء آخر، وأكثر تأثيراً في نفوس المسلمين، وكان لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله أيضاً مكانة ممتازة بين المسلمين، فمن هنا رأىٰ معاوية أنّ أفضل وسيلة لتحقيق هدفه هو التظاهر بالإسلام، ليتمكن من كسب المسلمين وتغيير رأيهم تجاهه على الأقل، وليضيّق من خلال ذلك على المعارضين له، وخاصة أهل بيت النبي وأنصارهم، ويجعلهم في عزلة، وبالتالي يتمكن من تثبيت سيطرته وسلطانه. ومن الطبيعي أنّ معاوية في مثل هذه الأوضاع الحساسة عاش تجربة سياسية طويلة، نجم عنها عقل سياسي محنك، ومزاج يتحرك في جوّ التظاهر بالقدسية، ولهذا كان يتفاعل مع المقدسات ويحترم ـ ولو في الظاهر ـ النبي والقرآن لتركيز أركان حكومته على مستوى الإقناع لا الإكراه.

إنّ كلمات معاوية السياسية والمحافظة توضح جيّداً هذا الأمر، ومنها قوله: «ولو أنّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، فقيل له: كيف؟ قال: إذا مدوها خلّيتها وإذا خلّوها مددتها»[1].

---

١. العقد الفريد، ج ١، ص١٨ و ج ٥، ص١٠٦؛ شرح النهج، ج ١٥، ص١٠٢.

وبسبب سياسة المداهنة هذه، انتج معاوية طيلة عشرين عاماً من حكومته بعض المرونة في مواجهة معارضيه، وخاصة أهل البيت عليهم السلام، وحتى عندما كان يقوم بجريمة في حقهم كقتل الإمام الحسن عليه السلام، كان يقدم على ذلك خفيةً وبالسمّ. ورأينا أيضاً موقفه مع الحسين عليه السلام في قضية كتابه شديد اللهجة إلى معاوية، وبالرغم من أنّ يزيد طلب من أبيه أن يجيبه من موقع القوة بالشدّة والاستهانة، إلّا أنّ معاوية رفض هذا الطلب، مبرراً بأنّ ذلك يتعارض مع الأساليب السياسية. ولكنّ يزيد عندما وصل إلى الحكم، لم يكن يتمتع بحنكة أبيه السياسية، فانتقم من الحسين عليه السلام وأهل بيته وأنصاره أشد انتقام وبمنتهى الوحشية، حتى إنّه مثّل بأجسادهم، والأنكى من ذلك أنّه حمل رؤوس الشهداء على أسنة الرماح وطاف بها وبالأسرىٰ من العيال والأطفال من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله في الأزقّة والطرقات أمام أنظار المسلمين في العراق والشام، والأنكى من جميع ذلك إنشاد يزيد تلك الأشعار المعروفة وهو في حالة سكر شديد، واستهزائه بالإسلام والنبي صلى الله عليه وآله بحضور المسلمين، في حين أنّ لمعاوية أبياتاً أيضاً تنسجم مع منهجه المبطّن والمحافظ، وتحكي عن مرونته السياسية، وتظهر مدى الاختلاف بين معاوية وابنه يزيد، وفيها يخاطب ابنه يزيد، ليتعلم منه أساليب الخداع، ولكنّه في النهاية لم يتعلم منه ولا أصبح مثله، يقول معاوية:

فباشر الّليل بما تشتهي   فأنّما الليل نهار الأريب
ولذة الأحمق مكشوفة ...   يسعى بها كل عدو مريب[١]

قدرة معاوية مقيدة وقدرة يزيد جامحة!

من خلال ما سبق يتضح أنّ معاوية رغم أنّه كان شيطاناً، كما يقول عنه الإمام عليّ عليه السلام[٢]، ولكنّه في نظر السياسة الإسلامية والعرفية شيطانٌ مقيد بلجام من السياسة المحافظة، ولكنّ يزيد كان شيطاناً جامحاً وبدون لجام، ولم ير في طريقه

---

١. البداية والنهاية، ج٨، ص٢٥٠.   ٢. شرح النهج، ج١٦، ص١٧٧.

الموانع التي كان يضعها معاوية المرائي والمحافظ لنفسه، ولهذا فيزيد تفصله فواصل كبيرة عن السياسة الإسلامية، بل وعن التقاليد العرفية أيضاً، بحيث إنّه لم يهتم بالنصائح الموجهة له من قِبل أبيه أيضاً، بل كان ـ باجماع المؤرخين ـ سلطاناً مستبداً متوحشاً، سلك مسلكاً غير مسلك أبيه.

والنتيجة أنّ أهم خصلة لمعاوية أنّه نابغة في السياسة الشيطانية، بينما يزيد لم يكن يفتقد مثل هذا النبوغ فحسب، بل يمكن القول: إنّه نابغة في الغباء السياسي، ومتفرد في السلوك الأحمق.

وإحدى علامات السلوك الأحمق ليزيد، أنّه بدل أن يتحرك لحلّ أزمة ثورة الحسين عليه السلام باسلوب سلمي، أو من موقع إزهاق روح الخصم خفية، كما فعل كذلك أبوه معاوية مع الحسن عليه السلام، فإنّه كان ينظر إلى القضية من موقع استعراض القوة، فلم يختم القضية في كربلاء وينهي المأساة، بل حوّل الواقع المأساوي إلى فاجعة ترتعد لها فرائص كل إنسان مسلم أو غير مسلم، كما أنّه في حادثة ثورة المدينة أيضاً لم يكتف بالقضاء على الثورة، بل أباح المدينة المنورة لجيشه ثلاثة أيام، وأسماها (نتنة)، وكذلك أمر بأخذ البيعة له من البقية الباقية على أنّهم عبيد ليزيد.

وأحد عوامل حماقة يزيد هو أنّه جلس على كرسي الخلافة دون أن يواجه مشاكل ومصاعب تذكر؛ ليكتمل فيها عقله وينضج مزاجه، بل حصل عليه مجّاناً من عطاء أبيه معاوية، ولهذا لم يستطع اتّباع أبيه معاوية في سياسته فيحافظ على ظاهر الإسلام على الأقل. وهذه القدرة التي حصل عليها يزيد دون أيّ عناء، كان كما وصفه معاوية بقوله: «يا بُنيّ هذا الأمر الذي أسّست لك ...» وقد نقلناه في أوائل الفصل الثاني.

لقد كان يزيد شابّاً خفيف العقل، وتسلّم هذه الحكومة المقتدرة العالمية تقريباً وسيطر على جميع شؤون الأمة الإسلامية دون أن يجد له منافساً؛ لأنّ معاوية في السنين الأخيرة من حكمه مهّد له الأمر، وأزال قسماً من موانعه وزال القسم الآخر بمرور الزمن، فلم يعد هناك الإمام عليّ عليه السلام ولا أبوذر ولا عمار، ولا مالك الأشتر

ولا محمد بن أبي‌بكر ولا حجر بن عدي ولا عمرو بن الحمق ولا أمثالهم، إذ تـمّ القضاء عليهم جميعاً طيلة حكم معاوية، وجيىء بدل هؤلاء الرجـال المـخلصين بمروان وزياد وعمرو بن العاص والوليد وسعيد والمـغيرة، وكـثير مـن المـنافقين والانتهازيين الآخرين من بني أُمـية وأعـوانـهم، وسـلّطهم مـعاوية عـلى رقـاب المسلمين، فأستتبت الأمور ليزيد دون منازع، أضف إلى هذا كله أنّ معاوية شدد التنكيل بالعلويين وأتباعهم، ولاحقهم في شتّى بقاع العالم الإسلامي، والأنكى من ذلك أنّه زيّف الأفكار والمفاهيم في إعلامه المسموم، فأوجب لعن الإمام عليّ وسبّه والابتعاد عن خطه على جميع المسلمين، إلى أن بلغ الأمر بحيث نشأ عليه الصغار وهرم عليه الكبار، كما قال معاوية نفسه.

مثل هذه الأوضاع الإرهابية والخانقة التي خلقتها حكومة معاوية، ثم جلوس يزيد المتهتك، شارب الخمر على عرش أبيه معاوية المحافظ، سيؤدّي بالطبع إلى أن تسير عربة المجتمع الإسلامي إلى الوراء ويواجه الإسلام خـطر المـحق والفـناء، وتصبح الحكومة الإسلامية آلة بيد يزيد وأمثاله لتحقيق شهواتهم وأهوائهم.

جرائم يزيد حتى في مكة والمدينة

الشاهد على أنّ حكومة يزيد كانت تشكّل خطراً حقيقياً عـلى الإسـلام مـن أساسه، هو الجرائم الوحشية التي ارتكبها جيش يزيد في مكة والمدينة، والتي قُتل بسببها جمع كبير من الصحابة والتابعين، واعتُدي على أموالهم وأعراضهم، وسالت الدماء في مسجد النبي والمسجد الحرام، بل وهُدم قسم من المسـجد الحـرام، وعُرضت الكعبة للقصف الشديد والإحراق[1]، ولا شك أنّ عشرة آلاف من الجيش الأموي، الذي قام بهذه الحـملات الفـجيعة، كـان نـموذجاً لعشـرات الألوف مـن الجيوش الأموية التي كانت تحت إمرة يزيد، وكانت مستعدة للقضاء على الإسلام

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٨٣ وما قبله وبعده؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٢٣ وما بعده.

والمقدسات الإسلامية بكل شدة وجرأة ووحشية.

وحيال هذا يصف المسعودي المؤرّخ يزيد بأنّه كالفراعنة، بل أشد وأخبث، فيقول: «وغلب على أصحابه وعمّاله ما كان يعمله من الفسوق، وفي أيامه ظهرالغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهرالناس، حتى بمكة والمدينة، شرب الشراب»[١].

وأوضح من كلام المسعودي، التعبير القصير والجامع للإمام الحسين عليه السلام ضمن حديثه مع عامل يزيد على الحجاز، حيث يقول: «...معلنٌ بالفسق»[٢] أي أنّ يزيد ـ وعمّاله ـ يخالفون القوانين الإسلامية علناً وبدون أيّ حذر من أحد.

نقطتان أساسيتان!

ما نريده من الشواهد والنماذج المذكورة ليس القول بأنّ يزيد جنىٰ على الإسلام أكثر من معاوية، بل بالعكس، يمكن أن نقول أنّ معاوية في مدّة خلافته وحكومته، التي استمرت أربعين عاماً، ارتكب من الجرائم والفجائع أكثر من يزيد بكثير، وبالرغم من أنّ جرائم يزيد ليس لها نظير، مثل فاجعة كربلاء والمدينة ومكة، وهي أكبر من مجموع جرائم معاوية، ولكن من البديهي أنّ جرائم يزيد هي من تبعات وإفرازات معاوية وأعماله الخبيثة؛ لأنّه هو الذي سلّط ابنه على رقاب المسلمين، وهيّأ له الأرضية المناسبة للاستبداد والفجور والجرائم، ومن هنا يجب القول: إنّ معاوية في الحقيقة شريكٌ ابنه يزيد في جرائمه، بل مسؤوليّته أكثر وأثقل من ابنه، ولكن الكلام هنا ليس عن أكثرية جرائم الأب أو الابن، بل الكلام عن ملاحظتين أساسيتين لهما دورٌ حساس في حركة الإمام الحسين عليه السلام ونهضته الدامية، لابدّ من التدقيق فيهما:

الملاحظة الاولى: أنّ خطر حكومة يزيد كان أكبر من خطر حكومة معاوية، وإن لم تكن جرائمه أكثر، وذلك لأنّ معاوية كان يتمتع بحنكة سياسية قوية وتجارب

---

١. مروج الذهب، ج٣، ص٦٧.
٢. راجع أواخر هذا الفصل: المسألة الثالثة.

كثيرة، وكان يواجه معارضة شديدة من قبل المسلمين والمؤمنين، ولهذا كان يدرك جيّداً أنّه لكي يوطّد أركان حكومته ويرسّخ مكانته لدى المسلمين، لابدّ له من استخدام سياسة فيها صبغة إسلامية، فمثلاً برغم أن حكومته استمرت مدّة مديدة إلّا أنّه لم يرتكب شرب الخمر والفسق والفجور علناً، ولم يجعلها مشروعة في مكة والمدينة، ولم يهدّد الإسلام من أساسه، ولم يسخر من الوحي والكتاب والقيامة والحساب وسائر المقدسات الدينية أمام الناس، ولكن يزيد الأرعن ـ كما تقدّم ـ كان على خلافه تماماً بسبب عدم تجربته، ووجود قدرة كاملة وبدون منازع بيده.

وكان هذا الأمر واضحاً إلى حدّ أنّ المنحرفين، أمثال المغيرة ـ الذي مر كلامه الصريح في غرور يزيد الشاب وطيشه ـ تيقّنوا أنّ حكومته ستكون خطيرة، لكونها متحررة من قيود السياسة. ذات الشكل الإسلامي، الذي كان معاوية يتقيد به ظاهراً، فمثل هذه السياسة ستدمّر كالسيل الجارف كل مانع في طريق أهواء يزيد الخبيثة وأعوانه، ومن باب التشبيه يمكن القول: بأنّ فترة حكم معاوية ومن كان على شاكلته من قبله مثلت فترة زرع الانحراف والفساد، ولكن حكومة يزيد كانت بمثابة الحاكمية المطلقة للانحراف والفساد، أي أنّها زمن حصاد الحق وأهله.

وعموماً، فقد كانت الأرضية مساعدة جدّاً ليزيد ـ خاصة مع نفسياته المعاندة للإسلام علانيةً ـ ليقضي على رجال الدين والفضيلة في فاجعة كربلاء وأمثالها، وليهدّد الإسلام بالدمار والهلكة كما صرّح به الحسين عليه السلام في كلماته المذكورة آنفاً.

الملاحظة الثانية: وهي أهم من الأولى، وسيأتي شرحها ضمن دراسة عوامل نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وخلاصتها تتمثل في أنّ سياسة حكومة معاوية كقدرته العسكرية، بل إنّها أكثر تأثيراً وأشدّ خطراً على مخالفيه؛ لأنّها تحكمهم ـ بموازين إسلامية، وبذلك تعمل على تزييف وإجهاض ثورتهم حتى واقعيّاً، فلو أنّ الإمام الحسين عليه السلام ثار وانتفض في زمان معاوية، فإنّ معاوية فضلاً عن سحقه لهذه الثورة بقدرته العسكرية، سيقوم أيضاً بمحو آثارها السياسية، أي يبرّر فعله هذا تبريراً إسلاميّاً، فيحول حتى دون الانتصار المعنوي للحسين عليه السلام، فيذهب دمه هدراً.

ولكنّ يزيد بما أنّه كان شاباً نزقاً ولا يتمتع بتدبير سياسي ودراية كافية، فحتى لو تمكن من القضاء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام عسكرياً، فإنّه لن يستطيع القضاء عليها معنوياً، وذلك لتجاهره بالفسق والفجور ومواقفه المعلنة ضد الإسلام، ممّا جعل ثورة الإمام الحسين عليه السلام ضده ذات أُسسٍ شرعيةٍ ومنطقيةٍ عند جميع المسلمين.

وبعبارة أُخرىٰ يمكن القول: بأنّ ما يقتضي الثورة وإن كان موجوداً في زمن حكومة معاوية، إلا أنّ المانع لم يكن مفقوداً بل كان موجوداً، وهو تظاهره بالسلوك الإسلامي، الذي بإمكانه إجهاض الثورة وخنقها، ولكن هذا المانع كان مفقوداً في حكومة يزيد المتجاهرة بمعاندة الإسلام، ممّا يجعل ثورة الإمام عليه السلام مؤثّرة وقابلة للامتداد في وجدان المسلمين كحقيقة حاسمة.

* * *

المقولة الثانية:

دور هذا الاختلاف بين يزيد ومعاوية في مسؤولية الجهاد

خلصنا في المقولة الأُولى إلى أنّ حكومة يزيد كانت تختلف كثيراً على المستوىٰ السياسي الإسلامي عن حكومة معاوية. والآن لنرَ ما هو أثر هذا الاختلاف في مسؤولية الإمام الحسين عليه السلام في إطار الجهاد الإسلامي؟

من أجل معرفة حقيقة الأمر يجب ـ في البداية ـ أن نفهم هدف وشرط الجهاد، لكي نتمكن من الإجابة عن الأسئلة المطروحة هنا، وخاصة الإجابة عن سؤالين مهمين:

الأوّل: ما هو السبب في صلح الحسن والحسين عليهما السلام مع حكومة معاوية وعدم جهادهما إيّاه؟

الثاني: ما هو السبب في نهضة الحسين عليه السلام ضد حكومة يزيد وجهاده إيّاه.

وضرورة معرفة الهدف والشرط في الجهاد في سبيل الله للإجابة عن السؤالين،

تكمن في أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت جهاداً في سبيل الله، كما صرّح هو في خطبته الثورية المهمة التي يأتي ذكرها في المقولة الرابعة. وأكثر إشكالات السّذج والمغرضين من الناس تنبع من أنّهم لم يفهموا مفهوم الجهاد وصورته الصحيحة، بل فهموه على أساس أنّه كبقيّة الحروب غير الإسلامية المبتنية على الثقة بالنصر الظاهري، ولهذا أخطأوا في تقييمهم لهذه الثورة، وفي الواقع أنّهم تورّطوا في الدرجة الأولى في خطأٍ مفهومي، وفي الدرجة الثانية في خطأٍ مصداقي، ولذلك لزم أن نعرف جيّداً مفهوم الجهاد الإسلامي وخاصة في أهدافه وشروطه ـ أوّلاً ـ حتى نتمكن ـ على أساس ذلك ـ من إدراك دوافع قيام الإمام الحسين عليه السلام بصورة صحيحة وإزالة ما أُشكل عليها بمختلف الإشكالات ـ ثانياً ـ.

إنّ الهدف الأصلي من الجهاد يتمثل في تأمين مصالح الإسلام والمسلمين، وإبعاد الخطر عنها، والقرآن الكريم يذكر هذا الهدف الأصلي من الجهاد في عدّة مواضع، من جملتها ما جاء في سورتي البقرة والأنفال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾[1]. وما قاله الإمام الحسين عليه السلام أيضاً في خطبته المعروفة: «... والجهادفي سبيله لتكون كلمة الله هي العليا»[2].

الهدف الأساس هو انتصار الجهاد لا انتصار المجاهد

لقد قرأنا في الآية القرآنية الكريمة كلمة (حتى)، وفي كلام الإمام الحسين عليه السلام كلمة (لتكون)، وهاتان الكلمتان من حروف الغاية، أي لتبيين الهدف الأساسي من الجهاد. وفي الحقيقة تقول الآية الكريمة وكذلك كلام الإمام الحسين عليه السلام: إنّ الهدف الأول للجهاد ليس فتح البلدان وكسر شوكة الأعداء عسكرياً، بالرغم من أنّ هذه الغاية موجودة ضمناً في غايات الجهاد، ولكنّ الهدف الأساس هو فتح القلوب بنور الإيمان، وإيجاد الإحساس بالمسؤولية في نفوس الناس، وتفعيل العقيدة لديهم، ليكونوا من حماة الحق والعدالة، ويواجهوا قوى الانحراف من موقع الوضوح في

١. سورة البقرة، الآية ١٩٣؛ والأنفال، الآية ٣٩.
٢. راجع صفحة ٣٧٤.

الرؤية والمسؤولية.

ومن الطبيعي أنّ هذا التوجيه الثوري للناس لو لم يقض على شخوص الطواغيت، فإنّه سوف يؤدى إلى قمع شخصيات الطواغيت وفتنتهم التي هي أشد من القتل بتعبير القرآن الكريم، بل أعلى من ذلك نقول: إنّ توجيه الناس ثورياً ضد الطواغيت يعني بنفسه القضاء على الفتنة، ولهذا كان هذا الهدف من أهم أهداف الجهاد الإسلامي أو أنّه ـ على الأقل ـ يعتبر هدفاً مهماً من أهداف الجهاد الإسلامي.

وهنا نقطة أُخرىٰ لافتة للنظر تمثّل البنية التحتية للبحث، وهي أنّ عناصر الفتنة هم مصدر الفتنة، والفتنة وسيلة مضلّة ومذلّة تظهر على أيديهم وتتّسع في المجتمع بسببهم، ومن ذلك يقول الإمام عليّ عليه السلام: «فاعل الشر شر منه»[1]، ولكن بالرغم من أنّ فاعل الفتنة شرّ من الفتنة، فمع ذلك يقول القرآن: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ ولا يقول: ﴿واقتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾، وهذا الموضوع الأساسي يكشف عن أنّ الهدف الأصلي للجهاد الإسلامي ليس الانتصار على الأعداء كأشخاص، بل انتصار الغايات والأهداف حتى مع بقاء أشخاص الأعداء، ويتحقق ذلك بتوجيه أفكار عموم الناس ضد هؤلاء المفسدين. وإحدىٰ السياسات القيمة للإسلام، التي تكمن وراء جميع السياسات المتداولة، تتمثل في عدم اهتمامه ـ بالدرجة الأولى ـ بالانتصارات الظاهرية، وبوجود أشخاص المعارضين أو عدم وجودهم، بل يهتم ـ أولاً ـ بتوجيه الناس توجيهاً ثورياً.

وفي التاريخ الإسلامي نجد نماذج كثيرة متألّقة وشاهدة على هذا الموضوع الحساس. ومن أجل رعاية الاختصار نذكر نموذجاً واحداً منها، يتمثل في سلوكيات الإمام علي عليه السلام. فالإمام كان يحارب في معركة الجمل الناكثين من أتباع طلحة والزبير وعائشة حتى يفتح ـ حسب الظاهر ـ البصرة، وفي هذه الأثناء سأله أحد المسلمين عن (توحيد الله)، فما كان من أصحابه إلّا أن نهروا هذا السائل،

---

١. شرح النهج، ج١٨، ص١٤٩.

بدعوىٰ أنه سؤال في غير محله؛ لأن أميرالمؤمنين عليه السلام مشغول بالحرب الضروس مع الأعداء، ولكن ماذا قال أميرالمؤمنين عليه السلام؟ لقد أجاب السائل جواباً دقيقاً عن مسألة (توحيد الله)، وبيّن له بعض المطالب التي كانت ولا تزال موضع اهتمام العلماء والباحثين، إضافة إلى أنّه ردّ على أصحابه اعتراضهم على هذا السائل قائلاً ما مضمونه :

«ولهذا نقاتل»[1]، يعني أنّ هدفنا الأهم من هذا الجهاد وكل جهاد هو منح البصيرة لا أخذ البصرة، أي أن نجعل الناس على بصيرة من أمرهم وأمر دينهم، لا أن نفتح البصرة ونبعد عنها المنحرفين والغاصبين فحسب، فهدفنا الأساس هو أن نسرج مشاعل الهداية في أعماق القلوب، لا أن نكتفي برفع راية النصر على سطح الأرض.

وعلى أساس هذا الهدف الأصلي فإنّ الشريعة المقدسة تعتبر هذا الجهاد ضد الأعداء جهاداً أصغر، والجهاد مع النفس لهداية الباطن وتحريره وسُموّه جهاداً أكبر، مضمونه أنّ الجهاد الخارجي فرعٌ من الجهاد الباطني، وأنّ الهدف الأصلي من الجهاد هو فتح القلوب وهدفه الفرعي هو فتح البلدان، وبكلمة أُخرى فانّ الهدف الأصلي هو السيطرة على القلوب والهدف الفرعي هو الحكومة على الأُمور، أو أنّ الهدف الأصلي هو القضاء على الفتنة والهدف الفرعي هو القضاء على دعاة الفتنة.

وإحدى ضروريات هذا التفكير الإسلامي ـ حتى في المسائل الاجتماعية ـ تتمثل في رأي أنصار الله أمثال الإمام عليّ والحسين عليهما السلام في هداية الناس علماً وعملاً عن طريق إصلاح عقائدهم بالإيمان بالله وحثهم على جهاد الظالمين، وذلك هو الهدف الأهم حتى لو أدّىٰ ذلك إلى تدهور حالتهم الدنيوية والمادية، مع أنّ هذا التدهور لا يستمر زمناً طويلاً، لأنّ ذلك الهدف الأهم سيضمن بالتالي إصلاح العباد وعمران البلاد في كافة شؤونها أيضاً. وأمّا تطوير الصناعة والزراعة والتجارة والحكومة وسائر أُمور الناس الدنيوية، فليس هدفاً في الدرجة الأُولى من الأهمية.

---

١. التوحيد للصدوق، ص٨٣؛ مستدرك نهج البلاغة، ص ١٦٠.

ومن الزلات الكبيرة التي حدثت قبل حكومة الإمام عليّ وبعدها، تتمثل في عدم اهتمام المتصدين للأمور بالهدف الأصلي من الجهاد، أي الهداية العلمية والعملية للناس، بل بسبب عدم إدراكهم للإسلام الصحيح، أو من أجل الأغراض السياسية والدنيوية، حرفوا الجهاد عن مسيره الأصلي، حتى أصبح كالحروب غير الإسلامية، أي كأنّه مجرّد وسيلة للتسلط الظاهري وفتح البلدان المختلفة، وغفلوا عن أبعاده التربوية وتنميته للفضائل والمكارم والكمالات المعنوية، ولهذا تعرّضت مصالح الإسلام الحقيقية ـ التي تكمن في هداية الناس هداية حقيقية ـ للتلف والبوار أو على الأقل ـ للخواء والوهن ولو بعد حين.

تناسب الشرط مع الهدف

وهنا لابدّ من معرفة أنّه لماذا اشترط في الجهاد توفّر الظروف المساعدة والايجابية؟ من الطبيعي أنّ ما اشترط لشيء يتناسب مع أهداف ذلك الشيء، وبما أنّ الهدف الأساس للجهاد ـ كما رأينا ـ ليس الإنتصار الظاهري للمجاهدين فقط، بل هداية الناس هداية إيمانية وثورية تهدّد مكانة الطواغيت وتزلزل أساس عروشهم في الأفكار والقلوب أولاً، وفي الواقع الخارجي ثانياً. فمن هنا لابدّ من القول: بأنّ ما اشترط للجهاد أيضاً ليس من أجل أن يطمئنّ المجاهدون من انتصارهم ميدانياً فحسب، بل من أجل أن يطمئنّوا في الدرجة الأُولى من تحقق هدفهم الحقيقيّ من الجهاد، المتمثل في هداية الناس إلى حقيقة دين الله وتفعيل الواقع ضد طواغيت عصرهم وكل عصر، ولو أدّىٰ ذلك إلى استشهاد المجاهدين. وعلى هذا الأساس لا يتّخذ القرآن الكريم من انتصارات المجاهدين الظاهرية ميزاناً أصلياً، ولا يعتبر قتلهم في سبيل هذا الجهاد خسارة، بل إنّه يثني على ذلك ويقول: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل‌الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾[1].

---

١. سورة النساء، الآية ٧٤.

هذه الآية تشير إلى أُمور مهمة جدّاً، نذكر بعضاً منها ممّا يرتبط ببحثنا هذا:

الاول: إنّ النفس أهم من المال، ولذلك ينبغي للمرء أن يضحّي بماله لحفظ نفسه، والدين أهم من كليهما، ولذا ينبغي للمرء أن يضحي بماله ونفسه من أجل الدين.

الثاني: إنّ الذين يجاهدون في سبيل الله والحق والعدالة، سواءٌ انتصروا أو قتلوا، هم سواسية في الأجر وعناية الله ورعايته ورحمته الخالصة. ومن هنا يقول الإمام الحسين عليه السلام في خطابه الثوري «... أما والله إنّي لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا قُتلنا أم ظفرنا»[١].

الثالث: إذا علم المجاهدون أنّهم سيُقتلون في سبيل الله والحق، وأنّ الهدف الأساس من الجهاد يتحقق بمقتلهم أيضاً، فالجهاد هنا واجب أيضاً.

وطبعاً فليس مفهوم الجملة الأخيرة أنّ قتلهم هو الهدف، إذ لا يمكن ولا يعقل أن يكون القتل هدفاً أساسياً، فمن الواضح أنّ الهدف الأساس هو الدفاع عن مصالح الإسلام والمجتمع الإسلامي، ولكن تارة يحصل هذا الهدف الأساس إثر القتل والاستشهاد. وعموماً فالنقطة اللافتة للنظر في الآية السابقة ونظائرها تتمثل في أنّ الهدف من الجهاد الإسلامي ـ على عكس سائر الحروب السائدة ـ هو الانتصار المعنوي الحقيقي، وبضمنه وبالدرجة الثانية يلاحظ الانتصار الظاهري للمجاهدين. وهذا يعني أنّ الإسلام يهتم ـ أوّلاً ـ بمصالح الإسلام، ويهتم ـ ثانياً ـ بمصالح المجاهدين، لا بالعكس ولا هما بدرجة واحدة.

وعلى هذا الأساس، فعندما نسمع أنّ احدى الفئات المسلمة لم ترَ ظروف الجهاد متوافرة في تلك الاجواء، فيجب أن نعلم أنّ المراد ليس هو أنّ الجهاد في الإسلام ينظر إلى المصالح الشخصية والعائلية، أو الأضرار الشخصية والعائلية، بل المراد هو أن الجهاد في ذلك الواقع ـ مثلاً ـ غير مفيد لمصالح الإسلام والمسلمين أو مضرّ بها،

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٦.

وإلّا فلو اطمأن المؤمن إلى أنّه يستطيع أن يخدم الإسلام والمسلمين ويدفع الخطر عنهم عن طريق الجهاد، أو من خلال دفع الناس إلى الثورة وضرب مصالح الأعـداء، وجب عليه الجهاد، وإن علم أنّه سيُقتل، وهذه هي أهم ميزة للجهاد الإسلامي، والتي تميّزه عن بقية الحروب البشرية. وهناك شواهد كثيرة على هذا المعنىٰ نكتفي بذكر نموذجين منها.

نموذجان من التاريخ الإسلامي

النموذج الأول: (عبدالله بن حنظلة)، وهو إحدىٰ الشخصيات البارزة التي لعبت دوراً مهماً في ثورة المدينة، فرغم أنّه كان يعلم بقوة يزيد، ورغم أنّه كان مـوضع احترام يزيد أيضاً، ولكن مع ذلك ـ ولأنّه كان يعرف جيّداً معنىٰ الجهاد الإسلامي وشروطه وأحكامه ووجوبه ضد حكومة أمثال يزيد، مهما كانت الظروف ـ فـإنّه انتفض وأعلن الثورة ضد الحكومة اليزيدية القوية، بـرغم قـلة إمكـاناته المـادية والعسكرية، وكان يهدف بذلك إلى الدفاع عـن ديـنه وشـرفه ومـصالح المـجتمع الإسلامي، وإعطاء المسلمين زخماً ثورياً ضد يزيد، حتى لو أدّىٰ ذلك إلى مـقتله ومقتل أعزائه وأحبائه. وبسبب هذا العلم والمعرفة بـالإسلام وجـهاده، كـان هـذا الإنسان الشجاع يصرّح في كلماته ويقول: «قد جئتكم من عند رجلٍ والله لو لم أجد أحداً إلّا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم»[١].

ولم يكتف عبدالله بن حنظلة بالقول فقط، بل إنّه ترجم ذلك عملياً في حـادثة ثورة المدينة، وأرسل أولاده الثمانية إلى ميدان القتال قبل الآخرين. وبعد أن قُتلوا جميعاً ذهب بنفسه وقاتل وقُتل ونال درجة الشهادة. وهكذا تمّ تعبئة المسلمين ضد يزيد والطواغيت من أمـثاله، إذ وجّـه هـؤلاء المـجاهدون ضـربات شـديدة إلى الحكومات المستبدة والجائرة في ذلك الزمان وبعده. وكما يذكر التاريخ، فأنّ هذه الحركات الثورية والانتفاضات المتتالية أدّت إلى زعزعة حكومة الأمويين القوية، وبالتالي إنهيارها.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٨٠؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢٨.

النموذج الثاني: من الخليفة الاول أبي‌بكر، نذكره لأهل السنة ـ خاصة الذين يعترضون على نهضة الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد لقلة إمكاناته اللازمة لتحقيق النصر العسكري ـ حتى يُعلم أنّ هذا الإشكال غير وجيه حتى بالنظر إلى كلام أبي‌بكر نفسه، لأنّ أبابكر أيضاً يقول بالنسبة للمرتدين في زمن خلافته بأنّ الواجب على كل مسلم ـ خاصة عند تعرّض مصالح الإسلام والمسلمين إلى الخطر ـ أن يقوم بواجبه في جهاد الأعداء، ولو كان وحده ومعرضاً للقتل. ونحن رأينا حتى في تصريحات الأمويين من أعوان يزيد، فضلاً عن تصريح الحسين عليه السلام نفسه، أنّ أساس الإسلام بات في خطر بمجيء يزيد إلى الحكم، وكانت فتنته أشد من فتنة المرتدين جدّاً، وخاصة أنّ المرتدين كانوا يمثّلون فئة قليلةً قياساً بالمسلمين، ولم تكن جريمتهم سوى أنّهم امتنعوا عن دفع الزكاة إلى ولاة أبي‌بكر، ولم يوجّهوا ضربة إلى أساس الإسلام، ومع ذلك نجد أبابكر يقول بكل حَزم: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، ولو لم أجد أحداً لقاتلتهم وحدي»[1].

نقطة مهمة

والنتيجة هي أنّه لا يشترط في الجهاد الإسلامي أن يمتلك المجاهدون إمكانات عسكرية ومادية كافية ليطمئنوا بالنصر الظاهري؛ بل شرطه أن تكون لهم في مقابل الأعداء إمكانات مؤثرة عسكرية أو سياسية أو اجتماعية أو معنوية؛ ليطمئنوا في جهادهم إلى تحقيق آثار مطلوبة ونتائج مقبولة على مستوىٰ تفعيل الواقع الثوري للأمة وتوجيه ضربة شديدة إلى مكانة العدو، حتى لو أدّىٰ ذلك إلى قتل المجاهدين. وهذه النقطة نقطة مهمة، وهي أفضل ما يذكر في توضيح طبيعة الثورة الدامية لسيد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام وأصحابه، وبإمكانها الإجابة عن الإشكالات والشبهات المطروحة في هذا المجال ومن جملتها السؤالان المهمان اللذان تقدّما قبل قليل. ونذكرهما هنا بشكل أكثر وضوحاً:

---

١. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٥.

١ ـ لماذا اختلف منهج الإمام الحسن والحسين عليهما السلام قبال معاوية مع منهج أبيهما الإمام عليّ عليه السلام، إذ صالحاه بخلاف سيرة أبيهما؟

٢ ـ لماذا اختلف أُسلوب الإمام الحسين عليه السلام قبال يزيد عن أُسلوبه في مقابل معاوية، حيث إنّه صالح معاوية وثار ضد يزيد؟

وحول السؤال الأوّل نقول: بالنظر إلى ما تقدّم من هدف الجهاد وشروطه، فإنّ الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام برغم علمهما بأنّ الحرب ضد حكومة معاوية هي ضرورة إسلامية، كما كان الحال في زمن أبيهما الإمام عليّ عليه السلام، ولكن ـ في الوقت نفسه ـ بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام وبسبب الارتباك في الأوضاع ووخامتها وعدم وضوح الأمور واضطرابها، أصبحا على يقين بأنّ الحرب مع هذا العدو لا تحقق مصالحهم وأهدافهم فضلاً عن أنّها تضر بمصالح الإسلام والمسلمين. فالوثائق التاريخية تبيّن أنّ الأوضاع حينذاك، وخاصة في أواخر حرب صفّين وما بعدها، كانت متوتّرة ضد تيار أهل البيت عليهم السلام وخاصة، أنّ حكومة معاوية قد استتب حكمها بعد مسألة التحكيم. والأنكىٰ من ذلك أنّه بعد إستشهاد الإمام عليّ عليه السلام ازدادت سيطرة معاوية على سائر المناطق الإسلامية واستقرت أركان حكومته استقراراً كاملاً وبلا منازع. وإلى جانب ذلك فقد عمل هو وولاته على بثّ الشائعات والأكاذيب والجواسيس، ليثيروا الناس ضد أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، ويوهموا المسلمين أنّهم على باطل أو أنّهم ضعفاء، وأن الحق والصلاح عند معاوية وأعوانه.

هذه المشاكل العظيمة تدل على أنّ الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام كانا في وضع أصعب بكثير من زمن أبيهما الإمام عليّ عليه السلام، وفي الحقيقة أنّهما واجها طريقاً مسدوداً، خاصة وأنّ معاوية بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام وجد الفرصة سانحة؛ فبذل كل إمكاناته لتقوية حكومته على حساب اهتزاز حكومة الحسن عليه السلام، وبحجّة الدفاع عن مصالح المسلمين، وأنّه يحب الصلح ويرغب في عدم إراقة دماء المسلمين، بالإضافة إلى أنّه تحرك على مستوى إغراء أصحاب الإمام الحسن عليه السلام

بالرُّشا والوعد والوعيد وأساليب التهديد والتطميع المختلفة، حتى استطاع أن يستقطب الكثير من قيادات جيش الإمام الحسن عليه السلام، بل إن بعضهم تجرّأ على إهانة الإمام الحسن عليه السلام وتهديده بالقتل[١]، وواضحٌ أنه لو كان الإمام الحسن عليه السلام قد قُتل في ذلك الوقت وفي تلك الظروف المبهمة والمرتبكة ـ خلال الحرب مع معاوية مثلاً ـ لذهب دمه هدراً، وكان ذلك لصالح معاوية ولم يلحق أيّ ضرر به.

في مثل هذه الأوضاع العقيمة، شعر الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام، أنّ الحرب مع معاوية، الذي يتمتع من جهة بجيش قوي، ومن جهة أُخرى بسياسة خادعة ليست بنفع الإسلام والمسلمين، بل دخولهما معه في حرب غير متكافئة سوف تنعكس أخطارها على الإسلام والمسلمين، ولذلك وجد الإمامان أنّ الصلح والموافقة مع حكومة معاوية الإسلامية في الظاهر، هو الأجدر لحقن دماء المسلمين وحفظ مصالح الإسلام من الخطر الأكثر.

والخلاصة أنّ مسالمة الحسن والحسين عليهما السلام لمعاوية، كمسالمة النبي صلى الله عليه وآله للمنافقين، فالظرف في ذلك الزمان كان يقتضي مثل هذه السياسة السلمية بحسب الظاهر، وكما نعلم أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يهادن المنافقين فحسب، بل إنّه ـ فضلاً عن ذلك ـ قبِل إسلامهم السياسي، حتى إنّه أكرمهم على أساس قانون «السياسة في مقابل السياسة»، وأعطاهم الكثير من الأموال، بالرغم من أنّ القرآن الكريم ينصّ على وجوب قتالهم كما في قتال الكفار، إذ يقول تعالى: ﴿يا أيّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾[٢]، وهنا يبدو سؤال مهم، وهو: لماذا لم يقاتل النبي المنافقين الذين جعلهم القرآن كالكفار، بل سالمهم وكان مرناً معهم بأشكال مختلفة وفي معظم المواقف؟

---

١. تذكرة الخواص، ص١٩٧، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٠٤ و٤٠٥.

٢. سوره التوبة، ٧٣؛ والتحريم، ٩.

لماذا لم يقاتل النبي صلى الله عليه وآله المنافقين وقاتلهم الإمام علي عليه السلام؟

ذكرنا في الفصل الأول السبب في مسالمة النبي صلى الله عليه وآله للمنافقين، وبمناسبة البحث عن أهداف وشروط الجهاد نشير هنا إلى أن مصالح الإسلام والمسلمين (وليست المصالح الشخصية للنبي صلى الله عليه وآله فحسب)، لم تكن تقتضي ـ مع تلك الحالة الحساسة للمنافقين ـ محاربتهم وقتالهم؛ لأنّ هذه الحرب ليست في صالح الإسلام، بل سوف تربك الوضع الإسلامي كثيراً؛ فتكون فرصة مناسبة للانتهازيين الداخليين والأعداء الخارجيين للايقاع بالإسلام، وتعريضه لخطر الزوال أو التصدع، ومن هنا رأىٰ النبي أنّ استقرار صرح الإسلام يفرض عليه أن يغضّ الطرف عن قتال المنافقين في تلك الظروف الخاصة ويسالمهم، بل يداريهم ويغدق عليهم .

ولكن خلال خلافة الإمام عليّ عليه السلام تغير الوضع، وأصبحت أركان الإسلام قوية، ولهذا لم تكن هناك ضرورة لمسالمة المنافقين، بل على العكس كان الضرر يكمن في ترك المنافقين أمثال معاوية والأمويين، الذين استطاعوا أن ينفذوا بين المسلمين وفي الجهاز الحاكم، وأخيراً استطاعوا أن يسيطروا على مراكز القدرة وعلى سدة الحكم، تحت شعار الدين وبذلك عرّضوا مصالح الإسلام والمسلمين للخطر. وفي مثل هذه الظروف الخطيرة كان الإمام عليّ عليه السلام وأصحابه المخلصون يرون أنّ الإمام إذا تعامل مع المنافقين كما تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله معهم وسالمهم، فإنّ نفوذهم سوف يزداد ويتجذّر بين المسلمين، وفي هذه الحالة لا يوجد أيّ عاملٍ يكشف عن حقيقتهم المضادة للإسلام سوىٰ جهاد الإمام عليّ عليه السلام لهم، والذي كشف عن خداعهم ونفاقهم بصورةٍ عملية، وفضحهم أمام التاريخ وأمام المؤمنين والباحثين في تاريخ الإسلام، بحيث إنّهم لم يستطيعوا أبداً أن يتوغّلوا في ضمائر المؤمنين باعتبارهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله الحقيقيين، وهذا النصر العظيم للإمام عليّ عليه السلام وأصحابه كانت له ثمرات معنوية وسياسية حتى مع وجود معاوية وأمثاله في سدّة الحكم.

والحقيقة أنّ جهاد الإمام عليّ عليه السلام للمنافقين مثّل منعطفاً جديداً في مسيرة

الإسلام، وفتح صفحة جديدة في حياة المجتمع الإسلامي، وقلب المعادلات السابقة له، والتي كانت مبنيّة على أساس حُسن ظن المسلمين بالخلفاء وولاتهم من أمثال معاوية، الذين قبضوا على دين المسلمين ودنياهم وتحكّموا بهم.

أمّا عليٌّ عليه السلام الذي يمثّل أقرب شخصية محبوبة لدىٰ الرسول صلى الله عليه وآله وأكبر شخصية في العالم الإسلامي، فإنّه في قتاله بعض الشخصيات التي كانت جزءاً من جهاز الخلفاء، وجّه إلى المنافقين والانتهازيين ضربة عظيمة ظلّت مثاراً للاهتمام طيلة التاريخ. وفي الواقع، إنّ القسم المهم من نشاطات الخلفاء كان يعتمد على هؤلاء الولاة غير المناسبين، بل الخطرين، إذ إنّهم كانوا مصدر المشاكل العظيمة التي حلت بالمسلمين، وخاصة خلال خلافة عثمان وما بعده، ولذلك قام الإمام عليّ عليه السلام بضربهم، وأبطل مقولتهم وأحدوثتهم في السياسة الإسلامية، كما أنّه طبّق الإسلام الحقيقي والعدالة الإسلامية الحقيقية ولو في ضمير المسلمين ووجدانهم، وفضح المفسدين والضالين وأبعدهم عن جهاز الحكم وعلى الأقل كشف عن عدم صلاحهم للحكم، وبهذا الدرس الحي الذي علّمنا إيّاه الإمام عليّ عليه السلام بقتاله هؤلاء المنافقين وأعوانهم وأتباعهم، استطاع أن يكشف زيف هؤلاء من جهةٍ ويحرّك المسلمين ضدهم من جهةٍ أخرىٰ.

وإحدىٰ مناقب الإمام عليّ عليه السلام المهمة الأُخرى هي أنّه جاهد المنافقين في مرحلة ما بعد النبي صلى الله عليه وآله، وفضحهم أمام المجتمع الإسلامي، وبيّن خطّ الإسلام الأصيل للأمة الإسلامية في خلافهم، كما قاتل الكفار والمشركين في حياة النبي صلى الله عليه وآله، ومن هنا أدخل الأمة الإسلامية، وخاصة المؤمنين المخلصين، مرحلة جديدة، وهذا يعتبر أكبر فخر للإمام عليّ عليه السلام؛ لأنّه استطاع أن يقمع المنافقين على عهده ـ ولو سياسياً ـ كما قمع الكفار في السابق. وطبعاً فإنّ جهاده وقتاله المنافقين أهم من قتال الكفار. ويمكن القول: إنّ أهم مرحلة في حياة الإمام عليّ عليه السلام، بل أهم مرحلة في تاريخ الإسلام، هي هذه المرحلة التي كانت من خصائصه، حتى إنّ الصحابة الكبار مثل «عدي بن حاتم» يصرّح بهذه الخصيصة للإمام عليّ عليه السلام ويقول:

«أيّها الناس، إنّه ـ والله ـ لو غير عليّ دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبنا، ولا وقع بأمرٍ قطّ إلّا ومعه من الله برهان وفي يديه من الله سبب، وإنّه وقف عن عثمان بشبهة، وقاتل أهل الجمل على النكث وأهل الشام على البغي»[١].

والإمام عليّ عليه السلام نفسه يذكر ذلك ويفتخر به في موقفه مع المنافقين ويقول: «لو لم أكن لما قوتل أصحاب الجمل والنهروان...»[٢] كما أنّه عليه السلام في كلام آخر له يفتخر بدوره في قمع الكفار والمشركين ويقول: «أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب»[٣].

واللافت للنظر خلال التأمل في كلمات الإمام عليّ عليه السلام حول ضرورة قتال المنافقين، كلامٌ آخر له كرره عدة مرات، منها ما ذكره في كتابه إلى معاوية نقلاً عن النبي صلى الله عليه وآله وقال فيه: إنّ تكليفه في هذه المرحلة يختلف عن تكليف النبي صلى الله عليه وآله في تلك المرحلة حيال المنافقين، ويذكر ابن أبي الحديد هذا الكلام كما ذكره كثير من الرواة، ويجدر بالمحققين والعلماء أن يبحثوه في كتابٍ مستقل تحت عنوان (التنزيل والتأويل). ونص قول الإمام عليّ عليه السلام هو: «وقال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: وإنّ فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله وأشار إليّ»[٤]، أي اشار إلى الإمام عليّ عليه السلام.

وعلينا أن نعلم بأنّ (التنزيل والتأويل) بمثابة الشريعة والطريقة أو الظاهر والباطن للدين الإسلامي. وبالطبع لا يختص هذا بالمجتمع الإسلامي، بل يشمل كل مجتمعٍ بما يتناسب مع طبيعته؛ لأنّ كل دين أو مذهب أو مدرسة فكرية في كل مجتمع، يلتف حولها أتباع غير مخلصين غالباً، ومن الطبيعي أن يتظاهر هؤلاء الأتباع الانتهازيون بالإخلاص لهذا الدين أو المذهب أو المدرسة من أجل أن يتحكّموا بواقع الناس ويتسلّطوا عليهم؛ وصولاً إلى تمكنهم من إدخال آرائهم فيه، وفي النتيجة يعملون على إسقاط الفكر الأصيل بالأساليب السياسية والإعلامية.

---

١. الإمامة والسياسة، ج١، ص١٤١.
٢. شرح النهج، ج٧، ص٥٨.
٣. شرح النهج، ١٣، ص١٩٧.
٤. الوسائل، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي باب ١٣ ح ٧٥، مسند احمد، ج٣،: ٣١ و ٨٢؛ مستدرك الحاكم، ج٣، ١٢٣؛ شرح النهج، ج١٣، ص١٨٢ و ١٨٣ و ج ١٤، ص ٤٣..

وهذا كله يؤدّي طبعاً إلى حدوث أجواء مبهمة ومظلمة تستفحل فيها المشاكل والضلالات، وهي تزداد يوماً بعد آخر، وأخيراً يتعرّض الأتباع المخلصون لهذا الدين والمذهب بل الدين والمذهب نفسه إلى الخطر، إلّا أن يبرز بين الناس أشخاص من أهل البصيرة والشجاعة، كالإمام عليّ‌عليه‌السلام، فيكشفوا النقاب عن زيف هؤلاء الانتهازيّين، ويحذّروا من خطرهم ـ كحدّ أدنىٰ ـ ويرشدوا الناس إلى الحق والطريق الحقيقي، حتى لو بقي هؤلاء في سدة الحكم في الظاهر، والخلاصة أنّ مسألة (التنزيل والتأويل) ليست مسألة خاصة بالمجتمع الإسلامي، بل هي نموذج لمرحلتين طبيعيتين في مسار المجتمعات البشرية.

الصلح أو الحربة السياسية!

من الطبيعي أن يبرز سؤال يلفت الانتباه في هذا البحث، هو أنّه لماذا لم يستمر الإمامان الحسن والحسين‌عليهما‌السلام في الطريق الذي سلكه أبوهم الإمام عليّ‌عليه‌السلام كما أشرنا آنفاً؟ وتتمثل الاجابة عن هذا السؤال في أنّ حرب الإمام عليّ‌عليه‌السلام للمنافقين كان لها دور أساسي في افتضاح أمرهم، وتعرية ادعاءات معاوية وأضرابه من الانتهازيين والمنافقين، وتطهير ضمير المسلمين المؤمنين من دنس الاعتقاد والاعتماد عليهم، ولكن في الوقت نفسه، وفي أواخر حكومة الإمام عليّ‌عليه‌السلام كانت الأمور تجري على خلاف مصالح حكومة الإمام بسبب مسألة التحكيم المنحرفة، اضافة إلى العوامل المذكورة سابقاً، بل كانت تسير لصالح معاوية في الظاهر؛ وذلك لأنّ كثيراً من المسلمين وإن أدركوا في قضية (التحكيم) أنّ الحكمين تجاوزا حدود وظيفتهما المقرّرة، اضافة إلى أنّهما تخاصما وافترقا عن خلاف شديد، حتى إنّ كل واحدٍ منهما كان يكيل السباب والشتائم للآخر بألقابٍ رخيصة جدّاً من قبيل: عدوّالله، محتال، كذّاب، كلب، حمار، وغير ذلك[1] ولكن مع كل هذا، استفادت

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٢؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٩٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٣٣.

حكومة معاوية من خيانة هذين الحكمين أكبر استفادة، وجعلتها ذريعةً سياسية ـ كقميص عثمان ـ ممّا ساهم في إرباك أذهان المسلمين وخاصة في العراق، والأنكى من ذلك أنّ معاوية بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام قد انفرد بالساحة، وسيطر على جميع المقدّرات، ولذلك لم تكن الظروف تسمح بالاستمرار في قتاله ـ برغم أنّه حصل من قتاله عليه السلام نتائج قيمة أشرنا إليها ـ بل كانت الظروف بعد استشهاده عليه السلام شبيهة بظروف النبي صلى الله عليه وآله مع المنافقين، بل أسوأ من ذلك.

في هذه الظروف الحساسة والخانقة، رأى الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام أنهما إذا واجها معاوية بالقوة العسكرية فسوف ينتصر معاوية حتماً. وبعد انتصاره عليهما فإنّه قد يقتلهما علناً أو خفاءً ويقمع جميع أتباعهما وأنصارهما، وبذلك لا تتحقق أهدافهما من ذلك الجهاد، بل إنّه سيساعد معاوية على أن يتجرّأ أكثر، ويبرز مكنوناته المضادة للإسلام بصراحة أكثر، وبالتالي ستزداد حالة المجتمع الإسلامي سوءاً، ولهذا تأكد لدى الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام ضرورة الصلح الظاهري، إذ لم يكن لديهما خيار نافع في تلك الظروف الخطيرة سوى الصلح الظاهري برغم مرارته، وذلك من أجل الحفاظ على الكيان الإسلامي على الأقل، وهذا يعني ـ في الحقيقة ـ دفع الأفسد بالفاسد أو انتخاب أهون الشرّين.

والنتيجة أنّ خطر الصلح في تلك الأوضاع المبهمة والرهيبة كان أقل من خطر الحرب، وفائدته في الحفاظ على مصالح الإسلام والمسلمين أكثر من الحرب.

الجواب عن السؤالين من موقع مشترك!

إلى هنا اتضح الجواب عن السؤال الأول، والآن نجيب عن السؤال الثاني والأهم، وهو أنّه لماذا اختلف سلوك الإمام الحسين عليه السلام في مقابل يزيد عن سلوكه مع معاوية، فصالح معاوية إلى جانب أخيه الحسن عليه السلام، بينما ثار على يزيد؟

في جوابنا عن السؤال الأول ذكرنا ملاحظة دقيقة توضّح علّة هذا الفرق أيضاً،

وهي الملاحظة التي يمكن أن تكون جواباً عن كلا السؤالين، وتمثل هذه الملاحظة في أنّ صلح الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام مع حكومة معاوية ـ كما رأينا آنفاً ـ لم يكن صلحاً حقيقياً، بل كان أُسلوباً من الأساليب السياسية التي تُستخدم في حال فقدان الإمكانات والوسائل العسكرية، فقد كان هذا الأُسلوب وجيهاً ومفيداً بالنظر إلى أنّ سياسة حكومة معاوية كانت إسلامية في الظاهر ولكي يبقى معاوية على سياسته هذه ولا يتجرّأ أكثر من ذلك ويهدّد أساس الإسلام، وإلّا فلو عمل معاوية كما عمل يزيد فيما بعد، وتعرّض أساس الإسلام للخطر، فإن الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام سوف لن يقفا مكتوفي الأيدي، ولن يستخدما معه أُسلوب المداراة، كما أنّ أباسفيان لو ارتد إلى الكفر وسلك سبيل الشرك بعد إسلامه ونفاقه، لم يسلك معه النبي أُسلوب المداراة أيضاً.

وكما رأينا سابقاً، فإنّ حكومة يزيد كانت تعلن الفسق والفجور ولا تراعي حتى الظواهر الإسلامية، بل كانت ـ على العكس من سياسة معاوية الظاهرية ـ تستهزىء بالإسلام والقرآن والنبي صلى الله عليه وآله جهراً، وبذلك فإنّ المسلمين المخلصين كانوا يشعرون بمسؤولية أكبر تجاه يزيد قياساً بمعاوية، لإنّ معاوية حتى مع شدة خبثه لم يكن يشارك علناً في مجالس القمار والشراب والفساد، بل كان ـ كما تقول المصادر التاريخية ـ يتظاهر بالتدين ويتقنع بالقداسة، وكان يدّعي أنّه كاتب الوحي، وأنّه صحابي مقرب للنبي صلى الله عليه وآله، ويفتخر بذلك، على العكس من يزيد، كما لاحظنا خلال تصريحات اركان حكومته، كالمغيرة وغيره، فضلاً عن أقوال الحسين عليه السلام وأتباعه، ونموذج منها ما قاله المغيرة بعد تهيئة مقدمات ولاية عهد يزيد: «فتقت على أُمّة محمد فتقاً لا يرتق أبداً»[1]. وأهم من كلام المغيرة هو كلام الإمام الحسين عليه السلام المختصر والجامع الذي قاله بحق يزيد لا معاوية، وهو: «على الإسلام السلام إذ قد بليت الأُمة براع مثل يزيد»[2].

---

١. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٠٤.
٢. مر ذكره آنفاً.

الإسلام أهم من الحسين عليه السلام

من الواضح أنّه عندما أحس الإمام الحسين عليه السلام بالخطر على كيان الإسلام من قِبل يزيد واليزيديين، لم يعد في وسعه الصمت والقعود، كما كان الحال في عهد معاوية ، وذلك باعتباره مسلماً ومؤمناً فضلاً عن أن يكون إماماً من أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ الصلح ـ أساساً ـ كان من أجل المحافظة على الهدف الأصلي، أي الإسلام، وخفض نسبة المشاكل التي تواجهه، بينما في عهد يزيد تعرّض أساس الإسلام وكيانه ـ الذي هو الهدف الأصلي كما يصرّح الإمام الحسين عليه السلام ـ إلى الخطر من قِبَل حكومة يزيد، إذَن فلا يبقى للصلح معنى أصلاً حتى يبحث عن ضرورته أو عدم ضرورته، وبعبارة أُخرى: ينبغي أن نتساءل هل الحسين أهم من الإسلام أو أنّ الإسلام أهم من الحسين عليه السلام؟ فإذا قلنا إنّ الحسين عليه السلام أهم من الإسلام، فيكون هناك مجال للبحث في قضية عدم بيعة يزيد والصلح معه بهدف محافظة الحسين عليه السلام على نفسه مثلاً، وإن كان يزيد يعادي الإسلام علناً. ولكن إذا قلنا: ـ ويجب أن نقول ـ إنّ الحسين عليه السلام ليس أهم من الإسلام، بل الإسلام أهم من الحسين، وأساساً فانّ عقيدة الحسين والحسينيين أنّ شخصية المسلم الحقيقي وهويّته وكل ما يرتبط به رهين الإسلام، ففي هذه الحالة فإنّ أساس الإسلام عندما يتعرض للخطر بوجود حكومة يزيد وأمثاله، فلا مكان أصلاً للصلح، رغم أنّ حكومة يزيد لم تكتف بالصلح أيضاً، بل كانت تريد من الإمام الحسين عليه السلام التسليم بدون قيد وشرط، وأن يبايع ليزيد على أنّه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى مع كونه معلناً للفجور والكفر، وبديهي أنّ الإمام الحسين عليه السلام، بل كل إنسان مؤمن، يرى أنّ من الواجب عليه رفض هذا التسليم والاستسلام المخزي الذي يساهم في إضلال الناس، وأن يتصدى لمواجهة هذه الحكومة الجائرة بكل وجوده للدفاع عن الدين والشرف، وليكون أيضاً قدوةً وأسوةً لغيره من المسلمين، بغية تحريكهم ودفعهم للثورة ضد الطاغوت والحكومة الجائرة.

والشواهد التاريخية الكثيرة ـ كما سنأتي عليها ـ تدل بوضوح على أنّ جهاد

الإمام الحسين عليه السلام وتضحياته واستشهاده، بعث الوعي في ضمير المسلمين ويقظتهم من رقادهم، بحيث عرّضت الحكومة الأموية إلى خطر شديد، وأصبحت موضع ازدراء جميع المسلمين، كما يعترف بذلك يزيد نفسه، وسنرى أنّ هذا الانتصار المعنوي والحقيقي لثورة الحسين عليه السلام أدّى إلى انتصارات عملية أيضاً في ساحة الواقع تدريجيّاً إلى المستوى الذي تعرّضت فيه الحكومة الأموية ـ بعد مدة قليلة ـ إلى السقوط والانهيار.

أُسلوب يزيد ينتهي لصالح نهضة الحسين عليه السلام

إنّ سياسة معاوية المتظاهرة بالإسلام والتي كان الكثير من المسلمين البسطاء يعتقد بأنّها على الحق، كانت سلاحاً فعّالاً لصالح معاوية وليس لصالح نهضة الحسين عليه السلام طبعاً، فلو كان الحسين قد ثار خلال عهد معاوية، فإنّه سوف لن يوفّق في تحقيق أهدافه، أي إنّ نتيجة سياسة معاوية المتقنّعة بالإسلام ستؤدي إلى انعدام ذلك التأثير العملي والمعنوي أيضاً لثورة الحسين عليه السلام في أوساط المسلمين، بل إنّ معاوية بسياسته الإسلامية الظاهرية، سيزيل تأثيرها أو يقلله طبعاً حتى لو استشهد الحسين عليه السلام، بيد أنّ سياسة يزيد المناهضة للإسلام بصورة علنية كانت حربة ضد يزيد نفسه ولصالح الحسين عليه السلام في ثورته، خاصة وأنّ استشهاد الحسين عليه السلام على يد يزيد الخبيث وعناصر جيشه المرتزقة، كان له دور كبير في تحريك المجتمعات الإسلامية ضد حكومته وضد سائر الحكومات المنحرفة الظالمة، والثورة على وضعها المأساوي.

ولتوضيح ذلك نلاحظ أنّ الحسين عليه السلام ـ خاصة مقارنة بيزيد ـ كان يتمتع بمكانة مرموقة وسامية جدّاً، ممّا اضطرّت حتى أعداءه إلى الاعتراف بها، فكان معاوية وعمرو بن العاص يقولان: «حسين أحب أهل الأرض إلى أهل السماء»[1]، ومثل هذه

١. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٧٩.

الاعترافات تعكس حقيقة مهمة، وهي أنّ المسلمين كافة كانوا يكنّون للحسينعليه السلام احتراماً فائقاً، ويعتقدون بأحقيته في خلافة رسول اللهصلى الله عليه وآله، وخاصة بالمقارنة مع يزيد الفاسق، وكما يقول (العلايلي) ما مضمونه: كان المسلمون جميعاً ينظرون بقدسية أكثر من المعتاد إلى الحسينعليه السلام[١]، أو كما يقول (العقّاد) ما مضمونه: كان المسلمون يعتقدون أنّ الحسينعليه السلام هو وسيلة النجاة والمعبّر عن المشاعر الإنسانية النبيلة[٢]، لذلك يتضح جليّاً أنّ نهضة الحسينعليه السلام ضد حكومة مناهضة علناً للإسلام كحكومة يزيد ـ حتى إذا أدّت إلى مقتله ـ بل خاصة إذا أدّت إلى مقتله ـ فإنّها ستثير المسلمين وتعبئهم للسير على نهج الحسينعليه السلام، وتحقق أهدافه المقدّسة، وتقضي على أعدائه ولو بعد حين .

والشاهد على التأثير العظيم لنهضة الحسينعليه السلام في تعبئة المسلمين ضد حكومة الأمويين، أنّ أعداداً كبيرة من المسلمين في مكة والمدينة والكوفة وسائر المناطق القريبة والبعيدة كخراسان، قد ثارت استلهاماً من نهضة الإمام الحسينعليه السلام، وفجّرت ثورات وانتفاضات تغييرية كبرىٰ، وهي تحمل شعارات ثورية، مثل: (يا لثارات الحسين) وغيرها، واستطاعت أن توجّه ضربات قاصمة إلى الحكومة الأموية، وسنبحث في الفصل الرابع في حقيقة أنّ الثورة الكبرىٰ التي فجرها المسلمون في جميع المناطق الإسلامية، حتى الشام، كانت في الحقيقة استمراراً لنهضة الحسينعليه السلام، فقد استطاعت أن تسحق حكومة الأمويين المقتدرة والممتدة جغرافياً، باسم الحسينعليه السلام وبيد المتربين في مدرسة كربلاء الدامية الخالدة، وأن تبيد جميع ما كان للأمويّين وحزبهم وآثارهم التي تركوها طيلة سلطتهم التي امتدت ألف شهر كما ورد في القرآن الكريم[٣]، ومن جانبٍ آخر قرّبت هذه الثورات واقع المسلمين إلى خط الحسين وأهل بيت النبيصلى الله عليه وآله وأهدافهم.

وتكمن جذور هذه التحولات العظيمة، في ثورة الإمام الحسينعليه السلام ضد حكومة

١. تاريخ الحسين للعلائلي، ص٨٣.
٢. ابو الشهداء، ص٥٣.
٣. راجع تفاسير سورة القدر.

يزيد واستشهاده فقط، وإلّا فلو لم يقم الإمام الحسين عليه السلام بهذه الثورة أو أنّه ثار ضد يزيد ولم يستشهد وفرضنا أنّه وصل إلى الحكم، فإنّ هذه التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية في التاريخ الإسلامي ـ التي أشرنا اليها وسنفصّلها فيما بعد ـ لن تحدث إطلاقاً، بل إنّ الحسين عليه السلام في حالة تسلّمه الحكم سيواجه ـ بلا شكٍّ ـ ما واجهه الإمام عليّ عليه السلام وأخوه الحسن عليه السلام، بل أكثر منه بكثيرٍ، نتيجة الخلافات والإعتراضات الشديدة من قِبَل الفئات المنحرفة التي كثرت وقويت خلال عشرين عاماً من خلافة معاوية، وحينها سوف تضعف حكومة الحسين عليه السلام حتى تسقط دون أن تحقق الفائدة المطلوبة، ولذلك نرىٰ أنّ الأمر المهم في ملحمة الإمام الحسين عليه السلام في تلك الظروف المظلمة والغامضة هو استشهاده في هذا الطريق، إذ كان مفيداً أكثر من وصوله إلى الحكم.

الشهادة أنفع من الحكومة

قد يتعجب بعضهم من مقولة إنّ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام كان أكثر نفعاً من استلامه الحكم وأكثر أثراً، ولكن بعد دراسة أوضاع تلك المرحلة والتأمل الدقيق فيها سيزول هذا التعجب؛ فنحن نرىٰ أنّ الإمام عليّاً عليه السلام مع كل تلك الدراية والشجاعة والحنكة لم يوفق في الظاهر إلى الانتصار الكامل على أعدائه، والسبب الرئيس في ذلك يعود إلى أنّ كثيراً من المسلمين طيلة فترة الخمس وعشرين سنة من إبعاده عليه السلام عن الحكم، وبسبب الأخطاء التي صدرت خلالها، انحرفوا عن طريق الإسلام الحقيقي، وتكالبوا على الأمور الدنيوية البراقة، وخاضوا غمار الدنيا، ولهذا السبب لم يكونوا مستعدّين أن يتقبّلوا الحياة التي تدعو لها الحكومة العادلة للإمام عليّ عليه السلام، لأنّها بالمقارنة مع حكومات الخلفاء، تعد حياة جافّة وخشنة، بل إنّ الإمام عليّاً عليه السلام برغم خطبه الإرشادية وكلماته التربوية النافعة وسعيه الجادّ في هذا السبيل، فانّ بعض أصحابه وولاته انسحبوا وتركوه، وتسلّلوا ليلاً أو فرّوا نهاراً إلى معاوية، وجلسوا على مائدته الفاخرة وفي قصوره الفخمة، وتسلّموا رشاه العديدة،

فهم يقولون في الحقيقة: أين كل هذا من مائدة الإمام عليٍّ عليه السلام المتواضعة البسيطة التي ربّما لا يوجد أبسط منها.

بهذا المنطق السطحي لهؤلاء المسلمين الذين وهنت عزائمهم، كان علي عليه السلام يتمنّى فراقهم، ويقول: «يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت انّي لم أركم ولم أعرفكم، معرفةً والله جرّت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً ...»[1].

من جهةٍ أخرى نرىٰ أن الأوضاع منذ استشهاد الإمام علي وحتى حكومة يزيد كانت رهيبة للغاية؛ لأنّ حكومة معاوية ظلّت طيلة الأعوام العشرين تتبع سياسة مليئة بالدهاء والحيلة والقمع، فضلاً عن استخدامها أسوأ ألوان الإعلام المضاد لمنهج الامام علي عليه السلام، وذلك في جميع البلدان، وخاصّةً في العراق؛ لكي ينشأ الأطفال والشبان ـ كما يقول معاوية ـ على لعن عليّ وأهل بيته، حتى يبلغوا مرحلة الشباب والشيخوخة، هذا فضلاً عن الأجهزة الجاسوسية الكبيرة التي زرعها في المناطق الحساسة، والتي كان يكشف من خلالها خفايا الامور. وكانت نتيجة جميع هذه الحقائق المرّة التي اكتفينا بالإشارة إليها، أنّ أوضاع المجتمعات الإسلامية أصبحت في نهاية حكم معاوية وإبّان استلام يزيد الحكم، أعقد وأسوأ بكثير من مرحلة بداية حكم معاوية وقتاله الإمام عليّاً عليه السلام، ومن هنا فمن الطبيعي أن نقول: إذا كان الإمام علي عليه السلام مع تلك القدرة الكبيرة التي كانت له في حكومته، لم يستطع أن ينجح في الظاهر، برغم أن معاوية كان في بداية تنامي قوته، فكيف بالإمام الحسين عليه السلام الذي لم تكن لديه تلك القدرة العسكرية، وقام بثورته في زمان حكومة يزيد التي بلغ خلالها الأمويون ذروة قوتهم، وكانت الأوضاع أيضاً متدهورة ووخيمة أكثر بكثير من زمان عليّ من كل جهة، فمن الطبيعي ـ إذن ـ أن الإمام الحسين عليه السلام لا يستطيع في الظاهر أن يقف أمام أعداء أقوىٰ وأشد من السابق، مع أنّ إنحراف الناس في زمان الإمام عليّ عليه السلام لم يكن قد بلغ هذه الدرجة الوخيمة جدّاً،

---

١. شرح النهج، ج٢، ص ٧٥.

ولكن في زمان الإمام الحسين عليه السلام وبسبب سياسة حكومة معاوية، بلغ الانحراف حدّاً لا يمنع من تشكيل حكومة عادلة بقيادة الإمام الحسين عليه السلام فحسب، بل إنّ أهل الكوفة أنفسهم قاموا بقتل الإمام الحسين عليه السلام مع أهل بيته وأصحابه بوحشية منقطعة النظير.

وعلى أساس هذه الحقائق فمن السذاجة جدّاً القول: إنّ أهل الكوفة كانوا متعطشين حقّاً للإصلاحات الإسلامية، وعازمين على تلافي ما قصّروا في حق الإمام عليّ عليه السلام ـ نتيجة الضغوط التي تعرّضوا لها خلال حكم معاوية ـ ولذا كانوا مستعدين للتضحية مع الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد. وحقيقة الأمر أنّ بعض أهالي الكوفة كانوا كذلك فعلاً، ولكن الأكثرية الساحقة منهم لم تكن كذلك؛ وبرغم دعواتهم المتكررة للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وتأكيدهم على نصرته، فإنّهم انضموا ـ بالترغيب أو الترهيب ـ إلى جيش عبيد الله بن زياد، وقاتلوا الإمام الحسين عليه السلام حتى من دون دعم ومساعدة مهمة من جيش الشام، في حين جلس الكثير منهم في بيوتهم يتفرّجون على الأحداث ويتسقّطون أخبار فجائع كربلاء.

إن تلك الجرائم الوحشية المذهلة التي ارتكبها كثير منهم، والتقصير الغريب من كثير آخرين، يشير إلى أنّ هؤلاء، ـ وأمثالهم ـ انحرفوا بشكلٍ مؤسف نتيجة دعايات الحكومة الأموية وإعلامها المسموم، إلى حد استعدادهم لارتكاب مثل هذه الجرائم حتى لو لم تكن حكومة يزيد و عبيدالله موجودة، كما نجد الحالة تتكرر مع زيد بن عليّ ويحيى بن زيد وغيرهم من العلويين، فهل يمكن القول حينها أنّ حكومة الإمام الحسين عليه السلام كانت سوف يحالفها النجاح ويكتب لها الاستمرار مع هؤلاء الناس؟

والنتيجة أنّه من المؤكّد أنّ تشكيل مثل هذه الحكومة واستمرارها يعد أكثر صعوبة من حكومة الإمام عليّ عليه السلام، ولكنّ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في ميدان القتال ضد الحكومة الأموية المتظاهرة بالإسلام، أثرّ تأثيراً ثوريّاً كبيراً في ضمائر الناس وعقولهم، وغيّر تغييراً حقيقياً من مسيرتهم المنحرفة، وقرّبهم إلى المسيرة

الإيمانية، وحوّلهم ـ حقّاً ـ من أذلاء تابعين خانعين إلى أناسٍ يقظين ثائرين ضد أمثال يزيد والحكومات الجائرة في كل مكان وزمان، وهو ما حصل بالفعل بشهادة التاريخ، كما تأتي الإشارة إليه في الفصل الرابع.

رواية المشيئة تنبع من سنّة عامة

وردت حول ثورة الإمام الحسينعليه السلام روايات تحتوي على عنوان (المشيئة)، وهذه الروايات تقول: إنّ الإمام الحسينعليه السلام قد رأى النبيالأكرمصلى الله عليه وآله في المنام يقول له: «أُخرج إلى العراق فإنّ الله شاء أن يراك قتيلاً ويرى نساءك سبايا»[١].

وبالرغم من أنّ هذا الكتاب لا يعتمد رواية المشيئة ونظائرها، ولكن في الوقت نفسه نرى أنّ محتوىٰ رواية المشيئة صحيح، ولو كان سندها ضعيفاً ولا يعتد به، ولكن سندلي في آخر هذا الفصل بشواهد تعزز سندها أيضاً.

إن محتوى (رواية المشيئة) هو أنّ الله سبحانه وتعالى أراد للحسينعليه السلام أن يقاتل الحكومة الأموية الفاسدة الظالمة، ويُستشهد في ذلك السبيل؛ لكي يكون أسوةً للمسلمين في مقابل الحكومات الطاغوتية المنحرفة، وينقذهم من هذا الحال ويفتح لهم طريق الحق والعدالة بعزمٍ وشهامة، ومن الطبيعي أنّ الأُسلوب الثوري في تلك المجتمعات التي كثر فيها الانحراف وأخذت تتحرك نحو هاوية السقوط كان ضروريّاً للغاية، حيث لا تؤثّر ـ حينئذٍ ـ الوسائل المتعارفة للتبليغ والنصيحة في درء الخطر، فلابدّ ـ إذن ـ من وسائل غير عادية من قبيل تضحية الرموز التي تثير في الناس العزم والهمة وتحركهم في هذا الطريق، كما هو الحال في بعض الأمراض البدنية التي لا تنفع معها الوسائل الاعتيادية، فيصل الدور إلى الوسائل الاستثنائية، كالاستئصال والصدمة الكهربائية، أو تبديل الدم، وغيرها.

ولكن بعض البسطاء فسّر رواية المشيئة تفسيراً خاطئاً، ثمّ أشكل عليها، وخلاصة ما يذكرون في معناها: أنّ النبيالأكرمصلى الله عليه وآله أمر الإمام الحسينعليه السلام، وخلافاً

١. اللهوف، ص٦٣؛ ينابيع المودة ج ٣، ص ٦٠.

لجميع المبادئ والمقررات الشرعية، أن يخرج إلى الكوفة لكي يُقتل، ففي هذا التفسير نجد: أوّلاً: إنّ الهدف هو أن يُقتل الحسين فقط، ثانياً: إنّ هذا الأمر خاص بالإمام الحسين عليه السلام فقط، ولكن كل إنسان واعٍ وعاقلٍ يعلم أنّ الهدف من هذه الثورة العظيمة ليس القتل فقط، وليس هو أمراً خاصاً بالإمام الحسين عليه السلام فقط، بل الأمر الخاص أيضاً له مبرّرات عقلية ويستند إلى قانونٍ عام، توضيحه ما يلي:

في الظروف العادية التي لا يكون الإسلام في خطر، فإن الجهاد الابتدائي واجب على المسلمين إن كانوا واثقين بالنصر حسب الظروف الظاهرية، وبخلاف ذلك لا ينبغي المبادرة إلى إعلان الجهاد، هذا هو قانون الجهاد، كما هو القانون العام للحروب أيضاً، ولكن في الظروف غير العادية التي يتعرّض فيها شرف المسلمين وكيانهم ودينهم إلى الخطر، وكما يصرّح الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براعٍ مثل يزيد»[1]، ففي مثل هذه الظروف يجب على المجاهدين أن يضحّوا بكل شيء حتى لو أيقنوا أنّهم سيُقتلون؛ وذلك ليصونوا الدين والشريعة المقدّسة ـ بدمائهم من الزوال والفناء، ويعملوا كذلك على دفع الناس للثورة ضد قوى الانحراف ومؤشرات الخطر، وهذا القانون أيضاً من قوانين الجهاد الإسلامي الذي يفوق القوانين المتعارفة للحروب، وقد ذكرتها الكتب الفقهية تحت عنوان الدفاع أو عناوين أخرىٰ، ورواية (المشيئة) في الحقيقة تطبيق لهذا القانون الأخير، وليست من الأوامر الشخصية التي تخص الإمام الحسين عليه السلام والتي لا تخضع للضوابط إطلاقاً.

ومن هنا يتضح أنّه ولو لم تكن (رواية المشيئة) فإنّ الحسين عليه السلام مكلف ببذل دمه والتضحية حتى آخر قطرة منه في سبيل الدفاع عن الدين ضد حكومة الأمويين التي جعلت أساس الإسلام في خطر، أي لا يكتفي بالقول والكتابة والنصيحة، بل يحمل لواء الثورة، ويتجه إلى كربلاء أو بقعة أُخرى وإن تعرّض هو للقتل وحرمه للأسر أو أيّة مصيبة أُخرىٰ، من أجل أن يشعل قبس الحرية والشجاعة في صدور

١. مقتل الخوارزمي، ج ١، ص ١٨٤؛ اللهوف، ص ٤٨.

الناس الخائفين والأذلاء والمفتونين، ويجعل منهم أُمّة متحركة فاعلة تقاتل في سبيل القيم الإلهية والإنسانية السامية حتى لو آل أمره إلى الشهادة.

وأحد الشواهد على أنّ هذا المعنى أيضاً من قوانين الإسلام الأصلية ولا يختصّ برواية المشيئة، هو أنّ الإمام الحسينعليه السلام نفسه ذكر للمسلمين: أنّ قيامه بالثورة ضد يزيد واجب شرعي عليه وعلى كل الناس، إذيقول: «**أيّها الناس قال رسول الله من رأى سلطاناً مستحلاً لمحارم الله ... ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقّاً**»[1].

رفض الاستسلام لحكومة الباطل أيضاً مهم، بل أهم

وبالتالي فرواية المشيئة هي تطبيقٌ لقانون عام وليست أمراً خاصاً، وهذا المعنىٰ يتضح أكثر بملاحظة حقيقة مهمة، وهي أن هدف تشكيل الحكومة الإلهية إحقاق الحق والعدالة، وهذا أمر هام جدّاً، ولكن عدم التسليم والاستسلام لحكومة الباطل أكثر أهمية من ذلك، ومن الطبيعي أن يكون اقامة الحكومة الإسلامية أحد الأهداف الأساسية في الإسلام، وكان الحسينعليه السلام يهدف إلى ذلك أيضاً، ولكن من الخطأ الكبير أن يقال حيال قضيّة كربلاء أنّ هدفها ينحصر في اقامة الحكومة الإسلامية، ولا هدف آخر لها، إذ إنّ اقامة الحكومة هو وسيلة لتربية النفوس وترسيخ الإيمان في قلوب المسلمين وتوظيفهم للدفاع عن الحق والعدالة والتصدي لقوى الانحراف والظلم وعدم التسليم والاستسلام لهم، وبخلاف ذلك فانّهم سيعيشون حالة الذل والهوان ويواجهون الانحراف من موقع الرضا والقبول، بل يكونون من أدواته أيضاً، فيصبحون كالأنعام بل هم أضل.

وطبيعيٌّ أنّ هذه التربية الثورية التي يهدف إليها الإسلام لا تتحقق إلّا بمحركات كربلائية، ولهذا كانت النهضات الكربلائية ضرورة إنسانية وإلهية، وتتجلىٰ ـ ولابدّ من أن تتجلى ـ من خلال رجال الله في الواقع الإسلامي، لكي يعرف الناس طريق القيم الحقيقية في ميدان العمل، لا بالأقوال وفي بطون الكتب فقط. وفي الحقيقة أنه

---

١. راجع أوائل المقولة الرابعة، ص ٣٦٨.

لولا كربلاء ونظائرها من ملامح التاريخ الإنساني، والتي أوصلت البشرية إلى ذروة الكمال وجعلت الناس يضحّون في سبيل الحق والعدالة، فأين يمكن في غير كربلاء وما يلحق بها أن تتجلى إرادة الله في استعداد البشر للتضحية والدفاع عن دين الله وشرف الإنسان؟ وأين يمكن في غير كربلاء وما يشبهها أن نجد مواجهة الظلم والنفاق والخبث تصل إلى حد التضحية؟ وأين يمكن في غير كربلاء وما يتلوها إهمال العلائق الدنيوية والإعراض عن المغريات المادية، والاتصال بالملكوت الإلهي.

إنّ حادثة كربلاء لا تقتصر على هداية الناس هداية ثورية في الرمال المتحركة للبلاء فحسب، بل تتجلى فيها أيضاً حقيقة الجناة المفسدين، وبالتالي القضاء عليهم قضاء حقيقياً، فحادثة كربلاء ـ من ناحية ـ توصل رجال الحق بتضحياتهم وبدمائهم وبأجنحة حمراء من الأسر أو الشهادة إلى قافلة النور والعظمة. ومن هنا نجد الحديث الشريف يقول مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام: «إنّ لك عند الله لدرجة لن تنالها إلّا بالشهادة»[1]، و ـ من ناحية أُخرى ـ تُوقع ثورة كربلاء أصحاب الباطل في كابوس مظلم وتورّطهم في أنواع المشاكل والذل في الدنيا والآخرة.

ملاحظات حول رواية المشيئة

وعلى كل حال أنّ رواية المشيئة ليست دستوراً خاصّاً، بل تبيّن ـ من خلال ما سبق ـ أنها تنبع من قانون عام، وهنا لابدّ من ذكر عدة ملاحظات حول هذه الرواية لكي ترتفع سائر الشبهات والإشكالات المطروحة في هذا المجال.

١ ـ إنّ المشيئة الإلهية التي قدّرت القتل للإمام الحسين عليه السلام لا تتنافىٰ مع اختيار الإمام الحسين عليه السلام هذا المصير لنفسه؛ لانّ الاختيار مرتبط بـ (خيار الثورة)، والقتل مرتبط بـ (أحد الآثار الطبيعية لتلك الثورة)، وتوضيح هذا الأمر بشكل مختصر مايلي:

---

١. البحار، ج ٤٤، ص٣٢٨ عن امالي الصدوق.

كل النشاطات البشرية حالها حال الحوادث الطبيعية في ارتباط جميعها ـ من حيث تحققها ـ بتقدير الله وإرادته (التكوينية)، فلا يتحقق شيء منها مع عدم إرادته، غاية الأمر أنّه بالنسبة إلى الإنسان فإنّ الله تعالى أعطى لكل إنسان اختياراً وحرية في الأعمال المرتبطة به، بأن يسير ـ مثلاً ـ موافقاً أو مخالفاً لأحكام الله تعالى. وهذه الاحكام التي تعتبر مقياساً للسير الاختياري للإنسان تسمّى بـ(الإرادة التشريعية)، فإن كان سيره موافقاً لها فهو طاعة، وإن كان مخالفاً لها فهو معصية، وبديهيّ أنّ الطاعة والمعصية للإنسان لا تتحققان فقط بإرادة الإنسان واختياره، بل مع توافر الظروف والإمكانات التي تكون بيد التقدير الإلهي والمشيئة الإلهية، أي مع (الإرادة التكوينية) التي تختص بالله.

ومن هنا فإن (المشيئة الإلهية) حيال حادثة كربلاء ـ مثلاً ـ هي بمعنى إرادة الله تعالى ـ في إطار قانون الجهاد ـ أن يقوم الإمام الحسين عليه السلام بالثورة ضد الحكومة اليزيدية المعادية للإسلام؛ حتى يكون أسوة وقدوة لغيره من المسلمين في دفاعهم عن مصالح الإسلام والمسلمين وجهادهم قوى الانحراف، وأنّ الله تعالى يعلم أنّ الإمام الحسين عليه السلام سوف يختار طريق الطاعة فيتحرك وفق أوامره في ثورته وجهاده ضد يزيد، ويعلم أيضاً أنّ يزيد سوف يختار طريق المعصية في قتله الإمام الحسين عليه السلام، وفي النتيجة أنّ جهاد الإمام الحسين عليه السلام في تلك الظروف القاهرة سوف يؤدّي ـ حتماً ـ إلى مقتله عليه السلام، وبهذا الترتيب يجب القول أنّ رواية (المشيئة الإلهية)، تفيد الإرادة والمشيئة الإلهية في كلا المعنيين، ولكنّهما في مرحلتين:

الأولى: هي الإرادة التشريعية وبأمر تشريعي: «أخرج إلى العراق...»، أي اختر الجهاد ضد حكومة الأمويين.

الثانية: هي الإرادة التكوينية وبأمر تكويني: «إنّ الله شاء أن يراك قتيلا»، أي أنّ الله تعالى علم أنّ الإمام الحسين عليه السلام يختار حكمه بالجهاد مع الجيش الأموي وهذا سيؤدّي إلى قتله في تلك الظروف.

٢ ـ إنّ بعض الباحثين يرى (رواية المشيئة) أنّها غير معقولة، وسبب هذه الرؤية

يعود إلى النظر إلى الجوانب السلبية في حادثة كربلاء، كمقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وسبي أهل بيته وغيرها من الفجائع والمآسي، فيستبعد أن يريد الله ذلك المصير للإمام الحسين عليه السلام، ولكنّ هؤلاء غفلوا عن نقطة دقيقة في كل حادثة شبيهة بحادثة كربلاء، تتمثل في أن إرادة الله تتعلق بالجوانب الإيجابية، أمّا الجوانب والأبعاد السلبية فهي لازمة لها، بالرغم من أنّ نفس هذه الجوانب السلبية هي إيجابية أيضاً ـ إذا دققنا النظر فيها أكثر ـ وذلك لفوائدها الباطنية التي لا مجال لتفصيلها هنا وتترتّب أو ستترتب عليها.

هذا اضافة إلى أنّ الله تعالى ـ وكما تقدّم ـ يحرّم من ناحية الإرادة التشريعية قتل الحسين عليه السلام، ولكن من ناحية الإرادة التكوينية لا يمنع من قيام الناس بقتله، بل إنّه تعالى واستناداً لحكمته قد هيّأ الإمكانات والظروف اللازمة لقتله، ولأيّ عملٍ آخر عموماً، سواء كان حسناً أم قبيحاً؛ وذلك من أجل اختبار الناس وتمحيص هويّاتهم وإبراز حقائقهم لأنفسهم وللآخرين، وهذا الأمر أي تحريم عمل معين وفي الوقت نفسه توفير الإمكانات اللازمة لتحقيقه وتنفيذه، يشكّل نقطة مهمة، والروايات الإسلامية تصرّح بذلك وتقول: «... شاء الله ولم يرض ...»[1]، أي أنّ الله تعالى بمقتضى الحرية التي وهبها للإنسان، سمح له بتنفيذ كثير من الأُمور وإن لم يرض ببعضها أو بغالبها، أي لم يرض بها من حيث التشريع، ومع هذا يهيّىء أسبابها ويحقّقها من حيث التكوين.

الفلسفة العامة لرواية المشيئة

٣ ـ إن الفلسفة العامة في (رواية المشيئة) تتلخص في أنّ الله تعالىٰ جعل الدنيا مجموعة من المتضادات، كالنور والظلام، والحلو والمر، والورد والشوك، وغيرها، وخلق الإنسان أيضاً من مواد دنيوية متضادة وتبعاً لذلك كان اختلاف طبائع الناس من حيث غلبة ما أُخذ فيها، وعلى أثر هذا الاختلاف برزت ظواهر مختلفة في شتّى

---

١. الكافي، ج ١، ص ١٥١؛ التوحيد للصدوق، ص ٣٤٣ و ٣٣٩.

المسائل، لا سيّما بالنسبة إلى مسألة الحق والباطل والتصورات والأفكار الصحيحة والخاطئة والسلوكيات المتضاربة والأذواق المتفاوتة بين الناس، التي لاخلاص من سوء تبعاتها إلّا بأن يلتزموا التزاماً حقيقياً بتعاليم الدين، فإنّها بإمكانها أن تنقذهم وتنجيهم من دوّامات المتضادات النابعة من طبائعهم الموجبة غالباً للابتعاد عن سبيل الله والحق والعدالة والتورط في الأهواء النفسية وحجب الغفلة والأنانية، بل من خلال التزامهم بتعاليم الدين سيرتبطون فيما بينهم بروح الإيمان، التي هي في الحقيقة روح إلهية وتصدر منها الفضيلة والمحبة.

وقد أوضح النبي الأكرمﷺ منشأ الاختلافات بين الناس، فقال: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»[1]، يعني أنّ المتضادات التي نراها في طبيعة الدنيا، موجودة كذلك في طبيعة الإنسان، التي هي جزء من طبيعة الدنيا، فمنشأ اختلاف الناس ـ إذن ـ هو التقدير الإلهي في جعل الدنيا محلّاً للمتضادات والاختلافات، وخلق الإنسان منها، والتعبير الصحيح عن الدنيا ـ كما في الاصطلاح ـ هو أنّها (دار التزاحم)، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في قضية السامري، ويقول على لسان موسىعليه السلام: ﴿إن هي إلّا فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾[2]، وهذا يعني أولاً: إنّ هذه الفتن وخاصة في مجال الصراع بين الحق والباطل، هي بتقدير الله ومشيئته، من حيث كيفية بنائه للدنيا المشتملة على المتضادات وخلق الإنسان منها. وثانياً: أنّه في الفتن والامتحانات يتميز أهل الضلالة عن أهل الهداية. ومن هنا يقول الإمام الحسينعليه السلام: «فإذا أقمت في مكاني فبم يمتحن هذا الخلق المتعوس»[3]، أي لو لم تكن حادثة كربلاء ومثيلاتها من الحوادث، التي تعبّر عن الصدام بين أهل الحق وأهل الباطل، فكيف يُمتحن الناس ويمتازون فيما بينهم؟ علماً أنّ التميز الحقيقي بين الناس لا يكون إلّا في حالة وجود الحرية والاختيار لديهم، وتصارعهم فيما بينهم، وخاصة في ميادين الامتحان الحساسة كميدان كربلاء.

---

١. روضة الكافي، ص١٧٧؛ مجمع البحرين ذيل كلمة «عدن».

٢. سورة الاعراف، الآية ١٥٥.

٣. اللهوف، ص٤٢.

٤ ـ لو افترضنا أنّ قتل الإمام الحسين عليه السلام في جهاده ضد حكومة يزيد كان بمشيئة الله وإرادته، كما هو الحق وقد مرّ ذكره، فإن الانتصار الظاهري ليزيد أيضاً هو بمشيئة الله وإرادته؛ لأن هاتين الجهتين ككفتي الميزان، إذا هبطت إحداهما ارتفعت الأُخرىٰ، والسبب في أنّ الله تعالىٰ قد هيّأ الإمكانات والظروف المساعدة لانتصار يزيد يعود إلى قوله تعالىٰ: ﴿سأُرهقه صعودا﴾[١] ﴿وأُملي لهم إنّ كيدي متين﴾[٢] ﴿فأمليت للكافرين ثمّ أخذتهم فكيف كان نكير﴾[٣]، وغيرها من آيات الله تعالى.

يعني، أنّ جزءاً من التخطيط الإلهي للمعاندين والجاحدين يتمثل في إفساح الله تعالى لهم المجال حتى يرتقوا إلى ذروة القدرة والصعود الظاهري، وبعد ذلك يسقطهم من أعلى القمّة إلى أسفل وادي الهلاك والذلة، وهذا ما يصطلح عليه بمكر الله الذي يحيق بالظالمين أمثال فرعون و قارون و بلعم بن باعورا، الذين آتاهم الله قدرات عظيمة وثروات طائلة، حتى إنّ بعضهم كانت لديه القدرة المعنوية على تحقيق الآيات والمعاجز الغريبة، ولكنّهم سقطوا بعد ذلك في مستنقع الغرور والظلم، وخسروا الحقيقة، وبالتالي واجهوا العقوبات وألوان الآلام النفسية الباطنية والخارجية.

وعلى أساس هذا المنطق الدقيق يقول الإمام عليّ عليه السلام لمعاوية: «...إنك رقيت سلّماً أطلعك مطلع سوء عليك لا لك؛ لأنّك نشدت غير ضالّتك ورعيت غير سائمتك...»[٤]. تشير صفحات التاريخ أيضاً إلى أنّ دناءة معاوية ويزيد انكشفت للناس عند انتصارهم الظاهري، الذي كان حصيلة جرائمهم، ومن جهة أُخرى تجلّت عظمة الإمام عليّ عليه السلام والحسين عليه السلام بالاستشهاد في ميدان القتال ضد الطواغيت، وفي الواقع إن المستكبرين والطواغيت بظلمهم لأهل الحق يزيدون من عظمة هؤلاء وامجادهم، كما يزيدون في ذلّ أنفسهم أمام البشرية، كما صنع إخوة يوسف معه، فقد كانوا ـ باعتدائهم عليه ـ سبباً في رقيّه الظاهري والمعنوي، وفي الحقيقة أنّهم عملوا لصالحه، وفضحوا أنفسهم من خلال تآمرهم عليه.

---

١. سورة المدّثر، الآية ١٧.
٢. سورة المدّثر، الآية ١٧.
٣. سورة الحج، الآية ٤٤.
٤. شرح النهج، ج١٧، ص ٢٥٠.

والحقيقة أن أحد أسرار عظمة الإمام الحسينعليه السلام والحسينيين جميعاً، وخاصة في ميدان الجهاد والشهادة، وكذلك أحد أسرار انحطاط يزيد واليزيديين جميعاً، وخاصة في ميدان النصر المادي الثمين، يكمن في أنّ قتل الحسينيين على يد اليزيديين، وكذا انتصار اليزيديين على الحسينيين، يتنافيان بشدّة مع فطرة الإنسان المجبولة على حبّ العدل ودفع الظلم، وهذا ممّا يؤدّي إلى إثارة كوامن الفطرة لدى الناس، والتي تضعهم في موقف المعارضة الوجدانية الشديدة للظلم والظالمين. وهذا هو السبب الذي دفع التّيارات والجماعات المسلمة للثأر والانتقام من اليزيديين وجميع قوىٰ الانحراف، وجعلت نفسها وقفاً على الدفاع عن العدل والحق والإيمان وأهله، وعن المصالح الدينية والإنسانية.

٥ ـ إنّ الهدف العرفاني والنهائي من المشيئة الإلهية في ميدان كربلاء، هو الكشف عن أصل الإيمان الذي هو في الحقيقة الاستعداد للتضحية في سبيل الحق وجهاد الباطل، ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حيّ عن بيّنة﴾[١]، ويتميز في هذا السبيل حديث العشق الحقيقي عن غيره، فإنّه لا يتميّز إلّا في ميدان التضحية في سبيل الله وتحمل أنواع المصائب في هذا الميدان، وعلى هذا الأساس فإنّ رجال الله يرون أنّ البلاء ملازم للمؤمنين في حياتهم الدنيا ويقولون ما معناه: «إنّ كل من كان مقرّباً أكثر كان بلاؤه أكثر»[٢]، والقرآن الكريم يؤكّد على هذا الأصل في أكثر من آية، منها قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متىٰ نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب .. ﴾[٣].

والحكمة من ابتلاء المؤمنين هو أنّ الابتلاء أفضل وسيلة لتربية الإنسان وترشيده وإيصاله إلى كماله الحقيقي، فكما أنّ الذرة لا تنشطر إلّا بتوجيه شحنات شديدة وإمطارها بوابل من الإلكترونات لكي تنفجر الذرة وتنفلق وتبرز قدرتها

١. سورة الانفال، الآية ٤٢.　　٢. مسكن الفؤاد، ص ٢٤.

٣. سورة البقرة، الآية ٢١٤.

الحقيقية، كذلك الأرض يجب أن تُحرث وتُقلب وتواجه أشكالاً من البلايا المختلفة حتى تسفر الحياة من بين ثناياها، فكذلك الإنسان يجب أن يتعرض إلى وابل من البلايا والمشاكل حتى تتفجر طاقاته ويصل إلى قدرته الروحية وكماله الباطني الكامن فيه، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إنّ مع العسر يسراً﴾[1]، ويقول عرفاء الحق أيضاً: «من لا يكدح لا يعثر على الكنز ـ لا تعرض بوجهك في طريق الحق عن البلايا إذ لم يكن مقصود الأنبياء إلّا فيها ـ أنت نفسك حجاب بينك وبين ربك فاذهب أنت حتى تصل إلى ربك ـ المتوغل في التنعّم دائماً لا يجد إلى الحبيب سبيلاً ـ ضع قدماً على الوجود حتى تلقى الرب الودود ـ وجودك ذنب لا يقاس به ذنب ـ و...»

بعض تصريحات الإمام الحسين﵇

نعود إلى أصل الموضوع، وهو مقولة أنّ الإمام الحسين﵇ كان بإمكانه ـ بتلك الوسائل المتواضعة وقلّة الأنصار ووخامة الظروف ـ أن يحطّم الحكومة الأموية القوية تماماً وينتصر عليها ويقيم حكومة إسلامية ويصلح كل مظاهر الفساد في المجتمع، هذه المقولة ما هي إلّا خيال باطل لا دليل عليها، بل رأينا أنّ الوضع في المجتمع الإسلامي ـ في ظلّ حكومة معاوية وأمثاله من الانتهازيين في جهاز الخلافة مدة عشرين سنة ـ استمر في التدهور والانحطاط إلى أن استطاعت هذه الحكومة الفاسدة أن تحرف المسلمين، بحيث إنّ الإمام علياً﵇ الذي كان أكثر قوة من حكومة معاوية، وكان يحكم جميع المناطق الإسلامية ما عدا الشام، لم يستطع ـ في الظاهر ـ إصلاح الوضع المتردّي للمسلمين وهو في بدايته، ثم قُتل في هذا السبيل فكيف الأمر بالإمام الحسين﵇ في نهايته، أي بعد تلك المدة المديدة من التردّي وتفشي الفساد والانحراف، فضلاً عن قلّة إمكاناته قياساً بإمكانيات أبيه الإمام عليّ﵇، وعندها سنخلص إلى ما يلي:

---

١. سورة الشرح، الآية ٥ و ٦.

أوّلاً: مع الأخذ بنظر الاعتبار سيطرة الحكومة الأموية الكاملة وحزبها الحاكم على الأوضاع، وضعف إمكانات الإمام الحسين عليه السلام المادية، فإنّ من غير الممكن ظاهراً الانتصار على تلك القدرة الحاكمة، كما حدث وتبين فيما بعد.

ثانياً: حتى لو استطاع الحسين عليه السلام الوصول إلى الحكم والانتصار في هذه الثورة، لما أمكنه ـ في الظاهر ـ إصلاح الناس الذين ازداد انحرافهم وفسادهم وضلالهم أكثر بكثير من عهد الإمام عليّ عليه السلام، بسبب السياسات الإرهابية والتربوية والإعلامية للحكومة الأموية.

ولكن إذا استطاع الحسين عليه السلام أن يجاهد الحكومة الأموية الظالمة ويستشهد في هذا السبيل، فإنّ بامكان دمه الزكي تحريك عواطف الملايين من المسلمين، وإثارة دوافع الانتقام والثأر فيهم؛ لتوظيفهم في الدفاع عن الحق ضد الباطل، وبالتالي تشديد الضربات على الحكومات الجائرة وإضعافها تدريجياً، حتى تصل إلى مرحلة السقوط والزوال، وسندرس هذا في الفصل الرابع بمزيد من التفصيل. وتلك النتيجة التربوية التي حصلت منها سائر الثمرات أيضاً هي أفضل وأعظم النتائج لهذه الثورة.

ممّا يوضح هذا المعنىٰ أيضاً هو كلمات الإمام الحسين عليه السلام وخطبه، إذ أخبر قبل حادثة كربلاء عن مقتله حتى في بداية سفره، وأخبر أيضاً عن تأثير ذلك في الثورات المتتالية للمسلمين بعدها، وسقوط الحكومة الأموية الجائرة بها، إذ قال في سفره: **«وايم الله ليقتلونني فيلبسهم الله ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً ويسلط عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذلّ من قوم سبأ»**. وقال عليه السلام أيضاً في رواية أُخرىٰ: **«وايم الله لا يَدَعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فَرَام المرأة»**[١].

واللافت للنظر هنا أنّ الإمام الحسين عليه السلام قال هذا الكلام في بدء تحركه من مكة المكرمة، حيث يُتصور أنّ الظروف كانت لصالحه بحسب الظاهر، ومع ذلك تنبّأ

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٩٦؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣٩؛ اللهوف، ص٤٤؛ تاريخ ابن عساكر، ج١٤، ص٢١٦.

بمقتله. وهكذا في الأيام الأخيرة من ثورته العظيمة نجد مثل هذه التصريحات في كلماته وأحاديثه، وأحد نماذج ذلك قوله في يوم عاشوراء: «أما والله لو قتلتموني ألقىٰ الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثمّ لا يرضىٰ عنكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم»[١].

ونموذج آخر أيضاً قوله عليه السلام: «ألا وما يلبثون إلّا كريثما يركب الفرس حتى تدور رحى الحرب وتعلق النحور، عهدٌ عهده إليّ أبي، فاجمعوا أمركم ثم كيدوني فلا تنظرون»[٢].

هذه التصريحات والشواهد المذكورة قبلها تبيّن أنّ الحسين عليه السلام كان يعلم بوضوح أنّه سيُقتل ويُستشهد في هذا الطريق، والأهم من ذلك أنّه كان يعلم بوضوح أيضاً أنّ شهادته هذه سوف تؤدّي إلى ثورات متلاحقة للمسلمين ضد الأمويين، وتعرّض الحكومة الغاشمة إلى الضعف والسقوط في مزبلة التاريخ، والخلاصة أنّه كان يعلم أنّ ثورته سوف يكتب لها النصر الحقيقي حتى وإن قتل هو في هذا السبيل.

قانون توازن القوى

ولكن مع هذه التصريحات والشواهد نجد أن بعض المتعصبين والظاهريين من أمثال (الخضري) يشكلون على ذلك بأنه: كيف يمكن أن تقام ثورة بدون إمكانات عسكرية كافية وتحرز النصر الحقيقي، وتعمل على إسقاط العدو المقتدر عن طريق الاستشهاد والأسر وسبي النسوة والأطفال؟! هؤلاء اعتمدوا في قولهم هذا على أصل (توازن القوىٰ)، ويقولون ما حاصله: (إنّ القدرة يجب أن تقابل بقدرة مثلها، فعلى هذا لولم يكن للحسين عليه السلام في بدو الأمر أو آخره تلك القدرة العسكرية الكافية والمتوازنة مع الطرف المقابل، فلا يعقل أساساً أن يقاتل ويواجه حكومة يزيد القوية مواجهة عسكرية، فكيف بإحراز النصر عليها بشهادته؟ بل إنّ الأمر على

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٤٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٧٨.

٢. تحف العقول، ص٢٤٢؛ تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ٢١٩؛ اللهوف، ص ٥٩، المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص٧.

العكس من ذلك، يعني أنّ الحكومة الأموية سوف تزداد قدرة بقتل الإمام الحسين عليه السلام، وتصل الىٰ أهدافها الشيطانية بصورة أسرع)[١].

هذا هو الإشكال الأساسي للخضري، وهناك إشكالات أُخرى له تأتي في الدرجة الثانية، من قبيل قوله: (إنّ جعل الخلافة وراثية في بني أمية ونصب يزيد لولاية العهد كان عملاً صحيحاً، وإنّ مخالفة الإمام الحسين عليه السلام لهذا الأمر كان عملاً خاطئاً و...) وكأنّ هذا الكاتب تغافل عن جميع الموازين والمبادىء الإسلامية، بل سخر منها، حيث إنّه جعل الخلافة الإسلامية وبالتالي جميع مقاليد السلطة والقدرة في المجتمع الإسلامي بيد بني أُمية، حتى إنّه يرى في يزيد الفاسق المعلن بالفجور، بل والكفر، بأنّه لائق لهذا المنصب السامي، فمثل هذا الشخص الذي توغل في تعصبه المظلم إلى درجة أنّه يرى أنّ يزيد وأمثاله من المفسدين، وغير المؤهلين للإمارة ولو على قريةٍ مع غضّ النظر عن الأمور الدينية فضلاً عن النظر إليها ـ جديرون بالرئاسة والخلافة على جميع الشعوب الإسلامية، بل وحمل لقب خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله. وطبعاً هذا الكلام المضحك لا قيمة له أساساً، ولا ينبغي مناقشته إطلاقاً، وهو إن دل على شيء، فإنّما يدل على أنّ صاحبه إمّا يتبنّىٰ أفكار يزيد ونهجه وسلوكه، والطيور على أشكالها تقع، وإمّا هو متحامل على المنهج والمدرسة المناهضة للتيار الأموي، وذلك هو المنهج اليزيدي الهدام لعرى الإسلام وأركانه؛ وفي كلا الحالتين السقوط والتردّي المؤسف.

لكننا هنا لا نعدم القارئ الكريم الجواب عمّا اعتمده الخضري في بحثه ودراسته؛ لبيان ما غفل عنه، ولتّتضح من الجواب عنه ـ أكثر ممّا سبق ـ ماهيّة جهاد الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك طبيعة الجهاد الإسلامي التي هي أحد المواضيع المهمة في هذا الكتاب وأما الجواب عنه فهو:

إنّ قانون (توازن القوىٰ) الذي يمثّل محور هذا الإشكال هو صحيح تماماً، ولكن يجب أن نرى أنّ القوى والقدرات ممّ تتكون وتتشكل؟ من الواضح أنّ القوة لا

---

١. المحاضرات الإسلامية، ج ٢، ص٦٧؛ الغدير، ج ٣، ص٢٤٩ ـ ٢٥٨.

تنحصر بالقوة العسكرية كالجنود والسيوف أو المدافع والدبابات وأمثالها، بل هناك قوىٰ وقدرات أخرىٰ كالقدرات السياسية والاجتماعية والمعنوية ونحوها إلى جانب القوة العسكرية، وقد تكون أقوىٰ منها وأكثر تأثيراً، حتى إنّ العلمانيين أيضاً توصلوا في تجاربهم إلى أنّ هناك أنواعاً من القوىٰ والقدرات لها تأثير فعّال في تغيير موازين القوىٰ، وعلموا بل رأوا أنّ هناك قوىٰ غير ظاهرة تحيط بالشخصيات البشرية والتّيارات الاجتماعية والفكرية، كالهالة غير المرئية، تساعدهم على تخطّي الحواجز والعقبات، وتحقيق أهدافهم حتى من دون استخدام القوة المادية، بل بإمكانهم ـ بسبب مكانتهم المقدسة ـ تهييج الناس والمجتمع ضد الحكومات الفاسدة وإزالتها، بل إنّ بعض العلماء يرى الفتح السياسي الباعث على استقطاب الرأي العام، وخاصة مع بعض التضحيات للشخصيات المحبوبة في المجتمع، أهم من الفتح العسكري، وكذلك يرون الهزيمة السياسية المتزامنة مع مخالفة الرأي العام أنكىٰ وأتعس من الفشل العسكري.

إحدى خصائص الاسلام الكبرىٰ

وإحدى الامتيازات الكبيرة للإسلام هو أنّه يعطي للمواجهة أبعاداً أُخر أوسع، بحيث إنّه يتجاوز أساليب القوة والعنف التي يتسم بها اليهود غالباً، أو المواجهات السياسية التي تغلب على المسيحيين، ويجمع في سلوكه كلا الأمرين. فاليهود يستخدمون في الغالب الوسائل المادية والقتال الميداني في تحقيق انتصاراتهم، ويزعمون أن النصر الظاهري المتحقق بالإرهاب وقوة السلاح هو النصر الواقعي، ولذلك يشعرون أنّهم لو فشلوا في هذا الطريق عمليّاً فسيكونون أذلاء ومحتقرين. في حين أنّ المسيحيين يستخدمون في الأكثر الأسلوب السياسي والنفسي في تحقيق انتصاراتهم، ولذلك يتخذون سياسة التضحية والإيثار ـ أو يتظاهرون بها ـ ويرون أنّها عامل مهم لانتصارهم، وسياستهم هذه تقوم على قاعدة التظاهر بالمظلومية، وتتحرك من موقع الحساسية الدينية والإنسانية وتحت لواء حقوق

الإنسان ـ مثلاً ـ للتأثير على الرأي العام في ساحة الواقع السياسي ومن ثم النفوذ إلى الميدان الاجتماعي للناس.

أمّا الإسلام فعلىٰ خلاف منهج اليهود أو المسيحيين فإنّه يعتمد على القوتين، العسكرية الظاهرية والمعنوية الباطنية معاً، فالإسلام مدرسة تجمع كل الأبعاد لأتباعها، ولذا لا تحددهم بوسائل معينة ولأهداف محدودة، بل إنّ الإسلام يرى ضرورة استخدام أيّ أُسلوب مشروع ومؤثّر لتحقيق جميع الأهداف الإنسانية والإلهية العليا، ومن ذلك أُسلوب التضحية بالنفس، مع مراعاة الظروف الحساسة، ولذا نرى المجاهدين الحقيقيين يهدفون من تضحياتهم إلى تحقيق أهداف الإسلام ولو عن طريق استشهادهم، فالقرآن الكريم يقول في هذا المجال: ﴿... فيقتلون ويُقتلون... ﴾[1] أي أنّهم في سبيل تحقيق تنفيذ المسؤوليات العظيمة الملقاة على عاتقهم لا يهمهم أن يُستشهدوا أو أن يَقتلوا أعداءهم، إذ في كلتا الحالتين سينالهم الفخر والنصر ولو بعد حياتهم.

وعلى كل حال، إنّ جميع المسلمين الحقيقيين يرون أنّ الوسيلة لتحقيق الهدف لا تنحصر باستخدام العنف وقوة السلاح أو الأموال، بل إنّهم يستفيدون في كثير من الموارد من قدراتهم النفسية والسياسية والعاطفية والإعلامية وأخيراً من الشهادة؛ التي ربما تكون أكثر تأثيراً من غيرها، ويحققون بها نتائج باهرة أعلى من جميع النتائج المتعارفة، كما رأينا في شخصية الإمام الحسينعليه السلام العظيمة، فإنّه مع قلّة أنصاره في مقابل الجيش الأموي اللجب، كان يختزن قدرة معنوية عظيمة في أعماق قلوب الناس والتي كان يفتقر يزيد حتى إلى مقدار فتيلٍ منها.

وطبعاً فإنّ القدرة المعنوية للإمام الحسينعليه السلام، التي يسترفد معينها من علقته بمقام الرسالة والولاية، والمكانة الدينية والأخلاقية، والمحبوبية الاجتماعية والأهداف الإنسانية والإلهية المعروفة بين الناس، لم تكن ضئيلة أو لا شيء، بل كانت قدرة عظيمة وفائقه جدّاً، وبسببها تمكّن الحسينعليه السلام في جهاده المقدس ضد

---

١. سورة التوبة، الآية ١١١.

يزيد الفاسق الفاجر من بعث الروح الجهادية في أوساط المسلمين، وبالتالي انحطاط الحكومة الفاسدة الأموية وانهيارها ولو بعد حين.

وقدرة الإمام الحسين﷿ المعنوية كانت من العظمة إلى درجة أنّ معاوية، مع غاية قوته وقدرته في ذلك الوقت، كان يحسب للحسين﷿ حساباً خاصّاً، إلى حد أنّه يوصي يزيد وأعوانه باحترام الإمام الحسين﷿ ولو على المستوى السياسي، وتجنّب مواجهته[1]، غاية الأمر أنّ حماقة يزيد جعلته لا يهتم بوصية أبيه، بل أقدم على قتل الإمام الحسين﷿ وأصحابه وأهل بيته بأفجع حالة، وكما يقول التّاريخ إنّ هذا العمل الصادر منه، لقمع نهضة الحسين﷿ ضد حكومته الفاسدة، كان هو الباعث على إيقاظ المسلمين وتحطيمهم لأغلال حكومة الأمويين وتطهير المجتمع الإسلامي من شرهم، وبهذا فقد انتصرت نهضة الإمام الحسين﷿ ولو بعد استشهاده.

لا حربة أقوىٰ من الحق

ولا ينبغي أن يُظن أنّنا نحاول تبرير اتخاذ سياسة المظلومية للإمام الحسين﷿، بالرغم من أنّ هذه السياسة أيضاً كان لها دور أساس في تحقيق المعطيات الإيجابية لثورات لاحقة تلت نهضة الإمام الحسين﷿، بل وفي بعض الظروف الخاصة، تُحقق آثاراً إعجازية، من جملتها أنّها تنسف مشروعية الحاكم الظالم من خلال صبّ دم المظلوم على وجهه وفضحه عند الناس، ولكن في الوقت نفسه نحاول هنا التأكيد على موضوع مهم يشكّل روح الحركات والانتفاضات الإنسانية والثورات الإلهية، وخلاصته أنّ رجال الحق مثل الإمام الحسين﷿ وأصحابه، مضافاً إلى استخدامهم الوسائل العسكرية إلى غاية الإمكان، استفادوا أيضاً من حربة أساسية أُخرىٰ أدّت إلى انتصارهم الحقيقي وإن كان آجلاً، وهي أنّهم كانوا مع الحق والحق معهم، فالحق بإمكانه تثوير الوجدان وضمير الإنسان وتحويل الفكر المجرّد إلى ممارسة عملية، وخاصة فيما لو قُتل أصحاب الحق بأيدي الظالمين.

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٣٩؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٦.

وبالنظر إلى ما قلنا تتضح الأخطاء الكثيرة للسطحيين في تقييم الانتفاضات الإنسانية والإلهية لأتباع الحق ضد أتباع الباطل، ومنشأ أخطائهم هو أنّهم اعتبروا أنّ مسألة الحق والباطل مسألة ذهنية فحسب، ولم يهتموا بتأثيراتها العملية المحسوسة وغير المحسوسة، وغفلوا عن أنّ للحق مرحلتين أساسيتين:

الأولى: إثبات الحق. **والثانية**: إحقاق الحق، يعني أنّ الحق ليس مجرد أفكار وأحكام ذهنية وتحكيمات منطقية وعلمية، وبالتالي الكشف عن بطلان الطرف المقابل من الجهة العلمية والفكرية فحسب، بل مضافاً إلى ذلك يتجلى عملاً ويواجه الباطل العملي مواجهة ميدانية، ويسعى عاجلاً أو آجلاً إلى إزهاقه تماماً.

الإمام عليّ عليه السلام كان ينظر إلى المرحلة الثانية هذه، حينما قال في جوابه لعقيل في جملة قصيرة وعميقة، وهو في أواخر حياته ويعيش أشد الظروف تكالباً عليه، إذ كان مستهدفاً لهجمات مستمرة من مرتزقة معاوية، قال: «... **والله مع المحق**...»[1]، وبيان هذه الحقيقة العسيرة التصديق، هو أنّ الحق مصدر المعرفة والحركة للناس طبعاً، وله دور أساس في وجدان الناس وضمائرهم الشعورية واللا شعورية، ويعمل على إيقاظ الناس عاجلاً أو آجلاً، ويجعلهم يسيرون ضد الباطل ويرافقون أصحاب الحق ولو بعد زمن، وبذلك تتهيّأ الأرضية اللازمة لانتصارهم ضد الباطل، والحاصل أنّ الحق يمثّل المعيار لوجدان الناس والمصدر لأفكارهم والأصل في الدوافع النفسية لأعمالهم وسلوكهم، وخاصة في الظروف الثورية، حيث تتحول الأمور بصورة إيجابية باتجاه تيار الحق وفضح الباطل، سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي.

كلام الإمام عليّ عليه السلام الآنف الذكر يمثل خلاصة قوله تعالى: ﴿... **ليُحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾[2]، يعني أنّ الإرادة الإلهية الحتمية تقتضي إذا ما قام أصحاب الحق بوظائفهم ومسؤولياتهم بأنّ النصر سيكون حليفهم، سواء كان

---

١. شرح النهج، ج ٢، ص ١٢٠؛ الامامة والسياسة، ج ١، ص ٧٥.

٢. سورة الانفال، الآية ٨.

النصر على المستوىٰ النظري أو على الصعيد العملي والواقعي، عاجلاً أو آجلاً. وفي هذا المجال نجد آية أُخرىٰ في القرآن الكريم تبيّن ذلك الموضوع الأساس ببيان أظهر وتقول: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾[١]، فهذه تمثّل الحق على أنّه السلاح الأصلي للإنسان المؤمن ضد الباطل، ليس فقط على المستوىٰ النظري والفكري فحسب، بل على المستوىٰ الخارجي والواقع العملي المنظور أيضاً ولو بعد حين.

وعلى أساس هذه السنة الإلهية الحتمية يتحدث القرآن الكريم عن إحدى حالات انتصار أهل الحق فيقول: ﴿حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنّهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا﴾[٢]، ويقول أيضاً بالنسبة إلى كيفية تدمير أهل الباطل: ﴿فأمليت للكافرين ثمّ أخذتهم ...﴾[٣].

وأحد أسرار هذه السنة الإلهية، في هاتين الآيتين ونظائرهما، هو أنّ الله تعالىٰ يريد أن يبرز عظمة الحق حتى في منتهىٰ ضعفه وتردّي حالته، وكذلك يريد أن يبرز حقارة الباطل وتفاهته حتى لو كان في أوج قوته وعظمته الظاهرية، بل أكثر من ذلك.. يريد بيان أنّه حتى مع فشل الحق وهزيمته أمام الباطل ظاهراً، هو بنفسه وسيلة لبعث الأمل وتعبئة أهل الحق ضد الباطل وأتباعه واقعاً، وأنّ هذا الفشل بالتالي سوف ينتهي إلى انتصار أهل الحق على أهل الباطل كاملاً. ومن جانب آخر يشير الباري تعالى إلى أنّ انتصار الباطل وأهله هو بعينه وسيلة لازدياد تعاسة أهله وذلتهم؛ لشعورهم الدائم بالخطر المحدق بهم وأنّ الحق سوف يعلو عليهم حتى عملياً، وهذا يؤدّي إلى زهوق الباطل وهزيمة أتباعه من الداخل.

وهكذا يحكي القرآن الحكيم عن انتصار إبراهيمعليه السلام وهو في داخل نار نمرود، وانتصار موسىٰعليه السلام وهو في ظل رقابة البلاط الفرعوني، وانتصار عيسىعليه السلام وهو

---

١. سورة الانبياء، الآية ١٨.
٢. سورة يوسف، الآية ١١٠.
٣. سورة الحج ، الآية ٤٤.

أسير مؤامرة اليهود، وانتصار يحيى‌عليه‌السلام وهو مقطوع الوتين بسيف المعتدين، وانتصار محمد‌صلى‌الله‌عليه‌وآله اليتيم والمطارد مع شدة بطش قريش والمشركين. فهؤلاء كلهم قد انتصروا في حياتهم أو بعد مماتهم؛ لأنّهم يمثلون الحق. أمّا مخالفوهم من أهل الباطل ـ وان تسلّقوا عرش السلطة وأمسكوا بزمام القدرة ـ فقد هزموا سواء في حياة أُولئك العظماء أو بعد مماتهم.

وهكذا الأمر في نهضة الإمام الحسين‌عليه‌السلام، يعني أنّ الإمام الحسين‌عليه‌السلام وأصحابه، وإن واجهوا القتل الذريع، وسفكت دماؤهم في هذه الملحمة، وانتصر يزيد وجيشه ظاهراً.. لكن معجزة الإمام الحسين‌عليه‌السلام العظيمة هي أنه أظهر الحق بأنصع صُوره في هذه التضحية والشهامة الثورية، وألبس الباطل لباس الذلة والهوان حيث أظهره في أوج قسوته ووحشيته، وأمكنه من خلال هذا الطريق المؤثّر كثيراً على العواطف من تفعيل وجدان الناس وتوكيد طلبهم للحق، فإنّه لم تمض مدة على استشهاد الإمام الحسين‌عليه‌السلام إلّا وترسّخ مبدؤه الإنساني والإيماني في ضمير الناس، وبه تمّ إسقاط الدور الأموي المخالف للحق والعدالة كاملاً، وإبعاده عن دائرة الامتداد الفكري والعملي بين الناس حتى ميدانياً.

وعلى كل حال، فإنّ بين الحق والباطل اختلافات جوهرية، وخاصة في أساليب المواجهة بينهما. وكما رأينا فإنّ أحد هذه الاختلافات هو أن الحق ـ على عكس الباطل ـ يضع نصب عينيه المسؤوليه الدينية والإنسانية، ويفكّر بالانتصار الحقيقي وهداية الناس إلى الله، ولتحقيق هذا الهدف ـ المشتمل على النتائج المعنوية بالدرجة الأُولى والعملية بالدرجة الثانية ـ يتقبل في كثير من الأحيان الفشل الظاهري، بل حتى الاستشهاد والقتل لأتباعه، وبذلك تمكّن في كثير من الموارد من اجتثاث جذور الباطل وأعوانه حتى من الساحة السياسية والاجتماعية، وفي جهاد إبراهيم‌عليه‌السلام نموذج لذلك ولو بشكل آخر، ولمزيد من التوضيح لهذه المسألة، التي هي من أُسس ثقافتنا الدينية، نشير إلى هذا اللون من الجهاد الهادف.

اجتثاث جذور الباطل لا أغصانه فقط

إبراهيم عليه السلام حطّم جميع الأصنام في معبد الوثنيّين ولكنه ترك الصنم الأكبر سالماً، لماذا؟ لأن الهدف الأصلي لإبراهيم ـ وبشكلٍ عام رجال الله ـ ليس هو إزالة مظاهر عبادة الأوثان والشكل الظاهري للأصنام، وإن كان ذلك في حد ذاته هدفاً، بل الهدف الأساس لإبراهيم هو إيجاد حادثة مزلزلة تحرّك العقول، وتهزّ الضمائر، فجعل مسؤوليّة تحطيم الأصنام على عاتق الصنم الكبير، من أجل تنبيه الناظرين والسامعين وغيرهم من عُبّادها، فيوقظهم من نومهم العميق، فيزول فكر عبادتهم للأوثان من الجذور. فمراد إبراهيم عليه السلام لم يكن تحطيم الأصنام الظاهرية فقط، بل إيقاظ الضمائر، وإثارة التدبر والتفكّر، وتحريك العقول والأذهان وإصلاحها، والسرّ في هذا النحو من العمل هو أن وجود الأصنام وشكلها الخارجي ناتج عن فكرة منحرفة وميل زائف إلى عبادتها، فلو بقيت هذه الفكرة وبقي هذا الميل المنحرف نحو عبادتها، ـ ولكن تمّ تحطيم هياكل الأصنام فقط ـ لأفرز ذلك التفكير المنحرف أصناماً جديدة أُخر، ومن هنا نجد أن عمل رجال الله يهدف إلى بثّ الوعي السليم وإصلاح الانحراف الفكري لدىٰ الناس، وبذلك فسوف يتمّ إصلاح الحضارة البشرية من قاعدتها الفكرية، فتزول مظاهرها الوثنية الخارجية طبعاً، أو على الأقل سوف تصبح مظاهرها الفاسدة مذمومة ولو بقيت أشكالها الظاهرية.

ومع الالتفات إلى هذا المنطق وهو (أصالة الباطن وفرعية الخارج) يتبين أن الطريق الأصلي لتوسيع نطاق الثورات الإنسانية ضد الحكومات المستبدة والمذاهب المنحرفة ليس هو النصر العسكري الميداني، فإنّ ذلك يأتي بالدرجة الثانية، ولكن المهم في الدرجة الأُولىٰ هو التضحيات والجهود التي يبذلها رجال الله لهداية الناس الباطنية وإيقاظهم وتعبئتهم عقائدياً وسلوكياً ضدّ قوىٰ الانحراف الفكريّة والسياسيّة.

من هنا نجد أنّ أساس مصائب المسلمين في العصر الراهن، ليس هو وجود القوى الاستعمارية، بل اتّباع هذه القوى من قِبل المسلمين، وليس هو وجود

القواعد الاستعمارية في الشرق والغرب، بل وجودها في نفوس المنبهرين بالشرق والغرب، فالاستعمار ما هو إلّا صنم، وهذا الصنم أعظم تأثيراً وأعمق في مغزاه من الأصنام الحجرية في العصور السالفة كعصر ابراهيم، ولكن كما أنّ جذور الأصنام الحجرية تمتدّ إلى أعماق نفوس الناس، فكذلك جذور الاستعمار في هذا اليوم تمتدّ إلى أعماق نفوس المنبهرين به. والقرآن الكريم يذكّرنا بهذه الحقيقة ويقول بالنسبة إلى فرعون في أبلغ تعبير وأحسنه: ﴿فاستخفّ قومه فأطاعوه﴾[١]، يعني أنّ سلطة فرعون ثبتت أركانها عندما استخدم فرعون أساليب الاستخفاف بعقول الناس، مع الترهيب والترغيب، والأهم منهما الدعايات المحرفة المضلة، فلذلك خفّت عقولهم وانجذبوا إلى الدنيا ومظاهرها البرّاقة، فلم يحكمهم بالقوة حينئذٍ، بل انقادوا له بإرادتهم حيث قبلوا حكومة فرعون وأطاعوه بعنوان أنّه نائب الله وخليفته على عباده، بل ربّما أطاعوه باعتباره الإله الأعلى، ولذلك سقطوا في هوّة الضلالة والذلة، وبشكل عام فإن التاريخ يحدّثنا عن أن السياسة الأصلية لجميع الفراعنة والمستعمرين هي التقنع بالمظاهر المادية والسياسية الخدّاعة والبرّاقة؛ ليخدعوا النّاس بها ويضلوهم ويبعدوهم عن استخدام عقولهم، وعن مسالك الفضيلة، ويوقعوهم في شراك الأهواء النفسية، فيتسنىٰ لهم بذلك السيطرة عليهم دون مخالفة ومقاومة.

والمعجزة الأصلية للإمام الحسين عليه السلام والثّائرين على طريقه هو أنّهم دعوا الناس بدمائهم، إلى مسيرة الفطرة البشرية، لتحقيق العدالة والحرية على رغم خداع وضغوط وتهديدات الحكومات الفرعونية، وبعبارة أُخرى: إنّهم قاوموها بأموالهم وأنفسهم وبكل ما لديهم وبهذا غرسوا في الناس روح المقاومة والتحرر من القيود الدنيوية، وجعلوهم يتحرّكون ضد تلك الحكومات الجائرة، سواء في حياتهم أو بعد استشهادهم.

---

١. سورة الزخرف، الآية ٥٤.

البنىٰ التحتية والفوقية للظلم:

ومن مثال نورده هنا نتعرّف على التوجيه العلمي لهذا الموضوع المهم بنحو أحسن وأكمل، وهو أن بناء الظلم كالبناء الظاهري الذي يحتوي على بنية تحتية ولبنات فوقية، أمّا البنية التحتية للظلم فهي خنوع الإنسان وقبوله الظلم ورضاه به، وأمّا اللبنات الفوقية فهي نفس ظلم الظالم، وطبيعيٌّ أنّ اللبنات الفوقية لا تستقر إلّا بوجود البنية التحتية، ومن هنا يمكن القول بأن نضال البشريّة أيضاً يقسّم إلى قسمين:

القسم الأوّل: يسمّىٰ بالنضال الأساس، الذي يتحقق بتحركات رجال الحق وجهادهم وتضحياتهم ضد المستكبرين والظالمين، ويقوم على إيقاظ المستضعفين وترسيخ أركان الهداية الثورية بين الناس، وبالتالي قلع فكرة قبول الظلم والرضا به من قلوب الناس التى تمثّل الأرضية لظلم المستكبرين، ومن هذا الطريق الأساس يتمّ القضاء على المستكبرين من الجذور، وهذا هو الذي يوليه رجال الحق أكبر اهتمامهم.

القسم الثاني: يدعىٰ بالنضال السطحي، وغايته تعبئة الناس بصورة مرحلية ومؤقتة، وأحياناً يتمّ فيه القضاء على الظالمين أو تحجيم سلطتهم دون التوغل إلى جذورهم المترسخة في ضمائر الناس، وهذا طريق فرعيٌّ في الحقيقة يعتمد عليه السطحيون ويجعلونه معياراً لحكمهم على الأُمور.

ومن أعظم ما يقدّمه الأنبياء والذي يعتبر من ماهيّة رسالتهم ودعوتهم ودعوة أتباعهم الحقيقيين هو توضيح الطريق الأول للناس، أي أنهم من خلال تضحياتهم وإخلاصهم يصبحون قدوة وأسوة للآخرين في الدفاع عن الحق والجهاد ضد الباطل، وتحريك ضمائر الناس في هذا الاتّجاه، وهذا الأُسلوب هو الأُسلوب الأساس والقيّم الّذي اهتمّ به أخيراً السياسيون والمفكرون والمصلحون من المسلمين وغير المسلمين أيضاً.

ومن هؤلاء السياسيين الواعين: (غاندي)، فبالرغم من قوته الضئيلة أمام قوة بريطانيا العظمىٰ وتحمّله للسجن والنفي، حتى واجه خطر الموت، ولكنه مع ذلك سعى بكل جد وإخلاص لتحقيق أهدافه الحقة، ومن خلال استعداده للتضحية، فقد علّم الشعب الهندي طريق الثورة، واستطاع بهذا المنهج الانتصار على الحكومة البريطانية الاستعمارية، وهي تُعَالة الحكومات ومصاصة دماء الشعوب، ولا أقل من أنّه استطاع تقليل هيمنتها على الهند، والعجب أنّ غاندي هذا مع أنّه ليس مسلماً كان يصرح بأنّه أخذ هذا الأسلوب ـ . . . وسلك طريق الانتصار مظلوماً... ودفع حركة الشعب نحو تحقيق النصر النهائي في ثورته ـ من الثورة المقدّسة للإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وفي الحقيقة أنّه تعلّم هذا الدرس من كربلاء[١].

(الميرزا الشيرازي) مرجع الشيعة الواعي، استفاد أيضاً من خطّ الإمام الحسين عليه السلام في نهضته ضد القدرات الفاسدة من دون إمكانات عسكرية، فمع أنه لم يكن يمتلك ولا جنديّاً واحداً . . . ولا بندقيّة واحدة، وكذلك كان مؤيدوه لا يمتلكون أيّ شيء من السلاح والتجهيزات الأُخر، فإنه استطاع بصرخته وتضحيته ضد الحكومة الفاسدة أن يثير همم الرجال ويوقظ الأفكار ضد الشركات الإنجليزيّة الخائنة، التي تتقنع بقناع خدمة الإنسانية وباسم التنمية الاقتصادية والثقافية، وتسعىٰ في الخفاء لتحقيق مصالحها الاستعمارية وأهدافها الشيطانية، فاستطاع الميرزا الشيرازي بإرادته الإيمانية وتحريكه الثوري للفئات المؤمنة أن يطرد المستعمرين الخبثاء من هذه المنطقة الإسلامية[٢].

روح المنطق الخضريّ!!

كانت هذه أمثلة ونماذج من المواقف الإلهية السياسية ضد الحكومات الطاغوتية واليزيدية، حيث علّمتنا بتضحياتها البنّاءة وبدون قوة عسكرية لازمة كيف تتحرك المجتمعات البشريّة وتتوصل إلى الانتصار الظاهري أو الواقعي في زمان حياة

---

١. مقدمة كتاب ترجمة الميرزا الشيرازي.
٢. ترجمة الميرزا الشيرازي.

هؤلاء القادة أو بعد استشهادهم، ولكن كما رأينا في منطق (الخضري) ـ الذي ردّه بشدة (العقّاد) المصري و(العلّامة الأميني)[١] وسائر المحققين المنصفين ـ أنّ الثورات التي لا تمتلك وسائل ظاهرية كافية، تعتبر حسب منطق (الخضري) خطأً فاحشاً،إنّ روح منطق الخضري وأمثاله يكمن في أنّ الأصل عندهم هو القوة المادية التي تتجسد في الإمكانات الأرضية وتتعامل مع أجساد الناس، وأمّا القوة المعنوية التي هي قدرة الحق، والتي تتعامل مع روح وقلب الإنسان، وتفوق في الحقيقة جميع القوىٰ فهي عند الخضري وأمثاله بمثابة الفرع بل لا شيء، وهذا هو السبب في عدم إدراكهم الصحيح لفلسفة قيام الإمام الحسينعليه السلام وسائر النهضات الحسينية التي تعتمد على قوة الحق، أي قوّة الغيب التي لا يراها أمثال الخضري، فهناك اختلافان أساسيان بين هذا النمط من التفكير وبين تفكير رجال الحق:

الأول: إنهم يرون أن وسائل الحرب هي مادية فقط.

الثاني: إنّهم يرون أنّ هدف الحرب مادي أيضاً، فالحرب تكون معقولة في نظرهم إذا اطمأن المقاتل إلى قواه المادية واستهدف النصر الظاهري.

ومضافاً إلى التحليل العقلي المتقدم في الصفحات السابقة، والذي يوضح بطلان منطق الخضري، فإنّ التجارب الكثيرة في هذا الزمان أيضاً تؤكد على أن منطق الخضري وأمثاله، هو منطق الظالمين الذين يسعون إلى تخدير الشعوب وتحقيرها، والاستخفاف بها وإضعافها، ومن جانب آخر يسعون طبعاً إلى تقوية أركان الحكومات الجائرة، سواء شعروا بها أو لم يشعروا. منطق الخضري هو المنطق المادي الأعمىٰ الذي ثبت عمليّاً في عالمنا المعاصر أيضاً بطلانه، فإننا نرىٰ في هذا العصر جهاد بعض الشعوب في البلدان المستضعفة مثل الجزائر، فيتنام، كوبا، أنغولا و... التي قامت ضد القوىٰ الاستعمارية المتفوقة عسكرياً، وتمكّنت من تحقيق انتصارات عظيمة عليها بالرغم من ضعف إمكاناتها المادية، وكثرة إمكانات العدو

---

١. أبو الشهداء: ص ١٩١؛ الغدير: ج٣، ص٢٥٨.

المستعمر،فكانت هذه الشعوب تستفيد غالباً من سلاح إيمانها ودماء شهدائها، وطبعاً مع امتلاك الوعي والأساليب الثورية في الصراع ضد مخالفيها.

وأحد نماذج هذه الثورات ما نراه في جهاد شعب فلسطين حيث إنّه وقف بإمكاناته القليلة الضعيفة في مقابل العدوّ الصهيوني الذي تدعمه الإمبريالية الأمريكية والأوربية، بل حتى بدعم وتأييد بعض رؤساء الدول العربية الخونة والمتملّقين، وتقوم الأجهزة الجاسوسية والعسكرية العالمية في أوربا وأمريكا أيضاً في مدّ يد العون الكامل لهذا النظام الغاشم، ومع ذلك فإن الشعب الفلسطيني بقي صامداً لحد الآن رغم كل الدماء المراقة والآلام والمحن من هؤلاء الأعداء وقواهم وقدراتهم الكبيرة، واستخدم سلاح التضحية في سبيل الإسلام والدفاع عن شرف الإنسانية وعن الحق، حتى يتحقق له النصر النهائي والغلبة الكاملة، وسوف يتحقق بعونه تعالى.

ولا يخفى أنّ جهاد الإمام الحسين عليه السلام ليزيد كان مؤثراً إلى درجة كبيرة بالقياس إلى جميع الثورات القديمة والحديثة؛ لأن منزلة وعظمة الإمام الحسين عليه السلام في المجتمعات الإسلامية أوضح بكثيرٍ من هذه الثورات، وكذلك تأثير جهاده ونهضته أوسع وأعمق بكثيرٍ من سائر الثورات، فنهضة الإمام الحسين عليه السلام الدامية لم تكن تنحصر بكتبه وخطاباته وبعض الأعمال الجزئية والجانبية، بل كانت مشفوعة بتضحيات رائعة تنفذ إلى ضمائر المسلمين وكيانهم، وتحدث فيهم انقلاباً عظيماً في أفكارهم وحياتهم، وعلى أساس هذا التحول العظيم أصبح المسلمون في حالة حركة دائبة ضد الظالمين، وأصبح أعداؤهم من الحكام الفاسدين يواجهون اللعن والذم من قبل الرأي العام، وأصبح المصلحون وأصحاب الثورات موضع تقديس واحترام وتقدير في وعي الأمة، وفي الواقع ظل نهجهم الثوري، المنبعث من ثورة الحسين عليه السلام، يتفاعل مع ضمير الشعوب في جهادها ضد القوى المتسلطة الطاغوتية على مرّ الأزمنة.

بعض دروس النهضة الحسينية

وبالرغم من أنّ الحكومة الأموية بقيت متسلّطة بعد واقعة كربلاء، بل ازدادت جرأة وظلماً وتنكيلاً بأتباع التيار الحسيني، وبقيت أيضاً الحكومات الظالمة في شتّى بقاع العالم، وستبقى على هذا الخط الأموي ترتكب الجرائم والجنايات المروّعة، كمصداق لسنّة الله تعالىٰ حيث يُملي للقوىٰ الشيطانية والشجرة الملعونة ليزدادوا ظلماً، وأحياناً يكون ظلمهم تحت ستار القرآن والعدالة والصلح وحقوق البشر. ولكن مع هذا كله، فإنّه كلّما ازدادت قواهم وانتشر ظلمهم، ازدادت أيضاً يقظة الناس واستعدادهم للثورة، وأهم من هذا أنّه حتى مع وجود الجوانب السلبية الظاهرية قبال تلك الحركات والثورات الإصلاحية، فإنّ هناك جوانب إيجابية عظيمة ومهمة في نهضة الإمام الحسين عليه السلام ـ مثلاً ـ تجعله سراجاً منيراً ورمزاً سامياً لهداية الأجيال البشرية، وهي أن الإمام الحسين عليه السلام قد أوضح بشكل عملي كبير أنه يجب الوقوف أمام الظالمين المحاربين للدين والإنسانية إلى حد الموت، وتقديم كل شيء في هذا السبيل، وبذلك استطاع تعبئة المسلمين ضد الحكومة الأموية السوداء وبشكل عام ضد كلّ الحكومات الطاغوتية.

الإمام الحسين عليه السلام في نهضته الكربلائية لم يهيّج الناس ضد الحكومات الطاغوتية فحسب،بل الأهم من ذلك أنه استطاع ترسيخ كلمة التوحيد (لا إله إلّا الله) في قلوب الناس، وتحرير عقولهم من القيود المادية، والجواذب الدنيوية، والقوى الطاغوتية، إلى التعلق بمقام الربوبية، والنجاة من الأهواء النفسانية، وعلى أساس هذا التحول الداخلي استطاع أن يُوجد التحول الخارجي عند الناس، ويعمّق حركة الثورة في المجتمعات الإسلامية.

إنّ كلمة التوحيد تعني إثبات وجود الله في قِبال نفي غيره من الآلهة المزيفة، كالقوىٰ الطاغوتية ـ مثلاً ـ التي تضلّ الناس وتحرفهم بوسائل التطميع والتهديد والإعلام المضلل، وتقيّدهم بسلاسل عبوديتها، والمنهج الحسيني في الأساس هو أن يتخذ الناس من تضحيات الإمام الحسين عليه السلام الدامية، وحركته المدهشة ضد

طاغوت زمانه دروساً في تحطيم مثل هذه السدود المصطنعة أمام عقيدة التوحيد، ويقيموا الأُسس الفكرية والاجتماعية على أساس المعايير الإلهية فقط، فيكونوا من حماة الحق والعدالة بأموالهم ودمائهم وكل ما يملكون.

وإحدى الثمار المهمة جدّاً لنهضة الإمام الحسينعليه السلام، التي لم تدرس بصورة كافية، هي أنّ الناس بسبب مشاهدتهم لأعظم تضحية من أعظم إنسان، تتحرّك فيهم طبعاً عناصر الإنسانية والدوافع الإلهية، فعندما يرى الناس أن الحسينعليه السلام، وهو قرّة عين النبيصلى الله عليه وآله وعليّعليه السلام، وهو بعدُ الشخصية الإسلامية المهمة في زمانه، يواجه هو وأعزّاؤه وجميع أهل بيته الأخطار المختلفة من أجل حفظ القيم الإسلامية والإنسانية، ويتقبل كل نتائج المواجهة مع الحكومة الفاسدة والاستبدادية، حتى إنّه يضحي بكل شيء في هذا السبيل، فمن الطبيعي أنّ هذه المشاهد المثيرة للتضحية والفداء سوف تبعث في الناس كوامن الهداية الفكرية، وتعلمهم روح الحرية والشجاعة بحيث إنّهم لا يرون للحكومات الطاغوتية أيّة قيمة وقدر، بل لا يحسبون لها ولقوتها حساباً مهماً، بل يعتبرون قوة الحق ـ أي الله فقط ـ هي القدرة الحاكمة على العالم التي ينبغي، بل يلزم، أن يُضحّى في سبيلها بكل غال ونفيس، وفي أيّ ساعة وحال، إن وثق بتأثيره ولو في المستقبل.

وينبغي الالتفات إلى نقطة يراها عدّة من المحققين المنصفين، وهي أنّ المسار المعنوي الأصيل للإسلام توقّف بعد رحيل الرسولصلى الله عليه وآله واستيلاء الخلفاء الأوائل على مقاليد الحكم، إضافة إلى كثرة الثغرات في جهاز الخلافة، خاصة في عهد عثمان، وأسوأ منه بكثير في زمان معاوية، حيث وصل الأمر إلى حد أنّ الكثير من المسلمين اتخذوا الإسلام وسيلة لدنياهم، وخاصة المتصدين للحكومة الإسلامية الذين كان عليهم إرشاد الناس وهدايتهم ، فقد اتّخذوا الدنيا دار زينة ومقرّاً لهم، وتكالبوا على الأموال والثروات والمناصب الدنيوية وساقوا الناس في هذا الطريق، المنحرف، بعلم منهم أو عن جهل.

وفي هذا الزمن الحالك كان من الضروري إيجاد معجزة تحرّك الأوضاع وتقلب

الموازين؛ لتبيّن للناس ليس بالمواعظ فحسب، بل بالدماء أيضاً أنّ الإسلام نظام معنويٌّ قائمٌ على الحق والعدالة، ويرى الله تعالى حاكماً على كلّ شيء، وكلّ شيء تابعاً له. وهكذا ضحّىٰ الإمام الحسينعليه السلام بجميع ما لديه في سبيل الله والحق والعدالة، فصار أُسوة خالدة للناس وخاصة للمؤمنين، ومن هنا يتضح معنى الحديث الشريف:... [إنّ الحسينعليه السلام مصباح هدىً وسفينة نجاة]»[1].

أعظم ملحمة بشرية

فالحسينعليه السلام أنقذ البشرية بملحمته الدامية ضد الطواغيت المتسلطين على مقدرات الناس وعلى شؤونهم الدينية. فقد استطاععليه السلام بها أن ينقذ الإنسان من مصيدة النفس وأهوائها المادية، ويحلق به في سماء طلب الحق والعدالة، والسعادة الواقعية، التي لا تتحقق إلّا بأن يكون الإنسان كالحسين والحسينيين منفصلاً عن النفس ومتصلاً بالله سبحانه، متجنّباً الظلم ومدافعاً عن الحق ليواجه الظالمين، لا أن يتّبع الهوى فيقبل الظلم ويستسلم أو يسالم الظالمين. فالحسينعليه السلام بنفسه كان مصدراً لهذا العرفان ومنشأً لأبعاده وآثاره، حيث يقول: «... **هيهات منّا الذلّة يأبىٰ الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجورٌ طابت وطهرت وأُنوفٌ حميّة ونفوسٌ أبيّة...**»[2].

أي أنّ حقيقة ثورتنا هي أننا لا نستسلم أبداً للباطل، بل نعتبر قبوله والاعتراف به أكبر هزيمة وذلّة للإنسان، ولذلك نواصل جهادنا ضده حتى تحقيق النصر أو نيل وسام الشهادة.

وهذه هي أكبر ملحمة إنسانيّة، وأعظم أُنشودة حمراء سماوية، وأوج المعنويّة الإنسانية والإسلامية، الّتي تكوّنت من نهضة الإمام الحسينعليه السلام، وامتدّت لترفد جميع الثورات الإصلاحية ضد الطواغيت الظلمة بشحنات معنوية هائلة، وفي

---

١. عيون أخبار الرضا، ج١، ص٦٢، ح٢٩؛ فرائد السمطين، ج٢، ص١٥٥.

٢. تحف العقول: ص٢٤١؛ اللهوف: ص ٤٢؛ تاريخ ابن عساكر: ج١٤، ص٢١٩.

الحقيقة أبرزت هذه النهضة دعوة الأنبياء عليهم السلام بشكل تضحيات عملية في سبيل الإيمان والعدالة والمواجهة الميدانية للشرك والضلال والظلم والفساد، والأهم من ذلك أن هذه المعاني السامية لم تحصل بالكلام والخطب والمواعظ فحسب، بل بالدماء وتحمل أنواع المصائب والشدائد؛ ليقول للعالم أجمع: إنّ الرسالة لا تنفصل عن الشهادة، والشهادة لا تنفصل عن الرسالة، وليقول: إنّ أهل الرسالة هم أهل الشهادة، حيث يأخذون بيد الناس إلى ذروة المعالي والحرية عن طريق الفداء والتضحية، وينقذونهم من مستنقع الأسر والذلة، وليقول: إنّ الناس إذا كانوا مستعدين للدفاع عن الحق والتصدي للطاغوت، فإنهم أهلٌ لنيل مواهب الرسالة، وإلّا فسيحرمون من فيضها، بل سيكونون أذلاّء للقوى الشيطانية، اليوم أو غداً.

وكما رأينا في الصفحات السابقة، أنّ الهدف الأصلي للجهاد الإسلامي ـ وكما يقول عنه الإمام الحسين عليه السلام: «لتكون كلمة الله هي العليا» ـ أن تتجلّى تلك المفاهيم القيّمة والعالية في فكر وعمل الإنسان، وهذا التجلّي أهم بكثير من قتل الطواغيت وتسلّم السلطة والحكومة؛ لأنّه سيكون مصدر التحولات الأساسية في أعماق وجدان الإنسان، وبالتالي في جميع أبعاد حياة بني البشر.

وقد قال الشاعر الباكستاني العظيم إقبال اللاهوري أشعاراً لطيفة جدّاً في هذا المجال، نذكر نموذجاً منها ما ترجمته:

كلّ من تعاهد مع ربّ العالمين فقد تحرّرت رقبته من أغلال الجائرين
المؤمن لن يكون عبداً لغير الله ولا يطأطىء رأسه للظالمين
دمه قد كشف عن هذه الأسرار وفي ضوئه أيقظ جموع النائمين
عندما شهر سيف الحق ضد الباطل وأراق به دماء المفسدين
لقد سطّر كلمة (إلّا الله) على الصحراء وبذلك خطّ لنا طريق الناجين
شوكة الشام اضمحلت وجلالة بغداد ولّت وسطوة غرناطة باءت بحلم الحالمين
لكن بقيت أوتارنا تتهيج من ضرباتها ولازال تكبيرها يهزّ قلوب السامعين
لقد تعلّمنا رموز القرآن من الحسين وادّخرنا قبس الثورة من لهيب الثائرين

يـا نسـيم الصـبا ويـا رسـول الغـرباء　　احـمل دمـوعنا إلى قـبور الطـاهرين[١]

المقولة الثالثة: ثلاثة آراء مختلفة

تقدّم في المقولة الثانية شرح الهدف الأساس للجهاد، وكما رأينا أنّ الهدف منه هو حراسة الدين والشرف الإنساني، وبث الروح الإيمانية والثورية في الناس، وبذلك يتم الحفاظ على مصالح الإسلام، ودفع خطر الأعداء الذين ينشبون مخالبهم عن طريق جهل الناس وقبولهم للظلم. وكل مورد يطمأنّ إليه في تحقيق هذا الهدف يجب الجهاد حينئذٍ، حتى لو أدى إلى استشهاد المجاهدين.

ثمّ تم على هذا الأساس شرح سبب صلح الحسن والحسين عليهما السلام مع حكومة معاوية، وسبب نهضة الإمام الحسين عليه السلام وجهاده ضد حكومة يزيد، وسبب الاختلاف في أُسلوب الإمام الحسين عليه السلام في مقابل معاوية ويزيد؛ وهو أنّ معاوية كان يتظاهر بالإسلام، أمّا يزيد فكان يعلن عداوته للإسلام، ولذلك كانت مسؤولية الحسين عليه السلام في التصدي لحكومة يزيد أهم من جانب، وأكثر أثراً من جانب آخر، وهو ما رأيناه واضحاً جدّاً خلال تضاعيف البحث.

وفي هذه المقولة الثالثة نحاول دراسة الفرق بين حكومة يزيد ومعاوية بالنسبة إلى النهضة الحسينية من جهة أُخرى، غير الجهة التي بحثنا عنها في المقولة الأُولى والثانية، وهي أنّه هل الإمام الحسين عليه السلام كان يتمتع بإمكانات كافية لتحقيق النصر في زمن يزيد على عكس ما كان في زمن معاوية؟

وفي معرض الإجابة نطرح ثلاثة آراء مختلفة:

الأول: رأي أكثرية علماء الشيعة وبعض علماء السنة حيث يقولون: إنّ الحسين عليه السلام كان مطمئناً بعدم تحقيق النصر الظاهري، فلم يكن هذا دافعاً إلى ثورته (رغم اطمئنانه بالنصر الحقيقي، حيث كان هذا الاطمئنان هو الدافع الحقيقي لثورته

---

١. ديوان اقبال اللاهوري، تحت عنوان: سرّ كربلاء.

ونهضته، وقد مرّ توضيحه).

الثاني: الرأي المقنع للسيد المرتضى علم الهدى ـ رضوان الله عليه ـ حيث يقول بمقتضى بعض الشواهد في جوابه لجماعة من إخواننا السنة الذين لا يرون الحسينعليه السلام إماماً معصوماً ويرون أن ثورته لم تكن موفقة، بل جلبت المحن والمصائب على المسلمين.. وبهذا يُشكلون عليه فأراد السيد المرتضى الدفاع عن النهضة الحسينية، وافتراض أنّ الحسين هو أحد المسلمين الملتزمين الذين رأوا أنّ ظروف الانتصار الظاهري على حكومة الأمويين الفاسدة متحققة، فشعروا بواجبهم لتشكيل الحكومة العادلة، غاية الأمر أنّه لم يوفّق لأسباب وعوامل غير متوقّعة، واستشهد في هذا السبيل، فعلى هذا الافتراض فلا محل لذلك الإشكال أيضاً.

الثالث: النظرية الإفراطية للسيد هبة الدين الشهرستاني وآخرين، والتي تعتبر نقيض النظرية الثانية، حيث يقول: إنّ الإمام الحسينعليه السلام لم يكن غير واثق بانتصاره العسكري فحسب، بل كان يرى نفسه في خطر حتى لو بايع يزيد، ولهذا ومن أجل الحفاظ على نفسه خرج من المدينة وغادر مكة.

النظريتان الثانية والثالثة، بالرغم من أنّ كل واحدة منهما مخالفة للأُخرى إلّا أنّهما تشتركان معاً بجعل حركة الإمام الحسينعليه السلام في إطار من المسائل السطحية، من قبيل تشكيل الحكومة أو الدفاع عن النفس، والخطأ الأساسي فيهما أنهما تبحثان المراحل الابتدائية لحركة الإمام الحسينعليه السلام بشكلٍ صحيحٍ أو غير صحيح، ولكنّهما لم تهتمّا بروح حركة الحسينعليه السلام اهتماماً كافياً، فإنّ روح حركة الإمام الحسينعليه السلام تكمن في أنّها كانت مقترنة مع علمهعليه السلام بالشهادة، أو على الأقل أنّه كان مستعدّاً للشهادة في سبيل الإسلام، وهذا هو الأمر الأساس في نهضة الحسين. والنظريتان أيضاً قد قبلتا هذا الأمر في مراحلها النهائية، غاية الأمر أنهما لم تجعلاه محور البحث، مع أنّه كان من اللازم أن يكون هذا الأمر محور دراسة نهضة الإمام الحسين، وإن كان هو في نهاية ثورته وخاتمتها.

والسبب في أنّ الكثير من الدراسات لنهضة الإمام الحسين عليه السلام قد وقعت في أخطاء كثيرة واختلافات في وجهات النظر، هو أنّها لم تجعل المرحلة النهائية هي المعيار الأصلي للحكم، بل اتخذ أصحاب تلك الدراسات المراحل الابتدائية والمتوسطة معياراً لنهضته عليه السلام. وفي الحقيقة أنهم جعلوا الفرع مكان الأصل والأصل مكان الفرع. والخلاصة: إنّ اهم مرحلة من نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي المرحلة النهائية لا المراحل الابتدائيّة والوسطىٰ، بالرغم من أنّ هذه المراحل بدورها لها أهميّة، ولا بد من دراستها أيضاً.

وعلى كل حال لا بد من مزيد التحقيق في هذه الآراءأو النظريات الثلاث، وفي البداية نذكر دليلين على النظرية الأولىٰ، ونستشهد ضمناً ببعض كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ثم نتفرّغ لردّ النظريتين الأخريين الثانية والثالثة.

دليلان للرأي الأوّل

الدليل الأول: ما يرتبط بدعوة أهل الكوفة للإمام الحسين عليه السلام، فإن البعض يدّعي أن دعوة أهل الكوفة للإمام الحسين عليه السلام جعلته واثقاً بالانتصار الظاهري. وفي الإجابة عن هذا الادّعاء ينبغي القول: إنّ تحرك الإمام الحسين عليه السلام، الذي بدأ على شكل امتناعٍ من البيعة ليزيد، واتخاذ مكة مقرّاً لهذه النهضة، كان قبل أن يرسل أهل الكوفة بدعواتهم إليه، والشاهد على هذا ما ذكره الطبري ومعظم مؤرخي الشيعة والسنة، وهو أنه: **«لمّا بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين عليه السلام وابن عمر وابن الزّبير عن البيعة أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فذكروا مسير الحسين عليه السلام إلى مكة وكتبوا إليه عن نفر، منهم: سليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة . . وغيرهم: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك...»**[1].

ومن هذه العبارات يتضح جيّداً أنّ قيام الإمام الحسين عليه السلام كان قبل دعوة أهل الكوفة له لا بعدها، وبعبارة أُخرى أنّ تحرك الإمام الحسين عليه السلام أولاً هو الباعث

١. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٦١ ؛الارشاد ص ٢٢٠؛ الكامل في التاريخ ج ٤، ص ٢٠.

على دعوة أهل الكوفة له، ولم تكن دعوة أهل الكوفة باعثة على حركة الإمام الحسين.

ومع ذلك لنفرض أن قيام الإمام الحسينعليه السلام كان بعد دعوة أهل الكوفة أو بعد توقّعه وحدسه لذلك، ولكن مع ذلك لا نستطيع القول بأنّ دعوتهم كانت سبباً لوثوق الحسينعليه السلام بالانتصار العسكري على حكومة يزيد، وخاصة أنّ الإمام الحسينعليه السلام عاش لفترة طويلة مع أهل الكوفة وعرف نفسياتهم الضعيفة ومعنوياتهم المتزلزلة، فقدكان أبوه الإمام عليّعليه السلام يشكو منهم مراراً ويتألم إلى درجة أنه كان يتمنى الموت ويطلب من الله فراقهم بكلمات مليئة بالحرقة، حيث يقول: «يا أشباه الرجال ولا رجال حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددت أنّي لم أركم ولم أعرفكم، معرفةٌ والله جرّت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً...»[١].

وأيضاً كان الحسينعليه السلام يعلم أنّ أخاه الإمام الحسنعليه السلام لم يكن يثق بجيش أهل الكوفة البالغ عددهم عشرات الآلاف من المتظاهرين بالتفاني في سبيله، ولهذا السبب رأى نفسه مضطراً إلىٰ قبول الصلح مع معاوية[٢]، والإمام الحسين نفسه أيضاً تسلّم عدّة رسائل من أهل الكوفة، وخاصة بعد استشهاد أخيه الحسنعليه السلام، يدعونه فيها إلى جهاد الحكومة الأموية ويعرضون عليه بيعتهم، ولكن الإمام الحسينعليه السلام رد هذه الدعوات جميعاً بحجّة أنّ أهل الكوفة لا يمكن الاعتماد عليهم[٣]، والأهم من ذلك كله، حين سفرهعليه السلام إلى الكوفة، بعد ما سمع وصف الفرزدق حال أهل الكوفة في قوله البليغ: «قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية»، فإنّ الإمام الحسينعليه السلام أيّده على مقولته تلك وقال له: «صدقت ...»[٤] يعني، قولك مطابقٌ للواقع تماماً. وخلاصة

---

١. شرح النهج، ج ٢، ص ٧٥.

٢. تاريخ الطبري: ج ٤، ص١٢٦؛ الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٠٥.

٣. سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٢٩٤ تاريخ ابن عساكر، ج ٤، ص١٩٧.

٤. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٩٠؛ الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٤٠.

الكلام أنّ الإمام الحسين‌عليه السلام لم ير أهل الكوفة جديرين بالثقة، ولهذا لم يقل مطلقاً: إنني أعتمد عليهم وسأنتصر على الحكومة الأموية بمساعدتهم، بل كان يصرّح كما سيأتي في الصفحات القادمة: أنّه سوف يستشهد في هذا السبيل وسوف يقتل على يد أهل الكوفة بالذات.

الدليل الثاني: ما يرتبط بموت معاوية، فالبعض يتصور أنّ الأرضية أصبحت مواتية لقيام الإمام الحسين‌عليه السلام لثقته بانتصاره الظاهري.

وفي الجواب عن هذا التصور نقول: لنفترض أنّ موت معاوية أوجد أرضية مناسبة للثورة، ولكن مع هذا الفرض فالظروف والأوضاع في زمن يزيد لم تكن أفضل من السنوات الأولى لخلافة معاوية، بل كانت أسوأ وأشد بكثير؛ لأن معاوية سعىٰ طيلة عشرين سنة من حكومته إلى تضليل الناس بما أُوتي من قوة وشيطنة، واستطاع تثبيت أركان حكومته الفاسدة من كل جهة حتى أضحت الروح المعنوية للناس ضعيفة للغاية.

والحقيقة هي أنّ معاوية استطاع طيلة عشرين سنة رفع العوائق والمشكلات المحيطة بحكومته إلى حدّ مكّنه من تثبيت ولاية عهده ليزيد، في حين لم يكن يتجرّأ حتى بالتحدث فيها أوائل حكومته. وأساساً فانّ تثبيت ولاية العهد ليزيد دليل قاطع على أنّ الحكومة الأموية قد أحكمت سيطرتها تماماً، وأزالت العوائق من أمامها جميعاً، وكما رأينا أنّ منهج لعن الإمام علي وأهل البيت‌عليهم السلام كان قد ترسّخ ـ بسبب الإعلام الواسع والقاهر لحكومة معاوية ـ في قلوب كثير من الناس وأفكارهم إلى حد أن جماعات كثيرة من المسلمين مثل أهالي حرّان كانوا يقولون: إنّ الصلاة بلا لعن علي وأهل بيته غير صحيحة أصلاً[1]، بل وكثير من أهل الكوفة كانوا يقولون: لو كنّا كفاراً أفضل من كوننا شيعة لعليّ وأهل البيت، والخلاصة فإن الجيل الإسلامي الأصيل في زمن الرسول الأكرم قد انتهى، وبدأ جيل جديد فاسد

---

١. راجع أواخر الفصل الأول.

ومضاد للتيار العلوي تربّىٰ في ظل حكومة عثمان أولاً، ثم تأصّل في عهد معاوية وعمرو بن العاص ودعاياتهم المسمومة طيلة عشرين سنة بل أكثر.

الجهاز السياسي السرّي

مضافاً إلى القوة القاهرة والسفاكة للحكومة الأموية، وحملة الدعايات المسمومة والفاسدة لها، نلاحظ جهاز التجسّس القوي للحكومة الأموية الذي كان يلقي بظلاله على جميع الأمور، (معقل) نموذج أُولئك الجواسيس الذين كانوا يتخفّون ويعملون بأشكال مختلفة، ويخدعون أنصار أهل البيت عليهم السلام وشيعة الحسين عليه السلام، ويرسلونهم إلى الإعدام أو السجن واحداً بعد آخر[١]، وبذلك استطاعوا تثبيت الحكومة المتزلزلة لعبيدالله بن زياد، وقمع المخالفة الواسعة لأهل الكوفة، ومن خلال هذا النموذج نعرف أن جهاز الجاسوسية الأموية كان عاملاً مؤثّراً جدّاً لخدمة مصالح الحكومة الأموية، ولقمع معارضيها، ومن جانب آخر فإن رجال الحكومة الأموية كانوا يبرمجون خططهم وفق ما يرد عليهم من أخبار أُولئك الجواسيس.

ويمكن القول أيضاً بأنّ بعض من دعىٰ الإمام الحسين عليه السلام كان في الواقع من عملاء ومرتزقة الحكومة الأموية، ولا أقل من أنهم كانوا من الانتهازيين الذين وجدوا في دعوة الإمام الحسين عليه السلام فرصة ثمينة لتحقيق مآربهم وإغفال البسطاء من الناس لكسبهم، وبعد ما انقلبت الأوضاع استطاعوا تحويل المسيرة الطبيعية للثورة الحسينية إلى جهة مصالحهم المادية الدنيوية، والشاهد على هذا الأمر أنّ عدداً كبيراً من أفراد جيش عمر بن سعد كانوا من هؤلاء الانتهازيين الذين عملوا أوّلاً على تحريك الناس لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، وشاركوا أيضاً في تكوين هذه النهضة، ولكنهم نكثوا فيما بعد بيعتهم ونقضوا عهدهم، بل ساهموا كبقية جواسيس الحكومة الأموية وعمالها بقمع الثائرين والمشاركين في هذه الثورة، وعملوا على

---

١. تاريخ الطبري: ج٤، ص ٢٧٠؛ الارشاد، ج ٢، ص ٤٥.

دعم وتقوية حكومة يزيد[1]، والخلاصة فإنّ أحد أركان الحكومة الأموية والحزب الأموي الحاكم هو العيون والجواسيس والأعوان الذين يعملون بأشكال مختلفة، وفي الخفاء غالباً، وكان لهم دور عظيم في تثبيت حكومة الأمويين ضد رجال الحق واقعاً.

المشكلة الأصليّة لنهضة الإمام الحسين عليه السلام

مع الالتفات إلى العوامل المذكورة يتضح أنّ المشكلة الأصلية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام لا تنحصر بيزيد والحكومة الأموية بشكلٍ عام، ليقول البعض: إنّ مكانة هذه الحكومة قد تزلزلت بعد موت معاوية وأصبحت ممقوتة من قِبَل المسلمين مثلاً، وبذلك كان الظرف مناسباً للإمام الحسين عليه السلام لإعلان ثورته، وأنّه كانَ مطمئنّاً إلى تحقيق النصر العسكري بمساعدة الفئات المختلفة وخاصة أهل الكوفة، فهؤلاء لم يدركوا هذه الحقيقة، وهي أنّ المشكلة الأصلية التي واجهت نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت تتمثّل في التربية الأموية، التي دامت عشرين سنة من حكومة معاوية، وحرفت العالم الإسلامي عن مساره الحقيقي، وسخّرت أفكار وعواطف الجماهير لتحقيق مصالحها الباطلة، فجعلت الكثير من المسلمين حتى في الكوفة يقبلون أمثال يزيد ويشابهونه في أعماله وأفكاره إلى حد أنهم وقعوا في تيّار يزيد وسلكوا مسلكه باختيار منهم، والدليل الواضح على هذه الحقيقة هو أنّ الحسين عليه السلام وأعوانه قد قُتلوا على يد أصحاب النفوذ من أهل الكوفة، الذين تسلّموا الرُّشا الطائلة، وعلى يد من دعوا الحسين عليه السلام وأقدموا على ارتكاب هذه الجريمة حتى بدون رشاوي، فمنشأ جناية هؤلاء العظيمة بالدرجة الأُولى هي تربيتهم الفاسدة في ظل الحكومة الأموية، والدليل الآخر على ذلك هو أنّه بعد هلاك يزيد، وتخلّي معاوية ابنه عن الحكم بسبب ازدرائه لما ارتكبه أبوه يزيد من الجرائم، فقد استمر تيار الحكم الأموي بإدارة دفّة الأُمور إلى مدة مديدة أيضاً.

ولو غضضنا الظرف عن تسافل أهل الكوفة وضلالهم الكبير طيلة عشرين سنة

---

١. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٧٠.

من حكومة معاويه، وفرضنا أنّهم كانوا جديرين بالثقة، فلا أقل من قبول أنّ كثيراً من الناس في المناطق الأُخرى وخاصة في الشام كانوا يسيرون قطعاً في ركاب الحكومة الأموية، بل أصبحوا بسبب انتصارات معاوية وسياسته ودهائه مناهضين للتيار العلوي بشكلٍ أكيد، حتى إنّهم كانوا مستعدين لسحق مقدسات الإسلام بمنتهى القسوة، وكانوا مستعدين أيضاً للإغارة على المدينة المنورة وقتل أهاليها قتلاً ذريعاً، وهدم الكعبة من أجل يزيد بن معاوية، وقد فعلوا كل هذه الجرائم العظيمة بوحشية كبيرة فعلاً كما تنصّ على ذلك جميع التواريخ، فعلى فرض أنّ أهل الكوفة أيّدوا ونصروا الإمام الحسينعليه السلام، فالأمر لم يكن أفضل من زمان الإمام عليّعليه السلام حيث نصروه إلى حد ما في صفين، بل هو أتعس بكثير؛ لأن أُولئك الشاميين الذين كانوا من المضحين والفدائيين لحكومة معاوية ويزيد، كانوا في زمان يزيد أكثر قدرة من الناحية العسكرية من زمان معاوية في أوائل حكومته.

والسبب في أن الحكومة الأموية لم تجد حاجة إلى الاستفادة من أهل الشام في قمع نهضة الإمام الحسينعليه السلام هو أنها بملاحظة الانحراف الشديد الحاصل لأهل الكوفة في ظلها، وجدت نفسها تستطيع قمع نهضة الحسينعليه السلام بأيدي أهل الكوفة أنفسهم وبدون تدخّل أهل الشام، وضمناً أرادت الحكومة الأموية بهذه السياسة الشيطانية أن تجتث جذور الولاء لدىٰ أهالي الكوفة لأهل البيتعليهم السلام وتجعل بأسهم بينهم، أو على الأقل تجعل من الكوفة ذات الأغلبية الشيعية، مركزاً للتناحر والتفرق والتناقضات السياسية والعقائدية؛ لكي يصفو الجوّ للحاكمين الأمويين وأشباههم.

الحسينعليه السلام يصدق من أنذر بالخطر

وعلى كل حال فإنّ التسافل العجيب لأهل الكوفة من جهة، وقوة السلطة الغاشمة للحكومة الأموية من جهة أخرىٰ، دعت الكثير من أصحاب الحسينعليه السلام من أهل الرأي والحجىٰ أمثال محمد بن الحنفية، عبدالله بن عباس، عبدالله بن جعفر، عبدالله بن عمر، عبدالله بن حارث، عبدالله بن مطيع، عبدالله بن جعدة، مسور بن

مخرمة، عمر بن هشام، مجمع بن عائذ، أبي سلمة، أبي سعيد، أبي‌بكر المخزومي، أبي واقد، جابر بن عبدالله الأنصاري، الفرزدق وآخرين[١]، أن ينصحوا الإمام بعدم الثورة. والغريب أنّ هؤلاء جميعاً دون استثناء قد تنبّؤوا بالخطر المحدق بالإمام من ناحية القوة القاهرة للحكومة الأموية، وحذّروه من الاعتماد على أهل الكوفة لسوابقهم السيئة. فعلى سبيل المثال كان عبدالله بن عمر في وداعه للإمام عليه السلام بمكّة التي كانت فيها ظروف النصر العسكريّ متوافرة ظاهراً، يقول للإمام الحسين عليه السلام وهو يودّعه وداع الموت: «أستودعك الله من قتيل»[٢]، وابن عبّاس أيضاً عندما اطّلع على حركة الإمام الحسين عليه السلام بكىٰ وقال: «واحسيناه»[٣] و... .

ويقول البعض: إنّ بعض الأشخاص على عكس هؤلا الناصحين كانوا يرون في دعوة أهل الكوفة للإمام الحسين عليه السلام عاملاً مهمّاً لتحقيق الانتصار العسكري، ولهذا دعاه بعضهم إلى التوجه إلى الكوفة بأسرع وقت لإعلان الثورة، حتى إنّ مسلم بن عقيل طيلة مدّة إقامته في الكوفة كان واثقاً من هذا النصر، ولهذا أرسل إلى الإمام الحسين عليه السلام أن يتحرّك بأسرع وقت ليستفيد من هذه الظروف المواتية.

وفي الجواب عن هذا التوهم لابد من القول: بأنّ الكثير من هؤلاء وقعوا تحت تأثير الهياج الشعبي العام، والأخبار المتوالية باستعدادهم للثورة، وبالرغم من حسن نية اولئك وتمنّيهم لانتصار الحق على الباطل، لكنهم في نفس الوقت لم يكونوا يتمتعون بنظرة عميقة وسياسة دقيقة في بواطن الأمور، ولم يكونوا على علم بنفسيات الناس المنهارة ومعنوياتهم المهزوزة. فعلى سبيل المثال: إنّ أحد المخلصين الذين دعوا الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة هو (مسلم بن عوسجة)، وقد رأينا أن هذا الرجل وأمثاله وكذلك (مسلم بن عقيل)، قد انخدعوا بواسطة

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٥٣، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٨، ٣٠١ و...؛ تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ٢١٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٩، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٦٩ و ٧٢ و...

٢. المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ٢٢١؛ تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ٢٠١؛ النزاع والتخاصم للمقريزى، ص ٩٠.

٣. اللهوف، ص ٢١؛ تذكرة الخواص، ص ٢٣٩.

الجاسوس (معقل)، وكان لانخداعهم له ولأهل الكوفة أثره الكبير في المصائب اللاحقة الكثيرة[١].

وهكذا في كثيرٍ ممّن دعوا الإمام إلى الكوفة، فإنّ الواقع بالنسبة إليهم هو ما قاله الفرزدق وصدّقه الحسينﷺ، وهو في بداية مسيره إلى الكوفة، قال له: **«قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية»**، وهكذا نصحه كثير من المطّلعين المحبين مثل نصيحة الفرزدق، وأبانوا له الدليل بتوضيح ودقة أكثر، وحذّروه جميعاً من بطش الحكومة الأموية وقدرتها السياسية والعسكرية، وكذلك حذّروه من معنويات أهل الكوفة المتزلزلة، والملفت للنظر أنّ الإمام الحسينﷺ، كان يؤيّد هذه النصائح ويوافق عليها، حتى إنّه أخبر في مسيره إلى الكوفة وقبله عن مقتله أيضاً ـ كما رأينا آنفاً ـ.

«عمر بن هشام» أحد الناصحين المخلصين للإمام الحسينﷺ، قال للإمام كلاماً مليئاً باليأس والتحرّق، جاء فيه: «... إنّه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق وإنّي مشفق عليك من سيرك، إنك تأتي بلداً فيه عمّاله وأُمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنّما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممّن يقاتلك معه». فقال الحسين: **«جزاك الله خيراً يا ابن عم، فقد والله علمتُ أنك مشيت بنصح وتكلمت بعقل»**[٢].

وقال له أحد الناصحين أيضاً بضرورة عدم سفره إلى الكوفة وحذره من القتل هناك، قال: «إنّي أنشدك الله لمّا انصرفت فو الله لا تقدم إلّا على الأسنة وحد السيوف». وأيّد الإمام الحسينﷺ هذا الكلام أيضاً، وقال لهﷺ: **«يا عبدالله لا يخفىٰ عليّ ماذكرت ولكن الله لا يُغلب على أمره»**[٣]، يعني أنّي أعلم ما تعلم ولكن المسؤولية الإلهية أجل وأعلى من كلّ ذلك.

وفي بعض الروايات ورد تتمّة لكلامهﷺ وهي: **«والله لا يَدَعوني حتى يستخرجوا**

---

١. الإرشاد: ج٢، ص٤٦؛ تاريخ الطبري، ج٤، ص ٢٧٠؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢٨ ـ ٢٥.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٧ ؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٧.

٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٣٠١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٤٣ ؛ الارشاد: ج ٢، ص٧٦.

هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكـونوا أذل فرق الأمم»[١].

إذاً لماذا المسير إلى الكوفة؟

إتضح ممّا تقدم من الشواهد البيّنة، ومن أجوبة الحسينعليه السلام للناصحين، أنهعليه السلام لم يكن مطمئنّاً بالانتصار العسكري، بل كان مطمئنّاً من مقتله واستشهاده، ولكن هذا الأمر يجعلنا أمام السؤال التالي: وهو أنّ الإمام الحسينعليه السلام مع أنـه كـان يـصدّق نصيحة الناصحين وأخبر بقتله في مسير الكوفة، ولا أقل كان يحتمل القتل احتمالاً جديّاً، فلماذا توجّه إلى الكوفة؟

للجواب عن هذا السؤال المهم نقول: إنّ الإمام الحسينعليه السلام كان يرى نفسه من حيث المسؤولية الإسلامية موظّفاً ومسؤولاً عن إجابة دعوات أهل الكوفة، خاصةً بعد وفاة معاوية وسنوح الفرصة اللازمة ـ ولو بحسب الظّاهر ـ حتى لو عرّض نفسه للخطر؛ لأن رد هذه الدعوات أو عدم الإسراع إلى إجابتها يـوحي إلى النـاس أنّ جهاد الحكومة اليزيدية والإسراع في ذلك ليس ضرورياً. فالناس كانوا يتصورون أنّ الإمام الحسينعليه السلام الذي يعتبر إمام المسلمين في الحـقيقة وله تـلك المـنزلة والشخصية المؤثّرة، ومع ذلك تباطأ عن جهاد حكومة الطاغوت. ومن الواضح أن هذا التصور وإن كان خاطئاً، إلّا أنّ سكوت أو مداراة الإمام الحسينعليه السلام يرسّخ هذا التصور في الأذهان ويؤدّي بالتالي إلى انحطاط المسلمين والاعتراف بالحكومة بل بالحكومات اليزيدية، وفي النتيجة تتعرّض مصالح الإسلام والمسلمين إلى الخطر المؤكّد يوماً بعد يوم.

من هنا كان الإمام الحسينعليه السلام يرى نفسه ملزماً، مـن وجـهة النـظر الشـرعية والاجتماعية في ذلك الموقع الحساس، أن يجيب دعوة أهل الكوفة ويرسل إليهم مسلم بن عقيل ليعلمهم استعداده ونهضته لجهاد اليزيديين.

---

١. الإرشاد: ج ٢، ص٧٧؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٣٩.

الإمام الحسين عليه السلام نفسه يبيّن هذه الحقيقة في مقابل نصيحة ابن عباس، ويشير إلى التزامه الإسلامي والاجتماعي بهذا المبدأ، حيث يقول: «هذه كتبهم ورسلهم وقد وجب عليّ المسير لقتال أعداء الله»[١]. وإن قلنا بأنّ الواو في قوله عليه السلام (وقد ...) حالية، تعني أنّه قد وجب عليه المسير حتى قبل أن ترد عليه الكتب والرسل.

والأهم من ذلك كلام الإمام الحسين عليه السلام لأحد الناصحين له في بيان علة سفره إلى الكوفة، حيث يقول: «هذه كتب أهل الكوفة ولا أراهم إلّا قاتلي»[٢]. ومن أجل هذا الوجوب الإسلامي والسياسي ردّ الإمام الحسين عليه السلام مقترحات ابن عباس الصادقة، وكذلك مقترحات ابن الزبير المتحفّظة، فقد كان ابن عباس يتصور أنه ينقذ الإمام الحسين عليه السلام باقتراحه عليه الذهاب إلى اليمن والالتجاء إلى جبالها، فيحتمي بأهلها من أتباع وشيعة أهل البيت عليهم السلام[٣]، وأمّا ابن الزبير فإنه طرح مقترحه ليبرّىء نفسه من الحسد، ورأيه كان يرجّح للحسين أن يبقىٰ في الحجاز، بدعوىٰ أنّ الظروف مهيّأة فيه أكثر[٤].

لماذا لم يبق الإمام في الحجاز ولم يذهب إلى اليمن؟

وهنا نجد من المناسب البحث في هذين المقترحين لنرىٰ بوضوح مدىٰ خوائهما ومجانبتهما للصواب، وتتضح ضمناً هذه الحقيقة وهي أنّ المجتمع الإسلامي طيلة عشرين سنة من حكومة معاوية الطاغوتية قد أنحط إلى درجة أنّ جميع البلدان ومنها مكّة والمدينة لم تكن صالحة لتحقيق الانتصار العسكري لمثل الحسين عليه السلام ولذا اضطرّ إلى أن يخرج حتى من داره في المدينة.

كلنا يعلم أنّ مكة والمدينة كانتا مهد الإسلام وقلعته المحكمة، وكان الحسين عليه السلام

---

١. تذكرة الخواص، ص ٢٣٩؛ تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ٢١٦.

٢. تاريخ ابن عساكر: ج ١٤، ص ٢١٦؛ تاريخ ابن كثير: ج ٨، ص ١٦٩؛ مثير الأحزان: ص ٢١.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٩.

٤. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٨.

قد نشأ في هاتين المدينتين، وهو بَعدُ ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأكبر شخصية إسلامية،ومع ذلك فمن العجيب أنّ القليل جدّاً من أهل هاتين المدينتين جاءوا مع الإمام إلى كربلاء، فهل أنّ أهالي هاتين المدينتين قد ماتوا؟ وهل جهلوا بنهضة الإمام الحسين عليه السلام وحركته؟ وهل كانوا سجناء في حكومة يزيد؟ أو أنّ السياسة الشيطانية لحكومة معاوية طيلة خلافته على المسلمين مدّة عشرين سنة قد استطاعت تخديرهم بشدة، ولهذا أصبحوا لا يهتمون ولا يعتنون بنهضةابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، خاصة وأنهم كانوا يرون أنّ قوة الحكومة الأموية في ذلك الوقت كبيرة جدّاً، وفي المقابل يرون إمكانات الحسين عليه السلام ضعيفة جدّاً. فإن لم يكن السبب هو هذا، فعلام قبع أهالي هاتين المدينتين الكبيرتين في بيوتهم، ولم ينصروا الحسين عليه السلام وتركوه وحيداً يواجه الأخطار هو وأهل بيته مع علمهم بظلم الأمويين وعلى رأسهم يزيد وفجوره؟

فلو أنّ أهل المدينة أو أهل مكة عملوا بوظيفتهم الإسلامية ونصروا الحسين بن عليّ عليه السلام، فعندها قد لا يجد الحسين عليه السلام ضرورة إلى الخروج من المدينة واللجوء إلى مكة، كما قد لا يكون لزاماً عليه حلّ إحرامه، وترك حجه في مكة والتوجه إلى الكوفة خوفاً من تآمر الأعداء فيها.

ومع هذه الملاحظات، فمن السذاجة جدّاً القول إنّ الحسين عليه السلام لو بقي في هاتين المدينتين لأمكنه تحقيق الانتصار الظاهري، في حين أنّ الحسين عليه السلام كان معرّضاً للخطر في هاتين المدينتين، بحيث رأىٰ نفسه مجبراً على الخروج منهما بسرعة.

والأمر الهام في هذا المجال والذي سوف نبحثه بالتفصيل في الفصل الرابع، أنّ الكثير من الناس في هاتين المدينتين الذين لم ينصروا الحسين عليه السلام حفظاً لانفسهم عن الأخطار المتوقّعة في طريقه، نراهم بعد أشهر من واقعة كربلاء الدامية يتغيرون بصورة مدهشة، ويقومون بأكبر ثورة في تاريخ الحجاز ضد الحكومة الأموية، ويقدّمون الآلاف من التضحيات في هذا السبيل، بحيث يذكّرنا موقفهم هذا بمواقفهم مع رسول الله وتضحياتهم في زمان حياته، بل أشدّ منها بكثير. فهذا التحوّل الغريب

لم يكن ليطرأ عليهم مع وجود الإمام الحسين عليه السلام بينهم، بل حتى كلمات الإمام الحسين عليه السلام وخطبه لم تؤثّر فيهم مثل هذا الأثر، إلاّ أنّ كربلاء واستشهاد الإمام وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة، وسبي حريمه قد حوّلهم وبدّلهم أشد تحويل وتبديل، وهكذا فعلت تلك الفجائع فعل الصاعقة التي نزلت على رؤوس الأمويين.

وبنظرة فاحصة لمقترح بقاء الإمام الحسين عليه السلام في مكة والمدينة، يتضح أنّ الحسين عليه السلام لو كان قد بقي فيهما لم يحقق أهدافه من ثورته، بل إنّه سوف يُقتل في ظروف مبهمة ويضيع دمه.

وأمّا الاقتراح الثاني بالنسبة إلى توجه الحسين عليه السلام إلى اليمن، فهو أيضاً ليس له ثمرة مهمة؛ لأنّ اليمن لم تكن متراساً مطمئناً أو قلعة حصينة في مواجهة الجيش الأموي الكبير، وكان مقصود ابن عباس من مقترحه أن يمنع الحسين على الأقل من التوجه إلى الكوفة التي كان يراها مصدر خطر عليه[1].

وعلى كل حال، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام الذي كان مستعداً للتضحية في سبيل الدفاع عن مصالح الإسلام والمسلمين، كان يرى:

أوّلاً: إنّ أفضل طريق لمواجهة الحكومة الأموية هو استغلال الفرصة المتاحة له بدعوة أهل الكوفة وإن كانت ظاهرية، وعلى أساس هذه الدعوة فهو يتّجه إلى الكوفة استجابة لمطاليب أهلها، وسيكون معه عندئذٍ سند جماهيري وشبه قانونيّ، وإن كان ظاهريّاً أو غير موثوق به.

ثانياً: إنّ استشهاده إلى جانب محبّيه من أهل الكوفة، سيكون مؤثّراً أكثر بكثير من سائر المناطق من قبيل الحجاز واليمن التي لم يدعه أهلها إليهم، والشاهد على هذا الأمر قول الإمام الحسين عليه السلام لابن عباس بعد أن حذّره ابن عباس من أهل الكوفة ومن خذلانهم، فقال عليه السلام: «لئن أُقتل والله بمكان كذا أحبّ إليّ من أن أُستحلّ

١. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٩.

بمكة»[١].

ويذكر كتاب (كامل الزيارات)، وهو معتمد عند الخبراء والمحققين، أنّه عليه السلام قال في جوابه لابن الزبير أيضاً: «لئن أُدفن بشاطىء الفرات أحبّ إليّ من أن أُدفن بفناء الكعبة»[٢].

الكلام غير المعقول ظاهراً

والظاهر أنّ هذا الكلام غير معقول؛ لأنّ القتل في مكة للدفاع عن الإسلام ومصالح المسلمين لا إشكال فيه، وإذا كان هناك إشكال من أجل حرمة الحرم وبيت الله، أمكن للحسين عليه السلام أن يتخذ مواضع قريبة منه كالمدينة أو الطائف أو اليمن، فعلى هذا يجب أن نرى لماذا كان الحسين عليه السلام يؤكّد على الكوفة التي كانت بعيدة جدّاً، ويقسم أنّ القتل فيها وحتى الدفن إلى جانب الفرات أحبّ إليه من الدفن في فناء الكعبة؟

والجواب عن هذا السؤال ليس خافياً على أهل البصائر، وهو أن ثورته ضد الحكومة اليزيدية إلى جانب الكوفة بعد الاستجابة إلى دعوة أهلها، وقتله بهذا الشكل المروع أكثر أثراً من القتل والدفن في مكان آخر؛ لأنّ القتل والدفن بجوار من دعوه سوف يثير مشاعر المسلمين وخاصة الداعين له، وتتحرك فيهم روح الانتقام والثأر، ولهذا نجد النهضات والحركات الثورية تلاحقت بعد كربلاء من الداعين في الكوفة وما والاها لطلب الثأر بدم الحسين عليه السلام، ووجّهت ضربات مهلكة إلى الحكومة الأموية الغاشمة.

قد رأينا في الصفحات السابقة أنّ أهل الكوفة كانوا متزلزلين جدّاً، وأنّ الحكومة الأموية أيضاً كانت في غاية قوتها، ولهذا كان الحسين عليه السلام يرى مثل سائر الخبراء بالشأن السياسي وأهل البصائر، أنّ مقومات الانتصار العسكري غير متوفّرة، ولكن

---

١. مروج الذهب، ج٣، ص٥٥؛ تاريخ ابن عساكر، ج١٤، ص٢٠٠، ٢٠٣.

٢. كامل الزيارات، ص١٥٢.

مع ذلك أقدم الإمام الحسين‰ بحكم مسؤوليّته ووظيفته على الجهاد الإسلامي الذي لم يُحدّد بالحسابات الظاهرية كما أشرنا إليها آنفاً، فكان يرى نفسه مسؤولاً عن إجابة دعوة أهل الكوفة والتحرك صوبهم، حتى لو كانت الدعوة ظاهرية، بل حتى لو أدّى ذلك إلى قتله كما رأينا في تصريحات الإمام نفسه أيضاً.

وهنا نذكر بعض التصريحات الأُخر للإمام الحسين‰، لكي ندرك أكثر، حقيقة أنّ الحسين‰ لم يكن واثقاً بالنصر العسكري، بل كان واثقاً بأنه سوف يقتل في هذا السبيل، ونكتفي بذكر بعض النماذج من خطبه وكلماته رعاية للاختصار.

كلمات توضيحية حاسمة

١ ـ يقول الإمام زين العابدين‰:

«خرجنا مع الحسين فلم ينزل منزلاً ولا أرتحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال: من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيىٰ إبن زكريا أُهدي إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل»[١].

ومن الواضح أنّ كلام الإمام الحسين‰ المؤلم هذا ـ خاصة وأنّ ابنه الإمام زين‌العابدين‰ يقول: إنّ أباه كان يكرّر هذا الكلام مراراً ـ دليلٌ على أنّ الإمام لم يكن واثقاً من النصر العسكري على الأقل، بل يستشف منه أنه كان يعلم بخاتمة هذا السفر الدامية، وأن رأسه الشريف سوف يبعث إلى عبيدالله ويزيد آخر المطاف.

٢ ـ يقول ابن الزبير في اقتراحه السياسي للإمام الحسين‰: «أقم في هذا المسجد أجمع لك الناس» فأجابه الإمام‰: «والله لإن أُقتل خارجاً منه بشبرٍ أحب إليّ من أُقتل داخلاً فيه بشبر، وايم الله لو كنت في جحر هامّة من هذه الهوام لاستخرجوني منه حتى يقضوا فيّ حاجتهم، والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت»[٢].

---

١. الارشاد: ج ٢، ص ١٣٢؛ عوالى اللئالي، ج ٤، ص ٨١؛ مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص٢٣٧.
٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٨٩؛ الكامل في التاريخ: ج٤، ص ٣٨.

٣ ـ وكذلك يصرّح الإمام عليه السلام وهو على مقربة من مكة، بوجود خطر القتل فيقول: «والله لا يَدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرأم المرأة»[١].

٤ ـ والأهمّ من هذه الخطب والكلمات، حديثه الشريف في مكة وهو يخاطب أعوانه وأصحابه:«الحمد الله وماشاء الله ولا قوة إلّا بالله وصلى الله على رسوله، خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، ومـا أولهني إلى أسـلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأنّ أكراشاً جوفا وأجربة سغبا، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أُجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لُحمته بل هي مجموعة لهم في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه وينجز بهم وعده، ألا فمن كان فينا باذلاً مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فأنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[٢].

فمن ذلك يُعلم أنّ الإمام حتّى حين خروجه من مكة، كان متأكّداً من مـصيره الدامي، وأنه سوف يُقتل. ولا يخفى أنّ هذه الخطبة ـ مضافاً إلى تصريح الوثـائق التاريخية بصدورها حين خروج الإمام عليه السلام من مكة ـ يحكي بعض مـقاطعها مـن قبيل: «خير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي ....، ألا فمن كان باذلاً فينا مـهجته فليرحل معنا»، عن صدورها قُبيل حركته إلى الكوفة، والعجيب أنّ تلك النـصوص تشبه في مضامينها ما قاله حين وروده كربلاء من قبيل قوله: «إنزلوا ها هنا محطّ رحالنا ومسفك دمائنا، وهاهنا محلّ قبورنا، بهذا حدّثني أبي عن جدي»[٣]، يعني رغم أنّه كان بين الزمانين تفاوت وأحداث كثيرة، ولكن لم تتغيّر حالة الإمام وتخطيطه

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٩٦؛ اللهوف: ص٤٤، تاريخ ابن عساكر ج١٤: ص٢١٦، المقتل للـخوارزمـي: ج٢، ص٢٦.

٢. اللهوف، ص ٣٨؛ المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٥؛ كشف الغمة ج ٢، ٢٣٩.

٣. اللهوف، ص٤٩؛ تذكرة الخواص، ص ٢٥٠؛ الأخبار الطوال، ص٢٥٣.

في سفره إطلاقاً.

والملاحظة المهمة الملفتة للنظر هنا، هي أن كلمات الإمام الحسينعليه السلام بشكل عام على نوعين:

النوع الأوّل: أحاديثه عن نفسه وأصحابه،التي تدل على أنه لم يكن واثقاً من النصر العسكري، بل على العكس من ذلك كان متأكداً من قتله واستشهاده، وقد رأينا ذلك في تصريحاته المذكورة آنفاً.

النوع الثاني: أحاديثه حول بيان وظيفة المسلمين وواجبهم تجاه الحكومات الطاغوتية، والتي ليست فيها إشارة إلى الوثوق أو عدم الوثوق بالنصر العسكري، كما تقدم ويأتي بعض المقاطع من هذا النوع من كلماته، منها: «ألا من رأى سلطاناً جائراً مستحلاًّ...».

والغريب أن بين كلمات الإمام الحسينعليه السلام أو كلمات أصحابه لم تشاهد حتى جملة واحدة على الأقل تصرّح بمسألة تحقيق الانتصار العسكري، فلو كانوا واثقين من ذلك، لبيّنوه للناس؛ ليتمكنوا من حشد عددٍ أكبر من الأنصار، كما نجد ذلك في كلمات أميرالمؤمنينعليه السلام حينما توجه لقتال الخوارج، فقال: «والله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة»[1].

كلمات من الحسينعليه السلام يتوهم منها الثقة بالنصر الظاهري

ومع ما مرّ بيانه فالبعض يتصور أنّ بعضاً من كلمات الإمام الحسينعليه السلام وكتبه تدلّ على أنه كان واثقاً بالنصر الظاهري، ولتكميل البحث ورعاية الإنصاف نذكر هنا نموذجين مهمين لذلك، وسوف نذكر نموذجاً آخر أهم تحت عنوان (المقترحات المزعومة).

النموذج الأوّل: حوار الإمام مع الفرزدق، ونذكر هنا نصّ هذه المحادثة التي

١. شرح النهج، ج ٢، ص ٢٣٧؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٤٥.

وقعت على مقربة من مكة، ويتصور البعض أن الظروف آنذاك كانت مساعدة على النصر ظاهراً، ولكن من خلال دقة النظر في الحوار، يتبين بطلان هذا التصور.

قال الحسين: «بيّن لنا نبأ الناس خلفك». فقال له الفرزدق: «من الخبير سألت، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أُمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء». فقال له الحسين عليه السلام: «صدقت لله الأمر والله يفعل ما يشاء وكل يوم هو في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته»[1].

وهكذا يتصور البعض من هذا الكلام أنّ الحسين عليه السلام كان واثقاً بالنصر العسكري، إلّا أن ذوي الخبرة يعلمون أن جواب الإمام الحسين عليه السلام هذا كسائر القضايا الشرطية التي تقوم على أساس الفرض، ولذلك فهو لا يدل على الوثوق والاطمئنان أو عدمه، والملاحظة المهمة في جواب الإمام الحسين عليه السلام هي أنّ الإمام عليه السلام صدّق كلام الفرزدق، ومن المعلوم أن كلام الفرزدق لا يوجد فيه أيّ علامة لرجاء النصر، بل بالعكس كان يلقي اليأس في النفوس؛ لأنّه يقول: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أميّة»، أي إنّ السيوف التي هي عامل النصر الظاهري ليست معك، بل مع بني أُمية، كما كان في زمن حكومة معاوية أيضاً قلوبهم مع أهل البيت وسيوفهم مع بني أُمية من دون تفاوت، وقد جرّدوها في هذا الوقت لحربكم. والإمام عليه السلام لم يرّد كلامه هذا بل صدّقه، ومن الطبيعي أنّ الإمام عليه السلام لو كان متأكداً من النصر العسكري لاعترض على الفرزدق وردّ كلامه، ولقال: إنني أعتقد أنّ أهل الكوفة سوف ينصروننا ويثورون معنا ضد بني أمية.

والملفت للنظر هنا أنّ الإمام عندما اقترب من الكوفة وأصبح خطر القتل محتّماً، ذكر قولاً نظيراً لما قاله للفرزدق حينئذٍ، بالرغم من تفاوت الظروف التي كانت حين محادثته مع الفرزدق والظروف التي كانت على مقربة من الكوفة، قال: «أما والله إني

---

١. الإرشاد، ج ٢، ص٦٧؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٠.

لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا قُتلنا أم ظفرنا»[١]. هذايعني أنّ منطق الحسين عليه السلام مع اختلاف الظروف، وتباين الأحداث بقي على حاله لم يتغير مطلقاً.

النموذج الثاني: كتب ورسائل الإمام إلى أهل الكوفة، من قبيل كتابه الذي كتبه في أوائل خروجه من مكة، حيث يقول فيه:

«أمّا بعد فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكّة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدّوا فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله»[٢].

منطق الهراء

ويزعم البعض أنّ هذه الكتب المثيرة والمحرّكة لمشاعر الناس، علامة على أنّ الحسين عليه السلام كان مطمئنّاً لتأييد أهل الكوفة إيّاه، وبالتالي واثقاً بالنصر العسكري، وإلّا فلو لم يكن الإمام الحسين عليه السلام واثقاً من ذلك وكان يعلم باستشهاده، وأنّ استشهاده هذا سيصبّ في مصلحة الإسلام، فلماذا كتب هذه الكتب المثيرة لأهل الكوفة وطلب منهم النصرة ضد الأمويين؟

هذا البعض تصور أنّ الإمام الحسين عليه السلام لو كان واثقاً بشهادته في سفره هذا، وأنّ شهادته تكون لصالح الإسلام، فليس من اللازم حينئذٍ ـ بل وليس من المناسب ـ تحريك الناس وطلب النصرة منهم، بل اللازم أن يطلب منهم أن يتركوه وحيداً ليُقتل بأيدي أعدائه حتى تتحقق مصلحة الإسلام مثلاً.

هذه خلاصة منطق الهراء، وجذور هذا المنطق الخاطىء هو قياس الجهاد الإسلامي بغيره من الحروب بين الشعوب والبلدان، التي تقوم على المعايير

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٠٦.
٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٦٢ و ٢٩٧؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٧٠.

والحسابات المادية والنصر والهزيمة الظاهريّين، دون الالتفات إلى البعد الأصلي للجهاد الإسلامي الذي هو هداية الناس وتحريك كوامن الحق فيهم ضد الباطل في كل حال، ولكن رجال الله كالحسين‌عليه السلام يرون هذا البعد الحقيقي للجهاد، ويجعلونه محوراً لتحركاتهم ودعواتهم الثورية، ولذلك يسعون لإثارة طاقات الناس الكامنة، وتحريكهم للجهاد حتى لو أدّى إلى استشهادهم، بل حتى لو أدّى إلى تثبيت الحكومات الفاسدة ظاهراً، ولهذا الأمر الحساس شواهد كثيرة في التاريخ الإسلامي نذكر رعاية للاختصار نموذجاً واحداً على ذلك:

يقول الإمام عليّ‌عليه السلام مخاطباً أهل العراق: «سيظهر عليكم رجلٌ رحب البلعوم يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد». ثم يعقّب كلامه بقوله: «أُقتلوه ولن تقتلوه»[1]، أي أنّه‌عليه السلام يدعو أهل العراق إلى قتل معاوية هذا الذي يتصف بهذه الصفات، مع أنّه يعلم ويقول أنهم غير قاتليه، مضافاً إلى أنّه‌عليه السلام كان دائماً يعبئ الناس ضد معاوية، ويحثّهم على جهاده وعدم التواكل والتكاسل في ذلك، والعجيب أنه لم يقل أحدٌ للإمام عليّ‌عليه السلام إنّك إذا كنت تعلم بأنّك سوف تُقتل وأنّ معاوية سوف يتسلط على العراق، فلماذا تثير الناس ضده؟ ولماذا تورّطهم في الأخطار والقتل عبثاً؟ وأساساً كيف تحثّ الناس على قتله وأنت تعلم أنهم لن يقتلوه؟

أجل، الجواب عن هذه الأسئلة والاستفهامات العديدة غامض لدى هؤلاء السطحيين الذين يرون النتائج الظاهرية والقريبة فحسب، أمّا رجال الله الذين ينظرون إلى الآثار المعنوية والحقيقية ويعطونها الدرجة الأولى من الأهمية، فالجواب واضح عندهم، وهو أنّ القيمة الأصلية للواجب والمسؤولية كامنة في نفس العمل بالواجب وآثاره المعنوية حتى لو لم تتبعها نتائج ظاهرية، بل حتى لو أدّت إلى مخاطر ومشاكل ومصائب، ولأجل ذلك كان رجال الله، وبتعبير آخر الحسينيون، عندما يرون أنّ الإسلام قد تعرّض للخطر من قِبل الحكومات الطاغوتية واليزيدية ـ ولابد من هداية الناس وتحريك كوامن الثورة فيهم ضد الباطل مهما

---

١. شرح النهج: ج ٤، ص ٥٤.

أمكن ـ فإنهم لا يتوانون حينئذٍ عن الثورة والجهاد، ودعوة الناس إلى هذا الطريق حتى لو لم يصلوا إلى النصر الظاهري العاجل، وحتى لو قُتلوا في هذا الطريق.

الخطأ الأساس للسطحيين

لزيادة ايضاح الموضوع أكثر نقول: من الناحية العلمية فإنّ لكل شيء مرحلتين: مرحلة الثبوت، ومرحلة الإثبات.

أمّا مرحلة الثبوت فتبحث في إمكانية وعدم إمكانية ذلك الشيء، و مرحلة الإثبات تبحث في وقوعه أو عدم وقوعه بعد الفراغ من إمكانه، والخطأ الأساس لهؤلاء السذّج الذين ينظرون إلى نهضة الإمام الحسينعليه السلام نظرة سطحية، يرتبط بمرحلة الثبوت، يعني أنّ الخطأ الأساس لديهم هو تصوّرهم أنه في النهضة الإلهية لابد من التأكد من النصر الظاهري حتى يكون مشروعاً، وإلّا فلا يكون الجهاد مشروعاً، وعلى هذا الأساس توهّموا أنه يستحيل قيام الحسينعليه السلام بهذه النهضة ما لم يكن مطمئنّاً إلى النصر الظاهري، وطبيعيٌّ أنهم على أساس هذا الخطأ يسعون في مرحلة الإثبات أن يظهروا من كلمات وكتب الإمام الحسينعليه السلام ما يدل على وثوقه، ويجيبون أيضاً عن شواهد وأدلة مخالفيهم، والأساس في خطئهم هذا هو أنّهم لم يصلوا إلى حقيقة روح الدين والإيمان، ولذا قاسوا النهضة الحسينية وأمثالها بالموازين العرفية والظاهرية الهادفة مثلاً إلى تكوين الحكومة الإسلامية فقط.

وطبعاً لا شكّ في أنّ رغبة الإمام الحسينعليه السلام وإرادته كانت بإعادة تكوين الحكومة الإسلامية الحقيقية، وكان يحرّك الناس في هذا الاتجاه فعلاً، ولكن في الوقت نفسه فإن اقامة الحكومة الإسلامية لا يكون الهدف الوحيد للحركات الدينية الإلهية، بل يمكن أن تكون لها أهدافٌ أُخرىٰ معنوية وتربوية واجتماعية أهم من ذلك، وهذه الأهداف قد تتحقق بالاستشهاد وإيقاظ ضمائر الناس عن هذا الطريق.

والملاحظة الأهم هي أنه لتحقيق هذه الأهداف أيضاً، فإنّه تتمّ دعوة المجاهدين إلى ميادين الجهاد ضد الحكومة الطاغوتية بدافع تكوين الحكومة الإسلامية،

والدفاع عن أموال وأعراض ونفوس المسلمين ليحاموا عن دينهم وشرفهم، وأيضاً ليستفيقوا بهذه الوسيلة من غفوتهم، ويثوروا بهذه الوسيلة ضد الحكومات الفاسدة والمحاربة للإسلام وإن أدّى ذلك إلى استشهادهم.

ونخلص بنتيجة، هي أنّ في النهضة الحسينية ونظائرها، بالنظر إلى مبدئها الإيماني، ثلاثة أبعاد مختلفة ظاهراً ومتلائمة حقيقة هي: ١ ـ الدفاع عن النفس. ٢ ـ الاطمئنان بالشهادة. ٣ ـ تعبئة الناس ضد الحكومة الطاغوتية لتشكيل الحكومة الإسلامية.

وهذه الأبعاد الثلاثة لا تتضارب فيما بينها، بل كل واحدٍ منها يتلائم مع الآخر، فلا يصحّ أن يقال: إنّ الوثوق بالشهادة دليلٌ على عدم صحة الحديث عن تكوين الحكومة العادلة أو الدفاع عن النفس، ومن جهة أُخرى فلا يصحّ أيضاً أن يقال: إنّ الحديث عن تكوين الحكومة أو الدفاع عن النفس دليل على عدم الوثوق بالشهادة.

والشاهدعلى هذا الأمرفي نهضةالإمام الحسين عليه السلام، هو أننا نرى أنّ الحسين عليه السلام نفسه كان يدفع الناس للجهاد ضد يزيد، ولتكوين الحكومة الإسلامية، وفي الوقت نفسه كان يخبر عن استشهاده وهو في طريقه إلى الكوفة، وفي ذات الوقت أيضاً نراه يدافع عن نفسه وعن أصحابه وأهل بيته، كما رأينا أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان يبعث في الناس روح الجهاد ضد حكومة معاوية، في حين أنه أخبرهم عن استشهاده قبل موت معاوية، وعن تسلط معاوية عليهم.

وبعبارة أُخرى: إنّ عليّاً عليه السلام وإن كان مجداً لتثبيت الحكومة لم يكن واثقاً بتثبيتها بل كان واثقاً بشهادته كما صرّح بها، وكذلك الإمام الحسين عليه السلام فمع أنّه كان مستعداً للتضحية في سبيل تكوين الحكومة، لم يكن واثقاً بتكوينها، بل كان واثقاً بشهادته كما صرّح أيضاً بذلك.

وكما أنّ الموافقين، بل حتى المخالفين، لم يعترضوا على الإمام عليّ عليه السلام بأنّك مع تصريحك بتسلط معاوية وشهادتك قبله، فكيف تدفع الناس إلى قتله والتصدي لحكومته؟ فكذلك لم يعترضوا أيضاً على الإمام الحسين بأنّك مع تصريحك

بشهادتك في سفرك هذا إلى الكوفة كيف تحرّك الناس ضد يزيد وحكومته؟ وفي الواقع أنّ الموافقين والمخالفين كانوا يعلمون أنّه بمجرّد حصول الوثوق بالقتل والشهادة لا تسقط المسؤولية الإلهية، ولا يتقاطع الوثوق به مع الوظيفة الإنسانية في تحريض الناس على الثورة لتكوين الحكومة العادلة، ولقمع الحكومات الجائرة.

والنتيجة أنّ ما يقدم عليه رجال الحق إعلامياً وسياسياً وعسكرياً، وما يتخذونه من احتياطات لازمة، لم يكن دليلاً على وثوقهم بالنصر الظاهري، بل دليلاً على أنهم جادّون في العمل بواجبهم المهم، في مكافحة الحكومات المعادية للإسلام والحق، وفي إثارة الناس لمواجهتها حتى الموت.

في هذه المقولة وكذلك في المقولة الثانية حول الجهاد، رأينا أنّ الشواهد المختلفة وكذلك كلمات الإمام الحسين عليه السلام تدلّ على أنّ الإمام كان مطّلعاً على استشهاده، ومضافاً إلى ذلك، فإنّ الروايات الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً شاهدة على ذلك، وهي مذكورة في المصادر السنية والشيعية المعتبرة، وتحكي عن أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله اطّلع عند ولادة الحسين عليه السلام على نهايته الدامية في كربلاء عن طريق الوحي وبكىٰ كثيراً وأخبر الآخرين بذلك، وكذلك لمّا ورد أميرالمؤمنين عليه السلام على مقربة من الكوفة أخبرأصحابه باستشهاد ولدهالحسين عليه السلام عندها وبكىٰ كثيراً[1]، ورغم أنّ استعراض مثل هذه الروايات مفيدٌ، ولكن لمّا كانت بحوث هذا الكتاب تدور حول التحقيق في ظروف الإمام الحسين عليه السلام ومدلولات كلماته وخطبه، فلذلك نتجاوز هذه الروايات ونحيلها إلى الكتب المعنية بهذا الأمر من قبيل المجلد الثاني من أعيان الشيعة الذي ينقل من المصادر المهمة للشيعة والسنّة، وهنا نشير إلى موضوعٍ واحدٍ من المواضيع المؤثّرة في تقليل احتمال انتصار نهضة الإمام الحسين عليه السلام عسكرياً رغم تأثيرها المعنوي، ونختم به البحث حول النظرية الأُولى.

---

١. من تلك المصادر الكثيرة تاريخ ابن عساكر، باب (إخبار النبي صلى الله عليه وآله عن شهادة الحسين عليه السلام في كربلاء) وقد نقله من طرق متواترة بل كثيرة.

لا يرون كل نصرٍ نصراً

الموضوع الذي له دورٌ كبير في نهضة الإمام الحسين عليه السلام وسائر النهضات الإلهية المماثلة، هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره لم يكونوا يرون أنّ كـل انـتصار هـو انتصار حقيقي، بل إنّ الانتصار الحقيقي عندهم هو الذي يتأتىٰ من طرقٍ مشروعة وشريفة، ولهذا لو فرضنا أن الإمام كـان يـتمتّع بـإمكاناتٍ عـملية واسـعة، فـهل سيمكنه عليه السلام استخدام هذه الإمكانات كيف شاء؟ كلّا؛ لأن هناك مانعاً كبيراً سيمنعه من ذلك، وهذا المانع هو الالتزام الدينيّ والوازع الوجداني والإنساني، وعليه سنجد الإمام مضطرّاً إلى الاستخدام المحدود لهذه الإمكانات، وبالتالي تكون احتمالات انتصاره قليلة وضئيلة.

إحدى الشواهدعلى هذا الموضوع أنّ (مسلم بن عقيل) رسول الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة امتنع عن اغتيال عبيدالله بن زياد، مع أنه كان بـإمكانه قـتله ثـم الاستيلاء على الكوفة وتسخيرها، ولكنه مع ذلك ترك هذه الفرصة وقـال: «قـال رسول الله: **إنّ الإيمان قيد الفتك**»[١].

وهذا مثلٌ حيّ من كثير من النظائر الموجودة في نهضة الإمام الحسين عليه السلام وسائر النهضات الدينية، وتدل على أنّ الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره، وكذلك كل المؤمنين الحقيقيين، ليسوا من أتباع مدرسة (ميكافيلي) حتى يطلبوا النصر مـن أيّ طـريقٍ وبأيّ وسيلة، بل إنّهم ملتزمون بالمبادىء الإنسانية والإلهية، ولذا لا يرون الغـلبة بالوسائل الظالمة أو غير الشريفة انتصاراً، بل يرونه انكساراً وهـواناً، كـما يـقول الإمام عليّ عليه السلام: «**الغالب بالشر مغلوب**»[٢]، أما الحكومات الجائرة واليزيدية وأعوانها تستخدم كل الطرق والوسائل للوصول إلى النصر، بل ربما يكون الألذ عندهم أن يطلبوا النصر بالطرق والوسائل غير المشروعة، كوسائل التطميع والرشوة والتهديد

(١) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٧١؛ الكامل في التاريخ ج ٤، ص ٢٧.

(٢) شرح النهج، ج ١٩، ص ٢٣٩.

والتعذيب وقطع الطريق والماء وغيرها، كما رأينا كيف أُحيط بـ (مسلم وهانيء) وتمّ أسرهما بواسطة الجواسيس كمعقل وبأساليب شيطانية وشريرة على يد المرتزقة كعمرو بن حريث[١]، وأكثر من هذا فإن أُولئك المرتزقة تصرّفوا بوحشية، إطاعة لأوامر يزيد السّفاك كأمره بـ «**خذ على التهمة وأحبس على الظّنة**»[٢]، وهكذا تم القبض على كثير من المسلمين بأقل تهمة، وتمّ نفيهم أو سجنهم والتنكيل بهم أو قتلهم.

هذه الحوادث ونظائرها مما كانت تعترض طريق النهضة الحسينية، وهي نفسها كانت موجودة في مواجهة الإمام عليّ عليه السلام لمعاويه، ومجمل القول: إنّ الأساليب الدينية والإنسانية من جهة، والأساليب الشيطانية وغير الإنسانية من جهة أُخرى، تؤدّي أحياناً أو غالباً إلى التراجع الظاهري لأصحاب الحق والحقيقة، والتقدم الظاهري لأصحاب الباطل والضلالة، ولذلك طلب بعض أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام أن يتّبع سياسة ماكرة مثل سياسة معاوية، لكي يتغلب عليه ميدانياً، ولكنّ الإمام عليّاً عليه السلام قال: «**والله ما معاوية بأدهىٰ منّي ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت أدهىٰ الناس**»[٣].

الإمام عليّ عليه السلام، الذي كان قدوةً وأُسوةً للحسين عليه السلام وكل الحسينيين،لم يستخدم الطرق الشيطانية والظالمة ولم يظلم الناس للوصول إلى السلطة فحسب، بل لم يعتد على الحيوانات أيضاً، وكان عليه السلام يصرّح بهذا ويقول في عبارة عجيبة:«**والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت**»[٤].

ولقد رأينا أنّ هذا البعد الإنساني النبيل لدى الإمام هيّأ الفرص في صفين لفرار عمرو بن العاص من القتل، أو لتمكّن جيش معاوية من الماء، حيث إنّه عليه السلام أعرض

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٦٠؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٥٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٨٦.

(٣) شرح النهج، ج ١٠، ص٢١١.

(٤) شرح النهج، ج ١١، ص٢٤٥.

عن قتل عمرو بن العاص[١] ـ وهو الساعد الايمن لمعاوية ـ لمجرد أنه كشف عن عورته، وكذلك فتح الماء أمام جيش معاوية وأباحه له ولهم، رغم منعهم أولاً جيش الإمام علي عليه السلام من الماء، وقال عليه السلام في جواب الذين طلبوا منه ان يمنع الماء عنهم كما منعوهم منه فقال: «لا، خلّوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون؛ سنعرض عليهم كتاب الله، وندعوهم إلى الهدى، فان أجابوا؛ وإلّا ففي حدّ السيف ما يغني إن شاء الله»[٢]، وقد استطاع بهذا الأُسلوب الفذّ أن يطبع وصمة العار على جبين معاوية وعمرو بن العاص وأتباعهم مدى التاريخ،ويحصل بسببه الانتصارالحقيقي أبداً للإمام علي عليه السلام، وإن لم يحصل له الانتصار الظاهري الحقير والمؤقّت.

الإمام عليّ عليه السلام كما يقول أنصاره ـ بل وحتى مناوؤه أيضاً ـ كان أيضاً رجلاً سياسياً بارعاً، ولكن غاية الأمر أنّه سياسي ملتزم، وبذلك اعترف عمرو بن العاص الداهية بأنّ الإمام عليّاً عليه السلام رجل سياسيّ من كل جهة، ولهذا لا يمكن خداعه، حيث قال لمعاوية: «أين أنت يا معاوية من خدعة عليّ»[٣]. وكذلك معاوية كان يقول: «لا يمكن أخذه على حين غرّة»[٤].

وبالرغم من أنّ معاوية وعمرو بن العاص استطاعا وقف القتال بخدعة رفع المصاحف، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ هذه الخدعة انطلت على الإمام عليّ عليه السلام، بل إنّ الإمام كان يحذّر أتباعه من هذه الخدعة الشيطانية الخطيرة، ولكن جماعة من جيش الإمام انطلت عليهم هذه الخدعة، وانخدعوا بشعارات أهل الشام الدينية وبرُشا معاوية الظاهرة والخفية[٥]، فانحرفوا عن جادّة الصواب ووقع الخلاف بينهم، وقد ذكرنا فيما تقدّم أنّ جذور هذا الانحراف والاستعداد للزيغ والميل إلى الدنيا امتدّ إلى جهاز الخلافة في زمن أبي‌بكر وعمر وتأصّل في زمن عثمان.

---

(١) الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٢٧.

(٢) شرح النهج، ج ٣، ص ٣١٩ و ٣٣١ عن وقعة صفين، ص ١٦١.

(٣) الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٣٧؛ شرح النهج، ج ١٥، ص ١٢٢.

(٤) الفتوح لابن اعثم، ج ٣، ص ٥٧.

(٥) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٤٤.

وقد ناقشنا في الفصل الأوّل والثاني الظروف والعوامل الأساسية التي أدّت إلى عدم تكميل الانتصار العسكري لسياسة الإمام عليّ عليه السلام الدينية، وأدّت أيضاً إلى عدم تحقيق الانتصار العسكري للنهضة الحسينية المقدسة، ذلك أنّ الخلفاء الثلاثة الأول ـ ومنهم عثمان خاصة ـ كانوا يعتمدون على معاوية وأمثاله، وقد وضعوا جميع الصلاحيات والإمكانات تحت تصرفهم، فمن الطبيعي أن يقوم معاوية وأضرابه باستغلال هذه الفرصة الذهبية، ويسوقوا الناس بشتّى الوسائل إلى الدنيا ويجذبوهم إلى حكومتهم، ويضعفوا فيهم الروح الدينية،ويبعدوهم عن الإمام عليّ عليه السلام وعن طريق الإسلام الحقيقي، إلى حد أنّهم أفسدوا عليهم دينهم، وجعلوهم لا يتلاءمون ولا ينسجمون مع حكومة الإمام عليّ أو الحسين عليه السلام أو غيرهما من رجال الحق، من هنا يجب القول: بأنّ الإمام عليّاً أو الإمام الحسين عليه السلام أو سائر رجال الله، حتى لو حقّقوا في ذلك الوقت انتصارات ظاهرية على الأعداء، فلا يبعد أن يقوم الكثير من الناس المضلّلين بعرقلة جهودهم، وذلك بكثرة إشكالاتهم وتوقعاتهم منهم وبالنتيجة التآمر عليهم وقتلهم.

ومن أجل معرفة الظروف القاسية التي مرّ بها الإمام عليّ عليه السلام في خلافته وعمق سياسته، خاصة في تلك الظروف الحسّاسة والصعبة، ينبغي مطالعة بعض كلمات المحققين المنصفين من قبيل (ابن أبي الحديد)[١]، وقد أُشير إلى بعضها ضمن الفصلين السابقين.

الخطأ الكبير

وعلى كل حال، فإنّ الأمر الأساس هو أنّ أُسلوب رجال الحق أمثال الإمام عليّ والحسين عليه السلام يباين أُسلوب معاوية ويزيد وأهل الدنيا بشكل عامّ، فإنّ رجال الله لا يريدون قيادة الناس بالخداع والإكراه والإجبار، بل بالبرهان وبيان الحقيقة واتّباع الحق حتى لو كان يسفر عن استشهادهم وأسرهم، فالمهم لديهم كسب قلوب الناس

(١) شرح النهج، ج٧، ص٧٣.

وضمائرهم، وغرس القيم الإنسانية والإلهية في أرواحهم، وطبعاً فإنّ رجال الله لم يتركوا الدنيا ولم يعيشوا بمعزلٍ عن الناس، بل كانوا يسعون أيضاً إلى تحقيق النصر في الدنيا وتسلّم زمام الأُمور، وإقامة الحكومة من أجل ضمان حقوقهم الدنيوية أو حقوق الآخرين، حتّى لو أدّى ذلك إلى القتل أو القتال، ولكن المهم هنا هو أنّهم لم يكونوا يرون الدنيا والحياة فيها هي الهدف الأساس، بل هي ممرّ إلى الآخرة ومعبدٌ ومسجد لله، فهم يرون حقيقة الدنيا كما يراها القرآن الكريم، ويذكرها بعبارات عجيبة يتعذّر على أهل الدنيا قبولها كقوله تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعبٌ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[١].

والخطأالكبيرالذي وقع فيه بعضالمستشرقينوكذلك بعض المسلمين السطحيين، هو أنهم لم يمعنوا ـ وربّما لم ينظروا ـ في أعماق الرؤية القرآنية والإنسانية للإمام عليّ والحسين‌عليهما‌السلام وأتباعهما، ولذلك نراهم يعترضون على هؤلاء ويعتبرونهم قد خسروا المعركة. ولو أنّ هؤلاء المغفّلين خرجوا من مستنقع التفكير المادي الضيق إلى أفق التفكير المعنوي الرحب، لرأوا: أنّ الخاسرين والمنحرفين الحقيقيين هم الذين سحقوا وجدان الإنسانية والقيم الأخلاقية السامية، من أجل الأهواء والملذات الرخيصة، وأوقعوا أنفسهم والآخرين في هاوية الانحطاط والرذيلة، وأنّ النصر الحقيقي هو لرجال الحق الذين رجّحوا الآخرة على الدنيا، والفضيلة على الشهوة، والتقوى على الهوى، ولذا ضحّوا بأنفسهم وبجميع ما لديهم في سبيل الحق والعدالة ضد الضالين والمضلين، ومن أجل هداية الناس المنحرفين أو الغافلين، حتى نالوا الشهادة واستقبلوها من صميم القلب بشوق كبير. وإن لم يكن الأمر كذلك، فلماذا نسمع نغماتهم الروحانية باشتياقهم للشهادة على طريق الجهاد في الله وهداية الناس كما ورد عن عليّ‌عليه‌السلام: «اللّهم ارزقنا الشهادة»[٢]؟ ولماذا نسمع الترنّم الملكوتي للإمام الحسين‌عليه‌السلام: «وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف[٣]»؟ ولماذا نجد

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.
(٢) شرح النهج، ج٩، ص٣٠١.
(٣) مر ذكره قبل صفحات.

أصحاب الحسين عليه السلام يتمازحون عند استقبالهم للموت والشهادة ويُلقون بأنفسم على السيوف والرماح؟[١]

في هذه الصفحات بحثنا الرأي الاول، وخلصنا منه إلى أنّه نظراً لسلطة حكومة الأمويين المطلقة على المجتمعات الإسلامية وإمكاناتهم الواسعة من جهةٍ، ونظراً إلى أنّ الإمكانات العسكرية للحسين وجنده قليلة ومحدودة جدّاً من جهةٍ أُخرىٰ، لم يكن الحسين عليه السلام واثقاً بكسب المعركة بالنصرالعسكري، وكما رأينا أنّ الحسين عليه السلام كان يقرّ بهذه الحقيقة، وكان يخبر كراراً عن مقتله، والآن نبحث في الرأي الثاني والثالث:

الرأي الثاني: هل أنّ الحسين عليه السلام كان واثقاً بالنصر العسكري؟

الرأي الثاني وهو الإقناعي، الذي ذهب إليه السيد المرتضىٰ علم الهدى وآخرون، من أنّ الحسين عليه السلام كان في البداية واثقاً بالنصر العسكري، ولذا قام بالنهضة. ومن أجل رعاية الاختصار نختار ثلاثة مقاطع من كلامه؛ لأنّ هذه المقاطع الثلاثة أولاً: توصل مراده هذا والذي أُشير إليه في بداية هذا الفصل بشكلٍ أوضح، وثانياً: أنّ كل واحد من هذه المقاطع الثلاثة يشتمل على إشكالٍ خاصٍّ يجب بحثه أيضاً بصورة منفصلة، الإشكال الخاص بالمقطع الأول هو أنّ السيد (ره) يقول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام بعكس الناصحين لم يكن يعلم بالحوادث المشؤومة الآتية ولم يتوقّعها، والإشكال الخاص بالمقطع الثّاني من كلامه هو أنّه يقول: إنّه عليه السلام لمّا اطّلع على قتل مسلم وأحس بالخطر صمم على الرجوع إلى المدينة، ولكن انصرف عن تصميمه أثر إصرار أبناء مسلم وإخوته على الذهاب إلى الكوفة للانتقام من قاتله، والإشكال الخاص بالمقطع الثالث هو قوله: إنّه عليه السلام لما وصل إلى كربلاء وواجه خطر الموت اقترح البيعة ليزيد والتسليم له، ولكن العدو رفض ذلك، والمقاطع الثلاثة من كلام السيد هي على ما يلي:

١ ـ «... فلمّا مضى معاوية عاودوا ـ أهل الكوفة ـ المكاتبة وبذلوا الطاعة

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٢١ و ٣٣٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٣.

وكرروا الطلب والرغبة، ورأى عليه السلام من قوتهم على من كان يليهم في الحال من قبل يزيد اللعين وتشحّنهم عليه وضعفه عنهم ما قوى في ظنه أنّ المسير هو الواجب، وتعيّن عليه ما فعله من الاجتهاد والتسبب، ولم يكن في حسابه عليه السلام بخلاف جميع الناصحين حتى مثل فرزدق وابن مطيع وابن هشام و... أنّ القوم يغدر بعضهم ويضعف أهل الحق عن نصرته ويتّفق ما اتفق من الأُمور الغريبة».

٢ ـ «وانّما أردنا بذكر هذه الجملة أنّ أسباب الظفر بالأعداء كانت لايحة متوجهة وأنّ الاتفاق عكس الأمر وقلّبه حتى تم فيه ما تم، وقد همّ سيدنا أبو عبدالله عليه السلام لمّا عرف بقتل مسلم بن عقيل وأُشير عليه بالعود، فوثب إليه عليه السلام بنو عقيل وقالوا: والله لا ننصرف حتى ندرك ثارنا أو نذوق ما ذاق أبونا فقال عليه السلام: لا خير في العيش بعد هؤلاء، ثمّ لحقه الحرّ بن يزيد ومن معه من الرجال الذين أنفذهم ابن زياد اللعين ومنعه من الانصراف ...»

٣ ـ «فامّا الجمع بين فعله وفعل أخيه الحسن عليه السلام فواضح صحيح؛ لأنّ أخاه عليه السلام سلّم كفّاً للفتنة وخوفاً على نفسه وأهله وشيعته وإحساساً بالغدر من أصحابه، وهذا لِما قوي في ظنه عليه السلام النصرة ممّن كاتبه وتوثّق له، ورأى من أسباب قوة نصّار الحق وضعف نصّار الباطل ما وجب عليه الطلب والخروج، فلمّا انعكس ذلك وظهرت أمارات الغدر فيه وسوء الاتفاق رام الرجوع والمكافّة والتسليم، كما فعل أخوه عليه السلام، فمُنع ذلك وحيل بينه وبينه، فالحالتان متفقتان إلّا أنّ التسليم والمكافّة عند ظهور أسباب الخوف لم يُقبلا منه ولم يُجب إلى الموادعة وطُلب نفسه، فمَنع عليه السلام منها بجهده حتى مضى كريماً إلى جنة الله ورضوانه»[١].

وكما رأينا أنّ هذه المقاطع الثلاثة تشترك في موضوعين مهمين:

الموضوع الأول: هو أنّ الحسين عليه السلام كان واثقاً من النصر العسكري.

الموضوع الثاني: أنّ هذا الوثوق هو علّة قيام الإمام الحسين عليه السلام ونهضته.

---

(١) تنزيه الأنبياء، ص ٢٣١ و ٢٣٠.

في البداية نأخذ هذين الموضوعين قيد البحث والدراسة، ثمّ نتطرّق إلى الإشكالات الواردة على كل واحدٍ من هذه المقاطع الثلاثة.

ولا بدّ من الإشارة قبل الدخول في البحث إلى أن هدف السيد علم الهدىٰ كما يذكر ذلك في بداية كتابه، هو الإجابة عن الإشكالات الواردة على نهضة الإمام الحسين عليه السلام طبقاً للمعايير الكلية والظاهرية، حتى تكون مقنعة للفرق الإسلامية الأُخرى غير الشيعية، الذين لا يرون الحسين بن عليّ إماماً معصوماً، ويعترضون ببعض الإشكالات على ثورته الدامية، وقد كان علم الهدى وأمثاله يعيشون في مناخ وظروف كان الفكر السني حاكماً والفكر الشيعي محكوماً أو منزوياً، ولهذا نجدهم مضطرّين في طرح أفكارهم الاجتماعية والسياسية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام لا بعنوان أنه إمام للشيعة، بل على الأقل أنّ الحسين بن عليّ عليه السلام شخصية إسلامية مرموقة، وقد رأى الظروف مساعدة على الثورة، ولهذا السبب أحسّ بواجبه في ذلك، والشاهد على ما نقول هو بعض كلمات السيد علم الهدى في بداية كتابه (تنزيه الأنبياء) وهي:

«ولقد سألت أحسن الله توفيقك إملاء كتابٍ في تنزيه الأنبياء والأئمة من الذنوب والقبائح كلها، ما سُمّي منها كبيراً أو صغيراً، والردّ على من خالف ذلك على اختلافهم وظروف مذاهبهم».

وعلاوةً على ذلك، فإنّ نظر السيد علم الهدى وأمثاله لا يعتبر وحياً منزلاً حتى لا يقبل النقاش والبحث، وقد اعترف نفسه وكذلك سائر المحققين المنصفين أنّهم قد يخطئوون في تحليلاتهم وتحقيقاتهم، وكذلك يعترفون بأنّ اجتهاد المجتهدين حتى في المسائل الفقهية ليس حجّة على غيرهم من المجتهدين، فكيف الأمر بالمسائل التاريخية والاجتماعية والسياسية وغيرها، فنظرياتهم في هذه المجالات غير ملزمة قطعاً حتى لغير المجتهدين فضلاً عنهم، فيمكن لأيّ شخص مطّلع أن يتعمق فيها ويستدل بالبراهين والأدلة التي تتوفّر لديه، فتنكشف له نتائج أكثر صحة وإتقاناً، وقد تخالف ما توصّل إليه سلفه.

طريقان فقط

وعلى كل حال، بالنسبة إلى الموضوع الأول المستخلص من وجهة نظر السيد علم الهدى، حيث يرى أن الحسين عليه السلام كان واثقاً بالنصر العسكري تقول: من الواضح أنّ لكل ادّعاء وفرضية لابد من دليل لكي تكون مقبولة، وخاصة إذا كان الادّعاء من قبيل الأمور النفسية والباطنية من قبيل (الاطمئنان والوثوق)، فلابد أن نرى ما هو الدليل لإثبات هذا الادّعاء؟

يمكن تصوّر الدليل لإثباته بطريقين فقط:

الطريق الأول: هو أن نراجع كلمات الإمام الحسين عليه السلام وتصريحاته التي تثبت هذا الادّعاء.

الطريق الثاني: هو أن نبحث في ظروف وأوضاع ذلك الزمن، ونستكشف الشواهد المحكمة على هذا الادّعاء.

أمّا الطريق الأوّل: فهو موصد كليّاً؛ لأنّه كما أشرنا سابقاً، لا توجد بين كلمات الإمام الحسين عليه السلام ولا حتى جملة واحدة تصرّح بالنصر الظاهري، بل على العكس هناك كلمات وتصريحات عديدة للإمام الحسين عليه السلام منذ بداية حركته تدور حول استشهاده ومقتله من قبيل: «ولو كنت في جُحر هامّة... وايم الله ليقتلونني..»[1]، وطبيعي أنّ الإمام الحسين عليه السلام لو كان مطمئنّاً بالنصر الظاهري لصرّح بذلك حتى يثير في نفوس الناس عزيمة أكبر، وأساساً فإن قيادة الثورة تقتضي بيان الوثوق بالنصر؛ لأنّه يسهّل دعوة الناس إليها ويزيد في اندفاعهم للحرب، والملفت للنظر أنّ السيد علم الهدىٰ أيضاً لم يذكر حتّى تصريحاً واحداً للإمام الحسين عليه السلام يدل على ادّعائه هذا.

وأمّا الطريق الثاني: فهو أيضاً لا يثبت مدّعىٰ السيد علم الهدى، وهو نفسه أيضاً لم

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٨؛ مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٦.

يأت بدليل وشاهد قويٍّ على ذلك، بل أتى ببعض القرائن الضعيفة التي قد يستطيع بها إقناع المخالفين ولكنها تفتقد البعد التحقيقي والعلمي، فمثلاً الشاهد الأول الذي أورده السيّد هو: لو أنّ (مسلم بن عقيل) كان قد أقدم على قتل عبيدالله بن زياد حينما تمكن من قتله في منزل (شريك) أو عندما استطاع قتله حين محاصرته لدار الإمارة، لذهبت جميع خطط الأعداء أدراج الرياح، وبالتالي لكان الإمام الحسينعليه السلام يصل الكوفة ويكوّن الحكومة.

ولكن في الجواب نقول: إنّه على فرض تحقق هذا الاحتمال وتهيئة الأرضية المساعدة لانتصار الحسينعليه السلام، لكن من الواضح أنّ هذه الظواهر الاحتمالية لو تحققت فإنها تعتبر حوادث طارئة حدثت بعد شروع الإمام الحسينعليه السلام في ثورته، وطبيعي أنّ هذه الأحداث غير المتوقعة لا يمكن أن تُثبت أنّ الإمام الحسينعليه السلام كان في بداية ثورته واثقاً بالنصر العسكري، مضافاً إلى أنّنا لو فرضنا وجود هذه الأرضية المساعدة، التي يدّعيها علم الهدى من خلال هذه الحوادث غير المتوقعة، فإنّ هناك أيضاً حوادث في الجهة الأُخرى المخلّة بنجاح الثورة، من قبيل أنّ جميع الذين بايعوا مسلم بن عقيل نكثوا بيعتهم، وتركوه وحيداً في مدينة مضطربة كالكوفة، حتى اضطر أخيراً إلى أن يلتجيء إلى بيت امرأة، وهناك عثر عليه ابنها الخائن ووشىٰ به إلى ابن زياد، واستطاعوا أخيراً أسره وقتله بذلك الشكل الفجيع أمام أنظار الناس[١].

ولو قيل: إنّ هذه الحوادث غير المساعدة لم تكن متوقعة منذ البداية، لقلنا: كذلك الحال في تلك الحوادث المساعدة بل الاحتمالية، فإنّها أيضاً على فرض وقوعها لم تكن متوقعة منذ البداية.

الشاهد الثاني الذي أورده السيد على مدّعاه هو أنّ مسلم بن عقيل استطاع كسب ثلاثين ألف نفر إلى بيعته في مدة إقامته في الكوفة، وهذا القدر من الأنصار

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٦٠ و ٢٧٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٥.

يعتبر قوة مهمة يحسب لها حساب في تحقيق الانتصار العسكري.

وفي الجواب نقول: إنّ تشكيل هذه القوة حتى على فرض أنّها كانت موضع ثقة، لا يصلح دليلاً على اطمئنان الحسين عليه السلام إلى النصر الظاهري، خاصّةً وأنّ مئة ألف نفر من أهل الكوفة هؤلاء بايعوا الإمام الحسن عليه السلام قبل ذلك[1]، مضافاً إلى أن البصرة والحجاز واليمن و إيران ومناطق أُخر كانت تحت تصرّفه واختياره،ومع ذلك لم يكن الإمام الحسن عليه السلام واثقاً بالنصر العسكري، ولذلك اضطر إلى الصلح مع حكومة معاوية.

الوضع الأكثر خطورة

لقد رأينا أنّ الوضع تدهور طيلة العشرين عاماً، منذ بيعة أهل الكوفة للإمام الحسن عليه السلام حتى دعوتهم للإمام الحسين عليه السلام، حيث ترسّخت في هذه المدة الطويلة أركان الحكومة الأموية أكثر بكثيرٍ خاصة مع نفوذ الجواسيس في كل مكان وتسلطهم على كل شيءٍ تقريباً، ومن جهة أُخرىٰ اعتاد المسلمون على ظاهرة السب واللعن للإمام عليّ عليه السلام وأهل بيته، فكان من نتائج هذه التربية الفاسدة أنّ الكثير من المسلمين حتى في الكوفة نفسها، التي كانت مركزاً للشيعة وأتباع أهل البيت عليهم السلام، صاروا يفضّلون أن يُتّهموا بالكفر ولا يقال لهم إنّهم شيعة عليٍّ.

والخلاصة فإنّ صفحات تاريخ تلك الفترة تعكس بوضوحٍ أنّ ظروف نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت أكثر تدهوراً وخطراً من ظروف صلح الإمام الحسن عليه السلام، ولذلك لا يصحّ أن يقال: إنّ بيعة ثلاثين ألف نفر موجبة للاطمئنان بالنصر؛ لأنّ العناصر والعوامل التي توافرت للإمام الحسن عليه السلام لتحقيق النصر كانت أكثر بكثير مما تهيأت للإمام الحسين عليه السلام، ومع ذلك لم يثق بالنصر أصلاً، بل العكس ولهذا اضطر إلى الصلح مع معاوية، وهذه العوامل بنحو الإجمال عبارة عن:

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٤٤؛ شرح النهج، ج١٦، ص٤٤.

أولاً: إنّ جيش الإمام الحسنعليه السلام كان أكثر بكثير من الثلاثين ألفاً الذين بايعوا الحسينعليه السلام، فقد كانوا مئة ألف، وهم الذين كانوا في عسكر الإمام عليّعليه السلام.

ثانياً: لقد كانت الحكومة الأموية في بداية عهد الإمام الحسنعليه السلام لم تترسّخ أركانها بعد، ولكن الإمام الحسينعليه السلام واجه الحكومة الأموية وقد استحكمت أركانها على كافّة نقاط العالم الإسلامي.

ثالثاً: إنّ استقامة الذين بايعوا الإمام الحسنعليه السلام كانت أكثر وأفضل ممن بايعوا سفير الحسينعليه السلام، والدليل على ذلك أنّ جماعة ممن بايعوا الإمام الحسنعليه السلام اعترضوا عليه بعد صلحه مع معاوية وقالوا: تركت الزعامة لمعاوية وبين يديك مئة ألف مقاتل؟[1] ولكن في زمن الحسينعليه السلام نجد أنّ عدم التزام كثير منهم بعهدهم، بل خيانتهم وصلت إلى حد أنهم نقضوا بيعتهم بمجرّد أن سمعوا بعض الوعد والوعيد من حكومة يزيد، بل أقدموا بأنفسهم على قتله عطشاناً أمام أعين نسائه وحرمه بكلّ وقاحة وبمنتهى البشاعة.

ومع الالتفات إلى أنّ السيد علم الهدىٰ يعترف بأنّ العوامل المساعدة المذكورة لم توجب اطمئناناً في نفس الإمام الحسنعليه السلام بالنصر، فمن الطبيعي أنّ هذه العوامل أيضاً ـ بل بشكل أقل جدّاً ـ لم تكن تبعث الثقة في نفس الحسينعليه السلام بالنصر، وخاصة مع زيادة إمكانات الطرف المقابل أضعافاً مضاعفة، بل كما رأينا في كلماتهعليه السلام، التى لا يلزم تكرارها، أنّه أخبر بالأخطار التي كانت في طريقه وأخبر مراراً عن شهادته وشهادة أصحابه.

هل كان الوثوق بالنصر العسكري علة الثورة؟

أمّا بالنسبة إلى الموضوع الثاني من كلامه الذي يقول فيه: إنّ الوثوق بالنصر الظاهري كان علة القيام بالثورة، فنقول: على فرض أنّ الحسينعليه السلام كان واثقاً بالنصر الظاهري، فذلك لا يعني أنّ هذا الاطمئنان هو علة القيام والثورة، إلّا أن يثبت أنّه لو

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٤٤؛ شرح النهج، ج ١٦، ص ٤٤.

لم تكن لديه هذه الثقة لما ثار ولما قام بهذه النهضة، بل لسكت وبايع.

الأشخاص الذين يدّعون أنّ الاطمئنان بالنصر الظاهري كان هو السبب لنهضة الإمام الحسين عليه السلام يجب أن ينظروا إلى الطرف الآخر من القضية أيضاً، وهو أنّه لولم يكن للإمام الحسين عليه السلام هذا الاطمئنان فماذا كان يصنع؟ فلو قالوا: إنّه كان يقوم بالثورة ويجاهد الحكومة اليزيدية حتى مع عدم هذه الثقة، فيكونوا بهذا القول قد أبطلوا مدّعاهم بأنفسهم، وإن قالوا: إنّه يسكت ويبايع حكومة يزيد، فهذا القول ممّا لا يمكن قبوله إطلاقاً؛ لأنّ خصوصيات الإمام الحسين عليه السلام وتصريحاته الكثيرة تأبىٰ قبول ذلك.

وقد رأينا فيما سبق أنّ الإمام الحسين عليه السلام حتى في زمن معاوية ـ حيث لم تكن دعوة أهل الكوفة ـ رفض ولاية العهد ليزيد بشكلٍ قاطع بحيث أعجز ذلك معاوية، وظهر عجزه في كتابه لأمير المدينة الذي يقول فيه: «... **وهو ليث عرين فلا آمن...**»[1].

مضافاً إلى هذا، فإنّ الحسين عليه السلام بدوره يصرّح في كثير من المواقف بأنه لن يقبل بيعة يزيد تحت مختلف الظروف، فعندما كان في المدينة وقبل أن تصل إليه كتب أهل الكوفة قال لابن الزبير ومحمد بن الحنفيّة: «**أمّا أنا فلا أبايع أبداً ـ والله لولم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوىٰ لما بايعت يزيد أبداً**»[2].

والأهم من ذلك خطبته في كربلاء في تلك الظروف الخطيرة والأوضاع الرهيبة، وقد وردت في جميع المصادر التاريخية المعتبرة، حيث نقرأ فيها:

«**لمّا نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: قد نزل بي ما ترون من الأمر وأنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واشمأزّت ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيشٍ كالمرعى الوبيل، ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به وأنّ الباطل لا يتناهىٰ عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فأنّي لا أرى الموت إلّا سعادة ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً**»[3].

---

(١) الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ١٨٢ و ١٨٨؛ معالم المدرستين ج ٣، ص ٣٠٢.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٥؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢٢؛ تحف العقول، ص ٢٤٥؛ اللهوف، ص ٤٨.

هذا الموقف الثوري الرائع وفي تلك الظروف الخطيرة يوضّح جيّداً أنّ الإمام الحسينعليه السلام استقام في طريقه الجهادي حتى في تلك الظروف الحساسة وطبيعي أنّ هذه الاستقامة دليل على أنّ الإمام كان يرى أنّ جهاده وقيامه هذا واجب شرعياً تحت مختلف الظروف والشروط حتى لو أدّى ذلك إلى قتله وشهادته، أي إنّه (واجب مطلق وليس مشروطاً).

وقد أراد البعض تفسير هذه الخطبة الثورية على أنّ الإمام الحسينعليه السلام لمّا رأىٰ نفسه محاصراً بجيش الأعداء، وقد أُوصد أمامه النصر الظاهري، ولا سبيل له إلى النجاة، فلذا تكلّم بهذا الكلام ليحفظ بذلك عزة نفسه من جهة، ويشجّع أصحابه على الدفاع من جهةٍ أُخرى، يعني أنّ خطة الإمام كانت في البداية قائمة على أساس الاطمئنان بالنصر الظاهري، إلّا أنه غيّرها في اللحظات الأخيرة اضطراراً، فاستعدّ للدفاع والاستشهاد مع أصحابه في هذا السبيل، وفي معرض الإجابة عن هذا نقول: هناك أمران يجب معرفتهما:

الأوَل: من غير المعقول أنّ الشخص الذي يطلب النصر العسكري فقط يكون مستعدّاً للاستشهاد بهذه الصورة، بل إنّ مثل هذا الإنسان يترك لدى الإحساس بالخطر تصريحاته الثورية، ويسعى بأيّ طريق لإنقاذ نفسه وأهل بيته وأصحابه حتماً.

الثاني: إنّ هناك تصريحات وخطب أُخرى للإمام الحسينعليه السلام قبل محاصرة جيش عمر بن سعد أو الحرّ له، حيث يتّضح جيّداً منها أنه كان يشعر بالخطر من المواجهة مع الحكومة اليزيدية، ونقرأ نموذجاً ممّا ورد في هذا المجال:

«أمّا بعد فقد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وعبدالله بن يقطر وخذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الإنصراف فلينصرف ليس عليه منّا ذمام»[١].

ونرى هنا أنّ الحسينعليه السلام مع أنه اطّلع على خذلان أهل الكوفة له «خذلتنا شيعتنا» وقَبل أن يُحاصر من قِبَل جيش عمر بن سعد وقَبل أن يأتي الحرّ لمواجهته،

---

(١) الإرشاد، ج ٢، ص٧٥؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٤٣.

أي حينما كان طريق العودة مفتوحاً أمامه، فمع ذلك استمرّ في التوجه إلى الكوفة، رغم أنّ الكثير من أصحابه قد رجعوا بعد أن أجازهم الإمام، وبقي هو وأصحابه المخلصون يواصلون طريقهم.

الشيخ المفيد والطبري...

الشيخ المفيد وكذلك الطبري ـ اللذان يعتبران من كبار علماء الشيعة وأهل السنة ـ يؤيّدان ما قلنا في تحليل السبب الذي دعا الحسين عليه السلام إلى أن يسمح لجماعة ممّن كانوا معه بالانصراف، حيث ذهبا إلى أنّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما سمح لهم بذلك، لأنه كان يعلم أن الكثير ممّن جاء معه كان يتصور ويؤمّل الانتصار الظاهري على الأعداء، ولهذا أراد الحسين عليه السلام أن يفهمهم أنّ الهدف الأصلي من قيامه المقدس ليس هو الانتصار الظاهري، وفي الحقيقة أراد عليه السلام كما يقول المفيد والطبري تجربتهم وتصفيتهم، أي حتى يبقى معه قومٌ مستميتون[1].

وهناك شواهد على تحليل المفيد والطبري هذا، أحدها قول الإمام الحسين عليه السلام: **«فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف»**، ومفهوم عبارة الإمام الحسين عليه السلام هذه أنّ طريقنا مليء بالمخاطر، فلو أراد بعضكم الرجوع أو البقاء معنا فنحن لا نمنعه من ذلك، وبعبارةٍ أُخرى: أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يأمرهم بالرجوع، بل سمح لهم بالرجوع، لكي يبقى المخلصون من أتباعه الذين لزموا طريق التضحية بالرغم من وجود طريق النجاة، وبعبارة ثالثة: الإمام الحسين عليه السلام مع أنّه أحسّ بالخطر المحدق به لم يطلب من أصحابه العودة، كما أنّه هو أيضاً لم يتراجع، وإنّما أجاز لهم تركه وخيّرهم بالبقاء معه، ولذا بقي معه أصحابه المخلصون، الذين تهيّأت لهم وسائل الخلاص والنجاة ومع ذلك ساروا معه إلى الكوفة، مع أنّها أصبحت تشكّل خطراً على حياتهم، بل دخلوا معه في جهادٍ مستميت ضد حكومة اليزيديين، وراحوا يؤلبون المسلمين ضدها، وأخذوا في أُنشودة الشهادة في ظل أراجيزهم

---

(١) الارشاد، ج٢، ص٧٦؛ تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠١.

الحماسية، التي تحمل في طياتها مفاهيم واسعة ومعاني ثورية راقية.

والأمر الملفت للنظر، الذي يكشف القناع عن كثيرٍ من الامور، هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يخطّئهم في أعمالهم الثورية التي تحمل راية الشهادة، بل أيدهم وأثنىٰ عليهم، اذن فقل للمنكرين أن يستبينوا هذا الأمر ويفصحوا عن دليله.

والملفت للنظر هنا أيضاً أنّ الحسين عليه السلام حينما رأى التفاني الشديد في أصحابه، وتهافتهم على القتل، لم يُنكر ذلك، بل أيده.

وكيف كان، فقد اتضح ممّا قلنا في هذه الصفحات:

أوّلاً: إنّ الحسين عليه السلام لم يكن واثقاً بالنصر الظاهري.

وثانياً: على فرض أنه كان واثقاً به لا يمكن القول بأنّ هذا الوثوق هو العلة لثورته ونهضته.

وهنا يطرأ سؤال عن السبب في أن يتصور بعض الكتاب والمؤرّخين بأنّ علة قيام الإمام الحسين عليه السلام هي ثقته بالنصر، فما هي إذَن جذور هذا التصور الخاطىء؟

قد يكون الخطأ هذا نابعاً من أمرين:

١ ـ كتب ورسائل أهل الكوفة المتوالية، التي تدعو الإمام الحسين عليه السلام إلى التوجه إلى الكوفة.

٢ ـ إنّ الإمام الحسين عليه السلام توجه بعدها إلى الكوفة، فاستنتجوا أنّ هذه الكتب والرسائل هي التي حملت الإمام الحسين عليه السلام على النهوض والثورة، وكان ذلك طبعاً بسبب اطمئنانه إلى الوعود والمواثيق المذكورة فيها.

ولكن كما رأينا في الصفحات السابقة أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت قد بدأت قبل دعوة أهل الكوفة، فليست هي السبب في نهضته، بل إنّ نهضته هي السبب في دعوة أهل الكوفة له، ومضافاً إلى هذا فإنّه عليه السلام حتى بعد ما سمع خبر قتل مسلم ونقض عهد أهل الكوفة استمرّ في طريقه المحفوف بالأخطار، وكما رأينا قد أخبر عن شهادته مراراً في طول طريقه.

في الصفحات السابقة بحثنا عن أصل رأي السيد علم الهدىٰ حول علة قيام

الإمام الحسين عليه السلام، وهو كما أشرنا آنفاً رأيٌ جدليٌّ ذكره السيد في جواب إشكالات الفِرق المختلفة. وسنبحث في الصفحات التالية عن الملاحظات التي ترد على السيد في كل مقطع من المقاطع الثلاثة من مقالته:

هل الإمام لم يتوقّع الأخطار؟

١ ـ يقول السيد في المقطع الأول من كلامه: «**ولم يكن في حسابه أنّ القوم يغدر بعضهم ويضعف أهل الحق عن نصرته ويتفق ما اتفق من الأُمور الغريبة...**».

وفي بداية البحث عن نظرية السيد علم الهدى، رأينا أنه ونظائره من رجال الشيعة أرادوا حل مشكلات الأُمور السائدة في الأوساط السنية عن الثورة الحسينية، وعلى أساس من عقيدة المخالفين، الذين لا يرون الحسين بن عليّ عليه السلام إماماً للمسلمين، فكانت أجوبتهم عن هذه الأمور المشكلة دفاعية وإقناعية، وفي هذا الإطار ردوا على زعم التقصير أو مخالفة الشرع من الإمام الحسين عليه السلام، ولكن بالرغم من ذلك فإنّ علم الهدى نفسه كان يعتقد بأنّ علم وسياسة الإمام، وخاصة في مثل تلك الظروف الحساسة، لابد أن تكون أكثر من الآخرين حتى يكون لائقاً للإمامة وإلّا فلا يكون لائقاً لها، ولهذا نرى أنّ الجملة المتقدمة من كلامه إنّما كانت جرياً مع اعتقاد المخالفين، أي على خلاف نظرته ورأيه هو؛ لأن مفهوم الجملة المتقدمة هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يتوقع الأخطار المقبلة، بل كان أقل فراسة وتدبيراً من جميع الأشخاص الذين نصحوه، أمثال الفرزدق وابن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مطيع وعمر بن هشام، وغيرهم من الذين كانوا يتوقعون الأخطار التي في طريقه، بل صرّحوا له بقتله.

ومن البديهي أنّنا حتى لو قلنا إنّ الإمام عليه السلام لم يكن لديه علم بالمغيبات ولا ملكة تحليل الأحداث لمعرفة نتائجها، مع ذلك لا يصحّ القول إنّه على هذه الدرجة من الهفوة والتحليل الخاطىء، وخاصة للمسائل الحساسة جدّاً، بحيث يعرّض مصالحه ومصالح أهل بيته والمجتمع الإسلامي إلى الخطر العظيم، ولو فُرض صحّة أنّه ـ

والعياذ بالله ـ لا يدرك ما أدركه جميع الناصحين له، فلا يمكن حينئذٍ قبول إمامته وزعامته للمسلمين؛ لأنّ الإمام لو لم يكن لديه علم بعواقب الأمور، والقدرة على تحليل نتائجها، ولم يكن علمه الظاهري أيضاً حتى بمستوى هؤلاء الناصحين الكثيرين، فلا يمكن القول باستطاعته إصلاح الأمور وأنه يستحق الحكومة فضلاً عن الخلافة الإسلامية والنيابة عن مقام الرسالة، بل بلا شكّ أنّ الأمور ستتدهور من سيّء إلى أسوأ في ظلّ حكومته.

ومضافاً إلى هذا الدليل العقلي هناك دليلان نقليان أيضاً:

الدليل الأول: هو أنّ الإمام الحسينعليه السلام لم يردّ نصيحة الناصحين، ولم يقل لهم إنكم مخطئون في هذا التنبّؤ، ولم يقل إنّني سأنتصر عسكرياً حتماً، بل قد رأينا أنّه أيّد هؤلاء بقوله: «**صدقت**» و«**تكلمت بعقل**» و«**ولا يخفى عليّ الرأي**»، ومن الواضح أنّ هذه الأجوبة الصريحة تدل على أنّ الإمام الحسينعليه السلام كان يشعر بالخطر كما شعر به أولئك الناصحون، ولكنه يختلف عنهم في أنّه يعطي الأهمية والأولوية لحماية مصالح دين جدّه بأي وسيلة مؤثرة ولو بشهادته؛ لأنّه كان يفوقهم وعياً ومعرفة، والأهمّ من ذلك أنّه كان أكثر استعداداً للتضحية والتفاني في سبيل الدفاع عن دين الله، ولذلك كان يقول: «**أما والله إنّي لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا قتلنا أم ظفرنا**»[1]، أي أنّنا متهيئون بل مشتاقون للقتل في سبيل الله ولا نرى النصر الظاهري أفضل منه، ولهذا لا يقتصر نظرنا عليه.

الدليل الثاني: هو تصريحات الإمام الحسينعليه السلام حتى في بداية نهضته التي كانت في ظروف مواتية للنصر مثلاً، وقد تقدمت سابقاً، ونشير هنا إلى نموذج من كلام أصحاب الحسينعليه السلام، الذين كانوا كأشعّة من الحسينعليه السلام، حتى نعلم أنهم أيضاً كانوا عالمين بشهادتهم من قبل سنوات، هذا النموذج الملفت للنظر جدّاً هو من زهير بن القين الذي طلق زوجته والتحق بالإمام الحسينعليه السلام في وسط الطريق، حيث قال

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٠٦.

لأصحابه: «إنّي سأُحدثكم حديثاً، غزونا بلنجر ففتح الله علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الباهلي: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم، فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمّد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم، فأمّا أنا فإنّي أستودعكم الله، قال الراوي: ثمّ والله ما زال في أول القوم حتى قُتل»[1].

من هذا الكلام الصريح يُعلم أنّه حتى بعض أصحاب الحسين عليه السلام كان قد اطلع قبل عشرات السنين على واقع الأمر، فضلاً عن الحسين عليه السلام نفسه الذي هو أصل القضية، ولبّ الموضوع، ومن المعلوم أنّ العلم بالمغيبات في الأديان السماوية يعتبر أمراً طبيعياً ويسيراً، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج محيّرة من الاطلاع على المغيبات أو العلوم الخفية غير المتعارفة، كما في قضية موسى والخضر، وكذلك سليمان وآصف، وكثير من الموارد المشابهة، وطبعاً فإنّ السطحيين ينكرون مثل هذه الأُمور التي تستوجب معرفة خاصة مسبقة، كما أنّ النمل ينكر ما وراء وَكْرِهِ.

بعض الشواهد المخالفة ظاهراً

أوردت المصادر التاريخية الشيعية والسنية موارد كثيرة من تنبّؤات الإمام الحسين عليه السلام في مصيره واستشهاده طيلة رحلته التاريخية، سواء كانت تنبّؤاته مستندة إلى التعلم من الغيب أو على بصيرته الاجتماعية والسياسية، وقد تقدم بعض منها، وهنا نذكر رعاية للإنصاف بعض الشواهد المخالفة ظاهراً التي استند إليها بعض السطحيين للبرهنة على أنّ الإمام لم يكن يحس بالخطر، ولكن مع قليل من التأمل يظهر بطلان زعمهم هذا.

النموذج الأول: عندما التقى الإمام بالحرّ اقترح أحد أصحابه ـ ويدعى (الطرمّاح) ـ عليه بأن ينزل في تلك المناطق القريبة ويتخذ منها مواقع دفاعية، فرفض الحسين عليه السلام

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٢؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٧٣؛ أُسد الغابة والاستيعاب والاصابة في ترجمته.

اقتراحه هذا وقال: «ولا ندري على ما تنصرف بناوبهم الأُمور في عاقبة»[١]، ويقول البعض: إنّ هذه الجملة دليل على أنّ الإمام لم يكن يعلم بمستقبله ومصيره، ولكن في الجواب نقول:

أولاً: إنّ العبارة المذكورة على فرض صحة سندها، ترتبط بالأمور الجزئية وتفاصيل الحادثة، ولا ترتبط بأصل الحادثة، فعلىٰ فرض أنّ جزئيات الحادثة ـ من قبيل مكان وزمان القتال وخصوصيات الظروف المحيطة ـ لم تكن واضحة، ولكن أصل الواقعة والمراحل الكلية للنهضة الحسينية كانت واضحة بواسطة العلم بالغيب أو بالتنبّؤ أو الحدس السياسي، كما لاحظناه في نصيحة الناصحين وتأييده عليه السلام لتحذيراتهم، وكذلك لاحظناه في تصريحاته المكررة التي ذكرنا بعضها آنفاً فلا نعيدها.

ثانياً: إنّ الإمام كان يريد من جوابه هذا أن يُسكت الطرف المقابل؛ لكي لا يُتبعه بأسئلة أُخرى، ولهذا قال الإمام عبارة تتوافق مع ظواهر الأُمور، والشاهد على هذا أنّ الإمام لم يقل: (لا أدري)، بل قال: (لا ندري)، يعني أنه عليه السلام أجاب السائل بما يفهمه السائل أيضاً بالنظر إلى طبيعة الأوضاع، بحيث يكون جوابه عليه السلام مقبولاً لدى السائل، وبشكل عام فإنّ الإمام في بعض الموارد لا يبرز حقائق الأُمور، بل ربما يهتم بكتمانها، كما أنه في مقابل بعض أصحابه وأصدقائه المخلصين والقلقين عليه من قتله، تمسّك بالرؤيا المذكورة في الكثير من الكتب المعتبرة وأخبرهم أنّه لا يقول حقيقة الأمر لأحد حتى يلقى ربّه و سيأتي الإشارة إليه[٢].

والهدف من هذا الكتمان ونظائره هو أنّ الإمام أساساً لم يكن ملزماً بإظهار حقائق الأمور لكل أحد وفي كل خطوة، كي يعترض عليه من جانب أعدائه وحتى أصدقائه، وبشكل عام فإنّ سياسة أئمة عليهم السلام الحق أنهم لا يعتمدون دائماً على

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٠٧؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٠.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٩٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٤١؛ الإرشاد، ج ٢، ص٦٩.

علمهم الباطني وحنكتهم السياسية، بل يتحدثون غالباً عن ظواهر الأمور ويعملون وفقاً لها، بل يتعمدون أحياناً إخفاء الحقيقة عن الأنظار، كما في قصة يوسف وإخوته، أو موسى وصاحبه الخضر، أو سليمان وبلقيس، أو إبراهيم ومخالفيه، أو سائر الموارد الّتي كان أهل الحق يخفون فيها الحقيقة عن الطرف المقابل، بل إنّهم أحياناً يتعاملون معه حسب الظاهر وإن كان ذلك خلاف الحقيقة.

والخلاصة أنّ رجال الله حالهم حال رجال السياسة والحكومة، إذ كان لهم جانبٌ ظاهري وجانبٌ آخر حقيقي، ولذلك وقع السطحيون في زلّات تنشأ من أنّهم يلاحظون الجانب الظاهري دون الحقيقي، وبعبارة أُخرى أنّهم يجعلون جميع الأمور الظاهرية هي المعيار الأصلي ويغفلون أو يتغافلون عن الجانب الحقيقي.

النموذج الثاني: إنّ الحسينعليه السلام قال ضمن حديثه مع أهل الكوفة: «**والمغرور من اغتر بكم**»[1]، ومن خلال هذه الجملة يدّعي البعض أنّ الحسينعليه السلام لم يكن يتوقع نقض العهد والبيعة من أهل الكوفة، ولهذا فقد اعترف بأنه اغتر بهم، ولكن لابد من الالتفات إلى معنى هذه الجملة، وهو أنّ الإمام الحسينعليه السلام لا يقصد منها بأنني أصبحت مغروراً، بل معناها والمراد منها هو تحقير أهل الكوفة المخادعين وذمهم بهذا البيان، كما ذم القرآن الكريم المنافقين المخادعين بقوله تعالى: ﴿**يخادعون الله وهو خادعهم**﴾[2] مع أنّه لا ريب في أنّ الله لا ينخدع بخداعهم أصلاً.

والحاصل: أنّ خداع طرف لا يدل على انخداع الطرف المقابل. والشاهد الآخر على أنّ الإمام الحسينعليه السلام لم ينخدع بمواثيق أهل الكوفة، إنّه في ضمن كلامه هذا لأهل الكوفة خطب فيهم أبلغ خطبة ثورية وأشدها حماسةً، فلو أنّه كان قد انخدع بهم فمن غير المعقول أنه يخطب فيهم تلك الخطبة الغرّاء والمثيرة، التي تكون بحسب الظاهر غير مؤثّرة تأثيراً أساسياً.

(١) من خطبتهعليه السلام المعروفة تأتي في ص ٣٦٧.
(٢) سورة النساء، الآية ١٤٢.

هل قرّر الحسينعليه السلام العودة؟

٢ ـ يقول السيد علمالهدى في مقطع كلامه الثاني: «...وقد همّ سيدنا أبوعبداللهعليه السلام لما عرف بقتل مسلم بن عقيل وأُشير عليه بالعود، فوثب إليهعليه السلام بنو عقيل وقالوا: والله لا ننصرف حتى ندرك ثارنا أو نذوق ما ذاق أبونا، فقالعليه السلام لا خير في العيش بعد هؤلاء، ثمّ لحقه الحرّ بن يزيد و...».

وأكبر مؤاخذة على السيد علمالهدى هي على مقولته هذه؛ لأنّه يصرّح بأن الحسينعليه السلام قرّر الرجوع عندما أحس بالخطر، ولكنه استمر على مسيره إلى الكوفة بسبب مخالفة آل عقيل، ولكن يُقال له:

إنّ الإمام الحسينعليه السلام الذي خرج من المدينة وهو مصممٌ على الجهاد والقتال حتى ينتصر على الأعداء عسكريّاً، ويقيم الحكومة العادلة، ويصلح الأمور في العالم الإسلامي، كما تقول، فهل يمكن لمثل هذا الإمام الذي له مثل هذه الأهداف العظيمة أن يكون تابعاً في رأيه إلى أولاد وأطفال لا تجربة لهم في الأمور؟ وأنه امتلكته العواطف وسيطرت عليه الأحاسيس إلى حد أنّه من أجلهم ترك تصميمه المعقول بالرجوع إلى المدينة واستمرّ في التوجه إلى الكوفة، وهو شاعر بذلك الخطر العظيم، ولذا يقول: «لا خير في العيش بعد هؤلاء»[1]، يعني أنّي أعلم بأنّكم سوف تُقتلون أيضاً في ثائرة الخطر الكامن في الكوفة، ومع ذلك فإنّي سوف أنصرف عن رأيي وتصميمي الصحيح في العودة إلى المدينة وأذهب معكم إلى القتل، وبتعبير آخر أوضح: أنّني لحد الآن كنت أتطلع في ثورتي هذه إلىٰ أهداف إسلامية كبيرة، ولكنني بعد الآن أتّبع الأهداف الشخصية المحدودة مع أنّي على يقينٍ من أنّ هذه الأهداف الشخصية أيضاً لن تتحقق، وبعبارة أُخرىٰ: أنّني لحد الآن كنت أريد أن أدفع خطر الأعداء، ولكني بعد الآن ومن أجلكم سوف القي بنفسي في لهوات هذا الخطر، فهل يمكن قبول هذا المعنى؟

(١) الإرشاد، ج ٢، ص ٧٥؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٢.

من الواضح أنه لا يمكن قبول هذا الكلام بالنسبة إلى الإمام الحسين عليه السلام، أو أيّ قائدٍ آخر وحتى أيّ فردٍ آخر أبداً، بل يجب الالتفات إلى ما تقدم والقول بأن الحسين عليه السلام لم يعزم أصلاً على الرجوع إلى المدينة؛ لأنّه لو كان قد عزم على الرجوع لرجع حتماً، ولأصدر أمره إلى أصحابه ومنهم أولاد مسلم بن عقيل أيضاً بالرجوع، وخاصة أنّه لا يوجد حينئذٍ مانعٌ من الرَجوع، وكذلك يجب القول بأنّ الحسين عليه السلام حتى لو صرّح بالرجوع، فقد كان غرضه اختبار أصحابه وأنصاره، وكذلك ينبغي القول بأنّ حوار الإمام الحسين عليه السلام مع أولاد مسلم بن عقيل له بعد أخلاقي، ولم يكن من قبيل تكوين مجلس شورى لبحث الأمور معهم بجدية فضلاً عن أن يكون الإمام تابعاً لهم في ما يقرّره؛ لأنّ الحسين عليه السلام كما تبيّن في بداية تحرّكه ونهضته لم يكوّن شورى مع أى أحدٍ، بل حتى مع مخالفة كبار الشخصيات الإسلامية ـ التي عارضت خروجه إلى الكوفة مثل عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن مطيع وكثير من أمثالهم ـ فقد خرج إليها ولم يهتم بنصائحهم إطلاقاً، بل كما رأينا انطلق باتجاه ثورته مع إحساسه بالخطر الأكيد، وتصريحه بقتله وشهادته، فعلى هذا كيف يمكن القول بأنّ الإمام الحسين عليه السلام ترك زمام أموره في هذه الظروف الحسّاسة بيد أولاد صغار امتلكتهم العواطف ودوافع الثأر لأبيهم، مع أنّ الثأر أيضاً غير منطقي في تلك الظروف كما رأينا في كلام الإمام الحسين عليه السلام نفسه؟ أجل، لابد من القول بأنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يعطي زمام أُموره حتى في الحالات العادية بيد فتيةٍ كهؤلاء، فكيف في الظروف الحساسة والخطيرة؟!

٣ ـ يقول السيد في عبارته الثالثة: «... **فلمّا انعكس ذلك وظهرت أمارات الغدر فيه ... رام الرجوع والمكافّة والتسليم كما فعل أخوه عليه السلام فمُنع من ذلك وحيل بينه وبينه ....**»

فهنا نرى أنّ الحسين عليه السلام هو الذي طلب الصلح بل الاستسلام، وسوف نبحث هذا الأمر في الصفحات الآتية تحت عنوان (المقترحات المزعومة).

الرأي الثالث: هل أنّ الإمام كان يواجه الخطر في كل حالة؟

الرأي الثالث هو نظر السيد هبةالدين الشهرستاني وبعض آخر، ويعتبر رأياً تفريطياً، إذ يَعدّ حركة الإمام حركة دفاعية فقط، على عكس النظر الإفراطي للسيد علم الهدى حيث يَعدّها حركة هجومية فقط، فهؤلاء يقولون: إنّ الإمام الحسينعليه السلام مضافاً إلى أنه لم يكن متأكداً من النصر العسكري، فقد كان واثقاً بأنه سوف يُقتل على كل حال، حتى لو بايع ليزيد، ولذلك خرج من المدينة هارباً، ونذكر هنا نص عبارته: «... إذَنْ فالحسينعليه السلام وجد نفسه مقتولاً إذا لم يبايع، ومَقتولاً إذا بايع، لكنّه إن بايع اشترى مع قتله قتل مجده وقتل آثار جده، أمّا إذا لم يبايع فإنّما هي قتلة واحدة تحيا بها آماله وشعائر الدين والشرف المؤبّد»[١].

وطبعاً الشهرستاني يذكر أيضاً في بعض عباراته[٢] البعد الثوري لتحرك الإمام الحسينعليه السلام، ولكنه في نفس الوقت يصرح بأن طريق الحياة المطمئنة قد أُوصدت بوجه الحسينعليه السلام. وذهب بعض الحمقىٰ أو المغرضين إلى أكثر من ذلك، وهو أنّهم مضافاً إلى عدم إعطائهم بُعداً ثورياً لنهضة الإمام الحسينعليه السلام يؤكّدون على أنّ خروج الحسينعليه السلام من مكة والمدينة كان من أجل الفرار من الموت فقط، ولم يكن من أجل الجهاد ضد الحكومة الظالمة إطلاقاً. وعلى كل حال فنظرية الشهرستاني أيضاً باطلة، وإن ذكر شواهد لتأييدها، ونكتفي هنا بذكر نموذجين منها والإجابة عنهما...

الشاهد الأوّل: كلام الإمام الحسينعليه السلام أثناء سفره هذا مع أحد أصحابه ويُدعى (أبو هرّة)، عندما سأله أبوهرّة عن سبب خروجه من المدينة الطيبة حرم جده ومكة المكرّمة حرم الله، فقالعليه السلام:

«إنّ بني أُمية قد أخذوا مالي فصبرت وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت يا أبا هرّة لتقتلني الفئة الباغية وليلبسنّهم الله ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً وليسلطن الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من قوم سبأ ...»[٣].

---

(١) نهضة الحسين، ص ٢١.
(٢) نهضة الحسين ص٢٣.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٩٦؛ المقتل للخوارزمي، ج ١، ص٢٢٦؛ اللهوف، ص٤٣.

الشاهد الثاني: كتاب ابن عباس الذي كتبه إلى يزيد بعد استشهاد الإمام الحسينعليه السلام يؤنّبه فيه ويقول: «... فما أنسى من الاشياء فلست بناس اطّرادك حسيناً من حرم رسول اللهصلى الله عليه وآله إلى حرم الله وتسييرك إليه الرجال لتقتله في حرم الله، فما زلت بذلك وعلى ذلك حتى أشخصته من مكة إلى العراق...»(١).

مناقشة الرأي الثالث

وفي الجواب لابد من القول: مع صحة أنّ الحسين بن عليّعليه السلام لم يكن آمناً في ذلك الجوّ الإرهابي في ظل الحكومة الأموية، وكان يعيش ظروفاً صعبة، وكان يحس أنّ وجوده في خطر، ولكن منشأ هذا الإحساس هو مخالفته لحكومة يزيد، وكان يعلم أنّ هذه الحكومة لا تدع طريقاً لمخالفيها سوى الموت، والدليل على هذا الأمر أننا لا نجد في الشواهد التاريخية أيّ أثر لإصدار الأمر بقتل الإمام الحسينعليه السلام بدون قيد أو شرط، بل إن الحكومة الأموية بالدرجة الأُولى أرادت من الحسينعليه السلام البيعة، وفي حالة عدم البيعة كان الأمر بقتله، ومن أجل إيضاح هذا الأمر أكثر نذكر لذلكِ شاهدين من بداية ثورته وخاتمتها.

الشاهد الاوّل: رسالة يزيد بن معاوية لواليه على المدينة (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) حيث يقول فيها: «أمّا بعد فخذ الحسين وعبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبيبكر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً عنيفاً ليست فيه رخصة، فمن أبى عليك منهم فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسهوالسلام»(٢).

الشاهد الثاني: هو آخر كتاب كتبه يزيد إلى حاكمه على الكوفة (عبيدالله بن زياد)، وقال فيه ما لفظه أو مضمونه: لا تغمض جفنك من المنام ولا تشبع بطنك من

---

(١) مقتل الخوارزمي، ج٢، ص٧٨؛ تذكرة الخواص، ص٢٧٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٤١، مقتل الخوارزمي، ج١، ص١٨٠؛ اللهوف، ص١٦.

الطعام إما أن يرجع الحسين إلى حكمي أو تقتله، والسلام[١].

والحسين بن عليّ‌عليه‌السلام أيضاً كان يدرك هذه الحقيقة، وهي أن طريقين كانا أمامه وهما إمّا البيعة أوالقتل،حيث ذكر ذلك بصراحة لابن عمر فقال:«يابن عمر إنّ القوم لايتركونني إن أصابوني وإن لم يصيبوني فإنّهم يطلبونني أبداً حتى أبايع وأنا كاره أو يقتلونني»[٢].

وهكذا نجد أن الشواهد التاريخية تخالف القول بأن حياة الحسين‌عليه‌السلام كانت مهدّدة بالخطر أوّلاً من قِبل الحكومة اليزيدية ولذا أعلن مخالفته لها، بل على العكس من ذلك أنّ الحسين‌عليه‌السلام أعلن مخالفته للحكومة اليزيدية أوّلاً ثم صار مهدّداً من قِبلها، وبعبارة أُخرى: يتّضح من الشواهد التاريخية أن خطر القتل لم يكن علةً للخروج وإعلان الثورة، بل كان معلولاً له.

ومضافاً إلى تلك الشواهد، هناك دليل آخر على بطلان النظرية الآنفة، وذلك ما نجده في الخطب الثورية للإمام الحسين‌عليه‌السلام التي يدعو المسلمين فيها إلى النهوض والجهاد ضد حكومة يزيد، ويقول في إحدىٰ خطبه هذه:

«أيّها الناس قال رسول الله: من رأىٰ سلطاناً جائراً فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قولٍ كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»، يعني ـ أساساً ـ أنّ مناهضة حكومة يزيد كان مسؤولية إسلامية في كل الأحوال لا في بعضها، وعلى جميع المسلمين لا على بعضهم.

والنتيجة المستخلصة من هذه الأدلة والشواهد التاريخية: هي ثبوت بطلان النظرية الآنفة. على أننا وجدنا أخيراً بعض المتقدسين والمتحجرين من الذين يدّعون التنسك في حين أنّهم بوق للشيطان، يصوّرون هذه النظرية بأنها هي الموافقة للحقيقة، وبناء عليها يصوّرون الامام الحسين‌عليه‌السلام عملياً بأنّه رجل جبان

(١) نور الأبصار: الشبلنجي، ص ١٣٠.

(٢) مقتل الخوارزمي، ج ١، ص ١٩٢، وبمعناه ما ذكره الطبري وابن أثير وغيرهما، راجع صفحة ٣١١ و٣١٢ من هذا الكتاب.

وانهزامي وفاقد للهدف السامي، والأدهى من ذلك أنّهم يصوّرون الإسلام بأنّه دين غير هادف، ويقولون خلافاً لنصوص الإسلام وتاريخه المبين: بأنّ قـادة الإسـلام وأئمة المسلمين كانوا يشتغلون بالمسائل الفقهية والفتيا فقط، ولم يكونوا يتدخلون في أمور السياسة والحكومة. هؤلاء الحمقىٰ يلقون مثل هذه الشبهات في الأذهان لكي يخادعوا الناس بِظاهرهم المقدس، ويصونوا مكانتهم الاجتماعية الباطلة.

إلى هنا ننهي بحثنا في الرأي المتسامح وفيه التفريط، وهو الثالث والذي نُـقل عن السيد الشهرستاني، وقبله بحثنا الرأي الجدلي، وهو الثاني والذي نُقل عن السيد علم الهدى وفيه الإفراط، كما تطرّقنا إلى الرأي الأوّل الاسـتدلالي والذي اعـتمده أكثر العلماء.

والآن يجب أن نبحث حول مؤاخذة مهمة تُطرح في مجال الآراء الثلاثة المذكورة، وفي ظلّ هذا البحث ستكون معالجتنا للآراء المذكورة أكثر وضوحاً، وستزاح عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام المقدّسة سائر الشبهات والتشكيكات المضلّة أيضاً.

المقترحات المزعومة

قد يقال: إنّ الحسين عليه السلام لو كان يعلم بأنه لا يـنتصر عسكـريّاً، بـل يسـتشهد، فيستطيع بشهادته هذه تهييج جماعة المسلمين وإثارتهم بدفع خطر الأعـداء عـن الإسلام وبذلك ينال النصر الواقعي، فلماذا اقترح على جيش العدوّ مقترحات ثلاثة بعد أن وجد نفسه محاصراً من قِبل الأعداء وعلى مقربة من القـتل والاسـتشهاد، وقال لهم: «**إختاروا منّي خصالاً ثلاثاً: إمّا أن أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، وإمّا أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه، وإمّا أن تسيّروني إلى ثغرٍ من ثغور المسلمين فأكون رجلاً منهم لي ما لهم وعليّ ما عليهم**»[1]؟

يقول البعض: إنّ هذا الكلام يوضّح علة نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وهي أنّه كان في أوّل الأمر واثقاً بالنصر الظاهري، ولكنه لمّا رأى نفسه وجهاً لوجه مـع القـتل

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣١٣؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٤؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٨٧.

والشهادة، وزال عنه ذلك الوثوق فغيّر خطته واقترح مقترحات سلمية، بل أراد التسليم. وإلّا فلو كان منذ البداية مطمئنّاً للاستشهاد، وأنّه سوف يحصل على النصر الواقعي مثلاً من خلال استشهاده في هذا السبيل، وتهيج مشاعر الناس ضد الحكومة الأموية، فيزيل بذلك خطرها عن الأُمة الإسلامية، فلا معنى لأن يكون مستعدّاً لتسليم نفسه عندما أحسّ بالخطر.

وقد تشبث البعض بهذا الكلام، واستنتجوا منه نتائج باطلة طبعاً، من قبيل خطأ حسابات الإمام، وتزلزل إرادته، وضعفه وتسليمه واستسلامه، وأمثال ذلك. وكأنّ هؤلاء لم يعرفوا الإمام، ولم يعرفوا ماهيّة نهضته وتضحياته، وكلماته الثورية، وتنبّؤاته المثيرة، بل إنّهم لم يبحثوا ويحققوا في الكلمات والخطب المنسوبة إلى الإمام الحسين عليه السلام ليتضح لهم الموقف الصحيح منه.

وكما رأينا أن أكثر الكتب التي تناولت دراسة ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ووقعت في أخطاء وأُشكلت عليها أمور، كان منشؤها ذلك الكلام المذكور، ولهذا نجد من اللازم التحقيق في أنّ ذلك الكلام هل هو صحيح كما رُوي أم لا؟ ثمّ نورد حديثاً مشابهاً في مضمونه لما قيل وندرسه بدقة. وعلى فرض أنّ ما قيل كان صحيحاً من حيث السند، إلّا أنّ له بعداً سياسيّاً سوف نذكره بعد عدة صفحات.

ولكن في البداية لابد أن نعلم بأنّ ذلك الكلام بعيد عن الحقيقة والواقع، حتى باعتراف الأشخاص الذين أوردوه، وذلك بعدة أدلة:

١ ـ لو كان الحسين عليه السلام مستعدّاً للاستسلام لكان قَبِلَ طلبات الحكومة الأموية، مع أنّه عليه السلام لم يقبلها كما تنص عليه الشواهد التاريخية، فإن المصادر المعتبرة تنقل هذا حتى من قادة الجيش الأموي مثل (زجر بن قيس)، فمن جملة ما يقول ليزيد لشرح وقائع حادثة الطفّ هو:

«ورد علينا حسين في ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا إليهم و سألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير أو القتال فاختاروا القتال على الاستسلام»[١].

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٥١؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٣؛ الإرشاد، ج ٢، ص ١١٨.

ويقول بعض: إنّ عبيدالله بن زياد كان شرساً وفظّاً، بينما لم يكن يزيد كذلك، ولهذا كان الحسين عليه السلام مستعداً للتسليم إلى يزيد دون عبيدالله بن زياد. ولكن من الواضح أن هذا التصور باطل بحكم التاريخ، فإن التاريخ يؤكد على أن يزيد كان أشد نزقاً، وأتعس حالاً، ويكفي لتصديق هذا أن نراجع خصوصيات يزيد المذكورة في الفصل الثاني، وخاصة ما ورد في فاجعة المدينة التي لم يسبق لها نظير في تاريخ الجاهلية والإسلام، ولا جرى مثلها فيما بعده، هذه الفاجعة التي أقدم عليها الجيش الأموي بأمرٍ من يزيد في اغارته على مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد سفكوا فيها دماء آلاف من الصحابة والتابعين وسائر المسلمين بين طفل صغير وشيخ كبير، ونهبوا أموالهم واعتدوا على أعراضهم لثلاثة أيام، أُبيحت خلالها تلك المدينة المقدسة أمام جيش هائج مستهتر يفعل بها ما يشاء، حتى لم تسلم منه فتاة أو امرأة، إلّا بعض البيوت ومن لجأ إليها. والأنكىٰ من ذلك أنّهم أخذوا البيعة ممّن بقي من الجرحى والمنكوبين على أنّهم عبيد ليزيد.

والجدير بالذكر أنّ يزيد أراد في البداية من عبيدالله بن زياد أن يقمع ثورة المدينة، كما صنع مع الإمام الحسين عليه السلام، لكن عبيدالله ردّ هذا الطلب، وقال: «لا أجمعهما للفاسق أبداً»[1]، أي أنّني لا أقدم على جريمتين كبيرتين من أجل يزيد الفاسق.

في حادثة كربلاء أيضاً التاريخ يذكر بصراحة أنّ يزيد أمر باحضار قافلة الأسرى والسبايا من أهل بيت النبوة ومعهم رأس الإمام الحسين عليه السلام قد تصبّب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد بدمشق[2]، ورأىٰ الناس كيف أنّ يزيد كان يضرب ثنايا الحسين عليه السلام بقضيبه[3]، ويشتم الأسرى من أهل البيت، ويتمثل بأشعار جاهلية ويقول أبياتاً يعلن فيها عن كفره

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٧١؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٢.

(٢) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٤٧.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٤٩ و ٣٥٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٥؛ اللهوف، ص ١٠٤.

الصريح، كل ذلك كان بمحضر جماعة المسلمين. ومن البديهي أنّ إحضار الرؤوس والأسرى بتلك الكيفية المنافية للإنسانية، فضلاً عن الأخلاق والدين، ليست أقل من جرائم ابن زياد ومرتزقته، فيزيد كان يفوقهم إجراماً وتهوّراً، لأنّه تحلل من كل خلق ودين، كما لاحظنا ذلك في أبياته التي مرّ ذكرها.

ومضافاً إلى كل ذلك، بل الأهم منه، أنّ الحسينعليه‌السلام نفسه كان يرى في يزيد خطراً على الإسلام وعاملاً لزواله، ولهذا وجّه جميع قواه ضد يزيد، وقال:

«ألا من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لمحارم الله ناكثاً لعهد الله يعمل في عباد الله بالظلم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول ...»[١] ويقول أيضاً: **«على الإسلام السلام إذ بليت الأُمة براع مثل يزيد»**[٢].

فهل مع كل هذه الحقائق المسلّمة يمكن القول: إنّ يزيد كان أفضل من ابن زياد، وأنّ الحسينعليه‌السلام اطمأنّ له أكثر من ابن زياد؟

دعوى غريبة

٢ ـ هناك رسالة ليزيد توضّح هذا الأمر أكثر، كتبها إلى عبيدالله بن زياد، وثقتها المصادر المعتبرة إذ يقول: **«وإنّه قد بلغني أنّ الحسين بن علي قد توجّه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحبس على الظن وخذ على التهمة غير ألّا تقتل إلّا من قاتلك»**[٣].

ورغم أن كتاب يزيد هذا أو غيره ليس له اعتبار حقيقي، ولكنه يوضّح في التحقيقات المتعارفة قضية حساسة، وهي أنّ الحسين لو كان مستعداً لتسليم نفسه ليزيد، فإنّ عبيدالله بن زياد وبمقتضى كتاب يزيد هذا لم يكن مجازاً في قتال الحسينعليه‌السلام مطلقاً، وبملاحظة أن عبيدالله قد قاتل الحسينعليه‌السلام، فيتّضح من ذلك أنّ الحسينعليه‌السلام لم يكن مستعدّاً للاستسلام ليزيد، ولذلك رأى عبيدالله نفسه مضطرّاً إلى قتاله.

---

(١) مرّ ذكره أوائل الفصل الثاني.
(٢) مناقب الخوارزمي، ج١، ص١٨٤؛ اللهوف، ص١٨.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٦.

ومع هذه الحال يدّعي بعض أن عبيدالله قد ارتكب تلك الجناية دون رضىٰ يزيد ودون إذنه، ولكن الشواهد الكثيرة تدلّ على بطلان هذا الادّعاء السخيف، وأحد هذه الشواهد هو كلام عبيدالله نفسه، حيث يقول: «**أمّا قتلي الحسين﵇ فإنّه اشار عليّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله**»[١]. ولا يقول هذا أعوان يزيد فحسب، بل حتى المخالفين ليزيدَ من قبيل ابن عباس في كتابه ليزيد صرّح بأن قتل الحسين كان بأمره، ومن جملة كتابه قوله: «**...فما أنسى من الاشياء فلست بناس اطرادك حسيناً من حرم رسول‌الله وتسييرك إليه الرجال لتقتله**»[٢].

والأهم من هذين الشاهدين ـ من الموافق والمخالف أشعار يزيد نفسه، التي ذكرناها فيما تقدم، حيث يعلن يزيد في هذه الأشعار عن فرحه بقتل الإمام الحسين﵇، وأنّه كان انتقاماً لقتلى بدر[٣]، فيقول:

نعب الغراب فقلت نح أو لا تنح ... فقد أخذت من الغريم ديوني[٤]

وطبعاً فإنّ يزيد عندما رأى غضب المسلمين لمقتل الحسين﵇ وحزنهم وتألّمهم الشديد اظهر كسائر الحكام المرائين الأسف[٥]، وألقى باللائمة على عاتق ابن زياد رياءً وحيلةً، وبرّأ نفسه منها، ولكن من البديهيّ ـ كما ذكر المؤرخون ـ أنّ هذا التغير الظاهري كان سياسيّاً فحسب[٦]، والشاهد على هذا أنّ التاريخ لم يذكر أنّ يزيد وبّخ عبيدالله على فعلته هذه، بل استقبله بكامل الرضا والفرح وشكره وقرّبه من مجلسه، وراح يترنّم معه ببعض الأبيات من الشعر وبيده مخصرة ينكت بها ثنايا الحسين﵇[٧]، وهما على مائدة الخمر، ومن هذه الأبيات:

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٤٠.
(٢) الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٢٨؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٤٨.
(٣) مقتل الخوارزمي، ج٢، ص٥٩؛ اللهوف، ص١٠٥.
(٤) تذكرة الخواص، ص٢٦٣.
(٥) تاريخ الطبري، ج٤، ص ٣٥٣؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٧.
(٦) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٧.
(٧) تاريخ الطبري، ج٤، ص ٢٩٣ و ٣٤٩؛ مروج الذهب، ج٣، ص ٦٧.

إسقني شربةً تـروي مُشـاشي ثمّ مل فاسق مثلها ابـن زيـاد
صاحب السر والأمانة عـندي ولتسديد مغنمي وجـهادي[١]

ومضافاً إلى ذلك فإنّ يزيد كان يصرّح بكـل وقـاحة وأمـام رؤوس الشـهداء والأسرى من النسـاء الثكالى والأيتام المحزونين من أهل البـيت عليهم السلام، وردّاً عـلى صرخات زينب عليها السلام وأنينها الحزين، بقوله الشامت والمتهتك:

يا صيحةً تـحمد مـن صـوائـح ما أهون الموت على النوائح[٢]

فهل بعد هذه الحقائق والشواهد يصح القول بأنّ يـزيد لم يكـن راضـياً بـقتل الحسين عليه السلام، وأنّ عبيدالله بن زياد هو الذي أقدم على هذه الجريمة فحسب؟

هل من الإنصاف!؟

٣ ـ المقترحات الثلاثة المذكورة في الحديث الموهوم والتي أصبحت ذريعةً بيد المتذرّعين، ليس فقط أنّ الإمام الحسين عليه السلام كـان مسـتعداً لبـيعة يـزيد .. بـل إنّ المقترحات انطوت على جملة فاضحة هي: «أضع يدي في يد يزيد فيرى فيما بيني وبينه رأيه»[٣]، يعني أنّي مستعد لبيعة يزيد ومضافاً إلى ذلك أنّي مستعد للاستسلام بدون قيد أو شرط ليزيد حتى يرى فيّ رأيه كما يحبّ ويرضى، كما احتوت تلك المقترحات على جملة مهينة أُخرى هي أسوأ من الأولى جدّاً، وهي: «فناشدهم الله والإسلام أن يسيّروه إلى أميرالمؤمنين يزيد فيضع يده في يده»[٤]. أي أنّ الإمـام الحسين عليه السلام التمس من جيش عبيدالله أن يأخذوه ويذهبوا به إلى أميرالمؤمنين يزيد ويسلموه له.

والإنصاف، ألا تدل هذه الضمائم المفضوحة وضعاً على أنّ أصل حديث الاتهام أيضاً باطل من الأساس؟ من الواضح أنّها تدل على بطلان أصـله، خـاصة وأنّـها

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٦٧.

(٢) اللهوف، ص ١٠٨، تذكرة الخواص، ص ٢٦٥، المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٦٦.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٥ و ٣١٣.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٥.

الكثيرة طيلة مدة نهضته.

الحسين عليه السلام الذي وقف في مقابل الأصدقاء والأقرباء الذين قالوا له: «إنّهم قد أجمعوا على حربك فَرَ رأيك»، فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل»[(١)].

الحسين عليه السلام الذي يجمع فكره وسيرته في جملته هذه: «هيهات منّا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[(٢)].

الحسين عليه السلام الذي قال فيه أعداؤه قبل أصدقائه، مثل عمر بن سعد في يوم عاشوراء: «لا يستسلم والله الحسين أبداً إنّ نفساً أبيّة ـ أو نفس أبيه ـ لبين جنبيه»[(٣)] فالحسين عليه السلام الذي هذا مَثَلُه، كيف يمكن أن يمدّ يد الذلة والمهانة والاستعطاف والاسترحام والخزي والعار إلى فاسق فاجر مثل يزيد، أو إلى أعوان الحكومة اليزيدية، ويُقسم عليهم بحق الله والنبي صلى الله عليه وآله و.. أن يأخذوه أسيراً إلى يزيد الذي يقول عنه الحسين عليه السلام: إنّه فاسق وفاجر وشارب الخمر وهادم الإسلام، وأمثال ذلك من الأوصاف والنعوت، ولهذا كان يرى البيعة له حراماً والجهاد ضده واجباً على جميع المسلمين وعلى رأسهم الحسين عليه السلام نفسه، وإن مات أو قُتل في هذا السبيل، وفي ذلك يقول صراحة: «ألامن رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لمحارم الله ... ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً... إني لا ارى الموت إلّا سعادة ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً».

وهنا يجدُر بنا أن نقول: الخزي والعار الأبديّ للسلطة والحزب الأموي، الذين حاولوا إلصاق مثل هذه التهم بالإمام الحسين عليه السلام، من أجل أغراضهم السياسية، وقد وجهوا بذلك ضربة أكثر شناعة من قتله، ومهدوا الأرضية للتقولات والاستنباطات المغلوطة للسطحيين والنفعيين والمتذرعين بالذرائع الواهية.

---

١. كما مرّ في الفصل الثاني، ص١٨٧.

٢. الإرشاد، ج ٢، ص ٤٢؛ تحف العقول، ص ٢٤١؛ اللهوف، ص ٥٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٣.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٦؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٨٩.

أمّا لماذا أقدمت السلطة الأموية الفاسدة وعملاؤها بتوجيه مثل هذه التهم والتقولات إلى الحسين؟

خلال الدليل الرابع سنشير إلى جواب هذا السؤال وإلى السبب، ولكن قبل ذكرنا للدليل الرابع يجب أن نلتفت إلى ما يزعمه هؤلاء من صلح الحسين مع يزيد، بأنّه في الحقيقة لم يكن صلحاً، بل هو استسلامٌ .. إستسلام ذليل خانع، يظهر فيه يزيد هو الحاكم المطلق الشرعي، والحسين هو المحكوم المُدان والخارج على يزيد خليفة رسول‌الله.

صلحٌ مزعوم أو استسلامٌ ذليل!:

إنّ الذين يدّعون أن الإمام الحسين كان مستعداً للصلح كأخيه الحسن، يجب عليهم ملاحظة التفاوت الكبير بين الصلحين بحيث لا يصح إطلاقاً المقارنة بينهما؛ لأنّ صلح الإمام الحسن مع معاوية قد بدأ على ورقة بيضاء موقّعة من قِبل معاوية، فكتب الإمام الحسن في هذه الورقة جميع الشروط اللازمة والثقيلة لهذا الصلح، وبالرغم من أنّ معاوية لم يف بهذه المعاهدة، لكن هذا الصلح المتضمن لتلك الشروط كان صلحاً شريفاً ولو نسبيّاً، فالإمام الحسن لم يؤيّد فيه خلافة معاوية بنحو الإطلاق، فكيف الأمر بمن يقوم مقامه؟ بل كان الصلح ينفي أساساً موضوع وراثة الخلافة[1].

في حين أنّ الصلح المزعوم بين الحسين ويزيد ـ على عكس ما ورد في صلح الإمام الحسن؛ ـ لا يشكّل في الحقيقة صلحاً أصلاً، بل استسلاماً ذليلاً ـ العياذ بالله ـ من الحسين، وتوكيد حاكمية يزيد المحارب للإسلام، ومثل هذا الاستسلام يدنّس شرف الإمام الحسين في مقابل خبائث وقبائح يزيد، المعلنة عند الجميع، وطبيعيٌّ أن يوجّه هذا الموقف ضربة شديدة إلى مصالح الإسلام والمسلمين تبقىٰ آثارها خالدة، وتكون بمثابة قانون إسلامي عمل به الحسين،

---

١. الصواعق، لابن الحجر، ص ٨١٥ الاصابة، ج ٢، ص ٦٥؛ تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٢٥٩.

ويتخذه المسلمون قدوةً بالطبع، ولا ننسى هنا موقف الإمام الحسينعليه السلام عندما كان على مقربة من الشهادة، فهو لم يقبل أن يلبس لباساً قصيراً؛ لأنه علامة الذلّـة[١]، فكيف يمكن أن يقبل بذلة التسليم المطلق ليزيد والذي يؤدّي إلى إضلال المسلمين وانهيار الإسلام حتى بتصريحهعليه السلام المذكور آنفاً؟

ومن جهة أُخرى فالإمام الحسينعليه السلام كان شاهداً كيف أنّ أخاه الإمام الحسنعليه السلام عندما صالح معاوية وخرج من ميدان الصراع مؤقتاً ريثما تستتب الأمور، فمع ذلك لم يتحمل معاوية وجودهعليه السلام، ولهذا وتوكيداً لسلطة الحكومة الأموية أقـدم عـلى اغتيال الإمام الحسنعليه السلام وبعض الشخصيات المعروفة من قبيل سعد بن أبي وقاص بالسمّ[٢]. فهل أنّ يزيد ـ الذي كان أكثر طيشاً ونزقاً وتهوّراً من معاوية، وأقل سياسة وأشد خطراً منه ـ يحتمل وجود الإمام الحسينعليه السلام وتأثيره السـياسي والمـعنوي العميق في قلوب المسلمين؟ وهل أنّ يـزيد وسـائر الذئـاب الأمـوية وأعـوانـهم المرتزقة سـيتركون الحسـينعليه السلام يـعرقل تـطلعاتهم الدنـيوية وأهـدافـهم المـادية والسياسية فيكون بدعوى بعض البسطاء ذخـراً للإسـلام؟ نـترك الإجـابة للـقراء الأكارم أصحاب الرأي السديد.

إنّ مقولة: إنّ الحسين لو استسلم ليزيد سوف يكون ذخراً للإسلام، هـو قـول سخيف جدّاً، خاصة وأنّ الحسينعليه السلام كان في ذلك الوقت فـي سـني الشـيخوخة ويزيد في سني الشباب، غاية الأمر أنّ يزيد تعرّض لحادثة غـير مـتوقّعة فـمات سريعاً، ولكن من البيّن أنّه وفقاً للحسابات العادية فإنه لا يـتوقّع عـادةً أن يـبقى الحسينعليه السلام بعد يزيد حيّاً، حتى يكـون ذخـراً للإسـلام، ومـضافاً إلى ذلك فـإن الحسينعليه السلام الذي إستسلم دون قيد و شرط ليزيد والحكومة الأموية، فإنه لو بـقي حيّاً سوف لا يكون الحسين بن عليّ الإمام الثوري القائد للمسلمين، بل سـيكون قائد الذلّة والخنوع. وأفضل جـملة يـمكن أن تـقال لأصـحاب تـلك التـصورات

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٤٥؛ الكامل في التاريخ ج ٤، ص ٧٧.

٢. مقاتل الطالبيين، ص٤٨؛ شرح النهج، ج١٦، ص ٤٩.

المضحكة ـ الذين يقلبون الحقائق ليشتهروا بين الناس ـ هي: «لا تمزحوا».

٤ ـ وكما نعلم أنّ الحكومة الأموية كانت حكومة شيطانية، سعت كسائر الحكومات المتسلطة المنافقة إلى استغلال جميع الحوادث ـ حتى صلح الإمام الحسن عليه السلام ونهضة الإمام الحسين عليه السلام ـ لصالحها، فالحكومة الأموية بشهادة التاريخ وضعت الكثير من الأكاذيب التي تتماشى مع سياستها، من قبيل اشتراك الإمام عليّ عليه السلام في قتل عثمان، وكتابة الوحي لمعاوية، ووجوب لعن الإمام علي وأهل بيته عليهم السلام، وفتنة أبي ذر، وهلاك الأشتر بدعاء أهل الشام، وخلافة بني أمية الوراثية عن النبي صلى الله عليه وآله، وأمثال ذلك كثير جداً، وطبيعي أنه كلّما كانت الحكومات المستبدة الظالمة قائمة على أساس الخداع والمكر، فإنّها ـ في مواجهة الثورات الإصلاحية والتغييرية كثورة الإمام الحسين عليه السلام وثورة المدينة ومكة وثورة التوابين والمختار وغيرها ـ تتشبث طبعاً بشتى الأكاذيب والحيل لإسكات أصوات المعارضين ، والقضاء على ثوراتهم، ومن البديهي أن أقوى كذبة يمكنها أن تؤثّر في تخدير أُولئك الناس الثوريين، هي كذبة أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد قبل التسليم لحكومة يزيد من أجل حفظ وحدة المسلمين ومنع سفك الدماء مثلاً، ولكن عبيدالله بن زياد هو الذي استعجل الأمر وأدىٰ إلى تلك الفاجعة. وكما رأينا في الفصل الأول أنّ معاوية أيضاً سلك هذا الأُسلوب من أجل أخذ بيعة أهل المدينة لابنه يزيد، فصعد على منبر الرسول صلى الله عليه وآله وقال كذباً وبمنتهى الوقاحة ما حاصله: «**أيّها الناس إن أكابر الأُمّة ومنهم الحسين بن عليّ بايعوا بولاية العهد لابني يزيد فبايعوا له...**».

ومضافاً إلى هذه الأدلّة الأربعة المذكورة، هناك شواهد عديدة أيضاً على كذب ووضع حديث المقترحات المزعومة التي مرّ ذكرها، ونكتفي بذكر نموذجين من هذه الشواهد:

الأوّل: إن تلك المقترحات المزعومة ذكرت في المصادر المهمّة، مثل: (تاريخ الطبري) و(الكامل في التاريخ لابن الأثير) بعناوين مجهولة مثل قيل: (يتحدث

الناس)[١]، وهذا كناية عن أنّ عمال بني أمية صاغوا تلك الأحاديث لخدمة سياساتهم، وللتأثير في أفكار الناس، ثم نسبوها إلى الحسين عليه السلام بوسائط مجهولة حتى تؤثر أثرها، كما نرى في عصرنا الحاضر أنّ الحكومات الطاغوتية تتشبّث بالأكاذيب والشائعات لدعم سياستها الدنيوية، وفي نفس الوقت تسند هذه الأكاذيب إلى شخصيات تاريخية ماضية أو بعيدة عن مرأى الناس أو موهومة أساساً، ومن الطبيعي أنّ هذه الأكاذيب وإن اعتبرت في بداية الأمر ـ بسبب وجود الحقائق الواضحة ـ من الشائعات والأكاذيب، ولكنها بعد فترة من الزمن ظهرت في نظر المغرضين والسطحيّين وكأنّها حقائق وأحداث تاريخية اكيدة.

الثاني: إن التواريخ التي أوردت هذه التهم الباطلة قد كذّبت بنفسها هذه الموضوعات، فمثلاً نجد في تأريخي الطبري وابن الأثير أنّهما بعد أن ذكرا المقترحات المزعومة للإمام الحسين عليه السلام أوردا خبراً عن (عقبة بن سمعان) غلام الإمام الحسين عليه السلام الموثوق به، حيث قال: كنت مع الحسين دائماً ولم أسمع منه هذه الكلمات مطلقاً، بل كان يقول فقط: «دعوني لأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس»[٢].

إلى هنا ثبت بدلائل العقل والمنطق وشواهد التاريخ أنّ المقترحات الثلاثة، خاصة مع ملحقاتها الأرداء جدّاً ليست لها حقيقة إطلاقاً. وليس هذا معتقد الشيعة فحسب، بل صرّح بذلك علماء أهل السنة المنصفون أيضاً، فعلىٰ سبيل المثال يقول (العقّاد المصري): «الذي نراه من مراجعة الحوادث والأسانيد أنّ الحسين ربّما اقترح الذهاب إلى يزيد ليرى رأيه، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه ويضع يده في يده ... لأنه لو قبل ذلك لبايعه في مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به إلى وجهته، ولأنّ أصحاب الحسين في خروجه إلى العراق قد نفوا ما جاء في ذلك الكتاب، ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول: «صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ٣١٣؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٥٤.

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٣؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٥٤.

العراق، ولم أُفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته إلى يوم قتله .... فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيّروه إلى ثغر من الثغور، ولكنّه قال: «دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس!»[١].

وهنا نأتي إلى البحث عن كلامٍ آخر للإمام الحسينعليه السلام عندما أحاق به الخطر، والذي قد يشير إلى أنّ الإمام الحسينعليه السلام قرّر الرجوع من الكوفة، وسنذكر في ضمنه نقطتين أُخريين بشأن المقترحات الثلاثة المذكورة آنفاً، وإحدى هذه الكلمات المسالمة ما ذكرناه آنفاً من خبر عقبة غلام الحسينعليه السلام، كما نذكر نماذج أُخر ممّا ورد من عباراته التي يشتكي فيها إلى بعض أصحابه مثل «لو ترك القطا لنام»[٢] أو ما قاله لجيش عمر بن سعد: «بم تستحلّون دمي ...» ومثل «إن لم يكن لكم دين ... فكونوا أحراراً في دنياكم ...» ومثل «أما من مغيث يغيثنا لوجه الله، أما من ذابٍّ يذبّ عن حرم رسول الله...»[٣].

تصريحات وأهداف

هذا النوع من العبارات والتصريحات رغم أنها صحيحة في الجملة، ولكنّ المهم هو أن نرىٰ ما هي مقاصد الإمام الحسينعليه السلام من ذلك؟

يمكن في الجواب أن نبحث مقاصد الإمام في ثلاثة أُصول عقلائية وهي: (المسالمة)، (النصيحة)، (السياسة).

الأصل الأوّل: لم يكن من منهج ثورة الإمام الحسينعليه السلام قتال أهل الكوفة الذين كانوا يشكّلون أكثرية جيش عمر بن سعد؛ لأنّ أهل الكوفة وإن أُجبروا في غالبيتهم على الحرب وقتال الإمام الحسينعليه السلام، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يُعدّون من شيعة أهل البيتعليهم السلام ولو ظاهراً، ولهذا وجدنا أنّ أحاديث وكلمات الإمام الحسينعليه السلام

١. ابوالشهداء للعقاد، ص١٠١.
٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣١٩؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٩٣.
٣. اللهوف، ص ٦١؛ بحار ج ٤٥، ص ٤٦؛ لواعج الأشجان، ص ١٨١.

معهم كان يغلب عليها طابع السلم والاستعطاف من قبيل: «أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله»، «لماذا نقضتم مواثيقكم وعهودكم»، «دعوني لأذهب في هذه الأرض العريضة»، «لو ترك القطا لنام»، وهكذا كان الحسينؑ يريد أن يقول لأهل الكوفة: إنّني لا أهدف إلى حربكم وقتالكم رغم أنّكم نقضتم البيعة، فنحن لا نريد الحرب معكم وإنّكم كذلك لا تريدونها، بل ذلك ما تهدف إليه الحكومة الأموية الخبيثة، حيث أرادت أن تجعل شيعة أهل البيت يقفون ضد أهل البيتؑ ويقاتلونهم، دون أن تشرك معهم أهل الشام، ومن هذا الطريق الشيطاني تحقّق أهدافها العسكرية والسياسية في زمان واحد.

والخلاصة أنّ الكلمات المذكورة تعني استعطاف أهل الكوفة، ولا تعني أبداً موافقة يزيد وحكومته.

الأصل الثاني: هو أنّ الحسينؑ كان يريد من الجيش الذي خرج لقتاله أن يعودوا إلى رشدهم وعقولهم، ليفهموا الحق ويتخلصوا من الضلالة ومن عار محاربة أهل بيت نبيهم، فإنّ هدف رجال الله كالإمام الحسينؑ بالدرجة الأولى هو إفهام المخالفين بالنصيحة والموعظة، وهدايتهم وإنقاذهم من مخالب الحكومات الطاغوتية، وإرجاعهم إلى حظيرة الإسلام.

وكما تذكر المصادر التاريخيّة أن الكلمات العاطفية للإمام الحسينؑ كقوله:«أتطالبونني بدم سفكته ... إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم ... ارجعوا إلىٰ أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون ..» قد أثّرت تأثيراً عميقاً في صفوف أهل الكوفة إلى درجة أنّ (الحرّ الرياحي) أحد أقطاب الجيش الأموي وثلاثين نفراً من ذلك الجيش التحقوا بالإمام الحسينؑ وتركوا جيش الباطل[١].

الأصل الثالث: وهو الأهم من سائر الأصول، هو أنّ الحسينؑ بخطبه وكلماته الدفاعيّة هذه، وإظهار نفسه للناس أنه على الحق، وأنّه لم يأت للغارة، أراد أن يثبت

١. سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٢١٠.

للتاريخ والأجيال أنهعليه السلام لم يبدأ بالهجوم على الحكومة الأموية وعمّالها، ولم يكن هو الذي شرع في معاداتهم، ليجد الأمويون الذريعة المناسبة للفتك به وبأهل بيته بوحشية، بحجّة الحفاظ على النظام السياسي ومصالح المسلمين مثلاً، بل إنّ الهجوم والعداء كان من طرف الجيش الأموي، والحسينعليه السلام وأصحابه أخذوا موقف الدفاع عن النفس، ومن الطبيعيّ أن الوجهة الدفاعية للإمام الحسينعليه السلام باعثة جدّاً على تحريك ضمائر المسلمين، وهذا نظير سحق بدنه الشريف بسنابك الخيل، وشهادة طفله الرضيع، وأسر أهل بيته وإحراق خيامهم، حيث كان لها دورٌ مهم في إحراز النصر الحقيقي للإمام الحسينعليه السلام وتعرية الواقع المخزي لأعدائه.

بل يمكننا القول وبكل اطمئنان أنّ البعد الدفاعي للإمام الحسينعليه السلام وجّه للحكومة الأموية ضربة أقوى من الضربات الأُخرى التي تلقتها إثر حادثة كربلاء، حتى أقوى من أثر استشهاده، حيث كشف عن ماهيّة المدّعين للخلافة الإسلامية، الوحشية وغير الإنسانية فضلاً عن الإسلامية، فبانت وانكشفت حقيقتهم كاملة للناس ولكافة المسلمين، وبالنتيجة بعث على تحريك المجتمعات الإسلامية ضد الحكومة الأُموية.

ولتوضيح هذا الأمر المهم يمكن القول: إنّ دراسة نهضة الإمام الحسينعليه السلام توضّح بجلاء أنّ الإمام كان غالباً أو دائماً يتّخذ حالة الدفاع، وبالرغم من أنّه كان يثير الناس بكلماته وكتبه ويهيّج فيهم عناصر الثورة ضد الحكومة الفاسدة، ومع ذلك فإنّنا نجده يركّز مثلاً على دعوة أهل الكوفة إيّاه. وهدف الإمام الحسينعليه السلام من اتخاذ هذه المواقف الدفاعية هو أن يقف حائلاً أمام الأكاذيب والشائعات التي طرحها الحكام الأمويون ويجهضها، حتى لا يكون بمقدورهم إظهار ثورته المقدّسة على أنّها هجمة عدوانية مفسدة تريد الإخلال بأمن الناس، كما نشاهد مثل هذا التدليس بالنسبة إلى الحكومات الفاسدة في العالم اليوم، والتي تقمع الثورات الإصلاحية والانتفاضات الشعبية بذريعة أنها مجموعة من الغوغاء والانتهازيين، وأنهم معتدون لا يرتبطون بالناس، وبهذه الطريقة يستطيعون قمع المعارضة وحركة

التصحيح عمليّاً وسياسيّاً.

وإحدىٰ هذه الموارد التي اتخذ فيها الإمام الحسين عليه السلام موقع المدافع، هو ما ذكره في جوابه لعمر بن سعد عن سبب توجهه نحو الكوفة، وهو قوله: «كتب إليّ أهل مصركم هذا أن أقدم، فأمّا إذ كرهوني فأنا أنصرف عنهم»[١]، وكما نرى أنّ جواب الإمام الحسين عليه السلام هذا لا يرتبط بأصل النهضة والثورة، بل بسفره إلى الكوفة، وما ذلك إلّا ليؤكّد على مسؤولية أهل الكوفة في سفره هذا ويتّخذ له بُعداً دفاعيّاً.

والمورد الآخر هو ما نجده في كلماته إلى الجيش القادم لحربه، والذي يُشكّل أهل الكوفة غالبيته، وهو قوله: «أيّها الناس معذرة إليكم إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم ...»[٢] وهنا أيضاً نرى أنّ الإمام الحسين عليه السلام يتحدّث عن سفره إلى الكوفة فقط، ويوكّد على أنّ أهل الكوفة هم الذين دعوه إليها فهم مسؤولون عن مجيئه إليهم، وليس كلامه في أصل الثورة؛ لأنّه يقول: «إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم» ولم يقل: «إنّي لم أنهض حتى أتتني كتبكم».

وهدف الإمام الحسين عليه السلام من هذه العبارات الدفاعية هو أن لا يدع للأعداء فرصة اتهام ثورته بالإخلال بأمن الناس، وإثارة الفتن بين المسلمين، ثمّ ليفضح أساليب الحكومة اليزيدية في ذلك، وبالتالي تحقيق الانتصار عليها سياسيّاً ثمّ عمليّاً. هذه السياسة الفذّة لها أهمية كبيرة جدّاً في كسب وهداية أفكار الناس، من هنا كان الإمام عليّ عليه السلام يهتم كثيراً بهذه السياسة ويقول: «لاتقاتلونهم حتى يبدؤوكم، فانّكم بحمدالله على حجّةٍ وترككم إيّاهم حتى يبدؤوكم حجّة أُخرى لكم عليهم...»[٣]، يعنى كونوا أوّلاً مدافعين لا مهاجمين.

ويمكن القول بأنّه من أجل إظهار السياسة الدفاعية، جلب الإمام الحسين عليه السلام

---

١. الارشاد، ج ٢، ص ٨٥؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١١؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٢.

٢. الإرشاد، ج ٢، ص ٧٩؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٣؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٧.

٣. شرح النهج، ج ١٥، ص ١٠٤.

كتب أهل الكوفة معه وأظهرها لقادة الجيش الأموي وغيرهم[١]، وكذلك من أجل دعم هذه السياسة الدفاعية، جلب معه عياله وأطفاله، وجعلهم بشكل غير مباشر في معرض هجوم الأعداء، وبالرغم من أنّه لو تركهم في المدينة فلا يبعد أن يقوم الأمويون بأسرهم، أوالقضاء عليهم من أجل التضييق على الإمام الحسين‌عليه‌السلام، ولذلك اضطرّ الحسين‌عليه‌السلام لأن يصحبهم معه في سفره هذا ليطمئنّ إلى وجودهم بجانبه، ويستمرّ هو في ثورته مهما طالت الأيام والشهور، كذلك وجدناه‌عليه‌السلام ـ و من أجل ترسيخ هذه السياسة الدفاعية ـ يركز كثيراً على مبادىء الإسلام وكلمات الرسول الأكرم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ليمنع انحراف الأذهان عن خط الإسلام الأصيل أولاً، ويحصنها ضد دعايات ووساوس الحكومة الأموية التي كانت تبثها بين الناس ثانياً.

ومن نماذجها أنّه‌عليه‌السلام طلب من أخيه (محمد بن الحنفية) أن يقول للجميع: «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر...»[٢].

نقطتان أُخريان

والخلاصة أنّ اتّخاذ الإمام الحسين‌عليه‌السلام سياسة الدفاع لم تكن لإتمام الحجة على الأعداء فقط، بل كانت سياسة مؤثرة كثيراً في إثارة ضمائر المسلمين وعواطفهم ضد الحكومة الأموية أيضاً، ولا يبعد أن يكون ذلك أكثر تأثيراً حتى من دمه المبارك، وهنا يجدر بنا ذكر نكتتين أُخريين حول تلك المقترحات المزعومة الثلاثة التي استوفينا البحث عنها في الصفحات السابقة.

النقطة الأولىٰ: هي أنّ تلك الإقتراحات الثلاثة على فرض أنّها كانت صحيحة، ولها واقعية مع قطع النظر عن إضافاتها السخيفة، والتي لا يمكن قبول صحتها مطلقاً، فالطبري صاحب تاريخ الأمم والملوك يذكر في موضع آخر من تاريخه أنّ الإمام

١. الارشاد، ج٢، ص ٨٠؛ تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٣؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤٧.
٢. مقتل الحسين للخوارزمي، ج١، ص١٨٨.

الحسين عليه السلام اقترح أن يرجع إلى المدينة أو يذهب إلى أحد الثغور أو إلى يزيد[١]، وكما نقلنا آنفا عن العقاد: إنّه أراد حلّ المشكلة بالمفاوضات، حتى إنّ ابن كثير المتعصب والمدافع عن حكومة يزيد ذكر المقترحات الثلاثة بهذه الصورة نقلاً عن يزيد نفسه، فقال: «قال يزيد: لعن الله بن مرجانة فإنّه أخرجه واضطرّه، وقد كان سأله أن يخلّي سبيله أو يأتيني أو يكون بثغرٍ من ثغور المسلمين حتى يتوفّاه الله، فلم يفعل، بل أبىٰ عليه وقتله فبغّضني بقتله إلى المسلمين»[٢].

وبناءً على هذا فإنّه حتى يزيد لم يذكر ولا كلمة عن البيعة من الإمام الحسين عليه السلام له، فمن أين جيء بتلك الإضافات الباطلة الذليلة؟ إنّه عالم الوضع والتزوير الذي يتقبل المستحيلات!

وأمّا المقترحات الثلاثة بهذه الصورة التي ذكرها ابن كثير والطبري في نقله الآخر وجماعة آخرون، فالنقطة الأُولى فيها هي أنّ الحسين عليه السلام كان يرى أن عبيدالله بن زياد يريد منه الاستسلام المطلق وبدونه فهو مصرّ على الحرب، ولذلك طرح الإمام الحسين عليه السلام هذه المقترحات الثلاثة ـ مع علمه بأنّ عبيدالله بن زياد لا يوافق عليها ـ لكي يُظهر نفسه ونهضته بصورةٍ سلمية، ويلقي بتهمة طلب القتال والحرب على حكومة بني أمية، ومن هنا يستطيع أن يحقق أهدافه الثورية في حث وجدان المسلمين وتحريك عواطفهم.

النقطة الثّانية: هي أنّ الحسين عليه السلام كان يريد بواسطة هذه المقترحات أن يكسب الوقت ليتحرك في زمان أطول، ثم يغتنم بعد ذلك الفرصة المناسبة، وقد لاحظنا نظير هذا الأمر في موقفه بعد وفاة معاوية في مجلس (الوليد) حاكم المدينة، فبالرغم من أنه كان مصمّماً على المخالفة وعدم البيعة ليزيد، فقد أجاب الوليد بهذا الأُسلوب السياسي: «إنّ مثلي لا يعطي بيعته سرّاً، ولا أراك تجتزىء بها منّي سرّاً

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٣ و ٣١٣.

٢. تاريخ ابن كثير، ج٨، ص٢٥٤.؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٨٩.

دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية...»[١].

وبذلك استطاع استغلال الفرصة للتوجه فوراً من المدينة إلى مكة التـي تـعتبر مكاناً آمناً نسبياً، وهناك أعلن عزمه على الثورة علناً.

يمكن أن يقول البعض: إنّ هذه الأساليب السياسية قد تكون مرفوضة وتـعتبر نوعاً من المراوغة غير المناسبة لمقام الإمامعليه السلام، وفي الجواب عن هذا الإشكـال الساذج نذكّر بالحديث النبوي القائل: «الحرب خـدعة»[٢]، مـع أنّ العـقلاء أيـضاً يجيزون ذلك، بل يجدونه ضرورياً في الحروب، ولذا يؤيّدون كل ما يكون مشروعاً ويمكن أن يؤثّر إيجابياً في دعم الثورة وتحقيق أهدافها الظاهرية أو الباطنية.

وكيف كان فإنّ كلمات الإمام الحسين المذكورة، كما رأينا آنفاً، كـان لهـا بـعدٌ دفاعيّ في الغالب، ولا بد لفهم أهمية البعد الدفاعي لنهضة الإمامعليه السلام، أن نلاحظ من جانب آخر ما قامت به الحكومة الأموية من إعلام مكثّف ودعايات واسعة ضـد الإمام وأصحابه، حتى إنّهم صوّروا الإمام في أذهان المسلمين أنه خارجي وباغٍ؛ ليعطوا قمعهم الوحشي لثورة الإمام وأصحابه صبغةً شرعية، الأمر الذي كان له تأثير واسع طبعاً في ضلال وإضلال كثيرٍ من الناس، والشواهد على ذلك كثيرة نكـتفي بذكر واحدٍ منها رعاية للاختصار.

إرتكاب الظلم وادعاء المظلومية!

(عمرو بن سعيد) الحاكم الأموي على المدينة بعد أن جاءه خبر واقعة كربلاء دعا الناس إلى المسجد، وبعد أن أخبرهم بالخبر قال وبمنتهى الوقـاحة: «... والله لوددت أن رأسه في بدنه وروحه في جسده، وأحياناً كان يسبّنا ونمدحه ويـقطعنا ونصله، كعادتنا وعادته، ولم يكن من أمره ما كان، ولكن كيف نصنع بمن سلّ سيفه

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٥١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٥.

٢. مـروج الذهب: ج٢، ص٣٥٦؛ شـرح النـهج: ج٤، ص١٥٠ وج٦، ص١٣١ و ج١٥، ص٣٢ و ج١٦، ص٢٣ و ج١٧، ص١٧..

يريد قتلنا إلّا أن ندفع عن أنفسنا»، والجدير بالذكر أنّ الحاكم الأموي هذا نفسه، وفي أثناء خطبته هذه قام إليه أحد الحضور وقال: «أما لو كانت فاطمة حيّةً فرأت رأس الحسين لبكت عليه» فردّ عليه عمرو بن سعيد قائلاً: «نحن أحق بفاطمة منك، أبوها عمّنا وزوجها أخونا، وابنها ابننا، أما لو كانت فاطمة حيّةً لبكت عينها وحزن كبدها، ولكن ما لامت من قتله ودفع عن نفسه»[1]، يعني أنّ الحسين عليه السلام كان هو المهاجم ونحن المدافعون، والدفاع عن النفس حقٌّ طبيعيٌّ لجميع الناس.

وبشكل عام فإنّ الأُسلوب السياسي للحكومة الأموية في قلب الحقائق ـ وهو حال سائر حكام الجور والطواغيت في الدنيا ـ أنّها في الوقت الذي تظلم فيه الناس فإنها تدّعي المظلومية، بل إنّ أمثال هؤلاء الظلمة والمستكبرين يقيمون العزاء والنائحة على ضحاياهم، وبهذه الوسيلة الملتوية يظهرون أنفسهم بمظهر العدالة والشفقة على الناس ظاهراً، ويتلاعبون بأفكار الناس وعواطفهم واقعاً.

هذه هي الأساليب الشيطانية على المستوى السياسي لهذه الحكومات، على أنّنا نجد شواهد كثيرة على المستوى الاجتماعي أيضاً تحكي عن اضطرابٍ نفسي وخداع وجداني، وأحد هذه الموارد ما نقرؤه عن جناة أهل الكوفة، فبالرغم من مسؤوليتهم الكبيرة والمباشرة في قتل وأسر أهل بيت النبوة، مع ذلك كانوا يبكون على هذه المصيبة، ويقدّمون التمر والخبز إلى أيتام الحسين عليه السلام، فإنّهم في الحقيقة يحاولون بذلك التظاهر بعواطفهم ومشاعرهم الإنسانية، إرضاء ضمائرهم النادمة والمضطربة التي راحت تؤنب بعضاً أو كثيراً منهم.

وعلى أيّ حال، ما ذكرنا آنفاً هو نموذج من دعايات الحكام الأمويين الخادعة، والغريب أنّهم حتى في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ـ وبين الأهالي المتعاطفين مع الحسين عليه السلام وبين أقربائه وأرحامه ـ يذكرون وبكل صلف تلك الادّعاءات الزائفة، فكيف الحال في المدن البعيدة التي يتضاعف فيها طبعاً تأثير الإعلام المضلّل؟ فأخذوا يصوّرون

---

١. مقتل الحسين للخوارزمي، ج ٢، ص٧٧؛ شرح النهج، ج ٩، ص ٣٦١.

الإمام الحسين عليه السلام بأنه خارجيّ وباغ على خليفة المسلمين، وأنّ الخليفة اضطر إلى قتله للدفاع عن مصالح المسلمين.

وبما أنّ الحسين عليه السلام كان على معرفة تامة بهذه الدعايات المسمومة ضده، فلهذا ركّز على سياسته الدفاعية وطابع المظلومية؛ لكي تكون نهضته المقدسة مثمرة ومفيدة من جهة، ويسحب البساط من تحت أرجل حكومة اليزيديين من جهة أخرىٰ، ولقد اتضح بها للمسلمين جميعاً وللتاريخ أنّ الحسين عليه السلام لم يكن المعتدي والبادىء بالهجوم، بل إنّ الحكومة اليزيدية هي التي بدأت به وتجاوزت حدود الشرع والإنسانية، وهكذا تحقق الهدف الأساس للإمام الحسين عليه السلام من نهضته، وهو فضح الحكومة الأموية وكشف القناع عن أساليبها الشيطانية الوحشية، وإحراز الانتصار الحقيقي لنهضته وعلى مرّ التاريخ.

وقد تبيّن لنا في الصفحات الأخيرة أنّ الإمام الحسين عليه السلام ابتغىٰ من كلماته السلمية المذكورة مقاصد اجتماعية وتربوية وسياسية مهمة، وأمّا بالنسبة إلى قوله الأخير عليه السلام: «لو تُرك القطا لنام»، فينبغي الالتفات إلى نكتة أُخرى أيضاً مضافاً إلى ما قلنا آنفاً، وهي أنّه عليه السلام عنىٰ من كلامه أنّ حكومة يزيد المضادة لأساس الإسلام هي التي أوجبت عليّ أن أقوم ضدها للدفاع عن مصالح الأُمة الإسلامية حتى الشهادة، ولم يعن هذا الكلام أنّه عليه السلام ليس أمامه طريقٌ لخلاص نفسه، أو أنّه لم يتوقّع خطر العدو على نفسه في المستقبل، أو أنّه اضطرب لإحساسه بهذا الخطر، وذلك أنّنا رأينا على الصفحات السابقة أنّه كان بإمكان الإمام عليه السلام أن يبايع يزيد فيبقى حيّاً بل مُكرماً، ولكنّه لشعوره بخطر حكومة يزيد على كيان الإسلام رأىٰ جهادها واجباً عليه وعلى كل مؤمن،ولهذاقاملمواجهتها إلى حد التضحية بكل شيء، وقد أخبر عليه السلام وهو في مكة عن استشهاده في مواجهته لها، فقال: «لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم»، وقال أيضاً: «وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه».

إنصاف يتبعه اعتراف

وفي خاتمة هذا المبحث، ومن أجل الوقوف على خلاصة ما تقدم من أبحاث، نلفت نظر القرّاء الكرام إلى بعض تصريحات الإمام الحسين عليه السلام في مقاطع زمانية مختلفة من ثورته، والتي وردت في المصادر المعتبرة للسنة والشيعة، كيما تتضح حقيقة ثورته بصورة أكمل وأظهر، فلقد صرّح الإمام الحسين عليه السلام قبل سفره إلى الكوفة أو في مسيره هذا بكلمات بيّنة ومبيّنة، منها أنه قال:

١ ـ «أما والله لا أُجيبهم إلى شيء ممّا يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضبٌ بدمي»[١].

٢ ـ وقال أيضاً: «كأنّي بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء»[٢].

٣ ـ وقال أيضاً: «من لحق بي استُشهد...»[٣].

٤ ـ وقال أيضاً: «وايم الله ليقتلونني فيلبسهم الله ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً»[٤].

٥ ـ وقال أيضاً:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما[٥]

٦ ـ وقال أيضاً: «القتل أولى من ركوب العار»[٦].

٧ ـ وقال أيضاً: «هيهات منّا الذلة ... نفوسٌ أبيّة وأنوفٌ حميّة، لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[٧].

٨ ـ وقال أيضاً: «والله لو لم يكن في الدنيا ملجأً ولا مأوى لما بايعت يزيد أبداً»[٨].

---

١. اللهوف، ص ١٠١؛ المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٩. ٢. اللهوف، ص ٣٨؛ المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٥.

٣. المناقب، ج ٤، ص ٧٦؛ اللهوف، ص ٦٥؛ كامل الزيارات، ص ١٧٥

٤. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩٣؛ دعائم الإسلام، ج ١، ص ٣٩١.

٥. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٩؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٨١.

٦. اللهوف، ص ٧٠؛ مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ٢٢٤.

٧. تحف العقول، ص ٢٤١؛ اللهوف، ص ٥٩.

٨. المقتل للخوارزمي، ج ١، ص ١٨٢ و ١٨٨؛ معالم المدرستين، ج ٣، ص ٣٠٢.

٩ ـ وقال أيضاً: «ومثلي لا يبايع مثله»[١].

١٠ ـ وقال أيضاً: «فهل هو إلاّ الموت فمرحباً به»[٢].

١١ ـ وكذلك نقرأ في كلمات عمر بن سعد وزجر بن قيس وغيرهما من الأعداء أنّهم قالوا: «لا يستسلم والله الحسين أبداً إنّ نفساً أبيّة لبين جنبيه»[٣].

١٢ ـ وكذلك ورد قولهم: «فاختاروا القتال على الاستسلام»[٤].

ومن الواضح لكلّ إنسان منصف، مع الأخذ بنظر الاعتبار هذه التصريحات الكثيرة للإمام الحسين عليه السلام في جميع مراحل ثورته، أنّه لابدّ من الاعتراف بأنّ تلك الأحاديث والمقترحات التي دار البحث حولها آنفاً، إمّا هي أكاذيب موضوعة، أو يُقصد منها بعض المقاصد السياسية أو شبهها كما تقدّم تفسيرها.

من مجموع أبحاث الصفحات الأخيرة نستنتج أنّ نظرية السيد علم الهدى لردّ إشكال المخالفين وقوله: إنّ الحسين عليه السلام كان واثقاً بالنصر الظاهري وتكوين الحكومة الإسلامية ولهذا السبب أعلن ثورته. وكذلك نظرية (الشهرستاني) المتقاطعة والمتباينة مع نظرية علم الهدى، حيث يقول: إنّ الحسين عليه السلام لم يكن غير واثق بالنصر العسكري وتكوين الحكومة فحسب، بل كان يعلم أيضاً أنّه حتى لو بايع فسوف يُقتل؛ لأنّ الحكومة الأموية تنطلق في تعاملها مع المعارضين من موقع العقدة والانتقام، خاصة بالنسبة إلى الحسين بن عليّ وسائر أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله من بني هاشم، ولذا خرج عليه السلام من مكة والمدينة ليحفظ نفسه من القتل. فقد ثبت من خلال البحث أنّ هاتين النظريتين غير صحيحتين، ولا يقوم عليهما دليل سليم. والنظرية الصحيحة التي عليها أكثر المحققين هي أنّ الحسين عليه السلام لم يكن واثقاً بالنصر الظاهري وتكوين الحكومة، وفي نفس الوقت كان يعلم أنّه إذا بايع فسوف

---

١. اللهوف، ص١٧؛ مقتل الخوارزمي، ج ١، ص ١٨٤.

٢. الاخبار الطوال، ص٢٥٤.

٣. تاريخ الطبري ج ٤، ص٣١٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٨٣.

٤. الإرشاد، ج٢، ص١١٨؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٥١؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٨٣؛ العقد الفريد، ج ٥، ص١٢٢.

يبقى حيّاً سالماً، ولكن بما أنّه كان يرى أنّ حكومة يزيد المتهتك تعتبر خطراً على الإسلام ومصالح المسلمين، فلهذا رأى أنّ الواجب عليه الدفاع عن كيان الإسـلام وهداية المسلمين، وبثّ روح الثورة والمقاومة فيهم. ومن الطبيعيّ أن يكون هدفه ـ ولو على المستوي الإعلامي ـ تشكيل الحكومة الإسلامية حتى مع وثوقه بالموت والشهادة في هذا السبيل، خاصة وأنّه عليه السلام كان يعلم أنّ جهاده واستشهاده سيحقّقان النصر الحقيقي لثورته الإسلامية والإنسانية وبالتالي انهيار الحكومة الأموية الظالمة كما تقدم توضيحه.

ومنشأ هذه الثقة للإمام الحسين عليه السلام من جهتين أو لأمرين، سنأتي على بيانهما في الفصل الرابع التالي ونجملهما هنا:

الأوّل: صحّة هدفه في نظر المسلمين إضافة إلى كونه شخصية محبوبة جدّاً بين المسلمين، وخاصة بالمقارنة مع يزيد.

الثاني: إن حكومة يزيد حكومة ممقوتة بين المسلمين، ويـرونها غـير مـؤهّلة للحكم؛ لأن منهجها مخالف للإسلام بشكلٍ علني، مما يساعد فـي تـفعيل نـهضة الإمام الحسين عليه السلام ويكسبها الشرعية بين الناس. وهنا نبحث في الخـطبة الثـورية للإمام الحسين عليه السلام المعتمدة والتي ستكون محور البحث في المـقولة الرابـعة مـن المقولات الأربع التي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل.

* * *

المقولة الرابعة:
والخطبة الثورية للإمام الحسين عليه السلام

في هذه المقولة نستعرض أهداف الإمام الحسين عليه السلام وبرامجه وتطلعاته لقـيادة المسلمين من خلال خطبته الثورية، وقبل الورود في البحث نـلفت النـظر إلى أن خطبة الإمام الحسين عليه السلام هذه لا تدل على أنّ الإمام كان واثقاً بالنصر الظاهري، بل تدل على أنّ الإمام كان يهدف لتوضيح مرام ومقاصد الحكومة الإسلامية والحكام

الإسلاميين حتى في حال الخطر وعند الشهادة، والشاهد على هذا الأمر أنّه عليه السلام خطب خطبته تلك حينما حوصر من قِبل الحرّ، الذي قاد جيشاً يمثل الحكومة الأموية.

وكيف كان فقد وردت هذه الخطبة الثورية للإمام الحسين عليه السلام في الكتب المعتبرة من الشيعة وأهل السنة وهي: «أيّها الناس إنّ رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لمحارم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسوله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد في الأرض وأبطلوا الحدود وشربوا الخمور وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلال الله واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين، وأنا أولى من قام بنصرة دين الله لإعزاز شرعه والجهاد في سبيله، وأنا أولى من غيّر لتكون كلمة الله هي العليا، وقد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنّكم لا تسلموني ولا تخذلوني فإن تممتُم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن عليّ وابن فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، ولكم فيّ أُسوةٌ حسنة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيّعتم ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه»[1].

وهذه الخطبة تعتبر من أكمل الخطب للإمام الحسين عليه السلام، والأساس في نهضته المقدّسة، فهي من جهة تتحدث عن مسؤوليات المسلمين إزاء الحكومة والحكام، ومن جهة أُخرى تتحدث عن أنّ الحكومة والحكام من صميم الإسلام، وتتحدث عن ميزتها وعن ميزتهم، ونشرع في توضيح الجهة الأُولى، ثم نبحث عن الجهة الثانية:

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٤؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤٨؛ المقتل للخوارزمي، ج١، ص٢٣٤.

أمّا عن الجهة الأُولى: فيجب القول إن الحسين عليه السلام في خطبته هذه وخاصة عند قوله: «يدخله مدخله»، يركّز على حقيقة إسلامية مهمة، وهي أنّ الإسلام ليس ديناً فردياً فحسب، بل هو دين اجتماعي أيضاً. فالإسلام من ناحية يفرض الواجبات الفردية والشخصية، من قبيل الصلاة والصوم، التي تركّز على إصلاح النفس غالباً، ومن ناحية أُخرى يهتم بالواجبات الاجتماعية، من قبيل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تركّز على إصلاح المجتمع غالباً، بل إنّنا بالتأمّل الدقيق نصل إلى هذه الحقيقة الأهم، وهي أنّ الواجبات الفردية والشخصية في الإسلام ـ مع كونها في نفسها شخصية ـ لها في الواقع نتائج وآثار اجتماعية أيضاً. وأنّ الواجبات الاجتماعية في الإسلام، مع كونها في نفسها اجتماعية؛ لكنها لها نتائج وآثار شخصية أيضاً، وهكذا تتضح المقولة المعروفة (الإسلام عبادته سياسة وسياسته عبادة) يعني في الإسلام العبادة التي هي أهم الوظائف الفردية لها بعدٌ اجتماعيٌّ أيضاً، كما أنّ السياسة التي هي أهم وظيفة اجتماعية لها بعدٌ فرديٌّ أيضاً.

الترابط بين الوظائف الفردية والاجتماعية

ولابدّ من أن تُبحث في كتابٍ مستقلٍ الآثار والنتائج الاجتماعية للواجبات الفردية، وكذلك الآثار والنتائج الفردية للواجبات الاجتماعية، ولكننا هنا ما نعدم القارىء الكريم لمحة ولو على سبيل الاختصار من أنّ الإنسان في دائرة الفكر الإسلامي ذو بعدين: فردي واجتماعي، وفي النتيجة فإنّ له وظائف على نوعين، فردية واجتماعية، ولما لم يكن بالإمكان الفصل بين البعدين الفردي والاجتماعي في الإنسان؛ لأنه موجود اجتماعي ولا بدّ له من أن يعيش مع الآخرين ويتعاون معهم، فلهذا لا يمكن أيضاً الفصل بين الوظائف الفردية والاجتماعية للإنسان من جهة التشريع، وهذا هو السر فيما قيل: إنّ المسلم الحقيقي هو الذي يعمل بواجباته الفردية وواجباته الاجتماعية في نفس الوقت، لا أن يهتم بتنفيذ واجباته الفردية ويترك مسؤولياته الاجتماعية، ويظلّ متفرجاً على المفاسد تنتشر في المجتمع،

فمثل هذا الشخص لا يعتبر نصف مسلم أيضاً، بل إنّه غير مسلم وضد مبادىء الإسلام، ولهذا يصرّح الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «يدخله مدخله»، يعني مثل هذا يكون كالسلطان الجائر المستحل لمحارم الله في النار.

فعلى هذا فإنّ مفهوم الخطبة الثورية للإمام الحسين عليه السلام لا يقتصر على تبيين الوظائف والواجبات الاجتماعية كالجهاد والأمر بالمعروف وبيان أهميتها، بل مفهومها الأساس أنّ الواجبات الفردية مقرونة مع الواجبات الاجتماعية وممتزجة بها، بحيث إنّ العمل بكل واحد منها لا يمكن في الحقيقة أن يتم بدون العمل بالآخر، ولا قيمة له منفصلاً عن الآخر، وهذه النكتة الحساسة أشار إليها النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «من أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم»[1]. وكذلك قوله: «إذا رأى الناس الظالم ولم يأخذوا على يده ولسانه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب»[2].

والقرآن الحكيم يؤكد أيضاً هذه الحقيقة بتعبيراتٍ بليغة وجذّابة، ومن باب المثال يقول بالنسبة لليهود في زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾[3]، ومن الواضح جداً أنّ اليهود في زمان النبي صلى الله عليه وآله لم يقتلوا الأنبياء السابقين، بل قَتلهم آباؤهم، ولكن بما أنّهم كانوا موافقين لآبائهم أو أنّهم لم يخالفوهم على الأقلّ، فلذلك صرّح القرآن الكريم بأنّهم أيضاً قاتلون للأنبياء وموضع غضب الله.

والخلاصة أنّ منطق الإسلام هو أنّه إذا كنت ضد الظلم وترىٰ الظلم أمراً قبيحاً، فعليك أن تترك الظلم في المجالات الفردية والاجتماعية كليهما، وعليك أيضاً أن تواجه الظالمين وتقف أمام ظلمهم بقدر الإمكان، وهذه المسؤولية الشاملة والكلية من لوازم التفكير الديني والإنساني، ولا تتحدد بالنسبة إلى الحال أو الماضي، والفرد أو المجتمع، والأقرباء أو الأجانب، بل تشمل الجميع، وتسري إلى كل أبعاد الحياة، وكل جوانب التاريخ والجغرافية البشرية، وبهذا تجعل من الإنسان فرداً ملتزماً

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٦٣.
٢. ذكر بعض مداركه في صفحة ٤١١.
٣. سورة البقرة، الآية ٩١.

اجتماعياً بل عالمياً، بحيث إنّه يشعر بالاشتراك الوجداني مع سائر الأفراد والمجتمعات ولو فصلتهم عنه آلاف السنين أو آلاف الكيلومترات، وينعكس ذلك طبعاً على سلوكه وأعماله.

أهمّ الفرائض الاجتماعية

قد أشرنا إلى أهمية الواجبات الاجتماعية، وامتزاجها بالواجبات الفردية، والآن لِنرَ أهم الواجبات والفرائض الاجتماعية في الإسلام، التي اعتمدها الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثورية.

من المعلوم أنّ الهدف الكلّي من الواجبات الاجتماعية في الإسلام هو تطهير المجتمع من الظلم والفساد بالمقدار الممكن، وفسح المجال أمام الإنسان للتعالي والتسامي في سلّم السلوك الإنساني، ومع الالتفات إلى هذا الهدف الكلّي، ينبغي القول إنّ أهم الفرائض الاجتماعية للفرد المسلم هو ما وقع في دائرة الحكام والحكومات؛ لأنّ الحكام والحكومات مركز لقيادة المجتمع، وهي متوغّلة في جميع شؤون الحياة الشخصية والاجتماعية لأفراد المجتمع بشكلٍ مباشر أو غير مباشر.

فالحكومات تستطيع، من خلال ما تتخذه من أساليب في الحكم وإدارة المجتمع، القضاء على الظلم والفساد بل اجتثاثه من جذوره، ومن حل مشاكل الناس جذريّاً وفتح آفاق التطور والتقدم في كل مجالات الحياة أمامهم، فمثلاً من خلال التطبيق الكامل والتام للقوانين الحقوقية، يمكنهم التصدي لكل أشكال العدوان والحؤول دون حدوث الفوضى والفساد في المجتمع.

وكذلك تستطيع، من خلال الإدارة الحكيمة لمراكز التعليم والتربية ومراكز الإعلام والتبليغ العامة، ترشيد الأفكار وتنمية ثقافة الناس بشكل جيّد ومطلوب.

وكذلك تستطيع، بواسطة استغلال الثروات المادية والمعنوية للناس بشكل صحيح، تهيئة الظروف اللازمة للتكامل الفردي والاجتماعي في شتّى المجالات.

وبديهيٌّ أنّ حكام المجتمع، بالنسبة إلى قيامهم بهذه الوظائف والواجبات

الإسلامية والإنسانية، لابدّ لهم من إصلاح أنفسهم بالدرجة الأولى حتى يمكنهم التوجه والعمل في سبيل إصلاح الآخرين، فلولم تكن لديهم اللياقة والمؤهّلات الكافية، ولم يكونوا صلحاء في أنفسهم، فلا شك أن ذلك يبعث على فساد المجتمع وإفساده بدلاً من إصلاحه وتكامله، ومن ذلك يقول الإمام عليّ‏عليه‌السلام في بيان أهمية صلاحية الحكام: «فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة»[1].

ومن هنا يتضح أن المثقفين والملتزمين الذين يريدون العمل بمسؤولياتهم الاجتماعية في إصلاح المجتمع يجب أن يتصدوا في الدرجة الأُولىٰ لانحراف الحكام وفسادهم؛ لأنّه يبعث على انحراف المجتمع وانحطاطه، وطبيعيٌّ أنّه إذا واصلوا هذا التصدي والوقوف بوجه فساد الحكام، فسوف تتعاطف الجماهير المضطهدة وتتحرك معهم، وفي النتيجة يضطرّ هؤلاء الحكام الفاسدون إلى التخلي عن الحكومة ومجيء الصالحين مكانهم، أو على الأقل أن يتّبعوا سياسة ومنهجاً نافعاً للمسلمين لكي يحفظ مكانتهم ومنزلتهم، ولهذا نقول: إنّ التصدي للحكام الظالمين من أكثر الواجبات أهمية ونفعاً في مجال أداء الوظائف والفرائض الاجتماعية؛ لأنه موجب لإصلاح مؤسسات الحكومة وجهازها الحاكم، وتمهيد أرضية التكامل والرقي للمجتمع، وبالتالي تقوية الدولة أمام خطر الأعداء الخارجيين ولهذا قال رسول‌الله‏صلى‌الله‌عليه‌وآله: «أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند إمام جائر»[2].

ثلاثة أنواع من الجهاد المتداخلة

من معطيات هذا الحديث النبوي الشريف والتي ذكرناها قبل قليل أنّ الشعوب ـ وخاصة الإسلامية منها ـ لا بدّ لها من التصدي للأعداء الأجانب الطامعين في بلادهم، ولكن في الدرجة الأُولى لابد لهم من تقوية البنية الداخلية حتى يتمكنوا

---

١. شرح النهج، ج ١١، ص ٩١.

٢. وسائل الشيعه، كتاب الأمر بالمعروف الباب ٢ و ٣؛ تفسير المنار، ج ٤، ص ٣٢ نقلاً عن النسائي وأحمد والطبراني و....

من مواجهة العدو الخارجي، ولا يتحقق ذلك البناء إلّا بقيام الحكومة العادلة، والنظام الصالح لهذه الحكومة، حتى تقود الناس إلى الصلاح والسعادة، وبالتالي القدرة والعظمة والعزة في جميع المجالات على الصعيدين الداخلي والخارجي.

مضافاً إلى هذا الدليل العقلي، فإنّ صفحات التاريخ أيضاً شاهدة على أن المجتمعات البشرية التي كانت محرومة من الحكومة العادلة والنظام الصالح، قد وقعت فريسة بأيدي القوى الفاسدة و المستبدة، فتسافلت نحو الهبوط والانحطاط يوماً بعد آخر، والنتيجة أن أصبحت هذه الشعوب مطمح أنظار الأجانب والأعداء من الخارج، وعرضة لهجماتهم المدمرة.

ومن أجل دفع هذه الأخطار أوصى نبي الإسلام بجهاد الفساد الداخلي بالدرجة الأولى، باعتباره أفضل من الجهاد الخارجي ضد الأعداء الكافرين؛ لأن الجهاد الداخلي ضد الحكام الفاسدين وضد فساد المجتمع يعتبر رصيداً للجهاد الخارجي، ومنشأ للقوة والاستعداد له، كما أنّ الجهاد الباطني وهو جهاد النفس أعظم من الجهاد الخارجي ضد الكفار وأعظم أيضاً من الجهاد الداخلي ضد حكام الجور، وفي الحقيقة فإنّ جهاد النفس، كما تصرّح الروايات، يعتبر (الجهاد الأكبر)؛ لأنّه يهيّيء الأرضية للجهادين الآخرين.

وهكذا يضع الإسلام ثلاثة أشكال للجهاد: (نفسي، وداخلي، وخارجي)، وهي حلقات مترابطة ومتداخلة فيما بينها، وبالرغم من كونها واجبة موازيا بعضها لبعض، لكن الأول في نفس الوقت أهم من الثاني، والثاني أهم من الثالث؛ لأن القاعدة التي تحكم هذه الدائرة هي أن الباطن أصلٌ للظاهر والظاهر متفرّعٌ عليه، وكما نرى في الطبيعة: أنّ النور ينشق من داخل السراج وينتشر إلى الأطراف لا بالعكس، وكذلك نشاهد أنّ الماء ينبع من داخل العين ويجري في الجداول والفروع وليس بالعكس، وكذلك نلاحظ أنّ المواد الغذائية تأتي من الجذور صاعدة إلى الأغصان والفروع لا بالعكس.

ولكن مع الأسف فإن أكثر المسلمين لم يلتفتوا إلى هذا الحكم الإسلامي الوارد

في الحديث النبوي المذكور، ولا إلى حكمته العالية الجامعة والشريفة التي أُشير إليها، فبالرغم من اهتمامهم بالجهاد الظاهري الخارجي وهو جهاد الكفّار؛ لتوسيع دائرة القوة الظاهرية للمسلمين ـ وإن كان هذا واجباً في نفسه ـ لكنهم تركوا القسمين الآخرين من الجهاد وهما الأهم، جهاد الفساد الداخلي وجهاد النفس، بل إنّهم وخلافاً لأوامر الرسول الأكرمﷺ وتشريعاته، وافقوا أهواء أنفسهم واتبعوا الحكام الفاسدين بحجة أنّهم أُولي الأمر، وأعانوهم غالباً على السير في طريق الأهواء والملذات الدنيوية، فكانوا سبباً للانحطاط والتعاسة لهم وللمجتمع الإسلامي، حيث اتخذوا منهج هوى أنفسهم والصلح التام بل الاستسلام التام لهؤلاء الحكام المفسدين، ولذلك هبطوا من قمّة التقدم والتوفيق والحضارة إلى حضيض التسافل والتخلف والتشتّت، حتى أصبحوا تحت أقدام الأجانب وسلطتهم الغاشمة.

ومن هنا ندرك روح نهضة الإمام الحسين(ع)، التي على رغم ذلك الضلال والانحراف والاستسلام للحكومات الجائرة، وخاصة حكومة يزيد التي تسلطت على مختلف شؤون المسلمين، حتى على ضمائر كثيرٍ منهم، فقد نهض الحسين(ع) للعمل بهذا الأمر النبوي المهم الذي يوجب على المسلمين التصدي للحكام الفاسدين وأمراء الجور، حتى إنّه(ع) اعتبره واجباً أكثر من جهاد الكفار المتربصين بالدولة الإسلامية في زمان نهضته، ولمّا رأى المسلمون عمل الحسين(ع) هذا استيقظوا طبعاً من سباتهم العميق، ودبّت فيهم روح التضحية والفداء، وفي الحقيقة فقد أنقذهم الحسين بثورته الدامية الخالدة من الاستسلام للخزي والذلة أو التفرّج وعدم الإحساس بالمسؤولية، وحثّهم ضد الحكومة اليزيدية ونظائرها في جميع الأمكنة والأزمنة.

والملفت للنظر أنّ الحسين(ع) في حديثه الثوري الذي هو محل البحث، يؤكّد على جهاد الحكومات الداخلية الظالمة للمسلمين وليس الأعداء الخارجيين الأجانب، ولكن يا تُرى! لماذا كان الحسين(ع) يطالب الناس أن يجاهدوا بالدرجة الأُولى الحكومات الداخلية الظالمة وليس الأعداء الأجانب؟

إنّ السبب يكمن في أنّ الحسين عليه السلام يعلم، وكما صرّح بذلك النبي صلى الله عليه وآله، أنّ جهاد الحكومات الفاسدة (الجهاد الداخلي) أكثر ضرورة، فالحسين عليه السلام كان يريد أن يلفت انتباه المسلمين إلى أنّ الآفات والأمراض إذا كانت تفتك بجسد الأُمّة من الداخل، فإنّ مكافحة الآفات الخارجية لا تفيد فائدة أساسية؛ لأنّـه يكـون غـالباً لصـالح الحكومات الفاسدة الداخلية المتسلطة، لذلك فإنّه في مثل هذه الظروف كان لزاماً على المصلحين أن يبدأوا أوّلاً بإصلاح الأقرب فالأقرب ليصلوا إلى الأبعد، يعني لابد أن يكون الجهاد أوّلاً ضد الحكومات الظالمة الداخلية، التي هي بمثابة ديدان الفاكهة، وجسور للأجانب في الحقيقة، وبالقضاء على الفساد والظلم تتعزّز البُـنى المادية والمعنوية للأُمّة مـن الداخـل، وبـعد تـعزيز الأمـن والاسـتقرار الداخـلي واستتبابهما أكثر يمكن الدخول في مواجهة الأعداء الأجانب، وبهذا الشكل وبمثل هذا الاستعداد تكون النتيجة لصالح الإسلام والمسلمين لا للدول الفاسدة والظالمة الداخلية.

ولكن منطق الدول الفاسدة والحكومات الظالمة من أمثال حكومة يـزيد، هـو على عكس منطق الحسين عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله، فهي تحاول من خلال وسائلها الإعلامية والدعائية تصوير الوضع الداخلي بأنّه جيّدٌ وعلى ما يُرام، وصرف أنظار المسلمين عن مصائبها وويلاتها الداخلية إلى خطر مزعوم للأعداء الأجانب، فتثير الأُمة ضد عدوّ لا واقعية له أو لا يشكل خطراً عليها في كثيرٍ من الأحيان، وبذلك فهم يشغلون الناس ويُحكمون أركان سلطتهم أكثر.

وعلى كل حال، فإنّ محور خطبة الإمام الحسين عليه السلام الثورية هو أنّ المسـلمين لابد أن يهتموا بالدرجة الأُولى بإصلاح الداخل عن طريق التـصدي للـحكومات الفاسدة وبهدف إيجاد الدولة الصالحة، وبالرغم من أنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا ملتفتين وواعين ولو اجمالاً إلى هذه الحقيقة الإسلامية، ولذلك ثاروا عـلى الخليفة الثالث عثمان وقضوا عليه، ولكن للأسف أنّ هذه الحقيقة الإسلامية مـثل سائر الحقائق الأُخر انقلبت وحُرّفت إثر الأساليب الأموية الشـيطانية والمـاكـرة

والروايات الموضوعة بأيدي مرتزقتهم، كما رأينا فيما سبق من الفصول، وعلى هذا الأساس كانت النهضة الحسينية الدامية تهدف إلى إعادة الحقائق إلى نصابها، وإبطال الفكرة الأموية السائدة بين المسلمين المرتكزة على كون الحكام ـ وإن جاروا أو بغوا كالأمويين ـ هم أُولو الأمر مطلقاً والمسلمين تبعاً لهم مطلقاً. والخلاصة أنّ نهضة الحسينعليه السلام تهدف إلى إحياء الإسلام الحقيقي، وخاصة المسؤوليات الحياتية للمسلمين في التصدي للحكومات الفاسدة بصورة عملية.

الحكومة والحاكم الإسلامي من صميم الإسلام

تطرقنا في الصفحات السابقة خلال بحثنا في الجهة الأُولى من خطبة الإمام الحسينعليه السلام إلى مسؤولية المسلمين أمام الحكومة والحكام بشكل مختصر، وفي الجهة الثانية من الخطبة سنتحدث حول نفس الحكومة والحكام بشكل مختصر أيضاً.

وهنا نلفت النظر مرة أُخرىٰ إلى الخطبة الثورية الحسينية؛ لنرى أنّ جميع عباراتها ـ في الحقيقة ـ تتعلق بمسألة الحكومة والحكام، وأنّها من صميم الفكر الإسلامي، ولهذا يرى الإمام أنّ المسلمين مسؤولون عن مواجهة الحكومة والحكام الفاسدين حتى تتهيّأ الأرضية للحكومة الصالحة والحكام الصالحين، وليس هذا نظر الإمام الحسينعليه السلام فحسب، بل هو نظر الإسلام، ولذلك فإنّ الحسينعليه السلام ينطق عن لسان رسول اللهصلى الله عليه وآله في خطبته المذكورة فيقول: «أيّها الناس إنّ رسول الله قال: ...»، ونحن من أجل توضيح هذه النظرية الحسينية أو الإسلامية لابد لنا من تحليل وتفسير موضوعين أساسيين:

الموضوع الأول: أن نرى ما هو الدليل على أنّ مسألة الحكومة والحكام تكون من صميم مبادىء الإسلام الأساسية لا من الهامش ؟

الموضوع الثاني: أن نرى ما هي مؤشرات ومؤهلات الحكومة الإسلامية والحكام الإسلاميين؟

الموضوع الأوّل: يتلخص في أن الإسلام أشمل وأوسع الأنظمة العالمية، حيث يتطرق إلى بيان جميع المسائل والأمور، فالإسلام يهتم بالأبعاد الفردية للإنسان، فجعل لها أحكاماً اعتقادية وأخلاقية وعبادية وعرفانية، وكذلك يهتمّ بالأبعاد الاجتماعية، فسنّ القوانين الكثيرة في مجالات الاقتصاد والحقوق والسياسة والجهاد والدفاع ومجالات أُخرى كثيرة، والحاصل أنّ الإسلام يعمّ بتشريعاته جميع شؤون الإنسان، وبما أنّ مسألة الحكومة والحكام لها دور أساسي في حياة الفرد والمجتمع، فلذلك اهتمّ بها الإسلام أكثر، من أجل تنفيذ قوانينه وتحقيق مقاصده السامية، إلى درجة أنّه يعدها أحد أهداف الرسالة أو أهمها كما يقول تعالى: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[1].

ومن خلال هذه الآية ونظائرها يتضح لنا جيّداً أنّ الدين الإسلامي يفرّق بين المسائل الشخصية والاجتماعية للإنسان، فبالنسبة للمسائل الشخصية أو الفردية يوجب على المتعلمين أن يعلّموا الناس، فيقول: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾[2]، وأمّا في المجال الاجتماعي فإنّه أوجب على المتصدين لأمور المجتمع أن يهتموا بتطبيق قوانينه السماوية مضافاً إلى تعليمهم الناس إيّاها. وبعبارة أخرى، (تأمّلوا)..!! إنّ القوانين الاجتماعية والسياسية لها امتياز خاص بالنسبة إلى القوانين الشخصية، ذلك أنّ القوانين الشخصية تكون بطبيعة الحال بإرادة الأفراد، ولذلك يكفي في هذا المجال أن يعلَّم الأفراد كيفية العمل بها، ولكنّ القوانين الاجتماعية المبتنية على المصالح العامة لا تكون بإرادة الأفراد فقط، ولهذا لا يكفي فيها المعرفة والتعليم، بل مضافاً إلى التعليم يجب أن يكون هناك حكام صالحون ومؤهلون لإجراء وتنفيذ هذه القوانين، ولبيان كيفية تطبيقها على الناس بالطرق الثقافية والإدارية الخاصة، وفي حال عدم تأثير هذه الطرق في تطبيق القوانين واحترامها، فيلجأ إلى استخدام القوة والإجبار، وإلّا فإنّ هذه القوانين تكون عبثاً ولغواً.

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٥.
٢. سورة التوبة: الآية ١٢٢.

بحثٌ حول حديث الثقلين

وهكذا كان رسول الله ﷺ نفسه، فمن جهة كان يعلّم الناس الأحكام الشخصية المختصة بالفرد، ومن جهة أُخرى يعلّمهم أيضاً القوانين والأحكام الاجتماعية المتعلقة بالجماعة الإسلامية، حكومة وشعباً، ويقوم على تطبيقها وتنفيذها. ولم يقتصر في هذا الأمر على حياته، بل استمر به فيما بعد رحيله ﷺ أيضاً، حيث كان القانون الإسلامي مقترناً مع تنفيذه والتطبيق العملي له طبعاً. ولذا أكّد الرسول الأكرم ﷺ على وجوب اقتران القانون أو الدستور الإسلامي مع الاشخاص المؤهلين الذين يرعون وينفّذون هذا القانون والدستور، وذلك في حديث الثقلين المتفق عليه بين جميع المسلمين، فقال ﷺ:

«إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1]، أي أنّني أُعلن لكم أنّ القرآن هو محور قوانين الإسلام، وأنّ أهل بيتي هم المعلّمون المؤهلون وكذلك هم القائمون الصالحون لتنفيذ هذه القوانين، فعليكم أيّها المسلمون اتّباعهما لتنالوا سعادة الدنيا والآخرة، وإن تتمسكوا بأحدهما وتتركوا الآخر فضلاً عن أن تردّوه، تضلّوا وتهلكوا.

وهكذا نرى أنّ أساس المصائب والمشاكل التي جرت على المسلمين، أنّهم لم يتّبعوا هذه الوصية النبوية الأكيدة، يعني أنّهم تركوا المعلّمين والمنفّذين اللائقين للقوانين السماوية وقالوا: **«حسبنا كتاب الله»**، مع أنّ حديث الثقلين يقول صريحاً: بأنّ القرآن وحده لا يكفي، بل لا بدّ أن يكون مقترناً بهداية أهل البيت وتنفيذهم لقوانينه، وكما يشهد التاريخ والواقع المعاصر أيضاً أنّ المسلمين مع وجود القرآن قد ضلّوا وتفرّقوا، إلى درجةٍ أنّهم أصبحوا أداة طيّعة بيد معاوية ويزيد وأمثالهما من الفراعنة والجبابرة، وذلك لأنهم تركوا الثقل الآخر أي أهل بيت النبي ﷺ، فسلك

---

١. صحيح مسلم، ج٧، ص١٢٣؛ مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص١٤ و ١٧، وج٤، ص٣٧١؛ صحيح الترمذي، ج٥، ص٣٢٨؛ المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٠٩ و ١٤٨.

بهم الطواغيت طريق الذلة والضلال.

وفي حديث الثقلين نقاط مهمة عديدة، على المحققين أن يتدبروها من خلال مطالعة الكتب المعنية به، ونحن نذكر هنا بعضها باختصار:

١ ـ ترك رسول الله صلى الله عليه وآله شيئين مهمين، هما حاصل رسالته في الحقيقة، الأول: القرآن، والثاني: أهل البيت الذين هم معلّمو القرآن والأمناء علىٰ تنفيذ أحكامه.

٢ ـ إنّ هذين الأمرين مقترنان دائماً إلى يوم القيامة ولن يفترقا أبداً.

٣ ـ إنّ القرآن لوحده لا يكفي، بل إنّ التمسك بالقرآن يستلزم التمسك بأهل البيت أيضاً، ومن جهة أُخرى فإنّ عدم التمسك بأهل البيت معناه عدم التمسك بالقرآن أيضاً.

٤ ـ حقيقة القرآن في أهل البيت كما أنّ حقيقة أهل البيت في القرآن ولذا أخبر النبي صلى الله عليه وآله عن أنّهما مترابطان أو متحدان.

٥ ـ إنّ المسلمين مسؤولون إزاءهما، وهذه المسؤولية لا تعتبر مسؤوليتين، بل هي مسؤولية واحدة.

والملاحظة المهمة حول حديث الثقلين هي أنّ أساس قبول هذا الحديث ليس تعبدياً، بل هو عقلي، يعني بشكل عامّ: إنّ القوانين الاجتماعية وما يرتبط بالأحكام التي هي من محاور هذا الحديث لا بدّ لها ممن ينفذها عن خبرةٍ ودراية. ويمكن تشبيهها بالتعليمات الصحية حيث إنّها لوحدها لا تكفي لحصول الشفاء، بل ينبغي مضافاً إلى ذلك تشخيص الأطباء الذين ثبتت صلاحيتهم لمعالجة المرضى، فكذلك نُظُم الدولة والقوانين الاجتماعية في القرآن، فلا تكفي لوحدها لإصلاح المجتمع، بل لا بدّ من مباشرة علماء صالحين ومؤهّلين لبيان وتنفيذ هذه القوانين لكي ينال المجتمع الإسلامي السعادة والكمال. وأساساً فإنّ طبيعة القوانين هي أنّها لا تكون مثمرة إلّا بعد تنفيذها وتطبيقها من قبل الصالحين القائمين على هذا الأمر المعيّنين له، وأمّا عكس هذه الحالة الطبيعية فيستتبع حتماً أنواع الضلال والمصائب بأيدي غير اللائقين وغير الصالحين، ولهذا نجد في جميع البلدان والمجتمعات البشرية حتى غير الدينية أنّهم يهتمون إلى جانب وضع القوانين بكيفية تنفيذها، وبخصوصية

منفّذيها القائمين على الحكم، حتى يضمنوا بذلك حرمة القوانين وأثرها وكذلك سعادة الناس بها، فعلى هذا وجدنا أنّ تأكيد النبيّ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله في حديث الثقلين على الملازمة بين القوانين السماوية والحكام الصالحين لا يُعدّ أمراً تعبدياً، بل أمراً عقلياً حيث يقرّه العقل ويقول: بما أنّ قوانين الدولة موجودة في أساس الإسلام ومن مبادئه الأساسية، لذلك فإنّ الحكومة والحكام الصالحين أيضاً من المبادىء الأساسية للإسلام، كما صرّح النبي الأكرم وأهل بيته‌عليهم‌السلام في حديث الثقلين ونظائره الكثيرة.

حتى الموت

ومع الالتفات إلى ما ذكرنا من ملازمة القوانين الإسلامية للحكومة والحكام الإسلاميين، يجب القول: إنّ المسلمين أيضاً مسؤولون في السعي الجادّ إلى جانب الحكومة والحكام الإسلاميين لتنفيذ القوانين الإسلامية واحترامها، وطبعاً فإنّ أصل هذه المسؤولية العامة لا تختص بالمسلمين وحدهم، بل تشمل جميع الشعوب البشرية المتحضرة، حيث نجدهم يحترمون قوانينهم ويحترمون المتصدين اللائقين لتنفيذها ويعارضون غيرهم، وفي الحقيقة مسؤولية الناس تجاه الحكام والحكومات ناشئة من أنّهم ملتزمون طبعاً بقوانينهم، ومن ذلك يلزم أن يوافقوا الحكام الصالحين القائمين على تنفيذها، ويجاهدوا ويناهضوا الحكام المنحرفين عنها.

وعلى هذا الأساس فقد رأينا الإمام عليّاً‌عليه‌السلام وأصحابه يتصدون لجهاز الحكومة ويسعون لتخليصه من أيدي المنافقين، كي تتهيّأ الأرضية لتحكيم المبادىء الإسلامية وتطبيق قوانين القرآن، مهما أمكنهم ذلك حتى لو بلغ بهم حدّ الاستشهاد والقتل، ولهذا نجدهم لا يدّخرون وسعاً في أن يبيّنوا للناس مسؤوليتهم هذه من خلال الكتب والرسائل والخطب وما أقدموا عليه عملياً في هذا السبيل، ومن نماذج ذلك التصدي العملي على هذا الطريق حروب الإمام علي‌عليه‌السلام في البصرة وصفّين، ومن نماذج الخطب والرسائل خطبته المعروفة بـ«الشقشقيّة»، وعهده إلى مالك الأشتر الذي يعتبر قمّة في الانسانية ومعجزة حضارية في هذا المجال، حيث إنّه يبيّن في هذا العهد الدور الشامل لنظام الحكومة الإسلامية ومؤسّساتها ومسؤولية

الناس تجاهها، وأيضاً يذكر فيه خصائص وصفات الحكام الإسلاميين من قبيل الصدق والصلاح والمؤهلات العلمية والعملية والاطلاع على الأمور الاجتماعية والفردية، وأخيراً التدين والتقوى وسياسة الأمور بحنكة وحكمة، ومن أجل أن يطمئن على تحقق هذه الشرائط والصفات يوصي أيضاً المسؤولين الأعلى رتبةً أن يختاروا موظفيهم من الذين تتوفر فيهم هذه الشروط ويراقبوهم دوماً، كما يوصي بالاستفادة من العيون والتفتيش العلني والسري للاطمئنان على حسن إدارتهم، فيقول بصراحة: «ثمّ تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم»[1].

والواقع أنّ كتاب العهد القيم هذا يجب أن يتخذ مصدراً ومنهجاً لمجموعة القوانين الحكومية والإدارية.

والنتيجة أنّ الإسلام يهتم بموضوع الحكومة والحكام كثيراً، ويعتبر هذا الأمر من أهدافه السياسية، وأنّ المسلمين موظفون بالاهتمام بهذا الأمر، فعلى هذا فما يقول بعض المتظاهرين بالقداسة ـ الذين لا يدركون حقيقة الإسلام وما يهتم به من إحقاق الحق ونشر العدالة، خاصة في دائرة الحكومة الإسلامية، ولا يدركون أيضاً معنى الجهاد والتضحية ضد الظالمين ـ من أنّ: إقامة الحكومة الإسلامية لتنفيذ القوانين الإلهية العادلة غير واجبة، كلام باطل تماماً، ومخالفٌ لبرنامج الإسلام أساساً، وقد اتّضح بطلانه مما تقدم من الأبحاث آنفاً، ويكفي في بطلانه أيضاً قيام الإمام الحسين عليه السلام في نهضته المقدسة ضد الحكام الأمويين الفاسدين، وبالأخص خطبته الثورية المذكورة قبلاً التي وردت في كثير من المصادر الشيعية والسنية، فكل منصف يرى بملاحظتها أنّه عليه السلام كيف يحثو تراب الذلة في فم أُولئك المعترضين من عُمي القلوب، وكيف يبيّن ضرورة الجهاد ضد الحكومات الفاسدة، ليس قولاً فحسب، بل ترجم ذلك إلى ممارسة عملية، فكان دمه الشريف المسفوح على مذبح الكرامة والحرية وتحقيق المبادىء الإسلامية السامية برهاناً على خطورة الموقف وأهمية الجهاد في هذا الطريق.

---

١. شرح النهج، ج١٧، ص٦٩.

الموضوع الثاني: أن نرى ما هي المميزات الأساسية للحكومة الإسلامية وللحكام الإسلاميين؟ نبحث في شطري السؤال على التوالي فنقول:

الخصائص الأساسية للحكومة الإسلامية

العدالة هي الميزة الأصلية للحكومة الإسلامية، التي تتحقق في ظل قوانين الإسلام ومن قِبل المتصدين اللائقين والصالحين لهذا الأمر. والبحث عن فلسفة العدالة وتأثيرها العميق في جميع الأمور الطبيعية والإنسانية وارتباطها بالحياة والسعادة البشرية سيأتي بيانها في الفصل الخامس، وهنا يدور البحث حول دور العدالة في قوانين الحكومة الإسلامية، وبيان السير الصعودي والنزولي لها في حكومة الإمام عليّ‌عليه السلام وحكومة معاوية ويزيد، وكذلك يدور البحث حول مبدئيتها للثورات الحسينية والنهضات الشعبية ضد الطواغيت وحكوماتهم.

مصطلح العدالة أو العدل يعني المساواة في كفة القانون، ولكن ليس كل قانون، بل هو القانون الصحيح والسليم الذي يقوم على أساس الحق، فالحق هو موضوع القانون، والعدالة هي تطبيق هذا القانون، طبعاً ومن هنا نقول: إنّ الحق يأتي في الدرجة الأولى، والقانون في الدرجة الثانية، والعدالة في الدرجة الثالثة، والغرض من هذا الترتيب هو من أجل بيان وتوضيح المطالب وتفصيلها وإلّا فإنّ هذه المراتب الثلاث في الواقع متلازمة من حيث الزمان، وإن اختلفت من حيث الرتبة.

وعلى كل حال، فإنّ مسألة الحق أو القانون أو العدالة تجري في كل شيء وفي كل وقت، فمسؤولية الإنسان التي ترتكز على هذه المسألة تجري في كل شيء وفي كل وقت أيضاً، ولذا نجد القرآن الذي هو أساس الإسلام ينظر إلى كل شيء وفي كل آن بمنظار قانون الحق والعدالة، خاصة بالنسبة إلى الحكومة، فيقول: ﴿وأُمرت لأعدل بينكم﴾[1]، وبشكل عام أيضاً يقول: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا

---

١. سورة الشورى: الآيه ١٥.

بالعدل﴾[1]، ونظائر هذه الآيات كثيرة في القرآن، ومن هذه الآيات يمكن استلهام نقطتين مهمتين:

النقطة الأولى: هي أن العدالة تمثّل روح قوانين الإسلام، فهو بدل أن يقول: احكموا بقوانين الإسلام يقول: «احكموا بالعدل» ومن هذا التعبير الظريف يتبين أنّ إجراء قوانين الإسلام هو عين تنفيذ العدالة، وأنّ تنفيذ العدالة هو عين إجراء قوانين الإسلام، وسرّ ذلك هو أنّ قوانين الإسلام شرّعت من قِبَل الخالق الحكيم الذي هو عليمٌ بكل شيء، مما يُصلح البشرية وما يُفسدها، ولهذا فإنّ قوانين الإسلام لا يوجد فيها أيّ نقص، بل تحتوي على جميع الامتيازات الإيجابية التي تجتمع في كلمة العدل أو العدالة، وبديهيٌّ أنّ تصوير أبعاد العدالة في القوانين الإسلامية يحتاج إلى شرح مفصّل، والمناسب لهذا الكتاب هو الاكتفاء بهذه الإشارة.

النقطة الثانية: أنّ مسؤولية أجهزة الحكم الإسلامية هي تنفيذ العدالة لا الاقتصار على بيانها، لأنّه تعالى يقول على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿**أُمرت لأعدل بينكم**﴾ ولم يقل: ﴿**أمرت لأُبيّن العدل لكم**﴾. والمهم هنا ـ في نظر الإسلام ـ أنّ تنفيذ العدالة ليس له دائرة معيّنة، ولا يتحدد بشخص خاص وبمورد خاص، بل يشمل جميع الأفراد وجميع الموارد حيث يكونوا سواسيةً أمام القانون، فلا امتياز لفرد على فرد من المسلمين حتى للنبي أو الإمام والخليفة وهم قادة العالم الإسلامي، سوى في بعض الموارد المحدودة التي لها بعدٌ خاصٌّ سياسي أو غير سياسي.

ومن أجل توضيح سعة وكيفية العدالة في الرؤية الإسلامية فإنّ أقرب الطرق إلى ذلك أن نأتي بنموذج يتفق عليه الشيعة والسنة، وهو الإمام عليّ عليه السلام كقائد إسلامي، ونأتي بنموذج آخر من الأعداء من قبيل معاوية ويزيد، حتى تتضح من خلال المقارنة بين هذين النموذجين الحقيقة بشكل أفضل، وتتضح بالتالي الدوافع للثورات الحسينية بشكل أكثر.

---

١. النساء: الآية ٥٨.

عدالة مثيرة للإعجاب

الإمام عليّ‌ﷺ قال مخاطباً الناس عند تولّيه الخلافة بصراحة: «أيها الناس ... وإنّما أنا واحدٌ منكم لي ما لكم وعليّ ما عليكم ...»[١].

وطبيعي أنّ عليّ بن أبي طالب‌ﷺ لم يكن مثل سائر السياسيين الذين يخدعون الناس بإعلامهم، بل كان في هذا المجال أيضاً رجل الميدان الأول كما هو في سائر المجالات، فهو الحاكم الإسلامي الذي يهتم جدّاً ودائماً بتطبيق العدالة على الجميع، وخاصة بالنسبة لأقربائه وأهل بيته، ولم يكن متسامحاً في ذلك قطّ؛ لأنّه كان قد تلقّى هذه التربية من رسول الله‌ﷺ، ومن باب المثال أنّ ابنة من بنات أحد الأشراف سرقت، فجيء بها إلى رسول الله‌ﷺ، فأمر بإقامة الحد عليها، ولمّا طلبوا منه العفو عنها قال‌ﷺ: «لو سرقت فاطمة لقطعت يدها؛ إنّما هلك الذين من قبلكم أنّه إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد»[٢].

فالإمام عليّ‌ﷺ كان في تطبيق العدالة كرسول الله‌ﷺ لا يحكم بملاحظة الظروف، ولا ينظر إلى الفوارق الطبقية، وأساساً فقد كان الإمام‌ﷺ يفكّر بشيءٍ واحد وهو تطبيق القانون الإلهي على الجميع؛ لأنّه كان يرى الجميع متساوين أمام القانون الإلهي، ولهذا نجده يغضب على صاحب بيت المال عندما أعطى عقداً من بيت المال كعارية إلى ابنته زينب[٣]، وكذلك يعترض على طلب أخيه الأعمى (عقيل) الذي طلب منه مقداراً من القمح من بيت المال مع حاجته وحاجة أطفاله الشديدة إليه ومع علم الإمام بأنّ حاجة أخيه الشديدة يمكن أن تدفع به إلى جهة معاوية الذي ينفق المال دون حساب، فلم يكتف بردّه فقط، بل أراد أن يبيّن له حقيقة طلبه هذا، فأحمى له حديدة وقرّبها منه وقال: «خذ ما طلبت من بيت المال»، فلمّا دُهش عقيل من هذا الرد الحازم، واعترض على الإمام، أجابه الإمام: «يا عقيل أتئنّ من

---

١. شرح النهج: ج٧، ص٣٦.

٢. صحيح مسلم، ج٥، ص١١٤؛ سنن النسائي، ج٨، ص٧٤.

٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص١٢٠؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٩٩.

حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرّني إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه، أتئنّ من الأذى ولا أئنّ من لظى»[١].

إنّ دقة الإمام عليّ عليه السلام في حفظ وتوزيع الثروة بصورة عادلة أمرٌ يبعث على الإعجاب، حتى إنّ طلحة والزبير عندما جاءا لبعض شؤونهما الخاصة إلى الإمام وكان جالساً في بيت المال، أطفأ الإمام شمعة كان يستنير بها أثناء عمله؛ لأنّها كانت من بيت المال، وقال ما حاصله: (إنّ الاستفادة من بيت مال المسلمين لمصالح شخصية مخالفة للقوانين الحقة والإسلامية)[٢].

وهكذا كان يوصي عمّاله بالدقة في الكتابة، وعدم الإسراف في الدواة والورق والأقلام[٣]، وكذلك كان يقسّم المال بالتساوي على جميع الناس، ويأخذ سهمه مساوياً لبقية الأفراد، وعادةً كان هو آخر من يستلم حقه[٤].

ولم تكن عدالة الإمام عليّ عليه السلام، وبتعبير أفضل عدالة الإسلام، المحرّكة للثورات الحسينية في مجال الأموال فحسب، بل في مجال الحقوق الفردية والاجتماعية أيضاً، فقد كان عليه السلام يعتبر أنّ جميع الناس متساوون في الحقوق الشخصية، على عكس الحكام المتسلطين بالجور والظلم الذين يستصغرون الناس ويستخفّون بهم، ليحفظوا بزعمهم سلطانهم، فإنّه عليه السلام كان يحترم الناس، وينزعج من تملقهم أمامه ويزجرهم على ذلك، حتى إنّه عندما استقبله الناس في مدينة الأنبار استقبالاً حافلاً اعترض عليهم لهذا الإسراف في المال والوقت، وقال: «والله ما ينتفع بهذا أُمراؤكم، وإنّكم لتشقّون على أنفسكم في دنياكم، وتَشْقَون به في آخرتكم، وما أخسر المشقّة وراءَها العقاب، وأربح الدّعة معها الأمان من النار»[٥].

والغريب هنا أنّ الإمام عليّاً عليه السلام لم يكن يرى التساوي في الحقوق بين المسلمين

---

١. شرح النهج، ج ١١، ص ٢٤٥.
٢. الكامل للبهائي: ج ٢، ص ١٦٠؛ المناقب: ج ١، ص ٣٧٤؛ بحار الانوار، ج ٤١، ص ١١٠.
٣. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١٠٥؛ مستدرك نهج البلاغة: ج ٤، ص ٣٠.
٤. مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٣٧٧.
٥. شرح النّهج: ج ٣، ص ٢٠٣ وج ١٨، ص ١٥٦.

فحسب، بل يشمل حتى غير المسلمين أيضاً، ولهذا يقول في عهده لمالك الأشتر: «فإنّهم (الناس) صنفان، إمّا أخ لك في الدّين وإمّا نظير لك في الخلق»[١]، وفي هذا المجال هناك نموذج يشبه المعجزة نذكره هنا، وقع قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث كانت الاختلافات القومية والدينية على أشدّها، ومع هذا نجد أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي اتّبع الأساليب الإنسانية بالنسبة لجميع أفراد المجتمع، ولم يؤكّد على مبدأ التوحيد الإلهي فحسب، بل رفع لواء العدالة الاجتماعية والإنسانية أيضاً بشكل مبدأ متطوّر وحضاري في جميع الأمكنة والأزمنة وبالنسبة إلى جميع الأفراد.

وقد رأى الإمام يوماً في خلافته درعه بيد أحد النصارى، ولكنّه بدل أن يستخدم قدرته لانتزاعه منه فإنّه قدم شكوى إلى قاضيه (شريح) ضد خصمه، وتقدّم كأحد الأفراد العاديين وجلس إلى جانب النصراني أمام القاضي شريح، وقال: «هذه درعي» فقال النصراني: «ما هي إلّا درعي ولم يكذب أميرالمؤمنين، فقال شريح لعليّ عليه السلام: ألك بيّنة؟ قال: ـ متبسماً ـ لا». وبما أنّ الإمام عليه السلام لم يكن له شاهد على ذلك، فإنّ الحكم صدر لصالح المسيحي، وقَبِل الإمام بذلك الحكم، وبذلك بيّن عدالة القوانين الإسلامية حتى في الحقوق الاجتماعية وبالنسبة إلى غير المسلمين أيضاً، بحيث إنّ المسيحي تعجب من ذلك وأسلم وقال: «الدرع درعك وإنّما أخذته لأن أرى كيف عمل سلطان المسلمين بالنسبة إلى من أخذه، وحيث رأيت هذا الموقف العجيب فأقول: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله»[٢].

المساواة مبدأ الحياة المشتركة

فهل تجد مثل هذا التساوي في الحقوق عند بقية النُظم غير الإسلامية في العالم؟ إنّ هذا التساوي الذي لا يمكن تصور تساوٍ يفوقه، من المستحيل أن نجده في أيٍّ من النُظم والقوانين الغربية والشرقية، بل الإسلام وحده هو الذي يعتمد هذا التساوي

١. شرح النهج: ج١٧، ص٣٢.
٢. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٠١.

الكامل في الحقوق، ومن هنا يضمن للمجتمع والشعوب المختلفة التعايش السلمي على صعيد الواقع لا مجرد الادّعاء، والسرّ في ذلك هو أنّ الإسلام ينظر إلى الإنسان باعتباره حقيقة مشتركة، بل واحدة ولذا يقول: «... إمّا أخ لك في الدين وإمّا نظير لك في الخلق...»[١].

ومن خلال هذه النظرة أو الرسالة العلوية أو الإسلامية يتضح أيضاً أنّ الناس والشعوب جميعاً لا يمكنهم التعايش السلمي إلّا إذا ما أدركوا أنّهم متساوون في جوهر الإنسانية، وفي الواقع إنّ العلاقات الاجتماعية العادلة تمثّل لبنات فوقية للنظام، وأصل المساواة يمثّل الدعائم التحتية لها، وبما أنّ الأساليب العملية في العلاقات لا تتحقق صحيحة بدون الدعائم التحتية الفكرية والثقافية المبتنية على أصل المساواة، فلذلك وجب على الناس أوّلاً الإيمان بمبدأ المساواة الذي يمثّل رأس مالٍ علمي حتى تتحقق العدالة التي تمثّل رأس مالٍ عملي، وبخلاف ذلك يتعسر بل يتعذر التعايش السلمي حتى لو استخدمت جميع وسائل الإعلام لدعمه.

وعلى كل حال، فإنّ الامتياز المهم لحكومة الإمام عليّ عليه السلام، وهي مرآة النظام الإسلامي، هو العدالة في جميع الأبعاد ولجميع الأفراد، تماماً على عكس حكام بني أُمية، الذين رغم ادعائهم السخيف لخلافة الرسول صلى الله عليه وآله، فإنّ العدالة لا مكان لها في حكومتهم سوى في إعلامهم، وعلى شكل تشريفات وقتية ولأهداف سياسية، وأمّا على الصعيد العملي فهم يرتكبون أنواع الظلم الفاحش، بل كثيراً يضربون بالمساواة والعدالة عرض الحائط حتى على صعيد الإعلام. والنقص الكبير في حكومة بني أُمية أنّها كانت مثل الحكومات الاستعمارية والسلطات الاستبدادية تقوم على أساس القومية والعنصرية والطبقية، حيث يرون أنفسهم أعلى من الآخرين وأنّ الناس كالعبيد لهم، وعليهم التسليم المطلق لأوامرهم ومشيئتهم، وليس لهم حق الاعتراض، كما رأينا في الفصل الأول، حتى إنّ عثمان الذي يعتبر أول خليفة أموي ويعدّونه من حفّاظ القرآن ومن أصحاب الفضيلة كان يقول

---

١. شرح النهج، ج١٧، ص٣٢.

صراحةً: «...ولو أنّ بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أُمية حتى يدخلوها عن آخرهم»[١].

فإذا كان عثمان يتّخذ من النظام الإسلامي وأحكامه وسيلة لإرضاء أهوائه، فكيف الأمر بمعاوية وسائر الخلفاء الأمويين المتحللين دينياً وخُلقياً؟

استنتاج معكوس

إحدى تصريحات معاوية التي تبيّن منهج حكومته الاستبدادي أنّه كان يقول: «المال مال الله وأنا خليفته فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركته كان جائزاً لي»[٢].

وهكذا نجد أنّ معاوية يرى أنّ المال (مال الله)، ورغم أنّ القرآن طرح هذا المفهوم ليسلب الاهتمام بالملكية الفردية والجماعية ويحكّم مالكية الله في الثقافة الإسلامية وفي حياة المسلمين، وينقذ الإنسان من مستنقع الأنانية وحب الدنيا والتكاثر والحرص على الثروة، ولكنّ معاوية بن أبي سفيان استفاد من هذا المفهوم القرآني بشكل معكوس، فمفهوم أنّ المال مال الله في نظر حكام بني أُمية هو أن يقع تحت تصرف الخليفة وأعوانه، فيتصرفوا به كيفما شاؤوا دون رادع أو التزام بحق أو قانون أو مسؤولية في مقابل أحد، بل إنّهم أرادوا أن يُفهموا الناس أنّهم أصحاب الحق المطلق وأنّ القانون أيضاً في الحقيقة تحت تصرفهم، رغم أنّهم يجعلونه في الغالب تحت عناوين برّاقة مخادعة، من قبيل: مصالح المسلمين؛ وحقوق البشر؛ والإسلام؛ والعدالة وغير ذلك.

وبشكل عام، فإنّ القاسم المشترك لجميع الحكام الفاسدين هو أنّهم يرون أنّ القانون هو ـ في الحقيقة ـ أداة طيّعة لرغباتهم، غاية الأمر أنّهم ومن أجل النفوذ في قلوب الناس وضمائرهم يتظاهرون بالدفاع عن مصالح المجتمع والقوانين وأحكام

١. مسند احمد، ج١، ص٦٢؛ أُسد الغابة في ترجمة عثمان.

٢. مروج الذهب، ج٣، ص٤٣؛ الامامة والسياسة، ج١، ص٨١.

الشريعة مثلاً، وفي الحقيقة يجعلون من الأحكام الشرعية والقوانين الاجتماعية وسيلة لتحقيق أهدافهم بالرغم من أنّهم لا يؤمنون بها حقيقة، وعليه فالحكام الفاسدون يستخدمون القانون لمصالحهم الشخصية لا لمصالح الناس، وبعبارة أُخرى يبتغون القانون لغرض طيش أنفسهم ورغباتهم لا لخدمة الناس، بل يجب القول: بأنّ القانون الحقيقي يكون بمثابة حجر عثرة في طريقهم، ولهذا حاولوا ويحاولون تأويله وتفسيره وتغييره بذرائع مختلفة وخاصة بدعوى اقتضاء المصلحة العامة أو إرادة الناس، ولكنّهم يريدون في الحقيقة التوفيق بين القانون ورغباتهم وسياساتهم الملتوية.

وحتى لو رأينا في بعض الموارد أنّ هؤلاء الحكام يفسحون المجال للناس في العمل ويعطونهم بعض الحريّات، فليس ذلك من احترامهم للناس، وأنّهم مخلصون في خدمتهم، بل لأجل لفت الأنظار وخداع الناس لتثبيت مواقعهم ولو بادعاء تنفيذ القانون.

بل إنّ دراسة الأساليب السياسية الماكرة للدول الفاسدة والاستعمارية، من قبيل الحكومة البريطانية وكثير من الحكومات الغربية، توضّح هذه الحقيقة المرّة، وهي أنّهم في نفس الوقت الذي يتظاهرون فيه بشعارات برّاقة كحقوق البشر ويهيّئون للناس حياة فارهة ظاهراً إلّا أنّها خاوية في الحقيقة، بل الحقيقة أنّهم يصطنعون لهم حياة مرفهة ظاهراً ليشغلوهم بها ويجعلوا باطنهم وتفكيرهم خاوياً، ومن هذا الطريق يُحكمون سلطتهم على الشعوب المستضعفة، ويقودونهم نحو الكسل والإهمال وانعدام الإرادة، وبالتالي التبعية المضاعفة لهم، وبعبارة أُخرى إنّ الحكومات الفاسدة والمنافقة بالرغم من أنّها تتظاهر بالعدالة والقانون وخدمة المجتمع، بل وتعمل أحياناً بهذه الشعارات، ولكنّها في الحقيقة توقع الناس في دوّامة من المشاكل المختلفة، وتورطهم بالابتلاءات اللا أخلاقيّة والاجتماعية والسياسية، وتبثّ فيهم أنواع الفرقة والاختلافات العنصرية والقومية حتى تغرقهم في هذه المشاكل بينهم بحيث لا يبقى لهم مجال التصدي للظلم والنفاق، بل يمسون

مضطرّين تحت وطأة الظروف القاسية والمصائب الكثيرة أن يمدّوا أيديهم إلى الحكام الظلمة، ويستسلموا لأساليبهم الماكرة ليحققوا بهذه الوسيلة قسطاً من الراحة النفسية الوهمية لهم، بالرغم من أنّهم حتى في حالة التسليم فإنّ الحكام الظالمين يستمرون في ظلمهم وقهرهم واستنزافهم لطاقات الشعوب، بل يجعلونهم أيادي ووسائل لتحقيق رغباتهم الدنيئة، ولكنّهم مع ذلك يتظاهرون دوماً بالدفاع عن مصالح المجتمع وخير الإنسانية، حتى إنّهم ينسبون اختلافات الناس ومشاكلهم إلى الناس أنفسهم.

وعلى كل حال فإنّ الحكام الفاسدين أيضاً يتشدّقون بالقانون والعدالة، ولكن ليس من باب الإحساس بالمسؤولية ولتطبيق العدالة، بل لغرض سوق الناس وإخضاعهم لسلطانهم، وأساساً فالحكام الفاسدون لا يعتقدون بالعدالة حتى يعلموا من أجلها واقعاً، بل إنّهم يفكّرون بمصالحهم السياسية وغير السياسية ويسعون لتحقيقها من أي طريق حتى عن طريق الاستفادة من العدالة إعلامياً لا اجرائها كاملاً.

والسر في أنّ الحكام الفاسدين ووعاظ السلاطين من أعوانهم لا يرون العدالة واجبة على الله وأصلاً من اصول الإسلام، هو أن يتحرروا من قيدها، فيخاطبوا الناس من منطلق الولاية المطلقة للخليفة بذريعة أنّ الله تعالى غير مقيّد بالعدالة فكذلك خلفاؤه على الأرض غير موظفين بتطبيق العدالة أيضاً، بل على الناس أن يقبلوا بهذه الحكومة ولو كانت ظالمة؛ لأنّ القوة والقدرة فوق كل شيء، وأنّ الحاكم قادر ومسلط على كل شيء؛ لأنّه من أولي الأمر بمعناه المطلق كما يدّعون، وبهذا المنطق المزيّف لا يلتزمون بقانون وحق وعدالة في الحقيقة، وإن تقنّعوا بها في الظاهر وبمقتضى السياسة الخادعة. وإحدى نتائج هذا المنطق هي: إن لم يخضع الناس لأرادة الحكام الظالمين بل تصدوا لهم، من أجل إحقاق الحق والعدالة مثلاً، فيجوز للحكام بمقتضى إرادتهم أن ينكّلوا بهولاء ويقمعوهم حتى باسم العدالة التي يدّعونها.

تلازم العدالة والإمامة

تتضح هذه النقطة المهمة أكثر إذا عرفنا أنّ أصل العدالة وأصل الإمامة متلازمان، ويلزم قبول أنّهما متلازمان وإلّا وقعت المفاسد التي أشرنا إليها، ولذلك نجد أنّ الشيعة الإماميين أقرّوا هذين الأصلين معاً، كما نرى أنّ المخالفين لهم أيضاً حذفوا هذين الأصلين معاً، بمعنى أنّ الشيعة يعتقدون بضرورة العدالة، فلهذا لا يعترفون بحق الإمامة والحكومة للظالمين على المسلمين، بل إنّ الحكومة عندهم من حق الإمام العادل فقط، ولكنّ المخالفين للشيعة بما أنّهم لا يعتقدون بضرورة العدالة، فلذلك يعطون الحق حتى للظالمين لتولّي أمور المسلمين وإمامتهم.

وكذلك تتضح هذه النقطة المهمة أيضاً أكثر، وهي أنّ مسألة عدم الالتزام بالعدالة بالنسبة إلى الله تعالىٰ ـ كما يتصور الكثير من أهل السنة بسبب التعليمات الخاطئة لعلمائهم المرتبطين غالباً بالحكام الظالمين ـ ليست من المفاهيم الإسلامية في شيء، بل إنّها في الحقيقة مسألة سياسية افتعلها الحكام الظلمة لتقوية سلطانهم، بدعوى أنّ الله فعّال لما يشاء، فكذلك هم فعّالون لما يشاؤون، لأنّهم خلفاء الله في أرضه.

ذكرنا أنّ معاوية كان يرى بيت مال المسلمين كأنّه ملكٌ شخصي له، ولذا يتصرف به لتحقيق أغراضه السياسية، حتى إنّه استخدم هذه الأموال لتثبيت ولاية العهد ليزيد، وكما يقول معاوية نفسه: إنّه يشتري دين المسلمين بأموال المسلمين ويسوقهم على خطى يزيد[1]، وفي الموارد التي لا تنفع فيها هذه العطايا والهبات فإنّه يتوسل بالقوة لتحقيق أغراضه وتمرير أهدافه على الناس.

والخلاصة أنّ معاوية ـ في الحقيقة ـ كان يضع العدالة وحقوق الناس تحت قدميه، ولكن مع هذا الحال فإنّه كان سياسيّاً محافظاً، وملتزماً بظواهر الإسلام في بعض الموارد أو في كثير منها، ولا يتظاهر بالعداء للقرآن والإسلام، فعلى سبيل

١. راجع اوائل الفصل الثاني.

المثال أنّه يعتبر بيت المال (مال الله) فيعتبر أساليبه وسياساته وحتى تلاعبه به وبالمفاهيم الإسلامية صحيحة بادعاء كونه خليفة الله فيكون بيده مال الله بل سائر قوانين الإسلام ومصالح المسلمين، فيبرّرها بهذه الصورة النفاقية، وبالرغم من أنّ هذه السياسة المنافقة مضرّة في الحقيقة، ولكنّها في نفس الوقت مفيدة في جوانبها العامة إلى حدٍّ ما، ولكنّ حكومة يزيد كانت أتعس وأشنع بكثير من حكومة معاوية، فيزيد لم يتلف ويبذّر بيت المال فحسب، بل مضافاً إلى ذلك سحق العدالة وحقوق المسلمين علناً، والأنكى من ذلك أنّه استهزأ أمام الناس بالقرآن والنبي والقيامة والآخرة، وبذلك جعل الناس لا يرون لشيء حرمة أو قدسية، بل إنّه جعل كثيراً منهم ينأون عن الدين ورجاله، بل ويحاربون الدين ورجاله حتى رسمياً وبشكل علني.

وإحدى الانتقادات المهمة ولعلها أهم انتقاد لحكومة عثمان، هو أنّه جعل من بيت المال حكراً على أقربائه وأرحامه بدلاً من تقسيمه على المستضعفين والفقراء، وبذلك عمل على تشديد نقمة المسلمين ضده وبالتالي قتله، ولكن حكومة يزيد كانت أشنع منها بكثير، إلّا أنّه لم يتجرّأ أحدٌ على التصدي لهذه الحكومة الطاغوتية، بل ولا نقدها كما حصل في زمن عثمان. فقد كان ليزيد أمراء وعمّال يبعثرون أموال المسلمين في تحقيق أهوائهم وشهواتهم وفجورهم، وحتى في شرب الخمر وارتكاب الزنا، وحتى في شراء الألبسة الفاخرة والمجوهرات الثمينة لهم ولكلابهم وقرودهم وأمثال ذلك[1]، وبالجملة لم يهتموا بحقوق الناس الاجتماعية أبداً فضلاً عن الدينية، بل إنّهم مضافاً إلى ذلك كانوا يقومون بأعمال إجرامية بهذه الأموال ويسحقون بها الثورات الإصلاحية ويقمعونها، كما حصل في تقديم الرّشا الكثيرة لأشراف الكوفة والشام لقتل أهل بيت النبوة وأهالي المدينة من الأنصار والمهاجرين، وبهذا ارتكبوا أكبر الفجائع بحق المجتمع الإسلامي، بل بحق المجتمع الإنساني، وهذا نموذج من استخدام الحكام الطواغيت لأموال المسلمين ضد المسلمين.

---

١. مروج الذهب، ج٣، ص٦٨؛ تاريخ ابن كثير، ج٨، ص٢٥٥.

ثورة الحسين عليه السلام شملت جميع الأبعاد

رأينا أنّ الحسين عليه السلام استعرض في خطبته الثورية أنواع الظلم والعدوان لحكومة يزيد على المسلمين، بما في ذلك الظلم الاقتصادي، ففي بداية الخطبة يقول عليه السلام: **«أيّها الناس من رأى سلطاناً جائراً ...»**، وفي ضمن هذه الخطبة يقول أيضاً: **«استأثروا في أموال الفقراء و المساكين...»**.

لعلّ البعض يستغرب تركيز الحسين عليه السلام في هذه الخطبة على السياسة المالية للحكومة الأموية وانتشار الفقر العام الناشىء من ظلم الأمويين وتلاعبهم ببيت المال، ومنشأ هذا الاستغراب هو أنّهم يرون أنّ ثورة الحسين ثورة دينية مقدسة، ويتصورون أنّ مثل هذه الثورة ينبغي أن تبتعد عن المسائل المادية والأمور الاقتصادية.

ولكن هذا التصور هو تصور خاطىء لا يتماشى والمبادىء الإسلامية العامة؛ لأنّ الدين الإسلامي بالرغم من أنّه لا يجعل الاقتصاد والمسائل المالية محوراً أصلياً لبرامجه على عكس المبادىء المادية، ولكنّه يعترف بها كجزء من وسائل عمله للوصول إلى ما يهدف إليه كإجراء العدالة، ولهذا يمنع بشدة عن الاحتكار والغش والربا والخداع وسائر موجبات الاختلاف الطبقي، حتى إنّه هدّد المرابين وآكلي المال بالباطل وآذنهم بالحرب مع الله. وأساساً فنظر الإسلام إلى الأموال هي أن تكون وسيلة للتكافل الاجتماعي، وأن تتناولها أيدي الفقراء، والمساكين، فهي للتفريق والعطاء وليس للجمع والاقتناء حتى تكون دُولة بين الأغنياء، على عكس نظرة أهل الدنيا الذين يقولون: إنّ المال للجمع والادّخار لا للتفريق والبذل. والإسلام مضافاً إلى هذا المنطق الإنساني وقوانينه المناسبة، سعى كثيراً إلى الاستفادة المعقولة والعادلة، من مصادر الثروة والمعادن الطبيعية والأموال العامة، في رفع مشاكل الحياة، وتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وفي سبيل التعليم والتربية لأفراد المجتمع، وتقوية الجانب العسكري للمسلمين. وطبيعيٌّ أنّ هذه

المفاهيم المعطاءة في النظام الإسلامي جعلت رجال الإسلام بمثابة الأعين المراقبة في المجتمع، يهتمون بكيفية صرف الأموال في المجالات المختلفة، والعناية بكافّة أبعاد المصالح العامة للناس من أيّ فرقة.

ومن هذا المنطلق رأينا الحسين عليه السلام في خطبته الثورية يركّز أيضاً على المسائل المالية والحقوقية للمسلمين، ويهدف إلى تعرية الواقع الداخلي الفاسد للحكومة الأموية من حيث تضييعهم ثروات عباد الله مضافاً إلى تركهم عبادته وارتكابهم لأنواع الفسق والفجور، فيقول من جهة: «... ألا وإنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد في الأرض وأبطلوا الحدود وشربوا الخمور...»، ويقول من جهة أخرىٰ: «واحلّوا حرام الله وحرّموا حلال الله واستأثروا في أموال الفقراء و المساكين...»[1].

بل يمكن القول إنّ الثورات الحسينية التي استلهمت مبادئها من المبادىء الإسلامية ـ ومن أجل تعبئة الناس ضد الحكومات الظالمة المستبدة ـ تمسكت بالعدالة الاجتماعية في بعض الأحيان أكثر من الجوانب العبادية والروحية والقضايا المعنوية، والشواهد التاريخية أيضاً تؤيّد أنّ المصلحين الدينيين كغير الدينيين كانوا يسعون كثيراً إلى تبيين آثار العدالة والظلم للناس، ؛ لأنّهم يلمسونها أكثر في واقعهم المعاش، وذلك لإثارة الجماهير وتهييجهم ضد الحكومات الجائرة، كما أنّ القرآن الكريم يركّز على هذه المسألة أيضاً ويقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا ... ليقوم الناس بالقسط ﴾[2].

ولأجل ذلك نجد الحسين عليه السلام والمسلمين الحقيقيين من أتباعه يسعون دائماً إلى تحقيق العدالة، وإجراء الحق في المجتمع، وإيقاظ ضمائر المسلمين وترشيد عواطفهم ضد قوى الظلم والانحراف حتى لو أدّى ذلك إلى استشهادهم.

١. من خطبته عليه السلام المعروفة المذكورة آنفاً.
٢. سورة الحديد، الآية ٢٥.

السالكون طريق العدالة والمحبة

أجل، فإنّ المسلمين الحقيقيين كالحسين وأصحابه لا يقبلون أبداً أن تعيش في المجتمع الإسلامي أكثرية محرومة تعاني من المشكلات الكبرى، في حين أنّ هناك قلة مرفّهة وفاسدة كيزيد وأعوانه مثلاً يعيشون الترف والبذخ على حساب هؤلاء المحرومين، بل يتحركون على مستوى تحقيرهم وتعذيبهم، فهل إنّ هذا الاختلاف الطبقيّ الشديد وهذه الحالة الظالمة والمزرية كانت تحظى بموافقة الإمام الحسين عليه السلام أو أحد من المؤمنين؟ كلّا.

إنّ الحسين عليه السلام وأصحابه تعلموا من سيرة محمد صلى الله عليه وآله الإنسانية، حيث قبّل يد شخصين من الناس، أحدهما يد فاطمة ابنته[1]، والأُخرى يد العامل الكادح[2]، وكل واحدة من هاتين اليدين علاوة على ما لهما من أهمية ذاتية خاصة بهما، كانت مظهراً للمستضعفين، ولذلك أراد النبي صلى الله عليه وآله بإكرامهما أن يبيّن قيمة المستضعفين؛ ويُظهر سيماء العدالة في الإسلام والدفاع عن المظلومين ومعارضة المستكبرين. وأظهرُ من هذا، منطق القرآن الكريم نفسه حيث يقف مع المستضعفين ضد المستكبرين، بل يقرن الجهاد في سبيل المستضعفين بالجهاد في سبيل الله، بل إنّه يرى أنّ هذين الجهادين هما في الحقيقة جهاد واحد، حيث يقول:

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين...﴾[3].

الحسين عليه السلام وأصحابه قد تربّوا في مدرسة الإمام عليّ عليه السلام الإلهية حيث يقول الإمام بصراحة: «...إنّما أنا واحد منكم، لي ما لكم وعليّ ما عليكم»[4]، بل كان الإمام يقنع بأبسط العيش، وعندما كان أصحابه يقترحون عليه أن لا يضيق على نفسه إلى هذا الحدّ كان يقول: «إنّ الله فرض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيّغ بالفقير فقره»[5].

---

١. الاستيعاب، ج٤، ص٣٧٧؛ بحار الانوار، ج٤٣، ص٥.
٢. أُسد الغابة، ج٢، ص٢٦٩.
٣. سورة النساء: الآية ٧٥.
٤. شرح النهج، ج٧، ص٣٦.
٥. شرح النهج، ج١١، ص٣٦.

والإمام الحسين عليه السلام أيضاً كان يحترم المستضعفين كأبيه الإمام عليّ عليه السلام احتراماً كثيراً، حتى إنّه كان يجيب أحياناً دعوتهم إلى مائدتهم، بل كان يجلس معهم في الطرق والأزقّة كالأخ الحنون لهم[1].

وطبيعيٌّ أنّ هذا الحسين السائر في خط محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام والسالك طريق العدالة والمحبة، لا يمكنه أن يرى الجماهير المسلمة أسيرة وذليلة للحكومة الطاغوتية ليزيد دون أن يحرّك ساكناً، فإنّ سكوته على هذا ـ كما يصرّح بذلك نفسه ـ يتنافى مع مسؤوليته الإسلامية، وأنّ مصير الساكتين على الظلم هو مصير الظالمين أنفسهم.

تطبيق العدالة ليس بمقدور كل أحد

إلى هنا اتضح أنّ الحكومة الإسلامية تمتاز بميزة مهمة، وهي صفة العدالة، العدالة الشاملة والعامة للجميع وفي كل الظروف، وهنا يتوجب العلم بأنّ إجراء العدالة بصورة دائمية وشاملة عملٌ شاقٌّ جدّاً، ولا يتسنّى لكل أحد، حيث يتطلّب ذلك معرفة بالحقوق المختلفة وقوانينها السليمة ومواضعها المتفاوتة من قِبل المتصدين لهذه المهمة، ومن جهة أُخرى يجب أن تكون لهم إرادة حاسمة وقدرة قاطعة لإجرائها، دون أن تؤثّر فيهم العواطف والأهواء النفسانية، لكي يعطوا كل ذي حق حقه.

وبديهيٌّ أنّ هذا الأمر يعتبر محالاً لأكثر الناس أو شبه المحال، وميسوراً للنوادر من الناس الكاملين والمتقين، والشاهد عليه، الكلام الشريف والدقيق للإمام عليّ عليه السلام أيضاً حيث يقول:

«العدل صورة واحدة والجور صور كثيرة، ولهذا سهل ارتكاب الجور، وصعب تحرّي العدل، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطاء فيها، وإنّ الإصابة تحتاج إلى ارتياض وتعهد، والخطاء لا يحتاج إلى شيء من ذلك»[2].

ولصعوبة تطبيق العدالة نجد أنّ الإمام الحسين عليه السلام يذكر شروطاً مهمة للحكام

---

١. تاريخ ابن عساكر، ج ١٤، ص ١٨١.
٢. شرح النهج، ج ٢٠، ص ٢٧٦.

وأُمراء المسلمين، وأنّ توفّرها فيهم سيجعلهم يسيرون طبعاً على خط العدالة، وبالتالي يسوسون الناس في هذا الخط أيضاً. كما سيكونون أقدر على تعبئة كل قواهم لمناهضة الظلم والجور والخيانة، وسنتناول هذه الشروط فيما بعد عند ذكرنا لرسالتي الإمام إلى أهل البصرة والكوفة.

الميزة الأصلية للحاكم الإسلامي

تحدّثنا حول الميزة الرئيسة للحكومة الإسلامية وهي العدالة التي تتجلىٰ في قوانينها العادلة، والآن لنبحث في الميزة الأصلية للحكام الإسلاميّين، ونشير أيضاً إلى الأبعاد المهمة لهذا الموضوع، ثمّ نتحدّث عن السير الصعودي والنزولي في هذا المجال لحكومة الإمام عليّ﵇، ونذكر نموذجاً منها مقارنة بحكومات آخرين، ونشير إلى دور هذه الأُمور في نهضة الإمام الحسين﵇ والثورات الإسلامية الأُخر، وليكن بحثنا في هذه المسألة كالمسألة السابقة بشكل موجز وفي حدود ما يقتضيه هذا الكتاب.

من أُولى ميزات الحكام الإسلاميين هو أنّهم يعملون في إطار القوانين الإسلامية العادلة، وإلّا فإنّهم محكومون بالكفر كما يصرّح القرآن: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[1]، بمعنى أنّه لا يصح بعدُ إطلاق لفظ الحاكم الإسلامي عليهم، بل ولا لفظ المسلم، بل يعتبرون خارجين عن دائرة المجتمع الإسلامي، والمفهوم الأهم المستفاد من هذه الآية ونظائرها هو أنّ الدين الإسلامي يرى في القانون أنّه هو الأصل، والحكام ليسوا سوى وسائل وأدوات لتطبيق القانون وتنفيذه، على عكس حكومات الجور التي ترى في الحكام أنّهم أصلٌ والقانون في الحقيقة وسيلة لتحقق أهدافهم ومآربهم. وهذا ما كان في الماضي يلتزمونه رسمياً واليوم عملياً، ومن هنا نجد أنّ القانون في حكومات الجور أداة وأُلعوبة بأيدي الحكام، يتغير ويتبدل في كل وقت تبعاً لرغباتهم ومقتضيات مصالحهم الخاصة ولو بذريعة

---

١. سورة المائدة: الآية ٤٤.

مصالح الناس، بينما القانون في الحكومة الإسلامية لا يتغير ولا يتبعض، بل هو بمثابة أصل ثابت وسار في جميع الظروف والشرائط طبعاً.

والتعبير العلمي عن هذا الموضوع هو أنّ القانون في الحكومات العلمانية له بعدٌ تشريعي وبعدٌ تطبيقي، ولكنّه في الحكومة الإسلامية ليس له بعدٌ تشريعي، بل له بعدٌ تطبيقي فقط، ورغم أنّ الحكومة الإسلامية تعطي الحق للحكام الإسلاميين في بعض الموارد الضرورية لإصدار الأحكام الضرورية أو المؤقتة، لكن بما أنّ هذه القوانين يجب أن تنسجم مع الأصول العامة للإسلام، فلهذا ليس لها بعدٌ تشريعيٌّ في الحقيقة، بل هي أيضاً ذات بعد تطبيقي فحسب، وإحدى النتائج لهذه الحقيقة هي أنّ المجتمع الإسلامي يرفض جميع أنواع الحكومات الفردية والحزبية والطبقية والمستبدة والاستعمارية وأمثالها، التي تعطي للقائمين والمتصدين للأمور الاستقلال والحرية المطلقة أو شبه المطلقة في الحكم، ولا يرضى بحكومة سوى الحكومة التي تعتمد قوانين الله وتعطي للحكام بُعداً تبعياً لا استقلالياً.

صفات الحاكم الإسلامي

إنّ هذا الأصل الإسلامي (وهو أنّ القانون هو الأصل والحكام وسيلة لتطبيقه) مهم إلى درجة أنّ جميع أهداف الحركات والثورات الحسينية، وكل ما تمتاز به الحكومة الإسلامية على ما سواها من الحكومات الوضعية، يكمن في هذا الأمر المهم، ولذلك نجد أنّ الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثورية يجعل هذا الأمر محوراً لكلماته واعتراضاته على الحكومة الأموية، ويصرّح ويؤكّد في قراءة أولية لخطاب الاستنهاض بأنّهم حكام لا يهتمون بإجراء القوانين الإلهية، ويتحركون من موقع الانحراف ومخالفة القانون. ولهذا لا بدّ من إعداد وسائل الجهاد للدفاع عن حرمة القانون الإلهي، وإسقاط الخطط والأركان التي تعتمد عليها قوى الانحراف، ليمكن بناء صرح العدالة في المشروع الحضاري الإسلامي وعلى أساس القانون الإلهي.

والإمام الحسين عليه السلام في كتابه إلى أهل البصرة أيضاً يذكر هذا الأمر والمحور

الأساس ويقول: «وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه»[١].

وممّا يلفت النظر أنّ الحسين عليه السلام رغم تصريحه في بداية كتابه هذا بحقه في الحكومة والتصدي لها، إلّا أنّه لا يركّز على حقه، بل يركّز على أنّ الحكومة وقوانينها وأعمالها يجب أن تكون إسلامية، وإن لم يكن هو متصدياً لها، ولذلك لم يقل: (أنا أدعوكم إلى حكومتي)، بل قال: «أنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه».

ولماذا يؤكد الحسين عليه السلام بالدرجة الأولىٰ على القانون الإسلامي لا على الحاكم الإسلامي؟ ذلك لأنّ الحاكم الإسلامي ليس له سمة سوى إجراء وتنفيذ الأحكام الإسلامية وقوانين الإسلام، ولذلك فمن الطبيعي أنّ القانون الإسلامي يأتي بالدرجة الأولى، والحاكم الإسلامي يأتي بالدرجة الثانية، كما أنّه بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً تأتي نفس رسالته الإلهية بالدرجة الأولى، وبعد ذلك جميع مقاماته وامتيازاته بالدرجة الثانية.

ومن الواضح أنّه لو تمّت رعاية هذا الأصل المهم وهو (سيادة القانون) لرأينا تحولات وتغيرات مهمة ومثمرة في حياة الناس، فالحكام الذين يلتزمون بهذا الأصل سوف يحترمون أفراد المجتمع ويتحركون في صالح الأُمّة، ومن الطبيعي أنّ هذا الانسجام بين الأُمّة والحكام سيعطي ثماراً طيّبة، ويجتث المشاكل من الجذور والصعوبات التي تواجه المجتمع، لأنّ أصل جميع المشاكل والأزمات تكمن في أنّ الجهاز الحاكم يتعدى ويتجاوز القانون، ويفسّره بما يتفق مع مصالحه ورغباته، وبذلك تصطدم رغبات الحكام في النهاية مع مصالح الناس وتتفاقم حينئذ المشاكل، وإلّا فالهيئة الحاكمة لو كانت متدينة ومخلصة ولا ترى نفسها أعلى من القانون، بل ترى أنّ القانون أعلى من كل شخص ومن كل شيء، فإنّ جميع مسائل المجتمع سوف تحلّ بمفتاح القانون لا برغباتها وميولها الشخصية، وسوف يسعى الناس أيضاً بصدقٍ وإخلاص في عملية البناء الحضاري للمجتمع، وسوف ينالون الاطمئنان والأمان ويتخلصون من كثير من المشاكل، من قبيل ضغوط الحكومة،

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٦٦.

والفساد الإداري، والمؤامرات السياسية، وغيرها الناتجة جميعها من التعدي على القانون أو التساهل في تطبيقه من قِبَل الهيئة الحاكمة وعمّالها، والثمرة الأهم من جميع ذلك هي أنّ المجتمع في إطار تطبيق القانون سينظوي في الحقيقة تحت ظل حكومة القانون لا حكومة الحكام، وبذلك يتخلص من الشراك الشخصية ويتصل بالحق والعدالة والقيم السماوية، وهذه هي الحكومة الإلهية والشعبية.

وبسبب الأهمية الحيوية لهذا الأصل والمبدأ الإسلامي (وهو سيادة القانون، أي أنّ القانون هو الأصل والحكام وسيلة لتنفيذه) يقول الإمام الحسين عليه السلام في رسالته الثانية إلى أهل الكوفة التي يذكر فيها مواصفات الحاكم الإسلامي أيضاً:

«فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله»[1]، أي فلا يحق لأيّ شخص أن يتدخل ويتولى زمام الحكومة الإسلامية إلّا أن يكون عارفاً بالقوانين الإسلامية بصورة جيّدة أوّلاً، وقادراً على تنفيذها بصورة كاملة ثانياً، وهذا أمر طبيعيٌّ بل بديهيٌّ، إذ يعلم كل إنسان عاقل أنّ تنفيذ هذه المسؤولية الثقيلة لا يتسنّى لأي فرد؛ لأنّ كل عمل له شرائطه الخاصة، وعمل الحاكم أثقل وأهم من جميع الأعمال، فلابدّ أن تتوفّر فيه مواصفات خاصة وثقيلة أيضاً، والإمام الحسين عليه السلام يؤكّد في رسالته الأخيرة على مواصفات أو شروط أربعة، نجملها بأربع مراحل كالتالي:

المرحلة الأولى: أن يكون الحاكم وأجهزته مطّلعين بصورة جيدة على القوانين الإسلامية وساعين لتطبيقها بصورة كاملة «العامل بالكتاب».

المرحلة الثانية: أن يتعرف ويدرك الحاكم روح القوانين الإسلامية والعدالة الاجتماعية الكامنة فيها، ويسعى لتنفيذها بصورة واقعية «الآخذ بالقسط».

المرحلة الثالثة: أن يجعل الحق، وهو أساس الإسلام، ميزاناً لكل شيءٍ ومحوراً لجميع نشاطات وسلوكيات وأفكار الناس «والدائن بالحق».

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ٢٦٢؛ الارشاد، ج ٢، ص٣٩.

المرحلة الرابعة: ينذر نفسه لله فيتحرك من موقع الرسالة الإلهية لا من دائرة حاجاته الذاتية ومطامعه الشخصية، بل يسعى أبداً في خدمة الناس بهدف نيل رضى الله تعالى فقط «والحابس نفسه على ذات الله».

هوية الحاكم الإسلامي

إنّ كل واحدة من المراحل الأربع المتقدمة تعتبر ميزة أساسية للحاكم الإسلامي ومن مجموعها يظهر مدى عظمة وفضل الحاكم الإسلامي على غيره من الحاكمين، ولكنّ الميزة الكبرى والأهم تكمن في المقطع الرابع من المراحل المتقدمة، وبها نكتشف هوية الحاكم الإسلامي وأنّه يجب أن يكون كإبراهيم عليه السلام في إخلاصه ونجاحه في الامتحانات الإلهية في الحياة، وأن يتخلص من أسر نفسه وشهواته، وأخيراً أن يكون رابطاً بين الخالق والخلق.

ويشير الحسين عليه السلام في إحدى خطبه إلى هذه الخصيصة الكبرى للحاكم الإسلامي، كما رُوي أنّه «**قال له رجل: يابن رسول الله فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي تجب طاعته**»[1]. يعني أنّ الحاكم الإسلامي له روح فوق الجميع، فهو ليس ظل الله وخليفته في الأرض فقط بل مرآة الله. والإمام عليّ عليه السلام أيضاً يؤكّد على هذا الأمر ويصرّح به بشكل آخر فيقول: «**إنّ الأئمة قوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده لا يدخل الجنة إلّا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه**»[2].

ونقرأ حديثاً نبوياً آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً فإنّه يقول: «**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**»[3]، وهذا الحديث متفق عليه بين الفرق الإسلامية المختلفة.

---

١. معاني الاخبار، ٣٢؛ بحار الانوار، ج٢٣، ص٨٣ و ٩٣؛ كنز الفوائد، ١٥١.

٢. شرح النهج، ج٩، ص١٥٤.

٣. راجع: أُصول الكافي، ج١، ص٣٧٧؛ صحيح مسلم، ج٦، ص٢٢؛ مسند احمد، ج٣، ص٤٤٦.

إنّ الأحاديث الآنفة الذكر تفيدنا من عدة جهات، وإحدى هذه الجهات المهمة هي أنّ الحاكم الإسلامي رغم كونه حاكماً زمنياً، واهتمامه بتنظيم الأُمور الدنيوية للناس وبحل مشاكلهم بواسطة القوانين الإلهية، فإنّ مقامه هذا مع سموّه وعظمته ـ لا يقاس بمقامه الحقيقي الأعلى والأسمى، وهو كونه حاكماً روحياً، وصاحب قداسة سماوية، وأنّه يتحرك باتجاه قيادة فطرة الناس وإصلاح ضمائرهم قبل أن يصلح مظاهرهم الخارجية، وهو بذلك يبتغي إيصالهم إلى سعادتهم الأبدية، وهذه هي طريقة الأنبياء والمعصومين المرتبطين بالسماء في قيادة المجتمعات البشرية، ومن هنا نخلص إلى نتيجة نهائية، وهي أن الحاكم الإسلامي أو القائد يجب أن يكون معصوماً أو نائباً عن المعصوم متحلياً بدرجة عالية من العلم والفقاهة والتدبير والورع والتقوى والإخلاص.

الدّور الأساسي للإمامة

ومن هنا يتضح أيضاً المفهوم العام للإمامة، وهو أنّ الإمامة مصدر هداية الناس نحو الله في كل نواحي الحياة وصدّهم عن أنواع الانحراف والانحطاط في كل مظاهرها. فالدور الأساسي للإمام هو في الحقيقة ربط قلوب الناس وأرواحهم بالله تعالى، والسعي إلى تزكية وتطهير هذه النفوس، ومن ثمّ حل مشاكلهم الدنيوية من دون حاجة إلى المراقبة الشديدة من الحكومة، ولكنّ الحكومات الأُخرى لا تهتم بالفطرة الإنسانية وتطهير وإصلاح البناء الداخلي للإنسان ولا تهتم بالمعنويات والفضائل البشرية، بل ترى في الحياة الدنيوية هدفاً أساسياً وأصلياً، ولذا تجعل من مطالب ورغبات الأكثرية أو الأقلية ـ غير الثابتة طبعاً ـ أساساً لعملها، وطبيعيٌّ أنّها بسبب الانحراف عن مسار الفطرة لا يمكنها الاستقامة والامتداد في ضمائر الناس ووجدانهم، بل تضطر لاستخدام القوة والقهر والاعتماد على زيادة التشكيلات الأمنية والتنظيمات الإدارية لتنظيم الأُمور.

والنقطة المهمة الأُخرى التي تستفاد من الأحاديث الشريفة المذكورة آنفاً هي أنّ

القضايا الإنسانية الإلهية، التي تتجلى في الرسالة الإسلامية بهداية الإمام الحق، تعتبر محوراً أساسياً لجميع الأمور وخاصة في التنظيمات الإدارية الحكومية، وهي التي تؤدي بالتالي إلى تربية الإنسان معنوياً، وإنقاذه من ورطة التعلق بالمادة والانزلاق في هوّة الانحطاط الخُلقي.

كما يتضح من تلك الأحاديث الشريفة أيضاً أنّ رجال الله يرون أنّ حكومة اليزيديين إلى أي مدى تبعد الناس عن دورهم (الإنساني والإلهي)، وتلقي بهم في هاوية الفساد وحب الدنيا، ولذلك فهي تشكّل خطراً يهدّد الإنسانية، ومن الضروري مواجهتها والتصدي لها لتحرير الانسان ورقي الإنسانية.

والنتيجة الأساسية لما قلناه في هذه الصفحات هي أنّ أكبر امتياز للقائد الإسلامي أي الإمام، وفي نفس الوقت هو مصدر جميع امتيازاته، هو أنّ له بعداً إلهياً، ولهذا يجعل القوانين الإلهية أصلاً وكل شيء فرعاً لها، فإن لم يكن كذلك فهو كسائر أئمة الضلال المتعشقين للدنيا الذين لا يوصلون الناس إلى السعادة مطلقاً، بل يوقعونهم في هوّة الغواية والدمار حتماً.

وحول هذا الأمر الأساس، وهو أنّ القوانين الإلهية أصلٌ وكل شيء فرعٌ لها، أمور حساسة مهمة ينبغي تحقيقها في كتاب مستقل، وهنا نشير إلى أربعة منها تساعدنا لتوضيح أكثر لأصل الأمر أيضاً.

أهمّ خصيصة في الحاكم الإسلامي

الأمر الأول: ما هي أهم خصيصة في الحاكم الإسلامي؟

إنّ أهم خصيصة في الحاكم الإسلامي هي أنّه بخلاف غالبية الحكام غير الإسلاميين مرشد وقائد في نفس الوقت، يعني أنّه يقترح وينظّر من جهة، ومن جهة أُخرى ينفّذ ويعمل على إجراء هذه المقترحات بنفسه وبإخلاص، بل قد يضحّي بنفسه في هذا السبيل، وكما يصطلح أنّه يمزج بين العلم والعمل.

لقد وضع «أفلاطون» برنامجاً لإيجاد المدينة الفاضلة، وأساس برنامجه ومنهجه

في ذلك ـ الذي يحكي عن أفكار سقراط ويحظى بأهمية، خاصة لدى علماء الغرب ـ هو (أن إصلاح المجتمع منوط بالحكومة الصالحة، والحكومة الصالحة منوطة بأن يصبح الفلاسفة حكاماً أو الحكام فلاسفة)، الفلسفة هنا كناية عن العلم، والحكومة هنا كناية عن القدرة السياسية والإدارية، وطبيعيٌّ أنّه من أجل القيام بكل عمل إصلاحي، وخاصة على المستوى الاجتماعي، فإنّه من اللازم توفّر العلم والقدرة كجناحين متلازمين لإصلاح المجتمع، وهنا نجد أن منهج أفلاطون وأنصاره من سائر الفلاسفة يتوافق مع كلام الإمام عليّ عليه السلام في قسمه الأول ـ والذي نذكره بعد قليل ـ ولكنّ نقصه الكبير هو أنّه يمثّل فرضية ذهنية رسمت على الورق فقط من دون أن يهتم هو أو سائر الفلاسفة بتنفيذها؛ لأنّهم بالرغم من حكمتهم وفلسفتهم النظرية، إلّا أنّ حكمتهم العملية كانت غير كافية وغير مؤثّرة، ويشهد عليه أنّهم لم يقدّموا للناس نموذجاً واقعياً مجسداً،ولم يتصدوا للحكام الفاسدين الذين كانوا بمثابة حجر عثرة في طريق تحقيق مدينتهم الفاضلة، بل ربّما وقفوا إلى جانبهم أو سكتوا في قبالهم، وليس في ذلك الزمان فحسب، بل في كل مرحلة من التاريخ نجد أنّ الغرب يطرح أحياناً برامج ومناهج جيّدة في باب العدالة الاجتماعية والسلام العالمي وحقوق البشر والنُظم العالمية وأمثال ذلك، ولكن بما أنّهم لا يمتلكون الاخلاص والصدق والشهامة الثورية، فلذلك لا يحالفهم التوفيق لتطبيق هذه الأفكار والأطروحات، بل نجدهم غالباً يعملون بخلاف ذلك، ومن جهة أُخرى نجد أنّ بلدان الشرق تسعى بشكل حثيث نحو الرفاه والتمدن، ولكن بما أنّهم لا يمتلكون العلم والدقة بصورة كافية، فلذلك لا يحظون هم أيضاً بالتوفيق النهائي، بل ربّما يجدون الطريق موصداً أمامهم، والسبب في عدم نجاح الشرق والغرب في الوصول إلى التقدّم الحضاري الواقعي، هو أنّ الثاني يعتمد غالباً على جناح العمل والعينية والأول يعتمد غالباً على جناح العلم والذهنية، فلذلك لا يصلون إلى المطلوب، بل يتورطون في المشاكل والشدائد المتزايدة.

الإسلام يَقرن العلم بالعمل

ولكنّ الإسلام بغضّ النظر عن المشاكل التي أحدثتها الحكومات الفاسدة والعلماء المنحرفون في طريق إرساء مبادئه، فإنّه حقيقة جامعة، لا شرقية ولا غربية، نعم، الإسلام يستفيد من ايجابيات أيّ مذهب شرقي أو غربي، ولكن يتبرأ من نقائصه، وخصوصية مبدأ الإسلام الرئيسة هو أنّه يقرن العلم والعمل ويوفّق بين النظرية والأُسلوب، ومن هنا يعتبر القرآن الكريم أنّ المسلمين هم الأُمّة الوسط؛ لأنّهم على عكس الغربيين والشرقيين يمتلكون كلتا الجنبتين: (النظرية والتنفيذية) معاً، والإمام عليّ عليه السلام يؤكّد على هذا المنطق الجامع في مجال الحكومة وعلى ضرورة الاعتماد على الجانبين (النظري والتنفيذي) معاً ويقول:

«أيّها الناس إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب شاغبٌ استُعتب، فإن أبى قوتل»[1]. يعني أنّ الشخص الجدير بأن يكون حاكماً إسلاميّاً هو من كانت له خصلتان: الأُولى أن يدرك القوانين الإلهية والمصالح الإنسانية أفضل من الآخرين، والثانية أن يسعى في سبيل ذلك أكثر من الآخرين، وأنتم أيّها الناس مكلّفون بمواجهة من ليس فيه هاتان الخصلتان ولكنّه جلس مجلس الخلافة والحكم بغير حق، فيجب أن تجاهدوه جهاداً إعلامياً أوّلاً، فإن لم ينفع معه ذلك يأتي دور الجهاد العملي حتى يتم اخراجه من دائرة الواقع السياسي؛ ليتسلمها من هو لائق بها.

ورأينا من حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً يعبئ المسلمين بقوله: «إذا راى الناس الظالم ولم يأخذوا على يده أو لسانه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب»[2]، وكما روى الحسين عليه السلام أيضاً في خطبته المعروفة: «... يُدخله مدخله»، مأخوذاً من الحديث لرسول الله صلى الله عليه وآله.

---

١. شرح النهج، ج ٩، ص ٣٢٨.

٢. سنن البيهقي ج ١٠، ص ٩١؛ شرح مسلم، ج ٢، ص ٢٤؛ مسند أحمد، ج ١، ص ٧؛ بحار الانوار، ج ١٠٠، ص ٧٨.

مضافاً إلى ذلك فإنّ أئمة الإسلام الحقيقيين أوضحوا هذه المبادىء بأعمالهم، ولم يكتفوا برفع الشعارات والإعلام فقط كما هو الحال في أفلاطون وسائر الفلاسفة المتثقفين في الماضي والحاضر، الذين يشغلون الناس بمعادلاتهم الفكرية ونظرياتهم الذهنية دون أن يكونوا على استعداد للتضحية في سبيلها، فنجد الأئمة الحقيقيين مضافاً إلى أنّهم علماء فكذلك كانوا يهدون الناس بمبادراتهم العملية، وحتى بتحملهم أنواع المصائب والشدائد وخاصة في طريق مواجهة الظالمين، أمّا العلماء المثقّفون حسب زعمهم فبالرغم من أنّهم يمتلكون بعض العلم، إلّا أنّهم ليسوا بهداة للأُمّة، بل إنّهم على أثر غرورهم العلمي يهتمون بمصالحهم الشخصية أو الاجتماعية ونظائرها، وأسوأ من هذا أنّهم يواجهون رجال الله بالأساليب المنحرفة، ويلقون بين الناس الشبهات والوساوس التي تبعدهم عن رجال الله وفي الحقيقة عن الله، كما لمسنا ذلك عند بعض علماء الإسلام أيضاً بالنسبة إلى نهضة الإمام الحسين، فإنّهم أدركوا وعرفوا خطر حكومة يزيد، ولكنّهم مع ذلك تجنبوا نصرة الإمام الحسين، بل دعا البعض منهم الناس إلى عدم المشاركة في نهضته، وفي الحقيقة أنّ موقفهم ذلك كان تأييداً إعلامياً للحكومة اليزيدية، وفي النتيجة أوقعهم في الهلكة الواقعية، كما يقول أئمة الحق وذوو البصيرة والشهامة: «ربّ عالم قتله جهله، ومعه علمه لا ينفعه»[1].

وتحصّل ممّا قلناه في هذه المسألة أنّ الحكام والأئمة الإسلاميين الحقيقيين هم الذين يدافعون عن الحق والعدالة لا في القول فقط، بل يقومون بالتربية الثورية للناس بهدايتهم قولاً وعملاً معاً، ومن هذا الطريق الجامع يسوقونهم في مسير الصلاح والإصلاح والتصدي للفاسدين خصوصاً الحكام منهم.

١. شرح النهج، ج ١، ٢٣٣؛ وج ١٨، ص ٢٦٩..

الحكومة الإسلامية كالشركة المتضامنة

الأمر الثاني: هو أنّ الإسلام بالرغم من أنّه يعطي الأهمية في الدرجة الأولى لحركة المسؤولين على مستوى إصلاح الأُمة وتعاليها وحل مشاكل الناس وهدايتهم، ولكنّه في نفس الوقت يؤكّد على أنّ سائر أفراد المجتمع أيضاً موظفون في حدود إمكاناتهم على الاشتراك في تحسين أمور المجتمع وتقدّمها، ويؤكّد أكثر على إشرافهم على المؤسسات الحكومية التي تعتبر محاور نشاط المجتمع، وعلى التصدي للانحرافات وانتقاد الأخطاء والزلات منها، وأساساً فإنّ منطق الإسلام هو مشاركة جميع المسلمين في إدارة المجتمع وفي تنفيذ قوانين الحكومة الإسلامية، ولهذا يجب القول إنّ الحكومة الإسلامية كالشركة التعاونية العامة، بمعنى أنّ كل مسلم يجب عليه أن يتخذ له دوراً في أداء ذلك، كلٌّ حسب موقعه وإمكاناته، ونلاحظ في الحديث الشريف أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته»[1].

هذا الحديث الشريف المتفق عليه بين المسلمين ولم يحظ ـ مع الأسف ـ بالعناية الكافية من قِبَل المسلمين، ففيه نقاط مهمّة، إحداها أنّ الإسلام يهتم باستيعاب السيطرة على المجتمع لجميع طبقاته وأصنافه، ولم يجعل الإشراف على كيفيّة إدارته من الأعلى إلى الأسفل أو من الأسفل إلى الأعلى، كما نجد هذا في كل نظام طبقي، بل يلقي مسؤولية ذلك على الجميع عن طريق توزيع منابع القدرة على جميع أفراد المجتمع، كما هو الحال في كون مصادر الطبيعة أيضاً بيد الجميع، على عكس المذاهب اليسارية واليمينية التي تجعل القدرة بيد طبقة خاصة كالعلماء أو الرأسماليين أو الجيش أو العمّال وأمثالهم، فيمهّدون بذلك إرادياً أو لا إرادياً السبيل إلى الاستبداد والدكتاتورية. بينما نجد الإسلام يحرّر القدرة من قيد الحصار، ويجعلها في متناول الجميع من كل الطبقات والأفراد، ويجعلهم موظفين بأداء دورهم فيها.

---

١. العقد الفريد، ج ١، ص ٥؛ عوالي اللئالي، ج ١، ص ١٢٩؛ صحيح البخاري، ج ١، ص ٢١٥.

والخلاصة أنّ النظام الإسلامي كما يفسح المجال للجميع في تحصيل الثروة والعلم بشكل مشروع، فكذلك يفتح المجال للجميع في الإشراف على القدرة الحاكمة ومراقبتها بشكل مشروع، وطبعاً يقوم هذا الحق المشروع على أساس عدم الإضرار بحق الآخرين أو بأركان الحكومة الإسلامية ممّا يبعث على إرباك الوضع السياسي، وأساساً فإنّ مقولة: (إنّ كل شخص مسؤول عن الجميع)، لا يقبله الإسلام بشكل مطلق، بل بشكل نسبيّ وفي إطار المصالح الكلية، وعلى كل حال فإنّ الإسلام يؤكّد هذه المسؤولية المهمة، ويريد من كل فرد أن يخدم المجتمع ويتحمل هذه المسؤولية حسب طاقته وإمكاناته، ولذلك قرّر الإسلام أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوجبه على الجميع، سواءٌ في الجانب التبليغي والسعي إلى التعليم أم في الجانب العملي والسعي إلى التنظيم، فهذا الأصل من أولى الواجبات في الإسلام.

فالنهي عن المنكر وسيلة إلى دفع الفساد وتحديده، والأمر بالمعروف وسيلة إلى إيجاد الصلاح وتوسعته، والإسلام بوسيلة هذا المغناطيس ذي الجانبين (الدافع والجاذب) يدعو الناس جميعاً إلى التدخل والاهتمام بأُمور المجتمع حتى إزاء الحكام، بل خاصة إزاء الحكام.

الإمام عليّ عليه السلام يرى أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة تبليغية وعملية أيضاً، ويؤكّدها خاصة تجاه الحكام من أجل إصلاحهم وهدايتهم، ويقول: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولّى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[1]، ومفهوم حديث الإمام عليّ عليه السلام هذا، هو أنّ أُسلوب إصلاح الحكومات ليس هو الدعاء فقط، لإنّ لإصلاح كل شيء وسيلة خاصة، والوسيلة الخاصة لإصلاح الحكومات هي أن يتحمل أفراد المجتمع مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويواجهوا انحراف القادة أوّلاً بالنصح والإرشاد وبالأُسلوب المنطقي، فإن لم يؤثّر فيهم فلابدّ ثانياً من اتخاذ مواقف عملية رادعة، وعلى الأقل

١. شرح النهج، ج١٧، ص٦.

الاهتمام بتعليم المسلمين مفاهيم الإسلام التربوية، حتى يتم بذلك تحرّك الحكومة أيضاً في طريق الصلاح والإصلاح للمجتمع بمقتضى القانون الاجتماعي المسلّم وهو (تشابه الأمّة والحكومة)، وبالتالي يرضخ الحكام طوعاً أو كرهاً لإرادة الأمّة الإسلامية، ويحترمون مسيرتها ويهتمون بتطبيق القوانين الإلهية على أُمورها.

وإحدى الثمرات الأُخرى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أنّه يشكّل أفضل مراقبة عامة وأكملها وأنفعها وأيسرها، وبإمكانه أن يأخذ مكان الكثير من المنظمات الثقافية والتربوية والأمنية، فيما لو استخدمت هذه الوسيلة الناجعة بشكل صحيح وجذري لا بشكل مغلوط أو سطحي.

إحدى امتيازات الشيعة

ولكن مع الأسف يجب الاعتراف بأنّ الكثير من المسلمين مقصّرون على مستوى التطبيق تجاه مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خاصة إزاء الحكام الظالمين، بل بدلاً من مواجهتهم عملاً أو على الأقل قولاً، نجدهم سلكوا طريق الاستسلام، بل وأعطوا هؤلاء الحكام لقب (أولي الأمر)، وفي هذا الوسط نجد أنّ طائفة الشيعة فقط هي التي اهتمت بهذه المسؤولية الحياتية، وأساساً فإنّ إحدى امتيازات الشيعة في طول تاريخ الإسلام ـ على عكس الفرق السنية ـ أنّهم كانوا معارضين دائماً للحكام الطواغيت، وبالرغم من قلّتهم وشدة الضغوط عليهم، لهم دور حساس في بلورة الثورات العلمية والعملية في تاريخ الإسلام أكثر من جميع الفرق الإسلامية ـ حتى في حالات الكبت الفكري والجمود الحركي ـ مقابل قوى الانحراف في كثير من المراحل التاريخية، ولا أقل أنّهم كانوا يتربصون الأحداث ويرصدون الواقع الموضوعي تحت ستار التقية، ويمارسون نشاطهم الإرشادي والتبليغي في تلك الأجواء الضبابية.

وأساس هذا المنهج المتحرك لدى الشيعة في دفاعهم عن الحق والعدالة ضد

الظالمين هو آيات القرآن الكريم، التي تؤكّد لزوم إقامة الحق والعدالة، ومواجهة أئمّة الجور والضلالة، والتي زرعت في الأُمة روح الثورة في مواجهة الانحراف والإرهاب، من قبيل ما نلاحظه في الآيتين اللتين تحكيان وظيفة الأُمة تجاه الحكام وهما:

﴿يا أيّهاالذين آمنوا أطيعوالله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمرمنكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً. ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً﴾[١].

ولكن بما أنّ دراسة هاتين الآيتين خارجة عن حدود هذا الكتاب فيمكن مراجعة التفاسير وخاصة تفسير الميزان و الفخر الرازي والمنار و... في ذيلهما، وهنا نذكر فقط جملة واحدة من تفسير (المنار) حتى يعلم القرّاء الكرام أنّ مقولات هذه الصفحات لا تختص بأتباع أهل البيت، بل هي منطق جميع المطلعين على المفاهيم الإسلامية، رغم أنّ هذا المنطق لم يطبّق تماماً، بل إنّ مسيرة المسلمين كانت على خلاف ذلك غالباً، فصاحب المنار يقول:

«إنّ الأُمّة مجتمعة على أنّ الأمراء والسلاطين إنّما تجب طاعتهم فيما عُلم بالدليل أنّه حق وصواب، وذلك الدليل ليس إلّا الكتاب والسنة»[٢].

وهذا المعنى أوردناه آنفاً من أنّ الحاكم الإسلامي لابد أوّلاً: أن يعرف قوانين الإسلام بصورة جيدة، وثانياً: أن يسعى لتطبيقها بصورة صحيحة، وفي غير هذا الحال فإنّ طاعته حرام، بل إنّ الجهاد ضده واجب «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» و «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر»[٣].

---

١. سورة النساء، الآية ٥٩ ـ ٦٠.
٢. تفسير المنار، في سورة النساء ذيل آية ٥٩.
٣. الوسائل، كتاب الأمر بالمعروف ج ١١، ص ١٥٧ و ج ١٦، ص ١٢٧؛ شرح النهج، ج ٥، ١١٢ وج١٩، ص٣٠٦.

تساؤل عويص

الأمر الثالث: أنّه بالالتفات إلى آيات القرآن وأحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، التي تؤكّد على البعد العلمي والتنفيذي معاً للحكام، وعلى التصدي للحكام الظالمين، قد يثار هنا تساؤل مهم وعويصٌ، وهو أنّه لماذا نرىٰ أنّ المسلمين ـ على رغم تأكيدات القرآن والسنة النبوية على ضرورة العدالة والقيام ضد الظلم ـ استسلموا للحكام الفاسدين وحتى المعلنين للفسق والفجور والكفر، بل إنّهم لقّبوهم بعنوان (أولي الأمر) يعني أنّهم خلفاء الله والرسول صلى الله عليه وآله؟

والجواب عن هذا التساؤل المهم هو أنّه: قد اتضح في آخر الفصل الأول وفي بدايات الفصل الثاني أنّ جذور هذا الضلال البعيد هو حكومة معاوية، التي تقلدت أمور المسلمين بواسطة أبي‌بكر وعمر وعثمان، فتشكلت من ذلك أرضية مساعدة له ولغيره من الأمويين، وبالتالي كسبت لها قدرة مطمئنة إلى حد أنّها استطاعت من محاربة الإمام عليّ عليه السلام وسائر الصحابة المخلصين، ثمّ غصب مقام الخلافة. ولقد صرّحت جميع المصادر التاريخية أنّ أهمّ سعي للحكومة الأموية وحزب معاوية هو إضلال المسلمين وإبعادهم عن طريق تيّار الحق المتمثل بالإمام علـيّ وأهـل بيته عليهم السلام، بل أجبروهم على لعنه وشتمه، وافتعلوا في ذلك ـ بمنتهى الدناءة ـ الأباطيل والأكاذيب، بل وضعوا من خلال مرتزقتهم الأحاديث وتلاعبوا حتى بعقائد المسلمين، وخاصة في مجال وجوب إطاعة أُمراء العدل فقط وجهاد حكام الجور، فعملوا على ضعضعة هذه المفاهيم في أذهان المسلمين، وبالتالي أصبح المسلمون أداة طيّعة في أيدي الأجهزة الحاكمة.

هذه السياسة الظالمة للحكومة الأموية التي بدأها معاوية، عامل الخلفاء السابقين المؤيدين له، استمرت على أيدي خلفائه أيضاً، وهناك شواهد كثيرة على هذه السياسة وأبعادها وآثارها، ولمراعاة الاختصار نكتفي بذكر نموذجين لها، وخاصة المقولة الباطلة بأنّ بني أمية هم أُولو الأمر؛ لكي تتضح الأهداف الخبيثة للحكومة الأموية وأسباب ضلال المسلمين ومأساتهم:

(الحجّاج بن يوسف) وهو أحد أمراء عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي، الذي حكم العراق لسنوات كثيرة، وهو ممّن يُضرب به المثل في شدة البطش والظلم والجريمة، فإنّه كان يقول بالنسبة إلى عبدالملك بن مروان حينما ذُكر عنده الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ بالمدينة يقول: «تبّاً لهم، إنّما يطوفون بأعواد ورمّة بالية، هلّا طافوا بقصر أميرالمؤمنين عبدالملك؟ ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خيرٌ من رسوله»[١].

«خالد القسري» أيضاً كان أميراً من قِبل عبد الملك على مكة المكرمة، فكان يقول بمنتهى الوقاحة: «... والله لو علمت أنّ عبدالملك لا يرضى عنّي إلّا بنقض هذا البيت ـ «الكعبة» ـ حجراً حجراً لنقضته في مرضاته»[٢].

هذه الكلمات، لها نظائر كثيرة في التاريخ الإسلامي وخاصة في تاريخ الدولة الأموية، وهي جميعاً تحكي عن خطر عظيم جداً وهو أنّ الحكومة الأموية وأجهزتها الفاسدة والتى تسلطت مع الأسف الشديد على جميع مقدرات المسلمين، وسيطرت على أفكارهم وثقافاتهم، تفضل الخليفة بمنتهى الصراحة على المقدسات الدينية، وحتى على نبيالإسلام والقرآن والكعبة، بل إنّ يزيد يقول في أبياته الصريحة في الكفر، علناً وبمحضر من المسلمين: إنّ كتاب الله أُلعوبة بيد رسولالله ﷺ وهو اللاعب بها.[٣]

وقد رأينا في الفصلين الأول والثاني أنّ الخلافة الإسلامية انحرفت من حين وفاة رسول الله ﷺ عن مسيرها الأصلي الذي أراده، وفي الحقيقة انفصلت الخلافة الحقيقية عن الرسالة، وهذا الانفصال اشتد يوماً فيوماً حتى تفاقم الخطر في زمان تسلط الأمويين على منصب الخلافة، فمن ذلك الزمان لم تنفصل الخلافة عن الرسالة فحسب، بل صارت الخلافة حاكمة على الرسالة وتبدّلت عملياً بسلطة دكتاتورية وراثية نظير سلطة ملوك ايران والروم أو أسوأ منها، وبديهيٌ أنّ الأمويين

---

١. شرح النهج، ج١٥، ص٢٤٢؛ العقد الفريد، ج٥، ص٢٨٤.

٢. الامامة والسياسة، ج٢، ص٦١.

٣. المقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٥٩؛ اللهوف، ص ١٠٥.

الخبيثين؛ وهم الشجرة الملعونة في القرآن وعلى لسان النبي صلى الله عليه وآله، الذين جعلوا الخلافة حاكمة على الرسالة والرسالة أُلعوبة للخلافة، أخذوا يعملون في الناس باستبداد تام، وراحوا يقمعون الأفكار الثورية الإسلامية بأشد صورة ممكنة، والأنكد من هذا أنّهم أخذوا يقلبون الحقائق الإسلامية خاصة في المجالات السياسية، وعن طريق وضع الأحاديث التي سنشير إلى نموذجين منها في الفصل الرابع، وقد سعوا من هذا الطريق أن يستسلم المسلمون للحكام ولو كانوا فاسدين، وهذه هي الضلالة والذلة الحقيقية.

والغريب أنّ الحكام الأمويين استطاعوا ـ بوضع أحاديثهم الكثيرة المضللة ـ إرباك الذهنية المسلمة واختراق ثقافة المسلمين إلى درجة أنّهم صدّقوا بأنّ معاوية ويزيد ومروان ونظائرهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ حكومتهم هي إسلامية حقيقية، حتى عاونوهم في عدوانهم ـ بأسوأ صور الجاهلية ـ على أهل بيت النبوة ، وكذا في قتلهم وأسرهم للمؤمنين المخلصين في مكة والمدينة، وكانوا يقولون في كل ذلك: «إنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا»[١]، يعني هؤلاء الحكام هم أولو الأمر في كل حال وفي جميع الظروف والشرائط، وهذا أسوأ وأوقح منطق في تاريخ الإسلام، وقد ساد على كثير من المسلمين بحيث جعلهم في الحقيقة غير مسلمين، بل ضد المسلمين الحقيقيين.

وما يثير الاستغراب أكثر أنّ منطق السياسة الأموية الظالم هذا، كان يحظى بتأييد علماء السوء الذين يلبسون الزيّ الديني، ويعملون على زرع هذه الأفكار المنحرفة في أذهان المسلمين نسلاً بعد نسل، وهنا يقول العلماء الحقيقيون: إنّ خطر هؤلاء العلماء المنافقين أشد على الأمة الإسلامية من خطر يزيد وأضرابه من حكام السوء[٢]، لانّ هؤلاء هم الذين يهيّئون الأجواء التي تدعم أمثال يزيد من حكام السوء والطغاة.

---

١. تاريخ ابن عساكر، ج ١٢، ص ٢٢٤؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٠٥.

٢. الاحتجاج للطبرسي، ج ٢، ص ٢٦٤.

حركة الإمام الحسين عليه السلام فسرت مفهوم أُولي الأمر

الأمر الرابع: هو أنّ مسألة أولي الأمر والحكام أو الأئمّة مسألة حساسة جداً، ولها تأثير في جميع أبعاد حياة المسلمين واقعاً، وطبعاً ليست هذه المسألة خاصة بالمسلمين، بل بمفهومها الأساسي تعم جميع الناس والمجتمعات البشرية، فانّ جميعهم يقبلون أصل هذه المسألة، غاية الأمر أنّ الشروط والحدود تختلف من أمّة إلى أخرى، فجميع الناس يعشقون الحق والعدالة بالفطرة، ولذا يرغبون طبعاً في حكومة عادلة وحاكم منصف وصالح يستطيع إصلاح الأجواء الفكرية والاجتماعية للناس على أساس الحق والعدالة، وتطهيرها من الخرافات وأنواع الظلم والضلالة، والخلاصة أنّ مسألة الإمامة والقيادة مسألة طبيعية بالرغم من كونها متنوعة على مستوى الأسماء والمصطلحات في المجتمعات البشرية، ونحن عند دراسة نهضة الحسين عليه السلام وأصحابه، يلزم أن نلاحظ في الحد الأدنى هذا الأمر الأساسي والحيوي، وهو أنّ هذه النهضة المقدّسة قد أعلنت ـ لا بالكلام بل بالدم ـ عدم مشروعية حكومة الظلمة الفاسدين، وأوضحت عملياً مفهوم اولي الأمر أو الولاة المؤهّلين، الذي هو من أهم المعارف والمفاهيم الضرورية للبشرية، إذا لاحظنا هذا الأمر فلا ريب في أنّنا نصدّق أنّ مثل هذه النهضة تحظى بقداسة ومنزلة عالية، وإن لم تتحقق أهدافها الآنيّة.

وذلك لأنّ مثل هذه النهضة هي التي تبيّن واقعية الإمام، والتي هي أهم من شخص الإمام وحتى من حكومته الظاهرية، والتي هي قدوة وأُسوة للناس في فكرهم وعملهم.

وذلك لأنّ مثل هذه النهضة ومن خلال تضحياتها الهادفة، قد أحبطت كل المساعي الإعلامية ـ خاصة في مجال وضع الأحاديث باسم النبي صلى الله عليه وآله ـ للحكومة الأموية ونظائرها ولعلماء بلاطها، وتجلت من خلالها لمن عاصرها ولكل الأجيال التي تلتها هذه الحقيقة الأساسية، وهي أنّ اولي الأمر بمعناه العام يُتعرف عليهم بمعايير (إنسانية إلهية) وليس بمعيار (التسلط والتحكم).

وذلك لأنّ مثل هذه النهضة هي التي دوّنت بأسطر حمراء خالدة هذا الإنذار الثوري والباعث على التحرك والنهضة، وهي التي دوّنت بأسطر حمراء خالدة أن ليس للحكام الفاسدين الولاية على الناس، بل يجب علاوةً على ذلك أن يُكافحوا بكل القوى حتى يُقمَعوا عملياً وسياسياً، ويُقضى على سلطتهم في كافة مرافق حياة الناس خاصة الفكرية منها، وأن يعيش الناس تحت ظل حكومة الصالحين وادارة الأكفاء حتى يسعدوا بها.

إنّ هذا هو الاعتقاد والفكر الأصيل الذي قامت نهضة الحسين﵇ الحمراء ببثّه في الأجواء المظلمة السوداء للمسلمين آنذاك، وهذا الاعتقاد له أهمية بالغة جداً رغم أنّه لم يحقق آثاراً عملية وقتئذٍ، بل بمرور الزمان أثمرت وبدت نتائجه وآثاره العملية، وإحدى نماذجها الانتفاضات العارمة التي قام بها المسلمون الذين تربّوا في مدرسة كربلاء، ضد أمثال يزيد والحجاج وعبدالملك وهشام وسائر الحكام الأمويين وغيرهم، والتي آلت بعد اتساعها وتصاعدها إلى إنهاء حكم الأمويين الخبثاء وأعوانهم، وأنقذت الأُمة الإسلامية من شرورهم وخبثهم، ولم تنحصر تلك التربية بذلك الزمان، بل وكما سنرى في تصريحات المحققين والباحثين، بقيت النهضة الحسينية المضمخة بالدماء عاملاً للهداية الثورية، ومدرسة ترشد فيها المجتمعات بالشكل الذي جعل المسلمين والمؤمنين يضحون بأنفسهم في سبيل التصدي للقوى الجائرة، وطبعاً كانت لها آثار إيجابية مهمة لصالح الإسلام طيلة القرون.

وممّا لا يخفى، أنّه لولا نهضة الحسين﵇ لم تكن تحدث تلك التغييرات الروحية الأساسية والثورية المثمرة في التاريخ، كما رأينا أنّ العشرين عاماً من حكم معاوية لم يطرأ عليها شيءٌ، بل مع فقدان نهضة الحسين﵇ لاستمرت حكومة أمثال يزيد والحزب الأموي إلى ما شاء الله، والأنكى من ذلك أنّها كانت تحظى برضى المسلمين، وبالتالي يؤول الأمر إلى إفراغ الإسلام من محتواه رغم بقاء إطاره وصورته الظاهرية، والتي يتخذها الظلمة اليزيديون ذريعة للاستمرار في حكمهم المشؤوم.

والخلاصة: إنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام الدامية أوضحت بأجلى صورة ممكنة، ماهية الحكومة الإسلامية والحكام الإسلاميين، وكذلك مسؤولية المسلمين إزاء الحكومات الفاسدة، وضرورة الدفاع عن الحق والقيام ضد الظالمين المنحرفين حتى لو أدّى الأمر إلى الشهادة. الإمام الحسين عليه السلام أثبت ذلك عملياً، وهذا أهمّ من مسألة تشكيل الحكومة كما تقدّمت الإشارة إليه، كما أنّ إحدى ثمرات ذلك من الناحية العملية هي الثورات المتوالية للمسلمين ضد الحكومات الفاسدة بعد نهضة كربلاء الدامية وسوف نشير إليها في الفصل الرابع.

* * *

بقيت لدينا من هذا الفصل ثلاث مسائل تتعلق بالجنبة الخصوصية والشخصية والطبيعية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام، وهذه المسائل الثلاث كما أشرنا إليها في صدر الفصل عبارة عن:

١ ـ مكانة الإمام الحسين عليه السلام الخاصة بالنسبة إلى الخلافة ودورها في نهضته.
٢ ـ رؤيا الإمام في بداية النهضة. ٣ ـ الجذور الطبيعية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده.

وفيما يلي نستعرض هذه المسائل الثلاث بالبحث لتتضح جميع أبعاد الثورة الحسينية:

المسألة الأُولى: الخلافة حق للإمام الحسين عليه السلام

من أجل توضيح هذه المسألة لا بدّ أن نرى في البداية، هل أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يعتقد بأنّ الخلافة من حقه؟ وهل أنّ المسلمين أيضاً كانوا يعتقدون أنّها من حقه عليه السلام؟ ثمّ نرى مدى تأثير هذا الاعتقاد وذاك على مجمل نهضته عليه السلام.

من الواضح أنّ الحسين عليه السلام يرى أنّ مقام الخلافة من حقه، وقد صرّح بذلك مراراً، ومن ذلك ما ورد في اعتراضه الشديد على معاوية، حيث قال: «... ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد لعمرالله أورثنا الرسول صلى الله عليه وآله ولادةً...».[1]

---

١. الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٦٢؛ جمهرة الخطب، ج ٢، ص ٢٥٥ رقم ٢٤٦

وهنا لا مجال للبحث كثيراً في هذه المسألة، بالرغم من أنّ البحث في الحقيقة يعود إلى البحث في الروايات المعتبرة النبوية الكثيرة، الواردة عن طرق الشيعة والسنة، كحديث الثقلين أو حديث الكساء أو حديث الإمامان وغيرها، لكنّ الأمر المهم الذي لابد من توضيحه هنا هو أن نرى حدود الخلافة الإسلامية التي يرى الإمام الحسين عليه السلام أنّها من حقه، هل تنحصر بالشؤون الدينية أو تشمل الشؤون الدنيوية أيضاً؟

بعض الجهلاء أو المغرضين يرون أنّ الخلافة الإسلامية تنحصر بالشؤون الدينية ويقولون: إنّ مسؤولية الإمام ـ وبشكل عام مسؤولية جميع الأئمة ـ تتلخص في إرشاد الناس، وأنّ عليهم تجنب الدخول في الشؤون السياسية، ومن الواضح أنّ هذا التصور خطأ فاحش لا ينسجم مع المفاهيم الإسلامية؛ لأنّ الإسلام دين جامع يشمل الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما يشمل الأمور الاعتقادية والأخلاقية والعبادية، وفي الحقيقة يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، فلهذا كان من الطبيعي أن لا تتحدد الخلافة الإسلامية بحدود معينة، بل تعتبر مركزاً ومحوراً لجميع الفعاليات الدينية والدنيوية، ومضافاً إلى ذلك أنّ الخليفة هو من يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله، ولذلك فهو موظف أن يعمل كالنبي صلى الله عليه وآله في تسلّمه زمام الأمور، ولا يكتفي بتوضيح المسائل الفقهية وإرشاد الناس، وينصرف عن الأمور السياسية والحكومية، وبالتالي يفصل بين الدين والسياسة، ممّا يجعل الناس حيارى ومتنازعين في أُمورهم.

إحدى المزايا المهمّة للإسلام

إنّ فصل الدين عن السياسة في الحقيقة يعني: أن يُحبس الله عز وجل في المسجد أو الكنيسة أو سائر المعابد الدينية، ويتسلط حكام الجور على حياة الناس في النهاية. والشرك وتعدد الآلهة الذي كان سائداً بشكل سافر في الأزمنة الماضية، وبصور خفية في العصر الحاضر، قد نشأ إثر فصل الدين عن السياسة، فلو أنّ

الحكام الظالمين لم يفصلوا الدين عن السياسة، لما تسنى لهم ترسيخ سلطتهم على الناس، ولما تسنى للمذهب الإلحادية والمنحرفة أن تتبجّح وتبرز عضلاتها في مقابل الأديان السماوية.

وإحدى المزايا المهمة للإسلام هي أنّه قرن بين الدين والسياسة، وأنشأ حكومة تدار بقوانين إلهية، والقرآن الكريم يصرّح بأنّ الدين الحق هو مصدر الحكومة بالحق، وبأنّ حكومة الحق هي ثمرة الدين الحق، ويقول: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[١].

وعلى أساس هذه الآية ونظائرها نرى أنّ الإمام الحسين عليه السلام يهيب بعلماء الدين المتخاذلين، الذين يرجّحون ويفضّلون الانزواء والعزلة على الدخول في ميدان السياسة ومواجهة الحكومات الفاسدة، ويقول في خطبته التاريخية المعروفة: «...ذلك بأنّ مجاري الأُمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الأُمناء على حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سلبتم ذلك إلّا بتفرّقكم عن الحق واختلافكم في السنة بعد البينة الواضحة... ولكنّكم مكّنتم الظلمة من منزلتكم واسلمتم أُمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات، سلطهم على ذلك فراركم من الموت وإعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم ...»[٢].

يعني أنّ الحكومة هي حق الرجال المؤمنين والعلماء الربانيين، بل هي من وظيفتهم، ولذا يجب عليهم أن يواجهوا ويتصدوا للحكام الظالمين الذين غصبوا حقهم، حتى يعيدوا الحق إلى نصابه.

ومضافاً إلى الدلائل العامة هذه، رأينا آنفاً في موقف الإمام الحسين عليه السلام إزاء معاوية أنّه اعترض بشدة على ولاية عهده ليزيد، وقال: «... ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد لعمر الله أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادةً». فهل اعتراض الحسين عليه السلام على معاوية كان من أجل أنّ معاوية أراد من يزيد أن يجلس للإفتاء بين المسلمين

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٥.

٢. تحف العقول، ص٢٣٨.

ويوضّح لهم مسائلهم الشرعية؟ إنّ معاوية ويزيد لم يفكّرا بهذا الأمر بتاتاً، بل كانا يصرحان بأنّهما يطلبان الملك والحكم، فاعتراض الإمام الحسين عليه السلام على معاوية لم يكن لأجل منصب الإفتاء وبيان المسائل الشرعية، بل من أجل الحكومة، كما أنّ احتجاج الإمام عليّ عليه السلام على أبي‌بكر وعمر أيضاً بعكس توهم بعض الحمقى وما يروج له المغرضون، لم يكن لأجل أن يفتي بالمسائل الفقهية، بل هو من أجل منصب الحكومة التي كان يراها حقاً له.

وهناك شواهد أُخرى أيضاً توضح أكثر ممّا سبق ماهية الخلافة الإسلامية من جهة، وماهية نهضة الإمام الحسين عليه السلام من جهة أُخرى، وأحد هذه الشواهد هو كتاب الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة الذي سبق ذكره آنفاً، حيث يشرح الإمام الحسين عليه السلام في هذا الكتاب بعض مواصفات الحاكم الإسلامي والتي تنطبق عليه، ويقول: «فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله»[1].الشاهدالآخر هوكلام (مسلم بن عقيل) سفير الإمام الحسين عليه السلام عندماقال له عبيدالله‌بن‌زياد: «لماذا جئت الكوفة وعملت على إثارة الناس ضد الخليفة» فأجابه مسلم قائلاً: «كلّا،لست أتيت،ولكن‌أهل‌مصرك زعمواأنّ أباك قتل خيارهم و سفك دماءهم وعمل فيه أعمال كسرى وقيصر فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب»[2].

سؤال لابد منه؟

ومن المؤسف أنّه مع وجود هذه الدلائل والشواهد يرى بعض الناس إمّا لجهلهم وإمّا لعنادهم أنّ الإمام والخليفة، وبشكل عام رجال الله، ليس لهم وظيفة إلّا بيان الأحكام الشرعية، ولا يتحملون مسؤولية إزاء الظلم والطغيان، وليس عليهم أيّ تعهد والتزام عملي في ذلك، مع أنّ القرآن الكريم يصرّح ويقول: ﴿فقاتلوا التي تبغي

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٦٢؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٣٩.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٢ ؛ تاريخ إبن أثير، ج ٣، ص ٢٧٤؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٦٢.

حتى تفيء إلى أمر الله﴾[١] أي يجب على المسلمين جميعاً ـ وعلى رأسهم أئمة الدين ـ أن ينهضوا ضد الظلمة والمفسدين وعلى جميع الاصعدة الاعلامية والسياسية والعسكرية، ويدافعوا عن مصالح الإسلام والمسلمين بأية صورة ممكنة ومؤثرة، وبالنظر إلى هذا الموضوع الأساسي فلابد من سؤال هؤلاء الجهلاء أو الحمقى المنكرين لذلك: لماذا قاتل الإمام عليّ﷣ أصحاب الجمل وصفّين والنهروان، وسبّبت هذه الحروب مقتل عشرات الآلاف من المسلمين؟ هل كان هذا لمجرّد التصدي للمسائل الشرعية، أو لإقامة الحكومة الإسلامية؟

إنّ جميع المسلمين يعلمون أنّ حروب الإمام علي﷣ ضد مناوئيه كانت من أجل الحكومة الإسلامية لا من أجل تبيين المسائل الشرعية فقط، مضافاً إلى أنّ تعليم وتعلم المسائل الشرعية أيضاً لا يتيسر في ظل الحكومات الجائرة والفاسدة، وأساساً فلم تكن حكومة يزيد وأمثاله لتسمح لأيّ مخالفة لها حتى ولو كانت بصورة بيان مسائل شرعية. ولو فرضنا السماح بذلك ظاهرياً وسياسياً، فمن المسلم أنّهم من خلال قدرتهم السلطوية ووسائل إعلامهم الظاهرة والخفيّة، سيبطلون آثار تلك المسائل الشرعية البنّاءة، أو يعملون على انسجام هذه المسائل مع أغراضهم ومطامعهم الفاسدة.

أجل، فهولاء يسمحون بذكر المسائل الشرعية التي لا تُعرّض مصالحهم ومنافعهم إلى الخطر، كما قال معاوية: «الناس في سعة ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»[٢]. ونظير ذلك ما قاله الجنرال البريطاني الخبيث في البصرة عندما سمع المؤذّن يؤذّن، فقال ما محصلهُ: (ما دام هذا الأذان لا يُعرّض مصالحنا إلى الخطر فليقل ما يقول).

ولكن كما رأينا في صفحات التاريخ أنّ رجال الله لم يكتفوا بتعليم الأحكام الشرعية وبيان مسائل الدين غير المخالفة لأهواء الحكام، بل كانوا يسعون لتوضيح

---

١. سورة الحجرات، الآية ٩.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٤٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص١٣؛ شرح النهج، ج ١٥، ص١٠٢.

كل ما يتعلق بأمور الدين حتى في المجالات السياسية والاجتماعية، حتى إنّهم كانوا يحذرون الحكام من مغبة ارتكاب المحارم، ووقفوا يدافعون عن الحق والعدالة بأموالهم وأنفسهم، ويثيرون الناس ضد الحكومات الطاغوتية والفاسدة، ولهذا نجد أنّ هذه الحكومات كانت تلاحقهم دائماً، وتسعى إلى التنكيل بهم وسجنهم وقتلهم.

وعلى كل حال، إنّ نظريّة فصل الدين عن السياسة، ولزوم ابتعاد قادة المسلمين وأئمّة الإسلام عن التدخل في أمور الحكومة والجيش والسياسة، لهو أخطر منطق نشأ في المحيط الإسلامي، وفحوى هذا المنطق هو إنكار الحركات الثورية المطالبة بإقامة الحكومة العادلة، مثل حركة الإمام الحسين عليه السلام، أو تفسيرها بأنّها حركات دفاعية، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام ثار من أجل الدفاع عن نفسه مثلاً، خلافاً للنص الصريح للإمام الحسين عليه السلام حيث يقول: «ألا من رأى سلطاناً جائراً... فلم يغيّر عليه كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»، فإنّ بعض الجهلة أو المغرضين، خلافاً لهذا النصّ ونظائره الكثيرة، يقولون: إنّ هدف الحسين كان الفرار من مدينة إلى مدينة أُخرى ليحفظ نفسه وليجد مأمناً له، وليس لتحريض المسلمين للثورة على حكومة أمثال يزيد.

هذا من جهة ومن جهة أُخرى يسمح هذا المنطق لوعاظ السلاطين وأبواقهم أن يرسّخوا دعائم حكم أمثال يزيد، ويصوّروا للناس أنّ الحسين لم يكن يريد مكافحة حكومة يزيد، ولذلك فعلى المسلمين أن يلتزموا الصمت إزاء حكومة أمثال يزيد، وأن يتخلّوا عن مقاومتها، وفي غير ذلك فإنّهم سيُقمعون من قبل حكومتهم كما حدث ذلك.

أجل، إنّ الطامّة الكبرى هي أنّ بعض الانتهازيين المتهافتين على القيادة والحكم بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله قالوا: «إنّ قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة»[1].

فهؤلاء بهذا المنطق الواهي والذريعة الشيطانية تسلّموا الحكومة الإسلامية،

---

١. شرح النهج ج١، ص١٨٩ و ج٢، ص ٥٨، وج١٢، ص٩ وج ٢٠، ص١٥٥؛ تاريخ الطبري، ج٣، ص٢٨٩؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٦٣.

والأنكى من ذلك أنّهم جعلوا مقاليد أمور المسلمين بأيدي حفنة من الأمويين وأضرابهم، وأزاحوا رجال الله عن إدارة الأمور وعن التدخل في السياسة التي هي من حقهم، وعملوا في النتيجة على تهيئة مقدمات فاجعة كربلاء الدامية، واليوم أيضاً نجد أنّ بعض الجهّال والمنحرفين يتشدقون بهذا المنطق الخطر، ويتشبثون بكلمات من قبيل (الإسلام من دون رجال دين) أو (رجال الدين من دون سياسة) أو (السياسة من دون دين) ويدّعون أنّ أهل بيت النبيﷺ، وبشكل عام المؤمنين، يجب أن يكتفوا ببيان الأحكام الشرعية ويتركوا ميدان الحكومة والسياسة لأهلها مثلاً، ومن الطبيعي أنّهم بكلامهم هذا يفسحون المجال للقوى الشيطانية بالاستيلاء على مقدرات المسلمين، وقمع الثورات والانتفاضات الحسينية وقتل المصلحين.

إلى هنا اتضح أنّ الخلافة الإسلامية لا تنحصر بإرشاد الناس وبيان المسائل الشرعية فحسب، بل تشمل المناصب الدينية والدنيوية معاً، والإمام الحسينعليه السلام الذي كان يرى لنفسه الحق في الخلافة، كان يعتقد بهذه الخلافة العامة، وإلّا لم يكن يدعو الناس إلى القيام والثورة، ولم يطلب الناس منه ذلك، بل لم يتأثّروا بثورته بعد ذلك أيضا. والآن لنَرَ ما مقدار تأثير هذا الاعتقاد في ثورته؟

أثر شخصية الإمام الحسينعليه السلام في ثورته

تقدّمت الإشارة إلى أنّ الإمام الحسينعليه السلام لم يكن ينشد من نهضته أهدافاً شخصية، بل كان يفكّر بمصالح الأمة الإسلامية، فبالرغم من أنّه كان يرى لنفسه الحق في الخلافة، ولكنه لم يكن ليعرّض نفسه وعياله وصحبه للأخطار من أجل خلافة دنيوية وحسب. فالإمام الحسينعليه السلام نشأ على يد أبيه عليّ بن أبي طالبعليه السلام الذي يقول عنه ابن عباس: قال لي عليّ: «... ما قيمة هذه النعل؟»، فقلت: لا قيمة لها، فقالعليه السلام: «والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلّا أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً..»[1].

الحسينعليه السلام كان رجل الإيمان، وملهم العِزّة والإباء، ومحور كل فضيلة، وبعد فهو

١. شرح النهج، ج٢، ص١٨٥.

سالك طريق الله نحو الحياة الأبدية، ولذلك لا يعقل في حقه أن يطلب الدنيا ويقدّم من أجلها تلك التضحيات الجسام، إذن فما هو تأثير اعتقاد الإمام الحسين عليه السلام بأنّ الخلافة من حقه في نهضته؟ لقد كان لهذا الاعتقاد أثر بالغ في أن يشعر الإمام الحسين عليه السلام بأنّ مسؤوليته أعظم من غيره في الدفاع عن الإسلام ومصالح المسلمين، وخاصة أنّ كثيراً من المسلمين أيضاً كانوا يرون مثل هذا الرأي ويعتقدون به، وكما رأينا في أواخر الفصل الثاني أنّ هذه الرؤية لا تنحصر في الشيعة والتيار العلوي في ذلك الوقت، بل إنّ التاريخ يشهد أنّه حتى عمرو بن العاص ومعاوية والكثير من التيارات والأجنحة الإسلامية كانت تنظر إلى الحسين عليه السلام نظرة احترام وقبول، وفي الحقيقة كانوا يرونه قائداً وخليفة لجده رسول الله صلى الله عليه وآله لمكانته وعلمه وفضله، وبالتالي سوف يستلهمون من قيامه ونهضته أو من سكوته وموافقته.

وأساساً فإنّ من خصائص الإمام، وهو القائد الروحي للأُمة، أنّ توقفه يبعث على توقف الأُمة وحركته على حركتها، وفي الحقيقة أنّ مكانة الإمام الاجتماعية وارتباط المسلمين به عاطفياً، جعلت له منزلة نافذة وممتدة في قلوب الناس وجذبها إليه وتحريكها نحو الأهداف المطلوبة له، هذا النفوذ ـ الذي يذكر في العلوم الإنسانية والنفسية بعنوان (تأثير الشخصية) ـ يزداد تأثيره ووضوحه فيما إذا كانت الشخصية المحبوبة تتمتع بقداسة دينية، ولو لم تكن لهذه الشخصية قوة مادية ظاهرية، فإنّ تحركها في المجتمع وعزمها على الثورة سوف يقوي العقيدة في ضمائر الناس، ويشحذ فيهم الهمم، ويحرّكهم باتّجاه الأهداف الإنسانية والدينية.

وهذه الحقيقة تصدق سلباً على خلاف هذه الحالة أيضاً، أي أنّ الشخصية المحبوبة إذا انحرفت وسلكت طريق الباطل أو سكتت مقابل الباطل فسوف تترك آثارها على سلوك الآخرين، وبالتالي ما يوجب وهن عزائمهم بل انحرافهم اعتقاديّاً وعمليّاً. ولذلك رغم أنّ القرآن الكريم يؤكّد في موارد عديدة هذه الحقيقة: ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾[1]، ولكن في خصوص الشخصيات الاجتماعية التي تؤثر

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٦٤؛ الإسراء، الآية ١٥؛ فاطر، الآية ١٨؛ الزمر، الآية ٧؛ النجم، الآية ٣٨.

سلباً على حركة الواقع الاجتماعي والسياسي للأُمّة بسكوتهم أو تحركهم بالاتجاه المعاكس للتيار الإصلاحي، يقول القرآن: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾[١].

ومن هنا يتضح أنّ العلماء يتحملون المسؤولية أكثر من الآخرين، وطبيعيٌّ أنّ مسؤوليتهم تتناسب طرديّاً مع مقدار علمهم ومقدار مكانتهم، ويتضح أيضاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام، وهو الشخصية العلمية والروحية المرموقة للمسلمين وقدوتهم العملية، إذا سكت إزاء حكومة يزيد الطاغية، ففي تلك الحالة لا يكون مسؤولاً على المستوى الفردي فحسب، بل مسؤولاً من الناحية الاجتماعية أيضاً؛ لأنّ سكوته هذا يبعث على سكوت المسلمين واستسلامهم في مقابل الظلم، واستسلامهم هذا يؤدّي إلى تقوية الحكومة اليزيدية وبالتالي يهيّيء لها الأرضية أكثر لتحقيق أهدافها الخطرة والمشؤومة.

الإمام الحسين عليه السلام يصرّح بثقل هذه المسؤولية بالنسبة إلى أمثاله ويقول: «وأنا أولى من قام بنصرة دين الله وإعزاز شرعه والجهاد في سبيله»[٢]. وهذا الكلام للإمام عليه السلام بمثابة قانون إسلامي واجتماعي يوضّح أنّ الشخصيات الكبيرة تتحمل ـ ولا بدّ أن تتحمل ـ مسؤولية أكبر، فهم موظفون بالتصدي والوقوف أمام انحرافات الحكام وإنقاذ الناس من الضلال والأزمات، والثبات أمام التحديات، والانضباط في مواقع الاهتزاز الاجتماعي والارتباك السياسي.

وفي نفس الوقت فإنّ مكانة الإمام الحسين عليه السلام العظيمة لا توجب عليه ثقل المسؤولية فحسب، بل كانت تضمن له الانتصار الحقيقي أيضاً. فإنّ الإمام رغم افتقاده لمقومات القوة المادية ولكنّه ببركة مقامه الإلهي والاجتماعي المقدس يتمتع بقدرة معنوية واجتماعية مؤثّرة جدّاً، فلو قُتل بأيدي الأمويين والانتهازيين ومرتزقتهم لتحول الواقع في حركة الشعور الداخلي للمسلمين إلى مصيبة في العمق، ولتحرّكوا على مستوى الانتقام والثأر، ولا أقل من إيجاد هوّة شاسعة بين الأمة

١. سورة النحل، الآية ٢٥.

٢. من خطبته عليه السلام المعروفة التي ذُكرت في ص ٣٦٨.

والسلطة وإبعاد قوى الانحراف من الامتداد في وجدان الأمة وتراثها الديني، وهذا يعني في الحقيقة انتصار الإمام الحسينعليه السلام في جهاده؛ لأنّه كما تقدّم في الفصل الثاني أنّ الهدف الأصلي للجهاد الإسلامي ليس هو النصر الظاهري للمجاهدين، بل ترسيخ الفكر الثوري في حركة الأمة على مستوى الدفاع عن الحق والعدالة ضد الحكومات الفاسدة والفئات المنحرفة ولو لم يحصل النصر الظاهري، مع أنّنا سنرى في الفصل الرابع أنّ نهضة الحسينعليه السلام التضحوية قد حققت، من خلال إيجاد تحولات عميقة ومحركة في المسلمين، النصر الظاهري أيضاً بالقضاء على الحكومة الأموية المعادية للإسلام تماماً فيما بعد.

المسألة الثانية: الرؤيا مؤيدة لا علة

في هذه المسألة نبحث عن رؤيا الإمام الحسينعليه السلام المتزامنة مع نهضته، فقد ذهب بعض المحققين إلى أنّ هذه الرؤيا كانت مؤثّرة في ثورة الإمام الحسينعليه السلام، وطبعاً فإنّ الرؤيا تعتبر موضوعاً شخصياً، ولا يستنتج منها قانون عام، ولهذا ـ كما ذكرنا في المقدمة ـ لا نعتمد في هذا الكتاب على الروايات المرتبطة بالرؤيا وأمثالها، بل نهتم بتوضيح الظروف التاريخية والأسباب والنتائج لأحداث ذلك الزمان، وتبيين مسؤولية المسلمين تجاه الحكام، كما نهتم أيضاً بمتابعة خطب الإمام الحسينعليه السلام وكتبه في هذا المجال. لكنّنا سنشير إلى تلك الرؤيا كحادثة لها علاقة بالنهضة، ويمكن أن يتضح بها بعض ما يرتبط بالنهضة أيضاً.

الإمام الحسينعليه السلام يحكي أصل هذه الرؤيا لعبدالله بن جعفر ابن عمه وزوج أُخته زينب، فقد كان عبدالله بن جعفر يحب الحسينعليه السلام حبّاً جمّاً، وكان قلقاً من سفره المحيّر إلى الكوفة، ولذلك سعى كثيراً إلى إقناع الإمام بالعدول عن سفره هذا، حتى إنّه أتى له بكتاب أمان من أميرالمدينة عامل يزيد وأعطاه إيّاه له عند خروجه من مكة، ولكنّ الحسينعليه السلام أجابه بجواب مجمل وقال:

«إنّي رأيت رؤيا فيها رسول الله، وأُمرت بأمرٍ أنا ماضٍ له، عليّ كان أو لي، فقال

له: ما تلك الرؤيا؟ قال عليه السلام: ما حدّثت أحداً بها وما أنا محدّث بها حتى ألقى ربّي»[1].

وبالرغم من أنّ هذه الرؤيا لا نعلم تفاصيلها، ولكنّها توحي لنا بأمرين مهمين:

الأوّل: أنّ الإمام الحسين عليه السلام يقول لعبدالله بأنّي سوف أعمل بأمر رسول الله في هذه الرؤيا، ولذلك ردّ عليه كتابه من حاكم المدينة الذي فيه الأمان له واستمر في سفره إلى الكوفة، فيتضح من ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمر الحسين عليه السلام بأن يستمر في ثورته ضد حكومة يزيد، وأن يسافر من أجلها إلى الكوفة، وبعبارة أُخرى أنّنا نستنتج من خطئ الحسين عليه السلام أنّ أمر رسول الله صلى الله عليه وآله كان بتلك الصورة التي عمل بها الحسين عليه السلام.

الثاني: أنّه عليه السلام يقول: إنّي سوف أعمل بهذا الأمر النبوي سواءٌ كانت النتيجة لصالحي أم في ضرري، وبما أنّ الإمام الحسين عليه السلام يعتقد حتماً بأنّ أمر رسول الله سوف يتم لصالحه في جميع الظروف، فجوابه هذا لعبدالله بن جعفر وغيره من الذين أكّدوا له الضرر وخطر القتل والأسر، كان بالنظر إلى توقعهم للخطر والضرر من حركته هذه، وفي الحقيقة أراد الإمام عليه السلام أن يقول لهم: إنّي رغم الأخطار المحدقة التي تتوقعونها أعمل بواجبي وأستمر في نهضتي، وعلى هذا الأساس فإنّ جواب الإمام عليه السلام يعتبر على الأقل دليلاً بأنّ الإمام عليه السلام لم يكن واثقاً حتى في بداية الأمر بالنصر العسكري؛ لأنّه لو كان كذلك لذكره من أجل رفع القلق وإزالة هذا التوهم في أذهان أحبائه وأصدقائه ولقال مثلاً: أنا مطمئنّ بعدم قتلي في هذا السفر، بل مطمئن بهزيمة الجيش الأموي وغلبتي عليه فلا تقلقوا من هذه الجهة.

وضمناً لا بأس من أن نجيب عن هذا السؤال: هل إنّ رؤيا الإمام الحسين عليه السلام كانت السبب في قيامه بالنهضة؟ الحق إنّ هذه الرؤيا لم تكن سبباً لقيامه، بدليلين:

الدليل الأول: أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان مخالفاً بشدة لولاية عهد يزيد حتى في زمان حياة معاوية، وبالرغم من التهديدات الخطيرة من قِبل معاوية إلّا أنّه استمر في مخالفته، وعليه فجذور نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت ممتدّة إلى ما قبل هذه الرؤيا

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤: ص ٤١؛ الإرشاد، ج ٢، ص ٦٩.

لسنوات عديدة.

الدليل الثاني: وهو الأهم، ما نجده في خطب الإمام الحسين عليه السلام الثورية لتعبئة المسلمين للجهاد ضد حكومة يزيد من قبيل قوله عليه السلام: «أيّها الناس قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من رأى سلطاناً جائراً ... ليرغب المؤمن في لقاء ربّه محقّاً».

فالحسين عليه السلام هنا يستند إلى كلام عام لرسول الله صلى الله عليه وآله هو بمثابة قانون إسلامي، يقول فيه: بأنّ الجهاد ضد حكومة الجور والفساد مسؤولية كبيرة ومهمة جدّاً على كل مسلم، فالواجب يحتم على المسلمين، وخاصة الإمام الحسين عليه السلام بالذات، مواجهة الحكومة اليزيدية والتصدي لها حتى لو بلغ الأمر إلى القتل والاستشهاد.

ومن الواضح أنّه لا دخل للرؤيا في تحقق هذا المعنى، ولو كان قيام الإمام الحسين عليه السلام من أجل الرؤيا هذه، فلا طريق إلى توجيه ثورته في ساحة الواقع السياسي بالمبادىء الإسلامية المقرّرة للجهاد الإسلامي، وضرورة الدفاع عن مصالح الإسلام والمسلمين على جميع المسلمين، وفي مقدمتهم الحسين عليه السلام ولو لم ير الرؤيا.

وقد اعتمد الحسين عليه السلام نفسه على هذه الضرورة العامة في خطبه، ولذلك نقول: إنّ الرؤيا لم تكن علة وسبباً لثورته، بل مؤيّدة لها.

وهنا أيضاً يبرز سؤال آخر، وهو أنّه إذا لم تكن الرؤيا سبباً للثورة، إذاً لماذا تمسك الإمام الحسين عليه السلام بها في جوابه لابن عمه عبدالله بن جعفر؟

في الجواب نقول: إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام بالرغم من أنّها كانت تمتلك الدليل القانوني والشرعي كما صرح به في خطبه وكثير من كلماته، ولكنّ عبدالله بن جعفر كان عاطفيّاً جدّاً وخائفاً من هذا السفر بشدة، ولذلك كان يلحّ عليه بأن ينصرف عنه، وإلّا فسوف يُقتل هو وأصحابه حتماً، ويفجع به أهله وأحباؤه[1]، وطبيعيٌّ أنّ مثل هؤلاء الذين يعيشون القلق النفسي، لا يمكن إقناعهم بدليل ضرورة جهاد حكومة الظلم والجور والفساد، ولذلك توسل الحسين عليه السلام برؤيا النبي صلى الله عليه وآله بشكل

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٩١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤٠؛ الإرشاد، ج٢، ص٦٨.

مجمل ليُقنع ويُسكت عبدالله ومن هو مثله.

والشاهد على هذا الأمر هو أنّ الإمام لم يستند إلىٰ هذه الرؤيا في الموارد الأُخر، بل اعتمد على الدليل العام وهو ضرورة الجهاد ضد الفاسدين، وأنّه وظيفة كبيرة على المسلمين، وأمثال ذلك، ونظير هذا الجواب المفحم يتكرر في حديث الإمام عليه السلام لابن عباس أيضاً، الذي كان يرى الأوضاع متأزّمة جدّاً والأخطار محيطة بالإمام الحسين عليه السلام بتّاً، ولذلك كان يصرّ على الإمام أن ينصرف عن سفره إلى الكوفة، فنجد الإمام هنا أيضاً يحاول إنهاء الحوار قائلاً: «أستخير الله وأنظر ما يكون»[1]،بالرغم من أنّ كتب التاريخ المعتبرة تذكر موقف الحسين عليه السلام قبل وبعد هذا الحوار وقوله: «قد أجمعت على المسير»[2].

ومضافاً إلى تلك الرؤيا، فهناك منامات أُخرى نشير إليها إشارة مختصرة، منها أنّ الحسين عليه السلام في مسيره إلى الكوفة قال لابنه عليّ الأكبر: «إنّني رأيت قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم»[3]، ومن الواضح أنّ هذه الرؤيا توضّح أكثر من الرؤيا السابقة أنّ الإمام كان مطّلعاً على استشهاده في هذا السفر.

والرؤيا الأُخرى التي يذكرها السيد ابن طاووس تدل بشكل أوضح على أنّ الإمام كان مطّلعاً على استشهاده في هذا السفر، وقد بحثنا هذه الرؤيا في الفصل الثالث بعنوان (رواية المشيئة)، ومضمون هذه الرؤيا أنّ الحسين عليه السلام لدى خروجه من المدينة قال لأخيه محمد بن الحنفية: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما فارقتك فقال: يا حسين أُخرج إلى العراق فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً. فقال له ابن الحنفية إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحالة؟ فقال له: قد قال لي: إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا»[4].

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٨٧؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣٧.
٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٨٨؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣٩.
٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٨؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٥١.
٤. اللهوف، ص٦٣؛ ينابيع المودة ج٣، ص ٦٠.

وكما تقدّم أنّ ثورة الحسين عليه السلام لم تكن أساساً من أجل الرؤيا، بل كما يصرّح الإمام في خطبه الثورية، أنّها من أجل أداء الوظيفة الشرعية، وواجب الجهاد الإسلامي، ودفع الخطر عن الأمة الإسلامية، ولهذا لا نجد ضرورة إلى بحث سند هذه الرؤيا، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى ما يُذكر في فن الحديث من أنّ نقل العلماء المحققين أمثال (ابن طاووس) يعتبر علامة على صحة السند. والملاحظة الأهم هنا هي أنّ مضمون هذه الرؤيا الذي يوضّح الأخطار المستقبلية، يتطابق مع الكثير من تصريحات الإمام السابقة، ومع الرؤيا التي ذُكرت آنفاً الواردة في المصادر الروائية للشيعة والسنة، وهذا التطابق أيضاً شاهدٌ على صحة سندها، وعلى فرض عدم صحة سندها، فإنّ صحة مضمونها الذي هو الأصل تثبت بهذا التطابق.

المسألة الثالثة: السبب الطبيعي لفاجعة كربلاء

من الضروري هنا معرفة السبب الطبيعي لفاجعة كربلاء؟ وهل أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت ثورةً أو دفاعاً، أو أنّها ثورة ودفاع في نفس الوقت؟

ومن أجل توضيح ذلك ينبغي التمهيد بمقدمة موجزة وفي نفس الوقت أساسية في هذا الصدد، وهي:

أنّنا نلاحظ في الجانب الاجتماعي أنّ بعض الأفراد يعيشون فيما بينهم المودة العميقة، وكأنّهم متحدون تماماً، وكذلك نجد بعض الأشخاص أو بعض الجماعات تحكمهم عداوة شديدة ويتعاملون فيما بينهم من موقع الخصومة والعداوة، فما هي القاعدة التي تحكم هاتين الدائرتين على مستوى العلاقات الإيجابية أو السلبية؟

إنّ أكثر الناس يتصورون أنّ حالات الحب والعداوة وليدة المسائل المعاشية اليومية، وإفرازات التفاعل الاجتماعي بين الأفراد وأشباهها، ولكن هذا التصور ساذج ويفتقد التعمق والدقة في تحليل الأمور النفسانية، والحقيقة أنّ العواطف العدائية أو جواذب المحبة تنبع من روح الإنسان وخصاله، وأمّا المسائل المعاشية والظاهرية فمن شأنها أن تهيّىء الأرضية الصالحة لظهور هذه الخصال على أرض

الواقع، والتجربة أيضاً تؤيّد هذه المقولة، وهي أنّ الإنسان يتمتع بنفسيات وعواطف مختلفة، فينسجم مع من يتفق معه في هذه العواطف، ويبتعد عن الأشخاص الذين لا ينسجمون معه فيها، وهكذا يمكن القول: إنّنا إذا أدركنا نفسيات وعواطف شخصين من الناس مثلاً، فيمكن في ضوئها أن نقيّم ونتوقع كيفية العلاقة بينهما حتى لو لم يلتق أحدهما بالآخر، فنكتشف ما سوف يكون من نوعية ارتباطهما الإيجابي أو السلبي، كما قال في هذا المجال المولوي، وهو الشاعر العارف المشهور، قال ما مضمونه: الناريون جاذبون للناريين والنوريون طالبون للنوريين.

وقد أشار نبيالإسلام إلى هذه الحقيقة بصورة لطيفة حيث قال: «الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[١].

الإمام الحسينعليه السلام أيضاً له كلامٌ دقيق بهذا الصدد يبيّن هذه الحقيقة، ويمكننا من خلاله استيحاء السبب الطبيعي لثورته، فإنّهعليه السلام قال في بداية تحركه للوليد حاكم المدينة من قِبَل يزيد، عندما طلب من الإمام البيعة:

«أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم،ويزيدرجل فاسق شارب الخمروقاتلالنفس المحرّمة معلن بالفسق، ومثلي لايبايع مثله»[٢]، الحسينعليه السلام يمكنه أن يقول: (أنا لا أبايعه)، ولكنّه لم يقل هذه الجملة مع أنّها أكثر صراحة، بل قال جملة كليّة وهي: «ومثلي لا يبايع مثله».

فلماذا أجاب الحسينعليه السلام بهذا الجواب العام؟ إنّه أراد أن يقول إنّ مخالفته ليزيد لها علة طبيعية أساسية، تتجاوز الحدود الشخصية بينهما إلى الطبائع المتضادة الكامنة في أعماق ضمير كلٍّ منهما، فإحداها صالحة ومصلحة والأُخرى فاسدة ومفسدة، فمثلاً هناك تضاد بين التعقل والهوى، وطلب الحقيقة وطلب الدنيا، واتّباع الفضيلة واتّباع الشهوة.

أراد الإمام الحسينعليه السلام أن يُفهم الناس من خلال هذا الجواب العام، أنّ هناك

---

١. الكافي،ج ٢، ص ١٦٨؛ مروج الذهب، ج ٢، ص٢٩٤.

٢. اللهوف، ص١٧؛ المقتل للخوارزمي، ج ١، ص١٨٤.

صراعاً بين هذين التيارين، فأحدهما طالب للحق، والإمام عليه السلام هو الرمز لهذا التيار، والآخر طالب للباطل ويزيد رمزه، ومن المحال أن يقع صلح حقيقي بين هذين التيارين، بل سوف يقع التنازع والمواجهة بينهما على مستوى الواقع العملي حتماً، حتى لو سعى البعض إلى تحجيم هذا التضاد وإخفائه، وأنّه من المحال اقتلاع هذا التضاد والقضاء عليه بصورة كاملة، بل سيكون طبعاً كالنار تحت الرماد في انتظار الفرصة المناسبة للظهور والنزاع والحرب فيما بينهما.

والسبب الأصلي للصراع بين الحسين ويزيد ـ وبشكل عام بين أهل الحق وأهل الباطل ـ هو أنّ في باطن كل إنسان قطبين متضادين ومتخالفين باسم (العقل والنفس) أو (الفطرة والطبيعة)، فجميع العلوم الإنسانية كالأخلاق، والفلسفة، والعرفان، والتاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، بل حتى التجارب في الحياة، تؤكّد على أنّ العقل والفطرة من القوى الروحانية والسماوية التي تدعو الإنسان إلى طريق الله، والطهارة، والعدالة، والشجاعة، وهذه تنتج السعادة الحقيقية، ولكن النفس والطبيعة تمثّلان القوى الأرضية والمادية التي تدعو الإنسان إلى طريق الشهوة والأنانية، والظلم والرياء، وبالتالي إلى أنواع الفساد والشقاء الباطني و الظاهري.

مرحلتان للصراع: داخلية وخارجية

إنّ أتباع الحق وهم الحسينيون يسيرون في مسار العقل والفطرة، وأتباع الباطل وهم اليزيديون يسيرون في مسار النفس والطبيعة، وبما أنّ العقل والفطرة يقفان في مقابل النفس والطبيعة وبالعكس، فلهذا فإنّ كل فرد من أتباع هذين القطبين أيضاً سيقف ضد أتباع الآخر. وفي الواقع أنّ الحسينيين واليزيديين يعيشون حالتين من التضاد، داخلية وخارجية، فاليزيديون في المرحلة الأُولى ـ وهي الداخلية ـ يتجهون نحو أهوائهم النفسية ورغباتهم الدنيوية، وطبعاً يعتدون على حريم عقلهم وفطرتهم، وفي الحقيقة أنّهم يعتدون على حسينهم الباطني الذي يمثّل وجدانهم الإنساني وفطرتهم الدينية ويضحّون به من أجل أهوائهم النفسية، وفي المرحلة

الثانية ـ وهي الخارجية ـ فإنّهم يسيرون باتجاه إشباع أهوائهم ورغباتهم غير المشروعة، وطبعاً يعتدون على حقوق الآخرين، وفي النتيجة يواجهون ويقاتلون الحسينيين، الذين يمثلون أدوات العقل والفطرة ومشعل العدالة والفضيلة، ويقفون سدّاً منيعاً أمام أتباع الباطل.

وكذلك نرى أنّ الحسينيين في المرحلة الاولى يختارون العقل والوجدان والفطرة على الأهواء والنزعات النفسية، ويسيرون باتجاه قمع أهوائهم التي تمثّل يزيدهم الباطني، وفي المرحلة الثانية يواجهون اليزيديين ـ أتباع الأهواء والرغبات المادية المخالفة للحق والعدالة ـ مواجهة عملية.

وعلى كل حال، إنّ الصراع الخارجي بين الناس ما هو إلّا استمراراً للصراع الداخلي بينهم، وبعبارة أُخرى أنّ الصراع الداخلي لدىٰ الناس هو مصدر أنواع الصراع الخارجي بينهم، ومن هنا نجد أنّ المصلحين والعلماء الواعين يهتمون بإصلاح الباطن في المرتبة الأُولى ويعتبرونه عاملاً أساسياً لإصلاح الظاهر، بل يرون أنّ إصلاح الظاهر حقيقة غير ممكن بدون إصلاح الباطن.

وخلاصة الكلام أنّ هذه الدوافع والميول المتضاربة والمتضادة تمثّل هرماً يتجه رأسه نحو باطن الإنسان، وقاعدته تنتشر في السطوح المختلفة لحياته المعاشية والعائلية والاجتماعية و...، ومن هنا يتضح أنّ الجذور الأصلية للنزاع بين الحسينيين واليزيديين هو التضاد الروحي بينهم، أي الصراع الباطني، لا الاختلافات الشخصية أو العائلية أو السياسية الواقعة في الخارج، بل أكثر من ذلك نقول: إنّ جميع التناقضات المختلفة التي تتجلى في سيماء العلاقات الفردية والاجتماعية بين الأشخاص، تنبعث من بواطنهم وطبائعهم الخيّرة والشريرة الموجودة في كل طرف.

وهناك شواهد كثيرة في ملحمة كربلاء على هذا التضاد الروحي وآثاره، إحداها هو أنّ يزيد وأعوانه قد ارتكبوا ضد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الجرائم البشعة التي لا تدخل في مفهومٍ سوى العداوة المحضة التي تعكس السجية الباطنية الخبيثة لهم، من قبيل سحق صدور الشهداء بالخيول وقتل الأطفال الرضّع، ومنع الماء حتى

عن النساء والأطفال، وتعذيب الأرامل والأيتام وإهانتهم وشتمهم وضربهم بالسياط، وكذلك ضرب رأس الحسين عليه السلام ووجهه بالقضيب من قِبَل يزيد، وغيرها من الجرائم الأُخر التي لا معنى لها أصلاً غير البغضاء الكامنة في النفس، والعقد المكبوتة في عتمة الذات، فلو فرض أنّ محكمة التاريخ أعطت الحق للحكومة الأموية بقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه من أجل حفظ النظام السياسي والاجتماعي المزعوم مثلاً، ولكنّ قاضي هذه المحكمة، أيّاً كان ومن أتباع أيّ دين كان، سوف يشجب ويستنكر بشدة الأعمال الفجيعة التي ارتكبتها قبل مقتله عليه السلام وبعده، ويقول: إنّ هذه الجرائم الوحشية ليس لها دليل سياسي أو شبهه إطلاقاً، وإنّما هي بدليل عداء باطني لبني أمية وحزبهم الحاكم مع أهل بيت النبوة، بمعنى أنّها نابعة من التضاد الروحي بين هذين التيارين، ولهذا نجد بني أمية وأشباههم من أهل الباطل وأعداء الحق يلتذون بجرائمهم الوحشية ومظالمهم الكبيرة، تنفيساً للحقد المغروس في بواطنهم، وتفجيراً للغيظ الكامن في ذواتهم، وإنّ التذاذهم بأعمالهم الشنيعة المظهرة لبواطنهم الخبيثة هو كالتذاذ من أنس بالقاذورات واعتاد رائحتها الكريهة، فهو لا يلتذّ برائحة الطيب والعطور، بل ينفر منها طبعاً.

أمرٌ هام

ومن هنا يتبين لنا أمر مهم ينبغي الالتفات إليه بدقة وهو: كما أنّ دوافع أهل الحق في مواجهتهم لأهل الباطل لا تقوم في الحقيقة على أساس المال والمقام، فكذلك قتال أهل الباطل لأهل الحق ليس في الحقيقة من أجل المال والمقام، أي أنّ المال والمقام ـ وبشكل عام الأمور الدنيوية ـ تُشكّل ظاهر الأمر ومجرد ذريعة وتبرير. ولكنّ الحقيقة هي أنّ الاختلافات والحروب منبعثة من الواقع الداخلي والنفساني لكلا الطرفين، فأتباع الباطل منطوون على خبث السريرة والجفاف الروحي والذلة الباطنية والرغبات الدنيئة وطلب الدنيا والأنانية والظلم والرياء والسمعة، فمن الطبيعي أن ينظروا إلى أصحاب الحق من موقع العداء والخصومة

وهم يعيشون بخلافهم حالة الطهر والشرف والحق والسموّ والعشق للحرية والمحبة والصدق والعدالة وأمثال ذلك، وبالجملة فالعداء كامن في شخصية أهل الباطل حتى وإن لم يكن هناك قضية مالية أو طلب مقام أو اختلاف حزبي أو وطني أو عشائري أو غير ذلك من المسائل الظاهرية المتعارفة، وإحدى أخطاء الناس الأساسية حتى عند بعض العلماء هي أنّهم يجعلون المسائل الظاهرية المتداولة بين الناس هي المحور الأصلي للعداء والتنازع بينهم، لا المسائل الذاتية والروحيات والصفات الباطنية.

نعم، ليست الميول النفسية والصفات الباطنية هي المؤثّرة فقط في صياغة سلوكيات الأشخاص ورسم اتجاهاتهم، بل إنّ أعمالهم على مستوى الكم والكيف أيضاً تؤثّر بدورها في ذلك، فعلى سبيل المثال: أكل الحرام، وعمل الحرام، والكلام الحرام يؤثّر سلباً في روح الإنسان، ويؤدّي إلى انحطاطها وتسافلها. والإمام الحسينعليه السلام أشار إلى هذه الحقيقة في ذمه لأهل الكوفة المسرعين إلى قتاله وقال: «بلى، ولكن ملئت بطونكم من الحرام..»[1]، وفي الحقيقة كما أنّ المؤمنين يزدادون نوراً وإيماناً بسبب تكرار الأعمال الصالحة، فكذلك المفسدون والخبثاء يبتعدون يوماً بعد آخر عن الإنسانية والفضيلة بسبب تكرار العمل الحرام إلى حدٍّ يصلون فيه إلى مستوى الأنعام، بل أضل منها، بحيث إنّ وحشيتهم تتجلى في أنّهم يحوّلون الجريمة نفسها إلى لذة في العمق، كما هو حال الذئب الذي لا يقدر على أكل شاة كاملة، ومع ذلك يهجم على عدة شياه ويفترسها؛ لأنّ اللذة القصوى للذئب ليست في أكل الشاة، بل افتراسها وفي ذلك إرضاء لطبيعته الوحشية، فكذلك هؤلاء المجرمون والظالمون يلتذون بارتكاب الجرائم ولو لم يجدوا فيها فائدة ظاهرية فضلاً عن أن تُحقق لهم مكسباً دنيويّاً.

وكذلك نجد أنّ العناصر الأساسية لفاجعة كربلاء كيزيد، وعبيدالله، وعمر بن سعد، والشمر، وسنان، وخولي، وسائر أعوان حكومة بني أُميّة الذين أصبحوا مع الأسف ولاة المسلمين، بسبب انحراف الخلافة عن مسيرها الأصلي كما رأينا في

---

١. تحف العقول، ص ٢٤٠.

الفصل الأول، فإنّهم تطبّعوا على الجناية والجريمة، ولذلك نراهم لا يكتفون بأن يحكموا بالظلم والجور، بل يتمتعون ويلتذون بالظلم وتعذيب الآخرين، وعلى سبيل المثال: إنّ عبيدالله بن زياد أمر الجيش بأن يرضّوا صدر الحسين بالخيل بعد قتله[١]، مع أنّه صرّح في كتابه إلى عمر بن سعد بأنّ في هذا العمل لا فائدة له ولا ضرر على الحسين عليه السلام، ولكنّ ميله الباطني الخبيث يقتضي ذلك فيصرّ على تحقيقه. وبالنظر إلى هذه الطبيعة الشريرة الشائقة إلى الجناية، قال مسلم بن عقيل في حق عبيدالله بن زياد: «... يلغ في دماء المسلمين فيَقتل النفس التي حرّم الله قتلها على الغضب والعداوة وهو يلهو ويلعب كأنّه لم يصنع شيئاً»[٢].

كانت ثورة ودفاعاً

وإحدى نتائج هذا البحث ـ أي أنّ المواجهة بين الحسينيين واليزيديين ليست ناشئة من الأمور المتداولة، بل من الاختلاف الذاتي أو شبه الذاتي بين الطرفين ـ هو أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام تعتبر ثورة ودفاعاً في نفس الوقت، وهذا على العكس من نظرية الخضري الإفراطية، الذي يرى أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي ثورة فحسب، ويقول: إنّ حكومة يزيد لم تضمر للإمام الحسين عليه السلام سوءاً، أي أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام ليس لها بعدٌ دفاعيٌّ، بل بعدٌ ثوري فقط. وكذلك على عكس النظرية التفريطية للشهرستاني وأمثاله الذين يرون النهضة الحسينية من بُعدها الدفاعي فقط، ويقولون: إنّ الحسين عليه السلام كان واثقاً أنّه سوف يُقتل على أيدي أعوان يزيد مهما كان موقفه حتى لو بايع يزيد، ولذلك خرج من المدينة ومكة، وهكذا يفرغون نهضة الإمام الحسين عليه السلام من محتواها الثوري، ويحجّمونها في الجانب الدفاعي فقط.

وقد رأينا بطلان هاتين النظريتين من خلال حصرهما الاختلاف بين الحسين ويزيد ـ وبين خط الحق والباطل بشكل عام ـ في جانب واحد، كأن يكون

١. الإرشاد، ج ٢، ص ٨٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٥.
٢. الإرشاد، ج ٢، ص ٦٢؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٥؛.

الحسين عليه السلام مثلاً مخالفاً ليزيد دون العكس، أو أنّ يزيد مثلاً يضمر العداوة للحسين عليه السلام وليس العكس، ولكن كما تقدّم آنفاً نلاحظ وجود تضاد حقيقي بين الحسين عليه السلام ويزيد وأتباعهما كامن في المحتوى الداخلي لكل من الطرفين، وهذا المعنى يتجلى في جميع أو غالب النزاعات البشرية في كل زمان ومكان، ويقتضي بطبيعته التصادم والاقتتال بينهما، وبديهيٌّ أنّ المواجهة بينهما ستكون حتمية في حال عدم وجود المانع عنها، ومتوقعة في حال وجوده.

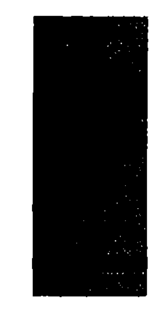
الإمام الحسين عليه السلام نفسه يؤكّد وجود هذا الصراع وكذلك معطياته العملية بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل ـ من كلا الجانبين ـ ففي جوابه للحاكم الأموي في مكة الذي دعاه إلى التعامل مع الحكومة الأموية، قال: ﴿لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريؤون ممّا أعمل وأنا بريء ممّا تعملون﴾[١]، [٢]، وهذه شبيهة بكلمته الأُخرى التي نقلناها في بداية هذه المسألة، وفي الحقيقة أنّ الحسين عليه السلام بكلماته الحكيمة هذه يوضّح هذا الموضوع أكثر، وهو أنّ جهاده مع أنصاره وأصحابه ضد الأُمويين ناشئٌ من التناقض العميق في البناء الباطني لكل من الطرفين، والذي يؤدّي حتماً إلى التنازع والخصومة الكلامية وفي النهاية ينجر الأُمر إلى المواجهة العسكرية؛ فمثل هذا التضاد والمواجهة من الطرفين لا يمكن اعتبارها ثورة فقط أو دفاعاً فقط، بل تركيبٌ من كليهما.

والعلة في أنّ أكثر الكتب التي كتبت عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وصفت نهضته بأنّها جهاد وثورة وأمثال ذلك، هي أنّها اعتمدت غالباً الجانب الثوري والجهادي من هذه النهضة لا الجانب الدفاعي الموجود فيها أيضاً، وإنّنا لنجد الإمام الحسين عليه السلام أيضاً وبالرغم من ظلم الأمويين وسلوكه الدفاعي أمام تحدياتهم، يؤكّد على الجانب الثوري في نهضته، ويقول: «... وأنا أحق من غير.... وأنا أولى من قام بنصرة دين الله وإعزاز شرعه...»[٣].

---

١. سورة يونس، الآية ٤١.　　٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٨٩.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٤؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٤٨؛ المقتل للخوارزمي، ج ١، ص٢٣٤؛ تذكرة الخواص، ص ٢١٧.



الفصل الرابع

كيف انتصرت
نهضة الإمام الحسين عليه السلام

رأينا فيما تقدم أنّ الحسين عليه السلام كان واثقاً بأنّ جهاده وثورته سوف تحقق النصر الأكيد حتى لو أدّى ذلك إلى استشهاده. ومفهوم النصر الحقيقي للجهاد هو أن يكون مشعلاً منيراً للثورات، يثير في الناس دوافع الخير والهداية وبواعث الحق والعدالة والتصدي لحكومة المنحرفين والظالمين وأتباعهم، ويترتب على ذلك طبعاً إضعاف ثمّ سقوط الحكومة الظالمة وقوى الانحراف وإنقاذ الإسلام من الخطر الحتمي الناشيء من تسلطهم، و لا أقل من تحريك الناس ضدهم.

وفي هذا الفصل نبحث في كيفية تحقيق نهضة الإمام الحسين عليه السلام النصر الحقيقي؟ وما هي المراحل التي طواها تحقيق هذا النصر؟

ولكن قبل دراسة ذلك يجب أن نرى ما هي العوامل التي ساعدت الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق هذا النصر؟

الحق ركيزة النصر

إنّ أهم العوامل لانتصار جهاد الإمام الحسين عليه السلام الشهيد أمران:

الأوّل: إنّ جهاد الإمام الحسين عليه السلام كان على الحق، الحق الذي كان عند المسلمين واضحاً خاصة بالقياس مع يزيد وحكومته الغاشمة والمعادية للإسلام،

ومن أجل توضيح هذا العامل يجب أن نعلم أنّ كل مواجهة لا بد لها من سند ودعامة ترتكز عليها، كي تمهد طريقها لتحقيق الأهداف المنشودة رغم المشكلات والمصائب العديدة، ودعامة كل مواجهة في الدرجة الأولى أن يكون قائدها طالباً للحق والعدالة، ولو كان كذلك فسوف يعمل على كسب قلوب الناس بدون شك ويثيرهم ضد الظالمين، وبالتالي سوف ينال النصر العملي أيضاً، عاجلاً أم آجلاً.

إنّ الناس في فطرتهم يحبون العدالة ويكرهون الظلم، ولهذا يؤيّدون بالطبع المظلوم وثورته ضد الظالم، وبشكل عام يحاولون دعم ومساعدة أصحاب الحق ضد قوى الباطل، ولهذا نرى أنّ جميع الأديان السماوية المبتنية على الفطرة تدعوا إلى الحق والعدالة ورفض الظلم والخيانة، وذلك لانّ جميعها ترى أنّ الركيزة الأصلية والمحورية للإنسان هي حب العدالة أو الحق وكراهية الظلم أو الباطل، ولذلك تجعل من هذا المحور ركيزة لدعوتها، سواء الدعوة التوحيدية أو الإصلاحية، والقرآن الكريم يقول في هذا المجال: ﴿لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[1].

المدلول المفهومي العميق لهذه الآية هو أنّ الإيمان بالله تعالى أيضاً تقبله الفطرة الإنسانية؛ لأنّه يقوم على قاعدة العدالة، وأنّ الشّرك بالله تعالى ترده الفطرة الإنسانية؛ لأنّه ظلم. والكثير من الأفراد يخطئون في تصورهم أنّ الأصل في الفطرة هو التوحيد، ويغفلون عن أنّ أصل التوحيد أيضاً يقوم على أساس حب العدل وكراهية الظلم، أي أنّ أصل التوحيد أصبح فطريّاً لأنّه مقتضى العدالة، ولذلك نجد أنّ الناس ـ خاصة المستقيمين منهم ـ يؤيدون الثورات العادلة والإصلاحية ضد الظلم، كما يؤيدون النهضات والثورات التوحيدية ضد الشرك، يعني كلاهما موافق للفطرة وكلاهما محط تأييد الناس طبعاً، ومن جهة أُخرى نجد أنّهم يقفون في مواجهة الحركات الظالمة، كما يقفون في مواجهة الحركات الإلحادية والمشركة؛ لأنّ كليهما مخالف للفطرة.

---

١. سورة لقمان: الآية ١٣.

ومع الالتفات إلى أنّ الناس وبدافع فطري يحبون العدل ويمقتون الظلم، فمن الطبيعي أنّهم يتفاعلون من منطلق العشق للشهداء، الذين تضرجوا بدمائهم من أجل الدفاع عن العدل والتصدي للظلم، ولذلك يجب القول: إنّه من غير الممكن أن لا يكون لدم الشهيد أثرٌ في قلوب الناس، بل إنّه مؤثر في كل صورة وخاصة إذا كان الاستشهاد في سبيل الدفاع عن الحق والعدالة، وإذا كان الشهيد قد تعرض خلال ذلك لأنواع الظلم وهجوم المفسدين والظالمين، فدماء مثل هؤلاء الشهداء تبقى ساخنة في قلوب الناس، تثير مشاعرهم وعواطفهم دوماً. وصفحات التاريخ أيضاً تحتوي آثاراً ثورية عميقة على المستوى الفكري والاجتماعي والسياسي لهؤلاء الشهداء، إلى حد دفعت قوى الانحراف والظلم وأسقطتها من دائرة المعادلات السياسية ثم العملية، وبالتالي تحقيق النصر الحقيقي والنهائي لأفكار وأهداف هؤلاء الشهداء.

تأثير شخصية الحسين عليه السلام

تتفق المصادر الشيعية والسنية على أنّ الإمام الحسين عليه السلام وخاصة إبّان نهضته المقدسة كان من الشخصيات الاجتماعية الهامة في المجتمع الإسلامي، بل يعتبر أهم شخصية إسلامية في أنظار المسلمين، سواء من جهة الفضائل الشخصية والاجتماعية أو من جهة قرابته لرسول الله صلى الله عليه وآله، حتى إنّ عمرو بن العاص ومعاوية اللذين كانا من الأعداء الألداء للإمام قالا في شأنه: «حسين أحب أهل الأرض إلى أهل السماء»[1].

وعبارة أنّ الحسين عليه السلام (...أحب إلى أهل السماء) تحكي عن أنّه كان مظهرالطهر والصدق والوفاء والفضيلة والشرف والمروءة والإنسانية، والخلاصة كان المظهر الأعلى للحق. وأساساً فإنّ شخصية الإمام الحسين عليه السلام كانت مع الحق والحق معها، ولهذا كان محبوباً لدى أهل الأرض وأهل السماء، على عكس يزيد الذي كان ممقوتاً من قبل المسلمين المؤمنين، وخاصة حكومته الفاسدة، وعلى الأقل كان

١. تاريخ ابن عساكر، ج١٤،ص١٧٩؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ج٧، ص٢٦٩.

كثير من الناس غير راضين عنه باطناً، ولهذا نجد أنّ الفرزدق يقول للحسينعليه السلام في جملة جامعة: «قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية!»[١]، يعني أنّ المسلمين حتى الأشخاص الذين أيدوا الحكومة الأموية من أجل المال والمقام ووقفوا ضد الحسينعليه السلام في نهضته كانوا يكرهون يزيد ويحبون الحسينعليه السلام.

والخلاصة أنّ المسلمين كانوا يعتقدون بعدم شرعية حكومة يـزيد، ويـعتقدون بشرعية نهضة الحسينعليه السلام واقعاً، ومن الطبيعي أن يكون لهذا الاعتقاد تأثير عميق في نمط أفكارهم وسلوكهم إلى درجة أنّ شعار «يا لثارات الحسين» ارتـفع بـعد فاجعة كربلاء الدامية، واستمر حتى أطاح بالحكومة الأموية في مـزبلة التـاريخ. وقُتل من الأمويين وعملائهم وأتباعهم جماعات كثيرة لا يحصي عـددها إلّا الله، ولقد قال الثوار بعد ما فرغوا من عمليات الانتقام من بني أمية ـ الشجرة الملعونة ـ لفاجعتهم العظيمة في حق الحسينعليه السلام وأهل بيت النبيصلى الله عليه وآله: «ما نبالي متى طـرقنا الموت وقد قتلنا بالحسينعليه السلام ألفاً من بني أُمية»[٢] وطبعاً عشرات آلاف من أعوانهم.

الغباء السياسي ليزيد

العامل الثاني الذي كان مؤثّراً في انتصار الإمام الحسـينعليه السلام فـي نـهضته هـو: الأساليب المعادية والمتهكتة للإسلام، التي استعملتها حكومة يزيد جهاراً، وقد رأينا سابقاً أنّ معاوية كان يخدع الناس بسياسته الإسلامية، ولذلك كسب الكـثير مـن المسلمين وتمكن في النهاية من السيطرة على العالم الإسلامي أجمع، وعـلى أيّ حال كان معاوية ملتزماً بالظاهر الإسلامي في كل عمل إلى درجة أنّه كان يرفض كل عمل مخالف للإسلام أو يحاول تبرير وإضفاء صبغة إسلامية عـليه أو يـلقي مسؤولية أعماله المخالفة للإسلام على عاتق الآخرين ويتبرّأ هو منها، فمثلاً نـراه عندما قُتل الصحابي الجليل عمار في صفين ألقى باللائمة والمسؤولية على الإمام عليّعليه السلام ليخدع المسلمين بذلك؛ لأنّ قتله سـوف يـؤدّي إلى تـحريك المسـلمين

١. مرّ ذكره في الفصل السابق.
٢. شرح نهج البلاغة، ج٧، ص ١٣١.

ويثيرهم ضده، فكان يقول بمكر ودهاء: «إنّ عليّاً قتل عمّاراً لأنّه أخرجه إلى الفتنة» فقال علي عليه السلام في ردّه: «فرسول الله صلى الله عليه وآله اذن قاتل حمزة»[1]، وهكذا رأينا جرائمه بحق مالك الأشتر ومحمد بن أبي‌بكر وعمرو بن الحمق وحجر بن عدي وكثير من المسلمين المؤمنين والمخلصين الذين قتلهم، حتى الإمام الحسن عليه السلام، فإنّه لم يقتله علناً، بل بشكل خفي وعن طريق السم[2]، وكان يقيم الحجج ولو كانت واهية عند ذوي البصيرة على قتل كل واحدٍ من هؤلاء، من قبيل دعاء أهل الشام عليهم[3]، أو مشاركتهم في قتل عثمان، أو أنّ هؤلاء يشكّلون خطراً ضد مصالح المسلمين، وأمثال ذلك. وعلى كل حال فإنّ معاوية بدهائه السياسي القوي وتجاربه الكثيرة كان يعلم بأنّ دوام حكومته كامن في التمسك بالظواهر الإسلامية ومراعاتها، لكي يتمكن من إسكات الناس بهذه الوسيلة الخادعة فيستمر في سلطانه وحكومته.

أمّا غباء يزيد وغطرسته فكان إلى حد أنّه ذهب بجهود أبيه معاوية وحكومته ـ التي استمرت أربعين سنة ـ في سنة واحدة، وهي السنة الأولى من حكومته التي ارتكب فيها فاجعة كربلاء، والتي تعتبر أكبر فاجعة في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الجاهلية، فقد كشف بها ماهيّته الخبيثة وماهيّة الحكومة الأموية الفاسدة لجميع المسلمين، لأنّهم صدموا وغضبوا بشدة من هذه الفاجعة العظيمة، خاصة بتلك الكيفية المحرقة لقلوب المسلمين وغير المسلمين. مع أنّه كان بإمكانه تغطية هذه الفاجعة أو تخفيفها بالأدلة الخادعة من قبيل حفظ نظام المجتمع الإسلامي وأمنه وأمثال ذلك، ولكنه كان جاهلاً وطائشاً إلى درجة أنّه لم يتمسك حتى بهذه التبريرات الضعيفة، بل أعلن بوقاحة وبكلمات جارحة ومثيرة لمشاعر وأحاسيس الناس، وقال بمحضر المسلمين: إنّه يرفض الإسلام والقرآن والنبي صلى الله عليه وآله، وأنّ كل ذلك كذب محض، وأنّه لا بد من الانتقام لبني أمية من النبي وأهله لأجل واقعة بدر ومعارك أُخرىٰ.

---

١. شرح النهج، ج ٨، ص ٢٧ و ج ٢٠، ص ٣٣٤.

٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٥؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٤١٠؛ مقاتل الطالبيين، ص ٤٨؛ شرح النهج، ج ١٦، ص ٢٩.

٣. النصائح الكافية، ص ٨٨.

حتى إنّ الإنسان الذي يتمتع بقليل من الإدراك السياسي يرى بأنّ مقتل الحسين عليه السلام وعدة من أهل البيت النبوي الشريف، بذلك الأُسلوب الوحشي، وما تبعه من كلمات نابية ليزيد وأعوانه، سوف يؤدّي بالتالي إلى تثوير المسلمين وتحريكهم ضد الحكومة الأموية، ويؤدي بالنتيجة إلى سقوطها، ولهذا السبب كان معاوية يداري عواطف المسلمين وأحاسيسهم لحفظ مصالح الحكومة الأموية، وكان يوصي ابنه يزيد بأن يراعي أهل بيت النبوة وخاصة الحسين ويتجنب مواجهته بصورة علنية.

سوء حظ أم حسن حظ؟!

نجد أنّ معاوية في ضمن وصيته إلى يزيد قال: «إنّي لا أخاف عليك إلّا ممّن أُوصيك بحفظ قرابته ورعاية حق رحمه، من القلوب إليه مائلة والأهواء نحوه جانحة والأعين إليه طامحة وهو الحسين بن عليّ، فاقسم له قسماً من حلمك واخصصه بقسط وافر من مالك ومتّعه بروح الحياة وأبلغ له كل ما أحب في أيامك، وأمّا من عداه فثلاثة...»[1]، فلم يعبأ معاوية بغير الحسين عليه السلام لمزاياه الخاصة المهمة جدّاً، قال معاوية ليزيد أيضاً جملة تكشف عن وثوقه بخروج الحسين عليه السلام على حكومته، ومع هذا يوصيه بعدم الإضرار به، وهذه جملته: «ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه»[2].

ولكن لسوء الحظ أو لحسن الحظ فإنّ يزيد عمل على عكس وصية أبيه، فلم يكتف بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه بتلك الكيفية الفجيعة فحسب، بل حمل رؤوسهم على الرماح، وأخذ أهل بيته أسرى مقرنين بالحبال، يطوف بهم الأعداء من مدينة إلى أُخرى، وأحضرهم إلى الشام في احتفال عام، وأخذ يضرب ثنايا الحسين عليه السلام بالقضيب أمام الناس، وأخذ يشتم زينب عليها السلام وسائر الأرامل والثكالى والأيتام من أهل بيت النبوة، والأدهى والأمرّ من ذلك أنّه أنشد أشعاره المعروفة والمليئة بالكفر

---

١. شرح النهج، ج ٢٠، ص١٣٣؛ ومضمونه في: مقتل الحسين للخوارزمي، ج ١، ص١٧٦.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٣٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٦.

والاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وآله والإسلام والقرآن، ففضح نفسه والحكومة الأموية بهذه الصورة الشنيعة العلنية، فأثبت شرعية الإمام الحسين عليه السلام أمام الملأ، ممّا زرع في نفوس المسلمين ضرورة استمرار النهضة الحسينية بشكل جازم.

ومع الالتفات إلى أُسلوب يزيد السفيه، الذي انتهى لصالح نهضة الإمام الحسين عليه السلام، يمكن القول بكل اطمئنان أنّه لو كان الإمام الحسين عليه السلام قد نهض في زمن معاوية لم يكن لنهضته الأثر المطلوب؛ لأنّ معاوية وهو داهية السياسة والشيطنة أوّلاً: كان سيتجنب قتل الإمام الحسين عليه السلام مهما أمكنه ذلك. وثانياً: فيما لو صمّم على قتله فإنّه سوف يقتله بشكل خفي وغير مثير، والأهم من ذلك أنّه سوف ينكر هذا القتل أو يبرّره أو يلقيه على عاتق الآخرين، وفي النتيجة يجهض تأثير الحركة الثورية للإمام الحسين عليه السلام أو يجعلها قليلة التأثير. ولكنّ يزيد الغبي الذي كان على عكس أبيه شابّاً طائشاً ومتهوّراً، لم يكن بمقدوره تبرير فاجعة كربلاء العظيمة والمهولة التي هزّت وجدان كل مسلم بل كل إنسان، بل حتى لو كان هناك سذّج من الناس يشكون في تورط يزيد في هذه الفاجعة، فإنّ يزيد نفسه بإتيانه برأس الحسين وأهل بيته إلى الشام، والإهانات الشديدة التي ارتكبها بحقهم، وخاصة أشعاره الكفرية واستهزائه بالمقدسات الإسلامية أمام الجميع، لم يُبق شكّاً لدى الناس في ضلاله وخبثه، وضرورة الثورة ضد حكومته وإدامة نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته.

إنتصار إعلامي ساحق

وهنا لا بد من الالتفات إلى أن أسرى كربلاء من أهل البيت عليهم السلام استفادوا من فرصة أسرهم وانتقالهم من بلد إلى بلد، لفضح الحكومة الأموية، الأمر الّذي أدّى إلى اتضاح شرعية الحسين عليه السلام ونهضته أكثر فأكثر، وفي الواقع أنّ يزيد الأرعن هو الذي عمل على تهيئة أسباب هذا الإعلام المضاد بجريمته الأُخرى هذه، بأن قاد أسرى أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله تتقدمهم رؤوس الشهداء فوق الرماح عبر المفاوز والبلاد.

وكما يُذكر في التواريخ أنّ الأسرى أخذوا يبينون للناس في كل مدينة شرعيتهم ومظلوميتهم وقضيتهم العادلة، ويصوّرون لهم فجائع حكومة الأمويين وحزبهم، وكيفية قتل الحسين عليه السلام وأصحابه، ومنع الماء عن أهل بيت النبوة، وقتل الأطفال الرضّع والمثلة بأجساد الشهداء، ورفع الرؤوس على الرماح وحرق الخيام و...، وهكذا أسقطوا الوهم الإعلامي أمام الحقيقة الشاخصة، وخاطبوا الناس جميعاً بالطريقة التي توضح بصورة كاملة شرعيتهم ومظلوميتهم، من خلال أحاديثهم وخطبهم الثورية والمفجعة وبقلوبهم الحزينة وعيونهم الدامعة، ممّا أثار وجدان الناس وحطم كثافة الظلام الإعلامي المتراكم على عقولهم منذ عهد معاوية.

إنّ أسرى أهل بيت النبوة، وخاصة زينب عليها السلام كانت بمثابة قائد الجيش الإعلامي والتبليغي ضد حكومة يزيد وحزبه الحاكم، وعملت على إدامة واستمرار النهضة الحسينية بالرغم من جميع المشاكل والشدائد المحيقة بها، حيث بيّنت أبعاد نهضة الإمام الحسين عليه السلام للجميع بصورة مهيجة ومثيرة، فبالرغم من أنّ أسرى أهل البيت كانوا مقرّنين بالحبال وقد حُملت معهم رؤوس أعزّائهم على الرماح، إلّا أنّهم وخاصة زينب عليها السلام لم يتردّدوا ولم يتوانوا في أداء وظيفتهم، بل وقفت زينب عليها السلام أمام يزيد وأعوانه بكامل الجرأة والشهامة، وتحدّثت بتلك الخطبة المثيرة، التي قلبت فيها الموازين لصالح النهضة، وكانت بمثابة السيف القاطع الذي انهال على رؤوس الأعداء وفضحتهم أمام المسلمين وأمام التاريخ، كما أربكت الواقع الفكري لأهل الشام، وأدانت فيها أعداء الإسلام وأشارت إليهم بالبنان. وكان ممّا خاطبت به يزيد أمام الناس: «... أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك نسائك وإمائك وسوقك بنات رسول الله سبايا... أظَنَنْتَ يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسراء أنّ بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة و...؟ وكيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء ونبت لحمه من دماء الشّهداء؟ وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان، ثم تقول غير متأثّم ولا مستعظم: لأهلوا واستهلوا فرحاً ـ ثمّ قالوا يا يزيد لا تشل؟

زعمت أنّك تناديهم، فلتردنّ وشيكاً موردهم، ولتودّن أنّك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت...»[١].

هذه العبارات المحرقة للقلوب والفاضحة للأعداء هي جانبٌ من خطاب السيدة زينب عليها السلام في قصر يزيد. وللإمام زين‌العابدين وسائر الأسرى في كربلاء والكوفة والشام والمدينة ومكة والمدن الأُخرى مثل هذه الكلمات المثيرة والفاضحة ليزيد وحكومة بني أُمية بين الناس، والتي أدّت إلى تعزيز المضمون الثوري لنهضة الحسين عليه السلام في دائرة العقيدة الإسلامية. وإنّ مثل هذه الكلمات الحاسمة والباعثة على التغيير الجذري ـ والتي يجب أن يُخصّص لشرح مفاهيمها وآثارها كتابٌ ضخمٌ ـ قد أوجبت ازدياد الدور الثوري لدم الحسين عليه السلام المقدّس، وأوجدت فصلاً زاهراً آخر لصحوة وبطولات الشعوب ضد حكومة يزيد وأمثاله.

وليس من المبالغة إذا قلنا: إنّ تأثير هذه الحرب الباردة والإعلامية، التي تحققت بشجاعة الحوراء زينب وسائر الأسرى، لم تكن أقل من تأثير الحرب الدموية الساخنة التي خاضها الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في أرض كربلاء، وبهذا استطاع الإمام الحسين عليه السلام في الحقيقة أن يغرس بذور الثورة في قلوب الناس جميعاً، وينميها ويرشدها بأسرع ما يمكن ويحوّلها إلى موج عظيم من الغضب في جميع البلاد الإسلامية ضد السلطة الأموية، إلى درجة أنّ أعوان يزيد وأقرباءه أيضاً بكوا على الحسين عليه السلام واتخذوا مواقف مضادة ليزيد، بحيث إنّ يزيد الذي أظهر الفرح والسرور عند مشاهدته رؤوس الشهداء والأسرى من أهل بيت النبوة، وراح يترنم بأبياته الكفرية، اضطرّ أخيراً إلى إخفاء فرحه، بل وإظهار نفسه بريئاً، وألقىٰ باللائمة على عبيدالله بن زياد؛ ليتمكن من تحري واستطلاع الأفكار العامة للناس[٢]، ولكن أضحى هذا كله لغواً بل سخرية بعد ما انكشف واقعه لهم.

* * *

١. اللهوف، ص ١٠٦؛ احتجاج، ج ٢، ص ٣٥؛

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٥٣ و ٣٨٨؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٨٧.

إلى هنا اتضح أنّ أهم عوامل انتصار نهضة الإمام الحسينعليه السلام أمران:

الأوّل: إنّ المسلمين كانوا يرون في نهضته أنّها على الحق، وأنّ حكومة يزيد زائفة وغير مشروعة.

الثّاني: إنّ حكومة يزيد وحزبها الأموي استخدمت أساليب وحشية وبعيدة حتى عن الأصول الإنسانية والأعراف الاجتماعية والسياسية، بل حتى الجاهلية.

والآن لنَرَ كيف تحقق هذا الانتصار، وما هي مراحله؟ ومن أجل رعاية نظم أحسن في توضيح هذا الأمر نبحثه في جهتين:

الاولى: من الناحية العملية، أي من خلال دراسة معطيات الثورة على صعيد الواقع العملي في ذلك العهد، وحركة الأُمة في ساحة الواقع السياسي التي انتهت بالتالي إلى إنهاء السلطة الأموية الغاشمة، وهذه تمثّل في الأكثر الآثار الظاهرية لانتصار ثورة الإمام الحسينعليه السلام، ونتكلم عنها في هذا الفصل.

الثانية: نبحث فيها الجانب العلمي والفكري لثورة الإمام الحسينعليه السلام في ذهنية المسلمين وتربيتهم الإيمانية والثورية في جميع الأدوار التاريخية، وهذه تمثّل في الأكثرالآثار العميقة لانتصارثورة الإمام الحسينعليه السلام، و سوف نذكره في الفصل الخامس.

التأثير حتى في الجهاز الحاكم والبيت الأموي

ولتوضيح الجهة الأُولى لا بد أن نطرح الموضوع الأساس المذكور في الفصل الثالث، أي الهدف الأصلي للجهاد والثورة وهو تبيين المفاهيم الإسلامية وتوعية المسلمين وتحريكهم ضد عوامل الظلم والفساد. ومع الالتفات إلى هذا الموضوع ومقام الإمام الحسينعليه السلام السامي بين الناس ومكانة يزيد المتردية جدّاً بينهم، وخاصة بعد حادثة كربلاء المؤلمة، فلعله لا حاجة لإثبات هذه الحقيقة وهي أنّ الإمام الحسينعليه السلام انتصر انتصاراً واقعياً باستشهاده، وهذه شهادة جميع الوثائق التاريخية، أنّ قتل الحسينعليه السلام خاصة بتلك الصورة الفجيعة على يد جلاوزة حكومة يزيد قد أثارت جميع المسلمين، وحتى أعوان يزيد حيث اعترضوا علناً وأظهروا

اعتراضهم الشديد يوماً بعد يوم، وفي الحقيقة أنّهم ساروا على طريق الحسين‌عليه‌السلام وتنكّبوا طريق أعدائه. وعلى سبيل المثال، فإنّ يحيى بن الحكم الأموي، مع أنّه كان من العناصر المهمة في حكومة يزيد، عندما رأى قافلة الأسرى ورؤوس الشهداء من أهل بيت النبوة في مجلس يزيد، اعترض على الأمويين بشدة وقال: «**حُجبتم عن محمّد يوم القيامة، وإنّي لن أُجامعكم على أمر أبداً**»[١].

وقال أيضاً في معرض بيان مفارقة لها مغزاها:

لهامٌ بجنب الطفّ أدنى قرابة   من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل[٢]

ولكن يزيد المستبد كعادة الطواغيت المستكبرين توسل بالقوة والتهديد لإسكات المعارضين.

والمورد الآخر الأوضح هو أنّ معاوية بن يزيد أيضاً اعترض على أبيه وتبرّأ من جرائمه، ولا سيّما جريمته المنكرة في كربلاء، إلى درجة أنّه أستشعر العار في تولي خلافة أبيه يزيد ولذلك رفضها بشدة[٣]، وهذه الحادثة المهمة والعجيبة، التي لها نظائر أُخرى أيضاً، تدلنا بصراحة على انتصار الإمام الحسين‌عليه‌السلام في نهضته، وفضيحة الحكومة الأموية، بحيث إنّ معاوية بن يزيد أيضاً يثور ضد أبيه ويتحرك في الحقيقة مع تيّار الإمام الحسين‌عليه‌السلام، وممّا يثير العجب أنّه صرّح على منبر الشام مركز الحكومة الأموية بذم أبيه يزيد وجدّه معاوية، وأعطى الحق للحسين وعليّ بن أبي طالب‌عليه‌السلام وقال فيما قال :.... ثم قلد أبي وكان غير خليق للخير فركب هواه و استحسن خطأه... فصار في حفرته رهيناً بذنبه وأسيراً بجرمه... وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمة وحرق الكعبة... .

ولم يقتصر الأمر على عائلة يزيد وأقربائه، بل امتد تيار المعارضة إلى أقرباء وأسرة ابن زياد المعروفين بالهمجية وسفك الدماء، فإنّهم أيضاً بعد فاجعة كربلاء

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٥٦؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٩.

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٥٢؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٩٠. الإرشاد، ج٢، ص ١١٩.

٣. المناقب للخوارزمي، ج٢، ص١٨٤؛ الصواعق لابن حجر، ص٢٢٤؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٥٤؛

انقلبوا بشدة إلى درجة أنّ أخا عبيد الله اعترض عليه، وقال: «والله لوددت أنّه ليس من بني زياد رجل إلّا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وإنّ حسيناً لم يُقتل»[١]. وأمّه مرجانة أيضاً بالرغم من خبثها وفجورها تبرّأت منه، وقالت: «يا خبيث قتلت ابن رسول الله، لا ترى الجنّة أبداً»[٢].

وكما رأينا أنّ ابن زياد نفسه أيضاً قال ردّاً على يزيد الذي طلب منه قمع ثورة المدينة كقمعه ثورة الحسينعليه السلام، قال: «لا أجمعهما للفاسق أبداً»[٣]. وكذلك عمر بن سعد القائد العام للجيش الأموي في كربلاء أصبح ممقوتاً بشدة من قِبل جميع الناس وخاصة أقربائه حتى أصبح سجيناً في بيته[٤]، وكذلك سائر قادة الجيش الأموي ممّن اشترك معه في كربلاء فقد طُردوا من المجتمع الإسلامي وعاشوا الانطوائية والانزواء، وأضحوا ملعونين أذلّاء بين المسلمين.

والهدف من ذكر هذه النماذج ليس هو بيان التأثير العميق والمثير لنهضة الإمام الحسينعليه السلام الدامية في البيت الأموي والمتصلين به، بل نريد القول بأنّ هذه الثورة التي خلّفت هذا الأثر العميق حتى في قلوب أعوان الخليفة الأموي وأزلام الحكومة، فإنّه من الطبيعي جداً أن تثير غضب سائر المسلمين، وتُنفّرهم من حكومة الأمويين وتهيّجهم للتصدي لهم، وأن تُحرّكهم في طريق الحسين وثورته، بل يمكن القول بأنّ نفس هذا الازدراء والغضب للمسلمين ضد الحكومة الأموية بعد نهضة الإمام الحسينعليه السلام وفاجعة كربلاء، يعني سقوط الحكومة الأموية نظرياً وتحقق الانتصار الحقيقي لنهضة الحسينعليه السلام؛ لأنّ نفس هذا الازدراء والغضب للمسلمين يحكي عن أنّ الحكومة الأموية فقدت نفوذها وامتدادها السياسي بين

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٥٧؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٩٤.

٢. الكامل لابن الاثير، ج٤، ص٢٦٥؛ البداية والنهاية، ج٨، ص٣١٤؛ تهذيب التهذيب، ج٢، ص٣٠٨؛ تاريخ مدينة دمشق، ج٣٧، ص٤٥١.

٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٣٧١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١١٢.

٤. تذكرة الخواص، ص٢٥٩.

الناس، وأصبحت موضعاً للطعن والذم واللعن، وهذا يعني أنّ المسلمين عموماً يؤيّدون أهداف وحركة الإمام الحسين عليه السلام، ويتخذون من ثورته قدوةً ونموذجاً إلهياً.

أوّل علائم الانتصار

أدّى الغضب الشديد ضد حكومة يزيد إلى عزلها رسمياً وإخراج عمالها من بعض الولايات، فكانت المدينة المنورة السبّاقة إلى هذا الإجراء، والسبب في أنّ أهالي المدينة كانوا أسرع من سائر المسلمين في الاستلهام من ثورة الإمام الحسين عليه السلام، أنّهم كانوا في الغالب من الصحابة أو أبناء الصحابة، ولهذا كانت لهم علاقة ومحبة شديدة لأهل البيت وخاصة الإمام الحسين عليه السلام، حتى إنّ معاوية ليتحدث عن محبتهم العميقة للحسين عليه السلام وعن حالهم في مجلسه ويقول: «كأنّ على رؤوسهم الطير»[1]، ومن الواضح أنّ هؤلاء الذين يعشقون الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله سوف يثورون لقتله، خاصة وأنّهم كانوا يرون من قريبٍ الآثار المفجعة على أهل بيت النبوة من الأرامل والأيتام الذين كانوا يمثّلون صوراً حيّة لجرائم يزيد وفجوره. ولمّا بعث يزيد بضعن الحسين إلى المدينة استفادوا من هذه الفرصة الحساسة، وأخذوا يشرحون لأهل المدينة ما جرى على الصغير والكبير والمرأة والرجل من أهل البيت في كربلاء من المحن والشدائد العظيمة والمصائب الجسيمة، وفي هذه الظروف الحساسة حضر شاعر المدينة (بشير بن حذلم) أيضاً، وأنشد أشعاراً مهيجة وثورية قال فيها:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرّج ... والرأس منه على القناة يدار[2]

ومضافاً إلى هذه المشاهد الحزينة المرتبطة بفاجعة كربلاء، والتي سمع بها أهل المدينة من أفواه مَن جرت عليهم المآسي، هناك مسألة أُخرى أدّت إلى الإسراع في إشعال الثورة والنقمة، وهي أنّ الحكام الأمويين لم يستمروا في سياسة معاوية

---

١. تاريخ ابن عساكر، ج١٤، ص١٧٩.
٢. اللهوف، ص١١٥.

المحافظة، بل إنّ بعضهم كانوا كيزيد مغرورين وعديمي السياسة والتدبير، وكما أن يزيد أعلن فرحه وسروره من قتل الحسينعليه السلام ورأى ذلك انتقاماً من أهل بيت النبوّة، خاصة لقتلى بني امية في بدر، فإنّ (عمرو بن سعيد) عامل يزيد على المدينة أيضاً، عندما سمع الضجة والبكاء في نساء بني هاشم لمّا بلغهم قتل الحسينعليه السلام، قال ضاحكاً بمنتهى الوقاحة:

عجّت نساء بني زياد عجّة ... كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

وقال أيضاً: «هذه واعية بواعية عثمان بن عفّان»[١].

(مروان بن الحكم) الخبيث أيضاً أخذ يتشدّق فرحاً مغروراً وغارقاً في مستنقع الجاهليّة، وهو يقول:

ضرب الدوسر فيهم ضربة ... أثبتت أركان ملك فاستقر[٢]

أي، لقد انتقمنا من أهل بيت النبي بقتل الحسين وثبّتنا به دعائم سلطاننا . وقد أدّت هذه الشماتة والكلمات المسمومة ـ والتي اقترنت طبعاً بسجن أو نفي أو قتل عدة من المؤيّدين للإمام الحسينعليه السلام ـ إلى تهييج عواطف أهل المدينة، وبالتالي عزمهم على الإطاحة بالحكومة اليزيدية. وما أن رأت الحكومة الخطر محدقاً بها حتى دعت كبار أهل المدينة إلى الشام، وعمل لهم يزيد مأدبة واستقبلهم استقبالاً حارّاً، وبذل لهم الأموال والعطايا، ولكن مع ذلك كله لم يوفق في إجهاض ثورتهم أو يُضعف من عزمهم ضده، بل على العكس من ذلك فإنّهم بعد أن رأوا بأُمّ أعينهم ما يرتكبه يزيد من المنكرات الشنيعة، وشاهدوا فسقه وفجوره، رجعوا إلى المدينة وهم أكثر عزماً وإصراراً على تعرية الواقع الأموي، وبثّ الوعي بين الناس وتشجيعهم وحثهم على الثورة، فإنّهم قد قالوا بصراحة لأهل المدينة:

«إنّا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويساهر الخُرّاب والفتيان، وإنّا نشهدكم أنّا

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٥٧؛ الإرشاد، ج ٢، ص١٢٣.

٢. تذكرة الخواص، ص٢٦٦.

قد خلعناه»[١].

وحتى عبدالله بن حنظلة الذي كان أحد الوافدين على يزيد ومن كبار أهالي المدينة قال: «والله لو لم أجد إلّا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم، قالوا: قد بلغنا أنّه أجداك وأعطاك وأكرمك، قال: قد فعل وما قبلت منه إلّا لأتقوّى به»[٢].

ولم يكتفِ بهذا القول، بل ترجمه عملياً في ثورة المدينة، وتعاهد مع أهالي المدينة على الموت، والأعجب من ذلك أنّ عبدالله هذا وثمانية من ولده تقدموا في ميادين القتال ضد زبانية يزيد وأزلامه واستشهدوا جميعاً.

تحوّل ملفت للنظر!

بالرغم من أنّ ثورة المدينة قد قمعت بقوة على يد السفاح (مسلم بن عقبة) الذي أرسله يزيد على رأس عشرة آلاف من الجيش الأموي من أهل الشام إلى المدينة، حيث أغار عليها بجيشه وقتل منها مقتلة عظيمة وأباحها لثلاثة أيام بأمر يزيد الحاقد، فكانت النتيجة مقتل عشرة آلاف مسلم، وولادة مئات الأطفال غير الشرعيين، وأخيراً خلّفوا وراءهم عدداً عظيماً من المجروحين، وبالرغم من أنّ هذه المقتلة العظيمة كانت في الحقيقة سوط عذاب إلهي لأهل المدينة؛ لتقصيرهم في حق الحسين عليه السلام وعدم نصرته، كما نزل مثل هذا العقاب في أدوار عصيبة بأهل العراق؛ لتقصيرهم وعدوانهم على الحسين عليه السلام، وهذه سنة إلهية للمذنبين والمجرمين حيث يُبتلى بها السليم والسقيم ويحترق بها الأخضر واليابس، ولكن مع هذا، فالموضوع المهم هنا أن نرى ما هو السبب الذي أدّى إلى تحول أهل المدينة بهذه الصورة المحيرة وأدّى بهم إلى هذا الانقلاب العجيب، بحيث إنّهم أقدموا على هذا العمل الشجاع دون الاكتراث بقوة الحكومة الأموية وسياستها الدموية وجيشها الوحشي والكبير.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٦٨ و ٣٨٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٠٣؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢٨؛ البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٣٦.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٨٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٠٣.

ألم يعلم أهل المدينة بأنّ هذه الحكومة السفاكة للدماء قتلت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه قبل أشهر قليلة وبتلك الصورة الفجيعة، وطافوا برؤوس القتلى على أسنة الرماح من مدينة إلى أُخرى؟ فمن البديهي أن يسحقوا أيضاً أية ثورة أو انتفاضة أُخرى بمنتهى الوحشية، ولهذا نجد أنّ الناصحين للحسين مثل (عبدالله بن مطيع) الذي كان يتوسل إلى الإمام وينشده بالله أن ينصرف عن إقدامه وعزمه على الثورة، فأُولئك الناصحون كانوا من وراء نصحهم الإمام الحسين يخشون عواقب وخيمة توقعوا حدوثها بعد مقتله عليه السلام الحتمي، كاشتداد الظلم والجريمة[1] واتّساع نطاق القمع والإرهاب ضد المعارضين.

ولا شك أنّ أهل المدينة كانوا يدركون جميع هذه المسائل، وخاصة بعد فاجعة كربلاء، ويدركون مدى عجزهم عن تحقيق النصر على حكومة بني أُمية الغاشمة، ومع ذلك كان شعورهم بالتقصير، وتفاقم الأحاسيس والمشاعر النفسية ضد بني أُمية جعلهم يندفعون باتّجاه الانتقام والثورة، ويتعاهدون على الموت والشهادة.

والأمر الأهم هو مصدر هذا الوعي والبسالة المثيرة للإعجاب، فكما تؤكّد الوثائق التاريخية، أنّ أهل المدينة استلهموا دروس الثورة والانتفاضة من نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه ومن تضحياتهم الجسام، ولذلك فقد نهضوا بكل ما أُوتوا من قوة بوجه حكومة يزيد وجيشه الجاني، ولم يهادنوا هذه السلطة الغاشمة في الأيام الثلاثة التي أمهلهم إيّاها مسلم بن عقبة للاستسلام قبل القتال، بل فضّلوا الموت الأحمر في سوح القتال على العيش الأخضر مع الظَلَمة، أي أنّهم اعتبروا ـ وكما صرّح الحسين في وقت سابق ـ الاستشهاد في محاربة الظلمة ما هو إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برماً.

والمسألة الأُخرى هنا في ثورة المدينة هي أنّ هذه الثورة لا تختص بأهالي المدينة، بل تمثّل في الواقع كل الأُمة الإسلامية، خاصة وأنّ أصحاب الثورة في المدينة كانوا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله والتابعين الذين يتمتعون بمكانة مرموقه في

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص ٢٦١؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤١؛ الإرشاد، ج٢، ص٧١.

العالم الإسلامي، وفي الحقيقة كانت لهم مكانة الصدارة والقيادة والزعامة لبقية المناطق الإسلامية.

وكيف كان، فإنّ شرارة الثورة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام سرت في المسلمين كافّة، وشعروا بعواطف ثورية ودوافع شديدة ضد الحكومة الأموية، وأحد الشواهد على هذا الأمر هو كلام يزيد نفسه الذى أبدى فيه أسفه ظاهراً ـ مشيراً إلى عبيدالله ابن زياد ـ لإغواء الناس، قال: «... فبغّضني بقتله إلى المسلمين وزرع في قلوبهم العداوة، فأبغضني البرّ والفاجر بما استعظموه من قتل الحسين»[١].

هذا الكلام المثير ليزيد الموثق في المصادر المعتبرة، يدل أفضل من كل تحليل سياسي على أنّ الحكومة الأموية فقدت حتى وجهتها السياسية بين الناس بقتلها الإمام الحسين عليه السلام، وجعلت جميع المسلمين أو كثيراً منهم يقفون ضدها، ومن الطبيعي أنّ هذه الروح الثورية الشاملة التي تعتبر من مظاهر انتصار ثورة الإمام الحسين عليه السلام لم تتوقف عند ثورة المدينة، بل كانت تزداد يوماً بعد يوم وتتسع باستمرارٍ حتى وصلت إلى مراحل ذروتها، وقضت بالتالي كما سنرى على الحكومة الأموية تماماً.

والمنطقة الأُخرى التي تأثّرت بشدة من ثورة كربلاء كالمدينة المنورة، بل أشد منها، هي العراق، فإنّه بعد حادثة كربلاء الدامية تشكلت فيه مجاميع ثورية كبيرة بقيادة (سليمان بن صرد) وشخصيات أُخرى، وأعلنوا الثورة باسم (التوّابين) أو بأسماء أُخر، وثاروا انتقاماً من الحكومة الأموية وليتلافوا ما ارتكبوه بحق الإمامالحسين عليه السلام من القصور أو التقصير، وسعوا بأساليب غريبة ومذهلة من الشجاعة والشهامة والتضحية إلى إدامة نهضة الإمام الحسين عليه السلام حتى إسقاط الحكومة الأموية، وكانوا يستلهمون العزم في حركتهم من آيات القرآن الثورية، من قبيل: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾[٢]، وبهذا كانوا يتعاهدون على الموت

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٨٩؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٧.

٢. سورة البقرة، الآية ٥٤.

ويجاهدون الأعداء حتى الاستشهاد والقتل.

ومعلوم بداهةً أنّ هذه المجاميع الثورية، هي في الواقع من آثار ومن نتائج خط الإمام الحسين عليه السلام وثورته الدامية، فإنّهم بعد أن تشاوروا في كيفية الثورة، اجتمعوا في كربلاء وندبوا الإمام الحسين عليه السلام يوماً كاملاً وبكوا عليه كثيراً، ثمّ أعلنوا الثورة بقيادة (سليمان بن صرد)، وفي مرحلة ثانية بقيادة إبراهيم بن مالك الأشتر، وتوجهوا نحو الشام للقضاء على الحكومة الأموية الظالمة، ولكنّهم في الطريق واجهوا جيشاً من ثلاثين ألف نفر من أهل الشام، وبالرغم من أنّ جيش الشام هذا قد أعطاهم الأمان ومنّاهم بالسلامة، لكنّهم صنعوا كما صنع أهل المدينة من عدم قبولهم لهذا الاقتراح والأمان ورفضهم للصلح والأطاريح السلمية، وقالوا: «... إنّا قد كنّا آمنين في الدنيا، وإنّما خرجنا نطلب أمان الآخرة، فقاتلوا القوم حتى قُتلوا...»[١].

ولا يخفى أنّ هذه المجاميع الثورية كان مصدرها العراق وخاصة الكوفة التي اختارها الإمام الحسين عليه السلام مركزاً لثورته، وكما رأينا في كلمات الحسين في الفصل الثالث أنّ اختياره للكوفة كان باعتبارها أفضل من جميع المناطق للتأثر بنهضته وحركته الثورية، وقد تحقق ما قال بشهادة التاريخ، وعلى أيّ حال فإنّ ثوّار الكوفة لم يكتفوا بالشعارات الحسينية، بل سعوا إلى ترجمة هذه الشعارات على أرض الواقع، وواجهوا الجيش الأموي مواجهة قوية، واستقبلوا الشهادةَ بثغر باسم، بعد أن وجّهوا ضربات قاصمة إلى الحكومة الأموية وحزبها الحاكم. والأهم من ذلك أنّهم شددوا ووسّعوا الروح الثورية لدى سائر المسلمين وخاصة في العراق ضد الحكومة الأموية وحزبها الغاشم، وهكذا أصبح العراق بمثابة شوكة في أعين الأمويين، حيث كان يعلن باستمرارٍ مخالفته وثورته على حكومتهم، وكانت الثورات التي انطلقت من العراق قد أثّرت طبعاً تأثيراً كبيراً على سائر المناطق الإسلامية، ودعت بالفعل المسلمين إلى الثورة ضد حكومة الأمويين الظالمة. ومعلوم أنّ جذور هذه الثورات الدامية سواء المنطلقة من العراق أو غيره، إنما هي من السلوك الثوري لعليٍّ

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٦٩؛ مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٠١.

والحسينعليه السلام، الذي هيّج المسلمين بشدة ضد أعداء أهل البيت وعلى رأسهم الأمويون وأعوانهم.

الدرس العملي

ويمكن القول بكل ثقة، إنّه لولم يقم الإمام الحسينعليه السلام بنهضته الدامية، وبقي في المدينة دون أن يحرّك ساكناً، لما انتفض المسلمون في العراق والحجاز والمناطق الأُخر، ولم يشنّوا حرباً دمويةً ضد حكومة بني أُمية، وإنّما كانوا يُسالمون الحكم كما كانوا عليه طيلة عشرين عاماً في عهد معاوية. إلّا أنّ بشهادة الإمام الحسينعليه السلام وتضحياته وظلامته هو وأهل بيته وأصحابه، أيقظت المسلمين من سباتهم وغفلتهم، وجعلتهم يضحون بآخر قطرة من دمائهم في جهادهم السلطة الطاغوتية، وكما قال مصعب بن الزبير لزوجته (سكينه بنت الحسينعليه السلام) عندما توجه لمواجهة عسكر الأمويين: «لم يبق أبوك لابن حرّة عذراً»[1].

وهكذا نجد أنّ كربلاء الحسينعليه السلام كان لها دور المدرسة والجامعة الثورية للمسلمين في تعليمهم عملياً أُصول الثورة ضد الطواغيت، بحيث لم يبق للمسلمين عذر لسكوتهم على الظلم مهما كانت قوى الانحراف مقتدرة ومتفرعنة، وحقاً كان الواقع كما يقول الشاعر ما ترجمته:

مرحىٰ للمعلّم الإلهيٰ الذي ـ يجعل المتعلمين علماء في نصف يوم.

يكتب بدءً قانون الحرية في العالم ـ ويوقّعه بدم الإثنين والسبعين.

ويبقى العقل متحيراً إزاء المدرسة السيارة للحسين ـ حيث حقق هذه المعجزات في الأرضين.

أجل، إنّ كربلاء الحسينعليه السلام كانت في الحقيقة درساً عظيماً.. ليست درساً لاكتشاف الحق فحسب، بل درساً للتضحية في سبيل الحق، وليست درساً شفهياً أو تحريرياً فحسب، بل درساً عملياً. وليست درساً تعليمياً فحسب، بل درساً ثورياً

---

١. تاريخ الحسين للعلائلى ص ١٠٠ ومضمونه أو أصله في تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦.

في مواجهة الباطل حتى بتضحية كل شيء، درساً صرح به الإمام الحسين عليه السلام نفسه في موارد عديدة، وقال: «ولكم فيّ أسوةٌ حسنة»، يعني أنّ النهضة التضحوية لي ضد القوى الفاسدة هي درس بيّن وحاسم لكم أيّها المسلمون في أن تضحّوا ضد الظالمين أعداء الإسلام، ومن الطبيعي أنّ هذا الدرس الدامي كان له الأثر البليغ الذي لا يوصف في قلوب المسلمين ومشاعرهم، حيث ترك فيهم آثاراً ثورية كبيرة وجعلهم في مسير أهداف نهضة الحسين عليه السلام، ومن هذا الطريق تحققت تحولات أساسية وانتفاضات متزايدة في المدينة ومكة والعراق وسائر المناطق الإسلامية.

قانون الضغط والانفجار، أو قانون السقوط والسرعة

قد يقال: إنّ الحكومة الأموية أحكمت سيطرتها بعد قمعها لثورة الإمام الحسين عليه السلام، فاستطاعت أيضاً قمع كل الثورات الحسينية الأُخر التي انطلقت من هنا وهناك، ولكن في الجواب نقول:

أوّلاً: اتضح في الفصل الثالث أنّ الهدف الأساس من الثورات الإلهية لا ينحصر بالنصر الظاهري، بل يمثّل كل توعية وتحريك للدوافع الإنسانية والثورية لدى المسلمين، وهذا هو الهدف الأصلي للثورات الإيمانية حتى لو أدّى الأمر إلى مقتل قائدها وإخمادها، وقد رأينا في خطاب الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «أما والله إنّي لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا قُتلنا أم ظفرنا»[1] يعني، قتلنا و شهادتنا ينفع أيضاً كما ينفع ظفرنا.

ثانياً: إنّ الحكومة المستبدة التي تقمع اعتراضات الناس وثوراتهم، وترتكز في سلطتها على دمائهم، ليست حكومة قابلة للاعتماد والاستمرار، بل إنّ سلطتها متزلزلة وسوف تنهار عاجلاً أم آجلاً؛ لأنّ قمع وقتل المصلحين من أهل الحق يؤدّي إلى تعرية السلطة الحاكمة وإثارة غضب الناس ضدها، وبالتالي إعداد

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٦؛ مقتل أبي مخنف، ص ٨٧.

المقدمات لإعلان الثورة الشاملة عليها وإسقاطها؛ لأنّ القاعدة التي تستفاد من التجربة في الوسط المادي، تجري أيضاً في الواقع الاجتماعي، وهي أنّ تراكم الضغط يؤدّي إلى زيادة القوى المضادة والمخالفة، وبالتالي إلى الانفجار وتحطيم الظلام المتراكم في ساحة الواقع السياسي، ومن الطبيعي أنّه كلما كان الضغط أكبر، فإنّ الانفجار الناشيء منه يكون أقوى وأشد بتصاعد حسابي، وهو قانون طبيعي و فيزيائي.

بل يمكن القول: إنّ الحكومات الظالمة ستنهار وتسقط بقانون أهم من قانون (الضغط والانفجار)، ألا وهو قانون (السقوط والسرعة) الذي يقول: إنّ كل جسم أو كل شيء عندما ينحدر في طريق السقوط والانحطاط، فإنّ سرعته النزولية سوف تزداد شدة بتصاعد هندسي، وهو قانون رياضي وفيزيائي آخر أدق من القانون الأول.

وعلى كل حال، فإنّه يتضح من خلال القانونين، الأول أو الثاني، أنّ الحكومات الفاسدة التي تفقد رصيدها بين الناس، وتسعى لتثبيت مواقعها بالاعتماد على القوة وأدوات القهر والغلبة، هي في الواقع تخطو باتجاه أجلها المحتوم الذي يبدأ من تنفر الناس ورفضهم لها، ويستمر في التصاعد التدريجي حتى تتكون قوىً مترابطة وحاسمة، تسعى لتحويل النقمة إلى ممارسة ثورية تحطم ما يقف أمامها من سدود مصطنعة، كما رأينا هذه الحالة كيف تجلت في الثورات التي أعقبت ثورات المسلمين في الحجاز والعراق، ومع أنّها لم تنجح في تحقيق أهدافها الظاهرية إلّا أنّها وجهت ضربات قاصمة ومتزايدة يوماً فيوماً إلى الحكومة الأموية، التي توسلت بالقوة والسيف لإطفاء النائرة.

وكما أنّ نهضة الإمام الحسين(ع) خلقت المناخ الملائم لولادة هذه الثورات، فكذلك كان سحق هذه الثورات ـ من قِبل الحكومة المتسلطة الأموية ـ عاملاً في إذكاء الروح الثورية، التي أخذت تتصاعد وتزداد حدة بين الناس، مما أضافت احتراماً وتأثيراً متزايداً لثورة الإمام الحسين(ع) في نفوسهم، وجعلتهم أكثر تصميماً

على مواجهة الطواغيت وإزالتهم عن صدر الأُمة الإسلامية.

والشاهد على هذا الأمر أنّه بعد سحق ثورتي المدينة والتوابين في الكوفة، سرت شرارة الثورة إلى مكة المكرمة، فأعلن ابن الزبير الثورة العارمة على الحكومة الأموية، وكذلك أعلن المختار ثورته على الأمويين وأعوانهم في الكوفة، وقد استمدت هذه الثورات دوافعها وقواها من تأثير نهضة كربلاء، وعظيم المصاب الذي جرى يوم عاشوراء على الحسينعليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

موضوعان مهمّان

وفي خضمّ هذه التحولات الكبيرة نرى من جهة أنّ عبدالله بن الزبير استطاع أن يبسط خلافته في مكة ويسيطر على الحجاز وكثير من المناطق المجاورة، ويضيّق الخناق على الحكومة الأموية إلى درجة أنّهم فكّروا في بناء كعبة ثانية في الشام، ليثنوا الناس عن السفر إلى مكة والاتصال بابن الزبير وأعوانه[١].

ومن جهة أُخرى نجد أنّ المختار استطاع أن يهيّيء الأرضية اللازمة في الكوفة للاستيلاء عليها بادّعاء النيابة عن محمد بن الحنفية أخ الإمام الحسينعليه السلام[٢]، وبالتالي إخراج العراق من سيطرة الأمويين وإثارة مشكلات كبيرة لهم ولأعوانهم، وحقق انتصارات عظيمة لصالح أهل البيت ومحبيهم. شرح تلك الانتصارات والتحولات يطول ويخرجنا عن دائرة بحثنا، ولذا نقتصر هنا على ذكر موضوعين مهمين في هذا المجال لمعرفة بعض آثار نهضة الإمام الحسين واستشهادهعليه السلام آنذاك.

الموضوع الأوّل: إنّ الانتصارات التي تحققت للتيّارات المناهضة للحكومة الأموية أدت إلى تكوين حكومات مستقلة في مقابلها، ومع أنّ الانتصارت لم تستطع الدوام والثبات، للظروف القاهرة ووجود بعض العراقيل ونقاط الضعف الميداني، فلم تصل إلى النتيجة النهائية المطلوبة، ولكنها في نفس الوقت أثبتت أنّ

---

١. تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٦١.

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٤٣٤؛ الكامل في التاريخ، ج٤ ،ص ١٧٢.

الحكومة الأموية التي كانت راسخة وثابتة طيلة عشرين سنة من خلافة معاوية بحيث لم تواجه أيّة مشكلة أو اعتراض يُذكر، واستمر ثباتها حتى الأشهر الأُولى من حكومة يزيد التي استطاعت تجهيز جيش كبير من مركز خلافة الإمام عليٍّعليه السلام ـ الكوفة ـ ضد الإمام الحسينعليه السلام والقضاء على ثورته، وقد ابتهجت بذلك النصر وأعلنت الفرح والسرور وحتى أنّها شيّدت عدة مساجد بعنوان الشكر لله عليه[١]، ولكن مع هذه الحال، فإنّ هذه الحكومة بعد نهضة الإمام الحسينعليه السلام ومقتله أصبحت متزلزلة ومبغوضة لدى جميع الناس، حتى باعتراف يزيد نفسه، ولذلك بدأت الاضطرابات والثورات تتلاحق يوماً بعد آخر إلى أن أدت بهذه الحكومة إلى هاوية السقوط والذلة، وكما يقول العقّاد: «... والواقع أنّها قد استتبعت جرائر شتّى لا جريرة واحدة، وما تنقضي جرائرها إلى اليوم...»[٢].

الموضوع الثاني: إنّ الحركات الثورية التي انطلقت،كانت تمتد جذورها إلى نهضة الإمام الحسينعليه السلام واستشهاده، فإنّه أشرنا إلى أنّ ابن الزبير، وهو أحد زعماء الثورات، مع أنّه كان شخصية مؤثرة وكبيرة بين المسلمين، إلّا أنّه كان يعتمد في إثارة عواطف المسلمين ومشاعرهم ضد الأمويين على ثورة الإمام الحسينعليه السلام وقضية استشهاده[٣]، وكذلك كان عبدالله بن حنظلة وسليمان بن صرد الخزاعي والمختار الثقفي وسائر الزعماء الثوريين، الذين بنوا صرح التمرد والثورة في العراق، حيث كانت مقولتهم جميعاً: إنّ قيامنا إنّما هو لطلب الثأر لدم الحسين وتحقيق أهدافه العادلة ضد الحكومة الأموية. والعجب أنّ المسلمين استطاعوا عملياً ـ كما سنراه ـ الانتقام من قاتلي الإمام الحسينعليه السلام بشعارهم الأخّاذ: «يا لثارات الحسين». والخلاصة فإنّ جميع الثورات التي قامت ضد الحكومة الأموية وزلزلت أركانها كانت تسترفد قواها من ثورة الإمام الحسينعليه السلام.

---

١. الكافي، باب مساجد الكوفه، ج ٣، ص ٤٩٠؛ الغارات، ج ١، ص ٣٢٣.

٢. ابو الشهداء، ص ١٧٥.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٦٤؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٩٨.

إذعان عبدالملك

عرفنا أنّ جميع الثورات ضد الحكومة الأموية كانت تقتبس جذوتها من ثورة الإمام الحسينعليه السلام، وأنّ هذه الثورة آخذة بالقضاء على ملك بني أُمية رويداً رويداً، وهذا كان من الوضوح إلى درجة أنّ الأمويين أيضاً كانوا يعترفون بذلك. فمثلاً نجد أنّ عبدالملك بن مروان الذي تسلّم الخلافة في خضم ثورات ابن حنظلة في المدينة، وابن الزبير في مكة، وسليمان والمختار في العراق، ومع شدة عدائه لأهل بيت النبيصلى الله عليه وآله كسائر الأمويين كان يصرّح في كتابه إلى الحجّاج ويقول: «... و جنّبني دماء أهل هذا البيت فإنّي رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لمّا قتلوا الحسين»[١].

أجل، فإنّ عبدالملك رأى كيف أنّ الجماهير المسلمة في كل مكان وبقيادة ابن حنظلة وابن الزبير وسليمان والمختار وابن الأشتر وغيرهم كانوا ينتفضون ضد الحكومة الأموية، يحدوهم عشقهم لأهل البيتعليهم السلام وكراهتهم لبني أُمية، واستعدادهم للتضحية في خط الإمام الحسينعليه السلام. ومن الطبيعي أنّ هذه التحولات كانت درساً وعبرة لعبدالملك بن مروان وأضرابه، بحيث جعلتهم يتظاهرون بالإسلام رغماً عنهم ـ مع فسادهم الباطني ـ ويتزلفون إلى الناس بالحفاظ على الظواهر الإسلامية والاهتمام بحرمة أهل بيت النبيصلى الله عليه وآله ولو ظاهراً، حتى إنّ بعض الأمويين كانوا يلقّبون يزيد بـ(المأفون)[٢]، يعني الأحمق الناقص العقل وأمثال ذلك، كي يقلّلوا من حدة مشاعر المسلمين الثورية، وهذه أيضاً أحد الآثار النفسية والسياسية لنهضة الإمام الحسينعليه السلام واستشهاده، فهي لم تقتصر على توعية المسلمين الثورية فحسب، بل أجبرت أعداء الإسلام أيضاً على التقيد بمظاهر الدين وأحكامه والالتزام بقوانينه وحفظ حرمات أهل البيت ولو ظاهراً وبشكل محدود ولكسب الثوار إليهم أو إسكاتهم.

---

١. العقد الفريد، ج٥، ص١٤٠؛ مروج الذهب، ج٣، ص١٧٠.
٢. العقد الفريد، ج٥، ص١٤١؛ شرح النهج، ج٦، ص١٧؛ النزاع والتخاصم، ص٤١.

الجريمة والعقاب العاجل

وبما أنّ الحديث وصل بنا إلى الثورات المسترفدة من نهضة الحسين عليه السلام، نجد من المناسب الإشارة إلى سعي هذه الثورات إلى الانتقام بشكل غريب من قتلة الإمام الحسين عليه السلام؛ لكي نأخذ العبرة من ذلك، ثمّ نستمرّ في موضوعنا الأساسي.

المختار وأصحابه الذين بدأوا حملة الانتقام من قتلة الحسين عليه السلام، وكانوا يشعرون بالغضب الشديد تجاه الحكومة السفاكة الأموية، تمكنوا بسرعة من جذب الكثير من الشيعة إلى صفوفهم، فساروا بهم في طريق تحقيق أهداف الإمام الحسين عليه السلام والقضاء على أعدائه، وكان خلاصة برامجهم وخطواتهم الثورية هي: «اطلبوا لي قتلة الحسين عليه السلام فإنه لايسوغ لي الطعام والشراب حتى اطهرالأرض منهم»[١].

فقد استطاع هؤلاء وبهذا الشعار من الحصول على تأييد الجماهير المسلمة، والسعي في ملاحقة قتلة الإمام الحسين عليه السلام، والقبض عليهم وإعدامهم واحداً بعد الآخر أو بشكل جماعي، وقد ذكر المؤرخون أنّ المختار قتل في يوم واحد وفي مكان واحد «٢٤٨» نفراً منهم بأشد وأشنع قتلة، ومن الذين قُتلوا (عبيدالله بن زياد) الجلّاد الذي وقع قتيلاً في معركة طاحنة بينه وبين (إبراهيم بن الأشتر) أحد قوّاد المختار، وقد أحرقوا جسده وأرسلوا رأسه إلى المدينة إلى عليّ بن الحسين عليه السلام وأهل البيت[٢]، وبذلك أدخلوا السرور في قلوبهم وقلوب بقية المسلمين.

وهناك ملاحظة لافتة للنظر، وهي أنّ عبيدالله بن زياد الذي كان يمثّل اليد الضاربة والمجرمة لحكومة يزيد، وكان يحكم على عدّة بلدان مهمة من قبيل إيران والعراق وغيرهما بأدوات القوة والإرهاب والبطش، بحيث صار اسمه مخيفاً للناس، أصبح ذليلاً بعد واقعة كربلاء إلى درجة أنّه لم يأمن البقاء في مركز حكومته

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٥٢٩؛ البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠٠.

٢. راجع تاريخ الطبري، ج٤، ص٥٢٤ – ٥٣٦؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢٢٨ – ٢٦١؛ المقتل للخوارزمي، الفصل ١٥.

الكوفة، ولذا اضطرّ إلى الهرب ليلاً من الكوفة إلى الشام خوفاً من أن تناله يد الثورة فيمزّقه الثوّار إرباً إرباً، ولشدة خوفه طلب من حامليه أن يشدوه على بطن الجمل خوفاً من كمائن الثوّار في الطريق وفي كل مكان[١]، وبهذه الحيلة استطاع أن يختفي عن أنظار قوات الثورة التي كانت تبحث عنه وتلاحقه في كل مكان. ولكن عبيدالله الرجس هذا، عاد مرة أُخرى إلى نواحي العراق على رأس جيش أموي كبير يبلغ عدده أكثر من مئة ألف مقاتل من أهل الشام لقمع حركة المختار في العراق، ولكنّه قُتل أخيراً كما ذكرنا بأبشع قتلة، في منطقة الخازر في شمال العراق على ضفاف نهر الخابور في الموصل، في حين لم تمض على فاجعة كربلاء سوى ستة أعوام، وهذا ممّا يثير دهشة الإنسان الباحث، وهو كيف أنّ السنن الإلهية في الانتقام من الظالمين تأخذ بهم سريعاً أو تدريجياً إلى مصيرهم المشؤوم!! فليعتبر أُولو الألباب من هذا ونظائره الكثيرة.

ونلاحظ في تلك الواقعة، التي كانت نموذجاً من ثورات كثيرة واندلعت لطلب الثأر بدم الإمام الحسين عليه السلام، أنّ أكثر من سبعين ألفاً من جيش الشام الأموي المذكور قد قُتلوا فيها[٢]، سوى من غرق منهم حين فرارهم من شدة الخوف والفزع فألقوا بأنفسهم في النهر. من هذا النموذج يظهر أنّ في كافّة تلك الحروب قد قُتل مئات الألوف من أعوان الأمويين وحزبهم، وكما تقدم فإنّ الأمر الأهم من قتل هؤلاء الظالمين هو انتشار حالة الوعي الثوري، وغليان العواطف لدى الجماهير المسلمة ضد حكومة الأمويين الفاسدة والظالمة.

وعلى فرض أنّ الإمام الحسين عليه السلام استطاع أن يحقق النصر الميداني على الحكومة الأموية ويتسلّم الحكومة والخلافة بنفسه، فهل سيكون بإمكانه أن يقوم بمثل هذا التحول النفسي والفكري في روح الأمة الإسلامية وعقلها ضد الظلم والطغيان، ويقضي على هذا العدد الكبير من الظلمة والفسقة وأعوانهم حينذاك؟

١. أخذ الثار، الملحق باللهوف، ص ٢٥.

٢. المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٢٣٣؛ بحارالأنوار، ج ٤٥، ص ٣٨٥.

ثمّ إنّ مقتل الكثير من أعضاء الحزب الأموي لم ينحصر في ميادين القتال، بل إنّ المسلمين أخذوا يتعقبونهم في كل مكان، وكانوا يأخذونهم أخذاً شديداً، وعلى سبيل المثال فإنّ «الشمر» أُلقي عليه القبض وقتله الثوار وعملوا على تقطيع جسده قطعة قطعة، وألقوه للكلاب، وأمّا «عمر بن سعد» فقد قتلوه في بيته وقطعوا رأسه ورؤس أولاده وأرسلوها إلى محمد بن الحنفية في مكة، وأحد المحاربين للإمام الحسين يدعى «بدّي»، وكان جرمه أنّه نزع عمامة الإمام الحسين‌عليه السلام، فأخذوه وقطعوا يديه ورجليه وتركوه على هذه الحال حتى هلك، وهكذا عملوا مع من قطع أصبع الإمام الحسين‌عليه السلام وأخذ خاتمه، وكذلك الحال مع سائر قتلة الإمام الحسين‌عليه السلام، وخاصة مع ستة نفر من الذين هجموا على خيام الإمام الحسين‌عليه السلام ونهبوها، حيث أخذوهم وأحرقوهم أحياء، وكذلك أخذوا العشرة الذين رضّوا صدر الإمام الحسين‌عليه السلام بالخيول بعد استشهاده بأمر عبيدالله وعمر بن سعد، ووضعوهم على الأرض و سمّروا أيديهم وأرجلهم بالمسامير والأوتاد، وسحقوا أبدانهم بحوافر الخيول إلى أن هلكوا[١].

وهكذا لقي أغلب من شارك في قتل الإمام الحسين‌عليه السلام وأصحابه مصيره، ونال جزاءه وعقابه الدنيوي، وجرى عليه كما فعل هو من قتل وحرق وترويع، إلّا من توارى منهم عن الأنظار، واختفى في الأودية والشعاب حتى لقي حتفه.

السنة الإلهية الحتمية

وبشكل عام فإنّ الثورات المطالبة بدم الإمام الحسين‌عليه السلام والثائرة له قد استطاعت تطهير العراق من الجناة والظالمين، ومعاقبتهم بأشد ألوان العقاب، جزاء فعلتهم الشنيعة التي ارتكبوها بحق أهل بيت نبيهم الأخيار الأطهارعليهم السلام. وذلك كقطع الرؤوس، أو الرجم، أو الرمي بالسهام، أو التقطيع، أو الحرق، أو الدفن وهم أحياء، أو سمل العيون وقطع الألسن وقطع الأيدي والأرجل، وفي الحقيقة جرت محاكمات

١. بحارالانوار، ج ٤٥، ص ٣٧٤.

عادلة وُضِعت فيها الموازين بالقسط، وطالت أحكامها كل من أشترك وأعان وأيّد بأي نحو من الأنحاء على حصول فاجعة كربلاء الدموية.[١]، ولم يقتصر الأمر على قتلة الإمام الحسينؑ ومن اشترك ضده في كربلاء، بل طالت العقوبات كل من تكلم ولو بكلمة نابية ضد الإمام الحسينؑ، أو كان متهماً وظُنّ بتأييده للحكومة الأموية، حيث أُلقي عليه القبض ونال أشد العقاب، وقد ورد في الوثائق التاريخية أنّ عدد الذين نالوا جزاءهم جرّاء جرائمهم المنكرة في كربلاء التي هزّت ضمير الإنسانية، كان ما يقارب الثمانية عشر ألف نفر من الذين اشتركوا بشكل مباشر أو غير مباشر في قتل الإمام الحسينؑ[٢]، وهذا أمر يبعث علىٰ الدهشة لم يخطر علىٰ بال أحد، ولم يكن يزيد وعبيدالله وعمر بن سعد والشمر ولا أحد من الأمويين الحمقى والمغرورين أو حزبهم يتوقّعونه أبداً.

وهذه سنّة من السنن الإلهية الحتمية تقوم على أساس أنّ من يكفر بنعمة الله ووجود رجال الله، ويعمل على قتل أبناء الأنبياء وسفك دماء الأولياء، وينصر المنحرفين والظالمين؛ فأنّه ينال عقابه العاجل في هذه الدنيا قبل الآخرة، ويلقى جزاءه العادل على يد أنصار الحق وطلابه، بل وعلى يد أعوانه وأتباعه أحياناً. والإمام الحسينؑ بدوره ذكر للمسلمين آنذاك هذه السنة الحتمية بتعبيرات مختلفة، منها أنّه قال: «... أما والله لو قتلتموني ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم...»[٣].

ولم يقتصر الأمر على تذكير الإمام الحسينؑ بهذه الحقيقة، بل إنّ زيد بن أرقم ذكّر أهل الكوفة بهذه السنة الإلهية وعاقبة مصير المجرمين في الدنيا، وإنّهم سوف يلقون جزاءهم العادل يوماً ما، وقد يكون على يد من أعانوهم ونصروهم، فضلاً عن أولياء الدم والثائرين الذين كانوا يجمعون شتاتهم و ينظمون أمورهم للانتقام من

---

١. بحارالأنوار، ج ٤٥، ص٣٨٦، المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٢١٩.

٢. بحارالأنوار، ج ٤٥، ص٣٨٦.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٤٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٥ و ٧٧.

بني أمية وأعوانهم، فإنّه قال: «قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل فبُعداً لمن رضي بالذل»[١].

وضمناً لابد أن نعلم بأنّ عقاب المجرمين في واقعة كربلاء لم يتحقق على يد الثوّار في الكوفة من أنصار المختار أو غيرهم فحسب، بل إنّ هؤلاء الجناة والمجرمين قد نالهم غضب الله وانتقامه بشكل مباشر أحياناً، فعلى سبيل المثال: إنّ الذي قال للحسينعليه السلام: إنّك لن تذوق الماء حتى ترد الحامية، لعنه الإمام الحسينعليه السلام ودعا عليه، فأصابه العُطاش، فكان كلّما شرب الماء لم يرتوِ حتى إنّه كان يقول: «لقد قتلني الظمأ فأسقوني»[٢] فكانوا يسقونه الماء بكثرة، ولكنّه يصيح العطش، فيسقونه حتى انتفخت بطنه من كثرة الماء، وانفجرت وهلك.

وشخص آخر وهو الذي سلب ثوب الإمام الحسينعليه السلام ابتلي بمرض غريب، فقد كانت يده تتقرّح في الشتاء وتسيل دماً، وأمّا في الصيف فكانت كالخشبة اليابسة[٣]، وبشكل عام كما يقول الزهري: (ما بقى منهم أحدٌ إلّا وعوقب في الدنيا إمّا بالقتل أو العمى أو سواد الوجه أو زوال الملك في مدة يسيرة...)[٤].

وعلى كل حال، فالمسألة الأصلية هنا هي أنّ ثورة الإمام الحسينعليه السلام ومقتله أدّى إلى انتباه ووعي المسلمين، وسيرهم في مسار الدفاع عن الحق ومواجهة قوى الظلم، يعني أنّ الحسينعليه السلام استطاع بنهضته واستشهاده تحريك المسلمين ووضعهم على الخط الإسلامي الصحيح، بحيث إنّ الثورات تلاحقت بعد ذلك واستطاعت بشعارات ثورية – من قبيل (يا لثارات الحسين) – والبيعة والتعاهد على الموت في هذا السبيل، أن تُزلزل الحكومة الأموية، وتُحقق الانتصارات الكبيرة التي أدّت إلى تقوية معنويات المسلمين من جهة، وإضعاف السلطات الحاكمة الظالمة من جهة أُخرى.

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٤٩؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨١.

٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٤٣ و ٣٤٤؛ أخذ الثار الملحق باللهوف.

٣. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٤٥.

٤. تذكرة الخواص، ص ٢٨٠.

الحكومة الأموية التي تزلزلت أركانها تحت الضربات المتلاحقة لهذه الثورات، استخدمت كافة الطرق والوسائل القمعية والمناورات السياسية لإطفاء هذه النائرة والقضاء على هذه الثورات، ولكن قوة اندفاع هذه الثورات الإسلامية، المنبثقة من نهضة الحسينعليه السلام ومأساة كربلاء، كانت من القوة بحيث لم تنفع معها كل تلك الإجراءات المراوغة أو القمعية. وفي هذه الأثناء عمل «عمر بن عبدالعزيز» ـ الذي يعتبر أفضل خليفة أموي ـ على إجراء بعض الإصلاحات الأساسية من قبيل إلغاء لعن الإمام عليّعليه السلام وأهل بيته الذي أوجبه معاوية على المسلمين[1]، بل وفضّل الإمام عليّاًعليه السلام على سائر الخلفاء قبله، وعمل كذلك على إرجاع فدك إلى أهل البيت من ولد فاطمةعليها السلام، فكان أول من أعادها إلى أصحابها الشرعيين منذ اغتصابها في عهد الخليفة الأول، والأهم من ذلك أنّه وجّه سهام النقد والجرح إلى يزيد وأعوانه علانية، ولكن مع كل ذلك فإنّ روح الثورة قد امتدت في أوساط المجتمع الإسلامي بعد حادثة كربلاء إلى درجة لم تنفع معها كل هذه السياسات الخادعة، ولا أساليب القمع الشديدة التي قام بها مسلم بن عقبة والحجّاج وغيرهما. بل برغم الألاعيب السياسية والعسكرية، فإنّ الوعي الثوري كان في تصاعد مستمر بين صفوف المسلمين حتى بلغ في النهاية حد الانفجار وأطاح بالحكومة الأموية الظالمة بأسوأ صورة كما سنشير إليه.

الرأي العام ومصير الشعوب والحكومات

من الضروري هنا الالتفات إلى مسألة هامة، وهي أنّ الرأي العام يعتبر عاملاً مؤثّراً في جميع أبعاد حياة المجتمع، وخاصة على المستوى الثوري واتخاذ القرار السياسي، فإنّ الدليل والتجربة يثبتان أنّ الحركات التي تنسجم مع الرأي العام وتستحصل تأييده فهي حركات لها جذور وأُصول ممتدة في عمق وجدان الأُمة تساعدها على تحقيق انتصاراتها الميدانية، أمّا الحركات والثورات التي لا تتمتع بهذا

١. شرح النهج، ج ٤، ص ٥٩ و ٦٠.

الرصيد الشعبي وتعارض الرأي العام، فهي ثورات منحرفة يمكن أن تخدم فئة أو طبقة معينة، وتحقق أهداف أفراد معدودين وفي أزمنة قصيرة ولكنّها لن تستمر طويلاً أمام التحديات، بل سوف تتزلزل وتنهار؛ ولذلك فإنّ الحكومات الفاسدة والطواغيت بالرغم من امتلاكهم للآلة العسكرية وأدوات ووسائل الضغط بصورة واسعة، إلّا أنّهم أيضاً يهتمون بالرأي العام ويعملون على كسبه إلى جانبهم، ويتحركون على مستوى الامتداد في وجدان الناس بالوسائل الدعائية والإعلامية وقوى التجسس والمنظمات السرية وأمثالها. والعلة الحقيقية في تأسيس مثل هذه المنظمات والتشكيلات الواسعة النطاق هي أنّ الحكومات المتسلطة، تشعر بأنّ نجاحها الحقيقي كامن في السيطرة على عقول وضمائر الناس، لا على أجسادهم فحسب. وبعبارة أُخرى أنّ الحكومات ـ كل الحكومات ـ أدركت أنّ ثباتها واستمرارها لا يتمّ من خلال الانتصار الظاهري فحسب، بل يكمن في الانتصار السياسي والمعنوي والروحي الذي ينفذ في أعماق نفوس الناس ويحرّكهم في ساحة الواقع السياسي نحو الغايات المطلوبة.

والأمر المهم بل الأهم في نهضة الحسين عليه السلام واستشهاده أنّه جذب الرأي العام إليه بشكل عجيب لا نظير له في التاريخ، ومن هذا الطريق استطاع تقوية المناعة الذاتية للمسلمين وتحريكهم ضد الحكومة الطاغوتية. ومن العجيب جدّاً أنّ الجماهير المسلمة رغم أنّها رأت الإمام الحسين عليه السلام واجه تلك المصائب العظيمة، وسُفك دمه الطاهر على أرض كربلاء، وتم القضاء على ثورته المقدّسة، ورأت أيضاً كيف تم القضاء على الثورات والانتفاضات التي أعقبت ثورة الحسين عليه السلام، إلّا أنّها كانت ترى مع ذلك كله عظمة فاجعة كربلاء ونهضة الإمام الحسين عليه السلام، وتستلهم منها الدروس والأفكار الثورية، رغم صعوبة ما يكتنفها من مشاكل وشدائد عظيمة، وكأنّ كل تلك الشدائد والمصائب وأنواع القتل والسجون والتعذيب في هذا السبيل، لم يؤثّر بأدنى أثر سلبي على أصل ثورة الإمام الحسين عليه السلام وعزم أتباعها، بل على العكس من ذلك كانت هذه العوامل سبباً في تنمية روح الثقة لدى المسلمين أكثر،

وفي سريان روح الشجاعة والحمية فيهم أكثر، الأمر الذي جعلهم يزدادون عزماً وتصميماً على مواصلة الثورة، وانتهاج طريق الشهادة.

ويمكن القول بثقة أنّ تاريخ البشر لم يشاهد سوى في واقعة كربلاء تلاحم الجماهير أو الرأي العام ـ بهذا العمق والسعة والدوام ـ مع قائد ثورة كالإمام الحسين عليه السلام، كما لم يشهد مثل هذا التحول الفكري والعملي العجيب الذي جرى وما يزال يجري في ضمير الأمة بسبب نهضته واستشهاده عليه السلام، بحيث جعل الرأي العام يتحرك كحركة التوابين، ويخطو خطواتهم في الانتقام من الظلمة المستبدين مصاصي دماء الشعوب المستضعفة.

وهكذا لاحظنا أنّ الرأي العام كان وسيلة لبنى العباس، وعلى رأسهم السفاح، حينما توسلوا به لاستجلاب واستعطاف وكسب قدرات وإمكانات الجماهير إلى جانبهم في إسقاط حكومة بني أُمية، ذلك أن الرأي العام أخذ يشكل ـ يومذاك وباسم الحسين عليه السلام ونهضته واستشهاده ـ حركة قوية في الشارع الإسلامي المضاد للحكم الأموي، وتياراً عارماً استطاع الانتهازيون والمتطلعون إلى الحكم والسلطان الاستفادة منه في توجيه الضربة النهائية والقاضية إلى الجسد المتضعضع والهيكل الخاوي للحكومة الأموية. كما عملوا على تسخير الرأي العام في مطاردة الأمويين وتدبير المجازر الجماعية لهم، وقتل ما يقرب من الألف منهم وكثيراً من أتباعهم في برهة وجيزة، الأمر الذي أدّى إلى تداعي أركان الحكم الأموي المشؤوم وانهياره إلى الأبد، حيث المصير النهائي الذي لا رجعة فيه.

تشكيكات مضحكة واعتراضات واهية

هذا النموذج والنماذج التي ذكرنا آنفاً والتي لها نظائر كثيرة في التاريخ، تدلّ على أنّ الحسين عليه السلام بتحركه الثوري العظيم استطاع أن يحدث تغييراً كبيراً في قلوب الناس ونفوسهم، بحيث إنّهم كانوا يتوجهون إلى ساحات القتال لمواجهة أعداء الإسلام بشوق بالغ، ويجاهدون إلى آخر قطرة من دمائهم. ومن الطبيعي أنّ

هذه الهداية الثورية العميقة والواسعة جدّاً، والتي استلهمت جذورها من نهضة الإمام الحسين، كانت تعني أنّ حركة الإمام الحسين‌عليه السلام الثورية الدامية ستحقق النصر الحقيقي، بل حققته فعلاً.

ومع هذا الحال فإنّنا نجد بعض التشكيكات المضحكة، والوساوس التافهة، والاعتراضات الواهية للانتهازيين من ذوي الأفق المحدود، حيث يقولون: هل أنّ قيام الحسين‌عليه السلام أدّى إلى تقليل ظلم الظالمين؟ أو هل أدّى إلى ازدياد عدد المسلمين؟ أو هل أدّى إلى ازدياد عزّة أهل بيت النبي‌صلى الله عليه وآله؟ أو هل أدّى إلى ترجمة الشريعة المقدّسة على أرض الواقع العملي؟ بل إنّ بعضاً منهم ذهب إلى أبعد من ذلك، وادّعى أنّ قيام الإمام الحسين‌عليه السلام مضافاً إلى أنّه لم يحقّق أيّة ثمرة مفيدة للإسلام والمسلمين، فقد أدّى إلى تمادي الحكومة الأموية في ظلمها وطيشها، وتوالي المصائب على المجتمع الإسلامي.

وجذور هذه التشكيكات المضحكة والأحكام السقيمة، هي أنّها اعتمدت على ظواهر الأمور والأحداث الموقّتة، ولم تنظر إلى التحولات الأساسية الفكرية في السير الواعي لحركة الأمة، مع أنّ اللازم على الباحث والمحقق الإسلامي الذي يدرس الأحداث التاريخية، وخاصة حادثة كربلاء، أن يدرس معطياتها النفسية وآثارها الروحية على صعيد هداية المسلمين الثورية ضد الحكومات الفاسدة، التي هي عبارة أُخرى عن تجديد الحياة المعنوية للإسلام؛ لكي ندرك كيف سحقت ادعاءات وإعلام حكومة الأمويين وحزبهم؟ وكيف حققت التحول الباطني العظيم للمجتمع الإسلامي، وأنقذته من مستنقع الضلال والظلم وجعلته في خط المواجهة السافرة مع الحكومات الفاسدة. حتى إنّ الآثار الظاهرية التي تحققت على أرض الواقع كانهيار الحكومة الفاسدة الأموية بيد الثوار الحسينيين في النهاية، هي أيضاً نتيجة طبيعية لذلك التغير الروحي العميق في نفوس الناس.

وعلى كل حال، فإنّ الرأي العام الإسلامي قد تغير بشكل مدهش بعد نهضة الإمام الحسين‌عليه السلام ومواجهته الاستبداد والمستبدين ـ وعلى رأسهم الحكومة

والحزب الأموي الحاكم ـ ممّا هيأ الأرضية المساعدة للثورة العامة، حيث بدأ التحول من محيط الفكر ودائرة الاعتقاد والوجدان والدوافع النفسية للناس، وامتد إلى آفاق البلاد الإسلامية الواسعة حتى وصل إلى أبعد المناطق في دائرتها الجغرافية وهي (خراسان)، حيث تكونت هناك مجاميع ثورية بزعامة أبي مسلم الخراساني، وكانت تحت قيادة بني هاشم وعلى الأخص أبي العباس السفّاح الذي نشر راية الثورة العامة بين المسلمين في المدن والأرياف، واستطاع تعبئة جميع القوى الإسلامية لتحقيق أهداف الإمام الحسين عليه السلام والانتقام لدمه الطاهر.

والملاحظة الملفتة للنظر هنا أنّ قادة هذه الثورات كانوا يقولون للناس دائماً ما ملخصه: (أيّها الناس إنّنا نقسم بالله إنّ ثورتنا وقيامنا ليس من أجل التسلط واستلام الحكم، بل مواصلة خط الإمام الحسين عليه السلام وثورته، وإسقاط الحكومة الأموية الطاغية، والثأر لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ولمظلوميتهم)[1].

جانب من الانتقام الدنيوي

وأورد المؤرخون أنّ أفراد الحكومة الأموية والحزب الحاكم الأموي تم القضاء عليهم بأيدي الثوّار الذين بلغ عددهم في ساحات القتال وخلفها بالملايين، وقد استطاع الثوار المسلمون إبادة أكثر عناصر الحزب الأموي وعمّالهم وأتباعهم، وذكر المؤرخون أيضاً نبذة من كيفية قتلهم والقضاء عليهم، وإحدى نماذجها هي أنّ القائد أبا العباس السفاح أمر عمّاله بإقامة مأدبة كبيرة، ونصبوا كراسي الحكومة الأموية المتخذة من الذهب الخالص، ثمّ دعوا كبار الحزب الأموي الحاكم في السابق إلى تلك المأدبة، وأجلسوهم على الكراسي، وأخذ القائد في ذلك المجلس السياسي يحادث الأمويين، وفي هذه الأثناء اندفع الشاعر العباسي (العبدي) وفي خطة مسبقّة، بإلقاء قصيدة في ذكر مثالب بني أمية وفجائعهم وذمهم وتقبيحهم، ومنها أنّه

---

١. شرح النهج، ج٧، ص١٥٤.

قال: «أين الحسين عليه السلام؟» فأجابه كبار من في المجلس قُتل بأيدي الأمويين، ثم قال: «أين عليّ بن الحسين عليه السلام»؟ فأُجيب بنفس الجواب. ثم أخذ الشاعر يسأل عن سائر الشهداء من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله فكان لا يُسمع إلّا ما سُمع من قبل، وظلّ الشاعر يكرر الأسئلة وتتكرر الأجوبة حتى تغير وجه القائد واستولى عليه الغضب، وأمر بقتل جميع هؤلاء المدعوين من الأمويين أو أعوانهم ومؤيّديهم وتمزيقهم في ذلك المجلس، وهكذا حدثت المجزرة حيث قام جلاوزة القائد بتجريد سيوفهم والهجوم على من حضر من الأمويين ـ الذين هم في الحقيقة أرواح شريرة في جسد الإسلام ـ وقتلوهم وقطّعوهم إرباً إرباً على تلك الفرش الفاخرة، ثم فرشوا المائدة على جثثهم الخبيثة ومدّوا الأطعمة على المائدة، بدؤوا بالأكل واستمروا به حتى سكنت وبردت اجساد المجرمين، فقال القائد العباسي حين ذلك: «ما أُبالي متى طرقني الموت وقد قتلت بالحسين ألفاً من بني أُمية»[1].

وهكذا نجد أنّ الجماعات الثورية أو الحسينية في هذه الثورة الشاملة قتلوا من بني أمية ومؤيّديهم أعداداً غفيرة يخطئها الحصر، وقاموا بملاحقتهم تحت كل حجر ومدر والقضاء عليهم وتعذيبهم بأشد أنواع العذاب وقتلهم بأشنع القتل، وبعد ذلك تقطيع أجسادهم ورضّ صدورهم بسنابك الخيول، أو تركهم للكلاب الجائعة، أو إلقائها في النيران المضطرمة، أو رميها في المزابل العامة، وبهذا كله أظهروا رضحة من العدالة العالمية التي هي بمثابة الجنة للمؤمنين والنار للظالمين، ثم إنّ الجموع الثورية لم تكتف بهذا كله، بل بادرت بسبب بغضها الشديد للأمويين الظالمين بنبش قبور أكابرهم كمعاوية ويزيد ومروان وعبدالملك وهشام والوليد وغيرهم من الخلفاء الأمويين وأعوانهم الظالمين، وأحرقوا ما كان بقي من أجسادهم وعظامهم ورفاتهم وهدموا آثارهم وكل ما نسب إليهم [2]، بحيث إنّه ـ كما سنرىٰ في مقولة العقاد ـ ذكر المنكوبون فتكات المختار بالرحمة.

---

١. شرح النهج، ج٧، ص١٣١.
٢. شرح النهج، ج٧، ص١٣١.

عبرة تلفت النّظر

وإحدى العبر التي نستفيدها من مئات العبر والدروس في هذه المتغيرات التاريخية الرهيبة، هي أنّه كان ليزيد ـ مثلاً ـ كما ينقل الطبري[١] اثنا عشر ابناً، وكما ينقل المسعودي صاحب مروج الذهب[٢] ثلاثة عشر ابناً، وبشكل عام فإنّ بني أمية كانوا متنعمين بالمئات والآلاف من الأولاد الذكور مضافاً إلى سلطتهم على جميع الأمور، ولكن بسبب جرائمهم وظلمهم، وخاصة ما ارتكبوه في كربلاء، فإنّ كل هذه النعم والكثرة في الولد والسلطان قد بادت وأصبحت نسياً منسيّاً، وكأنّه لم يكن لهم ولدٌ إطلاقاً، حتى إنّ من بقي منهم وهم الذين اختفوا أو فرّوا فقد أصبحوا منفورين ومبغوضين لدى المسلمين عموماً، بل إنّ المسلمين صاروا يكرهون حتى أسماءهم، ولذلك بدؤوا بحملة تطهير المراكز الإسلامية ـ ومنها دمشق التي كانت عاصمة للأمويين ـ حتى من أسمائهم، وفي النهاية أزالوا سائر آثارهم المشؤومة وما يمتّ إليهم بصلة من جميع البلاد.

ومن جهة أُخرى نلاحظ أنّه وإن لم يبق للحسين‌عليه السلام وهو بقية النبوة الخاتمة ـ بعد واقعة كربلاء ـ سوى ولد مريض مشرف على الموت، وهو الإمام زين‌العابدين‌عليه السلام الذي واجه الموت في كربلاء وفي الكوفة مرات عديدة وتعرض للقتل على يد الشمر مرّة و عبيدالله أُخرى[٣]، إلّا أنّه مع ذلك وبمقتضى الوعد الإلهي بنصرة أهل الحق، فإنّ أولاد الحسين‌عليه السلام، وخاصة من صلب هذا الابن المريض، قد بلغوا مئات الألوف بل ملايين طوال الثلاثة عشر قرناً ونصف القرن، وهم منتشرون في شتى البلدان الإسلامية، كإيران، والعراق، والحجاز، واليمن، ومصر، وسورية، ولبنان، والأردن، والمغرب، و باكستان، و الهند، وسائر أصقاع الأرض، منتشرون كانتشار النجوم في السماء، حيث تضيء هذه الذرية بنورها قلوب المؤمنين، وتسير

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٨٤.
٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ٩٠.
٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٩٣ و ٣٤٧ و ٣٥٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٩ و ٨٢.

بهم وبالناس في خط الحسين ونهضته.

وأحد نماذج الألطاف الإلهية الخاصة بالحسين عليه السلام وتضحيته العظيمة، هي أنّه جعل أئمة الحق من أولاده وذريته، كما ورد في الأحاديث عن طريق السنة والشيعة، وأنّ المصلح العالمي المسمّى بالمهدي أيضاً من ذريته.

ومن الدروس والعبر الأُخرى التي نقتبسها من حوادث القضاء على بني أمية، هو أنّه عندما تم القضاء على بني أميّة وقُطّعوا إرباً إرباً بيد الثوريين الحسينيين بقي منهم ثلّة قليلة، كمروان الحمار آخر خلفائهم وحرمه وبعض أعوانه، حيث هربوا إلى الموصل، وطلبوا اللّجوء من مسلمي تلك المنطقة إلّا أنّ الكراهية الشديدة في قلوب المسلمين ضد الأمويين واستيائهم منهم بلغت إلى درجة أنّ الأهالي لم يوافقوا على طلب لجوئهم، بل سبّوا مروان وقالوا له: يا جعدي يا معطل! الحمدلله الذي أزال سلطانكم...[1].

وهكذا راح الأمويون يلوذون كالفئران الخائفة فراراً من مكان إلى آخر، حتى قال قائلهم وهو عمرو بن معاوية بن عمرو: «وكنت لا آتي مكاناً إلّا عُرفت فيه، فضاقت عليّ الأرض...»[2]. وتفرّق من بقي منهم إلى نواحي مختلفة، ووصل بعضهم إلى الأندلس (إسبانيا)، وتمكنوا من تأسيس دولة لهم هناك دامت عدة قرون. وبعد انهيار دولتهم هناك أيضاً فرّ عدّة منهم إلى سائر ممالك أُوربا، خاصة بريطانية التي كانت حينذاك مكاناً أمناً ـ فانظر في هذا الأمر بالدقة والاعتبار ـ كما أنّ بعضاً من أبناء آبائهم هربوا بعد زوال دولتهم في دمشق إلى مناطق أُخرى مثل ايران، والعراق، والحجاز، ومصر، وغيرها، وكانوا يعيشون فيها مستترين غالباً، وبشكل معلوم أحياناً، حسب ظروف المنطقة والزمان، وقد استمروا في التوالد والتناسل حتى برز بعضهم بمظهر العلم والدين، من قبيل أبي الفرج الأصفهاني وغيره، إذ كانوا في الواقع يمارسون أساليبهم الشيطانية الخبيثة ونفاقهم المتأصل فيهم، إلّا من شذ منهم وقليل

---

١. الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٢٤؛ حوادث سنة ١٣٢ هـ

٢. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤٣١.

ما هم. وكيف كان فقدتم قلع جذورهم تماماً على مستوى الحكومة وتطهير المجتمع الإسلامي من آثارهم المشؤومة وسلطتهم الغاشمة التي دامت ألف شهر كالشبح المظلم في أفق الفكر الإسلامي وحياة المسلمين.

ومن جهة أخرى نجد أيضاً أنّ الأمة الإسلامية قد تحركت في ضوء الأفكار الإصلاحية المنبعثة من نهضة الإمام الحسين، وانتهجت مساراً صحيحاً نسبيّاً، وإن لم يكن إسلامياً تماماً، بل كانت تتخلله بعض الفجائع والجرائم بيد العباسيين ـ التي لم تكن أحياناً أقل من فجائع الأمويين ـ ولكنّها في المجموع كانت أفضل من زمان الحكومة الأموية، لأنّه لم تحدث فيه فاجعة قتل أهل بيت النبي وسبي بناته أو الإغارة على المدينة أو الهجوم على مكة وهدم بيت الله الحرام، كما حدث في عهد يزيد، ولم يتعرض الإسلام للسخرية والاستهزاء كما حدث في عهد يزيد وبعض خلفاء بني أمية، بل مضافاً إلى ذلك أنّه تحقّق للإسلام تقدّم كبير على جميع المستويات والأبعاد السياسية والاجتماعية والثقافية.

انفراج في الحياة الإسلامية

لو أردنا أن نمثّل للتقدم الباهر الذي حصل في العصر العباسي، والانفراج الذي حدث في الحياة الإسلامية، لوجدنا شواخص كثيرة، منها أنّ مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي يمثّل في الحقيقة الإسلام الصحيح، والذي كان مختنقاً في زمن الحكومة الأموية، قد وجد متنفساً في هذا العصر، وازداد تألّقه إلى درجة أنّ المسلمين كانوا يأتون إلى الإمام الصادق عليه السلام ويجلسون في مجالس درسه بحريّة كاملة، وكذلك يحضرون دروس سائر ذرية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، في حين لم يكن هؤلاء يمتلكون الجرأة على ذلك في زمن بني أمية، بل إنّ كثيراً منهم لم يكونوا يعرفون أنّ أهل هذا البيت هم أئمتهم وقادتهم في الدين، بل وأكثر من هذا فقد كانوا مجبرين على سبّهم وشتمهم ولعنهم، مستلهمين ذلك من وعاظ السلاطين من أنصار الحكومة الأموية والعلماء الفاسدين وأهل الدنيا الذين كانوا طبعاً أداة طيعة لها.

وكما رأينا في الفصل الثاني فقد وضعوا آلاف الأحاديث المزوّرة على لسان أبي هريرة وأمثاله لتبرير أعمال الحكام الفاسدة[١]، وفي مقابل ذلك لا نجد سوى أحاديث معدودة للإمامين الحسن والحسينعليهما السلام وسائر أهل بيت النبيصلى الله عليه وآله، مع أنّ الإمامين الحسن والحسينعليهما السلام كانا من الشخصيات الإسلامية والعلمية البارزة في ذلك الوقت وموضع احترام جميع المسلمين، وقد بقوا في أوساط المسلمين عشرات السنين، إلّا أنّنا بمقارنة سريعة ندرك جيّداً كيف أنّ روحانية الإسلام وعظمته قد سحقت بواسطة الحكومة الأموية الخبيثة المعادية لأهل البيت وعن طريق وعّاظها ومرتزقتها كأبي هريرة وأمثاله، وكيف أنّه تم إحياؤها على أيدي الثوّار الحسينيين وبانقلاب الأُمور وتبدّل الأوضاع بعد حادثة عاشوراء، وقد رأينا أنّ من ثمار هذه الحادثة اتّساع دائرة الفكر الإسلامي الأصيل، وترسيخ القيم المعنوية يوماً بعد آخر.

ومن هنا تتضح لنا حقيقة هامة، وهي أنّ رسوخ الإسلام وحفظ كيانه بل تألّق الفقه الإسلامي ومعارف المذهب الشيعي مدين لكربلاء واستشهاد الإمام الحسينعليه السلام أيضاً. فلولا دم الحسينعليه السلام الطاهر والأعزّة من أهل بيته، لم يبق أثر من آثار أهل بيت النبوة، لأنّه وكما يظهر من الدلائل التاريخية أنّ الإسلام وخاصة الإسلام الأصيل وهو من أهل البيت، كان ـ في الواقع ـ يتجه نحو الاضمحلال والزوال تحت وطأة الكابوس المظلم لحكومة بني أُمية وقدراتها المتزايدة.

البعض يتصور أنّ السفّاح وبشكل عام بني العباس، اتخذوا من الإمام الحسينعليه السلام ونهضة كربلاء وسيلة لتحقيق مآربهم ومقاصدهم الدنيوية، وعملوا على إثارة المسلمين والطلب بثأر الحسينعليه السلام ضد بني أمية لهذا الغرض، وطبيعيٌّ أنّ تلك المتغيرات التاريخية كانت ضمناً أرضية مناسبة ومساعدة على تقدم الإسلام الفكري والحضاري الذي أشير إليه آنفاً.

ومع أنّ هذا التصور له نسبة من الحقيقة، ولكن المسألة الأساسية هي أنّ جميع

---

١. شرح النهج، ج٤، ص٦٣ وما بعده، وج ٢٠، ص ٢٤ وما بعده و...؛ أضواء على السنة المحمدية، ص٢٠٤.

المسلمين بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام ومنهم بنو العباس، قد امتلكتهم حالة الانتفاضة العارمة ضد الحكومة والحزب الأموي الحاكم، والملفت للنظر أنّ بني العباس في ثورتهم كانوا يعتمدون على ثورة الإمام الحسين عليه السلام في جميع أدوار حركتهم، بل إنّهم حتى بعد انتصارهم وسحقهم للحكومة الأموية أظهروا الفرح لتمكنهم من الانتقام للإمام الحسين وتحقيق أهداف ثورته المقدّسة ولو نسبيّاً، كما رأينا آنفاً.

كانت الثورة ثورة الأمّة

وأساساً فإنّ بني العباس أو الحركات الثورية الأُخر لا يمكنها أن تُحقّق شيئاً من أهدافها إلّا بعد أن تتهيأ الأرضية المساعدة للثورة في المجتمع الإسلامي، وبديهيٌّ أنّ هذه الأرضية المساعدة للثورة لم تكن سوى نهضة سيد الشهداء واستشهاده الذي كان يمثّل أكبر نقطة عطف حضاري في العالم الإسلامي وفي الأُمّة الإسلامية آنذاك، ويعدّ منشأً لتحول فكري وعاطفي بشكل عام، خاصة ضد الحكومة والحزب الأموي الحاكم، فاستطاع بنوا العباس أن يشيّدوا بهذا الرصيد الثوري أركان حكومتهم على حساب اهتزاز المواقع الأموية، وإلّا فلو لم تكن هذه الأرضية المساعدة في الأُمّة، المستقاة من نهضة كربلاء المقدّسة، فإنّ بني العباس لم يكن باستطاعتهم إطلاقاً التحرّش بعامل من عمال الأمويين في المناطق النائية، فكيف الأمر باسقاط إمبراطوريتهم وقلعها وتدميرها وتمزيقها؟!

أجل، فإنّ الثورة العظيمة التي حطمت النظام الأموي المتسلط بشكل كامل لم تكن ـ في الحقيقة ـ ثورة بني العباس أو ثورة أبي مسلم الخرساني أو غيرهما، بل هي ثورة الأُمة الإسلامية في سيرها الواعي ضد قوى الانحراف، والمنطلقة أساساً من الغيظ الكامن في النفوس بعد فاجعة كربلاء الحسين عليه السلام ونهضته، وقد رأينا أنّ يزيد ذكر هذا المعنى حتى في بداية الأمر وقال ما مضمونه: إنّ عبيدالله بن زياد بقتله الحسين جعلني وبني أمية ممقوتين لدى عامة المسلمين «... وزرع لي في قلوبهم

العداوة، فبغضني البرّ والفاجر...»[١]، ورأينا أنّ الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان أيضاً اعترف بأنّ المنشأ لكل الثورات المتلاحقة هو كربلاء بالذات، ولهذا أوصى عمّاله بأن لا يتعرضوا لأهل البيت عليهم السلام، لأنّه لمس بوضوحٍ الآثار السلبية المترتبة على ذلك[٢].

أهمّ عامل لسقوط الحكومات

لقد صرّح المحققون الإسلاميون ـ كما سنرى نموذجين من كلامهم ـ بأنّ العلة الأساسية لإسقاط الحكومة الأموية كانت واقعة كربلاء وقتل الإمام الحسين عليه السلام التي حرّكت الواقع الإسلامي ضد قوى الباطل، وهذه الحقيقة التاريخية ليست لها شواهد تاريخية ـ التي أُشير إلى بعضها آنفاً ـ فحسب، بل يمكن إثباتها أيضاً من خلال الفلسفة الاجتماعية التي تتحدث عن السنة الإلهية الحتمية في هذا المجال، وأنّ جذور كل انحطاط وخاصة سقوط الحكومات، هي الأساليب الظالمة لرجال الحكم، حيث يترتب على ذلك عدم رضا الناس وتدريجياً تنبت بذور الثورة وتبدأ بالنمو والتفاعل إلى أن تطوي باندفاعها العارم صفحة حكم الظلم الأسود وتطرحه في مزبلة التاريخ، ولهذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله في كلامه القيّم المعروف: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم»[٣].

ويقول الإمام عليّ عليه السلام في كلماته الحكميّة: «قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودعها(أودع فيها ـ من عدلٍ أو جورٍ ـ) وجده»[٤]. وهذا يعني أنّ حكام الجور الذين يعتدون على حقوق الآخرين إنّما يحفرون قبورهم بأيديهم؛ لأنّهم يجعلون أنفسهم في معرض العدوان فيهيّؤون في الحقيقة الأرضية لسقوطهم وسقوط حكمهم،

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٣٨٩؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٨٧.
٢. العقد الفريد، ج ٥، ص ١٤٠؛ مروج الذهب، ج ٣، ص ١٧٠.
٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٣١؛ الأمالي للمفيد، ص ٣١٠.
٤. شرح نهج، ج ١١، ص ٩٤؛ عيون الحكم والمواعظ، ص ٣٧٠.

وبشكل عام فإنّ واقع الأمر هو أنّ كل إنسان يظلم الآخرين ففي الحقيقة قد ظلم نفسه لا الآخرين.

والسبب في أنّ الحكّام الفاسدين والظالمين غفلوا عن هذا القانون الواضح والمحسوس، هو أنّ الظلم يؤدّي إلى الظُلمة فيحجب الظالمين عن إدراك الواقع والحقيقة، بل يذهب بهم إلى الطغيان والعداء المستمر، ولهذا لا يرى الظالمون السنن والحقائق الإلهية أو لا يريدون رؤيتها، وأنّ الظلم يؤدّي إلى تعاطف الناس مع المظلومين ويتزايد هذا الإحساس حتى يحرق الظالمين ويهلك الحكومات الظالمة.

وعلى كل حال، فإنّ أهم عامل لسقوط الحكام والحكومات هو الظلم، وبديهيٌّ أنّ أكبر وأبشع ظلم ارتكبه الأُمويون ـ كما يعترف بذلك الموافق والمخالف ـ هو ظلمهم للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله في كربلاء، حيث بلغت فداحته وفجيعته وبشاعته إلى درجة أنّ جميع المسلمين صدموا من ذلك، وانتابتهم حالة الغضب، ولذلك تصدى الكثير منهم للحكومة الأموية بكل إمكاناتهم، وفجّروا الثورات والانتفاضات المتعددة ضد الأمويين وحزبهم، وبرغم أنّ الحكومة الأموية واجهت هذه الانتفاضات الإسلامية في المدينة ومكة والكوفة وسائر المناطق الإسلامية بمنطق الشدة والبطش، كما سلكت مع الإمام الحسين عليه السلام، فأوجدت بذلك فجائع أُخرى مضافاً إلى فاجعة كربلاء، ولكن الفجائع الأُخرى-أولاً لا تقاس بفاجعة كربلاء أبداً، وثانياً إنّها تشعّبت منها، فهي في الحقيقة جزء منها، والجزء مهما تعاظم فالكل يبقى أعظم منه، اذ هي قبس من نار... أو جذوة من بركان... أو ومضة من وهج، أي لولا نهضة الإمام الحسين عليه السلام وفاجعة كربلاء فإنّ هذه الانتفاضات والثورات المتلاحقة لم تكن لتوجد، وبذلك ندرك جيّداً أنّ حادثة كربلاء استوعبت في أعماقها جميع النهضات والثورات اللاحقة، وكما يقول المحققون أمثال العقّاد: إنّها[1] متولدة منها.

١. ابوالشهداء، ص ١٨١.

إيران أكبر بؤرة للحركات ضد الأمويين

جدير بالذكر أنّ مركز أكثر الانتفاضات الإسلامية ضد الأمويين خاصة في مرحلة تكاملها كانت منطقة خراسان في شرق إيران الإسلامية، من هناك قام أتباع أهل البيت عليهم السلام ـ الشيعة ـ بتحرك كبير ومستمر منذ بداية انبثاق الانتفاضات ضد الحكومة الأموية، وعملوا على ترسيخ عوامل الثورة ونشر ثقافة الرفض للظلم والجور في أوساط الحواضر الإسلامية، وتعدّ هذه أيضاً إحدى مفاخر الشعب الإيراني المسلم، حيث استطاع أن يرفع راية الثورة الإسلامية في كل مكان بالرغم من شدة بطش الحكومة الأموية الظالمة، وأن يعبىء جميع الإمكانات المؤثّرة لدى الشعوب الإسلامية ضد الأمويين، وبالتالي توّج هذا الشعب كفاحه مع سائر المسلمين بقلع جذور هذه الحكومة الجائرة ودكّ بنيانها من أساسه.

وأساساً فإنّ أحد خصائص الشعب الإيراني أنّه كان منذ الصدر الأول للإسلام محباً للإمام عليّ وأهل بيته عليهم السلام، ومناهضاً للحكومة الأموية، وكان حبهم وبغضهم في هذا المجال عميقاً إلى درجة أنّه عندما قام (يحيى بن زيد) الشهيد حفيد الإمام الحسين عليه السلام بانتفاضته ضد الأمويين في خراسان واستشهد على أثرها؛ فإنّ الناس في تلك المناطق، ولاحترامهم العميق ليحيى الشهيد، سمّوا أبناءهم الذين وُلدوا في تلك السنة جميعاً باسم (يحيى)، ومضافاً إلى ذلك فإنّ الأغلال الحديدية التي كانت في السجن على يحيى قطّعوها قطعة قطعة، وصنعوا من هذه القطع الحديدية خواتيم كثيرة ولبسوها في أيديهم للتبرك والاعتزاز[1]. ويحدّثنا التاريخ أنّ الكثير من أنصار المختار الثقفي في الكوفة كانوا من الموالي والإيرانيين من المحبين لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وكان لهم دور مهم في هذه الثورة، ونقل بعض المؤرخين أنّ ثلثي جيش المختار الذي استطاع دحر جيش الشام الكبير بقيادة عبيدالله بن زياد كانوا من الإيرانيين[2].

---

١. مقاتل الطالبيين، ص١٠٥.

٢. الأخبار الطوال للدينوري، ص٢٨٨؛ بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٣٤.

وطبيعي فإنّ أحد أسباب عشق الإيرانيين وحبهم لأهل البيت يتمثّل في (سلمان الفارسي حاكم المدائن)، هذا الشيخ الروحاني الكبير والرجل الإلهي العظيم الذي استطاع بأنفاسه القدسية، خاصة طيلة ولايته على المدائن، أن يجذب الإيرانيين نحو أهل البيت(عليهم السلام)، وهذا بنفسه فصل مهم من تاريخ الإسلام يستحق الدراسة لدور سلمان في نشر التشيع خاصة عند الإيرانيين.

ومع أنّ محبي أهل البيت(عليهم السلام) منتشرون في سائر البلدان الإسلامية أيضاً من قبيل: الحجاز و اليمن و العراق و سورية و مصر و شمال إفريقية وشبه القارّة الهندية وغير ذلك، ولكنّ النقطة المهمة هنا هي أنّ الإيرانيين كانوا أكثر تأثيراً من الآخرين في الدفاع عن أهل البيت(عليهم السلام) والاهتمام بالتصدي للظلم والدفاع عن الحق، ولذلك وجدناهم يتفاعلون أكثر من الآخرين في سبيل تحقيق الأهداف الحسينية وقمع الحكومة الظالمة الأموية؛ حيث إنّهم وقفوا بقوة وحماس إلى جانب المختار والسفاح وأبي مسلم وأمثالهم، وبالتالي كان الإيرانيون أسبق من سائر المسلمين في اتخاذ المذهب الشيعي، الذي يمثّل خط الإمام الحسين الشهيد(عليه السلام)، كمذهب رسميٍّ لهم، وبنوا معارفهم الإسلامية على هذه القاعدة العلوية والحسينية، الخالصة من الشوائب ومن انحرافات المنافقين أو الانتهازيين أو المدّعين ما ليس لهم، أمثال: معاوية وأبي هريرة وغيرهم.

العقاد والعلّامة الطباطبائي

إتضح ممّا سبق بيانه أنّ الإمام الحسين(عليه السلام) استطاع أن يوقظ المسلمين من خلال تضحياته وجهاده العظيم، ويجعلهم يتحركون في خط الدفاع عن الحق ومصالح الإسلام ضد الحكومات الظالمة كالحكومة الأموية، وبذلك استطاع زلزلة عروشهم وإسقاطهم في النهاية وإنقاذ الصرح الإسلامي من خطر السحق والفناء، ومن أجل مزيد التوضيح لهذه الحقائق التاريخية المهمة نجد من المناسب ملاحظة أقوال وآراء بعض كبار العلماء أيضاً، ولرعاية الاختصار نكتفي بحديثين عن عالمين

كبيرين، أحدهما العلّامة الشيعي (الطباطبائي) صاحب الميزان في تفسير القرآن، والآخر المحقق والكاتب السني (العقّاد).

يقول العقاد: «... وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بني أُمية، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه في دولة بني العباس ... فعمّوا بنقمتهم الأحياء والموتى، وهدموا الدور، ونبشوا القبور، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبي عبيد، وتجاوز الثار كل مدى خطر على بال هاشم وأُمية يوم مصرع الحسين، لقد كانت ضربة كربلاء وضربة المدينة وضربة البيت الحرام، أقوى ضربات أُمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين ... فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشيء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم، ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة حتى ذهبوا بها مضروبين إلى آخر الزمان.

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء ... فاذا بالدولة العريضة تذهب في عمر رجل واحد مديد الأيام، وإذا بالغالب في يوم كربلاء أخسر من المغلوب إذا وضعت الأعمار المنزوعة في الكفتين...»[١].

ويقول أيضاً: «وانهزم الحسين في كربلاء وأُصيب هو وذووه من بعده، ولكنّه ترك الدعوة التي قام بها مُلك العباسيين والفاطميين وتعلّل بها أُناس من الأيوبيين والعثمانيين، واستظل بها الملوك والأُمراء بين العرب والفرس والهنود، ومثّل للناس في حلّة من النور تخشع لها الأبصار .. وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الإنسان غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي ولا قديم ولا حديث...»[٢].

أمّا العلّامة الطباطبائي فيتحدث عن قيام واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأثره في الانتصار النهائي للإسلام ويقول:

«إنّ الإمام الحسين عليه السلام كان قد عزم على عدم البيعة ليزيد مع علمه بأنّه سوف يُقتل، وسوف تتمكن القوات الأموية الرهيبة والتي يساندها على المستوى السياسي

---

١. ابو الشهداء، ص١٨١.
٢. ابو الشهداء، ص١٩٤.

والاجتماعي الانحطاط الثقافي والاستلاب النفسي للمسلمين وخاصة أهل العراق، تتمكن من سحق ثورته ميدانياً بكل سهولة ويسر، وقد أقدم بعض معارفه وأصدقائه على تحذيره من الخطر الكائن وراء هذا التحرك، ولكنّ الإمام قال في مقام الجواب: بأنّي لا أبايع هذه الحكومة الجائرة، بلغ ما بلغ، وأعلم بأنّي مقتول أينما توجهت وحيثما كنت، وإنّي مغادر هذا البيت (مكة) لكيلا تهتك حرمته بقتلي».

ويقول بعد صفحتين: «لقد عملت واقعة كربلاء ومسألة الأسرى من أهل بيت النبوة، والخطب التي أُلقيت من قِبَل زينب بنت أميرالمؤمنين والإمام زين‌العابدين في الكوفة والشام، على تعرية الواقع الداخلي لبني أُمية، وأحبطت فاعلية الإعلام الأموي في سنوات متمادية من حكومة معاوية، ووصل الأمر إلى أن يتبرّأ يزيد من عمل أزلامه وقواته أمام الملأ، وهكذا كانت واقعة كربلاء عاملاً مؤثراً في تقوية المدّ الشيعي وإسقاط الحكومة الأموية ولو بعد حين»[١].

وقد أكّد العلّامة الطباطبائي أيضاً في كتابه الآخر على هذا الأمر بأن قال: (الإسلام حيٌّ من جرّاء هذه الواقعة التاريخية، ولولا هذه الحادثة الدامية فإنّ بني أُمية لم يبقوا للإسلام اسماً ولا رسماً)[٢].

وهناك كلمات مماثلة في الكتب والمصادر الإسلامية المهمة للمحققين الإسلاميين، كما نرى في كتاب: (نهضة الحسين) للشهرستاني ص ١ و ١١٥، و(جنة المأوى) لكاشف الغطاء ص٢٠٧ و ٢٤٥، و(لواعج الأشجان) للأمين العاملي، و(البحار) للمجلسي ج ٤٥، ص٩٩، و(الغدير) للأميني الجزء٣، ص ٢٦٣، وتفسير (في ظلال القرآن) لسيّد قطب ذيل الآية ٥١، من سورة غافر، و(نظرية الإمامة) للدكتور محمود صبحي ص٣٣٤، و(الإمام الحسين) للعلائلي ص ٣٤٧، وكثير من الكتب المهمة لعلماء الشيعة والسنة.

---

١. الشيعة في الإسلام، ص ١٣٤ـ١٣٦.
٢. العقائد، ج٤، ص٥٣ـ٥٤.

هدف أم نتيجة؟

تعرضنا في هذا الفصل بشكل موجز لبعض الأبعاد والنتائج العملية لنهضة الإمام الحسينعليه السلام، وهنا ومن أجل استكمال هذا البحث، حريّ بنا أن نرى هل أنّ النتائج الباهرة لنهضة الإمام الحسينعليه السلام كانت هي الهدف وأنّها تمت على اطلاع مسبق عليها، أو كما يقول البعض إنّها كانت أثراً ونتيجة لها فقط من دون اطلاع مسبق عليها، وإنّها حدثت بشكل طبيعي ولم تكن هي الهدف؟

وقبل الدخول في هذا البحث يجب توضيح المراد من الأثر والهدف لكي نرى كيف أنّ الأثر يتحد مع الهدف؟

(الأثر) أو النتيجة هو الشيء الذي يتبع عمل الإنسان أو غير الإنسان طبيعيّاً، مثلاً أثر زراعة النواة في الأرض هو أنّها تتجذر وتنمو وتنبت فيما لو كانت الظروف مناسبة للنمو حتى تصبح شجرة قوية وكبيرة، فالأثر يعني النتيجة الطبيعية للعمل، سواء علم الإنسان بذلك أم لا. ولكنّ الهدف لا يكون إلّا بعد أن يكون الإنسان عالماً ومريداً لهذا العمل ويكون له دافع نفسي يحرّكه في سبيل تحقيقه، من قبيل أن يزرع النواة لتكون شجرة كبيرة حتى يستفيد مثلاً من خشبها أو أوراقها أو ثمارها، فالهدف يعني الأثر المطلوب للإنسان من عمله.

بعد هذه المقدمة نقول: يجب علينا لإدراك أنّ النتائج العظيمة والآثار الباهرة لنهضة الإمام الحسينعليه السلام كانت هدفاً له، أن نثبت أولاً: إنّ الإمامعليه السلام كان يعلم بالآثار الإيجابية لحركته العظيمة، وثانياً: كان يريدها ويقصدها، ومن أجل إثبات هذين الأمرين يمكننا الاستدلال على ذلك بدليلين:

الدليل الأول: الأخبار والتنبّؤات القطعية للإمام الحسينعليه السلام الواردة في الكتب المعتبرة للسنة والشيعة، وقد رأينا بعضها في الفصل الثالث، من قبيل: أنّهعليه السلام كان يتنبّأ لقاتليه أنّهم سوف يلاقون أبشع المصير، وسوف يكونون أذلّاء، ويُقتلون أشنع قتلة، ولم يخبرهم الإمام الحسينعليه السلام بذلك في يوم عاشوراء فحسب، بل صرّح بذلك وهو في مكة، وقال: «وايم الله ليقتلونني فيلبسهم الله ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً

ويُسلّط عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ»[١].

الدليل الثاني: الذي يعتبر أهم من الدليل الأوّل، هو أنّ الحسينعليه السلام كان يعلم قطعاً بأنّ نهضته ضد الحكومة الفاسدة ليزيد كانت على الحق وبدافع من المسؤولية الأساسية، وقد صرّح الإمام في خطبه وأحاديثه الثورية بأنّ هذه المسؤولية الأساسية لا تقتصر عليه، بل يجب على كل مسلم التصدي والنهوض ضد الظلم والظالم، ومع الالتفات إلى أنّ الإمام الحسينعليه السلام كان يرى أنّ حركته على الحق، وقد أكّد على ذلك كثيراً وأكد أيضاً على أنّه مسؤولية مهمة على المسلمين، فيجب القول: إنّ الحسينعليه السلام كان يعلم أيضاً بانتصاره الحقيقي في هذه الانتفاضة والثورة؛ لأنّه كان يعلم ـ كما هو الحال في جميع رجال الله ـ بهذه الحقيقة، بل يراها ويلمسها، وهي أنّ الحق سوف ينتصر في النهاية، ليس في العالم الآخر فحسب، بل في الدنيا أيضاً، كما سيهزم الباطل في الدنيا أيضاً ولو بعد حين، والقرآن الكريم الذي هو يزخر بهذه المفاهيم والتعاليم الخالدة، أكّد كثيراً على هذه السنة الإلهية الحتمية، وقال: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[٢].

ويقول تعالى أيضاً: ﴿لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنّهم لهم المنصورون وأنّ جندنا لهم الغالبون﴾[٣].

ويقول تعالى أيضاً: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾[٤].

ماذا تريد أن تقول هذه الآيات الصريحة والقاطعة؟

إنّ هذه الآيات الكريمة التي هي المعين والمركز لعقيدة الحسينيين تقول: إنّ الله تبارك وتعالى سوف ينصر أصحاب الحق في هذه الدنيا، ومن الواضح أنّ البشارة

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٩٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص٣٩؛ اللهوف، ص٤٤.

٢. سورة غافر، الآية ٥١.

٣. سورة الصافات، الآية ١٧٣ ـ ١٧١.

٤. سورة المائدة، الآية ٥٦.

بانتصار رجال الحق في هذه الدنيا ليس بمعنى أنّهم سوف ينتصرون في حياتهم؛ لأنّنا نعلم بأنّ الكثير منهم لم يوفّقوا لالحاق الهزيمة بالأعداء، بل إنّ الكثير منهم قُتلوا أثناء الصراع، فلذلك يجب القول: بأنّ هذه البشارة المذكورة تعني أنّ رجال الحق منتصرون، سواء أكان النصر ميدانياً ومعجلاً أم معنوياً ومؤجلاً، أي على مستوى تحقيق الأهداف ولو بعد التراجع أو الاستشهاد، وإلّا فكيف نفسّر الآيات المذكورة بالنسبة إلى كثير من الموارد التي كسب فيها أصحاب الباطل والمبطلون الجولة الأُولى وقتلوا رجال الحق؟ وبعبارة أُخرى لو لم تصل الحركات الإصلاحية الإلهية لرجال الحق إلى مقاصدها الرفيعة وأهدافها السامية، ولم يتحقق نصرها على الأعداء مطلقاً، بل يُقضى على الإصلاح ويُقتل رجاله ويتم كل شيء لأعدائهم، فإنّه لا يبقى بعد ذلك وجهٌ وجيهٌ لهذه الآيات الكريمة التي تؤكّد مقولة انتصار الحق وأتباعه في الحياة الدنيا أيضاً.

الضمان الإلهي

والخلاصة أنّ الآيات المذكورة تخبر عن ضمان إلهي بأنّ الحق منتصر على الباطل في جميع موارده، ولهذا الضمان الإلهي اندفع رجال الحق في طريق الإصلاح والثورات المقدّسة باطمئنان وعزم كامل، حتى اشتروا الشهادة واستقبلوها برحابة صدر، وما أكثر من تحقق لهم النصر الحقيقي عن طريق الاستشهاد، ولذلك السبب نرى ـ مثلاً ـ أنّ إبراهيم عليه السلام وقف أمام قومه ومجتمعه المنحرف لوحده، واستقبل كل الأخطار المتوقعة ومنها خطر الحرق بالنار بكل صلابة واعتزاز، أو مثل موسى عليه السلام الذي وقف لوحده ضد حكومة فرعون الطاغوتية وجبروته وقوته العسكرية العظيمة، وكذلك المستضعفون الذين التحقوا به بعد بدء دعوته كسحرة فرعون وزوجته، فإنّهم أيضاً لم يخافوا القتل ولم يرهبوا الطاغوت مطلقاً، بل استقبلوا الشهادة في هذا الطريق بكل اطمئنان وشهامة، أو مثل نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأصحابه المعدودين المخلصين الذين لم يهنوا أمام التحديات ولم ينكلوا أمام

العقبات، بل تصدوا للأعداء المحيطين بهم من كل جانب، ودافعوا عن الدعوة المقدّسة بإرادة فولاذية وعزم قاهر، وتحملوا أنواع الشدائد والبلايا والأخطار في هذا السبيل.

الوجه المشترك لهذه النماذج ونظائرها الكثيرة في التاريخ، هو أنّ رجال الحق يعلمون منذ البداية أنّ النصر سيكون من نصيبهم، حتى لو لم يكن لهم عُدّة وعدد وتشكيلات منظّمة وأموال ومناصب وقوى عسكرية في مقابل الأعداء الذين يملكون كل شيء، فإنّ رجال الحق يرون بنور إيمانهم أنّهم لو عملوا بوظيفتهم المقدّسة ضد الفساد والظلم، واستُشهدوا في هذا السبيل، فإنّ تأثير هذا العمل سيمتد نافذاً في قلوب الناس الطالبين للحق وأهله والمتصدين للباطل وأهله باقتضاء فطرتهم، وأنّهم سيستلهمون من هذه النهضة الثورية عزماً جديداً ودافعاً قوياً ضد أهل الباطل، وسوف يتصدون لهم ويرغمونهم على الهزيمة والتراجع، ويحققون أهداف الشهداء حتى بعد شهادتهم، بل بواسطة شهادتهم، كما حصل ذلك في مورد يحيى وعيسى، ـ الذي ظنّو صلبه وقتله ـ حيث إنّ شريعتهم المقدّسة (الإنسانية والإلهية) انتشرت في جميع الآفاق بالرغم من أنّ الأعداء تمكنوا من القضاء عليهما.

ومع الالتفات إلى هذه السنّة الحتمية يتبين لنا بأنّ من يقول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام قام بالثورة لإحساسه بوجوبها وضرورتها دون أن يعلم بأنّ النصر سيكون حليفه. فإنّ هؤلاء يوجّهون ضربة كبيرة لساحته المقدّسة، وفي الحقيقة فإنّهم يظهرون بذلك دليلاً على غفلتهم أو جهالتهم. والواقع فإنّه لو لم نقل إنّ الإمام عنده علم خاص، فلا أقل من القول بأنّ الإمام ـ بل بشكل عام كل فرد مؤمن ـ له معرفة بمفاهيم الآيات القرآنية المذكورة آنفاً وله معرفة بالسير الطبيعي للتاريخ – مع أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد عرف حقائق القرآن عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ فيدرك بل يلمس هذه الحقيقة وهي أنّ النصر حليف أهل الحق في هذه الدنيا عاجلاً أم آجلاً، وهذه العقيدة يشترك فيها جميع المؤمنين، فإنّه لا يعقل عندهم مطلقاً أن ينتصر الطواغيت كيزيد وأصحابه بجناياتهم وشراستهم وفسادهم، وتكتب الهزيمة للحسين عليه السلام أو من يحذو

حذوه، والحسين عليه السلام هو رجل الحق وابن رسول الله صلى الله عليه وآله، والحسين عليه السلام هو نموذج الشرف والفضيلة والإنسانية، فهو وكذا سائر المؤمنين يعلمون يقيناً أنّ هذا المعنى لا ينسجم مع السنة العالمية والوجدان الإنساني والأحداث التاريخية والإرادة الإلهية حتماً.

هي رزية في نفس الوقت

وهنا تُطرح تساؤلات وهي: إذا كان النصر حليف الحسين عليه السلام، وأنّه حقّق تلك الآثار الإيجابية العظيمة التي كانت من أهدافه، فلماذا نعتبر قتل الحسين رزيّة عظيمه؟ ولماذا نعتبر حادثة كربلاء فاجعة أليمة؟ ولماذا نقيم العزاء ومجالس النياحة عليه كل عام وفي كل مكان؟ ولماذا نلعن قتلة الحسين عليه السلام والمسبّبين لهذه الفاجعة؟ مع أنّه ينبغي إظهار السرور والفرح لهذا النصر العظيم، ولكنّنا نرى أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان يرى في قتل أبيه الحسين عليه السلام مصيبة عظيمة، فيقول لأهل المدينة: «... **أيّها القوم إنّ الله، وله الحمد، ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة. قُتل أبو عبدالله وعترته، وسُبي نساءه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية...**»[1].

في الجواب ينبغي القول: بأنّ حادثة كربلاء، وقتل سيد الشهداء لها أبعادٌ مختلفة في التأثير على المسلمين ، بعضها إيجابي مطلوب، والبعض الآخر سلبيٌّ وباعثٌ على الحزن والمصيبة فهو غير مطلوب ظاهراً. وأساساً فإنّ أكثر أو كل الأحداث العالمية لها جهات إيجابية وأُخرى سلبية، وحادثة كربلاء ونهضة الإمام الحسين عليه السلام أيضاً من هذا القبيل، فهي وإن تمّ فيها سفك دماء أشرف الناس على يد شرار الناس، وهذه مصيبة عظيمة جدّاً، وهي جانبها السلبي، ولكنّها في نفس الوقت ـ مع اعتراف جميع المحققين ـ أثبتت بأتم صورة عملية وأنفذها، بأنّ الإيمان ليس هو العقيدة المحنّطة في القلب، بل هو ضرورة حضارية تحوّل الفكر إلى ممارسة الدفاع عن

---

١. اللهوف، ص١١٧.

كيان الإسلام والمسلمين، والإمام الحسين عليه السلام قد وُفّق من طريق نهضته الثورية الخالدة لأن يعبّئ كثيراً من المسلمين، ويدفعهم ضد الحكومة الفاسدة الأموية إلى أن دمّروها في النهاية. وبهذا فقد أنقذ الإمام الإسلام في الحقيقة، وهذا فخر عظيم جدّاً، وهو لا ينافي أصلاً مصيبة فقدانه، خاصة مع ما ارتكبته القوى الطاغوتية من الجنايات بحقه وبحق أهله وأصحابه جميعاً؛ لأنّ هذا الافتخار هو أحد أبعاد ثورة سيد الشهداء، وأما استشهاده في سبيل الحق والتصدّي لقوى الباطل، ومصائبه ومصائب أهل بيته المؤلمة على هذا الطريق، تمثّل بعداً آخر منها.

ونحن نرى في بعض حروب وغزوات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع أنّه كان مسروراً بالنصر الذي حققه المسلمون على الأعداء، إلّا أنه كان حزيناً أيضاً على استشهاد بعض المؤمنين فيها، والملفت للنظر أنّ الانتهازيين في ذلك الوقت لم يعترضوا على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولم يقولوا له: لماذا تحزن على استشهاد هؤلاء مع أنّك مسرور بالنتائج العظيمة في انتصار المسلمين على الأعداء المتحققة بسبب استشهادهم، مضافاً إلى أنّ للشهداء أجراً عظيماً في الآخرة. فالانتهازيون والمنافقون أيضاً كانوا يعلمون أنّ السرور بالنصر لا يتنافى مع الحزن والتأثر العاطفي بسبب استشهاد بعض المسلمين.

والسرّ في أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام شرح في خطابه إلى أهل المدينة فصولاً من مصيبة كربلاء وفاجعة عاشوراء، هو أنّه كان يستهدف من ذلك تحريك عواطف المسلمين أكثر فأكثر ضد الحكومة الأموية، بل إنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان يبتغي من وراء سياسته ـ وهي ذكر جرائم أعداء الإسلام وفجائعهم التي ارتكبوها، وبيان المظلومية الشديدة لسيد الشهداء وأصحابه بأشد صورة ـ تحريك دوافع الثورة ضد الظالمين في نفوس الناس، وتهييج الروح الإنسانية والشهامة فيهم، فأهل البيت عليهم السلام كانوا يعلمون بأنّهم لو ركّزوا، في تلك الظروف الحساسة والمواتية للثورة على التقدير الإلهي لقتل الحسين عليه السلام، والثمرات المعنوية التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام عليّ عليه السلام، لما أثّر ذلك في قلوب الناس، ولا أنتج تلك الآثار

الإيجابية العظيمة، بل ولقيل لهم: بأنّ الأعداء أمضوا ـ في الحقيقة ـ التقدير الإلهي في قتل الإمام الحسين عليه السلام، وأنّه عليه السلام نال مقاماً شامخاً في استشهاده بأيديهم، وحقق مصالح الإسلام العليا، ولذلك فلا موجب للعنهم أو التحرك ضدهم، بل ربّما يُصار إلى تمجيدهم، وهذا يؤثر طبعاً في دعم حالة الاسترخاء الفكري والتقاعس العملي عن مواصلة الجهاد.

والملفت للنظر أنّ الإمام زين‌العابدين لم يكتف بشرحه لجوانب من مصيبة واقعة كربلاء، بل كان يفتخر أمام المنافقين والمخالفين والشامتين بها ويقول: «وكفى بذلك فخراً»[1]، أي أنّ ما وقع علينا في كربلاء هو أكبر فخرنا، وهكذا نجد أنّ زينب الرمز الشامخ الثاني لحادثة كربلاء، مع أنّها كانت مركز المصائب المتوالية الرهيبة، تقف أمام يزيد وعسكره وتقول بكل افتخارٍ: «إنّي ما رأيت إلّا جميلاً»[2]، وكذلك نجد الإمام الصادق عليه السلام يقول في زيارة الأربعين وعيد الفطر: «... وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة...»[3]، يعني أنّ الحسين عليه السلام قام بإرادة واشتياق في سبيل الحق والتصدي للظلم؛ ليكون مصباحاً لهداية الناس، وسفينة لنجاتهم.

وكذلك نجد لكبار علماء الإسلام أقوالاً في ذلك، أمثال السيد ابن طاووس الذي يقول: «ولولا امتثال أمر السنة والكتاب في لبس شعار الجزع والمصاب، لأجل ما طُمس من أعلام الهداية، وأُسّس من أركان الغواية، وتأسّفاً على ما فاتنا من السعادة، وتلهّفاً على أمثال تلك الشهادة، لكنّا قد لبسنا لتلك النعمة الكبرى أثواب المسرّة والبشرى»[4]، وذلك لأنّ استشهاد هذه الثلّة الطاهرة في المقايسة بسائر الحوادث الإسلامية، وتضحيات رجال الإسلام، كان في الحقيقة أكثر فائدة لهم وللمصالح العالية للإسلام، وأكثر ضرراً وصدمة لموقعية أعداء الإسلام، وكما يقول العلّامة الطباطبائي في كلامه المذكور آنفاً عن نهضة عاشوراء: «إنّ كربلاء الحسين عليه السلام وأهل

---

١. الاحتجاج، ج ٢، ص ٣٢.
٢. المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٤٢؛ اللهوف، ص ٩٤.
٣. زيارت الأربعين وعيد الفطر في كتب الأدعية.
٤. اللهوف، ص ٢٠.

بيته دفعت شرّ المخالفين عن صرح الإسلام وبالتالي ضمنت الحياة للإسلام».

أجل، هذه هي مقولة كل عالم منصف: بأنّه ما دام دم الحسين عليه السلام يغلي في صدور المسلمين ويغلي دائماً؛ وما دامت شمس كربلاء تُضيء دائرة الفكر الإسلامي وتُضيء دائماً؛ وما دامت تضحيات سيدالشهداء وأصحابه الأعزّاء في مقابل القوى الفاسدة والمحاربة للإسلام والعدالة تعتبر نبراساً حضاريّاً في أُفق الحياة البشرية وتعتبر دائماً، فلا يمكن مطلقاً أن يتجمّد الإسلام في حركته التاريخية الأصيلة، ولا يمكن لقوى الشر والفساد أن تتسلط على المسلمين على الدوام، بل إنّ سلطتهم الظاهرية أيضاً سوف تعيش الاهتزاز والارتباك في ساحة الواقع العملي بوجود منهج الحسين الدامي والبنّاء في أساس صرح الحضارة الإنسانية الإسلامية والهداية الثورية.



الفصل الخامس

مدرسة الحسين عليه السلام

قلنا في بداية الفصل الرابع: إنّ انتصار نهضة الإمام الحسين‰ الدامية، له بعدان: عملي، وعلمي. فالبعد العملي لنهضة الحسين، وخاصة في تلك المرحلة التاريخية أنّها حرّكت في المسلمين دوافع الثورة ضد الحكومة الفاسدة لبني أمية، ونتجت عن ذلك ثورات وانتفاضات متلاحقة ضدهم، ممّا أدّى إلى تزلزل سلطانهم وعرشهم، وبالتالي إلى سقوط نظامهم وإنقاذ الإسلام من الخطر الحتمي الناشىء من أهدافهم الفاسدة وسوء سياستهم.

وأمّا البعد العلمي الذي هو أهم بكثير من البعد العملي، بل يعتبر منشأً له، فهو أنّ الحسين‰ أقام مدرسة ثورية فكرية عظيمة في الحضارة الإسلامية وفي طول التاريخ، وأبرز الإسلام الحقيقي في بعده الحضاري من خلال التضحيات في سبيل الحق والعدالة ومواجهة عوامل الظلم والفساد؛ وبهذا صار قدوةً وأُسوةً خالدة للمسلمين، بل للبشرية الحرة قاطبة.

وفي الفصل السابق تمت الإشارة إلى الآثار العملية لنهضة الحسين‰، وفي هذا الفصل نشير إلى بعض الجوانب العلمية لها، ومع أنّ بعض الجوانب العلمية قد أُشير إليها في ضمن المطالب السابقة، إلّا أنّنا سنكرس الحديث في هذا الفصل عن الجانب العلمي بصورة أساسية أكثر عمقاً، وفي الواقع فإنّ هذا الفصل إضافة

تكميلية لهذا الكتاب وبمعنىً آخر: إنّه جوهر الكتاب بما سيتميّز به من أبحاث تخصّصية، فلهذا سعينا أكثر إلى بيانه بشكل مبسّط إن شاء الله.

الخطر الأصلي للحكومة الأموية

من أجل شرح وبيان الجوانب العلمية لنهضة الحسين عليه السلام، يجب أن نرى في البداية ما هو الخطر الأصلي في الحكومة الأموية الذي دعا الحسين عليه السلام إلى التصدي له والوقوف ضده؟

يقول بعض المحققين: إنّ الخطر الأصلي المحيط بالحكومة الأموية هو أنّها كانت تستهدف إحياء الأساليب والمناهج المنحطة للروم والفرس، وبالتالي جرّ المجتمع الإسلامي نحو هاوية الفساد والانحطاط. ويقول البعض الآخر: إنّ الخطر الأصلي هو أنّ الأمويين كانوا يهدفون إلى بعث عادات الجاهلية، من قبيل تفضيل العرب على غير العرب وقريش على غير قريش والأمويين على غيرهم، وبالتالي سحق حقوق الآخرين. ويرى آخرون أنّ الخطر الأصلي يتمثّل في تلك الفجائع العظيمة التي ارتكبها بنو أمية في حق المسلمين المخلصين ورجال الحق، وخاصة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وأتباعهم، فجرحوا بذلك عواطف المسلمين وأدموا قلوبهم. وطبيعيٌّ أنّ هذه النظريات المتقاربة وأشباهها صحيحة إلى حدٍّ ما، ولكن الحق أنّ الخطر الأصلي للحكومة الأموية هو أعظم من ذلك بكثير.

الخطر الأصلي للحكومة الأموية كان عبارة عن أنّ الأمويين كانوا مع عظيم ظلمهم وجناياتهم وانحرافهم عن الدين، بل وتصريح بعضهم بما يدلّ على كفرهم، كانوا يجلسون على كرسي الخلافة الإسلامية، ويستندون إلى مسند الإسلام، وفي الغالب كانوا يتذرعون تارة بخلافتهم عن الله تعالى ونيابتهم عن نبيه الكريم ويتذرعون أُخرى بالقرآن، والسنّة، والعدالة، والفضيلة وهدفهم ـ في الحقيقة ـ هو نسخ الإسلام، بل أسوأ من ذلك وهو مسخه حسب ما تقتضيه مصالحهم، فلم يكتفوا بالمقولة الخاطئة وهي: (فصل الدين عن السياسة)، بل راحوا يتمسكون بالمقولة

الأشنع منها وهي: (الدين وسيلة للسياسة)، وبعبارة أُخرى فإنّ الخطر الأول لبني أمية لم يكن يتمثّل في تسلطهم على رقاب المسلمين؛ وحكمهم بالعسف والجور، بل الخطر الأساس في تقنّعهم بقناع الخلافة الإسلامية المقدسة، وتترّسهم خلف متراس النيابة عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وبالرغم من فسادهم وضلالهم وكفرهم في الحقيقة، كانوا يصلّون بالناس صلاة الجماعة والجمعة، ويفتونهم ويفسرون القرآن ولو بلسان علمائهم المرتزقة، ويعلّمون الناس تعاليم الدين، لكن لا الدين الحقيقي، بل الدين الذي يخدم حكومتهم الفاسدة، ويحقق مصالحها الخاصة، ولهذا وضعوا كمّاً هائلاً من الروايات والأحاديث في هذا السبيل، خاصة لتقديس بني أمية ومعاوية وبعض الصحابة المؤيّدين له، ولعن الإمام عليّ عليه السلام وبعض الصحابة والتابعين المخلصين له، ونشروها بين المسلمين. والأشنع من ذلك كله أنّهم كانوا يُقلّبون حقائق الإسلام وأحكامه في كثير من الموارد الأساسية، خاصة في موارد الحكومة والقيادة والخلافة ومسؤولية المسلمين في مقابل الحكام ومسؤولية الحكام في مقابل المسلمين، فكانت كل هذه التحريفات والتغييرات العميقة والواسعة للمفاهيم الإسلامية أدّت بالطبع إلى زلزلة صرح الإسلام، وإرباك الفكر الإسلامي، وهذا هو أعظم الخطر الذي لولا قيام الحسين عليه السلام لقادوا المقدسات الإسلامية والقيم السماوية إلى حافّة السقوط والاندثار، أو على الأقل لتمّ إفراغها من محتواها الإنساني والإلهي العظيم، وتحويلها إلى أداة وآلة بيد الظالمين والحكام الجائرين.

وإحدى النماذج لآلاف الروايات الموضوعة من قبل الحكومة الأموية، التي كان خطرها أكثر بكثير من فجائع القتل وألوان الظلم، هي هذه الرواية: **«قال عرفجة: سمعت رسول الله يقول: إنّه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأُمّة فاضربوه بالسيف كائناً من كان»**[1].

ونموذج آخر للروايات الكثيرة الموضوعة بأيدي العلماء المرتزقة للحكومة

---

١. صحيح مسلم، ج٦، ص٢٢؛ المستدرك للحاكم، ج٢، ص١٥٦؛ الغدير، ج١٠، ص٢٧.

الأموية هو: «من كره من أميره شيئاً فليصبر؛ فإنّ من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية»[١].

والهدف الرئيس من هذه الروايات الموضوعة ونظائرها الكثيرة، تحقيق أمرين خطيرين يهدّدان أساس الإسلام وحقيقته:

الأمر الأول: إنكار ضرورة العدالة، وإثبات حرية التصرف المطلق لأولي الأمر من الطواغيت والمتسلطين على رقاب المسلمين.

الأمر الثاني: الذي يعدّ لازماً للأمر الأول هو أنّها تحذّر المسلمين من القيام بمسؤولياتهم الاجتماعية، وتجعلهم أذلّاء خانعين للظلم واضطهاد المتسلطين عليهم حتى لو كانوا منحرفين، وتلك مصيبة عظيمة بل هي طامة كبرىٰ.

ثورة الحسين عليه السلام تنسف هذه النوايا

والكارثة أنّ هذه الروايات الموضوعة لتحريف حقائق الإسلام لم تكن عملاً جانبيّاً ثانوياً للحكام الأمويين؛ بل تشكّل محور سياساتهم، وكما يقول ابن أبي الحديد[٢] وسائر المحققين الإسلاميين: إنّهم كانوا يضعون آلاف الأحاديث الزائفة، وخاصة في الجهة المضادة لمدرسة الإمام عليّ، وأجبروا جميع المسلمين على شتمه ولعنه، وعملوا على بثّها في الوسط الإسلامي عن طريق آلاف علماء السوء ووعاظ السلاطين وفي آلاف المساجد ومن على جميع منابر الجمعة والجماعة؛ لإرباك الذهنية المسلمة وغسل أدمغة الناس، والأخطر من هذا أن الحكومة الأموية الخبيثة كانت تتصدى بكل شدة وشراسة لكل تحرّك يستهدف إحياء الإسلام الحقيقي المتمثّل في مدرسة الإمام علي عليه السلام وتحريك الواقع ضد قوى الباطل، بمختلف أنواع الضغط والإرهاب والكبت والخداع، بذريعة أنّه عمل غير قانوني، بل غير شرعي.

---

١. صحيح البخاري، ج٨، ص ١٧٧؛ صحيح مسلم، ج ٦، ص ٢١.

٢. شرح النهج، ج ٤، ص١٥٦؛ الغدير، ج ٢، ص ١٠٢.

وأحد الشواهد على هذه الحقيقة الخطيرة هو أنّنا نرى ـ وبدهشة ـ أنّ شخصية عظيمة كالإمام الحسين عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة، والذي قرب عمره الشريف من الستين، وهو بعد كان شخصية علميةً ودينية مقدّسة عند الجميع، إلّا أنّه لم يرد عنه في المدونات الحديثية سوى روايات قليلة جدّاً، وكما يقول بعض المحققين: إنّ الصحيحة منها لم تتجاوز عدد الأصابع[1]، ولكنّنا في المقابل نجد أنّ الروايات الصادرة عن الوضاعين، كأبي هريرة الذي منعه عمر بن الخطاب من التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال عنه الإمام علي عليه السلام: ما أحد أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله من أبي هريرةالدوسي، كما رأينا في الفصل الثاني ـ ومع ذلك يُؤيد ويُدعم من جانب الأمويين وحكومتهم، ـ فقد بلغت رواياته (٥٣٧٤) حديثاً[2] على قول بعض.

هذه الإحصاءات المثيرة تدلّ على أنّ الحكومة الأموية كانت تهدف إلى تحريف الثقافة الإسلامية وبالتالي المجتمع الإسلامي، ومن هذا الطريق كانت تعمل في الحقيقة على الإجهاز على فكره الحضاري، ودفعه نحو هاوية السقوط والاضمحلال، وخاصة أنّهم كانوا من جانب آخر يقفون أمام كل عمل إصلاحي،

---

١. في المسند الجامع، جمع وترتيب الدكتور بشار عواد معروف ورفاقه، وقد جمع فيه الكتب الستة (صحيحي البخاري ومسلم وسنن ابن ماجه وأبي داود والترمذي والنسائي) مع مؤلفاتهم الأُخر وموطأ مالك، ومسانيد الحُميدي وأحمد بن حنبل وعبد بن حُميد، وسنن الدارمي، وصحيح ابن خزيمة، في جميع هذه الصحاح والمسانيد والسنن التي بلغت (٢١) كتاباً، فقد أخرجوا جميعاً للإمام الحسين عليه السلام (٩) تسعة أحاديث فقط.

أما أبو هريرة فقد بلغت أحاديثه في المقابل (٢٧٤٠) حديثاً، وهو الذي أسلم سنة (٧) للهجرة في معركة خيبر أو بعدها، والحسين هو الذي تربىٰ في حجر النبي صلى الله عليه وآله، ونشأ وترعرع في ظلّ عليٍّ اميرالمومنين عليه السلام الّذي هو باب مدينة علم النبيّ صلى الله عليه وآله، فانظر بعين البصيرة، وحكّم الوجدان، وأنصف لو حكمت أيّها الحكم فى مادبرو عمل حكومة الأمويين المتوحشين ـ أغصان الشجرة الملعونة في القرآن ـ ضد أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله حتى لسحق تعليماتهم الإسلامية ومنع الناس من أخذها ونشرها

٢. لعل هذا الكم من الأحاديث أخرجه الحافظ ابن كثير الدمشقي في جامع المسانيد والسنن وهو أشمل من المسند الجامع، وفي المقابل فقد أخرج للإمام الحسين عليه السلام (٣٣) حديثاً فقط. وراجع الأعلام للزركلي، ج٣، ص٣٠٨.

ولو على مستوى الوعظ والإرشاد وبيان أحكام الإسلام من قِبل رجال الحق، وإحدى الأدلة الواضحة على هذا كله، بل على أكثر منه، أنّهم أجبروا المسلمين على لعن الإمام عليّ عليه السلام ومدرسته وأحبائه وأهله وهو أخو رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وخليفته بل نفسه كما يقول القرآن الكريم[1].

وبديهيٌّ أنّه في ظل هذه الظروف الحالكة، كان تحرك الإمام الحسين عليه السلام ضد الحكومة الأموية الفاسدة والمنحرفة يعتبر أفضل وسيلة، بل يعتبر الوسيلة الوحيدة لخلاص الإسلام وإنقاذه من الخطر؛ لأنّ هذا التحرك العظيم هو الذي فضح السلطة الحاكمة، وطبعها بطابع الجريمة والظلم والانحراف والعدوان بكل وضوح، ومن الطبيعي حينئذ أن يتبين بطلان جميع أحاديثهم وثقافتهم التي كانوا يلقّنونها المسلمين ويظهرونها بمظهر إسلامي وتحت راية: قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وفي الحقيقة، ذلك التحول والتحرك هو الذي جعل من الأمويين ثلّة ممقوتة رغم وجودهم على كرسي الحكم وإمساكهم بأسباب القوّة.

وكيف كان، فكربلاء الحسين عليه السلام أحدثت تحوّلاً ثورياً في أفكار المسلمين وحياتهم، أكثر بكثير من آلاف الروايات، وآلاف المبلغين والوعاظ، وآلاف الكتب والرسائل في هذا المجال، كربلاء الحسين عليه السلام بيّنت حقيقة الإسلام على أرض الواقع العملي وعلى مدى التاريخ، وهو التضحية في سبيل الحق والعدالة، والوقوف والتصدي للمنحرفين الظالمين والحكومات الفاسدة، وعلّمت المسلمين الأُسس الثورية والإنسانية للإسلام وربّتهم تربية سليمة، بل سماوية، حتى أنتجت منهم أبطالاً مستميتين على مر التاريخ ضد القوى الظالمة، وللدفاع عن مصالح الإسلام والمسلمين، ولا أقل من أنّهم بسببها أدحضوا مقولة أنّ هؤلاء الحكام الظالمين هم اولوا الأمر، بل أصبح هؤلاء مرفوضين وملعونين في جميع الحواضر الإسلامية.

وإنّ التحقيق في مسلسل الثورات في تاريخ الإسلام يؤيّد هذه الحقيقة، وهي أنّها استلهمت دروسها ومبادئها من مدرسة الإمام الحسين عليه السلام، ويمكن للباحثين

---

١. راجع سورة آل عمران، الآية ٦١.

العثور على شواهد كثيرة لها في المصادر التاريخية الإسلامية المعتبرة، من قبيل (مقاتل الطالبيين) و(الحسينيون في التاريخ) و(قيام السادات العَلويين) وغيرها، والأمر المهم الذي ينبغي الإشارة إليه هنا، أن نرى ما هو الدرس الذي استفاده المسلمون من مدرسة عاشوراء الحسين عليه السلام الذي حوّل المسلمين وأعدّ الأرضية لتلك الثورات ضد الحكومات الفاسدة الظالمة؟

الدرس الحسيني:

إنّ الدرس الأساس لمدرسة الإمام الحسين عليه السلام، هو درس الإسلام الحقيقي الذي يهدي الناس عملياً إلى طريق الله تعالى، ويحرّرهم من قيود الدنيا والمادة، ويجعلهم حماة للحق والعدالة، وأعداء للحكومات الظالمة والجائرة السائرة على نهج حكومة بني أُمية، وتظهر أهمية هذا الدرس أكثر بملاحظة أنّ الحكام الأمويين قد جعلوا الناس بواسطة الروايات الكثيرة الموضوعة ـ كالروايتين السابقتين ـ يعتقدون أنّ حكام الجور هم أولي الأمر، وأنّ التصدي لهم والقيام ضدهم يقع في دائرة المنع والحظر الشرعي، ولكنّ الإمام الحسين عليه السلام بنهضته العظيمة واستشهاده الدامي أحبط كل هذه الشبهات المذلّة والمضادة للإسلام، وشطب عليها نهائياً، ليس بخط القلم على صفحات الورق فحسب، بل بالدم على صفحات القلوب المؤمنة، وأوضح لهم عملياً أنّ التصدي لحكّام الجور مضافاً إلى أنّه لا يعتبر ذنباً ومعصية، يكون من علائم الإيمان ومن أسباب السعادة الخالدة. وأنّ الذنب الحقيقي هو ترك مواجهة الباطل والتصدي للحكّام الظالمين، الأمر الذي يجعل الإنسان شريكاً في جرائمهم، فيخسر في الدنيا ويشقى في الآخرة، وهذه الحقيقة المهمة المنبعثة من نهضة الإمام الحسين عليه السلام نجدها واضحة المعالم في كثير من خطب وكلمات الإمام الحسين عليه السلام، وخاصة ما صدر منها خلال نهضته لهداية الناس وتهييج المسلمين ضد الحكومة الفاسدة الأموية وأشباهها، حيث يقول مثلاً: «ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة

ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً»[1].

ونجد هذا المعنى في بيانات الإمام عليّ عليه السلام أيضاً، حيث يقول لتشجيع المؤمنين ضد معاوية وسائر الجائرين في إحدى كلماته البليغة والرائعة جدّاً في تصوير هذا المعنى: «الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»[2].

الحياة والعدالة تستوعبان كل شيء

إنّ لكل مدرسة محوراً أصلياً تدور عليه مسائلها الاعتقادية والاجتماعية والسياسية وغيرها وإنّ القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام تمثل في الواقع المحور الأصلي لمدرسة الإسلام الحقيقي، والقاعدة المعرفية لكثير من المسائل المهمة في دائرة الفكر الحضاري، من قبيل حقيقة الحياة والموت، وارتباطهما بالعدالة والظلم، والعلاقة بين المصالح الفردية والاجتماعية، ومنشأ الذلة والشقاء، وطريق التعالي والتكامل، ونظرة الإسلام حول الحكومات والحكام، ومسؤولية المسلمين في قبالهم، وغير ذلك من الموضوعات الأساسية، ومن هنا سوف نجعل من كلمات الإمام الحسين وأبيه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام المذكورة آنفاً محوراً لدراسة هذه المطالب؛ ونسعى لشرحها في ضوء حديثيهما مع بعض كلماتهما، وبعض الأحاديث والآيات الكريمة التي تناسب المقام، وكما سنستعين خلال البيان ببعض المصطلحات العلمية المعاصرة والتي هي في الحقيقة مرآة لبيان المسائل بنحو أسهل وأتم، وإن لم تكن رائجة في تلك الأزمنة.

وكما ذكرنا فإنّ كلمات الإمام علي والحسين عليهما السلام المذكورة آنفاً تحوي موضوعات مهمة ومسائل دقيقة ومحورية، ولكننا هنا نبحث في موضوعين منها، هما أهم من غيرهما ولهما ارتباط أكثر بالحركة الثورية للإمام الحسين عليه السلام وسائر الحركات الثورية.

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٥؛ تحف العقول، ص٢٤٥.

٢. شرح النهج، ج٣، ص٢٤٤.

الموضوع الأول: هو أنّ الحياة والموت الإنسانيين يتفرعان عن العدالة والظلم، بمعنى أنّ الحياة الإنسانية والمراحل التكاملية لها ـ التي تسمى بالسعادة ـ تتجلى في العدالة؛ وأنّ الموت وعواقبه الوخيمة ـ التي تسمى بالشقاوة ـ تتمثّل في الظلم.

الموضوع الثاني: هو أنّ مسألة العدالة والظلم ليست محدودة بحدٍّ، بل هي مطلقة تشمل جميع الأُمور الفردية والاجتماعية. ومن هذا فإنّ مسؤولية الإنسان التي تبتني على مسألة العدالة والظلم تتوسع من كل جانب، بحيث تجري في كل قضية من القضايا وبشكل مناسب ومؤثر لها.

وهذان الموضوعان الأساسيان يوضّحان فلسفة جديدة في الحقيقة للحياة والموت،والعدل والظلم، والعلاقة الإيجابية والسلبية بين كل منها،وهي بحاجةإلى بحث واسع ومتشعب،ولكن رعاية للاختصارنكتفي بدراستها بشكل موجز وعاجل.

ولتوضيح الموضوع الأول يجب علينا ابتداءً أن نعلم بأنّ الحياة ـ وعلى خلاف التصور السائد بين الناس ـ لا تختص بالكائنات الحية ظاهراً، بل تعم جميع الموجودات حتى الجمادات منها، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿وإن من شيءٍ إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[1] أي أنّ كل حي وغير حي ظاهراً فهو حيّ واقعاً ومسبّحٌ له، وإن لم يفقه الناس تسبيحهم ولا حياتهم، وفي المعارف الفلسفية أيضاً ثبت أنّ لكل موجود حياة، بل بنظرة أدق كل موجود عين الحياة، ومن ذلك يتضح أيضاً أنّ الموت لا يعني الفناء، بل هو نوعٌ من التوقف الظاهري المتزامن مع تحول واقعي على أثر اختلال الوضع الطبيعي الحالي، والباعث على الانتقال من مرحلة من الحياة إلى مرحلة أُخرى منها، سواءٌ كانت المرحلة الأُخرى أسمى وأعلى من المرحلة الأُولى أو أدنى منها، والخلاصة أنّ الحياة والموت نافذان في كل شيءٍ من عالم الوجود ويشملانه بنسبة مراتبه العالية أو الدانية.

---

١. سورة الاسراء، الآية ٤٤.

من هنا يتبيّن أنّ العدالة أيضاً، التي تبتني عليها حياة كل شيءٍ كما سنراه ـ وعلى خلاف التصور السائد بين الناس ـ لا تنحصر في دائرة معينة، وكذلك الظلم في مقابل العدالة أيضاً لا ينحصر في دائرة خاصة، بل لكل منهما مساحة غير محدودة. وأساساً فإنّ معنى الظلم هو سوء الأثر أو قلة الأثر أو انعدامه، فهو كالموت من جهة أنّه اختلالٌ للوضع الطبيعي والحالي، سواء كان الاختلال بصورة اختيارية أو غير اختيارية، والقرآن يوضّح هذه الحقيقة أيضاً في قوله الحكيم: ﴿كلتا الجنتين آتت أُكُلها ولم تظلم منه شيئا﴾[1].

يفهم من هذه الآية الشريفة أنّ الخروج عن المسار الطبيعي، المتزامن مع قلة الأثر فضلاً عن انعدامه، ظلمٌ ومنشأ للانحطاط والموت أو ملازم له، ومن جهة أُخرى فإنّ الحركة في المسار الطبيعي عدالة وتبعث روح الحياة وتجعلها مزدهرة، والخلاصة فإنّ العدالة والظلم هما كالحياة والموت يستوعبان جميع الأشياء، وجميع الموارد.

وليس البحث هنا حول المحتوى الطبيعي لمسألة الحياة والموت، ففي هذا المجال ذكر علماء الفن أُموراً مفيدة حصلوا عليها غالباً من طريق التجارب المختلفة، غاية الأمر أنّ هذه الأُمور مرتبطة بظاهر الحياة والموت لا حقيقتهما، ومن أجل أن ندرك حقيقة الحياة والموت بالحدّ الممكن، يجب أن نستخدم المنظار العقلي والعرفاني، وفي نفس الوقت نستعين بالتجارب المادية وغير المادية.

ونظرة رجال الله العرفاء، أمثال الإمامين عليّ والحسين عليهما السلام، بالنسبة إلى الحياة والموت تؤخذ أيضاً ـ في الحقيقة ـ من منظارٍ عقلي وعرفاني، وهي تعتمد عندهم على المعارف الإيمانية والتعليمات القرآنية. وكما رأينا أنّ نظرتهما إلى الحياة هي أنّها تتحقق في إطار العدالة، وأنّ الموت يتسبب من الظلم أو عدم العدالة (بمفهومه الكلّي الذي ذكرناه آنفاً)، وطبيعي أنّ هذه النظرة تؤيدها التجارب أيضاً التي تقول: إنّ حياة كل موجود تكمن في مراعاة قوانين العدالة المرتبطة به، وموته يكمن

---

١. سورة الكهف، الآية ٣٣.

في الابتعاد عنها، فمثلاً نجد أنّ بدن الإنسان يعتمد للاستمرار في حياته على إمكانات لازمة من قبيل:الماء، والهواء، والنور، والغذاء بالمقدار المناسب والمطلوب، وفي إطار قوانين عادلة، وإلّا فإنّه يصاب بـ (الاختلال في الوضع الطبيعي الحالي الذي هو ظلم في اصطلاح القرآن الكريم). ومع تفاقم هذا الاختلال يبتعد الإنسان عن حياته الفعلية ويتجه نحو عالم الموتى، وبتعبير العلّامة الطباطبائي[1]: يتبدل من خلق إلى خلق آخر، أي ينتقل من نشأة من نشآت الحياة إلى نشأة أُخرى منها، وإن كنّا لا نعلم تفاصيلها.

وبنظرة دقيقة نصل إلى نقطة جوهرية تشكّل أساس هذا البحث،وهي أنّ القوانين العادلة، التي هي كيان الحياة، تُظهر في الحقيقة أبعاد وجوانب نفس العدالة. غاية الأمر أنّه من أجل تفهيم الناس ذكرت وتذكر بشكل قوانين، يعني أنّ القوانين ليست كالأشياء المحسوسة من قبيل الحجر والشجر، بل هي مظاهر للعدالة الحاكمة على كل العالم، المحيطة بجميع الموجودات، بحيث يتحقق لكل شيء الوجود والحياة والسير في طريق الكمال في ظلها. ومن هنا يمكن استكناه محتوى كلمات الإمام عليّ والحسين عليهما السلام في هذا المجال فنقول: بما أنّ وجود وحياة الموجودات لا تتحقق إلّا في ظل قوانين عادلة، أي في إطار العدالة، فمن هنا نكتشف أنّ العدالة نفسها لها وجود وحياة، بل هي مصدر الوجود والحياة، إذ معطي الشيء لا يمكن أن يكون فاقداً له.

العدالة أساس التكوين وليست محور التشريع فحسب

السطحيون لا يصلون إلى فهم هذه الحقيقة، وهي أنّ العدالة لها واقع في الخارج، وهي تحكم العالم أجمع ولو لم تكن ظاهرة لنا، كحكومة الروح على البدن.

هؤلاء يتصورون أنّ العدالة ما هي إلّا مفهوم ذهني فقط يعتبر في ميدان التشريع، وفي موارد مختلفة من قبيل الغذاء واللباس وأمثال ذلك، لكن وكما رأينا أنّ هذا

---

١. الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص١٥٢ و ج ٢٠، ص٤.

التصور باطل. والحقيقة أنّ العدالة هي منشأ الوجود والحياة و ـ على الأقل ـ دخيلة في وجود وحياة الموجودات وتكاملها، بل المادة نفسها التي أعمت الماديين، تقوم على أساس آلاف القوانين العادلة الحاكمة على العالم، أي على أساس العدالة، فلولا القوانين العادلة، بمعنى لولا وجود العدالة، فلا وجود للمادة أصلاً لتكون محلاً للبحث، والخلاصة أنّ العدالة أساس التكوين وليست محوراً للتشريع فحسب.

يشير القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ العدالة أساس التكوين ولها دورٌ أساسيّ في الحياة وتكاملها، منها آية دقيقة جدّاً لا يصل إلى عمق مفهومها إلّا من يتدبّرها، وهي: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾[1]. يعني أنّ القصاص الذي هو نموذج للعدالة هو منشأ الحياة والسعادة، وعدم العدالة أو الظلم هو منشأ الموت والفناء.

ومع الالتفات إلى أنّ العدالة ـ أي النظام الصحيح ـ هي منشأ الوجود والحياة أو دخيلة فيها، ينبغي القول بأنّ العدالة هي منشأ القدرة أيضاً، ولهذا فإنّ القرآن الكريم يقول: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾[2]، يعني أنّ الحق الذي هو محور العدالة يضرب الله تعالى به الباطل الذي هو متراس الظلم فيزهقه، ومن هذا نفهم أنّ العدالة لها حياة وقدرة بحيث إنّها تستولي على الظلم وتسيطر عليه وتزهقه، إذن فالانتصار الفوري أو النهائي لرجال الحق والمدافعين عن العدالة على عوامل الظلم يتحقق أيضاً بهذا السبب، وهو أنّ العدالة نفسها مصدر الحياة والقوة، وعليه فهي توصل حماتها والمدافعين عنها إلى النصر عاجلاً أم آجلاً، وتزهق مخالفيها وتُدمّرهم ولو بعد حين.

وبعبارة أُخرى: إنّ انتصار العدالة على الظلم يسبّب انتصار العادل على الظالم، لا أنّ انتصار العادل على الظالم يسبّب انتصار العدالة على الظلم، وأساساً فإنّ النصر الفوري أو النهائي للعادل على الظالم هو علامة لانتصار العدالة على الظلم، الانتصار الذي يتجلى به ناموس الخلقة، فإنّ ناموس الخلقة مقترن بالعدالة ومع العدالة ومن

---

١. سورة البقره، الآية ١٧٩.
٢. سورة الانبياء، الآية ١٨.

أجل العدالة، ولهذا فمن الطبيعي أن تكون النتيجة لصالح العادل، وخيبة الظالم، وتؤدّي إلى الانتصار الواقعي والحقيقي للعادل، والذلة والهلكة للظالم.

وفي إطار هذه المسائل على إجمالها واختصارها ندرك جيّداً، لماذا يرى أميرالمؤمنين عليّ والحسين عليهما السلام والسائرون علىٰ خطاهما أنّ الحياة والنصر هما في ظل العدالة والحق، والموت والهزيمة هما في مستنقع الظلم والطغيان؟ وكذلك ندرك، لماذا ضحّوا بأنفسهم وبكل شيء في سبيل الدفاع عن العدالة والتصدي للظلم؟ وبهذه التضحية وصلوا إلى الحياة العليا الكاملة. وكذلك ندرك، لماذا قال القرآن الكريم عن الشهداء: ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾؟[1] والملاحظة الملفتة للنظر هنا أنّ هذه الآية الكريمة وأمثالها التي كانت متبلورة للحسينيين ـ ومع الأسف لم تقع موقع الاهتمام الكبير في الوسط العلمي ـ لا تقول بأنّ الشهداء الآن هم موتى وأنّهم بعد ذلك سوف يُرزقون الحياة من جديد ويكونون ضيوف الله، بل تصرّح بأنّ الشهداء أحياء إلى الأبد منذ اللحظة الأولى لِقتلهم، وأنّ حياتهم مستمرة إلى درجة أنّها تصل إلى لقاء الله تعالى، بل هي في الحقيقة متصلة بالله تعالى فعلاً بقرينة: «عند ربّهم...» التي تدلّ على هذه الخصوصية لهم من حين شهادتهم.

وكيفما كان، فالسؤال المهم الذي يطرح هنا هو: لماذا لا يموت الشهداء إطلاقاً، بل هم أحياء باستمرار من لحظة شهادتهم؟ الجواب كما تقدّم هو: بما أنّ العدالة هي من منابع الحياة والعين الجارية لها، والشهيد طالب للعدالة وقد ضحّى بوجوده وبكل ما يملك في هذا السبيل، أي أنّه غرق بروحه ومشاعره ووجدانه في هذه العين الجارية، فلذلك من الطبيعي أن يكون حيّاً منذ لحظة شهادته، وأن تكون له حياة الروح وروح الحياة، أي أن يكون له من الحياة، بسبب تضحياته الخاصة في سبيل العدالة، قبس أكثر من الآخرين، ويتعالى فيه إلى رب العالمين، الذي يعمل بالعدالة وللعدالة ويحكم بالعدالة وللعدالة.

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

بما أنّ العدالة أساس التكوين فهي أساس التشريع أيضاً

إلى هنا عرفنا أنّ العدالة هي الحركة والانطلاق في المسار الطبيعي، والحياة والانتصار هما من ثمارها، وأشعة من نورها، وأنّ الظلم هو خروج عن ذلك المسار، والموت والهزيمة النهائية يقعان في ظلّه، من هنا يجب أن نعلم بأنّ العدالة والظلم ليسا معيار التكوين فحسب، بل هما المعيار الأصلي للتشريع أيضاً، وذلك لأنّ التكوين من باب التشبيه، يمثل الأرضية للتشريع والتشريع يمثل مرآة التكوين، ولذلك فإنّ بينهما ارتباطاً وثيقاً، بحيث إنّ العدالة التي لها تأثير محوري وحاسم في التكوين، يجب أن يكون لها نفس الدور في التشريع أيضاً، فتكون هي أساساً لكليهما معاً.

ولكنّنا نجد أنّ الأشاعرة يفصلون التكوين عن التشريع، والخلقة عن الهداية، والتوصيف عن التكليف، والعلم عن التقييم ـ فصلاً كليّاً ـ ويرون القوانين التشريعية في النظام التشريعي اعتبارية محضة، على عكس القوانين التكوينية في النظام التكويني.

وأمّا الشيعة فإنّهم برؤيتهم العميقة لهذه المسألة يرون الارتباط الكامل بين التكوين والتشريع، ويقولون: إنّ القوانين التشريعية أيضاً تسترفد حالها وكيفيتها من الوضعية الخارجية والحالة التكوينية، وتعكس المصالح والمفاسد الواقعية، وهي كما أشرنا آنفاً تبتني بأجمعها على العدالة.

دليلهم على ذلك هو أنّ تشريع القانون يهدف إلى إيصال الإنسان باختياره إلى الكمال اللائق به، ولذلك يجب أن يتطابق ويتناسق مع النظام التكويني الواقعي للإنسان لكي يصل إلى النتيجة المطلوبة، وبما أنّ النظام التكويني الواقعي للإنسان قائم على أساس العدالة، فلهذا يجب أن يكون النظام التشريعي والقانوني على أساس العدالة أيضاً حتى يحقق ثمرته وفائدته للإنسان، وإلّا فلا يكون صحيحاً ومفيداً، بل يكون منحرفاً وغلطاً ويعرّض الإنسان للخطر والضرر طبعاً.

وعلى أساس هذا الاستدلال المحكم المتين نجد أنّ جميع المدارس الحضارية القيمة ـ وخاصة المدرسة الأصلية الإسلامية التي ترى أنّ العدالة هي أساس

التكوين ـ تقول: إنّ العدالة أساس التشريع أيضاً، ولذا فإنّ جميع مسائله تقاس بمعيار العدالة والظلم.

وأحد الشواهد على هذا الأمر الأساس هو أنّ القرآن الكريم يقول: إنّ الايمان وكذلك العمل الصالح هما مظهر العدالة، ويقول أيضاً: إنّ الشرك وكذلك العمل الفاسد هما مظهر الظلم، وحاصل كلا القولين هو أنّ جميع الاعتقادات والأعمال التشريعية هي انعكاس للعدالة والظلم، وهذاحاصل قوله تعالى: ﴿لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[1]، يعني أنّ الشرك نموذج للظلم، والإيمان نموذج للعدالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾[2]، يعني أنّ العمل الفاسد الذي هو خروج عن مسار رضا الله تعالى نموذج للظلم أيضاً، والعمل الصالح الذي هو حركة في مسار رضا الله تعالى نموذج للعدالة أيضاً.

وأكثر من ذلك، هناك آيات أُخرى تقول: إنّ الايمان والعمل الصالح، اللذين هما مظهر العدالة، يؤدّيان بالإنسان إلى الحياة الحقيقية القيّمة في الدنيا والآخرة، وإنّ الشرك والعمل الفاسد، اللذين هما علامة الظلم، يؤدّيان بالإنسان إلى الموت الجهنمي في الدنيا والآخرة، ونموذج تلك الآيات قوله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[3].

فالآية الشريفة تخاطب الذين آمنوا بأن يستجيبوا ويلبّوا دعوة الله ورسوله، بمعنى أن يسلكوا سبيل العدالة عن طريق الإيمان الثابت والعمل الصالح، وأن يتصدوا للظلم عن طريق دفع الشرك والعمل الفاسد؛ لكي يصلوا إلى الحياة الحقيقية، وفي غير هذه الصورة سوف يسقطون في هاوية الموت الحقيقي والجهنمي. وحاصل جمع هذه الآية مع تينك الآيتين هو أنّ الحياة الحقيقية للإنسان تتفتح في نور العدالة الفكرية والعملية، وأنّ الموت الحقيقي للإنسان يكمن في ظل الظلم الفكري والعملي، يعني في ترك العدالة.

---

١. سورة لقمان، الآية ١٣.
٢. سورة البقرة، الآية ٢٢٩.
٣. سورة الانفال، الآية ٢٤.

ومضافاً إلى الآيات القرآنية الكريمة فإنّ الأحداث التاريخية وتجارب الحياة، تؤكّد أيضاً أنّ الأفراد أو المجتمعات تنال رقيّها وتقدمها وتصل إلى الحياة الحقيقية، فيما لو جعلت العدالة أساس عملها ومحور فعاليتها وتصدت لقوى الظلم والظالمين، وأنّ الأفراد والمجتمعات البشرية تسقط في مستنقع الذلة وتهوي إلى هاوية الرذيلة فيما لو خرجت عن مسير العدالة وقبلت بالظلم والظالمين وآرائهم الفاسدة.

العدالة أصل والإمامة فرعها

والامتياز الأساس للشيعة هو أنّهم جعلوا من العدالة محوراً لكل شيء، وذلك كما رأينا بالاستناد إلى العقل والقرآن والتاريخ والتجربة، بل جعلوا منها أصلاً ومحوراً حتى لأصول الدين وفروعه، ومنها مسألة الإمامة، ولذلك فهم يقولون بضرورة وجود شروط خاصة للإمام حتى يمكنه تحقيق العدالة، وبالتالي تحقيق الحياة والسعادة للناس، فلو لم تكن العدالة ضرورية من أجل حياة وسعادة الناس، فإنّه لا يجب كون الإمام وقائد الأمّة عادلاً، بل لجاز أن يتسلم كل شخص هذا المنصب بالتسلط على الناس، وإن كان ظالماً ويسير على خطئ يزيد ومعاوية وأمثالهما. ولهذا يجب القول بأنّ العدالة هي الأصل والإمامة متفرّعة عليها، والدليل عليه هو أنّ الإمامة ضرورية لأجل العدالة وتحقيقها أي لأجل أنّ العدالة ضرورية.

ومن هنا يتضح أنّ الاختلاف بين السنة والشيعة لا يكون في الحقيقة في الإمامة، بل الاختلاف بالدرجة الأولى في العدالة، وجوهر الموضوع هو أنّ أهل السنّة أنكروا أوّلاً ضرورة العدالة، وأنكروا ثانياً ضرورة عدالة الأئمة، فلو أنّهم شعروا بضرورة العدالة لم يتردّدوا إطلاقاً في القول بضرورة عدالة الأئمة، ورفض حكام الجور وخلفاء الباطل المنحرفين عن العدالة، ولاقتصروا على رجال الحق والفضيلة ـ وهم العاملون بالعدالة ـ لمنصب الإمامة، ولكن بما أنّهم لا يرون العدالة واجبة على الله تعالى وفي النتيجة على أولي الأمر أيضاً ـ الذين يمثلون خلافة الله في الأرض ـ فمن الطبيعي أنّهم يعتبرون حكام الجور أيضاً أولي الأمر وأئمّة المسلمين

وقادة الأمّة، ويسكتون عن فسادهم وجرائمهم ويسلّمون لهم الأمور، ومن الطبيعي أيضاً أن يلوم هؤلاء من يسير في طريق الحسين عليه السلام والحسينيين ويتصدى للظلم والظالمين، بل يقولون كما يدّعي يزيد وأضرابه: إنّ هؤلاء الحسينيّين يسلبون أمن المجتمع ويعكّرون صفوه ونظمه، فيجوز بل يلزم أن يُقضى عليهم لصالحه.

لكنّ القرآن الكريم يرفض هذه الرؤية الضيقة والمتحجرة ويرى التصدي للظلم والظالمين مسؤولية كبيرة على كل مسلم، وأساساً فإنّه يرى أنّ العدالة هي الهدف الكبير للأنبياء والرسل، فيقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[١]، أي أنّ المقصد الرئيس المهم لقادة الدين هو إقامة العدل وسحق الظلم، خاصة من خلال الهداية الحقيقية والثورية للناس.

وفي ظل هذا الهدف المقدّس نرى نبي الإسلام جاهد الظالمين وتصدى للظلم طيلة فترة رسالته وبعثته، وكان يؤكّد في سيرته على إقامة العدل في كل الظروف، ويطلب من أتباعه أيضاً إقامة العدالة مهما كانت الظروف، وتجنب الظلم دائماً والتصدي للظالم عملياً لا إعلامياً فقط؛ لكي ينقذوا أنفسهم ومجتمعهم من الشقاء النفسي والظاهري، وينالوا التكامل والتعالي روحياً وظاهرياً.

وإحدى كلمات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا المجال، والتي تحتوي على بحر من المعاني، وينبغي أن تكتب وتنقش في صدر كل إنسان وعلى واجهة كل برنامج إصلاحي هو قوله صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والظلم فإنّه يخرب قلوبكم»[٢]. المفهوم الأساس لكلام النبي هذا هو أنّ الظالم، إضافة إلى ابتلائه بنتيجة ظلمه وجوره لاحقاً على يد قانون الطبيعة والاجتماع الذي هو بالمرصاد للظالمين، فإنّ قلبه الذي هو كناية عن الحياة الروحية له سيكون بسبب ظلمه مظلماً وخراباً، والنتيجة هي سقوط الظالم في أعماقه في مستنقع الظلمات والضلالات، فكما أنّ الجراثيم والمكروبات تعمل على إرباك عمل أنسجة البدن، ولو لم يهتم الإنسان بعلاجها فسوف يؤدّي إلى استيلاء

---

١. سورة الحديد، الآية ٢٥.

٢. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣١٥ و ٣٥٢؛ مسند زيد: ٤٨٩، كنزل العمال، ج٣، ص ٥٠٥.

المرض على قلبه وجميع جوارحه ثمّ القضاء عليه. فكذلك جرثومة الظلم، فإنّ أوّل آثاره المشؤومة هو انعكاسه على قلب الإنسان وباطنه، الذي هو عبارة عن ضميره أو روحه أو وجدانه، فيكون مسودّاً ومظلماً ولو تدريجياً، ولهذا يغرق الظالم في جحيم من القلق والالتهاب النفسي والاضطراب الروحي والفكري، وهذا في الحقيقة أسوأ بكثير من فشله وسحقه بيد الثائرين.

إنّ دور الظالم في الحقيقة هو أنّه يسحق العدالة التي هي عبارة عن كيانه الحقيقي والفكري والحيوي، فيفقد بذلك روحه ووجدانه ويبتعد بالطبع عن الصراط المستقيم ويقترب من طريق الضلال والظلمات، لذلك فمن الطبيعي أن يعيش الظالم لا في دوّامة من المشاكل الخارجية فحسب، بل يعيش في دوّامة من القلق والاضطراب النفسي في أعماق وجوده، حيث إنّ ظلمه يؤدّي به إلى الشقاء والمحنة والمسكنة والذلة الروحية، فيحترق بلهيب النيران الوجدانية الباطنية، حتى إنّ المشكلات والمصائب المتزايدة التي يوجدها الظالم لنفسه وللمحيطين به، إنّما تنبع من ظلمة باطنه وعمى قلبه، فإنّه بهذا يفقد استقامته الفكرية والوجدانية حتى في واقعه العملي، ولذلك فلو تسلّم مثل هذا الإنسان منصباً سياسياً واجتماعياً فإنّه سوف يجرّ المجتمع بحسب قدرته إلى دوّامة من الأزمات والمشاكل، وبالتالي سوف يحرق نفسه ومجتمعه في نيران المحنة والعذاب.

والأجمل من كلام النبي الأكرمﷺ هو قول القرآن الكريم نقلاً عن هابيل العادل في محادثته مع قابيل الظالم، حيث يقول: ﴿... إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾[1].

يعني أنّ الظالم مضافاً إلى سقوطه في مستنقع أنانيته وشقائه الفردي باطناً وظاهراً، فإنّه سوف يحمل أيضاً وزر الآخرين الذين ظلمهم، فما هو تعليل هذا الأمر؟

أحد التفاسير لهذا الأمر هو أنّ الظالم عندما يوجّه ضربته إلى المظلوم فإنّه سيكون مديناً له، وبما أنّ ظلم الظالم يزيل قيمة إنسانيته، فلذلك لا يستطيع أن يؤدّي دينه للآخرين من رصيده المعنوي لانعدام إنسانيته أو انحطاطها، بل سيقوم

---

١. سورة المائدة، الآية ٢٩.

عوضاً عن ذلك بحمل آثام مظلوميه على أكتافه، ومن هنا فإنّ بعض الروايات تقول: بأنّ الشخص إذا استغاب أو اتّهم شخصاً آخر وظَلمه بلسانه مثلاً، فإنّه سوف يفقد حسناته من جهة، ويحمل سيّئات الآخر من جهة أُخرى.

دور العادل ذو بعدين

والموضوع من جانب آخر صحيح أيضاً، بمعنى أنّه لا ينحصر الأمر في أنّ الظالم يعمل على إسقاط نفسه ورفع المظلوم، بل إنّ المظلوم أيضاً الذي يتمسك بالحق والعدالة في مقابل الظالم، يرتقي في معراج الكمال المطلوب من جهة، ويعمل على إسقاط الظالم في هاوية الهلاك من جهة أُخرى. بل إنّنا لو دقّقنا النظر لتوصلنا إلى هذه الحقيقة المهمة جدّاً، وهي أنّ الأصل والأساس في هذه المعادلة هو (دور العادل) الذي يتحرك من موقع المسؤولية ومتطلّبات الرسالة بشجاعة، وفي مقابل ذلك يكون دور الظالم المضاد له ثانوياً وتبعياً، يعني أنّ العادل بسلوكه نحو الحق يكون في الحقيقة حجر عثرة في طريق الظالم المغرور، وكأنّه يجبره على اتّخاذ إجراءات مضادة وحاقدة على العادل، وبهذا الترتيب يقوم العادل بتهيئة الأرضية المناسبة لسعادته هو ولشقاوة ظالمه في نفس الوقت، والواقع فكما أنّ الله تعالى بواسطة أوامره العادلة فتح الطريق لنزوع الشيطان إلى التمرد والظلم، كذلك رجال الله ـ أي المؤمنون ـ بواسطة سلوكهم سبيل العدالة يفتحون الطريق لإظهار مايضمره الظالمون ضد الحق والعدالة، من تمردهم وهجومهم عليهم، فيسلكون سبيل الباطل وطريق الانحراف والتجاوز والعدوان، الموجب لعمى القلب وبروز الجحيم القلبي في بواطنهم وذواتهم مضافاً إلى تحرك الناس ضدهم كما مرّت الإشارة إليه.

والشاهد على هذا الأمر ما ذكرته الآية عن هابيل وقابيل، حيث إن النقطة الأساسية في هذه الآية هي أن سعادة العادل وشقاوة الظالم أيضاً هما انعكاس لإرادة العادل، وثمرة لسلوكه طريق العدالة. وعلى أساس هذا الأمر نجد أنّ الحسين عليه السلام أيضاً يقول لأتباع يزيد: «وايم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثمّ ينتقم لي

منكم من حيث لا تشعرون»[١]. والإمام عليّ عليه السلام أيضاً يوبّخ أهل الكوفة على تخاذلهم مقابل جبهة معاوية الفاسدة، ويقول: «اللّهم ... فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شرّاً منّي»[٢]. المفهوم المشترك لمثل هذه الأحاديث والآية المذكورة آنفاً عن هابيل وقابيل، هو أنّ للعادل دوراً ذا بعدين وذا وجهين، فهو من جهة يعمل ـ عن طريق سلوكه سبيل العدالة ـ على تسامي نفسه وتعالي روحه في سلّم الكمال الإلهي والإنساني، ومن جهة أُخرى يعمل طبعاً على تحريك الظالم المخالف له وتهيئة أسباب ضلاله وشقائه أيضاً. غاية الأمر أنّ عوامل وموجبات تسامي العادل تكون مع حسن اختياره، ولكن منشأ شقاء الظالم يكون بسوء اختياره في مواجهته للعادل.

ونجد في التراث الحضاري للإيرانيين القدماء أنّهم يقولون بوجود إلهين اثنين، إله الخير ويدعى (أهورا مزدا) وإله الشرّ ويدعى (أهريمن)، ويقولون: إنّ لكلٍّ منهما أصالة بحد ذاته، ولكنّ الإسلام يقول: إنّ الخير وصاحب الخير الذي هو تجلٍّ للعدالة هو الأصل؛ وأمّا الشر وصاحب الشر الذي يمثل مصدر الظلم فليست له أصالة في الحقيقة؛ لأنّ حقيقة الظلم هي الخروج عن حدود العدالة، كالظل الذي يخرج عن دائرة النور، ومن هنا فليس من الصحيح عند الدقّة أن يقال: الظل والنور، بل ينبغي أن يقال: ظل النور، يعني بالرغم من أنّ ظاهر الأمر هو تقابل الظل والنور، وكذلك الظلم والعدالة. ولكنّ الحقيقة هي أنّ الظل جانب آخر للنور، أي هو عدم النور، وكذلك في مثال الظلم فإنّه أيضاً يعتبر في الحقيقة عدم العدالة ويظهر في حالة حجبها وغيابها، وبعبارة أُخرى أنّ العدالة تتحقق في داخل الحد والظلم خارجه، والعدالة إثبات الحق والظلم نفيه، والعدالة نور والظلم ظله وظلامه، وعلى هذا فإنّ الظالم أيضاً يعتبر ظلاً مظلماً للعادل، ويقبع خارج حدود العادل، كظل الشخص الذي يكون في الجهة المخالفة له، وفي نفس الوقت يتحرك معه خطوة خطوة.

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٤٦؛ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٧٨.

٢. شرح النهج، ج١، ص٣٣٣.

الطواغيت يتمسكون بعكس الحق

ويمكن القول إنّ ما ورد في بعض الروايات من أنّ الظالمين والطواغيت كمعاوية ليس لهم عقل سليم، بل لديهم ما يشبه العقل وهو (النكراء)[١]، معناه أنّهم اتبعوا سبيل إنكار الحق لا الاعتراف بالحق، وطبيعيٌّ أنّ إنكار الحق يتحقق في مواجهة الحق من موقع وضوحه، ولو مع المحافظة على صورته، وفي الواقع فإنّ معاوية وأضرابه وبشكل عام الظالمين، يستخدمون صورة الحق بمعنيين:

الأول: إنّهم يأخذون صورة الحق لا واقعه وحقيقته، ويتقنّعون بالبعض أو الكثير من علائمه ولوازمه.

الثاني: إنّهم يأخذون صورة الحق أيضاً بشكل معكوس؛ لأنّهم يستخدمونها في مقاصدهم الباطلة، ومن هنا يُعلم أنّه لا يكفي الإنسان معرفة الحق فحسب، بل مضافاً إلى معرفته يجب أن يكون له إيمان حقيقي به لا ادعائي، وبتعبير أدق: يجب أن تكون معرفته بعيدة عن هوى النفس حتى تتلازم مع الإيمان الحقيقي.

وعلى كل حال، فإنّ الظالمين أيضاً يتظاهرون بالحق والعدالة، بل يستخدمون الأساليب الإنسانية والدينية والأخلاقية وربّما يتعهدون بها أيضاً، ولكن ليس عهداً حقيقياً، بل سياسياً وصورياً، ومن أجل تحقيق مقاصدهم الأنانية ومصالحهم الذاتية، أي أنّهم يتمسكون بصورة الحق الظاهرية لا بحقيقته، ويستعملونها لرضى النفس لا لرضى الله، بل إنّهم يرون واقع الحق مانعاً عن أهوائهم النفسية، ولذا يتجنبون اتّباعه. أجل، إنّهم يستعملون صورة الحق للتغطية على الحقيقة وحجب الحق نفسه، ويتقنّعون بصورته فحسب؛ لأنّها هي التي يرونها مفيدة لأغراضهم الفاسدة خاصة في سبيل تثبيت سلطتهم على الناس الطالبين للحق طبعاً.

وبالرغم من أنّ هذه المطالب تعتبر عسيرة الفهم عند بعض الناس، ولكنّه مضافاً إلى التوضيح المذكور آنفاً، فإنّ الشواهد التاريخية تقول أيضاً: بأنّ بلعم بن باعورا

---

١. أصول الكافي، ج١، ص١١.

وأضرابه تقنّعوا بقناع الحق للتغطية على سيرتهم وعملهم الباطل، وتركوا واقع الحق وحقيقته لتناقضهم معه. وفي الحقيقة أنّهم تصدّوا لمحاربة آيات الله بواسطة آيات الله، وكذلك نجد السامري وأمثاله يستخدمون آثار رسول الله (كموسى) في إبعاد الناس عنه، وقارون وأمثاله سعوا إلى التغلّب على خلق الله بالعلم الذي اقتبسوه من رجال الله. وفي التاريخ الإسلامي نرى أيضاً أنّ معاوية وأمثاله، من أجل الوصول إلى مقاصدهم الفاسدة، حاولوا التستر بمظلة الإسلام وأحكام الله، وهكذا يزيد وأعوانه تمسكوا أحياناً بآيات القرآن لتبرير قتلهم الإمام الحسين‌عليه السلام، والقضاء على أهل بيت الرسول‌صلى الله عليه وآله، رغم أنّهم استهزأوا بالقرآن. وكما رأينا في الفصول السابقة أنّ الإسلام أضحى سوقاً مشتركة للموافق والمخالف، كلٌّ يجرّ النار إلى قرصه ويدّعي أنّ الإسلام إلى جانبه، بل وأعجب من كل هذا أنّ الحكام الفاسدين والعلماء من وعاظ السلاطين والمرائين ينادون بالإسلام ويدّعون الدفاع عنه أكثر من المؤمنين الحقيقيين. والخلاصة فإنّ الظالمين أيضاً يستفيدون من الحق والعدالة كما هو حال رجال الحق، ولكن ليست استفادة سليمة وحقيقية، بل يستفيدون منهما استفادة سيّئة ومحوّرة بما يخدم أهواءهم المنحرفة.

الظالم أسيرٌ للعادل

ولمّا كان دور الظالم هو استغلال الحق والعدالة، وهذا الأمر يصادم الوجدان الإنساني، فلهذا كان من الطبيعي أن يصل الظالم إلى طريق مسدود عاجلاً أم آجلاً في مواجهته للعادل ولطلاب العدالة، الذين ينسجمون مع الوجدان الإنساني، والنتيجة بالطبع هي أنّ الظالم يخضع في النهاية إلى العادل. كما يقول الإمام علي‌عليه السلام في هذا المجال في كلمته الدقيقة جدّاً، وهي:

«واحتج إلى من شئت تكن أسيره»[1] أي أنّك لو احتجت إلى شخص، ولو بأن تظلمه، فإنّ ظلمه سيجعلك مديناً له، أي ـ في الحقيقة ـ محتاجاً إليه، وبذلك تكون

١. شرح النهج، ج ١٨، ص ٢١٢ و ج ٢٠، ص ٢٥٥.

أسيراً له، بمعنى أنّ المظلوم أو العادل الذي يسير في طريق الحق والعدالة لا يكون ـ في الحقيقة ـ أسير الظالم، بل إنّ الظالم هو المحتاج والأسير للعادل بالرغم من أنّه في الظاهر ضده ومخالفه، كما أنّ الظل محتاج وأسير للنور بالرغم من أنّه في الظاهر ضده ومخالفه.

وأحد مظاهر احتياج الظالمين إلى العدالة والعادل، هو أنّ الظالمين بسبب ظلمهم المخالف لفطرتهم ووجدانهم، يغرقون في دوّامة القلق النفسي والاضطراب الروحي، ومضافاً إلى ذلك فإنّهم يُعرّضون للاعتراضات ولخلافات الظاهرية والخفيّة للناس الذين يحبون العدالة بفطرتهم ووجدانهم، وتتصاعد حدّة الاعتراضات باستمرار طبعاً في مقابل أنّ ظلم الظالمين أيضاً في ازدياد مستمر طبعاً، إلى أن يصل إلى درجة أنّ الظلم يحيق بكثير من الناس بل يشمل حتى حاشية الظالمين ومعارفهم، وهكذا يمتد ويشتد العصيان والتمرد أيضاً في صفوف الناس إلى أن يجعل الظالم في هوّة الخطر حتى في الظاهر مضافاً إلى عماه وقلقه في الباطن.

وعلى أساس هذه الملاحظات فمن الطبيعي أنّ الظالمين يعيشون في اضطراب مستمر من الداخل والخارج، فيشعرون ـ شاءوا أم أبوا ـ بضرورة معالجة الوضع الداخلي والخارجي لهم، ويرون طبعاً أنّهم محتاجون في ذلك لنور العدالة الذي يشعّ من أعماق وجود رجال الله العادلين، أي أنّهم محتاجون في أن يشرق نور هؤلاء عليهم لينقذهم من حالتهم المأساوية التي أحاطت بهم بسبب ظلمهم، وعلى الأقل ليكون ذلك مسكّناً موقّتاً لهم.

لو تم حذف العدالة والعادل من قاموس الوجود البشري فإنّ جميع القيم سوف تنهار، وحتى حياة الظالمين أيضاً سوف تتعرض إلى الانهيار والسقوط في مستنقع الرذيلة والعدوان والصراعات، وفي النهاية سوف تكون لهم الحياة الدنيا أيضاً مثيرة للقلق والاضطراب، حتى مع التقدم (التكنولوجي) والتطور العلمي والحضاري للبشر ظاهراً، بل في حال فقدان العدالة سوف يكون كل شيء، حتى الثروات المالية والتقدم الصناعي، باعثاً على القلق والاضطراب والأزمات، وعلى العكس من ذلك

كلما كانت العدالة هي السائدة فستكون الحياة حلوة وجذابة وسارّة مهما كانت الثروات قليلة والصناعات متخلّفة، مع أنّ التقدم العلمي والصناعي والمالي أيضاً سوف يتحقق أكثر في ظل العدالة وسيكون أكثر فائدة للبشرية، حيث إنّه في ظلها يستفيد الجميع من هذه الإمكانات على السواء، فيزدهر فيهم العقل السليم والتعاون الحقيقي.

والخلاصة فإنّ الحياة بعيداً عن العدالة ليست بحياة حقيقية، بل ستكون مركزاً للشقاء والألم والمحنة لجميع الناس وخاصة للظالمين، ولهذا السبب فإنّ الظالمين أيضاً سيرون أنفسهم مضطرّين إلى استخدام العدالة ولو بالصورة الظاهرية والسياسية أمام الناس، وفي الواقع فإنّهم يصيرون أسرى العدل والعادل، هذا من جهة نتيجة الموضوع، وأمّا من جهة أساسه وجذوره، فلابدّ من القول بأنّ:

الظلم هو استغلال العدالة

وجود وحياة الظالمين وحتى أدواتهم إنّما هي انعكاس ومظاهر للعدالة، فلو لم تكن العدالة التي يبتني عليها تكوين كل شيء، لم تتهيّأ للظالم الوسائل اللازمة والأرضية المناسبة لظلمه، فيجب أن تكون هناك عدالة حتى توجد وسائل الظالم وظلمه، وعلى هذا فخلافاً للمقولة السائدة والمعروفة من أنّ الظلم يتقاطع مع العدالة. فالتعبير الأصح والأدق هو أن نقول: إنّ الظلم هو استغلال العدالة، يعني أنّ النظام العادل والحكيم في العالم يقدّم الوسائل الفكرية والعلمية إلى الجميع ومنهم الظالم، ولكنّ الظالم يستخدم هذه الوسائل القائمة على أساس العدالة ضد العدالة نفسها، وفي الحقيقة فإنّه يجعل نفسه كالجدار في مقابل نور العدالة، وبهذا يقع ظل ظلمه على نفسه وعلى الذين هم تحت حمايته أو سيطرته، وبما أنّ ظل الظلم ضد السنة الإلهية والطبيعية، فلهذا سوف يزول عاجلاً أم آجلاً، وعند ذلك فإنّ الظالم سوف يظهر أمام محكمة العدل الإلهي ويرى زوال آثار مساعيه الدائبة بيد العدالة الإلهية، بل يرى وخامة العاقبة وفداحة النتيجة ويغرق في دوّامة الندم ويحترق

بلهيب الحسرة ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾[١].

والظالم لايشعر بشرارة ظلمه في ذلك الوقت ـ أي بعد رفع الحجب ـ فقط، بل يشعر بها طوال حياته في الدنيا أيضاً، ولذلك يتأثّر قهراً بسمومها التي تحيق بروحه وقلبه، وهناك شواهد كثيرة أيضاً تدل على أنّ الظالمين يواجهون أنواع العذاب الباطني والظاهري حتى في الدنيا، غاية الأمر أنّ الظالم وعلى أثر غروره الناتج عن حماقته أو حماقته الناتجة عن غروره، يُخفي هذا الشعور الإنساني تحت حجب اللهو واللعب وأقنعة المشاغل الفارغة والخادعة، ويستمر في ظلمه وفساده إلى أن تزول هذه الحجب عاجلاً أو آجلاً، وفي الواقع تزول سريعاً جدّاً، فحينئذ يُعرى الظالم من تصوراته العنكبوتية التي ادخرها في الظل وسراب الباطل، فيرى الظالم في هذا الموقع الخطير وجدانه الضائع دون أن يتمكن من التهرب منه، بل يرى كتاب ظلمه أمامه ويلمسه بجميع وجوده، ويشاهد في ميزان أعماله سقوطه في جهنم الحرمان والعذاب، وهناك يصطرخ كالفراعنة وأمثالهم بصراخ الندم والحسرة والإقرار بالله تعالى والعدالة، ولكنّه إيمان اضطراري ووليد الإحساس بالحرمان، ولذلك فلن ينفعه شيئاً، بل يزيد في نيران حسراته الباطنية، وهذه هي المصيبة الحقيقية وجهنم الحقيقية والموت الحقيقي.

ومن جانب آخر ينبغي القول بأنّ العادل حيث يسير مع التيار الموافق لنظام الخلقة الذي يقوم على أساس العدالة، ومن باب التشبيه يتحرك مع تيار جريان الماء لاخلافه، فلهذا من الطبيعي أن لا يواجه هزيمة حقيقية إطلاقاً، بل إنّه سيزدهر حتى وسط أشواك الحياة، بل ربّما يزدهر أكثر ويتجلى أحسن في وسطها، وما أكثر ما يتكامل الإنسان بصورة أفضل بين الشدائد والأزمات حيث تتجلى فيه الإنسانية بصورة أوضح. وكيفما كان، إنّ العادل بما أنّه يسير في مسير الحق والعدالة فمن الطبيعي أنّه يتسامى ويتكامل في حركته إلى الله تعالى الذي هو مركز ومصدر الحق والعدالة، فيصل من هذا الطريق إلى (المقام الملكوتي) و(الإحاطة الشاملة)

---

١. سورة البقرة، الآية ١٦٧.

و(الخلافة الإلهية) التي تعتبر أسمى مرحلة للكمالات الإنسانية، وهذه هي السعادة الحقيقية والجنة الحقيقية والحياة الحقيقية.

سقوط الإنسان في الظلم نفسه لا في عواقبه فحسب

إنّ كل العقلاء يعلمون بأنّ العدالة لها ثمار طيبة وموجبة للسعادة، وإنّ عاقبة الظلم مخزية ومهلكة، وهذه المسألة على درجة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى شرح، ولكنّ المسألة الأهم التي لو أدركها الناس بصورة جيدة لأحدثت تحولاً عظيماً في المجتمعات البشرية، هي أنّ سقوط الإنسان في مستنقع الشقاء والرذيلة يتحقق في نفس الظلم، وليس في عواقب الظلم الدنيوية أو الأُخروية فحسب، وكذلك فإنّ تعالي الإنسان وسموّه يكون في نفس العدالة، التي هي محورٌ وأساسٌ لروح الإنسان وباعثة على تفتّح حياته الحقيقية، وليس من جرّاء ثمرات العدالة والمكانة الدنيوية والأُخروية لها فحسب.

بل بالتأمل أكثر تتضح صحة مقولة جمع من العلماء أمثال الشيخ البهائي الذي كان يقول بالاستناد إلى الآيات والروايات: إنّ الجنة وجهنم الحقيقيتين تتحققان في باطن الإنسان، وتنشآن من كيفية عمل الإنسان من حيث كونه عادلاً أم ظالماً، وإنّ جميع المكافآت والعقوبات حتى الجنة وجهنم الخارجيتين إنّما هي مظاهر لذلك[1]،وبالنظر إلى هذه الحقائق العليا نجد أنّ رجال الله أمثال الإمام عليّ عليه السلام والحسين عليه السلام يتخذون من العدالة والظلم محوراً أساسياً لكل شيء، كما رأينا في كلماتهم وأعمالهم.

ومن هنا يتضح وجود الخطأ الفادح لأكثر الأفراد، وحتى لكثير من العلماء والمحققين، وهو أنّهم يسعون في مواعظهم وكتاباتهم ـ من أجل ردع الناس عن الظلم وترغيبهم في العدالة ـ إلى بيان الأدلة العقلية وذكر نماذج من القدوات الحية والمواعظ الجذابة، ليتبين لهم مضار الظلم ومنافع العدالة. وعلى سبيل المثال فإنّهم

١. الاربعون حديثاً للبهائي، ح٣، ٣٣، ٣٩.

يقولون للكسبة: بأنّكم إذا بعتم البضاعة بثمن فاحش وبسعر غال، أو عملتم على غش الناس مثلاً، فسوف تُبتلون بالعقوبات الدنيوية والأُخروية، من قبيل الغرامة والسجن والفضيحة الاجتماعية، وأخيراً جهنم الأبدية، ولكنهم مع الأسف لا يوضّحون للناس الحقيقة الأساسية التي لها دورٌ حساس في جميع الإصلاحات الفكرية والعملية للإنسان، وهي أنّ الظلم بنفسه قبيح ومستهجن، وهو السبب في تلوّث قلب الإنسان وروحه إلى درجة أنّه يكون أشد من جميع ما يصيب الإنسان من تبعات أعماله في الدنيا والآخرة، كما يوجّه لوجدان الإنسان وروحه صفعة شديدة وضربة قاصمة أشد من سائر العقوبات الدنيوية والأُخروية، وكما يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في ما نقلنا عنه آنفاً: إنّ الظلم يؤدّي إلى تخريب القلب والروح ويثير في نفس الإنسان اضطراباً داخلياً. وبهذا فإنّ الظالم سيكون محروماً من السلامة الروحية والحياة الحقيقية، وسيُبتلى بالعمى والهلكة الباطنية وعذاب الوجدان الذي يعتبر الجحيم الحقيقي، بل إنّ هذا العمى القلبي الناتج عن الظلم، هو الذي يجعله مضطرباً وحقيراً لدىٰ الناس أيضاً، إلىٰ أن يتم القضاء عليه عاجلاً أم آجلاً على يد المستضعفين، ويرمونه في مزبلة التاريخ.

هوية الإنسان تتجسد في عمله، بل في نيّته

عقوبات الظلم هي من الآثار الوضعية أو الطبيعية للظلم، وقد لا تتحقق سريعاً وعاجلاً، أو يمكن تصور بعض الطرق للفرار منها، ولكنّ قبح الظلم نفسه ليس من الآثار الوضعية أو الطبيعية للظلم، بل من آثاره الذاتية والتي لا تتوقف على أمر أو زمان، ولذا لا يمكن تصور طريق للفرار منها؛ لأنّ قبح الظلم الذي هو أشنع من آثاره المشؤومة، يترتب على الظلم بشكل قهري وحتمي، ويبعث على انحطاط روح الإنسان وتعفّنها، ويبدّل حياته إلى كابوس جهنمي وموت حقيقي إلا أن يقلع عن ظلمه ويتوب توبة نصوحاً.

أمّا فلسفة هذه المسألة فعميقة ومفيدة جدّاً، وهي كما يقول المحققون: إنّ كل

إنسان مأنوس بعمله، بل متحد معه إلى درجة أنّه يتبلور تدريجياً في شخصيته، بل يمكن القول: إنّ هوية وشخصية الإنسان تتبلور في عمله، بمعنى أنّ عمل الإنسان لا يتجسد فيه فحسب، بل يرتقي إلى مرتبة أعلى من ذلك وهو أنّ الإنسان نفسه يتجسد في عمله، حتى إنّ بعض الروايات تقول: «إنّ الله يحشر الناس على نياتهم»[1]، أي أنّ الإنسان يتجسد في نيته؛ لأنّها هي الأساس لعمله.

والنتيجة الطبيعية لهذه المسألة المنطقية والحديثية هي أنّ الظالم الذي يقوم بإشعال النار لإحراق الآخرين، فإنّه في الحقيقة يحرق نفسه ويهوي بها في مستنقع الذلة والشقاء أوّلاً؛ لأنّه انحرف عن طريق الحق والعدالة الذي يكون فيه سعادته الأبدية، وسجن نفسه في دهاليز الضلالة والقلق والشقاوة الأبدية، التي هي نتائج حتمية لظلمه ومواجهته الحق والعدالة، والخلاصة أنّ ما هو أهم من التورّط الخارجي في العقوبات للظالم هو إبتلاؤه في أعماق وجوده بعذاب الوجدان والروح، الذي هو الجحيم الحقيقي.

وتصدق هذه المقولة بعينها في مورد العدالة والعادل أيضاً. وأساس الكلام في كلا الجانبين هو أنّ القيم الأخلاقية وما يضادها تكون هي الأصل، أمّا آثارها الطبيعية أو الوضعية فانّها تأتي في الدرجة الثانية. والدليل الواضح على هذا الأمر هو أنّ آثار كل شيء فرعٌ له، ونفس ذلك الشيء هو الأصل حتى من حيث آثاره، وعلى هذا الأساس يجب القول في موارد الجريمة: إنّ ما هو أنكى وأشد من عواقب الجريمة، هو نفس الجريمة التي تؤدّي إلى تلك العواقب من جهة، ومن جهة أُخرى تتضاد وتتقاطع مع فطرة الإنسان الميّالة إلى الحق والعدالة. ومن الواضح بالتأمل أنّ المضادة، والتي يسميها البعض بـ (تأنيب الضمير) هي في الحقيقة نيران تشتعل في باطن الإنسان، وتستمر في التصاعد والازدياد حتى تحرقه وتسحقه. كذلك يجب القول في مورد العدالة: بأنّها حتى مع غض النظر عن آثارها الإيجابية والمطلوبة، تعتبر أثمن قيمة للإنسان، بل هي مصدر ومنبع جميع القيم والصفات

١. الوسائل، ج ١، ص ٣٤؛ مسند أحمد، ج ٢، ص ٣٩٢.

الإنسانية العليا، بحيث إنّها تقود الإنسان من داخله نحو الكمال المطلوب، وتسوقه إلى الجنة الحقيقية.

وما دامت البشرية لم تتوصل إلى هذا الأمر الدقيق، الذي يعتبر الركيزة الأساسية للمدرسة الإسلامية والإنسانية، فإنّه من غير الممكن أن يطوي الإنسان طريق السعادة مهما بلغ في تطوره المادي والعلمي وتقدمه الصناعي والاجتماعي.

والتفاوت الأساسي بين الفريقين : الحسين عليه السلام وأنصاره، ويزيد وأزلامه، هو أنّ الطائفة الأُولى تشعر، بسبب طهارة ذواتهم وإيمانهم العميق بقيمة اتّباع الحق والعدالة، الذي يعتبر بنفسه الحياة الحقيقية في باطن الإنسان وظاهره، وهو شعور بالسعادة، ذلك أن السعادة تتحقق في نفس سلوك سبيل العدالة والتصدي للظلم والظَلَمة، حتى لو لم يكن هناك ثمار وعواقب إيجابية أُخرى في الظاهر، بل حتى لو أصابهم بعض الشدائد والمصائب من جراء ذلك أو أدّى بهم الأمر إلى القتل والاستشهاد. وعلى أساس هذا العرفان المقدّس، نجد أنّ هؤلاء وقفوا بكل صلابة أمام القوى الظالمة دفاعاً عن الحق والعدالة، وخاصة في الظروف الخطيرة، وضحّوا بكل شيء في هذا السبيل، فوصلوا إلى أسمى مراحل الكمال والتعالي الدنيوي والسمو الروحي.

في حين أنّ الفئة الثانية، وبسبب الأهواء والغطرسة، تتصور أنّ حقيقة الحياة تتمحض في هذه الدنيا، وأنّها تتمثل في هذه اللذات الرخيصة، بل تصور الأرذلون منهم أنّ تحصيل هذه الملذات بوسائل الإرهاب والتزوير والترغيب سيجعل حياتهم أفضل وأحلى، وعلى أساس هذا العمى القلبي تحركوا في دائرة الظلم أو قبول الظلم ورفض العدالة وطلابها، وبالتالي فهم يحقّقون أنواع المصائب وألوان الشقاء لأنفسهم ولمجتمعهم.

إلى هنا ننهي البحث في الموضوع الأول، والذي نستخلص منه: أنّ العدالة تُمثل الأساس والبنية التحتية للحياة الحقيقية والجنة الحقيقية، وأنّ الظلم بمعناه الكلّي، وهو الخروج عن مسير العدالة أي مسير النظام الطبيعي والإنساني، هو الباعث على

الموت الحقيقي والشقاء الأبدي، وقد بحثنا في هذا الموضوع الأول بما يرجع في الحقيقة إلى تحليل البُعد الخاص الروحي للثورات والانتفاضات الحسينية، والآن نأتي إلى الموضوع الثاني الذي نبحث فيه البعد العام الاجتماعي لتلك الثورات، وسوف نرى أنّ هذين الموضوعين، اللذين يعرضان فلسفة جديدة، يشتركان في الجذور ويتصلان كالروح والجسد، وسنحاول التوضيح بما يناسب الكتاب، مع رعاية الاختصار، رغم أنّ الموضوعين يحتاجان إلى شرح وتفصيل.

المفهوم الابتدائي لخطاب الاستنهاض الحسيني

الموضوع الثاني: إنّ مسألة العدالة والظلم، التي تكون أساس الحياة والموت والسعادة والشقاوة، ليست مسألة محدودة بإطار معيّن، بل هي مطلقة تشمل كل المسائل وتجري في جميع الأمور، ولذلك فإنّ مسؤولية الإنسان، التي تبتني على العدالة والوقوف أمام الظلم لا تتوقف عند حد معيّن أيضاً، بل تشمل جميع زوايا الفكر والحياة، بحيث إنّها توجب على كل شخص بالطبع الدفاع عن الحق والعدالة، والتصدي للظلم والانحراف وعوامل الفساد، في كل مورد من الموارد، وبأيّ صورة مؤثّرة ظاهرية أو باطنية. وانطلاقاً من هذه المسؤولية الأساسية الشاملة تصدى الإمام الحسين عليه السلام للظالمين، وخاطب الناس بالطريقة التي تثير فيهم كوامن الغيظ ودوافع الثورة ضد حكومة بني أُمية الظالمة فقال:

«أفلا ترون أنّ الحق لا يعمل به وأنّ الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقّاً، فإنّي لا أري الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً»[1].

المفهوم الابتدائي لخطاب الإمام الحسين عليه السلام هذا ـ وهو دون المفهوم الأساسي الذي سيأتي ذكره لاحقاً ـ هو أنّ إصلاح حياة الفرد منوط بإصلاح حياة المجتمع، وإصلاح حياة المجتمع منوط بإصلاح الحكومة والحكام، خاصة من جهة ابتعادهم من الظلم واجرائهم للعدالة، وفي الحقيقة أنّ الحسين عليه السلام يربط من جهة بين حياة

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٥؛ تحف العقول، ص٢٤٥.

الفرد وحياة المجتمع، ومن جهة أُخرى يربط بين حياة المجتمع والحكومة الإسلامية التي هي مظهر الحق والعدالة، ويسعى من كل طريقٍ ممكن وبكل أُسلوب مؤثّر، حتى لو أدّى إلى ثورة دامية، أن يفكّر المسلمون بالدرجة الأُولى بإصلاح نظام الحكومة ليصلح في الدرجة الثانية وتبعاً له نظام الحياة الاجتماعية، وفي الدرجة الثالثة وتبعاً لهما الحياة الفردية.

ومضافاً إلى كلمات رجال الله المصلحين، فإنّ تاريخ الشعوب أيضاً يشهد على أنّ أصل المحنة التي يعيشها الناس هي الحكومات الفاسدة، التي تحوّل الواقع الاجتماعي إلى مصيبة في العمق بأساليبها المنحرفة والمستبدة، وبالتاليفإنّ الحياة الاجتماعية وبتبعها الحياة الفردية تكون مُرّة ومأساوية، لذلك فإنّ المسؤولية الأصلية للمثقفين الملتزمين في كل مجتمع، هي التصدي قبل كل شيء للحكام الفاسدين؛ لتطهير المجتمع من أشواكهم التي تعوقه عن التقدم والتكامل، ولتهيئة القاعدة المتماسكة للحكومة الإنسانية، وبالتالي للحياة القيمة الطيّبة، سواء الاجتماعية أو الفردية.

دور الحكومة في المجتمع كدور العقل في الفرد

إنّ الدليل العقلي والتجربي على هذا الأمر هو أنّ المجتمع يشبه الفرد، وبما إنّ الفرد لا يصل إلى السعادة إلّا بإصلاح مركز هدايته وتوجيهه، وهو العقل أو القلب أو الروح، فلو تم إصلاح هذا المركز المهم في ظل الحق والعدالة فسوف يصلح للفرد كل شيء، وفي غير هذه الحالة سوف يعيش الأزمات والمشكلات المتزايدة، ويسقط أخيراً في مهاوي المحنة والذلة. فكذلك المجتمع لا يجد السكينة والأمن والتقدم الحضاري إلّا بإصلاح مركز هدايته وتنظيمه، وهو الحكومة. فلو أنّ الحكومة نُظّمت على أساس الحق والعدالة فإنّ جميع الأُمور أيضاً سوف تنتظم تبعاً لذلك، فتصبح حياة المجتمع وكذا حياة الأفراد طيّبة. وبعكس ذلك فسوف يندفع المجتمع نحو الانحراف والفساد والضلال، وبالتالي انهيار ودمار الحياة الاجتماعية والفردية.

من هذا نخلص إلى أنّ (دور الحكومة في المجتمع) مثل (دور العقل في الفرد)، وبما أنّ المجتمع أهم من الفرد، لذلك فإنّ دور الحكومة التي تمثّل ـ في الحقيقة ـ العقل الاجتماعي، أوسع وأدق من دور العقل الذي يمثّل ـ في الحقيقة ـ الحكومة الفردية، بل الحق أنّ الحكومة لو سارت في طريق الحق والعدالة فسوف تصبح مصدر الهداية، وعاملاً لتكامل عقول الأفراد أيضاً؛ لأنّ عقولهم في ظل حكومة الحق والعدالة هذه سوف تتفتّح وتتكامل، وبدونها سوف تنحط وتضمحل.

ولهذا نرى أنّ الإسلام اهتم كثيراً بمسألة الحكومة العادلة، وشدّد على إقامتها إلى درجة أنّه جعلها من أهداف الرسالة، قال تعالى: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله...﴾[1]، ونرى أيضاً أنّ الشيعة تعدّ الإمامة ـ وهي محور حكومة الحق والعدالة ـ من الأصول الأُولى، وتجعل في مسيرها أهم مسؤولية للمسلمين.

الأُسرة الكبرى والأُسرة الصغرى

قلنا إنّ حكومة العدل قد جعلها الإسلام محوراً تدور عليه جميع الأُمور التي تنتظم بها الحياة الاجتماعية والفردية، ولذلك كانت مسؤولية الحكومة كبيرة والمسؤولية تجاهها كبيرة أيضاً. وفي ذلك يقول عليّ عليه السلام: «وأعظم ما افترض الله سبحانه من بين تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي...»[2]، يعني أنّ هذا الحق ـ المتعلق بالحكومة وهو ذو جانبين ـ أهم من جميع الحقوق، حتى من حق الأب والأُم على أولادهما وبالعكس؛ لأنّ هذا الحق متعلق بالأسرة العامة الكبرى وحق الوالدين متعلق بالأسرة الخاصة الصغرى، وهذا يكون بمعنى أنّ مقام الإمامة والقيادة العادلة، التي هي في الحقيقة محور النظام (الإنساني والإلهي)، أرفع وأسمى من كل مقام ومن كل شخص.

وإنّ كلام الإمام عليّ عليه السلام هذا، والذي هو فوق معرفة السطحيين، وكان قدوةً

١. سورة النساء، الآية ١٠٥.
٢. شرح النهج، ج١١، ص٩١.

للحسينيين، يشكّل أحد الأركان المهمة للمدرسة الإسلامية الاجتماعية، بالرغم من عدم اهتمام العلماء بهذا الأمر كثيراً مع الأسف. والنتيجة الأساسية لكلام الإمام عليّ عليه السلام هذا، هو توسيع أفق فكر الإنسان ورفعه فوق مستوى المسائل الجانبية والشخصية والعائلية والوطنية والقبلية و....، وجعله متناغماً ومنسجماً مع النظام الإلهي والإنساني المتمثّل في حكومة (الحق والعدالة).

وإحدى العلائم البارزة للإمام علي عليه السلام وأصحابه وشيعته، هي أنّهم وضعوا مسألة حكومة الحق والعدالة في الدرجة الأولى من الأهمية، وقدّموها على سائر المصادر الفكرية في الحياة الفردية والاجتماعية، وفي الحقيقة أنّ هذا المفهوم يرشح من ثقافة عالية هي أعلى من سائر الثقافات، وهي ثقافة سيطرة حكومة الحق والعدالة على سيطرة الأب والأم والقبيلة والوطن والتاريخ والاقتصاد، وسائر الأُمور الجانبية المتحكمة بأفكار الناس في الثقافات المتداولة.

والمسيرة الواقعية للبشرية أيضاً هي الاقتراب يوماً بعد آخر من مفهوم سيطرة حكومة الحق والعدالة، والتحرر من السيطرة المحدودة للعائلة والقبيلة والعرق والحزب والوطن وأمثال ذلك، وهكذا تتّجه البشرية بصورة إرادية أو لا إرادية في حركتها الحضارية صوب المفاهيم الإنسانية والعالمية المبتنية على الحق والعدالة أكثر فأكثر.

الكل يعرف أنّ الطفل في البداية يعيش التبعية المطلقة لحليب أُمّه، وحماية أبيه وأفراد عائلته، ثم يتحرر بالتدريج على مستوى بناء وجوده وشخصيته الفكرية المستقلة، فكذلك المجتمعات البشرية في مراحلها الابتدائية، تتحرك في دائرة المسائل الفرعية والجانبية التي أُشير إلى بعضها، ولكنها عندما تسير بموازاة تطور وتقدم الثقافة والعلوم والآداب والمعارف وتوسعة العلاقات الاجتماعية والإنسانية، تبتعد عن قوالبها المحدودة، أي عن أغلال المسائل الفرعية والثانوية الموجبة طبعاً لأنواع التمزق والاختلاف، وتقترب نحو الحقيقة المشتركة، وهي حقيقة الإنسانية المتعالية على جميع المسائل الفرعية والجانبية. وفي مسير كهذا، تدرك المجتمعات الناهضة ـ أكثر يوماً فيوماً ـ أهمية المسؤولية الإنسانية في التحرك الواعي نحو

تطبيق الحق والعدالة في المجالات المختلفة، وخاصة من طريق إقامة الحكومة العادلة الإنسانية لازدهار الحياة البشرية.

اتضح لحد الآن بشكل إجمالي أنّ المدرسة الحسينية أو الإسلامية الإيمانية ترى التلازم الوثيق بين الأبعاد الثلاثة، وهي: الحياة الإنسانية والمسؤولية الإنسانية والحكومة الإنسانية. والآن لِنَرَ ما هو المحور المشترك لهذه الأبعاد الثلاثة؟ فإنّ معرفة هذا المحور المشترك، مضافاً إلى توضيح الأُسُس التي قامت عليها الثورات الحسينية في المجالات الفردية والاجتماعية والحكومية، يؤدّي إلى توضيح الكثير من المسائل المهمة الأُخرى أيضاً، منها: الجذور الحقيقية للصراعات والاختلافات، ومنها: العلة الأصلية لوجود الحكومات الطاغوتية واليزيدية وبتبعها النهضات الحسينية، ومنها: الطريق الأساس لإزالة الانحرافات وأنواع الظلم والجور، ولإقامة حكومة الحق والإنسانية، ومنها: سبب أنّ المدارس الرائجة لا تجد جذور الاصلاحات الأصلية ولا تثمر نتيجة مطلوبة .

ومن أجل معرفة المحور المشترك، لا بدّ من استيعاب المفهوم الأساسي لخطاب الاستنهاض الحسيني، كما ألمعنا إلىٰ ذلك آنفاً،وفي البداية يجب تحليل موضوع مهم في هذا المجال وهو:

النقص الخطير في النظريات الثلاث

لقد بحث العلماء والمحققون كثيراً في مجال الفرد والمجتمع، وأنّه ما هو الأصل منهما؟ هل أنّ الأصل هو الفرد والحياة الفردية؟ أو المجتمع والحياة الاجتماعية؟ أو كلاهما؟ لقد أورد أتباع كل واحدةٍ من هذه النظريات الثلاث أدلة لإثبات مدّعاهم وردّ غيره، ولا مجال هنا لذكر أدلة الأطراف الثلاثة وإشكالاتهم وأجوبتهم، ولكن نشير بشكل مختصر إلى أنّ هذه النظريات الثلاث باطلة، لوجود نقص أساسي في تركيبتها الفكرية.

وهنا نأتي إلى نظرية رابعة وهي الصحيحة، حيث تقول: إنّ الأصل هو الإنسان،

والإنسان ليس هو الفرد ولا المجتمع، وفي نفس الوقت هو يشمل الفرد والمجتمع. وأحد النقائص المشتركة والخطيرة في تلك النظريات الثلاث هو أنّها تقسم الإنسان إلى قسمين: (ذاتي) و(غيري)، وعلى هذا يقوم أساس التقسيم السائد إلى الفرد والمجتمع، ومن هنا أُوجدوا التفرقة والاختلاف والتصادم من الخطوة الأُولى.

وفي الواقع فإنّ جميع الأشخاص الذين يرون الأصالة للفرد أو المجتمع أو كليهما، فإنّهم يبتعدون عن الوحدة الإنسانية، ويُبتلون بازدواجية النظرة إلى الإنسان وهي (الأنا والأنت)، وهذه بمثابة مقراض يقطع ويجزّىء الكيان الإنساني المشترك إلى أوصال مختلفة ومتخالفة، وبالتالي يزرع موجبات الصراع والتنازع طبعاً.

إنّ كلمة (الثنوية) بمعنى الاختلاف مأخوذة من (إثنين)، هذه المفردة تساعدنا في توضيح الأمر أكثر، فنقول: إنّ كل إثنين حتى الأخوين إذا لم يسلكا الطريق الإنساني الموحد ـ بل كانا إثنين في الحقيقة والواقع ـ فسوف يؤدّي ذلك إلى الاختلاف والتنازع بينهما، شئنا أم أبينا. والتبرير الفلسفي لهذا الأمر هو أنّ النظرة الإثنينية ضد النظرة الإنسانية، حيث تخلق طرفين متخالفين طبعاً، فمن جهة هناك نظرة إلى الذات الفردية، ومن لوازمها ترجيح مصالح الفرد، وبالتالي تهيئة الأرضية اللازمة للظلم، ومن جهة أُخرى هناك نظرة إلى الغير، ومن مقوماتها ترجيح المصالح الاجتماعية، وبالتالي إعداد الأرضية لقبول الظلم.

فالأشخاص (الأنانيون) وهم الذين لا يرون إلّا ذواتهم، يسلكون طريق المصالح الشخصية، وطبيعي أنّهم سوف يواجهون الموانع الاجتماعية ومنها حقوق الآخرين، وفي النتيجة يعيشون الصراع مع تلك الموانع فيمسون في موقع الظالمين.

أمّا الأشخاص (المفتونون) وهم الذين يحبسون نظرهم إلى غيرهم، فإنّهم يحقرون شخصيتهم الإنسانية، وبالتالي يعيشون التبعية لرغبات الآخرين، حتى لو كانت رغبات ظالمة، فيتحركون بالطبع من موقع الاستسلام والخنوع.

وأمّا الأشخاص (الحقيقيون) وهم الذين لا يعيشون الظلم ولا الانظلام، فهم متحررون من فخ النظرة الفردية ومن فخ النظرة الغيرية كليهما؛ لأنّهم يجعلون

(النظرة الإنسانية) محوراً أصليّاً لسلوكهم وثقافتهم.

وبتحليل نفساني أكثر عمقاً نصل إلى نقطة مهمة أُخرى أيضاً، وهي: أن ارتكاب الظلم، وحالة قبول الظلم، بالرغم من أنّهما صورتان مختلفتان وجهتان متخالفتان، إلّا أنّهما مشتركتان في الحقيقة؛ لأنّ كليهما وليدتا الظلم والعدوان، وخارجتان عن طريق الحق والعدالة. والواقع العملي أيضاً يظهر لنا أنّ الظالم عندما يرى نفسه متورّطاً في مأزق ومحنة، يتخذ دور المظلوم ويظهر التسليم والخنوع، وعندما تسنح الفرصة للمظلوم القابل بالظلم فإنّه سوف ينقلب على نفسه ويسلك سبيل العدوان والتجاوز على حدود الآخرين. وكما يقول أحد الأدباء: إنّ مَثَل هذا الشخص كالهرّ، فهو شجاع في مقابل الفأرة ولكنّه كالفأرة الجبانة في مقابل النمر.

وأساساً فإنّ هناك قانوناً طبيعياً، وهو أنّ كل إفراط يستبطن التفريط، وكل تفريط يستبطن الإفراط، بل يجب القول إنّ حقيقة الإفراط والتفريط شيءٌ واحد، وهو الانحراف عن حد الاعتدال (الوسطية)، وإنما يختلف شكل الانحراف بمقتضى الظروف والشروط، مثل رقّاص الساعة الذي يتأرجح من جهة إلى أُخرى باستمرار. وعلى هذا الأساس يتضح أنّ في أعماق كل ظالم هناك خصلة الانظلام، وفي أعماق كل مظلوم مسالم ومرائي خصلة العدوان والظلم، ونجد هاتين الخصلتين في الحياة الاجتماعية أيضاً متقارنتين في الوجود والتحقق، ومتقارنتين في التقدم والمسار، ومتقارنتين في الإدانة والسقوط، ولذلك نجد الحسين عليه السلام يواجه الظالمين والمستسلمين على حد سواء، بل إنّه في بعض الموارد يوجّه خطاباته التأنيبية واللائمة إلى المستسلمين، أي الراضين بالظلم والخانعين له، الذين يمثّلون طبعاً الأرضية المناسبة لاستعلاء الظالمين، كقوله عليه السلام: «... ولم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»، يعني أنّ الساكت في مقابل الظالم محشور مع الظالم، والقرآن الكريم أيضاً يصرّح بهذه الحقيقة عن المستضعفين الذين يتّبعون المستكبرين ويقول: ﴿... قال لكلّ ضعفٌ ...﴾[1].

---

١. سورة الاعراف، الآية ٣٨.

القرآن يرى أنّ الفرد بمثابة المجتمع

إنّ أحد إنجازات الإسلام العظيمة هو أنّه أزاح جانباً الرؤية الثنائية (للذات والغير) أو (أنا وأنت)، التي هي صانعة لنوعين من الشيطان (الموجب والسالب) أو (الظالم والخانع)، وأقام مكانها أصل (الإنسانية) أي ملاحظة الإنسان بذاته وجعله محوراً أساسياً، حيث إنّه هو المصدر الأصلي لجميع أنواع الكمال والفضيلة والحبّ والتضحية، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً﴾[1]، هذه الآية العجيبة التي تضع الفرد من الإنسان بمثابة كل المجتمع الإنساني، تؤكّد على حقيقة مشتركة لجميع أفراد الإنسان، وهي الوحدة الإنسانية أو الإنسانية الواحدة، وبهذا تنقذ الإنسان من مستنقع (أنا وأنت) أو (الذات والغير)، وتجعل من الناس أعضاء جسد واحد. وفي الحقيقة أنّ الآية تقول: إنّ الكثرة الظاهرية للناس تعود إلى الوحدة الحقيقية لهم، أو تقول: إنّ الوحدة الحقيقية للناس حاكمة على الكثرة الظاهرية لهم.

ونبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله أيضاً يؤكّد على هذه الوحدة ودور مسؤولية جميع الناس في تحقيقها، وخاصة المؤمنين الذين تحرّروا من أسر العلائق الدنيوية والمادية، فإنّهم يدركون بشكل أفضل هذه الوحدة والمسؤولية الإنسانية الإيمانية المبتنية عليها، فيقول صلى الله عليه وآله: «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[2] (أي بالنصرة والحماية) يعني أنّ الوحدة الإنسانية الإيمانية أصلٌ، والمسؤولية الإنسانية الإيمانية متفرعة ومترتّبة عليها.

والشعراء ذوو البصائر النيّرة أيضاً نظموا أشعاراً جيّدة لطيفة بشأن الوحدة الإنسانية وآثارها المستتبعة للمسؤولية الإنسانية الإيمانية، يجدها طالبها في مظانها.

---

١. سورة المائدة، الآية ٣٢.

٢. شرح النهج، ج ١٤، ص ٢٣٣ الكافي، ج ٢، ص ١٦٦؛ مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٦٨ و ٢٧٦؛ صحيح مسلم، ج ٨، ص ٢٠؛ كنز العمال، ج ١، ص ١٤٣.

الأصل الأساسي هو الإنسان لا الفرد ولا المجتمع

إنّ الهدف من الوحدة الإنسانية لا يعني أنّ الفرد أو المجتمع الإنساني ليست له هوية خاصة، بل المقصود أنّ الأصل الأساس هو الإنسان، لا الفرد ولا المجتمع، فالإنسان أعلى من الزمان والمكان والعرق والتاريخ والاقتصاد والسياسة، بل هو أعلى من جميع المسائل الجانبية والفرعية، وبالنسبة إلى مسألة الفرد والمجتمع أيضاً يجب القول بأنّه بالرغم من أنّ المجتمع والمصلحة الاجتماعية أهم من الفرد والمصلحة الفردية، ولكن الإنسان في نفس الوقت أهم من الفرد والمجتمع كليهما، بل إنّ الإنسان فوق الفرد والمجتمع، وهو مصدر الفرد والمجتمع، والقاسم المشترك بين الفرد والمجتمع، وأساساً فإنّ الفرد والمجتمع والقيم الفردية والاجتماعية، هي مظاهر وتجليّات للإنسان، فلو لم يكن الإنسان والإنسانية، التي هي المحور الأساس والأصل، فلا وجود للقيم الفردية والاجتماعية المتفرعة عن هذا الأصل أو ستكون فارغة وبدون محتوى، حتى لو بقيت تلك القيم موجودة في الظاهر أو على صعيد الإعلام، وعلى هذا الأساس فبدلاً من أن نستند على الفرد والمجتمع والمصالح الفردية والاجتماعية ـ كما يستند على ذلك المصلحون من الناس غالباً ـ فإنّ من الضروري الاستناد والتركيز على (الإنسان والقيم الإنسانية) حيث ركّز الإسلام على هذا الأصل.

ويظهر هنا الدافع العالمي للثورات الحسينية، وهو أنّها لا ترى المصالح الفردية ولا المصالح الاجتماعية أصلاً أوّلياً، بل تهتم بالدرجة الأولى بالقيم الإنسانية التي تعتبر انعكاساً طبيعياً للقيم الإلهية، وتتحرك من موقع الدفاع عنها، حتى لو تقاطعت في الظاهر مع مصالح الفرد أو المجتمع، وهذا على عكس ما يقال: إنّ النهضة الحسينية وشهادة الإمام الحسين عليه السلام كانت من أجل تحقيق مصالح المجتمع. فالحقيقة هي أنّ هذه النهضة كانت تتحرك في طريق الإنسانية، وتنظر إلى الإنسان بأنّه خليفة الله على الأرض، وأنّه لا بدّ له من إقامة الحق والعدالة. وهذا يكون بمعنى أنّ الإنسان هو المحور الأصلي حتى في دائرة الفرد والمجتمع، والأفراد

والمجتمعات إنّما هي مظاهر لهذا المحور الأصلي في الحقيقة.

وهذا الأمر المهم بل الأهمّ ـ وهو انّ الأصل والأساس هو الإنسان لا الفرد ولا المجتمع ـ لا ينحصر إدراكه عن طريق القرآن والعقل والحديث والشواهد الأُخرى، وقد ذكرنا نموذجاً لكل منها، بل إنّ العرف العام أيضاً يؤيّد ذلك حيث يقول: فرد الإنسان ومجتمع الإنسان.. أي أنّ العرف يدرك أيضاً ـ في ضميره الشعوري أو اللاشعوري ـ أنّ الإنسان هو المركز والمحور، وأنّ الفرد والمجتمع مظاهر وتجليات له، كما أنّه يقول من جهات أُخرى أيضاً: تاريخ الإنسان، إقتصاد الإنسان، سياسة الإنسان، ثقافة الإنسان، قوميّات الإنسان، أنظمة الإنسان، وغير ذلك، وهذه كناية على أنّ الأصل هو الإنسان وأنّ بقية الأمور متفرعة عليه.

ومن هنا يتضح أنّ المنشأ الأصلي لمصائب الناس هو تعلقاتهم الخاصة التي تتبلور في أمثال الأمور الجانبية أو الفرعية المذكورة، وتحجبهم طبعاً عن الحقيقة الإنسانية الواحدة والموحدة، وتُفرّق صفوفهم، بل تمنع عن رصّ صفوفهم، وذلك لأنّهم بسبب ابتعادهم عن الإنسانية وتعشقهم بالتعلقات الجانبية، يأخذون الأصل مكان الفرع والفرع مكان الأصل، ومن هنا تُقلب الحقائق وتنحرف الأساليب والمناهج، فتُسلك سبيل الانحطاط والسقوط.

وفي الفلسفة الإسلامية أيضاً نقف على نقطة هامة توضح ما ذكرناه أكثر، وهي أنّ الإنسان عبارة عن روح مشتركة وكليّة، تستوعب جميع الأفراد والمجتمعات تحت مظلتها على حد سواء، يعني أنّ الكلّي كالإنسان ليس مسألة ذهنية فقط حتى يمكن فصله عن حياة البشر، بل إنّ كلّي الإنسان هو حقيقة واسعة موضوعية تتجلى في جميع أفراد الإنسان وتربطهم فيما بينهم، بل كأنّها توحّد بينهم لولا وجود الأهواء النفسية والعلائق الجانبية الدنيوية التي تفصل بعضهم عن البعض، وتمنع من إقامة الحق والعدالة بينهم، فإنّ هذه الروح الإنسانية الكلية تسعى طبعاً ودائماً إلى إيجاد آثارها كالوحدة والمحبة والعدالة.

وممّا تقدم يتضح أنّ الإنسان الحقيقي هو الإنسان الذي يسير صوب الكلّي، ولا

يتوقف في دائرة المسائل الجزئية والجانبية والظاهرية من قبيل: المسائل الشخصية، والعائلية، والعرقية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والجغرافية، والتاريخية، وغير ذلك، بل يتسامى ويتعالى على ذلك ويتحرك في مسار الروح المشتركة الإنسانية، ويجعلها معياراً لكل شيء، بل ويجب القول بأنّ كل إنسان يتوقف في أحد المحاور الجانبية المذكورة وأمثالها، ويسعى فقط من أجل هذه المسألة المحدودة أو تلك، فهو ليس بإنسان أساساً، بل هو في صورة إنسان يتحرّك في مسار وهمي أو رخيص أو متدنٍ، أمّا الإنسان المتكامل والرصين فهو الإنسان الذي يقدّم الكلّي على الجزئي، والباطن على الظاهر، والأصل على الفرع، بل يحكّم الأصل أي الإنسان على الفرع أي على سائر شؤونه، فينطلق دائماً من موقع الإنسانية في حركته الواعية، ويعطي هذا المحور المعرفي الأهمية القصوى، وحتى إنّ تحرّكه في ساحة الواقع الاجتماعي لا يكون من منطلق حقوق الآخرين، بل على أساس حقوق مطلق الإنسان.

وهكذا هو حال الحسينيين، والمؤمنين بشكل عام، حيث يجعلون الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان التي هي محور النظام الإلهي أساس عملهم، وهم يشعرون بالمسؤولية الثقيلة على هذا الأساس، وليست هي المسؤولية الاجتماعية في مقابل المسؤولية الفردية، بل المسؤولية الإنسانية التي هي الأصل للمسؤولية الفردية والاجتماعية أيضاً، وأساساً فإنّ المسؤولية الاجتماعية قسم من المسؤولية الإنسانية، وتنشأ من الروح المشتركة الإنسانية التي تربط بين الفرد والمجتمع، وحكومة الإسلام المنشودة هي أيضاً تقوم على أساس الروح المشتركة الإنسانية لا على أساس الفرد أو المجتمع أو الحزب أو الطبقة أو العرق أو المسلك أو التاريخ أو المنطقة أو سائر الانتماءات الجانبية الأُخر.

ومن هنا يتضح أيضاً أنّ الطريق الأُصولي لتربية الناس وإصلاح أمورهم، هو جعلهم منسجمين ومتناغمين مع الروح الإنسانية الكلية المشتركة، التي هي أسمى من جميع الأُمور الفرعية والظاهرية، وبهذه الروح يمكنهم التوصل إلى الأهداف

الحقيقية وتحقيق المسؤوليات الأساسية، ومع هذه الروح أيضاً تـقلّ الاخـتلافات والنزاعات، وتزداد فرص التفاهم والتضحية والإيـثار، ومـعها أيـضاً تـتهيّأ طـبعاً الأرضية الصالحة لحكومة الحق والعـدالة، ويـتم إيـصاد البـاب عـلى الفـاسدين والمفسدين.

الإمام عليّ عليه السلام الذي هو قدوة للإمام الحسين عليه السلام والحسينيين، أعطى أهمية كبيرة لهذا المنهج الإنساني في كلماته وخطبه، حيث يقول في عهده العظيم لمالك الأشتر: «... إمّا أخٌ لك في الدين أو نظير لك في الخلق...»[١].

وهذا كناية عن (الحقيقة الإنسانية الواحدة) والتـركيز عـليها، وجـعلها مـحوراً وأساساً لكل شيء، وما دام الإنسان لم يغرق في مستنقع الأنانيات والميول الضيّقة، فهي تحقّق في أفراده دورها الأساسي الجامع الذي يكون فـوق جـميع المسـائل الجانبية والسطحية، وتعبّد الطريق الأمثل إلى سائر المسائل الأخلاقية والاجتماعية والسياسية.

النزاع بين العقل والنفس

يمكن القول بأنّ النزاع بين (العقل والنفس) أو (الفضيلة والهـوى) أو (الحـقيقة والمصلحة) وأمثال ذلك من المسائل التي هي موضع بحث العلماء والفلاسفة، هو في الحقيقة نزاع بين البعد الكلي والجزئي للإنسان، فالإنسان من بُعده الجزئي يقع في وادي (الأنانية ورؤية الذات والغير) التي هي المنشأ للعلائق الدنيوية، والمسائل الجانبية، والاختلافات الكثيرة في المجالات الفردية والاجتماعية، ويذهب ضحية الانتهازية والظلم أو الخنوع، وأخيراً يقع ويوقع غيره في شراك الحكومات الفاسدة وغير الإنسانية، ولكنّ هذا الإنسان من بعده الكلي يتحرك ويتقدم في سبيل (الوحدة والمحبة) التي هي مصدر الحريات والتعاون، ويسعى من أجل تطبيق الحق والعدالة وإقامة الحكومة الصالحة والإنسانية، وبالجملة يُحقّق التسامي والتكامل من كل جهة.

---

١. شرح النهج، ج١٧، ص٣٢.

الكثير من العلماء والعرفاء يتحدثون عن الوصول إلى الحقيقة، التي تعتبر مصدر الخير والسعادة، ولكن ما هو الطريق للوصول إلى الحقيقة؟ يمكن القول بأنّه كما يجب لتحصيل نور الشمس الخروج من الظلمات وعدم التقوقع في الظل، فكذلك الطريق إلى نيل الحقيقة، يكمن في التحرر من ظل العلائق الدنيوية وأسر القيود المفرّقة بين الناس، والمثيرة للاختلافات سواءً الفردية أو الاجتماعية، وطبيعيٌ أنّ التحرر من أصل تلك العلائق والقيود إطلاقاً غير ممكن في هذا العالم المادي، بل المراد التحرر من التعشّق والارتباط بها بدون حساب، وبهذا التحرر سوف تتهيّأ بل تتهيّأ الأرضية لظهور الحقيقة، وبالتالي لتطبيق الحق والعدالة، ولنيل أنواع الكمال والسعادة، ولعروج الإنسان نحو لقاء الله، والخلاصة أنّها الأرضية المناسبة لكل توفيق ونجاح.

الإسلام يريد التحليق بالإنسان صوب المطلق

الهدف الحقيقي للمدرسة الحسينية والنتيجة النهائية للملاحم الكربلائية، هي ما أشرنا إليه آنفاً من إزالة العلائق المادية والحجب المظلمة عن طريق التهيّؤ للتضحيات العظيمة من كل جهة، وتحرير الإنسان من الاعتماد أكثر من اللازم على الأمور الدنيوية ـ من قبيل المال والمنصب والزوجة والأولاد والقوم والقبيلة والوطن والاقتصاد والسياسة وسائر المسائل الجانبية ـ ليتوجه صوب المطلق والخلود، لا المقيد المؤدي إلى السقوط أو الكاشف عن السقوط. والخلاصة أنّ هذه المدرسة الإلهية بتعليماتها العملية أعطت وجوداً حقيقياً لمبادىء الشريعة المقدسة، وجسّدت على أرض الواقع العملي تعليمات الأنبياء والإلهيين كمقولة: «موتوا قبل أن تموتوا»، أي تحرروا باختياركم عن أنفسكم وعن العلائق الدنيوية، سواء كانت في البعد الفردي أو البعد الاجتماعي، حتى يمكنكم الوصول إلى الحياة الحقيقية والجنة الواقعية، بالإضافة إلى التنعم بالبركات العظيمة لهذه الحرية حتى في الحياة الدنيوية، وفي ظل هذه الحرية فقط يجد الإنسان في ميدان العمل الشهامة

والاستقامة للدفاع عن الحق والعدالة والتحرك في سبيل إقامة النظام والمجتمع والحكومة الإنسانية، والتي هي (مسؤولية إنسانية إلهية)، وفي هذا السبيل يتصدى طبعاً لقوى الظلم والانحراف المضادة للإنسانية، وبالتالي يحقق من هذا الطريق أسباب السعادة له وللآخرين أيضاً.

وأمّا لو لم تتحرروا من العلائق الدنيوية، أي لم تموتوا باختياركم، فإنّكم سوف لن تصلوا إلى هذه الحقيقة، بل ستتحولون إلى أنانيّين وحمقى تعيشون الجفاف الروحي المتزايد، وتلتقون أخيراً مع قوى الطاغوت لحفظ علقتكم الدنيوية، وتكونون طبعاً من أدواته، والأنكى من ذلك أنّكم إذا حان أجلكم، وكأنّه حان، ستواجهون الموت الحقيقي والوحشة المطلقة عندما تشاهدون تلاشي هذه التعلقات الزائفة، بل إنّكم تعيشون في الواقع حتى في هذه الدنيا الاضطراب والوحشة، لمجرّد تصور تلك العاقبة الرهيبة التي تنتظركم، ولو تشاغلتم بأنفسكم في ألوان من اللعب واللهو وتغافلتم عنها.

إلى هنا توصلنا إلى هذه النتيجة أو النتائج، وهي أنّ أفراد البشر يشتركون في الحقيقة الإنسانية التي تربط فيما بينهم، بل توحّد فيما بينهم، وتقضي طبعاً على الحدود الضيقة والمثيرة للفرقة والنزاع بينهم، وتقودهم في طريق المحبة والإحساس بالمسؤولية، وطبعاً تكوين حكومة الحق والعدالة، والقضاء على الطواغيت والظالمين والمفسدين، وهنا يجب العلم بأنّ هذه الحقيقة المشتركة للناس لا تؤثر في ثقافتهم الاجتماعية فحسب، بل لها تأثير كبير في نظرتهم العرفانية أيضاً، بل إنّه عن طريق التأثير في نظرتهم العرفانية أو الإلهية يتمّ إصلاح ثقافتهم الاجتماعية أيضاً، ولذلك لا بدّ أولاً من الاهتمام بالمعرفة الإلهية حتى يمكن إصلاح الثقافة الاجتماعية على أساسها.

وبالطبع فإنّ الآيات الظاهرة في هذا العالم لها دورٌ كبير في معرفة الإنسان وهدايته إلى الله تعالى، ولكنّ الروح المشتركة للناس التي هي مرآة إلهية، ومركز

الفضائل والمعارف، وما فوق جميع المسائل الخصوصية والعالمية، تعتبر أكبر آية للحق وأكثر تأثيراً من جميع الآيات الظاهرة. وما لم يقع الإنسان في فخ (أنا وأنت) فإنّ الروح المذكورة سوف تربط الإنسان بالله تعالى من جهة وبجميع الناس من جهة أُخرى، فتسعى طبعاً ـ في طريق الله وخدمة الناس ـ إلى إقامة الحق والعدالة، وسحق المنحرفين عنهما.

الارتباط الوثيق بين التوحيد والاتحاد

القرآن الكريم يخاطب جميع الناس في هذا المجال، ويقول: ﴿يا أيّها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾[١]. مفهوم هذه الآية ليس هو التأكيد على الوحدة الإنسانية فحسب، بل الأهم من ذلك أنّ الوحدة الإنسانية ترتبط بشكل وثيق مع التوحيد الإلهي، وفي الحقيقة أنّها تقول: يا أيّها الناس! بالرغم من كثرتكم الظاهرية فإنّ لكم وحدة حقيقية، وفي ظل هذه الوحدة الحقيقية يمكنكم معرفة الله أكثر، ويمكنكم أيضاً تحصيل ملكة التقوى وسائر الكمالات بشكل أفضل.

والسر في أنّ القرآن الكريم يكرر مراراً التأكيد على وحدة الناس أو الحقيقة المشتركة بينهم هو: أنّ تذكّر الوحدة يحذف بالطبع جميع الامتيازات والحدود المفرّقة والمثيرة للعداء من جهة، ويحذف أيضاً التصورات الباعثة على الشرك من جهة أُخرى، وبهذا يهيّىء الأرضية لنمو روح التوحيد والإنسانية وخاصة في أبعادها الاجتماعية، وأساساً فإنّ منطق الإسلام هو: أنّ الروح التوحيدية والروح الاجتماعية مترابطتان جدّاً بحيث إنّهما تنموان وتتكاملان معاً أو تذبلان وتسقطان معاً، ومن ذلك يقول المحققون المطّلعون: إنّ حقيقة الدين تكمن في (كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة)، حيث تقود الناس نحو كمالهم المعنوي من جهة، وفي طريق تحمّل المسؤولية الإنسانية من جهة أُخرى، ومن هنا يتبين أنّ تضييع كل واحدة من

١. سورة النساء، الآية ١.

هاتين المترابطتين يقترن بتضييع الأُخرى، يعني أنّ الماديين الذين تغافلوا في حياتهم عن روح التوحيد، فهم في الواقع سحقوا الروح الاجتماعية والإنسانية أيضاً، وهكذا الرهبان والانعزاليون الذين تغافلوا عن الروح الاجتماعية والإنسانية، فهم في الواقع أبعدوا من صفحة أنفسهم روح التوحيد أيضاً.

والتاريخ أيضاً يبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ الموحدين كانوا في جميع الأعصار إنسانيين ويحبون الآخرين، وفي المقابل أنّ الإنسانيين الحقيقيين كانوا موحدين في الحقيقة، ومن جانب آخر نجد أنّ الملحدين والكفار هم مفسدون وظالمون ولو بشكل من الأشكال، وكذلك نجد المفسدين والظالمين هم كفّار وملحدون في الحقيقة، ولا يوجد حتى مصداق واحد سواء في البعد الفردي أو الاجتماعي أو الحكومي، يكون فيه فرد أو مجتمع أو حكومة ملحدة ولم تستبد أبداً أو مستبدة ولم تلحد أبداً.

وعلى كل حال، فإنّ هاتين الروحين (التوحيدية والاجتماعية) توأمان ومتقارنتان، ومن هنا يعبّر القرآن الكريم عن الثورة في سبيل الله والإنسان بأنّها قيام واحد، فيقول: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾[1]، ونجد كذلك في قلب سورة الفاتحة، التي تعتبر مرآة لكل القرآن وطليعة لكل صلاة ـ أنّ هاتين الروحين مقترنتان أيضاً، فتقول الآية الوسطى منها: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾[2]، فقد جاءت هذه الآية بصورة الجمع لا المفرد، لكي تقول لنا: إنّ الإنسان الإلهي لا يرى نفسه في دائرته الفردية المغلقة، بل في دائرة الإنسان الكلية، وفي الحقيقة أنّ هذه الآية تربط بين الفطرة الإلهية والكلية الإنسانية، وتقود الناس على أساس هذا الارتباط الوثيق في طريق الله الواحد والأُمّة الواحدة، والأهم من ذلك هو أنّه يستفاد منها تلازم هاتين الحركتين بل وحدتهما.

---

١. سورة النساء، الآية ٧٥.
٢. سورة الفاتحة، الآية ٥.

المنطق العجيب

إنّ الحقيقة المشتركة الإنسانية لا يقتصر تأثيرها على تربية (الروح التوحيدية والاجتماعية) فحسب، بل تؤدّي دورها المهم في ظهور النضال الديني والاجتماعي أيضاً، وفي الواقع فإنّ الحقيقة الإنسانية المشتركة لها نوعان من الآثار الإيجابية والسلبية بشكل متواز، فهي من جهة تقود الإنسان في طريق الخلق والخالق، وفي نفس الوقت تطرد المنحرفين عن هذا الطريق من الجهة الأُخرى، حتى لو كانوا من أقرباء الشخص أو المرتبطين به، وفي هذا المعنى نجد القرآن الكريم يتحدث عن نوح‌عليه السلام وابنه المنحرف في جملة جذابة ورائعة فيقول: ﴿إنّه ليس من أهلك﴾[1]، يعني: اطرده وتخلَّ عنه؛ لأنّه ليس من أُسرتك أو الأُسرة الإنسانية. وللاستدلال على هذا يقول في جملة ملفتة للنظر جداً وهي: ﴿إنّه عملٌ غير صالح﴾[2] يعني: أنّ سقوطه من دائرة الأُسرة الإنسانية كان بسبب انغماره في الانحراف بعيداً عن الفطرة الإلهية والإنسانية.

وهناك آيات أُخرى تتحدث أيضاً عن هذه المواجهة الأساسية بشكل أوسع وأجمل، وتؤكّد على هذا المعنى، منها: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[3]، يعني: أنّ الفطرة الإلهية المبتنية على الحق والعدالة أصل، وغيرها لا قيمة له إلّا بميزانها وفي طريقها.

إنّ الجملتين عن نوح‌عليه السلام وابنه مع شدة اختصارهما بحيث إنّهما تمثّلان نصف آية، هما من عجائب المدرسة الإسلامية. هاتان الجملتان تردّان إجمالاً جميع العقائد والمبادىء المنتشرة، وتفتحان أفقاً جديداً وراء جميع المذاهب الاجتماعية والسياسية والأخلاقية الرائجة، والملاحظة الأولى في هاتين الجملتين هي أنّ المحور الأساس فيهما هو الله مع الإنسان أو الإنسان مع الله، حيث يتجلى في

---

١ و٢. سورة هود، الآية ٤٦.

٣. سورة النساء، الآية ١٣٥.

الأرض الحق والعدل بهما، وفي الحقيقة الجملتان ترفضان منطق الصلح الكلي والمسالمة المطلقة مع الجميع وتقولان: بأنّ المؤمنين هم أولئك المجاهدون الحسينيون في طريق الحق والعدالة، وبشكل عام هم السالكون طريق الفطرة (الإلهية والإنسانية)، والمتصدون للمنحرفين الظالمين في كل طبقة، ومن أي مرتبة، ولو كان من أقرب الناس لهم كالابن أو الأب. وفي المقابل هناك أشخاص لا إيمان لهم، وهم الأنانيون وطلاب الدنيا الذين تجنبوا الحق والعدالة، وسلكوا طريق المصالح الشخصية والمطامع الدنيوية، وطبيعي أن يواجه هؤلاء كل من يزاحمهم في هذا السبيل بمنطق القوة والخداع لتحقيق أهوائهم، والخلاصة أنّ المؤمنين يتحركون في مسار الفطرة والحق، وغير المؤمنين يسلكون سبيل الطبيعة والهوى، وهذان المسلكان متضادان ومتقاطعان حتماً.

مثال الظل والنور

وبالرغم من أنّ الطبيعة، أي المصدر الفكري والعملي لطلاب الدنيا، هي كالفطرة، أي المصدر الفكري والعملي لطلاب الحق، من حيث إنّ كليهما تنبعثان من الله وترجعان إلى الله، ولكنّهما في نفس الوقت كالظل والنور، حيث إنّ مصدرهما واحد وهو الشمس ومع هذا فهما متضادان، ولهما آثار متباينة ومتقاطعة، ويمكن أن يقال بعبارات أقصر:

الفطرة هي الشعور الكلّي والموحد للأفراد، وأمّا الطبيعة فهي إحساس جزئي ومنشأ للاختلافات والمواجهة.

الفطرة جذبة إلهية مضيئة، وأمّا الطبيعة فهي سلسلة نفسانية مظلمة.

الفطرة غير محددة وشاملة وأمّا الطبيعة فهي محدودة وملتصقة بالأرض والمادة.

الفطرة تستند إلى القوى الروحية والنورانية وتسير في مسار الحكمة والعدالة والعفة والشجاعة، وأمّا الطبيعة فهي تستند إلى القوى المادية والظلماتية وتسلك سبيل الجهالة والظلم والشهوة والذلة.

رجال الحق وهم الحسينيون، وكذلك أتباع الباطل وهم اليزيديون، يمكن تعريفهم بعدة طرق وعبارات، ويمكن القول: إنّ أفضل تعبير لتعريف هاتين الفئتين هو أنّ الفئة الأولى وليدة الفطرة (الإلهية والإنسانية)، والفئة الثانية وليدة الطبيعة (النفسانية والمادية)، وطبعاً فالفطرة والطبيعة توجدان في كل من الحسينيين واليزيديين، ولكنّ الفرق الأساس بينهما هو أنّ الفطرة في الحسينيين حاكمة على الطبيعة، أمّا في اليزيديين فالطبيعة غالبة على الفطرة، ولهذا نجد أنّ أُسلوب كل من هاتين الفئتين معاكس للآخر، فالحسينيون ـ وهم الأشخاص الذين يسلكون سبيل الله ـ فإنّ طبيعتهم محكومة لفطرتهم، ودنياهم محكومة لآخرتهم، وصورتهم محكومة لسيرتهم، وسياستهم محكومة لدينهم. ولكنّ اليزيديين ـ وهم الأشخاص الطبيعيون والماديون الذين يسلكون سبيل الشيطان ـ فإنّ فطرتهم محكومة لطبيعتهم، وآخرتهم محكومة لدنياهم، وسيرتهم محكومة لصورتهم، ودينهم محكوم لسياستهم.

ومن هنا نجد أنّ هاتين الفئتين متناقضتان في الكثير من الموارد الفكرية والعملية بحيث إنّ لهما رأيين مختلفين، وسبيلين متخالفين، ومدرستين متخالفتين، وحكومتين متخالفتين، وهذا التضاد والتخالف يستمر بل يتسع يوماً فيوماً بين أتباع أحد المنهجين مع أتباع المنهج الآخر، بل يُشاهد أنواع التضاد والتنازع حتى بين أتباع المنهج الثاني أنفسهم، وذلك لكثرة الاختلافات الطبيعية والنفسانية بينهم، وأساساً فإنّ البعد الطبيعي والنفسي في الإنسان يرتبط بالطبيعة، ولذلك تطغى أحياناً بل كثيراً ـ كسائر العوامل الطبيعية نظير الماء والنار ـ فيكون منشأ لأنواع الضلال والتنازع والفساد، كما أنّ العوامل الطبيعية قد تطغى فتكون منشأ لأنواع التخريب، اللهم إلّا أن يسيطر الإنسان عليها كما قد يسيطر على هذه العوامل، فيلجم نفسه بلجام العقل والفطرة ويتحرك في طريق الحق والعدالة ويتصدى لعوامل الظلم والضلالة.

كلمة الإمام عليّ عليه السلام العميقة

هناك كلمة رائعة للإمام علي عليه السلام حول معاوية يقول فيها: «سأجهد حتى أُطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس»[1].

(المعكوس) أبلغ صفة يوصف بها معاوية ويزيد وأمثالهما من طلاب الدنيا بشكل عام، فإنّهم بدلاً من أن يحكّموا الفطرة على الطبيعة، ويجعلوا طبيعتهم النفسية تابعة لفطرتهم، نجدهم على العكس من ذلك يضحّون بفطرتهم لطبيعتهم، ويفدون حقيقتهم لمصلحتهم، ويسحقون العدالة في سبيل المنفعة، والفضيلة في سبيل الشهوة، والقرآن الكريم يقول عن هؤلاء: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾[2]، أي أنّكم سحقتم فطرتكم ووجدانكم وعقلكم ـ وهي طيبات الإنسان في مقامه الملكوتي ـ من أجل الطبيعة والصناعة والسياسة واللذات الدنيوية، وفي الحقيقة جعلتم من حياتكم الدنيا الحقيرة والزائلة ـ عوض حياتكم الآخرة الأصلية والأبدية ـ كعبتكم ومرادكم وهدفكم النهائي، ولذلك ترسّخت فيكم الصفات المعكوسة والمضادة للحق، وفي النتيجة قاتلتم وحاربتم كل من يقف في طريقكم، وخاصة رجال الحق المضادين لكم طبعاً.

صاحب كتاب (العقد الفريد) يذكر أحد الشواهد اللطيفة لخُلق معاوية المعكوس فيقول:إنّ أحد العلائم والسمات العجيبة في معاوية أنّه كان يضحك عند الغضب[3]، والضحك ضد الغضب ومن الطبيعي أن لا ينسجم معه، ولكن بما أنّ معاوية جعل فطرته أسيرة طبيعته، وعقله أسير نفسه، والدين أسير سياسته، فلذلك ابتعد عن طريق الحقيقة وأوغل في طريق الخدعة والسياسة، وبالتالي كان معكوساً في خُلقه وأعماله، وبديهي أنّ هؤلاء الأشخاص الذين يعملون بمقتضى مصلحتهم الدنيوية، فإنّهم يضحكون في حال الغضب، ويبكون في حال الفرح، ويصوّرون الكذب صدقاً

---

١. شرح النهج، ج١٦، ص٢٨٩.
٢. سورة الأحقاف، الآية ٢٠.
٣. العقد الفريد، ج٥، ص١٥٥.

والصدق كذباً، وبشكل عام فإنّهم يُظهرون كفرهم إيماناً وإيمان رجال الحق كفراً، وبهذا الأُسلوب والمنهج المنافق يقلبون الواقعيات والحقائق في أنظار الكثير من الناس، ويعملون على اضلالهم، لتوطيد سيطرتهم وسلطانهم عليهم.

الإمام علي؈ يحذّر أيضاً من كيفية سيطرة معاوية وأمثاله، والآثار الانحرافية لهذه السيطرة ويقول: «لُبِس الإسلام لبس الفرو مقلوباً»[1].

يعني، أيّها الناس: إنّ خطر معاوية الكبير هو أنّه يُظهر الإسلام ـ وبشكل عام المقدسات الدينية والاجتماعية ـ للناس، ولكن بصورة مقلوبة ومعكوسة، أي كما قد يُلبس الفرو مقلوباً، كذلك يُلبس الباطل ثياب الحق، ويعمل على سحق الحقوق الإلهية والإنسانية للناس من أجل المقاصد الشخصية أو المالية أو المقامية أو العائلية أو السياسية أو غيرها، التي هي بأجمعها أغصان وفروع للذات الفردية (أنا)، وهذه هي خصلة الشيطان التي تتجلى في جميع الظالمين، كما يتحدث القرآن الكريم[2] وسائر الكتب السماوية عن ذلك، وأنّ طبيعة الشخص تتحدد في قالب (الأنا)، وعند هذه الأنانية تضعف أو تُسحق الفطرة الإلهية فيه، فلا يرى سوى نفسه وذاته، ولذلك يعمل على إقصاء غيره ومنازعته، بل وإنّه يعترض على الله تعالى ويعمل ضده بسبب أنانيته.

أهمّ درسٍ من قصة الشيطان وآدم

إنّ أهم درس يمكن استفادته من قصة الشيطان وآدم، هو أنّ الشيطان متمثّل في (الأنا)، وكذلك (أنا) ممثّل للشيطان، والإنسان لا يمكنه تحطيم كثافة الظلام المتراكم على قلبه، والتخلص من السقوط في مستنقع الرذيلة، والتحرك في صراط الله باتجاه السعادة، إلّا أن يتخلص أولاً من (الأنا) أو طبيعته الشخصية، أي من الانغمار في تعلقاته الفردية والاجتماعية، ولا أقل من السيطرة عليها، وإلّا فإنّه سيكون مثل الشيطان الذي يبتعد عن الفطرة الإلهية، فيواجه الحق تعالى والبشر الحقيقيين

---

١. شرح النهج، ج٧، ص١٩١.
٢. سورة الأعراف، الآية ١٢؛ وسورة ص، الآية ٧٦.

المؤمنين به من موقع الأنانية، ويُوجد أنواع الفتن والحروب والنزاعات المختلفة.

إنّ صفحات التاريخ أيضاً تشهد بأنّ جذور جميع ألوان الانحراف والفساد لأهل الدنيا، هي أنّهم ابتعدوا عن فطرة الحق، وتمسكوا كالشيطان بـ(الأنا) وهوى النفس، ولو في قوالب الطائفة والحزب والوطن والمنهج و...، ولذلك فهم يسلكون سبيل شهواتهم النفسية المنحرفة غالباً، وبالتالي يتجهون نحو العدوان على حقوق الآخرين.

معاوية الذي كان أحد هؤلاء المنحرفين، وكما يقول الإمام عليّ عليه السلام هو قالب الشيطان، بل قلب الشيطان «إنّما هو الشيطان»[1]، نموذج بارز لحبّ (الأنا) وآثاره المشؤومة، فهو من أجل تبرير جريمته في ولاية عهده ليزيده يسحق مصالح المسلمين، ويخدع البسطاء منهم بأنواع الأساليب الإعلامية والمالية والإرهابية، ولكنّه مع ذلك قد يصرّح بدوافعه الحقيقية لارتكابه لهذه الجريمة العظيمة ويقول: «إبني أحب إليّ من أبنائهم»[2]، يعني أنّه يقدّم ابنه يزيد على جميع صحابة رسول الله، وحتى على أهل بيته الأكرمين وعلى مصالح الإسلام والمسلمين، لمجرد أنّه ابنه، ويزيد الذي كان هو أيضاً شيطاناً بمظهر إنسان، أو إنساناً بمظهر شيطان، استند في ارتكابه لفاجعة كربلاء إلى مسند (الأنا) وقال: (ليت أشياخي ببدر شهدوا)، (واتّبعت الشيخ فيما قد فعل)، يعني أنّ ما فعلت من جناية قتل الحسين وأهل بيت النبي، كان لمرضاة آبائي ـ كأبي سفيان ـ أي لنفسي.

والخلاصة فإنّ (الأنا) في معاوية أثمرت ولاية عهده ليزيده ونظائرها، وكذلك (الأنا) في يزيد أثمرت فاجعة كربلاء ونظائرها، وبشكل عام فإنّ كل (أنا) تمثّل مركز العلائق النفسية والدنيوية المضادة لله وللإنسان، والتي لها نتائج جهنمية خطيرة، حتى إنّ الشخص المؤمن لو غرق في قالب (الأنا)، لأصبح محجوباً بحجاب الطبيعة والأهواء النفسانية، وابتعد عن طريق الله الذي هو طريق الحق

---

١. شرح النهج، ج١٦، ص١٧٧.

٢. الامامة والسياسة، ج١، ص١٩٦؛ العقد الفريد، ج٥، ص١١٠.

والعدالة، وعمل في سبيل تأمين مصالحه الشخصية أو الاجتماعية ضد الآخرين، وتجاوز على حقوقهم سراً أو علانية.

(الأنا) أو مصدر الظلم والفساد

التفسير العلمي لهذا الموضوع الأساس هو أنّ (أنا)، الذي يكون في الحقيقة مظهراً من مظاهر الطبيعة، لا تكتفي بإثبات نفسها فحسب، بل تقوم كسائر مظاهر الطبيعة بنفي الغير، أو هي أساساً نفي الغير، كما أنّ التكبر ليس بمعنى إظهار الكبر فحسب، بل مضافاً إلى ذلك تحقير الآخرين، أو أنّه في الأصل تحقير الآخرين، فـ(الأنا) كما رأينا في مورد الشيطان قالب محدود معتكف في الذات وضد للغير، سواء كان الغير مخلوقاً أو خالقاً، وبالتالي يوجب ظهور أنواع النزاعات وألوان الظلم والفساد.

(الأنا) هو هوى النفس الذي يتأطّر بإطار خيالي ويعمل على الضد من كل شيء غير ملائم له، ويحاول سحقه والتغلب عليه.

(الأنا) سيف مسموم يستطيع أن يفرّق حتى بين أخوين مثل قابيل وهابيل، ويؤدّي إلى الفتنة وسفك الدماء.

والخلاصة فإنّ (الأنا) هي الطبيعة الشخصية المثيرة للخلافات، والمضادة للفطرة الإلهية والاتحاد، وهي الأصل الذي أوجد أو يُوجد أمثال معاوية ويزيد، وألوان المذاهب والأديان المنحرفة، والحكومات الطاغوتية والأنظمة الالحادية من جانب، وهي الموجبة للإطاحة برجال الحق أو استشهادهم ـ أمثال الحسين عليه السلام ـ من جانب آخر.

ومن المؤسف أنّنا نرى في أكثر الأدوار التاريخية أنّ هذه الروح الشيطانية (أنا وأنت) مسيطرة على الكثير من الناس، تحت ستار التعصب المفرط بالنسبة إلى العشيرة أو القبيلة أو الوطن أو القومية أو المجتمع أو المنهج أو المال أو المنصب أو غير ذلك من الأمور الجانبية، التي تؤدّي إلى ضلالهم وفسادهم واقتتالهم فيما بينهم،

وفي هذا الوسط هناك ثلّة قليلة من الأشخاص المؤمنين، الذين يتخذون الحق والعدالة معياراً أصليّاً، ويلقون بـ(الأنا والأنت) وما يترتّب عليهما بعيداً، ويتحركون في الواقع السياسي والاجتماعي مهما أمكنهم وفق المذهب (الإنساني الإلهي) الذي يقوم على وحدة الناس وتعاونهم ومساواتهم أمام قانون الحق والعدل الإلهي.

ونرى هذا الطريق والمنهج بكل وضوح في سيرة الإمام عليعليه السلام منذ اليوم الأول لحكومته، حيث ألقى بالقوالب الوهمية المفرقة لـ (أنا وأنت) وانخرط مع الناس وجماعتهم، وقال: «أيّها الناس إنّما أنا واحد منكم لي ما لكم وعليّ ما عليكم والحق لا يبطله شيء»[1]، وكما رأينا فإنّهعليه السلام كان في ميدان العمل أيضاً إلى جانب الناس، ولم يفرّق رغم وجوده على رأس السلطة بينه وبين أتباعه ـ بل ولا بينه وبين معارضيه ـ أمام القانون الإلهي. الإمام الحسينعليه السلام أيضاً كان على مثال أبيه عندما صرّح بماهية نهضته المقدسة والهدف من وراء ذلك، فقال: «نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم»، يعني: أكون أنا معكم وأُسرتي مع أسركم، فنجعل الميزان لكل شيء الحق والعدالة، وسنواجه المنحرفين عن سبيل الحق والعدالة. القرآن الكريم أيضاً يقول متحدثاً عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: ﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم ...﴾[2]، وهناك عبارة دقيقة أُخرى في القرآن الكريم في هذا الصدد حيث يقول: ﴿رسول من أنفسكم...﴾[3].

التصريحات والكلمات الآنفة لا تفصح عن أمر عادي، بل لها أهمية كبيرة. فينبغي لنا العلم بأنّه لماذا النبيصلى الله عليه وآله حال أداء رسالته، والإمام عليّعليه السلام عند خلافته، والحسينعليه السلام حين نهضته، تحركوا من موقع الانسجام مع الناس، بل التوحد مع الناس. وبدلاً من الاستناد إلى الوعد والوعيد، كما يصنع أكثر القادة والزعماء، فإنّهم قبل كل شيء نفوا (الأنا والأنت)، وألغوهما نهائياً، وجعلوا الإنسان والله تعالى وبالنتيجة الحق والعدالة محوراً للعلم والعمل، والفكر والحركة، والأُطروحة والمنهج.

---

١. شرح النهج، ج٧، ص٣٦.
٢. سورة الكهف، الآية ١١٠، وسورة فصّلت، الآية ٦.
٣. سورة التوبة، الآية ١٢٨.

إنّ الرمز لهذا المنظار الثوري الخاص هو أنّ رجال الله أدركوا أنّ (الأنا والأنت) ـ كما يؤكّد ذلك الفلاسفة ـ ماهيّات مفرّقة ومظلمة، وتتجلى في أشكال مختلفة من المنافع المادية والمالية والسياسية والقومية والوطنية والمسلكية وأمثالها، وتبعث على انحطاط الناس وتحركهم من موقع الأنانية الضيقة والمضيقة بعيداً عن طريق الحق والعدالة، وهذا يؤدي بالتالي إلى نشوء الحكومات اليزيدية وإلى استشهاد الحسينيين، ولذلك فإنّ رجال الله يسعون بتعليماتهم الهادية، وإقداماتهم العادلة أن يربّوا الناس تربية (إلهية وإنسانية) حتى يتخلصوا من شراك (الأنا والأنت)، فيسلكوا طريق (الله والإنسان) أو (التوحيد والاتحاد)، وطبيعي أنّ الناس في هذا المسير سيتصلون، بل يتحدون فيما بينهم فيشعرون بالمسؤولية تجاه الآخرين، ويواجهون القوى الفاسدة اليزيدية المحاربة لله والإنسان والحق والعدالة، وبذلك يعبّدون الطريق أمام تعاليهم وتكاملهم الحقيقي.

جذور الإحساس بالمسؤولية

ومن أجل توضيح هذا الأمر أكثر، لدوره المحوري في المسائل الإنسانية وخاصة في النهضات الإلهية والحسينية، ينبغي أن نعلم أولاً: لماذا صار الإنسان موجوداً هادفاً وملتزماً، أي شاعراً بالمسؤولية ومستعداً للتضحية في سبيل الحق والعدالة والتصدي للمنحرفين الظالمين؟

لو دقّقنا النظر لوجدنا أنّ الأساس الحقيقي للإحساس بالمسؤولية هو الشعور بالوحدة والتوحيد المضاد لـ (الأنا والأنت) أو (الذات والغير)، فالأشخاص الذين لا يشعرون بالوحدة والتوحد، ويتورّطون في (الأنا والأنت)، فمن الطبيعي أن يشعروا بانفصال بعضهم عن بعض، ويكونوا مستعدين ـ من أجل ضمان وحراسة مصالحهم الشخصية ـ لمصادرة مصالح الآخرين وسلبهم لأبسط حقوقهم، فعلى هذا يجب القول: إنّه من أجل هداية الناس إلى التفاهم والتعاون والعمل بالمسؤولية (الإنسانية الإلهية) فإنّ الطريق الوحيد المثمر لذلك هو تحرير الناس وإنقاذهم من قوالب (الأنا

والأنت) في أي صورة أو اسم أو اصطلاح كانت، وهدايتهم إلى أُفق المطلق (غير المحدود) أو (الكلية وعدم التعيّن)، فتكون النتيجة هي أنّ الشخص لا يرى الغير غيراً بل يعدّه جزءاً منه.

ومن الطبيعي أنّ الإنسان بهذه الرؤية الكلية والشاملة، سوف يرى مصلحة الآخرين متلازمة مع مصلحته، بل هي عين مصلحته، أي أنّه لا يرى هناك مصلحتين حتى يضحي بأحداهما من أجل الأُخرى، بل مصلحة واحدة هي مصلحة الإنسان التي هي فوق مصلحه الفرد والمجتمع، وبهذا يكون الناس كأعضاء بدن واحد يشعرون بالمسؤولية تجاه الآخرين، كما قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حديثه الشريف والخالد الذي ذكرناه سابقاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعىٰ له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»، يعني أنّ المؤمنين ذوي الفطرة الحية هم كالجسد الواحد، ولذا يشعرون بالمسؤولية تجاه الآخرين، ويتحركون من منطلق الرسالة لا من موقع الذات، فيعيشون الوعي في ساحة الواقع السياسي على مستوى الدفاع عن القيم الإنسانية والمثل الإلهية، لا عن الأهواء النفسية والمقاصد الفاسدة الفردية أو الاجتماعية.

رؤيتان متباينتان

بعض العلماء أمثال العلّامة الطباطبائي يقول: إنّ الأصل الأولي في البشر هو الاستخدام الذي يبعث بالتالي على التنازع والصراع. وفي مقابل هذه النظرة يعتقد البعض كالشهيد المطهّري بأنّ الأصل الأولي في البشر هو المحبة والإيثار الذي يؤدي بالتالي إلى التعاون والتضحية[1].

ولكن الحق كما ذكرنا سابقاً هو أنّنا لو نظرنا إلى الإنسان من زاوية (الأنا والأنت)، أو (الجزئية والطبيعية) فإنّ النظر الأول هو الصحيح، ولكن لا ينبغي أن ننظر بهذا المنظار، وأمّا إذا نظرنا إلى الإنسان من (لا نهائية الإنسانية) أو (الكلية

١. مقولة أبديّة الأخلاق من المجلد الاوّل من كتاب حياة الشهيد مطهّري.

والفطرة)، وينبغي أن ننظر من هذا المنظار؛ لأنّ هذا هو الصحيح، فيجب علينا القول خلافاً للنظر الأول: إنّه بالرغم من أنّ التنازع والصراع في حياة البشر حالة مستديمة في مسار التاريخ البشري، إلّا أنّ المنشأ لذلك ليس هو المركز المشترك والعامل الإنساني الموحّد في البشر المعبَّر عنه بالوجدان البشري أو الفطرة الإلهية أو غير ذلك، بل هو الشراك الفرعية والعلائق غير الصحيحة الفردية أو الاجتماعية الباعثة على بروز هذه التناقضات والنزاعات وأنواع العدوان والصراع في كربلاء وعاشوراء بل في كل أرض وفي كل يوم.

وعلى سبيل المثال فإنّ أغصان وأوراق الشجرة قد تتنازع فيما بينها، ولكن من الواضح أنّ هذا التنازع إنّما هو في الدائرة الفرعية والإطار الجزئي، وتحت تأثير الرياح، وإلّا فإنّ الأساس والأصل في الشجرة يقتضي التعاون والاتحاد والانسجام حيث ينبع من مركزية ومحورية واحدة وموحّدة، وطبعاً فإنّ هذه المحورية تجعل من أجزاء الشجرة مجموعة متحدة ومنسجمة وكأنّها مسؤولة بعضها عن بعض، وفي ظل هذه الوحدة والمركزية الواحدة يتضح أنّ التيارات الحادثة المفرّقة بين الأجزاء أو الأعضاء ليست واقعية وليست باقية، بل إنّها مثل الفقاعات على الماء سطحية وموقتة، بل ما أكثر ما تكون خيالية وصورية.

وهكذا الأمر في المجاميع البشرية إذ تمتلك طبعاً مركزية ومحورية واحدة، وهي الفطرة الإنسانية التي توحّد بينهم جميعاً، وتبرزهم في صورة حقيقة واحدة في قوالب متعددة، ولذا تجعلهم مسؤولين ومتعاونين إلّا في حالة الأنانية والابتعاد عن تلك الحقيقة الواحدة والتورّط في المسائل الجانبية المستتبعة طبعاً لأنواع الاختلافات، كالمال والمنصب والأُسرة والوطن والخط السياسي وأمثال ذلك، ففي هذه الصورة تقع البشرية بالطبع ضحيّة ألوان الصراعات والتناقضات وتتولد من ذلك الفواجع الإنسانية مثل كربلاء ونظائرها. فلو أنّ الناس لم يقعوا أسرى هذه المسائل الفرعية المتضادة، لساروا في مسير الفطرة والتوحد والانسجام، ولعملوا بهداية حقيقتهم المشتركة بمسؤولياتهم الاجتماعية أيضاً، ولنالوا سعادة الدنيا والآخرة معاً.

وأهم خصائص الإنسان، بل أساسها أنّه يتأرجح دائماً بين هذه المسائل الفرعية المتضادة وتلك المركزية المشتركة والموحدة، أي بين الجزئية والكلية أو بين الطبيعة والفطرة أو بين النفس والعقل أو بين المنفعة والحقيقة. ومن هنا يُعلم أيضاً ميزان قيم أفراد البشر، وأنّها حسب مقدار التزامهم بهذا الطرف أو ذاك.

ومن خلال هذه النظرة الأصولية في هذا الكتاب ـ المستندة إلى المركزية المشتركة للناس جميعاً ـ التي لم يسبق إليها غيره ظاهراً، نقول: إنّ التفاهم والتعاون بين الناس، وكذلك جذور حب النوع وحب الآخرين والميول الاجتماعية، وكذلك المسائل الأخلاقية والعاطفية، وكذلك ألوان الأواصر الاجتماعية والحكومية، وكذلك النهضات الإصلاحية للبشرية، والخلاصة فإنّ المسلك الصحيح لجميع أبعاد التفكير البشري وحياة الإنسان، كل ذلك ناشىء من الحقيقة المشتركة والفطرية للإنسان، وكذلك جميع الحركات الثورية الحسينية وبالتالي جميع أشكال التسامي والتكامل الإنساني وأحياناً الاستشهاد في هذا السبيل هو من ثمار هذه الحقيقة (النظرة الإنسانية الإلهية)، وبالعكس فإنّ جميع الحركات اللاإنسانية واليزيدية، وبالتالي ألوان الانحرافات والجرائم تتحقق بسبب الابتعاد عن هذه الحقيقة، الابتعاد الذي يكون بمعنى الانغمار في العلائق الدنيوية والأهواء النفسية أو الجانبية أو السطحية.

الثقافة الجديدة

إنّ تيّار (النظرة الإنسانية الإلهية) يؤدي إلى تحول عظيم، لا من حيث الجوانب العملية فحسب، بل من حيث الأبعاد العلمية أيضاً، فهذا التيار يُظهر الإنسان بمثابة حقيقة واسعة تشمل جميع أفراد الإنسان فتؤلّف بل توحد بينهم، ولا يحصره في قوالب محدودة توجب التفرقة بل العداوة بين أفراد الإنسان، وعلى هذا الأساس يحرّره من القيود النفسانية والدنيوية الموجبة للانحطاط ويحرّكه نحو أنواع التعالي والكمال، وطبيعيٌ أنّ هذا المنظار الواسع والثوري يؤسّس لنا ثقافة جديدة يطول شرحها، وتحتاج إلى بحث خاص، بل إنّ هذا المنظار سوف لا يُبقي مجالاً أصلاً

لبعض البحوث المستعصية الفهم، التي كانت مدار بحث كبير بين العلماء، من قبيل البحث الأخلاقي في (أنّ الفرد للمجتمع أو المجتمع للفرد؟)، ومن قبيل البحث الاجتماعي في (أنّ الأقلية للأكثرية أو الأكثرية للأقلية؟)، ومن قبيل البحث السياسي في (أنّ الدولة للشعب أو الشعب للدولة؟)، فإنّه مع ذلك المنظار لا تصل النوبة إلى هذه الأبحاث حتى يلزم التعمق فيها؛ لأنّ مفهوم (اللام) التي هي محور مثل هذه الأبحاث هو أنّ أحد طرفيها مقدمة ووسيلة للآخر. فعلى فرض أنّنا نظرنا من منظارنا الكلي المذكور آنفاً، وتصورنا الناس في طريق التوحيد والاتحاد، وابتعدنا عن (الأنا والأنت) أو (الذات والغير)، فليس هناك شيء يكون مقدمة للآخر وأنّ أحدهما وسيلة والآخر هو الهدف، حتى يكون هناك مجال لتلك البحوث.

وعصارة نهضة الحسينعليه السلام الدامية، وجميع الحركات الحسينية بشكل عام، أنّها ـ على أساس المنظار المذكور ـ تهدف بالدرجة الأُولى إلى تحرير الناس من أنواع الانحراف والتفرقة الناشئة ـ في الحقيقة ـ من (الأنا والأنت) أو (الذات والغير)، المثيرة للاختلاف والتنازع بين الناس من أجل العلائق الدنيوية أو بذريعتها، فالمنظار المذكور منظارٌ أصلي، ويسلك بالإنسان مرحلة أسمى من الاعتماد على الأمور الجانبية المذكورة من قبيل الفرد والمجتمع والأقلية والأكثرية، والحكومة والشعب، ونظائرها المتضادة فيما بينها، وذلك المنظار هو مسار الفطرة (الإلهية والإنسانية أو التوحيد والاتحاد أو الحق والعدل) الذي هو منبع ألوان الانسجام والتضحية والإيثار والتكامل، خاصة في مقابل القوى الطاغوتية التي هي بمثابة أشواك في طريق التوحيد والاتحاد، وطفيليات في طريق الدين والإنسانية، ومن هذا المسار فقط يستطيع الإنسان التعالي والتكامل الدنيوي والأُخروي، حتى لو لم يجد نفعاً ظاهرياً، بل حتى لو تضرر في الظاهر.

والمؤاخذة الأساسية التي يمكن أن يؤاخذ بها جميع العلماء المصلحين تقريباً، هي أنّهم أولاً: لم يهتموا بصورة كافية بمفهوم الإنسانية الواحدة والفطرة الإلهية فيها، والتي تعتبر أهم مسألة للإنسان، والعامل الوحيد على تحرره وتكامله، وبناء ذاته،

والسبب الوحيد لنيل السمات الحقيقية والقيم الخالدة، وأخيراً الطريق الوحيد للوصول إلى الله تعالىٰ. وثانياً: لم يجعلوا هذا المفهوم السامي محوراً لبرامجهم التربوية، بل استندوا كثيراً إلى مسائل جانبية وفرعية من قبيل الفرد والمجتمع، والأقلية والأكثرية، والحكومة والشعب، والسلوك، والحزب، والاقتصاد، والتاريخ، وأمثال ذلك ممّا له قيمة فرعية لا قيمة أصلية، ولهذا لم يصلوا إلى النتيجة المطلوبة، بل دفعوا الإنسان بسبب هذه المسائل الفرعية في هوة الصراعات والمشاكل حتى في هذه الدنيا.

كبرى مسؤوليات المصلحين

رأينا في الصفحات السابقة أنّ المدرسة الإسلامية الإيمانية تنمو وتترعرع في خط الإمام الحسين عليه السلام والنهضات الحسينية المتمحورة حول الحقيقة المشتركة بين أفراد الإنسان، وهي الروح (الإنسانية الإلهية)، التي هي منشأ الحق والعدالة ومصدر الفضائل والتعالي ومنبع الدوافع الثورية والإصلاحية، ومن هذا الطريق فقط تتهيأ الأرضية اللازمة للنجاحات الحقيقية للإنسان في مساره التكاملي، سواء كانت من البعد الفردي أو الاجتماعي أو الحكومي، ولكن لِنَرَ هنا، كيف يتضح ويتسنّى للفرد سلوك هذا الطريق وبأيّة وسيلة؟

الوسيلة لذلك هي أن يقوم المربّون للمجتمع بإرشاد الناس نحو الروح (الإنسانية الإلهية)، واستجلاء مضمونها الاجتماعي المستلزم للانسجام بين الروح الإلهية والروح الإنسانية، أي بين التوحيد والاتحاد، وبيان استتباعهما ضرورة إجراء الحق والعدالة، وتوضيح الثمار والنتائج الكبيرة المترتبة على ذلك، وكذلك استتباعهما التصدي للقوى الفاسدة والظالمة، وخاصة من طريق تذكيرهم المتوالي بتضحيات الإمام الحسين عليه السلام وسائر الحسينيين في طريق الحق والعدالة، وبهذا يحررون أولاً ضمير أفراد البشر المستعدين، من القيود المادية المظلمة، ويحركونهم ثانياً: في مسير الدفاع عن الصلاح والحق وأهله، والتصدي للفساد والباطل وأهله.

ومن الطبيعي أنّ الناس بعد هذه التربية الإيمانية والثقافية سيكونون حماة الحق، ويواجهون الحكومات الفاسدة والمنحرفة، ويتصدون للقضاء عليها عملياً أو سياسياً، وبذلك يعبّدون الطريق للحكومة (الإلهية والإنسانية).

خطاب الإمام الحسينعليه السلام الثوري، نموذج واضح يكشف لنا دور المصلحين الإلهيين بصورة جيدة، فالحسين يقول للناس بكافة طبقاتهم وخاصة الوعاظ والمسؤولين عن إرشاد الناس: «ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به وأنّ الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقّاً فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً»، أي في مثل هذه الحالة المزرية، تتعاظم مسؤولية المسلمين، وخاصة الشخصيات المهمة منهم، حيث يجب عليهم تطوير المناعة الذاتية للناس، ومخاطبتهم بالطريقة التي تثير فيهم كوامن الإيمان، ودوافع التصدي للحكام الظالمين، لزعزعة دعائم سلطتهم وتهيئة الأرضية لحكومة الحق والعدالة أي للحكومة الإلهية الإنسانية.

مَن المسؤول عن الحكومات الفاسدة؟

النبي الأكرمصلى الله عليه وآله يثني أيضاً على هذا المنهج الثوري والبنّاء في جملة قصيرة وعميقة المحتوى متّفق عليها بين المسلمين جميعاً، فيقول: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر»[1]، فإنّه بهذه الوسيلة يتمّ إثارة الناس ضد حاكم الجور؛ لتهيئة الأرضية للإصلاح، وأحد التفسيرات لهذا الحديث النبوي، هو أنّ الحكام في كل مجتمع ـ في الحقيقة ـ مرآة لنفسيات ذلك المجتمع وثقافته، فلو أنّ بعض الناس ـ على الأقل ـ استيقظوا وانتبهوا بإرشاد وهداية رجال الله، ووقفوا على مسؤوليتهم الخطيرة في جهاد حكام الجور، وتحركوا للعمل على إسقاطهم، فلا شك في تأثير هذا العمل تأثيراً كبيراً على كافة أفراد المجتمع، وأنّه سوف يثير فيهم العواطف الإنسانية والأحاسيس الثورية، إلى درجة أنّ حكام الجور يضطرّون إلى التنازل عن

١. شرح النهج، ج١٩، ص٣٠٦؛ الوسائل كتاب الأمر بالمعروف الباب الثاني؛ مسند أحمد، ج٣، ص١٩.

الحكم، أو إلى قبول رعاية المصالح العامة والحركة في مسير خدمة الناس؛ لكي يحافظوا على مكانتهم، وهذا هو الأصل الكلي الذي له شواهد تاريخية وتجريبية كثيرة.

الإمام الحسينعليه السلام أيضاً بالاستناد إلى هذا الأصل الكلي يقول في كتابه الثوري: «وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه فإنّ السنة قد أُميتت وإنّ البدعة قد أُحييت»[1].

وفي الحقيقة فإنّ الحسينعليه السلام بهذه الرسالة المختصرة يبيّن حقيقة مهمة جداً، وهي أنّ قدرة الثوريين ـ خاصة المؤمنين منهم ـ أعلى قدرة بشرية يمكنها نشر أمواج المطالبة بالحرية والعدالة في حياة الناس وثقافتهم، فتجمع للرسالة الإسلامية جمهورها المتحرك، وتترجم العواطف الإنسانية إلى ممارسة ميدانية ضد قوى الانحراف والزيف، وبالتالي تطهير المجتمع منها، ولا أقل من إضعافها وتعبيد الطريق للإصلاحات الجذرية.

ومن خلال الحديث النبوي الشريف المذكور، ومن مقولة الإمام الحسينعليه السلام في كتابه ومن جملة كلماته السابقة، تتضح لنا نقطة أساسية أُخرى، وهي أنّ المسؤول عن استيلاء وبقاء حكام الجور والحكومات الفاسدة على كراسي الحكم، هم الناس أنفسهم، الذين يساعدون هذه الحكومات، وعلى الأقل يلتزمون الصمت والسكوت حيال أعمالهم الفاسدة، وإلّا فالناس إن لم يعينوهم أو لم يسكتوا عنهم، فإنّه من غير الممكن استطاعة الحكام الفاسدين التسلط على رقابهم، وتعريض مصالحهم الدينية والدنيوية إلى الخطر، وفي الواقع فإنّ الإمام الحسينعليه السلام يستند في قوله: «أنا أدعوكم إلى كتاب الله و...» إلى دور الناس المهم في قبال الحكام، ويرى أنّ قدرة الناس هي الأصل والأقوى، وقدرة الحكومات فرعٌ لها ومستمدة منها، وعلى هذا الأساس فهو يريد أن يقول في الحقيقة: يا أهل البصرة، ويا أهل الكوفة، ويا أهل مكة والمدينة، ويا أيّها المسلمون في كل مكان وزمان انتبهوا من رقدتكم وذلتكم وانتفضوا بوجه الحكومات الجائرة واللاإنسانية حتى تُعدّوا الأرضية اللازمة لإقامة حكومة العدل الإسلامية، أمّا إذا لم تجاهدوا هؤلاء الأعداء الظالمين، فبلا شك سوف تتثبت دعائم

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٦٦؛ البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٧٠.

سلطتهم، وتتضاعف بذلك مصائبكم، وفي نفس الوقت فإنّ مسؤولية كل هذه المصائب والمفاسد والذنوب ستتعلق بذمتكم؛ لأنّكم ـ ولا أقل بسكوتكم ـ عملتم على استمرار سيطرة هؤلاء الفاسدين، وفي النتيجة أنتم شركاء أيضاً في جرائمهم. ولكن إذا اتحدتم وعزمتم على جهادهم والتصدي لهم، فبدون شك يمكنكم تحقيق أهدافكم الإلهية عاجلاً أو آجلاً، وإسقاط هؤلاء الظالمين من عروشهم وإعداد الأرضية لإصلاح المجتمع ولو تدريجياً.

أصالة البُعد الإلهي في الانتفاضات الدينية

الحسين عليه السلام والحسينيون بشكل عام، مضافاً إلى الامتيازات المذكورة لهم، فإنّ لديهم امتيازاً آخر أيضاً يمثّل أساس تفكيرهم وعملهم، وله أهمية قصوى في البعد النفسي، وهو اعتقادهم واقعاً وحقيقة بأنّهم لو قتلوا في سبيل هذه الحركة الإصلاحية فإنّهم منتصرون أيضاً، واعتقادهم هذا يتمحور حول قول الحسين عليه السلام: «أما والله إنّي لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا قتلنا أم ظفرنا»[1]. يعني نحن الذين نجاهد في سبيل الحق والعدالة ضد قوى الفساد والانحرف، نوفّق حتماً ـ حتى في حال شهادتنا ـ في الوصول إلى ملكوت الله، وهذا ما أشار إليه في خطبته المذكورة في الفصل الثالث (خط الموت...)؛ كما كان بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام على ما تحدث عنه القرآن الكريم من جهاده مراكز الشرك والظلم، فقال: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ...﴾[2]. بمعنى أنّ إبراهيم عليه السلام تصدى للقوى الفاسدة والمنحرفة، وجاهدها جهاداً محتدماً وقد تهيأ للتضحية والاستشهاد في سبيل الله، وفي ظلّ هذه المواجهة الحقّة وصل إلى مقام الملكوت وأنقذ الناس من الضلالة والذلة، وهذا يعتبر ذروة ما يصل إليه الإنسان في تكامله.

وأساساً فإنّ سجية النهضات الدينية، هي أنّها علاوةً على البُعد الإنساني والشعبي، فإنّ لها بُعداً إلهياً، بل إنّ البُعد الجماهيري لهذه الانتفاضات والنهضات هو

---

١. تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٦.
٢. سورة الانعام، الآية ٧٥.

الفرع؛ وأمّا الأصل فهو بُعدها الإلهي، الذي يجب أن يدركه الناس أكثر، حتى لا يجمدوا على الأهداف السطحية والظاهرية، بل وليصلوا إلى الإخلاص في تضحياتهم المختلفة.

الإمام الحسين عليه السلام نفسه يؤكّد على البُعد الإلهي في نهضته، ويعطيه الأهمية بالدرجة الأُولى، فعلى سبيل المثال يقول بالنسبة إلى ولده عليّ الأكبر وجهاده وتضحياته في سبيل الحق والتصدي للظالمين ما قاله النبي صلى الله عليه وآله بالنسبة الى علي عليه السلام: «عليٌّ ممسوس في ذات الله»[١]، يعني أنّ جميع الفضائل في عليّ الأكبر مصدرها أنّه متصل بالذات الإلهية، ولهذا فإنّه متحرر أيضاً من جميع القيود الدنيوية ولا يخشى غير الله ولا يتهيب من مواجهة الطاغوت حتى آخر قطرة من دمه، بل يقدّم كل وجوده على طبق الإخلاص إلى الله تعالى.

ويتضح ضمناً من مثل هذه العبارات أنّ الهدف الواقعي والأصلي لنهضة الإمام الحسين عليه السلام ضد الأمويين هو أهم بكثير من تشكيل الحكومة الإسلامية، أو إسقاط الحكومة اليزيدية، أو إثارة الناس ضد الأمويين أو أمثالهم، بالرغم من أنّ هذه الأهداف أيضاً كامنة في ذلك الهدف الأصلي، والذي هو عبارة عن تحرير قلب الإنسان وروحه من قيود المادة والعلائق الدنيوية، وربطه بالله تعالى، ومن خلال ذلك يتحول الإنسان تحولاً كبيراً في جميع أبعاد حياته، بحيث يصبح مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل الحق، والوصول إلى ذروة الانفصال عن الذات والاتصال بالله ونيل لقائه، وهذه هي أسمى مرتبة روحانية وملكوتية يحكيها ويترجمها الحسينيون على أرض الواقع، وخاصة في التّيارات الكربلائية، وبهذا يخلّصون الإنسان عملياً من دائرة النفسانيات، ويدفعونه باتجاه الدفاع عن الحق والتصدي للمنحرفين إلى حد التضحية والفداء.

الحسين عليه السلام نفسه يصرّح بأنّه قدوة وأسوة إيمانية ـ في نهضته المقدّسة ـ لجميع

---

١. المناقب لابن شهر آشوب، ج٣، ص٢١ و ٧٢، كشف اليقين علامه، ص ٢١؛ حلية الأولياء أبي نعيم، ج ١، ص٦٨.

المؤمنين، فيتحدث هو عن نفسه بقوله‌عليه السلام: «ولكم فيّ أُسوة حسنة»، أي أنّ جهادي ومواجهتي للباطل في أرض كربلاء مثلاً، لا تختص بنفسي أو بولدي عليّ الأكبر أو بغيره من أقربائي وأصحابي، بل هي نموذج للصراع بين الحق والباطل، ودرس لجميع الناس في التضحية والفداء في سبيل الوظيفة الإلهية، وأداء التكليف الإلهي والإنساني. الدرس الذي يعلّم الناس الإعراض عن الدنيا والتوجه إلى الآخرة. الدرس الذي يتعلم فيه الناس الانفصال عن غير الله والاتصال بالله، ولهذه النظرة والشمولية في هذا المفهوم، يقول القادة من أصحاب البصائر: «كل أرضٍ كربلاء وكل يومٍ عاشوراء».

المفاهيم العرفانية الإسلامية العليا

بل إنّ التعليمات والمفاهيم الإسلامية الأكثر دقّة تؤكّد أنّ ضمير كل إنسان هو كربلاء الباطن والأصل، وأمّا كربلاء الأرض ومواضع الجهاد والتضحية فهي مظاهر خارجية لكربلاء الباطن. فكلّ إنسان يجد في ضميره الباطن قطبين متنازعين: فطري وطبيعي، روحاني وحيواني، سماوي وأرضي، ومن ذلك فإنّه لا يكون في مواجهة خارجية مع الباطل فحسب، بل بالدرجة الأُولى يكون في مواجهة باطنية حاسمة بين العقل والنفس أو الفضيلة والرذيلة أو العدالة والظلم، والإنسان في هذه المواجهة الداخلية المستمرة، وبمقدار ما يطلب الله والإنسانية ويسعى في سبيل الحق والعدالة وطاعة الأوامر الإلهية والفطرية ويدافع عنها، فإنّه بنفس النسبة والمقدار حسيني وسائر في خط الحسين، وكما أنّه بمقدار ما يطلب النفس والدنيا ويتقدّم في طريق الأهواء والمسائل الدنيوية التافهة، فهو بنفس ذلك المقدار يزيدي وسائر في خط يزيد.

في هذا الصدد يقول رسول الله‌صلى الله عليه وآله: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[1]،

---

١. تلخيص الرياض، ج١، ص٢٨٢؛ بحار الأنوار، ج٧٠، ص٦٤.

ويقول أيضاً: «أكبر الجهاد جهاد النفس»[١]. هذه الأحاديث النبوية العميقة والتي لها نظائر كثيرة في أحاديث وكلمات رجال الله، تعكس معنىً دقيقاً جدّاً، وهو أنّ يزيد الأصلي هو الأهواء والشهوات النفسية القابعة في باطن الإنسان الكامنة في (الأنا والأنت) والظاهرة في التعلقات النفسانية والدنيوية المختلفة، والتي تدفعه وتحركه ضد الدين والوجدان الذي هو عبارة عن الروح الحسينية، والحاصل أنّ الروح اليزيدية تخلق في الإنسان جذور جرائمه وفجائعه في الخارج، ومن البديهي أنّ القضاء على يزيد الباطني والأصلي ضروري كالقضاء على يزيد الظاهري والفرعي، بل أهم منه؛ لأنّ يزيد الباطني مادام موجوداً ولم يتم القضاء عليه، فأنّ القضاء على يزيد الظاهري يعتبر محالاً، بل لو كان ممكناً فسوف لا يكون مفيداً، لأنّه يظهر وينمو مجدّداً لوجود أصوله وجذوره.

ومن هنا نتبيّن أن مدرسة رجال الله لماذا تعتمد على جهاد النفس أولاً؟ إنّها ترى جهاد الباطن هو الأصل المقدّم للولوج إلى ميدان جهاد الخارج. وإنّ الجهاد الخارجي ثمرة من ثمار الجهاد الباطني، وهذا كناية عن أنّ كل ثورة حقيقية تغييرية لا بدّ أن تنطلق أوّلاً من داخل الإنسان، ثمّ تصدر منه إلى خارجه، فالانطلاقة الأولى يجب أن تكون في ميدان ضمير وفكر وروح الإنسان، وثانياً عليه ممارسة عمله وإقدامه في ميدانه الخارجي، بل تحصل هذه الممارسة طبعاً بعد الانطلاقة الأولى. والمعجزة في كربلاء الإمام الحسين عليه السلام هي أنّها أسفرت عن تضحيات عظيمة في كل الأبعاد والجوانب وفي الدرجة الأُولى الباطنية، وبهذا بيّنت الطريق الواقعي والحقيقي للسعادة الكاملة، وهو أن يكون الإنسان مستعدّاً حقيقة وبكامل وجوده للتضحية على كافة المستويات في طريق الله والحق والعدالة، ويتحمل في سبيل ذلك جميع الشدائد العظيمة، ويقطع عنه كل العلائق الدنيوية حتى إنّه يبذل في هذا السبيل نفسه رخيصة دون تردد.

---

١. الفروع من الكافي، ج ٥، ص ١٢؛ شرح النهج، ج ١٠، ص ٥٤.

الدور التربوي لنهضة الإمام الحسين عليه السلام

تحدثنا في الصفحات السابقة عن ماهية نهضة الإمام الحسين عليه السلام والنهضات الحسينية بشكل عام، والآن لِنَرَ ما هو دور نهضة الإمام الحسين عليه السلام في تربية المجتمعات المختلفة؟

الوثائق التاريخية تثبت أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام وخاصة مع شخصيته العظيمة وكيفية تضحياته الجذابة، كان لها دورٌ مهم في إيقاظ ضمائر المسلمين، وتربية نفوسهم، وجعلت الكثير منهم يتحولون تحولاً ثورياً، ومن هذا الطريق استطاع عليه السلام أن يوجد سدّاً منيعاً أمام إفساد الحكام الأمويين وأمثالهم وتلاعبهم بمصير الناس والمجتمع الإسلامي، وإسقاطهم في النهاية كما رأينا في الفصل الرابع.

بل كما يقول المحققون المنصفون أمثال العقّاد المصري ـ الذي نقلنا بعضاً من كلامه في الفصل الرابع ـ يقولون: إنّ جميع الثورات الإسلامية التي هزّت عروش الظالمين منذ منتصف القرن الأول وحتى القرن الحاضر، وعلى طول الأرض الإسلامية من الهند إلى مراكش المغرب، والتي استطاعت توجيه ضربات قاصمة إلى الحكومات اليزيدية والقدرات الظالمة، واستطاعت أن تحفظ مصالح الإسلام والمسلمين ولونسبيّاً، فإنّهافي حقيقتهامظاهر وانعكاسات لمدرسة الإمامالحسين عليه السلام الخالدة، حيث تحققت بيد أُناس تربّوا في هذه المدرسة الدامية والمتصدية للظلم والظالمين أو تأثروا بها واستلهموا مبادئهم منها. وفي الحقيقة فقد امتدت الثورات الإسلامية كالسيل المفعم بأمواج كربلاء، وعمّت في جميع البسيطة زماناً ومكاناً، فلولا نهضة الإمام الحسين عليه السلام الصارخة واستشهاده في كربلاء، لما وَجدت الثورات الإسلامية الأُخر طريقها إلى الوجود، أو أنّها كانت محدودة جدّاً، والنتيجة ستكون تضاعف طغيان حكام الجور الفاسدين أكثر وأكثر، وبالتبع تعرّض مصالح المجتمعات الإسلامية إلى الخطر أكثر فأكثر.

أمّا الحديث عن نفس الثورات الحسينية الكثيرة المنبثقة عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فخارجة عن وسْع هذا الكتاب، إلّا أنّنا نشير هنا إلى أصل تأثير نهضة

الإمام الحسين عليه السلام السياسي والثوري بين الناس على أساس تحولهم الروحي والفكري، باتجاههم وبالتالي سوقهم إلى إيجاد الحركات الإسلامية الأصيلة، التي أقضّت مضاجع الحكومات المستبدة، وكان تأثير نهضته عليه السلام في هداية وتنوير الناس ـ من الشدة والعظمة ـ إلى درجة أن بعض السلاطين الحمقى أمثال المتوكل، اضطروا إلى مواجهة رفات الإمام الحسين عليه السلام وإعلان الحرب حتى على قبره الشريف، وذلك لتثبيت عروشهم المهزوزة بسبب عمليات المنجذبين لمدرسة الثورة لأهل البيت، خاصة الحسين عليه السلام، فكان أن جنّ جنونهم لهذا الجذب الساحر لقلوب المحبين والموالين من المسلمين إلى هذه الشخصية العظيمة ـ حتى وهي في رمسها ـ الأمر الذي حدا بالمتوكل إلى تخريب وهدم القبر الشريف، وحرث تلك الأرض الطاهرة، لإخفاء قبره عن أنظار محبّيه وإبعادهم عنه[١]، حيث كان القبر الشريف بمثابة متراس جذاب من متاريس التصدي للظالمين، وشعلة تضيء درب السالكين، وسراجاً منيراً للأحرار والثوّار على كرور الأيام وتوالي السنين، ولهذا أمر المتوكل الطاغية بإنزال العقاب القاسي والشديد بكلّ زائر للقبر الشريف.

والعجيب هنا أنّه مع سعي المتوكل وأمثاله، بل جميع قوى الظلم والفساد في كل زمان، لإطفاء النور الحسيني، إلّا أنّ اسم الحسين عليه السلام، وطريق الحسين، وهدف الحسين عليه السلام كان يزداد يوماً بعد يوم امتداداً ورسوخاً في ضمير المؤمنين بصورته المقدّسة ولمباركة والهادية، وكان له دورٌ أساسي طبعاً في تربية المسلمين تربية ثورية، وتحريكهم للتصدي والوقوف بوجه قوى الظلم على مرّ الزمان.

وأحد النماذج من الآلاف المؤلّفة لهذه التربية الثورية هو العالم الكبير (ابن السكّيت)، الذي وقف أمام ذلك السفّاك بكامل الجرأة والشهامة الحسينية، وقال كلمة الحق دون أن يهتم بقوة أمثال المتوكل العظيمة وبطشه.

كان (ابن السكّيت) معلّماً لأولاد المتوكل، وموضع عنايته الخاصة، وفي أحد الأيام سأله المتوكل إمبراطور الدنيا في ذلك الوقت: أيّهم أفضل، أبنائي أم الحسن

---

١. تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٦٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٥٥.

والحسين أبناء عليٍّ؟

فأجابه ابن السكّيت بشجاعة فائقة، قائلاً: إنّ قنبر خادم الإمام عليٍّ أفضل من أبنائك، فلمّا سمع المتوكل هذا الجواب القاطع والحاسم ازداد جنوناً وأمر بابن السكيت فأخرجوا لسانه من قفاه فاستشهد رحمة الله عليه[١]، ولكن هل استطاعت هذه الأساليب الوحشية والإرهابية أن تزلزل إيمان هذا العالم المذكور أو سائر أتباع الحسين الشهيد؟

المثال الآخر (الفرزدق)، فبالرغم من أنّه كان من شعراء البلاط الأموي، ولم يكن يتمتع بالشجاعة الكافية، مع هذا، فقد تأثّر كثيراً بنهضة الإمام الحسينعليه السلام كبقية المسلمين، بحيث وقف بشجاعة عظيمة أمام الأموي السفاك (هشام بن عبدالملك) ، ومدح بقصيدته المعروفة الخالدة الإمام علي بن الحسينعليه السلام الشهيد، وذكر فيها جملة من فضائله وفضائل أهل بيته، وتعرّض فيها لهشام وأعوانه وجهاً لوجه وفي مقابل الملأ من الناس، فما كان من هشام إلّا أن أودعه السجن، فارسل إليه الإمام بهدايا إلى السجن ولكنّه أبى استلامها وقال: لم أقل تلك القصيدة ولم اعرّض نفسي إلى السجن والخطر من أجل المال والدنيا، بل إنّي قلتها من أجل الدفاع عن الحق ومبدأ أهل البيت وفضح الظالمين[٢]، ومخلصاً لله رب العالمين.

(دعبل) أيضاً من الشعراء الذين تربوا في مدرسة الإمام الحسينعليه السلام، حيث كان ينظم الشعر في مدح الإمام الحسينعليه السلام وأولاده وذم قاتليه وأعدائه، بالرغم من كثرة المشكلات والمصائب في هذا الطريق، حتى إنّه كان يصرّح بأنّني حملت أعوادي على أكتافي منذ أربعين سنة ولم أترك طريق الحسين وأهل بيت النبي. وقد ورد أنّ الإمام عليّ بن موسى الرضا أهدى إليه جبّته وبعض الأموال لقصيدته التائية الشهيرة، فلمّا وصل إلى قم أراد أهل قم شراء تلك الجبة بأضعاف قيمتها، ليتبركوا بقطعة من جبة ابن الحسين الشهيدعليه السلام، ولكنّ دعبلاً رفض ذلك العرض، فما كان من

---

١. الاعلام للزركلي، ج٨، ص١٩٥؛ الكنى والالقاب، ج١، ص٣١٤؛ سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص١٨.

٢. الكنى والالقاب، ج٣، ص ٢٠، والاغاني في ترجمة الفرزدق.

أهالي قم إلّا أن انتزعوها منه رغماً، وأعطوه الثمن أضعافاً مضاعفة، وقطّعوها قطعة قطعة وتقاسموها بينهم، وهم في غاية الفرح والسرور على حصول قطع صغيرة من هذه الجبة[١].

ورأينا فيما سبق أيضاً أنّ أهالي خراسان حتى في زمان حكومة الأمويين الجبارة عملوا من سلاسل الشهيد يحيى بن زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام، خواتيم لهم يلبسونها للتبرك، وكل واحد منهم يفتخر بأنّه حصل على قطعة صغيرة من الحديد الذي كان على يحيى بن زيد في سجنه[٢].

هذه نماذج من ملايين النماذج في التاريخ، التي لو جمعت وأُودعت الصحف، لملأت مجلدات ضخمة من الكتب، بل لعلّ الإحصاءات اليوم تعطينا أن مجموع ما ألّف لحد الآن حول الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره وأحبائه وأتباعه وأبعاد نهضته، بلغ آلاف الكتب، ومئات الآلاف من الرسائل والمقالات والخطب والقصائد، وهو مجموع ما وصل إلينا طبعاً. أما ما لم نطّلع عليه، والذي أتلفته عوادي الدهر وحوادث الأيام، فهو أكثر بكثير من الكثير الموجود بأيدينا. على أننا سنجد ضمن هذه الجمهرة الكثيرة ما هو بغير العربية؛ وما هو بغير الأقلام الإسلامية، ويمكن دعوى القطع بأن الثقافة البشرية لم تر إلى الآن معشار ما قيل في الإمام الحسين عليه السلام قد قيل بحق أحد من ولد آدم.

كل تلك الآثار الثورية والرثائية تثبت بوضوح أنّ هناك اتّفاقاً ـ لا يحدّه الزمان والمكان ـ على عظمة الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره في سلوكهم صراط الحق، وكذلك على حقارة يزيد وأعوانه في سلوكهم صراط الباطل.

وقد رأينا من خلال نوافذ التاريخ الإسلامي أيضاً أنّه قد حدث تحوّل عظيم في أفكار وأوضاع الكثير من الجماهير في كثير من الأمكنة والأزمنة في ضوء نهضة كربلاء الحسين عليه السلام، بحيث إنّها تحركت على خطه الثوري، وثارت ضد الحكومات الفاسدة، ودافعت عن مصالح الأُمة الإسلامية، وقد صرّح الحسين عليه السلام بمثل هذه

---

١. الأغاني في ترجمة دعبل.

٢. مقاتل الطالبيين، ص ١٠٤.

الآثار العملية أيضاً في إخباراته الغيبية، التي أُشير إلى بعضها في الفصل الثالث.

النتيجة النهائية لفاجعة كربلاء

وعلاوة على الأهمية الكبيرة التي يوليها المحققون والباحثون لنهضة الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك ما قام به المسلمون إثرها من ثورات دامية كثيرة ضد الحكومات الفاسدة؛ ومن ثناء وتمجيد وتعظيم للإمام الحسين عليه السلام ونهضته الدامية على طول التاريخ الإسلامي، فإنّ أهمية هذه النهضة العظيمة لا تُحد بمثل هذه الأُمور وإن كانت هذه الامور في حد ذاتها مهمة، بل إنّ هذه الأُمور تنبع وتحكي عن أمر آخر أهم، وهو نفس الهداية الحقيقية والثورية التي ترشّحت عن نهضة كربلاء، وتأثيراتها في أعماق الفكر البشري وعواطف المسلمين وغيرهم، والواقع أنّ هذه النهضة العجيبة توضّح هذه الحقيقة، وهي أنّ الشعوب الإسلامية بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده، حدث في قلبها وروحها وضميرها انقلاب كبير وأساسي، إلى درجة أنّ المسلمين أخذوا يعظّمون الإمام الحسين عليه السلام ويقدّسونه ويبكون عليه بكاء شوق وحسرة وهو تحت الثرى، وفي الواقع يقدمون قلوبهم وأرواحهم فداءً له، وعلى الرغم من المشاكل الكثيرة يقومون بزيارة قبره الشريف، ويتبرّكون بآثاره، ويحيون ذكره وذكر أولاده، ويلعنون أعداءه وقتلته حتى وإن عاشوا أو يعيشون في القصور المنيفة وعلى الأسرّة الذهبيّة.

وأساساً فإنّ النتيجة الحقيقية لفاجعة كربلاء ليست في إثارتها الناس ضد يزيد وأمثاله، أو لقلب نظام حكم ما مثلاً، أو إنزال العقاب بمتسلطين ظالمين أو فاسدين مفسدين، فمن الواضح أنّ يزيد وأمثاله لا يستحقون أبداً أن يضحّي مثل الحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنة، بوجوده وبأهله الكرام وصحبه، من أجل إنزال العقاب باليزيديين أو إسقاطهم، فهذه الأُمور وإن كانت حيوية في ذاتها، لكنها تتفرع عن أصل مهم، وهو التحول الفكري والروحي للمسلمين بسبب نهضة الحسين عليه السلام، بل على فرض أنّ الحسين عليه السلام كان حقق نصراً ميدانياً على أعدائه، فإنّ انتصاره هذا

سوف لا يكون هو النتيجة النهائية لنهضته العظيمة، إنما الهدف الأساس البعيد المدى الذي كان الإمام الحسين عليه السلام يرمي إليه من خلال حركته تلك؛ والذي كرّس له خطابات مثيرة، وحوارات أخّاذة بمجامع القلوب، وأخيراً تضحياته المدهشة والمحيرة للعقول بالأصحاب والأهل والولد والنفس (والجود بالنفس أقصى غاية الجود)، كان هدفه الأساس أن يوقظ وجدان الناس، ويؤسس فيهم قاعدة روحية متماسكة، تمنعهم من الخضوع والخنوع تحت وطأة الظروف القاسية، ويهديهم ويربيهم وفق تعاليم السماء وروح الرسالة المحمدية.

كل ذلك؛ لينقذهم بالدرجة الأُولى من طاغوت الباطن ويزيد النفس، الذي تمثّله الأهواء والشهوات المنحرفة والعلائق المادية، ويحررهم منها، ويحلّق بهم بعيداً في عالم الروح والملكوت إلى حد التضحية بكل شيء في سبيل الله؛ ومن أجل الله، وهو هدف لا يقدّر بقيمة أبداً.

ومن هنا فإنّ الإمام الحسين عليه السلام أصبح قائداً ورمزاً ربّانياً خالداً للمسلمين ولكل الأحرار في العالم، ونبراساً يُستضاء به في دهماء الخطوب ونوازل المحن، ودماً يغلي في الضمائر الحية للإنسانية، ومشعلاً للحق والعدالة يحمله كل ثائر ضد الظلم والجور والاستبداد.

وكيف كان، فأحد النماذج من الثورات الحسينية في عصرنا الحاضر هي الثورة الإسلامية في إيران، التي استطاعت إزاحة النظام الملكي البغيض والتغلب على القوى الفاسدة الداخلية والخارجية وإقامة الحكومة الإسلامية، وذلك من خلال السير الواعي في طريق عاشوراء الحسين عليه السلام واستلهاماً من تضحياته الجسام. فأحدثت هذه الثورة تحولاً كبيراً في إيران لصالح الإسلام والمسلمين، بل أحدثت تحولاً فكرياً وروحياً في جميع العالم الإسلامي. فلولا الروح الحسينية الكربلائيه التي هي تجلٍّ للرسالة المحمدية والولاية العلوية، لما تسنّى لهذه الثورة تحقيق ذلك النصر الباهر على جميع قوى الباطل الداخلية والخارجية والعملاء الرجعيين في المنطقة. هذه الثورة التي استطاعت الثبات والتصدي للقوى العالمية الكبرى التي

حاولت إسقاطها مراراً، ولكنها حافظت على نهجها الحسيني واستمرت في طريقها حتى الانتصار وبعد الانتصار، رغم وجود آلاف المشاكل الداخلية والخارجية، وحققت تقدّماً كبيراً وانتصارات باهرة في جميع المجالات المختلفة، وسوف تحافظ على دوامها ما لم تنحرف عن خطها الأصلي وهو خط الحسين عليه السلام.

ومن البديهي أنّ كل ثورة يجب عليها أن تهتم بمراقبة الأمور بدقة ولا تنحرف عن طريق الحق والعدالة، وإلّا فإنّ شياطين الدنيا يترصدون في الكمائن المختلفة؛ لينفذوا إلى داخلها بخططهم الشيطانية المختلفة الأساليب وبأنواع المكر والخديعة، ولربّما استغلوا الثورات الحسينية أو الشعبية لصالحهم، فيقلبون في الواقع معايير الثورة وموازينها، وهذا المنهج ليس جديداً لهؤلاء الشياطين والمستكبرين، فإنّهم من قديم الزمان استخدموا كل الوسائل ضد الحركات الإنسانية وضد الشعوب المستضعفة وخدعوا الناس بمصائدهم وأساليبهم المختلفة للاستسلام لهم أو الالتحاق بصفوفهم، وترك شعارات ومبادىء الحق والعدالة واقعاً ولو مع التمسك بها ظاهراً.

وعلى كل حال، فإنّ التاريخ في السابق والشواهد في العصر الحاضر، كلها يدل على أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كان لها دور عظيم في تحول الأفكار في الذهنية المسلمة، وخاصة الايرانيين، ولهذا فإنّ الاستعمار الإنجليزي الخبيث، وأياديه العميلة، دأبوا يعملون باستمرار إلى جانب شبكاته الجاسوسية السرية وخططه الأكثر سرية، لإبعاد كل بلد إسلامي ـ بما يناسب له ـ عن مدرسة الحسين والحسينيين، كما كانت حكومة بني أمية تسعى إلى إبعاد المسلمين عنها، مع تظاهرها بالإسلام المحرّف والفارغ من المحتوى الإلهي لتخدّر الناس به. وكيفما كان ففي بلد إسلامي مثل إيران سلّطوا العائلة البهلوية العميلة لهم، وراحوا مع عملائهم الفاسدين يستخدمون قدراتهم الكبيرة لسحق المشاعر الدينية والعواطف المذهبية للشيعة، وخاصة فيما يرتبط بنهضة كربلاء وجهاد الإمام الحسين عليه السلام ضد القوى الطاغوتية، ولكنهم على رغم جميع خططهم الشيطانية والإرهابية وعلى

خلاف توقّعهم، فقد واجهوا ـ والحمد لله ـ حركة عظيمة من الجماهير المسلمة والسائرة على خط نهضة كربلاء، بقيادة الإمام الخميني، فأطاحت بالعرش الطاغوتي الظالم، وأزاحته عن الشعب المستضعف، وهكذا ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلّا بأهله﴾[1].

الطريق الوحيد لإنقاذ المسلمين

بالتأمل مليّاً في النموذج الأخير، ومن ملاحظة الظروف الحساسة التي يشهدها عالمنا الإسلامي اليوم، من سيطرة القوى الاستعمارية الفاسدة الشرقية والغربية على مقاليد أُمور المسلمين ومصالحهم الاقتصادية والسياسية وشؤونهم الأخلاقية والثقافية والدينية، بسبب غفلتهم وتساهلهم في مسائل الدين والعقيدة، ومن تدخل المستعمرين مباشرة أو بواسطة عملائهم الرجعيين، وسلبهم لثقافة الشعوب الإسلامية والإجهاز على مواريثهم الحضارية وتسلطهم عليهم بشعارات موهنة كشعار ﴿إنّا فوقهم قاهرون﴾[2]، ففي مثل هذه الظروف الحساسة والأوضاع المؤلمة والباعثة على الأسى والأسف، فإنّ الطريق الوحيد لإنقاذ المسلمين من هذا التردّي السحيق، هو اتّباع نهضة الإمام الحسين عليه السلام، واستلهام تضحياته في هذا السبيل؛ لتتمكن الشعوب الإسلامية أوّلاً: من التحرر والتخلص من الميول النفسية المنحرفة، التي تقيّد الإرادة الإنسانية والروح الإيمانية الخلاقة للمسلمين بسلاسل الأهواء والشهوات. وثانياً: التصدي بإرادة صادقة وعزم راسخ لثورة شعواء تطيح بالقوى الشيطانية؛ حتى يتمكن الناس من التنعم بالحرية والسؤدد.

وإنّه لمن حسن الحظ أنّ بعض المسلمين المثقّفين من أهل السنة أيضاً أدركوا هذه الحقيقة، وهي أنّ أفضل الطرق لهداية الناس للثورة ضد الأوضاع الفاسدة الداخلية والخارجية، هو التوجه إلى مدرسة الإمام الحسين عليه السلام واستلهام دروس الشجاعة والتضحية منها. و(العلايلي) نموذج من أولئك المثقفين المتنورين، حيث

---

١. سورة فاطر، الآية ٤٣.
٢. سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

يذكر: أنّ أحد امتيازات الشيعة على أهل السنة، هو أنّهم في كل عام ـ بل في كل مناسبة ـ يجدّدون العهد في ذكرى عاشوراء مع الحسينؑ، ويستلهمون الدروس التربوية والدينية البنّاءة الكثيرة من هذه النهضة، ويغرسون في قلوبهم روح الشهامة والشجاعة والتضحية ضد القوى الظالمة والمستكبرة، ولهذا فنحن نعتقد أنّه لا بدّ من سلوك هذا السبيل، وتعليم الناس معطيات الثورة الحسينية؛ لكي يمكننا مواصلة الجهاد ضد المستعمرين الغربيين والشرقيين، والتصدي للحكومات العميلة الفاسدة[١].

كربلاء ليست من أجل الشفاعة والبكاء فقط

وقبل ختام الفصل، نلفت النظر إلى أنّ قيام الإمام الحسينؑ واستشهاده لم يكن من أجل البكاء فقط، والحديث المعروف الذي يقول: «من بكى أو أبكى أو تباكى على الحسينؑ وجبت له الجنة»[٢]، ليس بمعنى أنّ ذكر الحسينؑ وكربلاءه يكون من أجل البكاء عليه أو أنّ مجرّد البكاء عليه يوجب الجنة، وبشكل عام فإنّ كل شيء له شروط يكون معها واقعاً في دائرة المشروع والمفيد، والبكاء على الحسينؑ أيضاً يكون نافعاً بشروط، أهمها: أن يكون الباكي منسجماً مع خط الحسينؑ، وأن يكون البكاء حاكياً عن انسجام الباكي مع أهداف الحسينؑ، وعليه يتضح أنّ بكاء الذين يسيرون دائماً بخلاف خط الحسينؑ، ويعملون على الضد من توجيهات وتوجهات الإمام الحسينؑ، ويمدّون يد التسليم والخنوع للمنحرفين عن الحسينؑ وخطه، فهم في الحقيقة الظالمون والمستكبرون أو الواردون موردهم، فلا قيمة لبكائهم، وإلّا فإنّ الكثير من أعداء الحسين، حتى من قتلته أمثال عمر بن سعد وجلاوزته، عندما رأوا أو سمعوا فداحة الفجيعة النازلة بالحسين بكوا عليه وانحدرت دموعهم.

---

١. تاريخ الحسين للعلائلي، ص ١٢١.
٢. كامل الزيارات، ص ١٠٥؛ ثواب الأعمال، ص ٨٣.

وأساساً فإنّ الهدف من إقامة العزاء على الحسين وأهل بيته المظلومين، لا يقتصر على الترحم والبكاء عليهم، بل الأهم من ذلك هو إثارة الحمية في الجمهور ضد اليزيديين على أساس ترسيخ مسؤولية الدفاع عن الحق والعدالة والتصدي للحكومات المنحرفة والظالمة في مشاعرهم أولاً وفي واقعهم العملي ثانياً، حتى إنّ الترحّم والبكاء الفاعل هنا يكون في الحقيقة بمعنى التأييد للمظلومين والعداء للظالمين، فالمآتم بمثابة ميدان حرب يُستخدم فيه سلاح الدموع، ومشاركة عواطف الناس لرموز النهضة، وإثارة أحاسيسهم للدفاع عن الحق وأهله، والتصدي للباطل وأتباعه، فعلى هذا يتضح الجواب لمن ينتقد ويطعن بمذهب الشيعة، بأنّه مذهب العزاء والبكاء فحسب، فيقال له: إنّ العزاء على الحسين وأصحابه مضافاً إلى أنّه يعني تعظيم وتكريم هؤلاء الأبطال من رجال الله، فهو في الحقيقة ارتباط روحي ووجداني مع نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وطبعاً يخلّف هذا الارتباط النفسي آثاره الفكرية والعملية على سلوك الإنسان، فيجعله حسينيّاً أو شبه حسيني على الأقل، بمقدار ارتباطه واندماجه بنهج الحسين عليه السلام، نظير عملية تطعيم شجرة بشجرة أُخرى.

وأمّا عن شفاعة الحسين عليه السلام فإنّ الروايات الكثيرة الواردة في الكتب المعتبرة للشيعة والسنة توضّح لنا هذه الحقيقة، وهي أنّ الذين ينالون شفاعة هذا الإمام الشهيد هم السائرون على خطه ومسيره ولو إجمالاً، لا الأفراد المنحرفون كليّاً عن خطه الإلهي، فمثل هؤلاء الأفراد يتحركون في دائرة الظالمين أو الخانعين، ومن الواضح أنّ الحسين عليه السلام وخالق الحسين عليه السلام لا يرضى بسلوك مثل هؤلاء الأفراد، بل كما رأينا في كلمات الإمام الحسين عليه السلام أنّهم سينالون العذاب الإلهي، إلّا أن يتوبوا كما تاب الحرّ الرياحي، ويسعوا في إصلاح أنفسهم ومسارهم، وينهضوا لمعارضة الظالمين وأعوانهم.

والخلاصة أنّ نهضة كربلاء لم تكن من أجل أن يبكي المسلمون فقط، أو يجلسوا بانتظار شفاعة الحسين عليه السلام فقط، بل من أجل متابعتها واحتذائها ولإيجاد

الروح الإيمانية في الأمة، كي تتحرك كالحسين عليه السلام وأنصاره في مسير الدفاع عن الحق والعدالة، والتصدي للظلم وعوامله، والشاهد على هذا كلام الإمام الحسين عليه السلام نفسه، وهو: «ولكم فيّ أُسوة حسنة»، أي ليكن جهادي المحق ضد الظلم وأياديه قدوة لكم أيّها المسلمون؛ لتستلهموا منه دروساً بنّاءة، ولا تكتفوا بلقلقة اللسان واللطم على الصدور وأمثاله.

وممّا يؤسف...

وممّا يؤسف له أنّ الكثير من المسلمين لم يحصلوا على النتيجة المطلوبة من مدرسة الحسين عليه السلام، ولم يتحركوا في طريقه الذي هو طريق الدفاع عن الدين والتصدي للظالمين، بل إنّ بعضهم جعل من دم الحسين وسيلة لتحقيق مآربه الدنيوية، أو لإضلال ضمائر الناس، أو لطلب الوجاهة الاجتماعية بين الناس، فيدّعون أنّهم حسينيون ومخلصون وأمثال ذلك دون أن يلتزموا نهج الحسين عليه السلام وحركته وأهدافه الإلهية.

والأشنع من ذلك أنّ بعض هؤلاء المدّعين يقومون ببعض المظاهر غير المشروعة باسم عزاء الإمام الحسين عليه السلام؛ مع أنّها كما يقول المرحوم كاشف الغطاء[1] ـ إهانة للحسين عليه السلام، وأقصى ما يؤلم ويحزّ بالنفس أنّ أعداء الحسين عليه السلام تعدّوا عليه وعلى أهل بيته بجناياتهم الفجيعة، وبعض المدّعين لمحبته أيضاً يشوّهون مدرسته ومذهبه بأعمالهم القبيحة وغير المشروعة.

والحسين عليه السلام نفسه يتحدث عن الذين يدّعون محبته، ولكنّهم عملياً مثل أهل الكوفة وأهل الدنيا يعملون بخلاف سيرته، فيقول عليه السلام: «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه حيث ما درّت به معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون»[2].

١. جنة المأوى، ص ٢١٠.
٢. تحف العقول، ص ٢٤٥.

علامة أتباع الحسين عليه السلام وشيعته

إلى هنا اتضحت لنا صورة مدرسة الإمام الحسين عليه السلام وماهيتها وأهدافها، وفي إطارها نستطيع تحديد علائم ومعالم أتباع هذه المدرسة الإسلامية الخالدة، وتشخيص هويتهم على جميع الأصعدة.

فعلى الصعيد الروحي والشخصي: نجد أن شيعة الحسين عليه السلام وأتباع مدرسته ـ الحقيقيين ـ هم أصحاب مبادىء ثابتة؛ لا يتخلون عن مسؤولياتهم الشرعية والأخلاقية، ولا ينقضون عهد الحق، وإن أحدقت بهم الأخطار أو أحاطت بهم الأعداء، كما جرى مع أهل الكوفة عند أول هزة تعرضوا لها، حيث تركوا قيادتهم الرشيدة الشرعية بمجرد إحساسهم بالخطر، فاستسلموا وألقوا قيادهم للأعداء وقوى العيث والفساد.

فشيعة الحسين عليه السلام الحقيقيون هم أُولئك الأشخاص المستعدون بل المشتاقون للتضحية بأنفسهم وأُسرهم وأموالهم ومناصبهم و... في سبيل الله والإنسان وللتصدّي للمنحرفين عن جادة الحق، فهم يهتمون بالدرجة الأُولى بمصالح الناس والإسلام ورضا الله، لا مصالحهم الخاصة ومقاصدهم الشخصية والمادية، وبذلك نجدهم يتحركون في خط معلّمهم الحسين عليه السلام بكل قوة وجدارة، ولا يتهيبون من التصدي للفاسدين والمستكبرين إذا لزم الأمر، وإن كلّفهم حياتهم.

أمّا على الصعيد الاجتماعي والسياسي: فأتباع الحسين عليه السلام هم العاملون في الله، الجادون المجتهدون في إرشاد الناس وتوعيتهم، وتربيتهم تربية ثورية تمتد إلى أعماق وجدانهم، وتكون لهم كحقيقة حاسمة في مسيرة الدفاع عن الحق والعدالة، والتصدي للظلم والفساد، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا﴾[١]، ومفهوم هذه الآية الكريمة أنّ من نتائج فعاليات رجال الحق، وخاصة تضحياتهم في هذا العالم، هو أنّهم يصبحون قدوة للناس، وحلقة وصل بين الخالق

---

١. سورة الأنبياء، الآية ٧٣.

والخلق، على عكس أتباع الباطل الذين يسيرون في الاتجاه المعاكس لهؤلاء الحسينيين، ويضلون الناس بأساليبهم الخادعة، فإنّهم سيكونون ممقوتين لدى الناس، حتى من قِبَل أتباعهم ولو بعد حين، كما يقول القرآن الكريم: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة...﴾[١]، وهذه أيضاً إحدى النتائج للظلم والفساد والانحراف حتى في هذه الدنيا.

والسرّ في أنّ رجال الحق يتمتعون بمحبوبية واسعة النطاق على عكس أعوان الباطل، ويؤثّرون في قلوب الناس وأفكارهم، هو أنّ الحق يعتبر محور الوجدان والقيم الإلهية والميول الفطرية للإنسان، بل أكثر من ذلك حيث يقول القرآن الكريم: ﴿ذلك بأنّ الله هو الحق﴾[٢]، فكما أنّ الله ـ وهو عين الحق ـ نافذ في شعور ووجدان الناس، حتى مع مخالفتهم له أحياناً أو في كثير من الأحيان، فكذلك رجال الله الذين هم مظاهر وتجليات الحق، فإنّهم أيضاً ينفذون إلى وجدان الناس، ويحكمون على ضمائرهم واقعاً، وإن لم ينسجم الناس معهم في مسلكهم ظاهراً. وحاكميتهم هذه تشتد كلما زاد هجوم الظالمين عليهم والعدوان على حقوقهم، فإنّهم سيكونون حينئذ مشعلاً أكثر تجليّاً وتأثيراً في هداية الناس، فيضيؤون الطريق لهم، ويستثيرون فيهم دوافع الثورة على الظالمين وأعوانهم بصورة أعمق. والخلاصة هي: كما أنّ الحق والعدالة أمران مقدّسان في قلوب الناس، فكذلك حَمَلة راية الحق والعدالة مقدّسون ومحبوبون لدى الناس، خاصة في الفترة الزمنية الراهنة، حيث عمّت فيها العلوم والمعارف البشرية من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الناس أدركوا ولمسوا العواقب المشؤومة للأنظمة الطاغوتية، والمذاهب الإلحادية، والأسلحة الجهنمية، فلذلك نجد أنّ دعاة الحق والعدالة يتمتعون بمحبوبية وجاذبية أكثر، ولهم دور أهم في التأثير في ضمائر الناس، وهدايتهم إلى ساحل الأمان والسلامة، والتصدي بشهامة للقوى الطاغوتية والشيطانية.

---

١. سورة القصص، الآية ٤٢.
٢. سورة الحجّ، الآية ٦٢.

المسار الكلّي للبشرية

تؤكد التجارب في المجتمعات البشرية المختلفة أيضاً، أنّ جميع الناس ـ خاصة الفئات التي تعيش تحت وطأة الظلم والاستبداد ـ ميّالون إلى النداء الإلهي والصوت الثوري التحرري، المدافع عن الحق والعدالة والمنتصر للمظلومين، والثائر ضد الظلم والضلالة، والموافق للفطرة السليمة، كما أنّهم أكثر استعداداً يوماً بعد يوم للاستلهام من نهج ذلك الصوت والنداء، ولذلك فهم ـ في حال انطلاقته ـ يتحركون معه باستمرار؛ لأنّهم يجدون فيه بلسماً لجراحاتهم النازفة، وكهفاً يلجؤون إليه عند الفزع وافتقاد المأوى.

فالمسار العام للبشرية إذن ـ على الرغم من التسلط الصوري للمستبدين الفاسدين ـ هو في الحقيقة حركة في خط النهضة الحسينية، إذ هو مسار في خط العقل، والمبدأ الإلهي، والدفاع عن العدالة والحقيقة.

وخلاصة القول: إنّ البشرية، بطبيعتها تتحرك في طريقها التكاملي من الظلمات إلى النور، ومن مستنقع الكذب إلى سماء الصدق، ومن الإسفاف في الشهوات إلى الفضيلة، ومن الجزئية إلى الكلية، ومن الأنانيات إلى الله تعالى، وأخيراً من سجون وقيود الظلمات اليزيدية إلى مركز النور والهداية الحسينية.

والسبب الذي حدا بالناس إلى اتخاذ هذا المسلك وهذا السير المبارك هو أنّ المجتمعات البشرية، وعلى مدىٰ التاريخ قديماً وحديثاً، قد جرّبت تلك الأساليب والمذاهب والأنظمة والحكومات المختلفة، وبعد أن خبا بريقها وزال مفعولها المخدر، لم تجد البشرية نتيجة لها سوى الشقاء والمصائب والأزمات المادية والمعنوية. ولهذا فمن الطبيعي أن تزداد الأُمم البشرية عطشاً واشتياقاً لمعرفة الحق والحقيقة والطريق الموصل لذلك، حتى تستريح من أنواع المحن وتنال السعادة.

وأساساً فإنّ أحد الطرق المهمة للهداية العملية، هو أن تجرب البشرية جرائم الحكومات الفاسدة؛ ليشتد بغضها لها ولأشباهها من جانب، ثم تتوق من جانب آخر فتكون مستعدة لإستقبال الحق ورجاله. الحسين عليه السلام نفسه أيضاً أشار إلى هذا

المسير النهائي الإلهي للبشرية وقال: «دولتنا آخر الدول»،[١] ومعنى هذا الكلام الحكيم أنّ حاكمية الحق سوف تتحقق في آخر الزمان، حيث تصل البشرية في شعورها النهائي ـ بعد طيّ المنعرجات الخطيرة والمظلمة في تاريخها التكاملي ـ إلى الحاجة الملحة لرجال الحق ودولتهم الموعودة. وهذا وعدٌ حتمي نجده في جميع الأديان الإلهية، بأنّ الصالحين سوف يرثون الأرض أخيراً، وينتصرون على الظالمين والمجرمين والمستكبرين جميعاً، ويقضون عليهم حتماً.

وعلى كل حال، فإنّ من معطيات نهضة الإمام الحسين عليه السلام هو فصل وعزل جناح الحق عن الباطل بأفضل وجه، ولم يكن ذلك بالقول فقط أو النقش على الورق، بل بالتضحيات الدامية، حيث تقول هذه التضحيات: إنّ الحسينيين أو المؤمنين الحقيقيين لا يرون الحياة الإنسانية والسعادة الحقيقية إلّا في الدفاع عن الحق والعدالة، ولهذا فهم مستعدّون للتضحية بكل شيء في هذا السبيل، وبهذا يسيرون في طريق الكمال الحقيقي من جهة، ويهدون الناس ويرشدونهم إلى هذا الطريق ويغرسون في قلوبهم دوافع الحق والفضيلة من جهة أُخرى. ولكنّ اليزيديين والمنحرفين بشكل عام، يرون الحياة والسعادة في ظل الأهواء النفسية والتمتع بالملذات، فهم على عكس الطائفة الأُولى ـ شعروا أو لم يشعروا ـ يتحركون في الحقيقة من موقع الخصومة والعداوة مع أنفسهم ومع الآخرين من أجل اتّباعهم للأهواء الفاسدة.

وأهم درس في كربلاء الحسين عليه السلام الدامية، هو أنّها تقول: إنّ الحسينيين أو المؤمنين الحقيقيين هم الذين يجاهدون الظالمين من المشركين والمسلمين على السواء، جهاداً إعلامياً أولاً ثم جهاداً عملياً ميدانياً أخيراً، وهم لا يرهبون في هذا الطريق من كل القوى الظاهرية للباطل، بل إنّهم يستقبلون في هذا الطريق الشهادة أيضاً بفرح وسرور، حيث إنّهم يرونها جسراً إلى الأبدية المطلقة وسلّماً إلى السعادة الخالدة.

---

١. الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٥.

المؤمنون الحقيقيون هم كالحسين عليه السلام، عندما أخذ البعض يخوّفه من التصدي للحكومة الأموية الظالمة والمدّعية للإسلام ويقولون: «إنّهم قد أجمعوا على حربك فر رأيك»، أجابهم عليه السلام بشكل حاسم: «حسبي الله ونعم الوكيل»[1]، أي يجب علينا وعلى كل من يريد اتّباع سبيل الله وأهله أن يـؤدّي بكـل مـا أمكـنه المسـؤولية (الإنسانية والإلهية)، التي هي الدفاع عن الحق ومواجهة الباطل والتصدي للـقوى الظالمة، وأن لا يخاف من أيّ خطر في هذا السبيل، بل يستقبل كل الأخطار، بما في ذلك التضحية بالنفس وبجميع متعلقاتها، برحابة صدر واشتياق، وهذا هو التوحيد الحقيقي، حيث لا يرى المؤمن سوى الله، ويرى كل شيء في الارتباط بالله، وهذا هو أسمى مقام يصل إليه الإنسان وأعظم مرتبة ينالها البشر، وهذا هو الإيمان الواقعي، وهذه هي الحياة الإنسانية السعيدة، وهذه هي مدرسة الإمام الحسين الخالدة.

والحمد لله ربّ العالمين على التوفيق لإتمام هذا الكتاب



---

١. تاريخ الطبري ج٤: ص٣١٧، مذكور في سورة آل عمران، الآية ١٧٣.



الفهارس التفصيلية

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث و الروايات
- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن
- فهرس المصادر
- فهرس الموضوعات

فهـرس الآيات



فهرس الأحاديث والروايات

❀ ❀ ❀

فهرس الأعلام

وقبل الورود في فهرس الأعلام نذكّر بموضوعين: الأول: إنّ فهرس الأعلام إنّما يفيد فيما إذا كانت الأعلام مذكورة في بعض صفحات الكتاب لا في جميعها أو أكثرها، لهذا اجتنبنا ذكر الأعلام التي وردت في أكثر الصفحات كـ«حسينعليه السلام» أو «يزيد» وكذا «محمدصلى الله عليه وآله» و «علىعليه السلام» أو «معاوية» فإن كل واحد من هذه الأسامى ذكر فى أكثر صفحات هذا الكتاب ؛ ولذا لافائدة مهمة لذكرها في الفهرست. الثـاني: إنّ بـعض الأعلام كـ«علمالهدى» أو ... وإن ذكر في بعض الصفحات بالإسم وفي بعض باللقب أو الكنية، فقد جمعناه في هذا الفهرس تحت عنوان واحد كـالإسم أو الكـنية أو اللـقب المشـهور بـه، مـثلاً: سـيدعلمالهـدىٰ، والسيدالمرتضى، والسيد، جمع كلها تحت عنوان «السيد علمالهدى»، وكذا إبن زياد، وعبيدالله بن زياد و ابنمرجانة، جمع فىالأول و هو إبن زياد، و هكذا.

❀ ❀ ❀

فهرس الأماكن

❀ ❀ ❀

فهرس المصادر

و قد نقل عن بعضها بلا واسطة و عن بعضها مع الواسطة

اسم الكتاب	المولف/الناشر
الاحتجاج	الطبرسي، من منشورات دارالنعمان
الأخبارالطوال	الدينوري، من منشورات دارالإحياء الكتب العربية
أخذ الثار	ابن نما، مطبعة الحيدرية
إبن رشد وفلسفته	فرح أنطون، إدارة الجامعة الإسكندرية
أبوالشهداء	العقّاد، من منشورات الرضي
أبو هريرة	شرف الدين، من منشورات أنصاريان
الأربعين	الشيخ البهائي، دارالثقلين
الإرشاد	الشيخ المفيد مؤسسه آل البيت
الاستيعاب	ابن عبد البر، دارالكتب العلمية
أُسد الغابة	ابن الاثير من منشورات اسماعيليان
الإصابة	ابن حجر، من منشورات دارالكتب العلمية
أضواء على السنة النبويّة	محمود أبو ريه، دارالكتب العلمية
الأعلام	الزركلي، من منشورات دارالعلم
أعيان الشيعة	السيد محسن الأمين، دارالتعارف
الأغاني	أبو الفرج الإصفهاني، دارالكتب العلمية
الأمالى	الشيخ المفيد، من منشورات جماعة المدرسين

الإمامة والسياسة — إبن قتيبة، من منشورات الرضى
الإمام عليّ — جورج جرداق، دارالرسالة
إكمال الدين — الشيخ الصدوق، من منشورات جماعة المدرسين
أنساب الاشراف — البلاذري، مؤسسة الاعلمى

* * *

بحار الأنوار — المجلسي، مؤسسة الوفاء
البداية والنهاية — إبن كثير، دارالكتب العلمية

* * *

تاريخ ابن خلدون — إبن خلدون، دار إحياء التراث العربى
تاريخ ابن كثير — إبن كثير، دار إحياء التراث العربى
تاريخ أبي الفداء — أبو الفداء، مطبعة السعادة
تاريخ الحسين عليه السلام — العلائلى، مكتبة التربية
تاريخ الطبري — الطبري، مؤسسة الاعلمى
تاريخ مدينة دمشق — إبن عساكر، دارالفكر
تاريخ اليعقوبي — اليعقوبي، مؤسسة اهل بيت
تحف العقول — إبن شعبة الحراني، من منشورات جماعة المدرسين
تذكرة الخواص — سبط ابن الجوزي، مكتبة نينوىٰ
ترجمة الميرزا الشيرازي — الشيخ آغابزرك، الوزارة الإرشاد الإسلامية
تفسير البيضاوي — البيضاوي، مؤسسة الأعلمى
تفسير الدرّ المنثور — السيوطي، دارالمعرفة
التفسير الكبير — الفخر الرازي، دارالفكر
تفسير المنار — محمد رشيد رضا، دارالمعرفة
تفسير الميزان — العلّامة الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامى
تلخيص الرياض — السيد علي خان المدني
تنبيه الأمة وتنزيه الملّة — النائيني، دارالتراث العربى
تنزيه الأنبياء — السيد مرتضى علم الهدى، منشورات الشريف الرضي
تهذيب التهذيب — إبن حجر العسقلاني، دارالفكر
التوحيد — الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي

* * *

الجامع الصغير	السيوطي، دارالفكر
جمهرة الخطب	أحمد زكي صفوت، مكتبة المصطفى البابي
جنّة المأوى	كاشف الغطاء، دارالأضواء
جواهر المطالب	محمدبن الدمشقي، مجمع إحياء الثقافة

* * *

الحسين	العلائلي، مكتبة التربية
حياة محمد	هيكل، دارالكتب المصريّة
حياة الشهيد المطهري	وزارة الإرشاد الإسلامية

* * *

دعائم الاسلام	قاضى نعمان المصرى، نشر دارالمعارف

* * *

سرّ العالمين	الغزالي، نشر الكتبي
السنن الكبرى	البيهقي، دارالفكر
سنن النسائي	النسائي، نشر دارالفكر
سياسة الحسين عليه السلام	كاشف الغطاء، مؤسسة في طريق الحق
سياسة الحسين عليه السلام	ماربين الألماني، مطبعة النجف
سير أعلام النبلاء	الذهبي، نشر مؤسسه الرسالة

* * *

شرح نهج البلاغة	إبن أبي الحديد، داراحياء الكتب العربية
الشيعة في الإسلام	العلّامة الطباطبائي، مؤسسة البعثة

* * *

صحيح البخاري	البخاري، دارالفكر
صحيح الترمذي	الترمذي، دارالفكر
صحيح مسلم	مسلم، دارالحديث
الصراط المستقيم	العاملى، من منشورات المكتبة المرتضوية
الصواعق المحرقة	إبن حجر المكي، مكتبة القاهرة
الصراع بين الامويين ومبادىء الإسلام	الدكتور نوري جعفر، مكتبة الزهراء

* * *

الطبقات الكبرى — إبن سعد، مكتبة الصديق

* * *

العقد الفريد — إبن عبد ربّه، دارالأندلس
عوالى اللئالى — إبن أبي جمهور، مطبعة سيدالشهداء
عيون الاخبار — إبن قتيبة، مؤسسه الأعلمى

* * *

الغدير — الأميني، دارالكتاب العربى

* * *

فتح الباري — إبن حجر العسقلاني، دارالمعرفة
الفتوح — إبن أعثم، دارالأضواء
فرائد السمطين — الحمويني، مؤسسة المحمودي
الفصول المهمّة — إبن الصباغ، مؤسسة الأعلمي
فيض القدير — المناوي، دارالكتب العلمية بيروت

* * *

الكافي — الكليني، دارالكتب الإسلامية
كامل الزيارات — إبن قولويه، مؤسسة النشر الاسلامى
الكامل في التاريخ — إبن الأثير، مؤسسة اسماعيليان
كشف الغمّة — الإربلي، دارالاضواء
كنز الفوائد — الكراجكي، دارالذخائر
كنز العمّال — المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة

* * *

اللهوف — إبن طاووس، مطبعة مهر

* * *

مثير الأحزان — إبن نما، مطبعة الحيدر، النجف
المحاضرات الإسلاميّة — الخضري، دارالمعرفة
مروج الذهب — المسعودي، دارالأندلس
المستدرك على الصحيحين — الحاكم النيسابوري، دارالمعرفة
معاني الأخبار — الشيخ الصدوق، انتشارات الاسلامى

مغنى ابن قدامة	محمّد بن قدامة، دارالكتاب العربى
المعجم الكبير	الطبراني، إحياء التراث العربي
مقاتل الطالبيين	أبو الفرج الإصفهاني، منشورات الشريف الرضي
مقتل الحسين ﷺ	الخوارزمي، مكتبة المفيد
مقدمة ابن خلدون	إبن خلدون، دار احياء التراث العربى
مستدرك نهج البلاغة	كاشف الغطاء، مكتبة الأندلس
مسكن الفؤاد	الشهيد الثاني، مؤسسة آل البيت
مسند أحمد	أحمد بن حنبل، مؤسسة اهل البيت
مسند زيد	زيد بن على بن الحسين ﷺ، دارالحياة
المسند الجامع	جماعة من المحققين
المصنّف	إبن أبي شيبة، دارالفكر
المصنّف	الصنعاني، المجلس العلمي
المناقب	الخوارزمي، مؤسسة اهل البيت
مناقب آل أبي طالب	إبن شهر آشوب، مطبعة العلمية
منهاج الكرامة	العلامة الحلّى، مكتبة الصابري
ميزان الاعتدال	الذهبى، دارالمعرفة

* * *

النجوم الزاهرة	إبن تغري بردي، دارالكتب العلمية
النزاع والتخاصم	المقريزي، القاهرة، مركز النشر الأهرام
النص و الاجتهاد	شرف الدين، نشر أبو مجتبى
نظريّة عدالة الصحابة	أحمد حسين يعقوب، شركة شمس المشرق
النهاية	إبن الأثير، مؤسسة اسماعيليان
نهضة الحسين	السيد هبةالدين الشهرستاني
نور الأبصار	الشبلنجي، دارالكتب العلمية

* * *

الوسائل	الشيخ الحرّ العاملي، دار إحياء التراث العربي
وقعة صفين	نصر بن مزاحم، مؤسسة العربية الحديثة
وقعة الطف	لوط بن يحيى (أبومخنف)، تحقيق: اليوسفي الغروي، مؤسسة النشر الإسلامي

فهرس الموضوعات

الفصل الأوّل

بنو أمية و مسألة الخلافة الإسلامية

الفصل الثّاني

تياران متضادّان في المجتمع الإسلامي

الفصل الثالث

أسباب نهضة الإمام الحسين عليه السلام

الفصل الرّابع

كيف انتصرت نهضة الإمام الحسين عليه السلام

الفصل الخامس

مدرسة الحسين عليه السلام

الفهارس التفصيلية